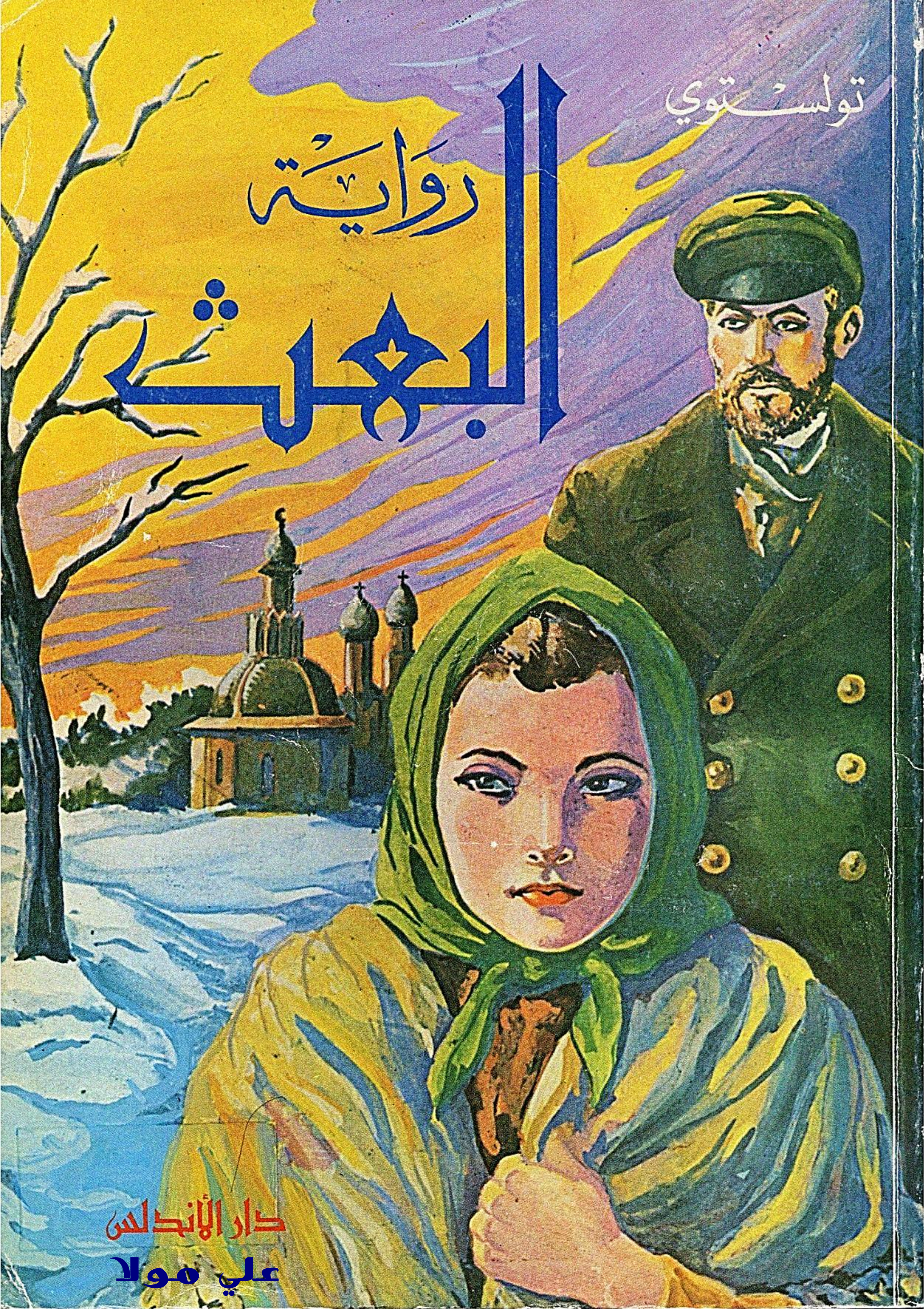

تولستوي
رواية
البعث
دار الأندلس
علي مولا



التَرْجَمة الكامِلة

تَرجَمَة

عَلي محمّد جَابر

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الثالثة
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

دار الأندلس - بيروت، لبنان
هاتف: ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب: ١١٤٥٥٣ - تلكس ٢٣٦٨٣

الفصل الأول

١

عبثاً يجهد أنفسهم ألوف وألوف من الناس يقيمون في حيز صغير من الدنيا ، في أن يجعلوا الأرض التي تقلهم غير ذات إنتاج . وعبثاً يحاولون سحق التربة لتستحيل قوة الانبات فيها . وعبثاً يسممون الهواء بالنفط والدخان . وعبثاً يقطعون الأشجار الباسقة ، ويطردون الحيوانات والطيور. فالربيع سيظل ربيعاً حتى في المدينة . وستسطع الشمس ، وسيعود النبات الى الظهور ليس في الطرقات والحدائق فحسب ، وإنما بين الحجارة المرصوفة في الشوارع ، والأشجار الباسقة في ذات الثمر وغير ذات الثمر ستظل تشمخ برؤوسها ، ناشرة في الفضاء عطر أوراقها الفضة الطرية ، وستظل براعمها تتقبل نور الشمس وتفتح له قلوبها . والعصافير والطيور ستبني أعشاشها فرحة طروبة . والنحل والذباب سيظل طنينها يملأ الفضاء عندما تلامسها من جديد حرارة الشمس . كل شيء سيمتلىء بهجة وفرحة ، أشجار وأطيار ، ذباب وأطفال ، والرجال وحدهم هم الذين سيظلون يخدع بعضهم بعضاً ، وينكل بعضهم ببعض . هؤلاء الرجال الذين لا يستمتعون في هذا الصباح الربيعي بجمال الكون الرائع الذي أبدعه الخالق لهناء وسعادة أبناء الفناء الذين يدعوهم للسلام والوحدة والمحبة . انهم لا يقدرون قدر هذه النعمة ، ولا يدركون سرها المقدس . ولا يقيمون وزناً إلا لما ابتكروه من أساليب الخداع ، والتنكيل المتبادل .

لم يكن هاماً ولا مقدساً لدى دوائر السجن الحكومي ، أن يزهو الكون بحلته الربيعية القشيبة ، ولكن كان المهم لدى السجان صحيفة من الورق تحمل أختاماً وأمراً ، وبموجبها كان ينبغي أن يمثل ذلك الصباح (٢٨ نيسان) أمام المحكمة رجل وامرأتان ليحاكموا . ولذلك جاء سجان عجوز ، عند الساعة الثامنة صباحاً الى الممشى الضيق المظلم المؤدي الى الجناح الخاص بالنساء ، فخفت لملاقاته من الجانب المقابل سجانة مريضة السمات ، ترتدي (بلوزة)

رمادية ، وثوباً أسوداً ، فسألته قائلة في حين تقدم حامل المفاتيح من أحـــد الأبواب العديدة التي تفتح على ذلك الممشى :

– أجئت تطلب (ماسلوفا) ؟

وفتح الحارس أحد الأبواب فجبهت الواقفين أمامه نفحة من هـــواء عفن خرجت من الغرفة . ثم صاح الحارس :

– الى المحكمة يا (ماسلوفا) .

وعاد فأغلق الباب ثانية ، ولبث ساكناً ينتظر خروج المرأة المطلوبة .

كانت نسمات الربيع النقية المنعشة الصادرة عن السهول القريبة تمـــلأ فناء الدار على بعد خطوات من ذلك الممشى المشحون بالهواء الثقيل العفن الرطب ، الذي يملأ نفس المقيم فيه كآبة وغماً . وحتى حامل المفاتيح الذي كان قد ألفه منذ زمن طويل كاد أن يغمى عليه أثر عودته ، وأخذه غثيان وميل للنوم في آن واحد .

كان يسمع عبر باب السجن ضوضاء وجلبة وأصـــوات شجار ، وحركة مستمرة للذهاب والإياب بأقدام حافية .

– أسرعي بالخروج . – صاح الحارس من جديد ثم فتح الباب . وما هي إلا ثوان معدودات حتى خرجت مسرعة امرأة شابة ، حسنة التكوين ، صغيرة الجسم . كانت ترتدي (جاكتة) سترة رمادية اللون فوق (بـــلوزة) وثوباً أبيض ، وتلبس بقدميها جورباً من الكتان ، وتنتعل حـــذاء ثقيلاً خاصاً بالمساجين ، وتغطي رأسها بغطاء أبيض تطل من تحته خصلات من شعر أسود قد صفف بعناية فائقة ، وتعلو وجهها الصفرة الخاصة بأولئك الذين قضوا مـــدة طويلة ضمن مكان مغلق . وكان التناقض بين بياض بشرتها ، وسواد حدقتيها يبرز بريق عينيها الجميلتين اللتين كان في احـــداهما حول خفيف . وكان سائر كيانها يفيض بالجاذبية المرحة . كانت تمشي مرفوعة الرأس ، ونهداها المكتنزان بارزان . وعندما بلغت الممشى طأطأت رأسها قليـــلاً ، ونظرت الى الحارس نظرة استعداد للقيام بما يأمرها به .

وفيما كان الحارس يهم بإعادة اغلاق الباب إذ بإمرأة عجوز مكشوفة الرأس ، بيضاء الشعر تطل منه بوجهها الشاحب ، المتجعد ، القاسي الملامح . فدار بينها وبين (كاترين) حديث خافت ، ولكن الحارس دفع بتلك الى الداخل وأغلق الباب خلفها . فارتفعت قهقهات نساء ، وابتسمت (ماسلوفا) وهي تدنو من كوة صغيرة . وفي حين أطلت العجوز ثانية من كوة أخرى سمع صوت يقول :

– حاذري ، ولا تخافي . وانكري كل شيء .

– لقد تساوى كل شيء في نظري . وأصبحت لا أهتم بشيء . هل هناك أسوأ مما أنا فيه ؟ – أجابت تقول وهي تهز برأسها .

– لا شك في أن أمراً ما سيحدث. هيا واتبعيني . – قال الحارس ساخراً .

وتوارى وجه العجوز من الكوة الصغيرة ، ولحقت (ماسلوفا) بخفيرها وهو يسير في المشى بخطى سريعة ، فهبطا سلماً حجرياً ، ومرا من أمام سجن الرجال حيث كان يرتفع الضوضاء والضجيج ، وحيث دفع الفضول عيوناً أخذت تتلصص من ثقوب أقفال الأبواب . فبلغا مكتب مدير السجن حيث كان جنديان يتقلدان البنادق ينتظران السجينة ليقوداها الى المحكمة . وكان المدير يعد صحيفة تنبعث منها رائحة التبغ فأسرع بتسليمها الى أحد الجنديين فطواها هذا ودسها في ثنية كم معطفه ، ثم أشار إشارة الى رفيقه فمشى عن يسار السجينة في حين مشى هو عن يمينها . على مثل تلك الوضعية اجتازوا المشى ، فباب السجن ، ففناء الدار ، فالباب الخارجي الكبير ، وبلغوا الشارع .

كان سائقو العربات ، والموظفون ، والعمال ، وعابرو السبيل يقفون ، وبعضهم يغمغم بقوله :

– هذه احدى عواقب السيرة السيئة .

وحتى الصبيان كانوا يكفون عن اللعب ، وفي فضولهم شيء من الرعب سرعان ما يتلاشى لوجود الجنديين حارس السجينة اللذين يحولان دون أن تمس أحداً بسوء . ووقف أحد باعة الفحم في عرض الشارع ، ودنى من السجينة

باحترام وأعطاها (كوبيك) فاحمر وجهها خجلاً ، وأطرقت برأسها الى الأرض وغمغمت بكلمات غير مفهومة .

كانت تستحث خطوها بمقدار ما تقوى عليه قدماها اللتان لم تتعودا المشي مسافات طويلة ، واللتان كانتا قد سحَّجها الحذاء الحكومي الثقيل . وكانت تراقب بمؤخر عينيها ، دون أن تلتفت يميناً أو شمالاً ، أولئك الذين حملهم الفضول على الوقوف وإطالة النظر اليها ، فترتاح نفسها اذ ترى انها محط انظار الجميع وانتباههم ، وتمضي تعب نسمات الربيع العطرة عباً ، وتملأ بها رئتيها اللتين أضر بهما هواء السجن الفاسد . وكان أمام أحد مخازن الحبوب بضع حمامات تلتقط ما تناثر من الحب على الأرض . وعندما اقتربت من أحداها لمستها بقدمها لمساً رفيقاً ، فنفرت الحمامة فلامس جناحها خدها فابتسمت (ماسلوفا) لذلك ولكنها ما لبثت ان تجهم وجهها وأطلقت زفرة عميقة اذ تذكرت واقعها الأليم .



لقد كان تاريخ حياة (ماسلوفا) عادياً جداً . كانت ابنة لامرأة قروية تعمل أمها راعية لعجول أحد سكان القصور ، وكانت هي تساعد أمها في مهمتها . وكانت تلك القروية التي لم تكن ذات بعل تضع في كل عام ولداً ، وكما يحدث غالباً في مثل هذه الحالات ، كان الأطفال يعمدون فور ولادتهم ، ثم تهجرهم أمهاتهم لأنهم جاءوا الى الدنيا دون رغبتهن — على حد تعبير الأمهات — ولأنهم مثار ازعاج لهن . وهكذا لا يلبثون أن يتواروا من عالم الأحياء .

بمثل هذه الطريقة جاء ثم اختفى الى الأبد خمسة أولاد . وكانت السادسة أنثى جاء بها متشرد . كان لا مفر لها من أن تلاقي نفس المصير الذي لقيه أخوتها الخمسة لو لم تتدخل الصدفة فتدخل الى الزريبة احدى سيدات القصر كي تعنف الخادمة لذنب ما . كانت النفساء نائمة على كومة من القش ، وبجانبها المولودة الجديدة ملقاة وهي ممتلئة صحة وحياة . فعنفت السيدة خادمتها للذنب المزعوم ، ثم لسماحها بدخول النفساء الى ذلك المكان لتضع فيه طفلها . غير انها

عندما وقع نظرها على الطفلة رق لها قلبها وأدركتها نفحة من الرحمة والحنان ، فهدأت ثورتها ، وعرضت نفسها عرابة للطفلة ، وأوصت بأن تعطي الأم مزيداً من الحليب والمال لتغذية الطفلة واعالتها . وهكذا نجت الطفلة من المصير الذي لقيه أخوتها . وأطلقت المرأتان العجوزان اسم (المستنقذة) عليها .

كانت الطفلة قد بلغت عامها الثالث عندما أصيبت أمها بمرض فماتت . ولما كانت جدتها لا تدري ما تصنعه بهـــا فقد أخذتها العجوزان لتعيش بينهما في القصر . كانت الطفلة بعينيها النجلاوين وحيويتها الدافقة موضع سرور وسلوى لمنقذتيها العجوزين . كانت صغراهما (صوفيا ايفانوفنا) وعرابة الطفلة أشد عطفاً عليها ، في حين كانت الكبرى (ماري ايفانوفنا) أكثر قسوة . كانت الأولى تعني بتهذيبها ، وتعليمها القراءة ، وتفكر في أن تتبناها ذات يوم ، في حين كانت الكبرى (ماري) تفكر في اتخاذها وصيفة . ولذا كانت تتشدد عليها في المطاليب ، وتغلظ لها القول ، وأحياناً تضربها عندما يسوء مزاجها .

تحت تأثير هاتين السلطتين المتناقضتين نشأت الطفلة بين السيدة والوصيفة .

وكانتا تطلقان عليها اسم (كاتانا) تحبباً ، ودلالة على وضعها الممتاز . كانت تخيط الثياب ، وتنظف غرف البيت ، وتمسح الصور المقدسة ، وأحياناً ترافق سيدتيها ، وتقرأ لهما لتسليهما .

لقد تقدم منها كثيرون يطلبون يدها للزواج ، ولكنها كانت ترفض ذلك دائماً ، لادراكها قسوة حياتها اذا مـــا اقترنت بعامل أو خادم ، وهي التي اعتادت حياة القصور الناعمة المريحة .

هكذا تصرمت أعوامها الثاني عشرة . وعندما كانت لا تزال في عامها السابع عشر ، جاء الى القصر أحد أقرباء العجوزين ، الذي كان قـــد جاء يصطاف، قبل ذلك عند خالتيه . فهامت به الطفلة هياماً شديداً . كان ذاك ضابطاً في الجيش ، وقد جاء يستجم فترة قصيرة ليعود مرة ثانية الى ميدان القتال ضد الاتراك . وقبل سفره بيوم واحد ، أي في اليوم الثالث لوصوله ، اغواها وغادرها في اليوم التالي بعد أن ترك في أحشائها جنيناً ، وفي يدها ورقة

من ذوات المئة روبل . وبعد ثلاثة أشهر لم يبق لدى الفتاة من شك في كونها حاملاً .

منذ ذلك التاريخ أصبح كل شيء ثقيلاً عليها . لم تعد تفكر في شيء سوى الفرار من المنزل لتغطي عارها . وكانت تقوم بخدمة سيدتيها بغير رغبة وكيفما اتفق . ولم يطل الأمر بالعانستين حتى تبينتا حقيقة وضعها ، فأنبتها (ماري ايفانوفنا) مراراً على فعلتها وأخيراً اتفق الاختان على انه « يجب أن تنفصل عنهن » ومعنى ذلك وجوب طردها .

وعندما أصبحت الفتاة منبوذة دخلت في خدمة أحـــد ضباط الشرطة كوصيفة . ولم تدم خدمتها له غير ثلاثة أشهر لأن سيدها الضابط الذي كان يناهز الخمسين من عمره ، بدأ يلاحقها ويراودها عن نفسها . وذات يوم أحب أن يكون جريئاً معها إلا أنها كانت أشد جرأة منه فوصفته بالأحمق ، وضربته على صدره ضربة ألقته على ظهره . وطبيعي أن تطرد من البيت بدعوى انها شرسة وقحة . وكان قد أصبح من العسير عليها أن تبحث عن عمل جديد لأن أيام الوضع كانت قد اقتربت فألجأتها الحاجة للجوء لاحدى القرويات التي كانت تبيع خمراً ، وتقوم في بعض الأحايين بأعمال القابلة وأقامت عندها .

وجاء الوضع هيناً ، وقليل الآلام . ولكن لما كانت القابلة قد أسعفت قبل قليل امرأة غيرها مريضة فقد نقلت اليهـــا عدوى حمى النفاس . أما المولود الجديد فقد نقل الى المستشفى حيث مات بمشهد من المرأة التي نقلته .

كان كل ما تملكه (كاتانا) من الثروة مئة وسبعة وعشرون روبلاً . مئة منها أعطاها إياها الضابط الذي اغواها ، وسبعة وعشرون روبلاً حصلت عليها من عملها . وقد تبخر كل ما كان لديها ، ولم يبق معها عندما خرجت من منزل القابلة سوى ستة روبلات لا غير .

لقد تقاضتها القابلة أربعين روبلاً بدل اقامتها شهرين في بيتها ، واحتالت عليها فاخذت أربعين أخرى بدعوى انها تريد أن تشتري لها عجلة ، وأخذت خمسة وعشرين غيرها بدل نقل الطفل الى المستشفى ، ولم تعلم (كاتانا) كيف

أنفق الباقي . وكانت قد تحسنت صحتها ، فرأت نفسها بحاجة للبحث عن عمل جديد فدخلت في خدمة أحد خفراء الاحراج .

ولم يطل الأمر بهذا الخفير ، الذي كان متزوجاً ، ان جد في مطاردتها بعد قليل من دخولها المنزل كضابط الشرطة ، فأحبت أن تتفادى مأزقـاً معه محافظة منها على عملها ، غير أنه كان خبيثاً ماهر وكان « سيدها » وبوسعه أن يتصرف بها كما يهوى . وهكذا فقد تمكن بعد ملاحقة طويلة أن يخلو بها في مكان ما ، وأن تكون له . ولم تلبث الزوجة أن ارتابت بهما ، وفي أحـد الأيام فاجأتهما في خلوة فانهالت بالضرب على (كاتانا) حتى سال دمها ، وطردتها من المنزل دون أن تدفع لها أجرها الشهري على الأقل .

وذهبت (كاتانا) الى المدينة لمنزل احدى قريباتها المتزوجة من رجل كان فيما مضى يعمل مجلداً للكتب وقد أحرز من قبل وضعية حسنة ، ولكنه بعد أن انفض عنه أكـثر زبائنه أدمن الخمر ، وأصبح ينفق في الحانة سائر ما تصل اليه يده .

وكانت زوجته تملك حانوتاً صغيراً لكي الثياب وتنظيفها تنفق من دخله الضئيل على نفسها وأولادها ، وعلى السكير أيضاً . فعرضت هذه على قريبتها (كاتانا) أن تعلمها المهنة . غير ان هذه رفضت هذا العرض بعد أن رأت سوء حال العاملات اللواتي يعملن عندها . وذهبت الى أحد مكاتب التوظيف تطلب عملاً في أحد البيوت . فكان لها ما أرادت عند أرمـلة ذات ولدين . وبعد أسبوعين من دخولها البيت ، تظاهر الابن الأكبر بأنه نسي كتبه كي يلاحق (كاتانا) وكان لا يزال صبياً وطالباً في المدرسة . ولما أحست والدته بذلك ألقت اللوم عليها وسرحتها من الخدمة .

ولم يكن من السهل إيجاد عمل جديد لها . وفي أحد الأيام رأت سيدة في مكتب التوظيف ، ترتدي ثياباً ثمينة ، ومجوهرات فطلبت هذه منها أن تزورها في منزلها بعد أن علمت بوضعها وأعطتها عنوان المنزل وكان ان قامت بهـذه الزيارة .

وأحسنت السيدة استقبالها . وقدمت لها خمراً وحلوى وأبقتها عندها حتى المساء . وجاء زائر الى البيت وكان طويل القامة ذا لمة كثة ولحية رمادية فجلس من فـــوره بجانبها وأخذ يمازحها . فنادته ربة البيت الى غرفة مجاورة فسمعتها (كاتانا) تقول له :

– انها ثمرة غضة طازجة . لقد وصلت حديثاً من الريف .

ثم دعتها هي وقالت لها ان ذاك السيد كان كاتباً كبيراً وواسع الثراء ، وأنه سيهبها مـــا شاءت اذا هي عرفت كيف تسره . وخرج الكاتب مسروراً ، فنفحها بخمسة وعشرين روبلاً ، ووعدها بأن يعود قريباً .

وسرعان ما تبخرت تلك الدراهم . إذ أعطت (كاتانا) لخالتها قسماً منها بدل بقائها تلك المدة في بيتها ، والباقي اشترت به ألبسة وأدوات زينة. وزارها الكاتب الكبير بعد أيام ، وأعطاها خمسة وعشرين روبلاً اخرى وطلب منها ان تستأجر غرفة مؤثثة .

وفي المـــنزل الذي اكترت فيه الغرفة المؤثثة ، أقامت (كاتانا) صلات مع أحد ساكنيه وهو شاب جريء وعامل في أحد المتاجر . ولم تلبث الصلات أن تطورت واستحالت هياماً فحملتها سذاجتها على أن تبوح بذلك للكاتب الكبير فهجرها على الفور. ونسيها الفتى أيضاً عندما لمحت له بالزواج. ولعله كان أجدى لها لو استطاعت البقاء في تلك الغرفة وحدها ، ولكنها علمت ان القانون لا يسمح إلا للواتي يحصلن على إذن خاص ويخضعن للمراقبة الصحية .

وعادت (كاتانا) مرة اخرى لبيت خالتها . وإذ رأتها هذه بثيابها الأنيقة والفراء الثمين لم تجرأ أن تعرض عليها العمل في حانوتها مرة اخرى ، إذ حسبتها قد أصبحت أعلى منزلة وأرفع شأناً . أضف الى ذلك أنها هي أيضاً لم تعد تنظر بعين الارتياح لغسل الثياب وكيها . وترى تلك المهنة القليلة الجدوى الكثيرة التعب حرية بالعطف والازدراء . غير انهـــا عندما استحال عليها إيجاد كنف تستظله ، وعصفت بها الحاجة الملحة ، تصيدتها حبائل امرأة وضيعة كان عملها تصيد الفتيات الغريرات لتلقي بهن في سوق الدعارة .

كانت (كاتانا) قد تعودت التدخين منذ مدة طويلة ، وعندما تعرفت على عامل المحـــل التجاري علمها معاقرة الخمر لا لأنه كان سائغاً في حلقها شهياً على نفسها فحسب ، وانما لأنه كان يوفر لها ملهاة آنية ويسكت صوت ضميرها ، ذلك لأنها عندما لا يكون الخمر قد خدر حواسها، كانت تظل ضجرة، ويستحوذ عليها الخجل . ودعتها القوادة الى الغداء ، وعندما لعبت الخمرة برأسها عرضت عليها ان تدخلها أحد البيوت العامة الفخمة أفخم ما في المدينة ، وزينت لهـــا مباهج وامتيازات الحياة المترفة الناعمة التي تعرضها عليها . كان على (كاتانا) ان تختار بين مهنة الخادمة المهينة ، مع ما فيها من التعرض الأكيد لنزوات الرجال ، وامتهان البغاء السري القليل الفائدة ، وبين وضعية البغي المجازة الهادئة الجزيلة الفائدة . وبديهي ان تختار الثانية، إذ حسبت انها بذلك تنتقم لنفسها من الأمير الذي أغواها ، ومن عامل المحل التجاري ومن سائر الرجال الذين كانت حاقدة عليهم .

غير ان السبب الأقوى ، والذي كان له الأثر الأكبر في اقناعها هو قـــول القوادة لها ان بوسعها اختيار الثياب التي ترغبها من الحرير والدمقس والمخمـــل وثياب السهرات والرقص ، التي تكشف عن الصدر والظهر والذراعين. وعندما ابصرت (كاتانا) نفسها لأول مرة بثوبها الحريري الأصفر الفاتح، المحلى باطارات من المخمل الأسود ، المكشوف الصدر والظهر والذراعين ، عندها امضت عقد الاتفاق وسرعان ما استدعت المقاولة عربة حملتها بها الى أشهر محل في العاصمة محل (كارولينا البرتا روزانوف) .

وهنا بدأت (ماسلوفا) حياة جديدة ، حياة على هامش الشرائع السماوية والانسانية ، تلك الحياة التي يحياها عدد كبير من المنكودات الطالع ولا نقول بترخيص من سلطات شرعية تدعي انها تنشد الخير العام ، وانما نقول في ظـــل حمايتها الحقيقية . حياة وضيعة مرذولة سرعان ما تقود صاحبها ، بعد ان يقاسي آلاماً مبرحة هائلة ، الى هرم مبكر فموت ذريـع .

كانت تقضي أكـــثر يومها نائمة نوماً ثقيلاً ، بعد مجهود ليلة كاملة . وتستيقظ حـــوالي الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الظهر متعبة الحواس ، فتتناول قليلاً من

القهـــوة واملاح (سلتز) ثم تقبل تطوف في الحجرات وليس ما يسترها سوى قميص طويل أو قصير ، وتطل على الشارع من وراء قضبان النوافذ الحديدية . ثم يأتي الحمام وشد الخصر بمشد ضيق ، واختيار الثوب ، وجدل مع صاحبة المحل أو مع بقية النسوة، وحمرة الخدود، وتكحيل الحواجب فالعشاء الدسم السخي، فثوب الحرير الفاتح اللون الذي يدع نصف الجسم عارياً . وبعد ذلك فالقاعة الكبيرة الحافلة بالأثاث الثمين ، المضاءة بانوار باهرة ، فاستقبال الزبائن . وتبدأ الاشارات فالرقص ، فالحلوى ، فالخمر ، فالتبغ ، فالمساومات ، مع فتيان ، وبالغين ، مراهقين ، وشيوخ على حافة القبر ، عزاب ، ومتزوجين ، عسكريين وتجار، مع تتر وأرمن، سكارى، وغير سكارى، أغنياء وفقراء، مرضى وأصحاء، اجلاف ومهذبين ، موظفين ، وطلاب وصبية ، وباختصار مع اناس من مختلف الطبقات والاعمار والطباع . صراخ ومزاح ، ضحك وموسيقى ، وتبغ وخمر ، خمر وتبغ ، من أول الليل حتى مطلع الفجر حيث يبدأ النوم الثقيل . وهكذا دواليك على مر أيام الأسبوع، منذ الأول حتى الأخير. ثم تأتي في نهاية كل اسبوع الزيارة للطبيب التي يفرضها القانون، التي هي أشبه باستعراض يظهر فيه الموظفون والأطباء احتراماً لمناصبهم وتشدداً في المحافظة على السلامـــة العامة ، ولكنهم غالباً ما يتلذذون بامتهان الشعور بالكرامة الذي تحفظ الطبيعة عن طريقه ليس النوع الانساني فحسب وانما العجماوات أيضاً . استعراض حقيقي لنسوة يعطى لهن بعده ترخيص بمزاولة عملهن مدة اسبوع آخر . ثم تعود الحالة سيرتها الأولى صيفاً وشتاء ، ربيعاً وخريفاً ، في الأعياد وغير الأعياد .

على مثل ذلك أمضت (ماسلوفا) سبعة أعوام ، تنقلت خلالها بين محلين اثنين . وذهبت مرة واحدة الى المستشفى . وفي العام السابع، وكانت قد بلغت السادسة والعشرين من عمرها وقعت الحادثة التي استوجبت توقيفها وإحالتها الى المحكمة بعد سجن احتياطي استطال ستة أشهر بين اللصوص والقتلة .

٣

عندما كانت (ماسلوفا) تحبس في قاعة صغيرة من جناح المحكمة ، وقـــد

خلعت حذاءها الثقيل الذي آذى قدميها وهي في طريقها من السجن الى المحكمة، كان الأمير (ديمتري ايفان نيكليندوف) ذاك الذي أغواها من قبل ، يستيقظ في فراشه الوثير الذي يعلوه غطاء من الريش .

وجلس في فراشه فبدا قميص نومه الجميل المستورد من هولندا، وأخذ يستعرض في ذاكرته ، وهو يدخن لفافة تبغ ، ما قام به من الأعمال في يومه المنصرم ، وما يتوجب عليه القيام به في يومه المقبل .

تذكر السهرة التي قضاها في منزل آل (غورتشاكين) الواسعي الثراء الجزيلي الاعتبار ، الذين يتقول الناس عنه أنه سيتزوج من ابنتهم . وطرح لفافة التبغ ومد يده الى علبة من الفضة ليتناول منها لفافة اخرى ، ولكنه غير رأيه فجأة في اللحظة الأخيرة ، ونهض من فراشه ، ولبس حذاءه ، وارتدى ثوباً أنيقاً ومضى بخطى وئيدة ، ولكنها قوية ومليئة بالحيوية باتجاه المغسلة التي كانت بجانب غرفة النوم، حيث شرع ينظف أسنانه بمسحوق خاص، وتمضمض باكسير عطر ، ثم تقدم من مغسلة من المرمر حيث غسل يديه جيداً مبدياً عناية فائقة باظافره الطويلة ، ثم فتح صنبور الماء بأقصى قوته وغسل وجهه ورقبته ، ثم انتقل الى غرفة اخرى حيث كان رشاش الماء، فوقف تحته يبترد بمائه . ثم نشف جسمه الضخم العضلات ، مع ميل للسمنة ، بمنشفة اسفنجية ، واستبدل قميصه، واحتذى حذاء لماعاً كصفحة المرآة ، ثم جلس أمام المرآة يمشط لحيته السوداء وشعره الفاتح .

كانت سائر مقتنياته من ثياب بيضاء ، وربطة عنق ، ودبابيس ، وأزرار ، كلها من نوع جيد ممتاز يجنح للبساطة والألوان الزاهية ، ولكنها مرتفعة الثمن .

وطفق يرتدي ثيابه بهدوء ، ثم مضى نحو غرفة الطعام التي كانت عبارة عن قاعة كبيرة ، قضى ثلاثة رجال في صقل أرضها يوماً كاملاً واقتضتهم جهداً كبيراً . كانت تحتوي على (بوفه) من الخشب ومائدة قوائمها على شكل مخالب السباع .

كان على المائدة المغطاة بغطاء نظيف وثمين ، ومكوي ، ركوة من الفضة

ملأى بالقهوة تفوح منها رائحة شهية ، وإناء للسكر من الفضة أيضاً ، وقطعة من الزبدة ، وسلة صغيرة تحتوي على خبز وبسكوت .

والى جانب ذلك كان يوجد بريد الصباح ، رسائل ، وصحف ، وعدد من (مجلة العالمين) .

وفيما كان (نيكلينندوف) يهم بفض الرسائل جاءت امرأة طاعنة في السن ترتدي ثياباً سوداء ، وعلى رأسها غطاء أبيض . كانت تلك (اغربينا بتروفنا) وصيفـــة الأميرة والدة (نيكلينندوف) التي توفيت قبل قليل . وقد ظلت (اغربينا) بعد وفاة سيدتها تعمل كقيمة على منزل ولدها .

كانت (اغربينا) قد رافقت الأميرة في عدة رحلات الى الخارج فهي لذلك تبدو ، من حيث تصرفاتها، شبيهة بسيدة كبيرة. لقد شبت وترعرعت في منزل آل (نيكلينندوف) وعرفت الأمير منذ كان طفلاً ينادونه بصيغ التحبب .

– نهارك سعيد يا (ديمتري ايفان) .

– نهارك سعيد يا (اغربينا بتروفنا) هل من جديد ؟

– رسالة جاءت تحملها وصيفة آل (غورتشاكين) وهي ما زالت تنتظر في مخدعي . – قالت (اغربينا) وهي تقـــدم له الرسالة ، وقد ارتسمت بسمة خبيثة على شفتيها .

– حسن . – أجاب (ديمتري) وهو يتناول الرسالة ، ولكنه امتعض عندما تبين ابتسامة (اغربينا) التي كانت تعني ان قيمة المنزل تحسب ان سيدها ينوي الزواج من ابنة آل (غورتشاكين) التي بعثت بهذه الرسالة .

– فلم يرقه ذلك .

– ابلغي الوصيفة أن تنتظر .

وخرجت (اغربينا) ، ولكن بعد أن أصلحت أشياء رأتها موضوعة على بعض أثاث المنزل بشكل لا يرضيها .

وفض (نيكلينندوف) الغلاف المعطر وأخرج منه رسالة غير متساوية السطور مكتوبة على ورق ممتاز وبأحرف انكليزية . وكان هذا نصها : « عملا

بما أخذت به نفسي وذلك بأن أكون لـــك بمثابة « مفكرة » أقول لك أنه يترتب عليك أن تحضر الجلسة هذا اليوم (٢٨ نيسان) ، وأنه لذلك يستحيل عليك الذهاب معنـــا نحن و (كولوزوف) ، لتزور الشرفة (ز) كما سبق ووعدت بتسرعك المعهود نهار أمس ، اللهم الا اذا كنت مستعداً لدفع غرامة قدرها (٣٠٠) روبل اذا ما تغيبت عن جلسة مجلس المحلفين .

« لقد تذكرت هذا ليلة أمس بعد أن خرجت من البيت . ولذا لا تنسى ذلك . التوقيع : الأميرة م غورتشاكين » .

وقرأ الأمير في الصفحة التي تليها ما يلي :

« لقد كلفتني أمي أن أنقل اليك أن مكانك على المائدة سيظل محفوظاً لك حتى الليل . على كل حال تعال متى تهيأ لك ذلك . التوقيع : م . ك » .

كانت تلك الرسالة إمتداداً لملاحقـــة الأميرة (غورتشاكين) للأمير (نيكليندوف) التي بدأتهـــا قبل شهرين . وهي الآن تخشى أن يتملص من الشباك التي تزيدها يوماً عن يوم كثافة حوله .

لقد كان لدى الأمير (نيكليندوف) — عدا عن التردد المـــألوف لدى الرجال عندما يبلغون مرحلة معينة من العمر ، الفوا خلالها حياة الملذات الرخيصة — سبب آخر يحول دون توريط نفسه بالتزامات حتى في حـــال تصميمه على الزواج من الأميرة . وطبيعي ان هذا السبب ليس كونه منذ ثمانية أعوام ، قد أغوى (كاتانا) ثم تخلى عنها ، فان تفكيراً كهذا كان يثير امتعاضه . كما انه لم يكن يتصور بحال من الأحوال ، أن يكون في ذلك ما يحول دون زواجه من الأميرة .

لقد كان السبب الحقيقي علاقات غرامية مريبة كثيراً ما زعم انه راغب في وضع حد لها ، ولكنه في الواقع كان شديد الحرص عليها .

كان (نيكليندوف) حيياً بطبعه وخاصة ازاء النساء . وكان ذلك الخجل حافزاً لرغبة (ماري فاسيليفنا) في السيطرة عليه . فاحاطته بعلاقات كان يزداد انغماساً فيها يوماً عن يوم ، كما يزداد شعوراً بثقـــل وطأتها عليه . لقد

انساقت نفسه في البداية مع وسائل الاغراء ، حتى أصبح لا يجرؤ على قطع صلاته بخليلته الا بموافقتها ، لشعوره بمسؤوليته وكانت هي أبعد ما تكون عن ابداء مثل هذه الموافقة . بل انها تجاوزت ذلك الى التهديد بالانتحار اذا ما هجرها بعد تضحياتها في سبيله .

وفي صباح ذلك اليوم حمل اليه البريد رسالة من زوج خليلته ، وكان أحد (ماريشالات النبلاء) . فعرف الخط والطابع ، واحمر وجهه خجلاً ، وعاودته حيويته الدافقة التي طالما وافته عندما يحس بدنو الخطر .

وسرعان ما زايله انفعاله أثر اطلاعه على مضمون الرسالة .

لقد كتب له زوج (ماري فاسيليفنا) يخبره أن المجلس الذي يرأسه سيجتمع اجتماعاً غير عادي في أواخر شهر أيار ، ويطلب اليه ألا يتخلف عن حضور هذا الاجتماع « ليقف بجانبه » لأنهم سيناقشون قضيتين هامتين : الأولى قضية المدارس ، والثانية قضية الطرق ، وكانت كلتاهما تلاقيان معارضة شديدة من الرجعيين .

كان ذلك المارشال ميالاً بطبعه لفئة الاحرار . وكان يناهض بالاشتراك مع بعض التقدميين ، أعمال الرجعيين التي تعاظم شأنهـــا في عهد القيصر نيقولا الثالث ، وكانت هذه المناهضة تستنفد سائر جهوده ووقته ، حتى لم يبق لديه وقت يلاحظ فيه خيانة زوجته له .

وسرعان ما تذكر (نيكليندوف) ما لقيه من الغم نتيجة لهذه العلاقات . وتذكر أيضاً أنه في احدى المناسبات تصور انه من الجائز أن يكتشف زوج خليلته خيانتها له ، وفي مثل الحالة قد يكون من المرجح أن يطلبه الزوج للمبارزة ، كذلك تذكر انه قرر آنئذ أن يقبل المبارزة ولكنه بدلاً من اطلاقه النار على خصمه ، فسيطلقه في الهواء . وتذكر الموقف الرهيب الذي وقفته خليلته حين لمح لها بفصم عرى علاقاته بها ، اذ اندفعت بعامل اليأس والقنوط نحو البحيرة لتلقي نفسها بها .

— لا سبيل لي الى أي شيء ، حتى ولا الى الذهاب لرؤيتها ما دمت لم اتلق جوابها . — كان يقول في نفسه .

كان قبل ثمانية أيام قد بعث برسالة حازمة الى خليلته يعترف فيها بخطئه ، ويعرض فيها استعداده لكل تضحية تكفيراً عنه ، وقال في نهاية خطابه ان تلك العلاقات ينبغي أن يوضع حد لها حفاظاً على مصلحتها هي .

غير أن الجواب المنتظر لم يرد . وبدا له أن ذلك بشير خير فلو لم تكن موافقة على فصم عرى هذه العلاقات اذن لإجابته في الحال ، أو لأسرعت اليه كما فعلت غير مرة .

لقد قيل له ان ثمة ضابطاً يلاحق (ماري فاسيليفنا) بغرامه . وعلى الرغم من أن وجود مزاحم له قد أثار غيرته وحفيظته ، فقد رأى في ذلك خير سبيل للخلاص من تلك الورطة التي طالما أثقلت ضميره .

وكان بين الرسائل التي تلقاها (نيكليندوف) رسالة من مدير امـــلاك والدته ، يطلب اليه فيها الحضور الى المزارع لاجراء معاملات حصر الإرث ، ولتقرير الطريقة التي ستدار بموجبها هذه الأملاك ، أيريد ابقاءها كما كانت على عهد والدته أم يرغب في استثمارها لحسابه الخاص . وكان من رأي المدير ان استثمارها بلا وسيط اجزل فائدة . ثم يعتذر المدير لتأخره عن إرسال مبلغ الثلاثة آلاف روبل للأمير قائلاً أنه سيبعثها في البريد المقبل، ويعزو هذا التأخير لتمتع المزارعين أو لعدم استطاعتهم دفع ما عليهم . وكثيراً ما اضطروا للجوء الى القوة لجباية المال منهم .

وكان أثر تلك الرسالة على نفسه محزناً ومفرحاً في آن واحد .

كان يسره أن يكون مالكاً لملكية واسعة كهذه . وكان من جهة أخرى لا يزال يذكر انه في شبابه كان قد حمله دافع الشباب النبيل ، متأثراً بنظريات (سبنسر) و (هنريش جورج) على الا يكتفي بالتفكير والتصريح والكتابة بأن الأرض ينبغي ألا تكون ملكاً فردياً ، وانه ينبغي عليه أن يقرن الأقوال بالفعال ولذا وزع على القرويين سائر ما ورثه عن أبيه من أملاك .

والآن وقد جعلت منه وفاة أمه ملاكاً كبيراً فان عليه أن يختار بين نوعين من الحياة ، فاما أن يتنازل عن المئتي هكتار من الأراضي التي ورثها عن أمه ،

وأما أن يضع يده عليها ، وبذلك يكون قد أعلن صراحة ، وبشكل جدي ان تلك المثل التي طالما نادى بها من قبل كانت زائفة خادعة . فأما النوع الأول فقد كان من الصعب اختياره ، لأن تلك الملكية كانت كل مـــا بقي له من ثروة . وأصبحت تنقصه الجرأة والشجاعة للعـــودة الى صفوف الجيش بعدما ألفه من حياة البطالة والرفاهية. وفضلاً عن ذلك فقد تكون تلك تضحية لا فائدة منها، إذ كان قـــد فقد اقتناع الشباب وارادته . ومع ذلك فقد كان يرى في تنكره لتلك المثل النزيهة الجوادة ، التي كانت فيا مضى موضع فخره واعتزازه، مثار هم وغم . لذا كانت رسالة المدير مبعث بلبلة واضطراب .

٤

دخل الأمير الى مكتبه بعد فراغه من تناول طعام الافطار ليراجع مذكرة الدعوة التي وردته من المحكمة ، وليتأكد من الموعد المضروب لحضوره اليها ، وليجيب على رسالة الأميرة . وقبل أن يدخل المكتب مر بطريقه على غرفة كان يتخذها مكاناً للرسم ، أيام كان يحاول أن يكون رساماً ، حيث كان لا يزال على المنصة لوحة غير تامة . فأعادت الى ذاكرته تلك اللوحة ومسوداتها المعلقة على الحائط عدم أهليته لان يكون رساماً ناجحاً ، وكان يعزو ذلك لافراط ذوقه الفني في الدقة . وعلى أي حال ، فان ذلك لم يكن ليسره .

لقد استقال من الجيش منذ سبعة أعوام لتوهمه ان له موهبة الرسام . وها هوذا الآن يرى نفسه مجبراً على الاعتراف بخطئه في الاستهانة ببقية المهن كما فعل من قبل. فألقى نظرة عجلى فياضة بالقلق على ما في تلك الغرفة من مظاهر الترف وعاد فدخل مكتبه وهو منقبض النفس .

كانت غرفة المكتب واسعة فسيحة ، وأنيقة محتوية على كافة أسباب الراحة الممكنة . فتقدم (نيكليندوف) من مكتب فخم وتناول مذكرة الدعوة التي تدعوه لحضور الجلسة الساعة الحادية عشرة ، ثم تناول ورقة وكتب الى الأميرة يشكرها فيها على الدعوة التي وجهتها له ، مؤكداً لها أنه سيبذل قصارى جهده كي لا يتخلف عن الحضور على العشاء . غير أنه ما لبث ان مزقها لأنه رأى

فيهـــا زيادة في التورط . ثم كتب اخرى الا أنه وجدها جافة ومهينة ، ولذا مزقها بعصبية شديدة ، ثم قرع الجرس ، فأطل خادم مزين اللحية جاد الملامح يأتزر بمئزر رمادي اللون .

– حسناً تصنع اذا أبلغت الحوذي أن يعد العربة .

– بالحال يا صاحب السمو .

– وأبلغ وصيفة آل (غورتشاكين) التي تنتظر انني أشكرهم وسأحاول الا أتخلف عن الحضور .

– حسن يا صاحب السمو .

– ليست تلك طريقة مهذبة . ولكني لا أستطيع الكتابة هذا ما سأخبرهم به . – كان يخاطب نفسه بذلك وهو في طريقه الى مخدعه لارتداء ثيابه .

كانت العربة الفخمة التي كان يستقلها عادة ، والتي كانت دواليبها مؤطرة باطارات من المطاط ، تنتظره عندما وصل الى الباب الخارجي .

– عندما وصلت ليلة أمس الى منزل الأمير (غورتشاكين) أكد لي خادمهم أن سموكم قد خرجتم . – قال له الحوذي وقد استدار نصف دورة فبدا عنقه النحاسي اللون القوي العضلات .

– حتى سائقو العربات على علم بعلاقاتي بآل (غورتشاكين) .

– قال (نيكليندوف) في نفسه ، وقد عاودته ذكرى المشكلة التي شغلت تفكيره في الأيام الأخيرة وهي: هل يجب عليه أن يتزوج من ابنة (غورتشاكين) أم لا .

كان يحدوه للتفكير بالزواج أمران : أولهما امكانية العيش عيشة راضية ، وثانيهما الأمل في أن يحمل الجو العائلي والاولاد الى حياته التي تبدو سخيفة جوفاء ، اهدافاً نبيلة . غير أن اعتبارات أخرى كانت تهيب به للإقلاع عن فكرة الزواج . أولها الاشفاق من فقد الحرية التي يتمتع بها عادة العوانس القساة القلوب ، والحذر مما عند سائر النساء من خفايا في الزوايا . كذلك كان ثمة اعتبارات أخرى تقف في جانب زواجه من (مارغريت غورتشاكين) ، وهي

كونها تنتمي لعائلة طيبة ، وانها في سائر تصرفاتها ، في ملبسها ، وفي حديثها ، وفي مشيتها ، وحتى في ضحكها ، كانت تتحلى بميزات فطرية تسمو بها فوق كل عادي .

ذلك هو الوصف الصحيح الذي كان الأمير يراه حرياً بتلك الصفات التي كانت دائماً موضع تقديره . وعلاوة على ذلك فقد كانت الأميرة تميزه عن غيره من الناس وهذا يعني انها كانت تفهمه وكان ذلك في نظره خير دليـــل على ما تتحلى به من مواهب .

كذلك كان ثمة اعتبارات خاصة تقف ضد زواجه من (مرغريت) . منها ان النساء كثيرات وبوسعه الزواج ممن هي اكفاء منها وأكثر مميزات . وفوق ذلك ، فهي قد بلغت السابعة والعشرين من العمر ومن الطبيعي أن تكون قد أحبت غيره . وهذا ما لا يطيق احتماله . لم يكن يرضي غروره أن تحب (مرغريت) رجلاً غيره حتى ولو كان في الماضي ، وحتى لو كان ليس بوسعها التنبؤ بأن شخصاً ما يدعى (نيكلبندوف) سيقف ذات يوم في طريق حياتها .

هكذا كانت الأفكار تتنازع (نيكلبندوف) ما بين مؤيد ومقبح أمر زواجه . حتى لقد كان يضحك في سره عندما يقارن بين وضعيته وبين وضعية حمارة (بوريدان) التي لم تكن تدري بأي وجـــه من وجهي أوراق نبات الفصفصة تبدأ الأكل .

– قبل أن أعلم على ماذا عولت (ماري فاسيليفنا) ، وقبل أن أضع حداً لعلاقتي بها لا استطيع أن أقرر شيئاً ما – كان يقول في نفسه .

وكانت فترة الانتظار هذه سارة له .

– على كل حال سأفكر في هذا في المستقبل . – قال في نفسه ثم أضاف يقول بينما كانت العربة تقف أمام المحكمة بغير جلبة – الآن علي أن أؤدي المهمة التي أوكلها الى المجتمع بملء الدقة والأمانة التي تميزت بها أعمالي ، بقطع النظر عن ان تلك الجلسات تتميز أحياناً بأهميتها وفائدتها .

ثم دخل القاعة .

٥

كانت الحركة شديدة في رواق المحكمة . وكان الحجاب يهرعون من جانب لآخر وهم يحملون اضبارات ورسائل . خدم ومحامون ، وموظفون يسرعون الخطى من جهة لأخرى . وكان المتداعون والمتهمون ، يقفون بجانب الحيطان ، أو يتحلقون جلوساً وقد أمضهم الضجر .

– أهذه محكمة المنطقة ؟ – قال (نيكليندوف) يسأل أحد الحجاب .

– أيها تعني المدنية أم الجزائية ؟

– أنا أحد المحلفين .

– اذن اذهب الى قاعة المحاكمات . اذهب عن اليمين ثم الى اليسار ، في الباب الثاني .

سار (نيكليندوف) بالاتجاه الذي دله عليه الحاجب . كان على البـــاب رجلان ، أحدهما تاجر ذو ملامح هادئة ، ويبدو ان غذاءه كان سخياً بدليل ما يظهر على سماته من المرح ، وكان الثاني مستخدم من أصل يهودي . فتقدم (نيكليندوف) منهما ، وكانا يتحدثان عن اسعار الصوف ، وسألهما عما اذا كانت تلك غرفة المحلفين .

– بلى ، يا سيد . هذه هي . وأرى أنك احد زملائنا . – قال أحدهما بهدوء .

ثم أضاف يقول بمثل لهجته السابقة ، عندما اجابه الأمير بالإيجاب .

– سنعمل معاً . أنا (باغلاسيفو) تاجر من الدرجة الثانية . قال ذلك وهو يمد يده العريضة الى الأمير .

– مع من أتشرف بالتحدث ؟

فأعطاه الأمير اسمه ودخل الى غرفة المحلفين .

– كان والده من عداد خدمة الأمبراطور السامين .

– قال اليهودي .

– أهو غني ؟ – قال التاجر يسأل .

— أنه واسع الغنى .

كان في القاعة عشرة أشخاص من مختلف الطبقات والوضعيات . بعضهم كان جالساً والبعض الآخر كان يمشي في القاعة ذهاباً وإياباً وآخرون كان بعضهم يتعرف على بعض .

كان بين الحاضرين عسكري واحد يرتدي بزته الرسمية . وكان آخرون بثياب الحفلات . ولم يكن بينهم سوى واحد يرتدي الزي « الوطني » . وعلى الرغم من أن بعضهم كان قد ترك عمله ، ويبدو أنه كان يأسف لذلك ، فانهم كانوا جميعاً تبدو على وجوههم دلائل الإرتياح التي يولدها الاعتزاز بالمنصب الرفيع الذي جاءوا للاضطلاع بأعبائه . كانوا يتبادلون البطاقات وبعضهم كان يحاول التكهن بأسماء زملائه . وكانوا يلغطون بالحديث عن الربيع الذي حل مبكراً هذا العام ، وعن الدعوى التي سيشتركون في النظر فيها .

كان بين المحلفين الذين لم تكن لهم سابق معرفة (نيكليندوف) من سارع بتقديم نفسه اليه ، ظناً منهم ، دون شك ، ان في ذلك شرفاً كبيراً لهم ، في حين هو يراه أمراً جد طبيعي . ولو أن سائلا سأل (نيكليندوف) لماذا يرى نفسه اسمى من بقية الناس اذن تعجز عن الجواب . لم يظهر أي تفوق طيلة حياته ، كما لم يبرهن عن أي صفة غير عادية . هو يجيد التكلم بالانكليزية ، والفرنسية ، والالمانية . هو يرتدي الثياب الداخلية والخارجية وربطات العنق والدبابيس المشتراة من المحلات التجارية الهامة في المدينة . ولكن هذه أشياء يعرفها هو وحده ، ولا تقوم دليلاً على تفوقه . ومع ذلك فقد كان شديد الاقتناع من هذا التفوق ، وكان يتقبل مظاهر التكريم والاجلال من الناس كأمر واجب الأداء واخلالهم به كان يؤلم كبرياءه .

ومع ذلك فقد كان ينتظر (نيكليندوف) شيء من مثل هذا في قاعة المحلفين . كان بين هؤلاء رجل يدعى (بطرس جيراسيموف) ولم يكن (نيكليندوف) يتذكر لقبه . كان هذا فيما مضى يعمل في بيت أخته كمعلم لبناتها . وعندما أنهى علومه عين استاذاً في التجهيز . كان (نيكليندوف)

يستثقل ظله على الدوام لضحكته الصاخبة ولضعته كما كانت تقـــول أخت (نيكلينندوف) .

– كيف ؟ أنت هنا أيضاً ؟ – قال وهو يضحك ضحكته الصاخبة ، ويدنو منه . ثم أضاف – ألم يكن بوسعك أن تتوارى ؟

فاجابه (نيكلينندوف) – هذا ما لم أفعله أبداً.

– هذا ما يسمى بالجرأة الأدبية – قال (بطرس جيراسيموف) وهو يضحك ضحكة أشد صخباً ، وأضاف يقول – يبدو أننا سنتسلى بعض الوقت . عندما تجوع أو تعطش فلن تجد من يقدم لك ما تسد به رمقك أو تنقع غلتك .

فقال (نيكلينندوف) في نفسه : يبدو ان ابن الكاهن هذا يريد احتقاري . وأخذته عاصفة من الغم كما لو كان قد نعي اليه سائر أفراد عائلته ، وابتعد عنه لينضم الى جماعة كانوا قد تحلقوا حول رجل طويل القامة شديد الادعاء ، ظن أنه كان يقص عليهم أمراً هاماً .

كان يتحدث عن محاكمة جرت في المحكمة المدنية ، كما يتحدث عن شيء مألوف منه . كان يسمي المحامين المبرزين والقضاة باسمائهم والقابهم . وروى قضية أحسن أحد المحامين فيها اختيار طريقة السير في الدعوى ، فكانت النتيجة ان خسرت صاحبة الحق ، وهي امرأة عجوز ، مبلغاً ضخماً من المال دفعته للطرف الآخر . وأنهى كلامه بقوله : هذا محام عبقري .

وكان بقية رفاقه ينصتون اليه بتوقير ، فاذا ما تكلم أحدهم قاطعه هذا كما لو كان وحده العليم بهذه القضايا .

ولم تبدأ الجلسة ، على الرغم من وصول (نيكلينندوف) متأخراً ، لأن أحد القضاة ما زال متغيباً .

٦

كان الرئيس ، وهو رجل طويل القامة ، أشيب الرأس ، قد جاء مبكراً . كان متزوجاً ، وكانت زوجته تحيا حياة مضطربة مشوشة نظيره . غير ان كليهما كان يحاول ألا يعكر صفو الآخر بشيء .

كان قد زارته في العام الماضي معلمة سويسرية عند مرورها في طريقها الى سان بطرسبرج . وفي هذا الصباح تلقى منها بطاقة تخبره فيها انها تنتظره في فندق ايطاليا من الساعة الثالثة بعد الظهر حتى السادسة مساء ، ولذا فهو يرغب في أن يبدأ المحاكمة مبكراً ليفرغ منها قبل الساعة السادسة ليتسع له الوقت للقاء (بكلارا) السيدة ذات الشعر الأشقر التي أقام معها صلات في الريف خلال العام الماضي .

ودخل غرفته وأوصد الباب خلفه بالمفتاح ثم أخرج من أحد الأدراج ثقلين رياضيين وأخذ يجري عليهما عدة تمارين . فرفعهما بيديه الى ما فوق رأسه عشرين مرة ثم الى كلا الجانبين ، فالى الأمام ، والوراء ، ثم طوى ركبتيه قليلاً ثلاث مرات وهو رافع الثقلين فوق رأسه .

— لا شيء يقوي الجسم كالسباحة والتمارين الرياضية — هذا ما كان يخاطب به نفسه ، وهو يتحسس بيده اليسرى التي كان يتوهج فيها خاتم ذهبي ، عضلات ذراعه الأيمن .

وكان ينوي متابعة تمارينه لو لم يدفع أحدهم الباب عليه من الخارج فأسرع بإخفاء الثقلين وفتح الباب .

— معذرة .

ودخل الغرفة قاضي قصير القامة ، عريض المنكبين ، يضع على عينيه نظارات ذهبية ، والاستياء باد على وجهه .

— لم يحضر بعد (ماتيو نيكتينا) كعادته . — قال بخشونة .

فأجابه الرئيس قائلاً :

— هو دائماً يأتي متأخراً .

— ليس هنالك ضمير يحاسب . — قال القاضي بغيظ وهو يشعل لفافة تبغ .

كان هذا القاضي ، الشديد المحافظة على المواعيد ، قد تخاصم في الصباح مع زوجته التي جاءت تطلب منه مزيداً من المال لأنها أنفقت المعاش بكامله خلال وقت قصير ، ولما لم يلب طلبها تشاجرت معه وتوعدته قائلة : سوف لن تجد

طعاماً في البيت عند عودتك . فخرج من البيت دون أن يلبي طلبها وهو الآن يخشى أن تنفذ وعيدها . وهي التي يعلم استعدادها لكل شيء .

– ليقولوا ما طاب لهم أن يقولوا ، من أنه ينبغي على المرء أن يحيا شريفاً ، وأن يحافظ على المثل الأخلاقية . – كان يقول في سره وهو يراقب الرئيس الذي كان ممتلئاً صحة وحبوراً ، ووجهه يطفح بالبشر والارتياح ، والذي كان يصلح سالفيه بيديه البيضاوين . – هو دائماً خالي البال منشرح النفس ، وأنا في حالة ضجر مستمر .

ودخل أحد الكتبة يحمل اضبارة دعوى .

– شكراً . – قال له الرئيس وهو يشعل لفافة تبغ. ثم أضاف يقول. – أية دعوى سنناقشها الآن ؟

– أعتقد انها ستكون دعوى التسمم . قال الكاتب مظهراً اللامبالاة .

– حسن . لتكن دعوى التسمم . – قال الرئيس وهو يحسب انها ستكون بسيطة بحيث تمكنه من مغادرة المحكمة قبل الساعة الرابعة .

– ألم يحضر بعد (نيكيتا نيكيتيتش) ؟

– كلا . لم يحضر بعد .

– وهل (بريفي) موجود ؟

– بلى هو هنا . – أجاب الكاتب .

– حسن . أبلغه ، إذا رأيته إن أول الدعاوى ستكون دعوى حادث التسمم .

كان (بريفي) هذا وكيل المدعي العام الذي سيتولى جانب الادعاء ذلك النهار .

وتلاقى في الرواق مع (بريفي) . وكان مطأطأ الرأس ، محلول أزرار البزة ، يتأبط محفظة أوراق ، وهو يسير بخطى سريعة متهافتة ، وكأنه يركض ويخبط الأرض برجليه ، ويده الطليقة تؤدي حركات وإشارات .

– يريد (ميخائيل بتروفيتش) أن يعلم إذا كنت على استعداد لافتتاح الجلسة . – قال له الكاتب .

– أجل أنا مستعد . ولكن بأي الدعاوي ستبدأ ؟
– بدعوى حادث التسمم .
– حسن جداً . – أجاب وكيل النائب العام .

والواقع أنه كان يرى عكس ذلك . ولكنه لما كان قد ظل طوال الليلة الفائتة يلعب الورق مع نفر من أصدقائه ويشرب الخمر حتى الساعة الثانية صباحاً ، ثم صحب آخرين الى محل لبائعات الهوى الرخيص ، حيث كانت تعمل (ماسلوفا) منذ شهور فانه لم يذق طعم الراحة طيلة ليله ، كما لم يتسع وقته لدراسة القضايا التي سيتولى فيها طرف الادعاء . والحق أنه كان شديد الرغبة في تصفح أوراق الدعاوي ولو بصورة سريعة ، فاستغل المقرر هذه المناسبة ليشير على الرئيس بوجوب النظر أولاً في قضية التسمم .

كان (بريفي) محافظاً متشدداً ، وأرثوذكسياً فعالياً كسائر الموظفين الألمان في روسيا . وكان المقرر تحررياً أقرب لأن يكون راديكالياً . وينظر الى وكيل النيابة نظرة الكراهية ويحسده على منصبه .

– ودعوى (سكوتيزي) ؟ قال المقرر يسأل .
– لقد قلت انني لا أستطيع – أجاب وكيل النيابة – ينقصنا شهود، وهذا ما سأعلنه أمام المحكمة .
– ولكن ...
– أكرر انني لا أستطيع .

ودخل غرفة مكتبه ويده تبدي إشارات .

والواقع أن فقدان الأدلة لم يكن العامل الحقيقي للتأجيل المتواصل في قضية (سكوتيزي) وإنما كان شيء آخر . – كان وكيل النيابة يعلم ان مثل هذه الدعوى اذا نظرت في مدينة كبيرة حيث أكثرية المحلفين من المثقفين ، فانها صائرة حتماً الى الحكم بالبراءة ، ولهذا ، وبالاتفاق مع سيادة الرئيس ، فهو يرغب في إحالتها الى إحدى مدن الولاية ، حيث أكثرية المحلفين فرديون ، ومستعدون للموافقة .

وأخذ الزحام يتزايد في الرواق وتتعاظم الحركة .

كان الناس يزدحمون ، بصورة خاصة ، أمام قاعة المحاكمات المدنية ، حيث كانت تنظر الدعوى التي تحـــدث عنها السيد الذي ذكر سابقاً . وخرجت من القاعة المرأة العجوز التي جردها (المحامي العبقري) من كل حقها ليضعه في يد موكله الذي لا حق له فيه . وكان الجميع من القضاة الى المحامي والموكل على أتم اقتناع من ذلك .

كانت هذه بدينة ترتدي ثوباً أخضر اللون ، وتضـــع في قبعتها وردات ضخمة . وعندما أصبحت في الرواق ، وقفت تتحدث مع محاميها وهي تهز له يدها الضخمة .

– ماذا سيحدث الآن ؟ وما سيجد الآن ؟

كان المحامي يستمتع بمنظر وردات قبعتها ، وهو لا يصغي إليها ، إذ كان منشغل الفكر بإحدى القضايا .

وفتح باب القاعة وخرج منه (المحامي العبقري) بخطى سريعة ، ووجهه يطفح بالبشر لنجاحه . كان الفضـــل لبراعته في خروج المرأة ذات الوردات الضخمة من كل حقها ، ليفوز موكله الذي دفع له عشرة آلاف روبل ، بأكثر من مئة ألف روبل . واتجهت نحوه الأنظار ، فلما أحس بها بدا وكأنه يقول لهم : ليس لي من حاجة لإعجابكم بي يا سادتي .

ومر من أمام الجميع لم يأبه لأحد .

٧

وأخيراً جاء (نيكيتيش) . ودخل القاعة أحد الحجاب وكان نحيل الجسم ، طويل العنق ، يجر احدى رجليه جراً ، ولكنه كان شريفاً وذكياً . كان هذا الحاجب لا يستقر في منصب ، لأنه كان مدمناً سكيراً . وقـــد عين في منصبه هذا منذ ثلاثة أشهر بفضل وساطة سيدة كبيرة تعطف على زوجته ، والظاهر أن تلك الوظيفة وافقت هوى من نفسه فاحتفظ بها .

– هل كل المحلفين حاضرون ؟ – قال يسأل وقد رفع نظاراته الى عينيه .

– أظن أن قد حضر الجميع . – أجاب التاجر .
– سنرى في الحال .
وأخرج من جيبه لائحة بأسماء المحلفين ، وبدأ يقرأ ثم ينظر الى كل واحد ليتحقق من وجوده ، تارة من فوق نظاراته وتارة من ورائها .
– خ. م. (نيكيفوروف) مستشار الدولة .
– هو انا . – قال الرجل المدعي الذي كان عليماً بكل القضايا .
– (إيفان سيمينوفيتش) كورونيل سابق .
– ها أنذا . – قال ذاك الذي كان يرتدي البزة العسكرية .
– (بطرس دا كلاسيف) تاجر من الدرجة الثانية .
– موجود . وعلى أتم استعداد . – قال الرجل الطيب .
– الأمير (ديمتري إيفان نيكليندوف) ضابط في الحرس .
– هذا أنا . – أجاب الامير .
فنظر الحاجب الى الأمير من فوق نظاراته نظرة تدل على التوقير والاحترام، وأبدى حركة تدل على أنه يريد تمييزه عن سواه من المحلفين ثم مضى يواصل القراءة .
– الكابتن (جورج ديمتريفيتش دانسنكو) . (غريغوريوس ايفيموفيتش) تاجر . وهكذا حتى النهاية .
كانوا جميعاً موجودين .
– والآن أيها السادة ، تفضلوا الى القاعة – قال الحاجب بتأدب وا شار الى الباب .
فوقف الجميع وأخذوا يدخلون القاعة يوسع بعضهم الطريق للبعض الآخر تأدباً .
كانت الغرفة مستطيلة ، وكان في أقصاها منبر يصعد عليه بثلاث درجات . وكان في وسط المنبر طاولة كبيرة يعلوها غطاء أخضر اللون ، محلى بإطار أشد خضرة، وثلاث كراسي ذات مستند من الخشب المشغول. وكان يعلق في الحائط

رسم القيصر ببزة استعراض عسكرية برتبة « جنرال » ويده اليمنى على مقبض سيفه ، وإحدى رجليه تتقدم الأخرى ، والى اليمين تمثال يسوع المسيح مكللاً بإكليل من الشوك ، وصف من الكراسي مخصص للمحلفين ، وطاولة صغيرة للمحامين ، ومكتب وكيل النيابة . والى اليسار طاولة المقرر . وأمام الأماكن المعدة للنظارة كانت مقاعد المتهمين وهي ما زالت خالية . كل ذلك كان يشغل نصف القاعة التي كان يقسمها حاجز خشبي الى قسمين . وفي النصف الثاني كانت المقاعد المخصصة للنظارة ، ترتفع على شكل مدرج وتمتد حتى آخر القاعة .

كان يجلس في المقاعد الأمامية أربع نساء ورجلان يبدو انهم كانوا عمالاً . وكانوا يتحدثون بصوت خافت إجلالاً وتأثراً برهبة المكان .

وحالما دخل المحلفون الى القاعة ، وأخذوا أماكنهم ، تقدم الحاجب الى منتصف القاعة ونادى بصوت قاصف كأنما كان يريد ارهاب الحضور .

ـ المحكمة .

فهب الجميع واقفين ، وظهر القضاة الثلاثة على المنبر يتقدمهم الرئيس بسالفيه الجميلتين ، ثم القاضي ذو النظارات الذهبية والنظرات الحزينة التي كانت آنئذ أشد كآبة لأنه كان قبل دخوله القاعة قد أبلغه ابن حميه أن أخته سوف لن تعد طعاماً في البيت . ثم أضاف وهو يضحك :

ـ صبراً . سنعتاد على ارتياد المطاعم .

ـ يا للعنة ، اذا كان في ذلك ما يحمل على الضحك . ـ قال القاضي وقد ازداد غماً .

وكان آخر من دخل من القضاة القاضي (ماتيو نيكيتينش) كعادته في كل مرة . كان ذا لحية كبيرة ، ونظرات طيبة ، ويشكو من مرض الأمعاء . وكان الطبيب قد زاره في الصباح ووصف له وصفة ، وعين له أنواع الطعام ، ولذا جاء متأخراً .

كان بادي الاهتمام عندما دخل القاعة . وكان بطبعه ميالاً لتصيد المصادفات النادرة يستفتيها بأشياء يرغب في إيجاد حل لها . كان قد قرر أنه إذا كان عدد

الخطوات التي سيخطوها من الباب حتى مقعده قابلاً للقسمة على ثلاثة دون أن يترك كسوراً ، فان المآكل التي عينها له الطبيب ستكون عاملاً على شفائه ، والعكس بالعكس . وجاء عدد الخطوات ستاً وعشرين خطوة وخطا خطوة قصيرة ثم جلس في مقعده بعد أن عد السابعة والعشرين .

كان مظهر الرئيس والقضاة رائعاً جداً بياقاتهم المموهـــة بالذهب . وكانوا يشعرون بذلك . فجلسوا في مقاعدهم وكأنهم مرتبكون لرهبة مقامهم ، وغضوا من أبصارهم تواضعاً وأقبلوا ينظرون الى الطاولة التي أمامهم ، والتي كان فوقها أداة مثلثة الزوايا يجثم فوقها النسر الامبراطوري ، وعدة أقلام ، وورق أبيض وأدوات أخرى .

وجاء وكيل النيابة مسرعاً كعادته ، يتأبط حقيبته ، ودخـــل القاعة في اللحظة التي دخـــل القضاة إليها . فجلس في مقعده المعد له ، وأقبل يتصفح خلاصات أوراق الدعوى بسرعة ، مستغلاً الوقت القصـــير الذي لديه . كانت تلك هي المرة الرابعة التي يتولى فيها الاتهام . ولما كان يطمح الى المناصب العالية فقد توهم أنه من الضروري أن تنتهي كافة الدعاوي التي يشترك فيها بالأدانة . لم يكن قد كون لنفسه أي فكرة عن حادث التسمم سوى فكرة إجماليـــة . وكان قد أعد مسودة ببعض النقاط ولكنه كان لا يزال بحاجـــة الى بعض المعلومات ، وهو الآن يحاول جمعها ولو كان بشكل رؤوس أقلام .

وعلى الجانب الثاني من المنبر كان المقرر يتصفح صحيفة قد رفعت دعوى بحق صاحبها ، وقد بذل جهداً كبيراً في الحصول عليها . كان ينوي التحدث بشأنها مع القاضي المصاب بمرض الأمعاء ، الذي كان يعلم أنه يشاطره الرأي ، إلا أنه كان يريد أن يقف بنفسه على محتويات المقال الذي سبب رفع الدعوى .

٨

ألقى الرئيس نظرة عجلى على ملف الدعوى . وسأل الحاجب بعض الأسئلة فأجيب عليها ، ثم أمر بإحضار المتهمين . ففتح باب جانبي ودخل منه جنديان على رأسيهما قبعتان كبيرتان من الفراء ، وسيفاهما مسلولان ، ودخل من ورائهما

المتهمون . رجل أحمر الشعر ، أنمش الوجه ، وامرأتان . كان الرجل يلبس ثياب المساجين ، وكانت يداه تختفيان تحت كميه بطولها . وكان هادىء المظهر مطمئنه فجلس على أحد طرفي المقعد ليفسح مجالاً للمرأتين ، ثم أخذ يتفرس في وجه الرئيس ، في حين بدأت شفتاه تتحركان كأنما كان يحدث نفسه بشيء .

وجلست بجانبه امرأة طاعنة في السن ترتدي بثياب السجينات ، صفراء الوجه ، قد سقط شعر جفنيها وحاجبيها ، واحمرت عيناها . جلست بهدوء ثم أصلحت ثوبها إذ كان قد علق بمسمار في المقعد ، وأقبلت تحدق في القضاة .

وكانت الثالثة (ماسلوفا) . واشرأبت أعناق الرجال نحوها ، وشخصت أبصارهم في ذلك الوجه العطوف الناصع البياض ، وتينك العينين السوداوين البعيدتي الغور البراقتين ، وذلك الجسم المليح الانسجام . حتى ان أحد الحارسين أطال النظر إليها ، ولما أحس بسوء فعلته حول نظره عنها باتجاه النافذة .

وانتظر الرئيس ريثما يستقر المتهمون في أماكنهم ، ثم تحول نحو الكاتب ، وبدأت المحاكمة بالمراسيم المعتادة : المناداة على المحلفين بأسمائهم ، والمحلفين الاحتياطيين ، وفرض غرامة على المتخلفين ، وتلاوة بعض الأعذار المقدمة من بعض المتخلفين ، وتسمية بديل عن هؤلاء من بين المحلفين الاحتياطيين . وبعد الفراغ من تشكيل المحكمة على هذا الشكل ، طلب الرئيس من الكاهن أن يقوم بأخذ اليمين القانونية .

كان الكاهن عجوزاً وارم الوجه ، أصفر اللون ، يرتدي ثوباً بلون القهوة ، ويتدلى على صدره صليب ذهبي ، وبجانبه وسام . فتقدم هذا من الهيكل وهو يجر قدميه جراً . وحذا القضاة حذوه .

— أعنا يا رب . — قال الكاهن وقد وضع يده على الصليب الذهبي ، ثم أمسك عن الكلام ريثما يقترب المحلفون منه .

كان وما زال يمارس هذه المهنة منذ سبعة وأربعين عاماً . وخدم المحكمة منذ تأسس مجلس المحلفين ، وهكذا فهو يفخر بأنه أخذ القسم من ألوف وألوف من الناس . ثم يضيف قائلاً أنه وهو الشيخ الهرم لا يزال يعمل في سبيل الوطن ،

والعائلة ، والكنيسة التي خلف لها تركة تقدر بأكثر من ثلاثين ألف روبل ، هذا فضلاً عن البيت الذي يسكنه . وهو الآن يستعد للاحتفال بعيده كما احتفل كاهن الكاتدرائية . أما ما ورد من النهي عن القسم في الانجيل فلم يكن يخطر له على بال ، كما لم يكن يثقل ضميره كون مهمته تلقي هذا القسم من الناس ؛ وهي ليست بالمهمة الشريفة . بل كان الأمر بالعكس ، فقد كان مرتاح النفس لها لأنها تتيح له فرصة الاتصال بأفراد الطبقة العليا . لقد وثق صلاته (بالمحامي العبقري) الذي رآه خليقاً بتقديره ، لأنه تقاضى عن دعوى واحدة مبلغ عشرة آلاف روبل ، وتلك هي دعوى العجوز .

وقال الكاهن للمحلفين بعد أن لبس الثوب الكهنوتي المختص بمثل هذه المناسبات .

— ارفعوا يدكم اليمنى وضموا اصابعكم هكذا .

ورفع يده الغليظة ، التي كان في كل أصبع من أصابعها حفرة صغيرة ، ضاماً ابهامه الى سبابته كمن يريد أن يتناول مسحوقاً .

— أقسم أمام الانجيل المقدس ، وبصليب المخلص ، انني في الدعوى ... ومضى يعد الكلمات ويقف عند كل واحدة منها .

— أقسم أمام الانجيل المقدس ، وبصليب المخلص ... أجعلها مضمومة هكذا . — قال متوجهاً بالكلام الى فتى كان قد ترك يده تسقط . — انني في الدعوى التي ...

كان (الرجل المدعي) والكورونيل السابق والتاجر وآخرون غيرهم قد اجادوا ضم اصابعهم كما علمهم الكاهن ، ولكن الآخرين كان يبدو انهم يؤدون هذا المرسوم على غير رغبة . كان بعضهم يرجع الكلمات بصوت عال وقاس ، والبعض الآخر يرجعها بصوت خافت متلعثماً في بعض الكلمات ، أو يسبقه الكاهن فيسارع الى اللحاق به كالخائف من الخطأ .

ودعى رئيس المحكمة المحلفين ، بعد أن أقسموا اليمين القانونية لانتخاب رئيس لهم ، فانتقلوا الى غرفة المذاكرة وأشعلوا لفائف التبغ .

واقترح احدهم أن يسمى (الرجل المدعي) رئيساً فقبـــل الاقتراح دون مناقشة . فطرحوا لفائف التبغ وعادوا الى قاعة المحاكات ، حيث أعلن (الرجل المدعي) انتخابه رئيساً ، وجلس الجميع .

كل هذا كان يجري عفو الخاطر وبشكل مهيب، وكان القيام بهذه الاجراءات والمراسيم يسبب ارتياحاً كبيراً للقضاة إذ يجعلهم يعتقدون أنهم يؤدون واجباً اجتماعياً ، بما فيهم (نيكليندوف) .

وخطب الرئيس المحلفين فذكر لهم حقوقهم وواجباتهم ، والمسئولية الملقاة على عواتقهم . وحينما كان يتكلم لم يكن يستقر ثانية واحدة فكان تارة يلتفت الى اليمين ، ثم الى اليسار وطوراً يستند على مسند المقعد ، وآخر ينحني الى الوراء ، والى الأمام ، ويتحسس الأشياء التي على الطاولة . وابان للمحلفين ان لهم الحق في استجواب المتهمين عن طريق الرئيس ، وفي فحص كافة الأدلة ومعاينتها ، وان عليهم أن يضعوا قرارهم صحيحاً منبثقاً عن قناعتهم ، وأن يحافظوا على سرية آرائهم ، وألا يصرحوا لأحد بشيء والا عرضوا أنفسهم للعقوبات التي نص عليها القانون .

كان الجميع يصغون اليه بانتباه . وكان التاجر الذي كانت انفاسه تتصعـــد بصعوبة ، وتنبعث منه رائحة الخمر يوافق على كل جملة بإحناء رأسه .

٩

بعد أن فرغ الرئيس من القاء خطابه ، التفت الى المتهمين وقال :

— انهض يا (سيمون كيرتنكين) .

فهب الرجل المنادى واقفاً كمن أجفل .

— ما اسمك ؟

— أدعى (سيمون بيتروفيتش كيرتنكين) أجاب بصوت راعد وبلا تردد مبرهناً بذلك على أنه كان يعلم مسبقاً عما سيسأل .

— ما هي وضعيتك ؟

— أنا قروي .

– من أي ولاية ومنطقة ؟
– من ولاية (نولا) منطقة (كابريفو) ناحيـــة (كيومبيانكوي) قرية (بوركي) .
– كم عمرك ؟
– أربعة وثلاثون عاماً . ولدت في ...
– ما هو دينك ؟
– ادين بالروسية الارثوذوكسية .
– هل أنت متزوج ؟
– كلا .
– ما هي مهنتك ؟
– خادم في المطعم المسمى (ماوريتانيا) .
– هل أقيمت بحقك دعوى ؟
– لم يحكم علي قط لأنني كنت على الدوام ...
– هل أقيمت بحقك دعوى ؟
– لا ، كما هو ثابت وجود الله .
– هل تبلغت مذكرة الاتهام ؟
– بلى تبلغتها .
– اجلس . يا (اوفيميا ايفانوفنا بوتشكوفا) . قال الرئيس متابعاً وقد تحول ناحية احدى المرأتين .
كان (كيرتنكين) ما زال واقفاً ويحجب (بوتشكوفا) عن الرئيس . فقال له هذا .
– اجلس يا (كيرتنكين) .
إلا أنه ظل واقفاً . واضطر المقرر ان يدنو منه محلقاً فيه بعينيه ويصيح به بملء صوته على مقربة من اذنه .
– هل سمعت . اجلس .

فجلس الرجـــل كالجفل كما وقف ، وأصلح ثوبه وهو لا يزال يغمغم بشيء محدثاً به نفسه .

— ما هو اسمك ؟ — قال الرئيس يسأل العجوز متضجراً وهو يقلب بعض الأوراق ، ودون أن يلقي نظرة على المرأة .

كانت (بوتشكوفا) في الثالثة والأربعين من عمرها ، وتقطن في المدينـــة وتعمل وصيفة في فندق (ماوريتانيا) ولم تقم بحقها دعوى ، قد تبلغت مذكرة الاتهام . كانت تجيب بصوت عال وترفق كل جواب بنظرة متحدية كأنها تقول:

— نعم . أنا هي (بوتشكوفا) ولا أسمح لأحد بأن يضحك مني .

ثم جلست عند نهاية الاستجواب دون أن تنتظر أن يأذن لها الرئيس .

— ما اسمك ؟ — قال الرئيس متوجهاً بالسؤال الى المتهمة الثالثة . — ينبغي أن تقفي — أضاف يقول بلهجة عذبة عندما رأى (ماسلوفا) لا تزال جالسة .

فوقفت (ماسلوفا) بهدوء ، عالية الرأس ، بارزة الصدر ، وحدقت في وجه الرئيس بعينيها النجلاوين وهي تبتسم .

— ما اسمك ؟

— يسمونني (ليمبوف) أجابته بسرعة .

كان (نيكليندوف) ، منـــذ بداية الاستجواب ما ينفك يتفرس ملياً في وجـــوه المتهمين من وراء نظاراته . ويقول في نفسه ، دون أن تفارق نظراته وجه الفتاة .

— لا يمكن أن يكون ذلك ، من أين جاءها هذا الاسم (ليمبوف) ؟

وفيما كان الرئيس يهم بالقاء اسئلة اخرى عليها اذا بالقاضي ذي النظارات الذهبية يستوقفه ويسر اليه شيئاً بحنق مكبوت ، فأجابه الرئيس بحركة تدل على الإيجاب ، ثم تحول نحو المتهمة من جديد .

— كيف (ليمبوف) ان لك اسماً غير هذا ؟

فصمتت المتهمة ولم تحر جواباً .

— سألتك عن اسمك الحقيقي .

– اسمك في المعمودية . – قال القاضي .

– كانوا فيما مضى يسمونني (كاترين) .

وعلى الرغم من ان (نيكليندوف) كان لا يزال يأبى الاعتراف أمام نفسه بأنهـا هي ويقول هذا مستحيل ، إلا أنه تبين أخيراً أنه أمام تلك الفتاة التي أحبهـا ذات يوم والتي أغواها في ساعة طغيان الشهوة العارمة ثم تخلى عنها ، والتي طالما تمنى تناسي ذكراها لأنها كانت ثقيلة الوطأة على نفسه مؤلمة لكبريائه.

لم يبـق لديه من شك في انها هي . اذ تبين في ملامح وجهها الطابع الخاص الغامض المميز لكل شخص ، وعلى رغم شحوب لونها ، وعلى رغم تهدل اسفل خديها لامتلائها بالشحم ، فقد تبين ذلك الطابع وتعرفه في وجهها ، وفي فمها ، وفي عينيهـا الحولاوين ، وبصورة خاصة في ابتسامتها الساذجة البريئة ، وفي نظراتها ، وفي تأدبها ، وما في كيانها من جاذبية .

– أجيبي بسرعة – قال الرئيس بعذوبة . – ما اسم أبيك ؟

– إني ابنة غير شرعية .

– هذا لا يهم . ما اسم عرابك ؟

– ميخائيل .

كان (نيكليندوف) آنئذ يردد في سره قائلاً :

– أية جريمة اقترفتها ؟

– ما هو لقبك ؟

– كانوا ينادونني كأمي (ماسلوفا) .

– وما هي وضعيتك ؟

– مواطنة .

– أتدينين بالأرثوذوكسية ؟

– أنا أرثوذوكسية .

– والمهنة . ما هي مهنتك ؟

فصمتت (ماسلوفا) ولم تجب .

– ما هي مهنتك ؟
كنت في أحد المحلات .
– ولكن في أي محل ؟ – قال القاضي ذو النظارات الذهبية ملحاً بقساوة.
– تعرفه جيداً . – أجابت (ماسلوفا) وهي ما زالت تبتسم . ولكنها طغى عليها الخجل فتورد خداها ، وتلفتت ذات اليمين وذات اليسار ثم عادت فحدقت بالرئيس من جديد .
كان في تلك النظرة التي القتهـــا على جمهور النظارة المحتشد ، وفي تلك الابتسامة التي افترت عنها شفتاها ، وفي الكلمات التي حصبت بها القضاة ، وفي الأمارات المعبرة التي بدت على ملامحها ، كان في كل ذلك معنى خاص ، معنى عجيب ومروع وممزق لنياط القلب بكل ما في تلك الكلمات من معنى ، جعل الرئيس يطأطىء الرأس ، وألقى على القاعة سكوناً عميقاً ، وما عتم ان ارتفعت قهقهات ، وصفير خافت ، فرفع الرئيس رأسه ، ومضى يواصل الاستجواب .
– ألم تداني بجريمة ؟
– كلا . – أجابت بصوت خافت وهي تصعد زفرة .
– هل تبلغت مذكرة الاتهام ؟
– نعم .
– اجلسي .
فجلست المتهمة وأصلحت ثوبها كسيدة كبيرة ، ودست كفيها البيضاوين الصغيرين في كمي (بلوزتها) دون أن ترفع نظرها عن الرئيس . وكان يبدو على ملامح وجهها شحوب ورزانة .
وأمر الرئيس باستدعاء الشهود وادخالهم الى غرفـــة اخرى ، ثم نادى على الطبيب الشرعي . وبعد ذلك وقف المقرر ، وأخذ يتلو وقائع الدعوى . كان صوته في البداية عالياً رناناً ، ولكنه استحال في النهاية رتيباً أبحاً لأنه كان يقرأ بسرعة . ودب الضجر في نفوس القضاة وبدأ يظهر من خلال تصرفاتهم فها هم أولاً يتهامسون ويتسارون فيما بينهم ، وغطى احد الحراس فمه بكفه عـــدة

مرات ليخفي تثاؤبه . وكان (كيرتنكين) لا يفتأ يبدي حركات واشارات بيده أما (بوتشكوفا) فقد كانت منتصبة القوام جادة الملامح ، هادئة ، تدخل اصبعها تحت غطاء رأسها من وقت لآخر لتحكه . وكانت (ماسلوفا) تبـــدو أحياناً هادئة وتتتبع بانتباه أقوال المقرر ولكنها كانت أحياناً أخرى تهـــم بالوقوف ويصطبغ وجهها بحمرة الخجل ، وتصعد زفرة ، وتغير وضع كفيها ، ثم تعود فتحدق بنظرها في المقرر .

وكان (نيكليندوف) وهو جالس في مقعده في الصف الأول من المحلفين لا يرفع نظره عن (ماسلوفا) في حين كانت نفسه تتمخض عن أمر عميق الجذور ، شديد الألم .

١٠

كان نص قرار الاتهام كما يلي :

« في ١٧ كانون الثاني عام ١٨٠٠ مات فجأة في احدى غرف مـــنزل (ماوريتانيا) (فردينند سميلكوف) المواطن السيبرياني والتاجر من الدرجة الثانية . وجاء في تقرير طبيب المنطقة الرابعة ان الوفاة حدثت بسبب انفجار أحد الشرايين نتيجة الافراط الشديد في شرب الخمر . ثم دفن الجثمان وبعد أربعة أيام جاء من سان بطرسبرج رجل يدعى (تيموكين) تاجر من سيبريا رفيق ومواطن للمتوفي ، وعندما اطلع على الظروف الغامضة التي احاطت بالوفاة ، داخلته الشبهة في صحة ما قيل ، ورأى أن الوفاة لا بد قد حدثت نتيجة تسمم دسه له بعض الاشرار طمعاً في الاستيلاء على خاتمه الماسي والمبلغ الكبير من المال الذي يحمـــله . وقد تبين ان (سميلكوف) كان يحمل مبلغاً ضخماً ولكنهم لم يعثروا على شيء منه بعد موته . وطلب اعادة التحقيق فكانت النتيجة ما يلي :

« ١ — لقد أخذ (سميلكوف) من البنك قبل وفاته بقليل مبلغ (٣/٠٠) روبل ، ولم يعثر المحققون في حقيبته الا على (٣١٢) روبل و (١٦) كوبيك .

« ٢ — أمضى (سميلكوف) مع امرأة من النساء العموميات تلقب (ليوبكا) (كاترين ماسلوفا) قسماً من نهار ما قبل وفاته في الفندق المسمى (ماوريتانيا)

والقسم الباقي في بيت المرأة . وقبل أن ترافق هذه التاجر (سميلكوف) الى الفندق لآخر مرة ، كانت قد جاءت الى الفندق وحدها تحمل مفتاحاً أعطاها إياه (سميلكوف)، وفتحت حقيبته أمام خادمي الفندق (أوفيميا بوتشكوفا) و (سيمون كيرتنكين) وأخذت منها دراهم . وحينما كانت المرأة تخرج المال شاهـــد الشاهدان اللذان كانا حاضرين عدة رزم من الأوراق المالية من ذوات المئة روبل .

« ٣ — عندما عاد (سميلكوف) من المحل العمومي تصحبه المرأة (ليوبكا) جرعته هذه كأساً من الكونياك ، بناء على نصيحة (كيرتنكين) كانت قـــد وضعت فيه مسحوقاً أبيض أعطاها إياه (كيرتنكين) .

« ٤ — باعت المرأة (ليوبكا) ثاني يوم الى صاحبة المحل الذي تعمل فيـــه الشاهدة المدعوة (روزانوف) خاتماً من الماس ادعت أن التاجر قد أهداها اياه .

« ٥ — أودعت وصيفة الفندق (اوفيميا بوتشكوفا) ثاني يوم وفاة التاجر (سميلكوف) مبلغ (١٨٠٠) روبل في البنك .

« أثبت التشريح الطبي الذي اجري على جثة (سميلكوف) ، وفاقـــاً لمنصوص القانون، وجود مادة سامة في احشائها مما يحمل على الظن ان هناك جريمة .

« وعندمـــا سئلت المرأتان والرجل (ليوبكا وبوتشكوفا و كيرتنكين) كأظناء أنكروا قيامهم بأي شيء. غير ان (ليوبكا) اعترفت بان (سميلكوف) عندما كان في المحل العمومي اعطاها مفتاح حقيبته وطلب اليها أن تذهب الى الفندق وتحضر له أربعين روبلاً لا غير ، كما يؤيد ذلك شاهدا العيان (بوتشكوفا و كيرتنكين) اللذان كانا حاضرين فتح الحقيبة واغلاقها . وفيما يتعلق بالتسمم فان (ليوبكا) تجيب بانها عند وصولها للمرة الثانية لمخدع (سميلكوف) وضعت قليـــلاً من مسحوق أبيض في كأس من الكونياك على اعتباره مخدراً ينيمه كي تستطيع العودة الى بيتها . وأضافت انها لم تأخذ دراهم وان الخاتم الماسي كان هدية منه لها عندما ضربها فبكيت وحاولت الذهاب الى بيتها .

« وتقول (اوفيميا بوتشكوفا) مؤكدة انها لا تعلم شيئاً على الاطلاق عن

فقدان المال وانها لم تدخل الى المخدع حيث دخلت (ليوبكا) وحدها ، واذا كان قد فقد شيء ، فالمسئولة عنه (ليوبكا) لأنها هي التي دخلت المخدع ومعها مفتاح الحقيبة .

فارتعش جسم (ماسلوفا) عندمـــا بلغ هذه النقطة ، وفغرت فاهها كمن تحاول الاحتجاج ، واتجهت بنظراتها نحو (بوتشكوفا) .

« وعندما سئلت (بوتشكوفا) ثانية عن مصدر مبلغ (١٨٠٠) روبل التي أودعتها في المصرف أجابت انها حصيلة عملها مدة اثني عشر عاماً مع (سيمون كيرتنكين) الذي تنوي الاقتران به .

« أما (سيمون كيرتنكين) فانه في الاستجواب الأول أقر بسرقة المال بدافع من (ماسلوفا) التي ذهبت الى الفندق ومعها المفتاح وأنه اقتسمه مـــع (ماسلوفا) و (بوتشكوفا) .

وهنـــا ارتعش جسم (ماسلوفا) ثانية ، وهبت من مكانها واقفة وبدأت الكلام وهي تشير بيديها . ولكن المقرر إسكتها وتابع التلاوة .

« لقـــد اعترف (كيرتنكين) بهذا . ولكنه في الاستجواب الثاني أنكر السرقـــة والمسحوق متهماً (ماسلوفا) وحدها . وفيما يتعلق بالمال المودع في المصرف أكد ما قالته (بوتشكوفا) وقال انه حصيلة الهبات التي كان نزلاء الفندق يهبونها لها » .

وتمضي المذكرة مواصلة سرد الوقائع ومقابلات الشهود والمتدخلين الفرعيين لتنتهي بما يلي :

« أقام (سميلكوف) التاجر من الدرجـــة الثانية ، والذي كان سكيراً مدمنـــاً ، وفاسقاً ، علاقات مع احدى البغايا الملقبة (ليوبكا) والتي تعمل في محل (روزانوف) وهام بها . وفي ١٦ كانون ثاني عام (١٨٠٠) بينما كان موجوداً في المحل المذكور ، بعث (ليوبكا) الى الفندق الذي كان نازلاً فيه ، وأعطاها مفتاح حقيبته لتحضر له منها مبلغ أربعين روبلاً ليدفع لصاحبة المحـــل ثمن المشروبات التي شربها . وعندما وصلت (كاترين ماسلوفا) الملقبة (ليوبكا) الى

يخدع التاجر تواطأت مع خادمي الفندق (كيرتنكين) و (بوتشكوفا) على سرقة المال والأشياء الثمينة الموجودة في حقيبة التاجر واقتسامها فيما بينهم . وهكذا وقع » .

فارتعش جسم (ماسلوفا) واستعرت حرارة وجهها .

« وكان من بين مـــا أخذته (ماسلوفا) خاتم ماسي ، وبعض الدراهم التي أخفتها أو ربما أضاعتها بسبب حالة السكر التي كانت عليها آنئذ. ولكي يغطوا جريمة السرقة عمل الثلاثة على أن يعود (سميلكوف) الى الفندق ودسوا له سماً كان يحمله (كيرتنكين) . واتماماً لهذه الخطـــة حملت (ماسلوفا) التاجر على العـــودة الى الفندق ليقضيا الليلة معاً ، وهناك ألقت المتهمة المسحوق في كأس (سميلكوف) واسقته اياه فكان سبباً في وفاته .

« وبناء على الأدلة المذكورة آنفاً ، فان (سيمون كيرتنكين) وعمره أربعة وثلاثون عاماً قروي . و (اوفيميا بوتشكوفا) وعمرها ثلاثة وأربعون عاماً ، و (كاترين ماسلوفا) وعمرها ستة وعشرون متهمون باقتراف جريمة السرقة والقاء السم التي ارتكبت في (١٧ كانون الثاني عـــام ١٨٠٠) ضد شخص التاجر (سميلكوف) والتي استحوذوا فيها على خاتم ماسي ومبلغ (٢٥٠٠) روبل . وكان السم الذي دسه المتهمون المتواطئون في كأس ضحيتهم سبباً في موته الفجائي.

« هذه الجريمة تنطبق عليها أحكام الفقرتين (٤ — ٥) من المادة (١٤٥٣) من قانون الجزاء، لذلك فان (سيمون كيرتنكين) قروي و (اوفيميا بوتشكوفا) و (كاترين ماسلوفا) مواطنتان يحالون الى محكمة المحلفين » .

وعندما انتهى المقرر من تلاوته نص قرار الاتهام أغلق بعناية ملف الأوراق ثم جلس وهو يمسح شعره بيده . فتنفس معظم الحاضرين الصعداء ظناً منهم أن المحاكمة لا تلبث أن تبدأ وان كل شيء سيتضح عما قريب ، وان العدالة ستأخذ مجراها . وكان (نيكليندوف) وحده الذي لا يشعر هذا الشعور . لقد كان مذعوراً من الجريمة المعزوة (لماسلوفا) تلك التي عرفها منذ عشرة أعوام عندما كانت لا تزال طفلة بريئة طاهرة .

١١

عندما فرغ المقرر من تلاوة قرار الاتهام ، القى الرئيس نظرة ذات معنى على (كيرتنكين) كأنما يريد أن يقول له ان الحقيقة ستتضح عما قريب . ثم ناداه بعد ان استشار المحلفين .

– يا (سيمون كيرتنكين) .

فاستوى واقفاً ويداه مسبلتان على جانبيه ، وانحنى الى الأمام دون أن يكف عن تحريك شفتيه .

– أنت متهم بارتكاب جريمة سرقة بتاريخ (١٧ كانون الثاني عام ١٨٠٠) ضد أموال التاجر (سميلكوف) واحضار زرنيخ نصحت (ماسلوفا) بأن تدسه له في الخمر الأمر الذي نتج عنه موت (سميلكوف) وذلك بالاشتراك مع (اوفيميا بوتشكوفا) و (كاترين ماسلوفا) أتعترف بجريمتك ؟

– يستحيل ، لأن مهنتنا نحن الخدم ...

– ستقول هذا فيما بعد . أتعترف بجريمتك ؟

– كلا . ولدي أيضاً ...

– ستقول هذا فيما بعد ، فيما بعد . – قال الرئيس بهدوء وحزم .

– أتعترف بجريمتك ؟

– يستحيل . لأن ...

وهنا قفز المقرر من مكانه وتقدم من (كيرتنكين) وأسكته بكلمة سكون. فالتفت الرئيس ناحية (اوفيميا بوتشكوفا) . وقال :

– يا (اوفيميا بوتشكوفا) انت متهمة بالاشتراك مع (سيمون كيرتنكين) و (كاترين ماسلوفا) بارتكاب جريمة سرقة بتاريخ (١٧ كانون الثاني عام ١٨٠٠) مال وخاتم ماسي من حقيبة التاجر (سميلكوف) واقتسامها فيما بينكم ، ولكي تغطوا جريمتكم وضعتم له السم في الخمر فمات بسبب ذلك أتعترفين بجريمتك ؟

– لست مجرمة بأي شيء . – أجابت المتهمة بصوت جلي أجش . – لم تطأ قدمي أرض غرفته . هذه الخائنة هي التي دخلتها وبوسعها أن تفعل أكثر من ذلك.

– ستقولين هذا فيما بعد . – أجاب الرئيس بصوت هادىء رصين .
– ألا تعترفين بجريمتك ؟
– لست أنا التي أخذت الدراهم ، ولست التي دست له السم ، حتي لم ادخل غرفته ، ولو كنت أنا ...
– وتعترفين بجريمتك ؟
– كلا ، كلا .
– حسن . وهنا تحـــول الرئيس الى المتهمة الثالثة ، وقال : يا (كاترين ماسلوفا) أنت متهمة بالدخول الى الغرفة التي كان يشغلها التاجر (سميلكوف) في فندق (ماوريتانيا) وسرقة خاتم ماسي ودراهمه ... وكان يلفظ الكلمات كأنه يقرأ أدعية مستظهرة ثم أمسك قليلاً ليصغي الى أحد القاضيين الذي نبهه الى نقص الأدلة الثبوتية – وبالعودة ثانية الى الفندق حيث دسست له الزرنيخ في كأس الخمر وأجرعته اياه الأمر الذي سبب وفاته . اتعترفين بجريمتك ؟
– كلا ، لست مجرمة بشيء. – أسرعت المتهمة تجيب – أقول الآن كما قلت سابقاً . لم اسرق شيئاً ، شيئاً على الاطلاق . لقد أهداني الخاتم الماسي .
– ألا تعترفين بسرقة ألفين وخمسماية روبل ؟
– أقول انني لم آخذ إلا أربعين روبلاً .
– وانك أجرعت التاجر (سميلكوف) خمراً مسموماً ؟
– هذا صحيح . ولكنهم أكدوا لي ان ذلك كان مخدراً لا يمكن أن يضر أحداً . لست أهلاً لأن اسمم . وأقسم أمام الله على انني لم أكن أقصد السوء .
– هكذا اذن انت تنكرين سرقة المال والخاتم . ولكنك من جهة اخرى تعترفين بوضع المسحوق في الخمر ؟
– نعم أعترف بذلك ، ولكني كنت أحسب أنه مسحوق منوم . لقـــد وضعته له لكي ينام . لم أشاء ، ولم أتصور قط أنه يسبب له الضرر ...
– حسن .
وهنا أسند الرئيس ظهره على مسند الكرسي ، مرتاحاً للنتيجة التي توصل اليها ، ويداه ممدودتان على الطاولة .

– اشرحي لنا الآن الحقيقة بكاملها. ان اعترافاً صادقاً يفيدك كثيراً ويحسن من وضعك .

كانت (ماسلوفا) تحدق في الرئيس ، غير أنها ظلت صامتة لا تحير جواباً ، وحمرة الخجل تكسو وجهها ، وكان كل من يراها يدرك أنها كانت تحاول التغلب على الخجل .

– قصي علينا كيف حدث ذلك .

– كيف حدث ذلك ؟ – قالت بحماس – ذهبت الى الفندق فاقتادوني الى غرفة كان « هو » موجوداً فيها في حالة سكر شديد ...

وعندما لفظت كلمة « هو » أجفلت كمن بوغتت بما يرعب وجحظت عيناها ، وأخيراً واصلت كلامها .

– كنت أريـــد العودة ولكنه منعني من ذلك . وأمسكت من جديد عن الكلام كأنما كانت قد أضاعت مجرى حديثها أو عرضت لها فكرة جديدة .

– وبعدئذ ؟ – سألها الرئيس .

– فلبثت هناك بعض الوقت وعدت الى بيتي .

وهنـــا اعتدل وكيل النيابة في مقعده متكئاً على أحد كوعيه . فقال له الرئيس . – أتريد أن تسأل بعض الأسئلة ؟ – ولما أجابه بالإيجاب ، أشار اليه الرئيس أنه يستطيع ذلك .

– أريد أن أعلم اذا كان للمتهمة سابق علاقة (بسيمون كيرتنكين) – قال الوكيل يسأل دون أن ينظر الى (ماسلوفا) ، وقد زوى ما بين عينيه، وزم شفتيه . فكرر الرئيس السؤال ، وكانت (ماسلوفا) تنظر الى وكيل النيابة برعب ظاهر .

– بلى كنت أعرف (سيمون) .

– ما هي نوع العلاقات التي كانت بينكما ؟ وهل كانت متواصلة ؟

– ما هي نوع العلاقات؟ لقد كان يبعث لي بنزلاء الفندق الغرباء، وغير ذلك لم يكن لي علاقـــة به – أجابت الفتاة بقلق ، وهي تنقل نظراتها بين الرئيس والوكيل .

– كذلك اريد ان اعلم لماذا كان (كيرتنكين) يبعث بالغرباء الى (ماسلوفا) دون غيرها من النسوة ؟

وأجال محجريه بخبث ظاهر .

– لا أدري . ومن أين لي أن أعلم ذلك ؟ كان يبعث بهم الى من يريدها

– أجابته وهي تدور بنظرها برعب بين الموجودين ، وصوبته برهة الى (نيكلیندوف) .

– قد تكون عرفتني . – قال الأمير مخاطباً نفسه ، وقد صعد الدم الى وجهه. غير ان (ماسلوفا) لم تكن قد أمعنت النظر فيه جدياً ، ثم عادت فعلقت نظراتها المرعوبة في وجه الوكيل من جديد .

– هكذا اذن . تنكر المتهمة ان يكون لها علاقات وثيقة خاصة (بكيرتنكين) . حسن . لم يبق ما أريد السؤال عنه .

وعاد الوكيل الى الجلوس مرة أخرى ، وبدا عليه انه يسجل شيئاً . لم يكن الوكيل يكتب شيئاً . وانما كان يمر بقلمه على وصمات وثيقة الاتهام ، لأنه لاحظ المحامين ومعقبي الدعاوي ، يسجلون في مذكراتهم رؤوس أقلام ، بعد كل سؤال يسألونه ، ليدعموا بها الدفوع التي يفكرون أن يضللوا بها الخصم .

وأمسك الرئيس عن الاستجواب برهة قصيرة كان خلالها يناقش القاضي ذا النظارات حول افضلية استعمال الأسئلة المكتوبة ، ثم قال :

– وماذا حدث بعدئذ ؟

– كان الوقت ليلاً – أجابت (ماسلوفا) وهي أكثر اطمئناناً ناظرة الى الرئيس . – وكنت قد صعدت الى غرفتي بعد أن سلمت الدراهم لصاحبة المحل ، وعلى وشك أن أنام ، وإذ (ببرتا) احدى رفيقاتي تأتي إلي لتقول لي : ان صديقك التاجر قد عاد ويريد أن تذهبي معه . فرفضت النزول ولكن صاحبة المحل أمرتني . كان هو – ولفظت هاته الكلمة مرة أخرى برعب – في البهو الكبير ، ويريد أن يقدم مشروباً لبقية الفتيات ، ولم يكن يحمل مالاً ، وامتنعت صاحبة المحل أن تدينه ، وعندئذ أمرني ان اذهب الى الفندق ، ودلني على مكان

المال، وعين لي المبلغ الذي يجب احضاره فصدعت بالأمر وأحضرت له ما طلب.

كان الرئيس آنئذ يتحدث بصوت خافت الى القاضي الذي كان على يساره فلم يسمع مما قالته (ماسلوفا) كلمة واحدة ، ولكي يوهم الناس انه سمع كل شيء ردد الكلمة الأخيرة .

– وصدعت بالأمر . ثم ماذا ؟

قمت بما أمرني به ، واحضرت اربع ورقات من ذوات العشر روبلات .

وهنـــا امسكت (ماسلوفا) عن الكلام كمن اخذ برعب مفاجيء ثم استأنفت كلامها .

– دخلت الغرفة ، ولكني لم أدخلها وحدي . كان معي (كيرتنكين) وهذه . واشارت الى (بوتشكوفا) .

– هذا غير صحيح . أنا لم ادخل الغرفة . – قالت (بوتشكوفا) ولكن المقرر أسكتها حالاً .

– وعندئذ أخذت بحضورهما الأربع ورقات من ذوات العشر روبلات .

– قالت (ماسلوفا) منهية حديثها وقد زوت ما بين عينيها دون ان تنظر الى (بوتشكوفا) .

– أريد أن أعلم إذا كانت المتهمة قد رأت عندما أخذت الاربعين روبلاً ، كم كان في الحقيبة من المال – قال وكيل النيابة مقاطعاً .

فانتفضت (ماسلوفا) ، وأحست على الفور ان ذلك الرجل يتعمد ادانتها .

– لم أحصها . وإنما رأيت أوراقاً من ذوات المئة .

– إذن تعترف المتهمة إنها رأت أوراقاً مالية من ذوات المئة . حسن . ليس لدي ما أسأل عنه بعد .

– هل أخذت المال ؟ – سألها الرئيس وهو ينظر في ساعته .

– بلى .

– وبعدئذ ؟

– وبعدئذ أراد التاجر ان أعود معه .

– وكيف أعطيته المسحوق ؟

– كيف ؟ وضعته في كأس الخمر وأسقيته له .

– لماذا فعلت ذلك ؟

– لأنه لم يشأ أن يدعني أذهب . – أجابت الفتاة بعد برهة صمت ، وهي تصعد زفرة عميقة – كنت متعبة وضجرة ، وفي غفلة منه خرجت الى الرواق ، فقلت (لكيرتنكين) كم أكون سعيدة لو يسمح لي بالذهاب الى البيت . فأجابني (سيمون) كذلك نحن متعبون ، فلنعطه منوماً ، وعندئذ تستطيعين الذهاب الى بيتك . وحسبت أن المسحوق غير ضار ، فوافقت ، وأخذته بغية وضعه في كأسه . وعندما عدت الى المخدع حيث كان التاجر موجوداً ، وطلب إلي أن أسقه خمراً ، فصببت من زجاجة كانت على الطاولة كاسين من الكونياك واحداً له وآخر لي ووضعت المسحوق في كأسه . وأقسم لك يا سيدي الرئيس اني ما كنت لأفعل ما فعلت لو علمت ان ...

– وما هو سبب وجود الخاتم في حوزتك ؟

– لقد أهداه لي هو نفسه .

– متى أعطاك إياه ؟

– عندما عدنا الى الفندق . كنت أود العـودة حالاً ، فكسر لي المشط الكبير الذي كنت أضعه في شعري ، فأخذت أبكي فأراد تعويضي عنه فخلع خاتمه من أصبعه وقدمه لي هدية .

وهنا اعتدل وكيل النيابة في مقعده من جديد ، وطلب من الرئيس بلطف السماح له بإلقاء بعض الأسئلة .

– أريد أن أعلم كم من الوقت لبثت المتهمة في مخدع (سميلكوف) فعرت (ماسلوفا) موجة من الرعب وأسرعت تجيب .

– لست أذكر .

– آه . هل تذكر المتهمة انها دخلت غرفة أخرى عندما خرجت من الغرفة التي كان يشغلها التاجر ؟

ففكرت (ماسلوفا) برهة ثم قالت :
– بلى دخلت غرفة مجاورة ، ولكنها كانت خالية .
– ولماذا دخلت ؟
في هذه المرة القى سؤاله على المتهمة مباشرة .
لأرتاح بعض الوقت ، وتسكن أعصابي ريثما تأتي العربة .
– و (كيرتنكين) هل اجتمع الى المتهمة في الغرفة هذه أم لا ؟
– بلى . دخل اليها أيضاً .
– ولماذا ؟
– لأن التاجر كان قد دفع لنا ثمن بعض أقداح من الكونياك فشربناها معاً .
– آه . شرباها معاً . وبماذا تحدثت المتهمة مع (كيرتنكين) بماذا تحدثا ؟
– قال الوكيل مردداً .
فاعتدلت (ماسلوفا) في مقعدها ، وحركت ذراعيها ، وأجابت بجرأة .
– بماذا تحدثنا ؟ لا أذكر . اصنع بي ما تريد ، أنا لست مذنبة . لقد قلت كل ما أعلمه .
– لا أريد ان أسأل عن شيء آخر . – قال الوكيل واكب يسجل بعض الملاحظات التي تؤكد دخول المتهمة غرفة مع (سيمون) .
وأعقب ذلك فترة سكون امتدت بضع دقائق .
– أليس لديك ما تقولينه غير هذا ؟
– لقد قلت كل شيء . – أجابت (ماسلوفا) وهي تصعد زفرة ثم جلست .
وهنا دون الرئيس بعض الملاحظات ، وأصغى الى مـــا كان يسره له أحد القضاة ، ثم أعلن رفع الجلسة مدة عشر دقائق .
كان القاضي الذي تحدث الى الرئيس هو الذي بدأ في الصباح ، معالجة جديدة ، فأعرب للرئيس عن رغبته بإجراء عملية تدليك ، وتناول بعض مقويات القلب ، لأنه أحس بفراغ في معدته . وكان هذا هو السبب في رفع الجلسة .
فهب الجميع واقفين من قضاة ومحلفين وموظفين ، وخرجوا جميعاً من القاعة

مرتاحي الضمير لقيامهم بجزء من الواجب المقدس الذي القاه المجتمع على عواتقهم.
وجلس (نيكلينذوف) أمام احدى النوافذ في غرفة المحلفين وغاص في خضم ذكرياته الماضية .

١٢

لم يبق من شك لدى الأمير في أن تلك المتهمة كانت (كاترين) . كان لا يزال يتذكر الظروف التي تعرف عليها فيها . لقد رآها للمرة الأولى عندما كان يجتاز الصف الثالث في الجامعة ، وكان قد ذهب لقضاء فصل الصيف مع خالاته ، في حين كان يعد أطروحة البكالوريا . كان من عادته الاصطياف مع أمه وأخته في مزرعة كبيرة لهم بالقرب من موسكو . ولكن لما كانت أخته قد تزوجت هذا العام ، وأبى مرافقتها الى منطقة الحمامات وكان يستعد للأطروحة ، فقد ذهب الى مزرعة خالاته لثقته من انه سيلقى عندهن هدوء أو راحة ...

كانت أخوات أمه يحملن الكثير من الحب لإبن أختهن ، وكان هو من جهته يبادلهن نفس الحب ، ويعرف أنه وارثهن ، وكان يروقه ما يلقاه عندهن من بساطة في العادات .

كان آنئذ على مثل تلك الحالة النفسية الصالحة لتقبل الحماس الخاص بالشباب الذي يحملهم على تقدير جمال الحياة وإدراك أهميتها ، ويجعلهم يتصورون – الى ان يشعروا بعسر مهمة الإنسان – ان في مقدورهم بلوغ الكمال في اصلاح أنفسهم ، وإصلاح الانسانية بأجمعها ، فيكرسون جهودهم لمثل هذا المثل الأعلى ، واثقين تمام الثقة من بلوغ تلك الدرجة من الكمال التي تخيلوها مثلاً أعلى لحياتهم .

كان قد قرأ في الجامعة ذلك العام ، ما كتبه (سبنسر) و (هنريش جورج) حول ملكية الأرض ، فكان لما قرأه تأثيره العميق على نفسه ، خصوصاً وهو ابن ملاكة كبيرة .

لم تكن ملكية أبيه ذات أهمية كبرى ، غير ان أمه كانت قد أخذت من أبيها بائنة من أملاك واسعة . وهنا تبين مدى الظلم في الملكية الفردية للأموال غير المنقولة ، فأسرع في توزيع ما ورثه عن أبيه على المزارعين ، لأنه كان من

أولئك الذين يرون لذة حقيقية فائقة في التضحية في سبيل المثل العليا .
وكان هذا موضوع الأطروحة التي يعدها ، وعنوانها « ملكية الأموال غير المنقولة » .
كانت حياته في الريف بالقرب من خالاته ، حياة جد هادئة .
كان يستيقظ مبكراً ، أحياناً الساعة الرابعة فيستحم في النهر الذي كان ينساب عند أسفل الأكمة ، ثم يعود الى البيت قبل أن يصبح الصباح ، وعندما تكون الحقول لا تزال مغمورة بضباب خفيف ، وندى الليـــل لا يزال يغمر الزهور والأعشاب . واحياناً كان يكتب أو يطالع بعض الكتب بعد تناوله القهوة في الصباح . غير انه كان كثيراً ما يذهب للتمشي في الحقول أو الغابة .
وكان يرقد فترة قصيرة قبيل الغداء ، في ركن منعزل من الحقل ، ويتناول طعامه مع خالاته ، ثم يذهب للنزهة ممتطياً صهوة جواد ، أو يستقل قارباً يمخر به عباب النهر .
وأحياناً أخرى كان ماء الشباب ، ودفق الحياة يطغيان على كيانه ، فيخرج ليلاً الى الحقول ، وعلى الأخص في الليالي المقمرة حيث يبقى هائماً على وجهه حتى مطلع الفجر .
في مثل تلك الهناءة الهادئة تصرمت الأشهر الأولى من اقامته بجوار خالاته دون أن يأبه بكثير أو قليل لقوام (كاترين) الجذاب ، وعينيها النجلاوين ، ودون ان يعيرها أي التفات .
لقد نشأ (نيكليندوف) وترعرع في رعاية أم فائقة الحنوة وظل حتى بلغ التاسعة عشرة من عمره يحتفظ بمثل براءة الأطفال . وكان من رأيه ان عروس احلامه هي التي ستصبح زوجة له . وما عداها ممن ليس له نصيب في الزواج منهن فهي في نظره مجرد اشخاص لا أكثر ولا أقل .
وجاءت سيدة من الجيران لزيارة خالاته يوم عيد الصعود ترافقها ابنتاها وولدها الذي كان لا يزال طالباً ، يصحبه أحد أصدقائه وهو قروي ورسام .
وبعد ان تناولوا الشاي ذهب الصبية يلعبون في أحد حقول القمح التي حصدت حديثاً فاشتركت معهم (كاترين) .

وصادف ان جاء وقت قضى قانون اللعبة بأن يجري (نيكلينندوف) و (كاترين) معاً جنباً الى جنب ، فأعجبه ذلك إلا انه كان أبعد ما يكون عن التفكير بأن رباطاً عاطفياً سيكون مع الأيام بينه وبين تلك الطفلة . وبمقتضى قانون اللعبة كان على (نيكلينندوف) ان يضع يده في يد (كاترين) ، وان يجري الرسام وراءهما ليقبض عليهما . وكان هذا ، وهو يجري في أثرهما بأقصى ما تستطيعه ساقاه القصيرتان العضليتان من سرعة ، يخاطب نفسه بقوله :

— من العسير على التفريق بينهما .

ثم قال وقد ضرب كفاً بكف : واحد ، اثنان ، ثلاثة .

فبدلت (كاترينا) مكانها ، وهي تحبس الضحك في صدرها ، وأمسكت بيدها الصغيرة يد (نيكلينندوف) الضخمة ، ومضت تركض وإياه الى اليسار ، فيسمع حفيف ثوبها المنشأ . وكان (نيكلينندوف) يمضي في الركض كيلا يلحق به الرسام ، مضاعفاً سرعته حتى بلغ أقصى حدود الحقل بعد أن أفلت يده من يدها ثم تلفت الى الوراء ، فرأى الرسام يطاردها وهي تركض بأقصى ما تستطيعه ساقاها من السرعة مبتعدة الى الجهة اليسرى .

كانت ثمة شجرة ، وكانوا قد تواضعوا على الا يتجاوزوها ولكن (كاترين) أومأت الى (نيكلينندوف) باسمة ليلحق بها وتجاوزت الشجرة.

فأدرك (نيكلينندوف) ما ترمي اليه وأسرع نحوها ، وكان وراء الشجرة حوض ماء تخفيه الأعشاب ، فعثر فيه وسقط على الأرض ، فتشقق كفاه ، وتلوثت ثيابه بقطرات الندى ، غير انه ما عتم ان نهض من كبوته ضاحكاً منها ، وانطلق يركض من جديد . فخفت (كاترين) للقائه ، وهي لا تنفك باسمة ، ومدت له يدها .

— هل جرح كفاك ؟ — قالت تسأله وهي ترنو بنظرها اليه ، وتصلح بيدها الثانية ضفائرها وهي تلهث .

— كنت أجهل أنه يوجد هناك حوض ماء — أجاب قائلاً دون أن يدع يد الفتاة .

وإذا اقتربت منه قليلاً ، شد على يدها ، وفجأة قبلها في فمها ، دون وعي منه . فسحبت الفتاة يدها من يده بسرعة وتراجعت بضع خطوات الى الوراء ، ثم أخذت غصنين غضين من الشجرة وأخذت تضرب بهما خديهـــا الملتهبين ، ومضت نحو جمهور الصبية .

منذ ذلك الحين تطورت العلاقات بين (نيكليندوف) وبين (كاترين) لقد كانا على مثل الوضعية الخاصة بفتى وفتاة كلاهما ساذج ، وكلاهما بريء ، وكلاهما يشعر بالميل للآخر . وكان يحب (نيكليندوف) ان تدخل (كاترين) الى غرفته ، أو أن يرى من بعيد ثوبها الوردي وصدرتها البيضاء ، حتى يبدو في نظره كل شيء مغموراً بالنور ، وحتى ينقلب كل شيء أشد جمالاً وأكثر مرحاً، وأجزل أهمية ، وتبدو الحياة أعم هناء . وكانت تبادله نفس الأحساس .

لم يكن وجود (كاترين) وحده مما يدخل السرور على قلب (نيكليندوف) ، وإنما كان مجرد التفكير بأنها موجودة كافياً لأن يغمر روحه بفيض من الهناء . وكانت هي تهتز أوتار قلبها له عندما تفكر بوجوده وانه قريب منها . وكان إذا وردته رسالة من أمه تحمل له ما يسوءه ، أو عندما يتعسر عليه المضي قدماً في أطروحته ، وعندما تطغي عليه موجة الغم الخاصة بسن الفتوة ، كان يكفيه بإزاء كل هذا أن تعرض له ذكرى وجودها كي يتلاشى ما به من غم وكآبة .

كانت مهام (كاترين) في المنزل متعددة النواحي . ومع ذلك فقد كان لديها متسع من وقتها لكل شيء . وفي أوقات الفراغ القليـــلة كانت تزجي وقتها بالمطالعـــة ، وكان (نيكليندوف) يعـــيرها مؤلفات (ترجينيف) و (دوستويوفسكي) . ولكن كان أشدها تأثيراً على نفسها الكتاب المسمى (الهدوء بعد العاصفة) (لترجينيف) . كانا كلما اجتمعا يتحدثان بصوت خافت سواء في الرواق أو على الشرفة ، أو في غرفة (ماري باولوفنا) وصيفة خالتيه العانسين العجوز ، حيث كانت ترقد (كاترين) ، وحيث كان يطيب (لنيكليندوف) أن يتناول الشاي احياناً . وكان حديثهما في حضور هذه المرأة بالغ العذوبة والرقة ، ولكنهما اما أصبحا منفردين ارتج عليهما ، وباتا

عاجزين عن الكلام ، وعندئذ كانت تتولى العيون مهمة التعبير عما عجزت عن الافصاح عنه تلك الكلمات التي كانا يغمغمان بها ، ثم لا يلبثان ان يرتبكا ولا يجرؤان على البقاء معاً .

هكذا سارت الأحوال طيلة المـــدة التي قضاها (نيكليندوف) عند خالتيه . وأدركت هاتان ما يحدث فارتاعتا له وبادرتا بابلاغه فوراً الى الأميرة (ايلينا ايفا نوفنا) والدة (نيكليندوف) برسالة بعثتا بها اليها .

كانت خالته (ماري ايفانوفنا) تخشى ان يقـــع (ديمتري) في حبائل (كاترين) ، غير ان خوفها كان باطلاً ، فحب (نيكليندوف) كان حب روح بريئة وفي هذا عاصم لكليهما من خطر التردي والسقوط في الهاوية . فهو لم يكن لا يشتهيها فحسب ، وإنما كان مما يثير الرعب في نفسه امكانية وجود مثل هذه الشهوة . ولكن مخاوف خالته الأخرى كانت أقرب للمعقول ، إذ كانت تخشى ، مدفوعـــة بنفسيتها الشعرية ، أن يستمر حب (نيكليندوف) (لكاترين) فيتزوجها غير قلق بالاً لأصالته ووضعيته .

ولو أن (نيكليندوف) كان قد تبين انه مغرم (بكاترين) أو لو أن أحداً حاول اقناعه باستحالة ربط مصيره بمصير (كاترين) ، إذن لكان مؤكداً انه سيجيبه بأن ليس ما يمنع زواجه منها ، لأنه يحبها . غير ان خالتيه لم يصرحا له بمخاوفهما ، وسافر ولم يكون فكرة واضحة عن الحب الذي أيقظته (كاترين) في نفسه . كان يحسب ذلك الاحساس بعضاً من مرح الحياة العميم الذي كان يملأ كيانه ، وعند مغادرته المنزل ، وكانت (كاترين) تقف الى جانب خالتيه ، تشيعه من على الشرفة بنظراتها ، وعيناها النجلاوان مخضلتان بالدموع ، أحس عندئذ ، ان شيئاً جميلاً ومقدساً في حياته قد تحطم الى غير رجعة . فأحس موجة من الغم الشديد تملأ نفسه .

ــ وداعاً يا (كاترين) ، وشكراً . ــ قال وهو يصعد الى العربة .

ــ وداعاً يا (ديمتري ايفان) . ــ أجابته بصوتها الرخيم وهي تمسك بجهد كبير الدموع التي أعشت عينيها ، فهرعت الى مخدعها لتطلق العنان لدموعها دون حسيب أو رقيب .

١٣

مرت ثلاثة أعوام قبل ان يعود الأمير (ديمتري ايفان نيكليندوف) فيرى (كاترين) للمرة الثانية ، وكان قد جاء لوداع خالتيه قبل أن يلتحق بغرفــة الحرس التي عين ضابطاً فيها . كان قد أصبح تام الرجولة ، مختلفاً اختلافاً كبيراً عن ذلك الصبي الغر الذي زار فيما مضى تلك الأماكن .

كان آنئذ مخلصاً نزيهاً مستعداً لتضحية نفسه في سبيل قيامه بعمل جميل . وهو الآن فاسق ، لا يفكر في شيء الا في ملذاته . كان يرى الكون سراً مغلقاً وطلسماً يحاول استكناه رموزه بحماس مرح . وهو الآن يرى كل شيء واضحاً وبسيطاً ، ووقفاً على نزواته الشخصية . كان شديد الرغبة في الاتصال بالطبيعة والفلاسفة والشعراء الذين فكروا وعاشوا قبله . وهو الآن يحس بالحاجــة للاصدقاء والرفاق ، وسائر ما في المجتمع من مغريات . كانت المرأة تبدو له كائناً غامضاً جذاباً ، يجعل منه غموضه أدعى للسرور والسعادة. أما الآن فقد أصبح يرى لسائر النساء ، ما عدا قريباته وزوجات اصدقائه ، معنى معيناً هـــو كونهن وسيلة لملذاته . لقد كان فيما مضى لا يحس بالحاجة الى المال، فكان لا ينفق مما كانت أمه قد عينته لنفقاته سوى الثلث ، وتنازل عن ميراثه عن أبيه لصالح الفلاحين. أما الآن فلا يكفيه مبلغ (١٥٠٠) روبل الذي عينته له أمه شهرياً، وكثيراً مـــا دب خلاف بينهما بسبب القضايا المادية ، كان ينتهي دائماً بتأنيب ضميره له .

كان فيما مضى يرى ذاته (الأنا) كائناً معنوياً . أما الآن فقد أصبح مقتنعاً بأن ذلك (الأنا) حيوان جميل صحيح الجسم قوي البنية .

وكان من نتائج ذلك التغيير الجذري اقلاعه عن ايمانه بذاته ليؤمن بالآخرين، لأن ايمانه بنفسه لم يكن عسيراً عليه .

فعندما يؤمن بنفسه لا بد له من البحث عن حلول لمشكلات كثيرة لغـــير صالح الأنانية الحيوانية . وعندما يؤمن بالغير فلا مشاكل ولا حلول، اذ كل شيء لمصلحة (الأنا) المادي ضد مصلحة (الأنا) المعنوي . وليس هذا كل ما في الأمر،

بل انه بإيمانه بنفسه يلقى استنكاراً عاماً لعمله بينا يجد موافقة واطراء عامين اذا ما امن بالغير .

لو ان (ديمتري) كان قد قرأ أو تحدث عن الله والحقيقة والثراء والفقر لوجد سامعوه كلامه شاذاً وسخيفاً ، ولسخرت منه أمه وخالاته ولنادينه مستهزئات (يا فيلسوفنا الغالي) . امـــا اذا قرأ روايات وأقاصيص شديدة الاغراق في الانفلات ، او ذهب الى المسرح الفرنسي ثم عاد فتحدث عما شاهده فانه سيلاقي اطراء وتشجيعاً من الجميع . وعندما كان يحيا حياة شريفة وقرر أن يتزوج هلع قلب أبويه جزعاً على صحته ، وأمه التي اقض مضجعها مجرد تفكيرها بان ابنها قد يتزوج من (كاترين) ، هذه الأم ملأ قلبها حبوراً علمها بأن (ديمتري) قد اختطف خليلة أحد اصدقائه الفرنسية . وعندما بلغ (ديمتري) رشده ، فوزع على المزارعين ميراثه عن أبيه ، مدفوعاً بقناعته العميقة من ان ملكية الارض أمر غـــير عادل ، أثار جزع أمه وأقاربه ، وظل مدة طويلة موضع هزئهم وسخريتهم وتقريعهم ، وما فتئوا يقولون له ، انه افقر المزارعين بدلاً من رفع مستواهم . وكان ذلك صحيحاً ، لأن هؤلاء أدمنوا الخمر وهجروا العمل .

ولكن ، بعـــد ان التحق بالحرس الامبراطوري ، واختلط بالاوساط الاريستوقراطية العليا ، وأخذ يبزر المال حتى ارهق ثروة أمه ، فان الأميرة العجوز لم تأس على ذلك ، ورأت من الطبيعي الجميل أن يأخذ قسطه من لذاذات الحياة بين الأوساط العليا .

لقد كافح (نيكليندوف) ضد المفهوم الجديد للحياة . وقد جر عليه ذلك الكفاح كثيراً من المصاعب لأن ما كان يراه جميلاً كان في نظر الآخرين قبيحاً ، والعكس بالعكس . وهكذا اقلع عن ايمانه بنفسه ليؤمن بالغير ، فكان ذلك منه تنازلاً عن شخصيته وكان مؤلماً له في البداية ، غير أنه ما عتم أن تناساه في غمار الحياة الجديدة ومعاقرة الخمر والتدخين ، حيث وجد عزاء وسلوى ، فأقبل بكليته عليهـــا ، لأنه كان بطبعه حساساً متحمساً ، وهكذا اسكت صوت الضمير الآمر الذي كان يهيب به للقيام باعمال اخرى جد مختلفة .

وهذا التحول الذي بدأ عند وصوله الى سان بطرسبرج ، بلغ ذروته بعـــد التحاقه بالحرس الامبراطوري .

ان الحياة العسكرية ، بحد ذاتها ، مفسدة للرجال ، اذ تجعلهم في حالة بطالة تكاد تكون مستمرة ، او على الأقل ، بحالة انقطاع عن كل عمل مفيد ومعقول. وفي حين ترفع عن كواهلهم سائر الواجبات الانسانية ، فانها تضفي عليهم شرفاً زائفاً هو شرف الفرقة التي ينتمون اليها وشرف الراية ، وتمنحهم سلطاناً مطلقاً على كثيرين من الناس ، في حين تفرض عليهم خضوع العبيد غير المجدي وغـــير المشرف ، وعندمـــا يضاف الى المفسدة التي تسببها الحياة العسكرية ، مفسدة الغنى ، والقرب من العائلة القيصرية ، كما هو الحال مع الحرس الامبراطوري ، فان تلاقي هاتين المفسدتين يخلق حالة نفسية ، تدعى بحق ، جنون الأنانية الحقيقي.

عاش (نيكليندوف) مغموراً في مثل هذا الجنون ، منذ سار على غرار رفاقـــه في السلاح بعد التحاقه بالحرس الامبراطوري وكانت مهمته تتلخص في ارتداء بزة فخمة ، تنظفها وتعني بها يد غير يده ، وان يتقلد سيفاً يصقله غيره ، وان يمتطي جـــواداً رباه وأسلس قياده وأعده له سواه ، وان يقود الجنود في المناورات ، او يستعرضهم ، وان يقفز الحواجز ، وان يحسن استعمال سيفه ، وان يطلق الرصاص فيصيب الاهداف ، وان يلقن غيره كل هذه التمارين .

ولم يكن حوله سوى لفيف من شبان وشيوخ ينتمون بأجمعهم الى أكـــثر العائلات الروسية عراقة في الاريستوقراطية ، بما فيهم الأمبراطور نفسه وحاشيته الذين كانوا فوق اقرارهم اياه على تصرفاته يقدمون له الشكر ويكافئونه على اعماله. هذا في النهـــار ، وفي الليل كانت المسارح والمراقص والمواخير يتلوها في اليوم الثاني نزهات على ظهور الجياد ، وقفز حواجز ، وتمارين على السلاح الأبيض ، والجنون المطبق المعتاد ، ثم الخمر ، فالتذمر فالنساء .

هـــذا الضرب من الحياة أشد ضرراً على الجندي أمثال (نيكليندوف) ورفاقه ، مما هو على الرجل العادي الذي يحيا حياة شبيهة بحياته . اذ ان هذا يحس بتبكيت الضمير لأنه لا يرى مبرراً لأعماله. ولكن الجندي يرى أنه يؤدي

واجباً وطنياً مقدساً ، ويفاخر به ، وخصوصاً ابان الحروب . وكان هذا حال الأمير (ديمتري ايفان نيكليندوف) الذي التحق بالجيش في بداية الحرب مع تركيا.

— نحن في خطوط النار على الدوام دفاعاً عن الوطن ، وذوداً عن حياضه ، ومهما استمتعنا بحياتنا ، وأمعنا في هذا الاستمتاع فلن نضر أحداً . وأنه لمن الجنون ألا نفعل ذلك . هذا هو لسان حال هؤلاء .

وهكذا كان تفكير (نيكليندوف) في تلك الحقبة من حياته . وكان جد مسرور لانعتاقه من القيود المعنوية التي كان قد أخذ نفسه بها في مستهل شبابه .

في غمرة ذلك الجنون المزمن كانت تمر حياته عندما عاد فرأى (كاترين) للمرة الثانية في بيت خالتيه ، بعد ثلاثة أعوام من لقائه الأول بها .

١٤

عديدة كانت الأسباب التي حملت الأمير (نيكليندوف) على أن يعود مرة اخرى لزيارة خالتيه اللتين كانتا قد كتبتا له معربتين عن شوقهما الشديد لمعانقته. غير ان السبب الحقيقي الذي حفزه على ارضاء رغبة العانسين العجوزين كان شديـــد شوقه للقاء (كاترين) وان كانت دوافع هذا الشوق غير سليمة الأمر الذي كان يأبى الاعتراف به حتى أمام نفسه . وكل ما كان يقوله هو انه يرغب في زيارة خالتيه ما دام قصرهما يقع في طريقه الى فرقته ، وانه يشتهي أن يرى الأماكن التي شهدت ساعات ناعمة هنيئة من حياته بالقرب من (كاترين) وان يلقاها هي أيضاً .

كان وصوله الى القصر في أواخر شهر آذار وخلال الجمعة المقدسة ، وتحت وابل من المطر الغزير ، والبرد الشديد . وهكذا فانه عندما دخل على خالتيه كان يتنفض من شدة البرد الا أنه كان قوي البنية ممتلئاً حيوية كالعادة . وكان يقول في نفسه وهو يجتاز فناء الدار المغطى بالثلج المتساقط عن الأسطحة ، متملياً ذلك البناء الضخم الذي كان يعرفه معرفة تامة .

— ارجو ان تكون ما زالت موجودة هنا .

وكان يتوقع ان تخف هي لملاقاته عندما يقرع الباب غير ان شيئاً من هذا لم

يحدث ، ورأى أمام مدخل الجناح المخصص للخدم ، خادمتين حافيتين مشمرتي الثياب تغسلان الرواق . اما (كاترين) فلم يقع على أثر لها في أي ركن من أركان المـــنزل ، ولم ير سوى (تيكون) الخادم العجوز الذي كان منهمكاً بتنظيف البيت ، وعلى صدره صدارة بيضاء .

وفي القاعة التقى بخالته (صوفيا ايفانوفنا) مرتدية ثوباً حريرياً ، وتضع على رأسها شالاً من الصوف .

أحمد الله لمجيئك . — قالت له وهي تقبله — ان (ماري) منحرفة الصحة قليلاً وقد تأخرت في الكنيسة بعد تناول القربانة .

— شكراً أيتها الخالة (صوفيا) . أجابها الفتى وهو يقبل يدها — معذرة . لقد بللتك .

— اذهب الى غرفتك واخلـــع ثيابك . مسكين انت متجمد . لقد طر شارباك . (يا كاترين) ، (يا كاترين) . احضري القهوة حالاً .

— في الحال . — أجاب من المشى صوت عذب رخيم ما زال الأمير يتذكره. فغمرت الفرحة فؤاده . انها هي. ما زالت موجودة. كانت أشبه بشعاع من نور الشمس يطل من خلال الغيوم .

وقاده (تيكون) الى حجرته القديمة ، فتبعه فرحاً مسروراً . كان يرغب، في أن يستعلم عن (كاترين) وعن حياتها ، وعما اذا كانت مخطوبة ، ولكنه أعوزته الجرأة ، فاقتصر على السؤال منه عن أبناء أخيه ، وعن الجواد القديم ، وعن (بولكان) كلب الحراسة الكبير. كان جميع هؤلاء ما زالوا احياء وبحالة حسنة ما عدا (بولكان) الذي أصيب بداء الكلب فمات .

وفيما كان يهم بأن يغير ثوبه، سمع وقع أقدام في الرواق تبعه قرع على الباب لا يزال يذكرهما . لقد كانت هي . فوضع المعطف على أكتافه وقال :

— ادخلي .

لقد كانت هذه (كاترين) ، غير انها كانت أشد جمالاً ومرحاً منها في أي وقت مضى . لم يزل لهـــا عيناها النجلاوان ، وابتسامتها المرحة الساذجة ،

وصدارتها البيضاء النقية . لقد جاءت تحمل اليه ، بناء على رغبة خالته قطعة صابون معطر ، ومنشفتين، احداهما من القماش الناعم والاخرى اسفنجية النسيج. كانت قطعة الصابون الجديدة كل الجدة ، والمنشفتان ، وهي ذاتها ، كل شيء كان جميلاً غضاً يبعث المرح والاعجاب . كانت شفتاها الحمراوان الغضتان تمسكان نفسيهما كيلا تفتران عن ابتسامة سرور كعهده بها في أيامها الماضية عندما كانت تقف أمامه .

– أهلاً بك ومرحباً ، يا (ديمتري ايفان) – قالت على استحياء وصبغت خديها حمرة الخجل .

– نهارك سعيد . كيف حالك ، وكيف أنت ؟

وارتبك فلم يدر كيف يخاطبها ، وأحس بحمرة الخجل تصبغ وجهه .

– شكراً. لقد أمرتني خالتك ان أحضر لك هذا الصابون الوردي الذي طالما أحببته. – قالت ذلك ووضعت الصابون على الطاولة والمنشفتين على ذراع المقعد.

– ان (ديمتري ايفان) يحمل معه صابونه الخاص . – أجاب (تيكون) بجفاء ، مشيراً بيده الى محفظة من الجلد الأحمر ذات اطار وقفل من الفضة .

– ابلغي عني الشكر لخالتي . كم أنا مسرور لمجيئي . – اضاف يقول وقد شعر بعذوبة ورزانة فائقتين .

وكان جواب الفتاة الوحيد ابتسامة ارتسمت على شفتيها وخرجت من الغرفة .

استقبلت العجوزان العانسان (نيكليندوف) بسرور غير عادي . كانتا تحبانه حباً يقرب من العبادة ، وكان في طريقه الى ميدان المعركة حيث يحتمل ان يسقط صريعاً ، او جريحاً ، او أسيراً ، وكان هذا يثير في نفسيهما الشجن والحنو .

جاء (نيكليندوف) وفي نيته قضاء يوم واحد عند خالتيه . ولكنه عندما رأى (كاترين) عدل برنامجه ، وأبرق الى صديقه (شمبوك) لملاقاته عندهما بدلاً من انتظاره له في (اوديسا) كما كان الاتفاق بينهما .

كان ذلك قبيل عيد الفصح بيومين اثنين ، فرأى أن يقضيهما في ذلك المنزل القديم .

لقد أثارت له (كاترين) منذ اللحظة الأولى نفس الاحساس الذي كانت تثيره له في الماضي . وكالماضي كان لا يقوى على النظر اليها ، دون أن تثـــير مشاعره . كان يصغي بغبطة بالغة لصوتها العذب وضحكتها ووقع أقدامها . وكانت نظراتها الباسمة ، وعيناها الدعجاوان تطيش له ، ويرتبك عندما يراها تحمر خجلاً . كان قد أدرك انه مغرم ، ولكن ليس على طريقته القديمة عندما كان لا يؤمن بأن الانسان يستطيع أن يحب أكثر من مرة واحدة . هو الآن يحب ، ويجيد الحب ، ويستمتع بلذاذاته . ولكنه يعلم نوعيته ، وما هي نهايته الممكنة .

كان (نيكليندوف) كسائر الرجال تقريباً ، ذا طبيعتين احداهما تنعم بفعل الخير ، ولو كان على حساب مصالحها الخاصة . والثانية وحشية ، أنانية ، وبلا وازع ، وعلى استعداد لتضحية الانسانية جمعاء في سبيل ملذاتها . وكانت قد تغلبت هذه على الأولى خلال اقامته في بطرسبرج ، ولكن احساساته القديمة قد استيقظت الآن ، وأطل الانسان المعنوي من مكمنه مطالباً بحقه . ودارت رحى معركة عنيفة في داخله دامت يومين دون أن يأبه لها . كان الواجب يدعوه للسفر ، ويرى ان لا مبرر لبقائه مدة أطول ، ولكن ما كان يجده في بقائه من السعادة الفائقة والهناء العميق كان أقوى أثراً فطغى على صوت الواجب والضمير فلم يسافر .

وجاء الكاهن والشماس الى البيت في عربة قبيل عيد الفصح ليباركا الخبز كالمعتاد ، وليقيما صلاة منتصف الليل ، فلقيا عناء كبيراً في اجتياز المسافة التي بين الكنيسة والقصر والتي لا تتجـــاوز الخمسة كيلومترات . فحضر (نيكليندوف) الصلاة مع خالتيه وسائر خدم المنزل ، غير انه كان على رغمه عالق النظر (بكاترين) التي كانت آنئذ تحمل المبخرة .

وفيما كان (نيكليندوف) يهم بدخول غرفته بعد الفراغ من الصلاة وتبادل القبلات مع خالتيه والكاهن اذا به يسمع في الرواق صوت (ماري باولوفنا) الوصيفة العجوز وهي تقول انها تستعد للذهاب الى الكنيسة برفقة (كاترين) لحضور القداس ومباركة الخبز .

– كذلك سأذهب أنا . – قال في نفسه .

كانت حالة الطريق تجعل من الذهاب الى الكنيسة ضرباً من المستحيل . ولذا فان (نيكلينندوف) الذي كان يتصرف في ذلك البيت كما لو كان في بيته ، أمر بأن يسرج الجواد العجوز ، وارتدى بزته الرسمية الخاصة بالمراسيم ووضع عباءة على أكتافه ، وسار الى الكنيسة متحدياً الوحول والثلوج .

١٥

ظلت ذكرى تلك الصلاة التي حضرها (ديمتري ايفان) عند منتصف الليل حية في نفسه ، وباقية لا تمحى .

كانت الصلاة قد ابتدأت عندما بلغ (نيكلينندوف) الهيكل بعد أن اجتاز على ظهر الجواد ، مسافة بعيدة في ظلام لا يهديه فيه نور اللهم إلا بياض الثلج الذي كان ينير له الطريق بين مرحلة وأخرى .

كان المصلون كثيرين . وكان القرويون يجلسون عن اليمين ، يرتدي الشيوخ منهم ثياباً خاطوها بأيديهم ويلفون على سيقانهم لفائف من قماش أبيض ، والشبان يلبسون ثياباً جديدة من الجوخ ، ويشدون خصورهم بمناطق ذات ألوان زاهية ، ويحتذون أحذية طويلة ، وتجلس القرويات عن اليسار ، وعلى رؤوسهن أغطية حريرية حمراء ، ويرتدين صدائر من المخمل أكمامها حمراء وفساتين من ألوان متعددة ، ما بين الأزرق والأخضر والأحمر ، ويحتذين أحذية جديدة . وكانت العجائز قد تجمعن في الصفوف الأمامية وعلى رؤوسهن أغطية بيضاء ، ويرتدين فساتين رمادية اللون ، وبينهن الصبية على أذرعهم شرائط المعمودية ، ورؤوسهم مطلية بالدهن .

كان الرجال يكثرون من الركوع ، أما النسوة ، وخصوصاً الطاعنات في السن ، فكن شاخصات بأبصارهن الى المذبح الذي كان مضاء بالشموع ، ويقرعن بقبضات أيديهن جباههن ورؤوسهن وبطونهن ، ويصلين بصوت خافت ثم لا يلبثن أن ينحنين الى الأمام بخشوع كمن يهم بالركوع . وكان الصبية يقلدون آباءهم فاذا ما رأوا انهم يراقبونهم ازدادوا امعاناً في الصلاة .

كان الهيكل الذي يضيق بالصور المقدسة ، يتوهج كقطعة من ذهب حميت في النار ، ويسطع فيه نور ينبعث من عدد عديد من الشموع المضاءة ، وقنديل كبير ، ويسمع من كلا فرقتي المرتلين اللتين ترافقان المصلين ، نغم ضاحك عذب تختلط فيه أصوات الصبية الحادة بأصوات الكبار البالغين .

وظل (نيكليندوف) يتقدم الى ان بلغ وسط الكنيسة ، حيث يجلس امثاله ابناء الطبقة الأريستوقراطية . كان ثمة احد الملاكين ترافقه زوجته وولده الذي كان يلبس ثياب بحار ، وعامل البرق ، وتاجر يحتذي حذاء طويلاً وقيم الكنيسة وشارته على صدره . ومن وراء زوجة التاجر كانت تقف (ماري باولوفنا) بثوبها الليلكي ، و (كاترين) بثوبها الناصع البياض ، ونطاقها الأزرق ، وشريطة حمراء تعقدها على شعرها الأسود الفاحم .

كل شيء كان ثمة جميلاً مرحاً وقدسياً ، سواء في ذلك الكاهن الذي كان يرتدي الثوب الفضي الموشى بصلبان ذهبيـــة ، والشماس بثوبه الموشى بالفضة والذهب . والترتيل ، وحركات الكاهن وهو يرفع بيده القنديل ذا القاعـــدة المثلثة ليبارك الحاضرين ، والطريقة التي كان هؤلاء يقاطعونه بها كل لحظة مرددين معاً قـــولهم : « بعث يسوع ، بعث يسوع » . كل شيء كان جميلاً ، وكانت (كاترين) أجمل من كل هذا بثوبها الناصع البياض ، ونطاقها الأزرق ، وشريطتها التي تربطها ضفائرها ، وعينيها النجلاوين اللتين تطفحان بالسعادة والهناء .

كان (نيكليندوف) على مثل اليقين من انها كانت تراقبه ، دون ان تلتفت نحوه ، وأكد له ذلك انه عندما مر بالقرب منها اثناء تقدمه نحو الهيكل وهمس يقول لها :

— لقد قالت الخالة اننا سنتناول عشاء بعد الصلاة الثانية رأى الدم يتصاعد الى وجهها ، شأنها في كل مرة كانت تنظر فيها اليه ، وأجابته فرحة باسمة ، وهي تحدق بنظرها في عينيه .

— اعلم ذلك .

في تلك الأثناء كان الشماس يطوف على المصلين ليجمع الصدقة منهم ، فلمـــا

مر بجانب (كاترين) مس ثوبه ثوبها دون أن يأبه لها ، واصطدم (بنيكلندوف) دون ان يقصد الاساءة اليـــه . فشق ذلك عليه ، وعجب لهذا الرجل كيف لم يدرك ان كل ما في الكنيسة وخارجها ، وكل ما في الدنيا بأسرها انما وجد من أجل (كاترين) ، وان كل شيء قد يندثر ويتلاشى الا هي ، لانها محور الكون . لأجلها يتوهج الذهب على المذبح، ولأجلها وحدها تضيء الشموع في الشمعدانات، ولأجلها ترتفع تلك الألحان العذبة الضاحكة « هي قيامة السيد المسيح ، فليفرح البشر » . كل ما في الدنيا من جميل وصالح انما وجد لأجلها . وينبغي ان تدرك ذلك (كاترين) . هكذا كان يحسب (نيكليندوف) وهو يتملى جمال قوامها البارع وهي في ثوبهـــا الجميل الناصع البياض . وكان واضحاً انها تشاطره نفس الشعور كما يبدو ذلك في قسمات وجهها الجاد .

وخرج (نيكليندوف) من الكنيسة ، خلال فترة ما بين القداسين فكان الناس يفسحون له الطريق ويحيونه باحترام . كان البعض يعرفه، والبعض الآخر كان يتساءل من يكون هذا ؟

والتف حوله المتسولون في باحة الكنيسة فوزع عليهم كل ما كان يحمله من المال ، وهبط السلم .

كان الضباب قـــد انقشع قليلاً ، ولكن الشمس كانت لا تزال بعيدة وراء الأفـــق ، وكانت الجماهير التي تخرج الى فناء دار الكنيسة تجلس على القبور ، ولكن (نيكليندوف) لم ير أثراً (لكاترين) فلبث ينتظر خروجها ، والجماهير ما زالت تتدفق الى الخارج ، ويرتفع وقع اكعاب أحذيتها الحديدية على البلاط . واستوقف عجوز يرتعش جسمه ، وهو طاهي (ماري باولوفنا) الأمـــير (نيكليندوف) ليقبله ثلاث مرات. وأخرجت زوجته العجوز المتغضنة الوجه ، من منديل كانت تحمله ، بيضة صفراء وقدمتها له جرياً على تقليد شعبي روسي يحتم ان يقبـــل الناس بعضهم بعضاً ثلاثاً في عيد الفصح ، وان يتبادلوا الهدايا بالبيض المصبوغ باللون الأصفر . وجـــاء بعدهما شاب قروي ضخم العضلات يرتدي سترة جديدة وزناراً أخضر فابتسم وقال :

– بعث يسوع . – قالها بسرور ، ثم تقدم من (نيكليندوف) وقبله في فمه ثلاثاً ، فخرشت لحيته القاسية وجه الأمير ، وملأت رائحته العطنة أنفه . وفيما كان الأمير يبادله القبلات الثلاث اطلت (ماري باولوفنا) من بين الجماهـــير بثوبهـــا الوهاج يتبعها رأس أسود محبوب بشريطته الحمراء ، ذلك هو رأس (كاترين) التي عرفته في الحال من بين تلك الجماهير فوقفتا ريثما تتصدقان على الفقراء والمتسولين . وكان أحد هؤلاء رجل في وجهه فرحة تقشعر منها الأبدان قد امتدت حتى غمرت أنفه ، فدنا من (كاترين) فبحثت هذه في جيبها عن قطعة نقـــود اعطته اياها ، ثم بادلته القبلات الثلاث ، دون ان يبدو منها أي تقزز واشمئزاز . وعندما تلاقت نظراتها بنظرات (نيكليندوف) بدا و كأنها تقول له :

– هل أحسنت صنعاً بتقبيلي هذا المنكود الطالع ؟

و كأنما كان هذا جوابه : بلى لقد احسنت يا معبودتي ، كل هذا جميل ، وأنا أحبك .

فهبطت المرأتان السلم ، وخف لملاقاتها (نيكليندوف) . لم يكن ينوي تهنئتها بالعيد ، وانما كان يبغي ان يكون على مقربة منها .

– بعث يسوع – قالت (ماري باولوفنا) ثم نظفت شفتيها وقبلته ثلاثاً .

– حقاً لقد بعث يسوع . – أجابها (نيكليندوف) وهو يبادلها القبلات .

ثم نظر الى (كاترين) فاحمر وجهها وتقدمت منه .

– لقد بعث يسوع (يا ديمتري ايفان) .

– حقاً لقد بعث يسوع .

وتبادلا قبلتين ثم أمسكا كأنهما يتساءلان عما اذا كان لا بد من ان تكون القبلات ثلاثة . ثم عادا ليتبادلا القبلة الثالثة وابتسما .

– ألا تعودين الى الكنيسة ؟

– كلا ، (يا ديمتري ايفان) أجابت الفتاة وهي تتنهد بملء رئتيها كما يحدث بعد جهد سار ، وحدقت فيه بنظرات مستكينة طاهرة ومغرمة .

عنـــدما يتحاب شخصان رجل وامرأة ، فلا بد من ان يمر غرامها بلحظة يسمو فيها عن الحس الشهواني ، ويتطهر ، وتتوحد الروحان روحاً واحدة . كانت تلك هي اللحظة التي مر بها غرام (نيكليندوف) غداة ليلة عيد الفصح، وذلك هو الموقف الذي تجلى أمام عيني (نيكليندوف) بوضوح ، وهو جالس في قاعة المحلفين مستعرضاً كافة تفاصيل علاقاته (بكاترين) فطغى على كل ما عداه . ها هوذا رأس أسود تحليه شريطة حمراء ، وشعر أسود قد صفت بعناية فائقة ، وفستان ابيض ، وصدر قد نهد حديثاً ، ووجه تورده حمرة الخجل ، وعينان دعجاوان معبرتان ، وبراءة صارخة تدل على ذاتها ، وذلك الحب العميق الساذج الذي لا يقتصر عليه وحده ، وانما يشمل كل ما هو صالح وجميل ، بل اكثر من ذلك اذ انها توزعه بين كافة المخلوقات . أليس في تقبيلها للمتسول انصع دليل على ذلك ؟ في تلك الليلة شعر بحب غير ذي حدود ، وكان يبدو له ان الفتاة وهو لم يكونا الا ذاتاً واحدة .

ليت كل شيء تم على مثل تلك اللحظة ، ووفاقاً لذلك الشعور الذي احسسته في الكنيسة وفي فناء الدار . لم يبق شيء من هذا ويا للأسف . لقد وقع المحزن والمؤلم . تلك هي الافكار التي كانت تشغل تفكيره وهو جالس الى النافذة في قاعة المحلفين .

١٦

عندما عاد (ديمتري) من الكنيسة الى البيت تناول العشاء مع خالتيه ، فأكثر من شرب الخمر رغبة منه في (تجديد قواه) عملاً بالعادة المتبعة في فرقته في الجيش . ثم ذهب الى غرفته حيث القى بنفسه على الفراش دون أن يخلع شيئاً من ثيابه ، وراح في ثبات عميق . واستفاق من نومه على قرع خفيف على الباب ، فعرف انها كانت (كاترين) فهب من فراشه وهو يفرك عينيه .

— أهذه انت يا (كاترين) ؟ أدخلي .

ففتحت هذه الباب مواربا وقالت :

— المائـــدة جاهزة . — قالتها والسرور باد على وجهها كما لو كان في ذلك

حدث هام . كانت ما تزال ترتدي ثوبها الأبيض ولكنها كانت قد نزعت الأشرطة الحمراء عن شعرها .
– سأذهب سريعاً . – قال وهو يتناول المشط .
فلبثت برهة واقفة فلاحظ ذلك (نيكليندوف) فخطى نحوها خطوة ، ولكنها استدارت في اللحظة الأخيرة، وخرجت من الغرفة بخطى سريعة قصيرة.
– يا لي من غبي . لماذا لم أوقفها . – قال مخاطباً نفسه . ثم خرج من الغرفة مسرعاً ليلحق بها .
كان يجهل ما يريد ، غير ان صوتاً خفياً كان يهيب به ان عليه ان يتصرف تصرف غيره من الرجال في مواقف مماثلة .
– تمهلي يا (كاترين) . – صاح يقول لها .
فالتفتت الفتاة اليه ثم وقفت وقالت :
– ماذا تريد ؟
– لا شيء . ولكنني ... ثم طوق خصرها بذراعه ، بعد ان بذل مجهوداً كبيراً للتغلب على خجله فحدقت في عينيه وقالت :
– هذا قبيح ، هذا قبيح يا (ديمتري ايفان) .
وكان وجهها قد احتقن ، وأوشكت ان تبكي ، ورفعت ذراعه عن خصرها لتتخلص منه .
فتركها (نيكليندوف) تفلت ولبث برهة مخجولاً من نفسه مشمئزاً من عمله ، ولكنه عاد ففكر في الموقف السخيف الذي وقفه فخف وراءها وقبل عنقها .
كانت هاته القبلة بعيدة كل البعد مختلفة كل الاختلاف وتلك البريئة الساذجة التي تبادلاها في فناء دار الكنيسة قرب شجرة (الليلاك) ثم تبادلا على أثرها النهائي بعيد الفصح . كانت هذه مريعة جداً ، وعرفت ذلك (كاترين) .
– ما تفعل . – هتفت تقول بصوت ينضح بالألم كأنما كان قد حطم أنفس ما في نفسها ، وفرت هاربة .

ودخل (نيكليندوف) قاعة الطعام حيث كانت خالتاه والطبيب ، واحدى جاراتهن يتناولون المقبلات . لم يكن ما قد حدث بالحدث الهام، ومع ذلك فقد كان الأمير في حالة ارتباك شديد لا يدري معه ما يصنع . وكان يخبط خبط عشواء في حديثه وفي اجاباته عما يسأل عنه ، اذ كانت افكاره منصرفة (لكاترين) مأخوذة بلذة القبلة الأخيرة . ولا يقوى على التفكير بأمر آخر . وعندما جاءت الفتاة ودخلت القاعة تنبهت لها سائر جوارحه، وكان لا بد له من مجهود كبير يبذله مع نفسه الجموح التواقة للنظر اليها .

وذهب الى غرفته بعد الفراغ من تناول الطعام ، حيث ظل مدة طويلة ، مدفوعاً بانفعاله الشديد ، يتلصص على كل حركة ، ويتسقط كل نأمة لعله يتبين في احداها وقع اقدام (كاترين) أو يبلغ صوتها سمعه . كانت قد تنبهت الغريزة الحيوانية فطغت على الانسان المعنوي الصالح الذي كان يسيطر على حواسه منذ ثلاثة أعوام حتى تلك الليلة عندما كان في الكنيسة . لقد تغلب الآن الحيوان على الانسان .

وعلى رغم حرصه على ترصد الفتاة فانه لم يتمكن من الانفراد بها ، ذلك لأنها في الواقع كانت حريصة على تجنب ذلك وتحاشيه ما استطاعت . ولكنها كان لا بد لها من الدخول الى الغرفة المجاورة لغرفته لأن الطبيب سيبات تلك الليلة في المنزل وينبغي عليها والحالة هذه، ان تعد له السرير . وعرف الأمير وقع اقدامها فخف اليها حابساً أنفاسه ساعياً على رؤوس أقدامه كمن يسعى لارتكاب جريمة.

كانت تمسك بكلتا يديها غطاء مخدة محاولة الباسه لها. فالتفتت اليه وارتسمت على شفتيها ابتسامة لم تكن المعهودة منها المرحة المطمئنة ، وانما كانت ابتسامة باهتة تنم عن اسف ورعب ، وكأنها تقول له ان ما تحاوله أمر قبيح . وكان ما يزال في نفس (نيكليندوف) بقية من مقاومة ، لذا فقد لبث برهة واقفاً قربها لا يبدي حراكاً . ولآخر مرة سمع صوت حبه الحقيقي يهيب به خافتاً محدثاً عن الفتاة ، وشعورها ، وعما يمكن ان تكون حياتها ، غير ان صوتاً آخر كان أشد عنفاً يلح قائلاً له : « لا تدع لذتك وسعادتك تفلت من بين يديك » . وكان ان تغلب هذا الأخير .

فتقدم من الفتاة بحزم وتصميم ، وبحركة وحشية احتضنها بين ذراعيه ووضعها على السرير .

– يا (ديمتري ايفان) ارجوك ... حسنة لوجه الله ... دعني . – كانت تقول له . – ها هي ذي (ماري باولوفنا) قادمة . – اضافت تقول وقد افلتت من بين يديه .

– حسن . اسمعي . سأذهب الليلة الى غرفتك . هل تكونين وحدك ؟

– ماذا تقول ؟ خف الله . كلا . – غمغمت تقول ولكن ما كان ينتاب جسمها من الرعشة كان يدل على انها كاذبة .

ودخلت (ماري باولوفنا) الغرفة حاملة الحشية ، وهي لا تفتأ تعنف (كاترين) لأنها نسيت الملاحف ، وإذ رأت الفتى نظرت اليه نظرة توبيخ ، فغادر الغرفة دون أن يقول شيئاً . لقد أدرك من تعابير وجه (ماري باولوفنا) انها تظن به الظنون ، وكان يعلم انها على حق ، وان ما يبيته كان قبيحاً . غير انه لم يستحي . لقد حالت الغريزة الحيوانية التي حلت محل حبه (لكاترين) دون امعان الفكر . كان يود اشباع شهواته بأي ثمن كان . لقد أصبح يعلم ما هو السبيل اليها ، وكان يفتش عن هذا السبيل .

ظل طوال ليله مضطرباً قلقاً ، فقد كان يحاول ان يراها في أي مكان تهيأ له ذلك ، سواء أكان في غرفتها ، أم على الشرفة أم في القاعة . ولكن (كاترين) كانت تتحاشى لقاءها معه . وفضلاً عن ذلك فان (ماري باولوفنا) كانت قد لاحظت ما بينهما فأصبحت تراقبها بعين يقظة .

١٧

على مثل هذا القلق والاضطراب استقبل الأمير ليلته . وانصرف الطبيب الى مخدعه لينام ، وأوت خالتاه الى مرقدهما . كان (نيكليندوف) يعلم جيداً ان (ماري باولوفنا) لا بد أن تكون مع خالتيه لتساعدهما على خلع ثيابهما ، وأن (كاترين) قد تكون وحدها في مخدع الخدم . فأسرع في الخروج من البيت . كان الليل رطباً ودافئاً والهواء مثقلاً بالضباب الخفيف الذي يخلفه

وراءه ذوبان الثلوج ، وينبعث من النهر القريب صوت أجش هو صوت تكسر ألواح الجليد التي تجرفها مياه النهر .

وأسرع (نيكليندوف) يوسع الخطى ، غير مبال بالأوحال والثلوج والمياه الراكدة ، ودنى من نافذة يستطيع من ورائها مراقبة غرفة الخدم . كان قلبه يخفق خفقاناً شديداً يستطيع معه احصاء دقاته . وكان تنفسه عسيراً وشاقاً .

كانت الغرفة مضاءة بقنديل باهت النور . وكانت (كاترين) جالسة وحدها أمام طاولة ويبدو عليها انها تفكر ، وكانت نظراتها شاردة . فلبث برهة يراقبها كانما كان يحاول قراءة أفكارها . وظلت الفتاة ساهمة بعض الوقت . وفجأة هزت رأسها كأنها تؤنب نفسها ، ورفعت نظرهـــا الشارد عن الأرض ثم ابتسمت ، وبحركة عصبية اتكأت بذراعيها على المنضدة ، وعادت نظراتها الى الشرود من جديد . وكان الأمير ينظر اليها وبدون قصد يصغي الى هدير مياه النهر ، وتكسر ألواح الجليـــد المستمر ، وصوت اصطدام بعضها ببعض ، والتقصف الذي يشبه صوت تقصف الحطب الأخضر عند احتراقه ، وتكسر الزجاج عندما يسقط على الأرض .

وهزته الشفقة والمرحمة ، وهو يراقب ذلك الوجه الذي يبدو عليه التفكير والاجهاد لما يعتلج في صدر صاحبته من الانفعالات النفسية . ولكن ، وهنا موضع الغرابة ، فقد أزكت تلك الشفقة والمرحمة اوار شهواته .

وقرع الزجاج محاذراً ، فارتاعت (كاترين) وانتفضت كمن مسه تيـــار كهربائي ، وبدأ على وجهها رعب مفاجىء ، ثم وقفت وتقدمت من النافذة وألصقت وجهها بزجاجها . وعلى الرغم من انها عرفته فان مظاهر الجزع لم تفارقها وظل وجهها متجهماً كما لم يره الأمير قط . فابتسم لها هذا فبادلته الابتسام غير انه كان ابتساماً حزيناً صادراً عن نفس تنوء تحت وطأة خوف مميت . فأشار اليها بيده لكي تخرج لملاقاته ولكنها أشارت اليه برأسها إشارة الرفض دون أن ترفع وجهها عن الزجاج ، فأدنى فمه كي يقنعها بالخروج إلا انهـــا قفزت نحو الباب كأن أحداً قد ناداها . فتنحى (نيكليندوف) عن النافذة ، وكان

الضباب من الكثافة بحيث لم يكن يرى من النافذة على بعد خمس خطوات ، سوى كتلة سوداء ، ينبعث منها بصيص نور أحمر . وكان لا يزال يسمع هدير ماء النهر ، وتكسر الجليد المتواصل . وفجأة سمع في الباحة صياح ديك ، جاوبه آخر ، وتبعه آخرون ، وأخذت الديكة تتجاوب في الحقـــول حتى اختلط بعضها ببعض واستحال تمييزها . كان كل شيء حوله هادئاً هدوء القبور ولا يعكره سوى هدير مياه النهر .

وأخذ (نيكليندوف) يطوف في الوحول جيئة وذهاباً وظل هكذا بعض الوقت ثم عاد الى النافذة من جديد . كان القنديـــل لا يزال مضاء ، وكانت (كاترين) واقفة بجانب الطاولة وتبدو على وجهها دلائل التردد والقلـــق . فناداها ، وسرعان ما هرعت خارجة من الغرفة ، دون ان تحاول معرفة المنادي . ثم سمع صوت باب يفتح ثم يغلق بعنف . وكان لا يزال ينتظر بفارغ الصبر . فاحتضنها بين ذراعيه ، دون أن يفوه بكلمة واحدة ، فالتصقت (كاترين) به ورفعت رأسها فتلاقت الشفاه المنشودة . وهكذا كان يحس باستعاد شهوته ، وهما متعانقان في زاوية خارج البيت . وفجأة فتح الباب وسمع صوت (باولوفنا) الغضبي ينادي : — يا (كاترين) .

فأفلتت من بين ذراعيه ، وهرعت الى البيت . ولم يلبث (نيكليندوف) ان سمع صوت قفل يغلق ثم تلاه اطفاء القنديل ، وساد الظلام والهدوء . كان الضباب ما زال يزداد كثافة ، وهدير مياه النهر ، وصوت تكسر الجليد ما زال مسموعاً .

ودنى (نيكليندوف) من النافذة ، ولكنه لم ير شيئاً . فنادى ولكنه لم يجد جواباً . عندئذ عاد ادراجه الى البيت وصعد الى غرفته دون ان ينام ، فخلع حذاءه ، بعد قليل ، ومضى حافي الأقدام في المشى الى ان بلـــغ غرفة (كاترين) التي كانت بجانب غرفة (ماري باولوفنا) . فأرهف سمعه وأنصت الى صوت أنفاسها الهادىء الرتيب ، وفيما كان يهم بأن يقرع باب غرفة الفتاة ، إذا به يسمع صوت سعال العجوز وتململها في الفراش ، فحبس أنفاسه .

ومرت دقائق قليلة عادت بعدها انفاس العجوز تسمع رتيبة هادئة ، فتقدم من باب غرفة الفتاة ، وهو يمشي على رؤوس أقدامه كيلا يحدث ضجة . كان كل شيء هادئاً في غرفتها فعلم انها لم تكن نائمة ، لأنه لم يكد يهمس بندائه لها حتى هبت من فراشها وأخذت تتوسل اليه بلهجة شاكية ان يدعها وشأنها قائلة له :

– ما هذا الذي تحاوله ؟ ... يستحيل ... وسيداتي ؟

هذا ما كانت شفتاها تغمغم به، ولكن سائر جوارحها كانت تقول له: أنا لك . كلي لك . وهذا ما سمعه (نيكلييندوف) .

– أتوسل اليك ... أرجوك ... – بهذا كان جنون الشهوة العارمة يجعله يهذي .

وساد سكون قليل سمعت على أثره حركة يد تمس القفل ثم فتح الباب ، فدخل (نيكلييندوف) .

– أواه . ماذا أنت فاعل ؟ دعني . – كانت تغمغم .

فاحتواها بين ذراعيه ، وليس ما يسترها سوى القميص ، وشرع يدفعها الى الداخل .

– كلا . كلا ... هذا قبيح ... ما تفعل ؟ ... دعني . – وكانت في كل مرة تزداد به التصاقاً .

* * *

غادر (نيكلييندوف) (كاترين) مرتعشة واجمة ، لا تجيب بشيء على ما يقوله لها وخرج الى الهواء الطلق . كان الظلام قد بدأ ينقشع ، ويسمع من بعيد صوت تكسر الجليد ، وأصبح يرى بوضوح تنزي مياه النهر وانسيابه . وأخذت أمواج الضباب تتبخر ، ويبدو من ورائها قوس القمر ينير بنوره الباهت الكئيب أمراً نكراً . كان (نيكلييندوف) يحاول جاهداً ادراك مدى أهمية ما قد حدث .

– ماذا حدث ؟ أكان امراً صالحاً أم طالحاً ؟ ... على كل حال الجميع يفعلون ما فعلت . – بهذا كان يخاطب نفسه . ثم مضى الى غرفته مطمئن النفس واستلقى على فراشه ونام .

١٨

جاء (شمبوك) صديق الأمير (ديمتري ايفان) في اليوم التالي . كان مرحاً مقداماً ، وما عتم ان حاز على تقدير ربتي البيت العانسين واعجابها بما أظهره من دماثة الخلق والسخاء وحسن المعشر والحب (لنيكلينفدوف) ، ولكنهما أخذتا عليه افراطه في السخاء . إذ أنه أعطى روبلاً لمتسول أعمى ، ووزع بين الخدم خمسة وعشرين . وعندما جرحت ساق كلب (صوفيا ايفانوفنا) الذي كانت تناديه باسم (سيستكا) اقتطع قطعة من منشفته وهي من الحرير الخالص وربط بها الجرح . وقالت العجوزان انهما لم تريا قط سخاء مفرطاً كهذا . انهما بلا ريب لم تكونا تعلمان ان (شمبوك) كان مديناً بمبلغ مئتي ألف روبل ، وأنه كان واثقاً من عجزه عن وفاء هذا المبلغ الضخم ولذا فان عشرين روبلاً تنقص أو تزيد كان في نظره غير ذي أهمية .

وسافر (شمبوك) بعد يوم واحد ، يرافقه صديقه (نيكلينفدوف) ، لأنه لم يكن يستطيع غير ذلك لانتهاء مدة اجازته .

وظل الصراع عنيفاً طوال ذلك النهار في نفس (نيكلينفدوف) كان صراعاً بين شعورين متناقضين . فمن جهة كان لا يزال حياً في نفسه صدى ذكريات ليلته الحادة ، ذكريات الشهوة الحيوانية التي لم يستخلص منها كل ما منى نفسه به من متع ، ومع ذلك وعلى الرغم من ذلك فقـــد كان فخوراً لنيله مبتغاه . وكان من جهة أخرى واثقاً من انه أساء التصرف ، ومقتنعاً من وجوب تلافي ذلك الخطأ ، لا لأنه كان ضاراً (بكاترين) وإنما من أجل نفسه ، لأنه لم يكن يستطيع التفكير إلا في نفسه لما فيه من أنانية عمياء . كان يقول في نفسه : ما عسى ما سيقوله الناس عني ؟ وبماذا سيحكمون علي ؟ أما حالة (كاترين) النفسية ، وما سينالها من الضر والأذى ، فهذا ما لم يكن في حسابه بقليل أو كثير .

ولاحظ ان (شمبوك) قد أصبح عالماً بما بينه وبين الفتاة من علاقات فازداد تيهاً وكبراً .

– لقد أدركت الآن سر غرامك بخالتيك – قال له الفتى وهو يضحك – ليس عجيباً أن تتوقف هنا ، ولو كنت في مكانك لحاولت أن اطيل اقامتي ما استطعت . الحق معك انها وردة لم تفتح بعد .

لقد ألم (نيكليندوف) اضطراره على السفر ذلك اليوم ، إذ انه يرى ان غرامه هذا قد يوفر له بعض اللذاذات ، ولكنه من جهة أخرى كان يرى في سفره وسيلة لفصم عرى علاقات قد يجوز ان تسبب له متاعب في المستقبل . ورأى من واجبه ان يعطي بعض المال (لكاترين) لا لأنها بحاجة اليه ولكن لأن الجميع كانوا يتصرفون هكذا ، ولذا فانه قبـــل موعد سفره ، وبعد أن تناول الطعام ، تربصها في الرواق ، فلما رأته حاولت الدخول الى جناح الخدم ولكنه سد عليها الطريق .

– كنت أريد أن أودعك . – قال وهو يلوح بيده التي تحمل مظروفاً ضمنه ورقة من ذوات المئة روبل .

– كنت أريد ...

فأدركت (كاترين) ما يقصد . فزوت ما بين عينيها ورفعت يده عنها .

– كلا . قال لها وهو يدس المظروف بين يديها ، ثم أسرع في اعادة يده كما لو كانت قد جرحت . ومضى لا ينوي على شيء حتى دخل غرفته وأخذ يذرع الغرفة بعصبية ذهاباً وإياباً ، آسفاً لذلك الموقف الذي وقفه ، متوجعاً كمن يشكو ألماً جسمانياً .

– على كل حال ما العمل ؟ هذا ما يحدث دائماً . لقد تصرف (شمبوك) نفس التصرف مع المعلمة . كذلك عمي (غريغوريوس) ، وحتى أبي له ولد ولا يزال حياً في (ميتينكا) إذا كان الجميع هكذا يفعلون ، فلماذا لا أحـــذو حذوهم ؟

بمثل هذا كان (نيكليندوف) يخاطب نفسه محاولاً من وراء ذلك تناسي فعلته ، وإسكات صوت ضميره غير أنه خاب فأله . لقد كانت ذكرى موقفه الأخير مع (كاترين) تقض مضجعه . كان يدرك ان تصرفه كان وضيعاً

وهمجياً حقـــيراً وفاسقاً . فهل من المعقول ان يظل يعتقد في نفسه النبل والشرف . ولما استعصى عليه إيجاد حل لمشكلته وسدت في وجهه السبل لجأ الى النسيان .

وأعانه الحرب والاصدقاء والحياة الجديدة على النسيان . وكان كلما أمعن في الحياة العملية ، كانت تلك الذكرى تخبو في نفسه أكثر فأكثر ، وهكذا حتى تلاشت بكاملها ، الى ان كان يوم وكانت الحرب قد انتهت ، جاء فيه لزيارة خالتيه فعلم ان (كاترين) قد طردت من المـــنزل بعد ذهابه بقليل ، وانها قد وضعت ولداً ذكر لم يلبث أن طواه العدم في طياته ، فأحس بما يعتصر فؤاده . وقدر المدة التي انقضت بين ولادة الطفل وسفره من البيت فعلم انه ولده . وعندما أكدت له خالتاه ان الفتاة كانت فاسقة كأمها سر كثيراً لأنه رأى في ذلك تخفيفاً لجريمته . كان يود لو يرى (كاترين) والطفل ، غير انه كان يشعر بألم مبرح وخجل دائم ، ولذا فانه لم يبدأ أي محاولة لمعرفة مقرها ، وهكذا فقد نسي زلته وكل شيء .

وها هوذا الماضي يعود الى الحياة من جديد ، بفعل حادث عجيب ، فيرى نفسه مجبراً على الاعتراف بفظاعة ما كان منه ، وخلوه من أي شعور انساني ، وإلا لما لبث عشر سنوات في حياة هادئة وادعة وهو مثقل الضمير بذلك العبء الباهظ .

ولكنه كان بعيداً كل البعد عن أن يعلن زلته لسائر الناس وأن يعترف للغير بما يعترف به لنفسه . لقد كان يخشى أن تفضح (ماسلوفا) أو محاميها ذلك الماضي البشع فيبدو على حقيقته أمام سائر الناس . وهذا ما كان يقض مضجعه .

١٩

كان المحلفون يدخنون ، وهم جالسون في قاعة المذاكرة منتظرين . وكان التاجر الطيب يعلق باطراء على تصرفات (سميلكوف) في حياته .

– ها هوذا رجل قضى لباناته في حياته . لقد كان سيبيريانياً حقيقياً . وأي نصيب أصاب !

كان رئيس المحلفين يقول لهم ملاحظاً ان كل شيء يتوقف على تقدير الخبير الطبي . في حين كان (جيراسيموفيتش) يتندر على المستخدم اليهودي ويضحكان معاً القهقهة . أما (نيكليندوف) فقد كان غارقـــاً في تأملاته ، باحثاً عن ذكريات ماضيه ، لا يفوه بكلمة إلا إذا سئل عنها وعندئذ كان يجيب بكلمات مقتضبة . وكأن لسان حاله يقول : دعوني بسلام .

وعندما عاد المقرر ليعلن لهم ان عليهم أن ينتقلوا الى قاعة المحاكمات ارتاع (نيكليندوف) كما لو كانوا يدعونه ليحاكم وليس ليكون حاكماً .

لقد كان في قرارة نفسه عالماً بضعته ، وأنه غير خليق بالظهور بين الناس . ومع ذلك فانه عندما عاد أخذ مكانه في الصف الأول بين المحلفين ، ووضع رجلاً فوق أخرى وأخذ يلاعب نظاراته .

وجيء بالمتهمين من جديد .

كان في القاعة أشخاص جدد ، علم (نيكليندوف) فيما بعد انهم الشهود . ولاحظ ان (ماسلوفا) لم تكن ترفع نظرها عن سيدة بدينة كانت تجلس في الصف الأول ، وترتدي ثياباً زاهية اللون ، وتجمل شعرها شريطة عريضة . فعلم انها كانت صاحبة المحل الذي كانت (ماسلوفا) تعمل فيه .

وباشر الرئيس استجواب الشهود ، مبتدئاً بالأسئلة التقليدية التي يفرضها القانون . ثم جاء الكاهن الذي كان يجر قدميه جراً ، وابتدأ يحلـــف الخبراء والشهود اليمين القانونية بالهدوء والارتياح المعهودين . ثم غادر الجميع القاعة ما عدا (روسا) صاحبة المحل .

وعندما طلب اليها الرئيس الادلاء بما تعلمه عن الحادث الذي يعرض أمام المحكمة أجابت هذه بصوت عذب رخيم ، ولهجة المانية شارحة تفاصيل القضية على الوجه التالي وهي تمط عنقها وتحرك رأسها .

لقد جاء (سيمون) ومعه عامل الفندق ليصطحب معه (ليوبكا) . وبعد

ساعات عادت هذه الى المحل يرافقها التاجر الذي كان في حالة « شبه غيبوبة » .
(شددت (روسا) على هذه الكلمات) ثم أضافت تقول :
وفي المحل عاد الى معاقرة الخمر ، ولما نقدت الدراهم التي كان يحملها فقد بعث الى الفندق بتلك الفتـــاة التي كانت « المفضلة لديه » . وهنا أشارت الى (ماسلوفا) .
فحسب الأمير ان هذه تبتسم . فبدت له ابتسامتها كريهة ، وأحس بشعور غامض شاذ هو مزيج من الإشمئزاز والرحمة .
— ما هو رأيك في (ماسلوفا) ؟ سألها محامي الفتاة وقد احمر وجهه خجلاً، لأنه كان يقف هذا الموقف للمرة الأولى .
— رأيي فيها حسن جداً . هي فتاة متعلمة أنيقة (شيك) وقد تربت في بيت عائلة شريفة ، تحسن قراءة اللغة الفرنسية . وقد تسرف احياناً في شرب الخمر ، ولكني لم أرها قط سكرانة . هي بحق فتاة طيبة .
كانت (كاترين) ما زالت تنظر الى الشاهدة ، ثم حولت نظرهـــا الى المحلفين ، ثم عادت فحدقت بنظرها بالأمير (نيكليندوف) وانقلبت أسارير وجهها متجهمة قاسية . وكان هو ينظر الى تينك العينين الدعجاوين، الحولاوين، والنظرات المتوقدة البراقة ، فلا يقوى على رفع نظره عنهما على الرغم من الرعب الذي كان يحسه . لقد تذكرت تلك الليلة المشئومة ، والضباب والجليد الذي كان يتكسر ، ثم ذلك البصيص من نور القمر الذي شهد مشهداً مرعباً . كل ذلك يطالعه الآن واضحاً من خلال تينك العينين الدعجاوين اللتين كانتا تنتقلان بينه وبين ما حوله .
— لقد عرفتني. — كان يقول في نفسه. وحشر نفسه في مقعده وطأطأ رأسه كمن يتوقع ضربة . وصعد زفرة ثم قال في سره : ليت هذه المحاكمة تنتهي الآن.
كان يحس نفس احساس الصياد الذي يضطر الى الاجهاز على عصفور جريح فيحرك في نفسه الشفقة والمرثية ، وهو يتململ في الأرض . كان يود أن ينتهي قريباً لينسى .

٢٠

كان الأمير (نيكلينودوف) يشتهي ان ترفـــع الجلسة بأسرع ما يستطاع ليخلو لنفسه ، ولكنها استطالت خلافاً لما كان يرجوه ، وهذا ما كان يبعث اليأس في نفسه . ودعى الرئيس المحلفين الى معاينة الأدلة الثبوتية ، وكانا عبارة عن خاتم كبير ومصفاة اكتشف السم بواسطتها، وذلك بعد ان فرغ من استجواب الشهود وضبط افاداتهم ، وبعد الاطلاع على تقرير الطبيب المشرح ، وبعد عدة أسئلة القاها وكيل النيابة ليظهر اهتمامه الشديد .

وقبـــل أن يبدأ المحلفون بفحص الدليلين طلب وكيل النيابة ان يتلى أولاً تقرير الطبيب الذي قام بتشريح الجثة . فلم يجرؤ الرئيس على رفض هذا الطلب مع علمه بأن من شأن هذه التلاوة خلق مضايقات له ولغيره اذ يؤخر نهاية الجلسة ويبعد موعد الطعام . فوقف المقرر وبدأ يتلو بصوت رتيب صحيفة اخرجها من اضبارة الدعوى .

كانت نتيجة الفحص الخارجي على الجثمان كما يلي :

١ — طول (سميلكوف) متر واحد وستة وتسعون سنتيمتراً — يا له من عملاق . — همس التاجر في اذن (نيكلينودوف) .

٢ — يجب ان يكون العمر في حدود الأربعين تقريباً بدليل شكله .

٣ — كان الجثمان منتفخاً .

٤ — لون الجلد مائل الى الخضرة ، مع نقط سوداء .

٥ — البشرة تعلوها دمامل متعددة ومن مختلف الاحجام وفي بعض المواضع فقئت وتدلت شرائح .

٦ — الشعر أسود وكثيف ، ويسقط بمجرد مسه .

٧ — العينان في غير مدارهما ، وقد فقئت حدقتاهما .

٨ — يخرج قيح من الفم المفتوح ومن الأنف والأذنين .

٩ — الرقبة يسترها ورم الوجه والصدر .

وهكذا يمضي التقرير مفصلاً في سبعة وعشرين بنداً حالة الجثة المهترئة التي

زادها الورم ضخامة ، والتي جاء صاحبها التاجر الى العاصمة للاستمتاع بحياته .

وكان كلما أوغل المقرر في تلاوة التقرير يزداد شعور الأشياء الشديد عند (نيكلىندوف) .

لقد تراءى له ان سائر ما لاقته (كاترين) في حياتها ، وان ذلك النجيع النـــازف من الأنف وغيره ، والعينين اللتين خارج مدارهما ، وسائر التفاصيل الواردة في التقرير الطبي التي تقشعر لها الابدان، لقد تراءى له آنئذ ان كل ذلك كان من فعله . وأحس انه يكاد يختنق .

وتنفس الرئيس الصعداء ارتياحاً ورفع رأسه عندما فرغ المقرر من تلاوة تقرير الكشف الخارجي على الجسم ، وحسب ان في ذلك مـــا يكفي لاشباع رغبات وكيل النيابة. غير ان المقرر ما عتم أن أخذ يتلو تقرير الكشف الداخلي على الجثة . فأطرق الرئيس برأسه الى الأرض وأسند خده على راحة كفـــه وأغمض عينيه وكان التاجر الذي يجلس بجانب الأمير يصارع النعاس ويدفعه عن نفسه بجهد كبير . وما برح المتهمون والحراس جامدين لا يبدون حراكاً .

كان الكشف الطبي الداخلي كما يلي :

١ ــ كانت الجلدة التي تكسو الجمجمة تنسلخ بسهولة .

٢ ــ كانت عظام الجمجمة بحجم غير عادي ولم تمس .

٣ ــ كان على الغشاء المغلف للدماغ الذي كان بلون وردي باهت ، نقطتان صغيرتان .

ومضى التقرير على مثل ذلك الى أن أورد ثلاثة عشر بنداً .

وجاءت بعد ذلك تلاوة اسماء الشهود الحاضرين ، وأخذ التواقيع ، وتلاوة خلاصة تقرير الطبيب التي كانت تفيد ان حالة البطن والكلى والأمعاء غـــير العادية ، التي أظهرها التشريح تؤكد تأكيداً شديداً ان موت (سميلكوف) ناتج عن تجرعه سماً ممزوجاً بالخمر . لم يتوصل لتعيين نوع السم ، ولكنه يؤكد أنه تجرعه مع الخمر .

ــ يا لهذا الرجل من برميل . ــ قال التاجر وقد استفاق من نومه .

ظل المقرر ساعة كاملة يتلو التقارير ، ويبدو أن هذا لم يكف وكيل النيابة ، فقد قال له الرئيس ، بعدما فرغ المقرر من تلاوة هذه التقارير :

– اعتقد ان لا فائدة من تلاوة تقرير الطبيب عن تشريح الأمعاء .

– أنا أعتقـــد العكس . وأراها واجبة . – أجاب الوكيل بلهجة حازمة ليدلل على رفضه التفريط بأي من أصول المحاكمات لأن اغفال هذه التلاوة يصلح سبباً لتمييز الدعوى .

فقـــال القاضي صاحب اللحية والنظرات الوادعة الذي يشكو من مرض الأمعاء ، وقد شعر بانحطاط قواه .

– لست أدري الى ما يقودنا كل هذا .

ولم يقل شيئاً القاضي ذو النظارات الا أنه كان عابس الوجه ، لعله كان لا يتوقع أي شيء حسن من زوجته ومن مستقبله .

وبدىء بتلاوة التقرير . وهذا بعض ما جاء فيه :

« في الخامس عشر من شهر شباط عام ١٨٠٠ أنا الموقع ذيلاً تلقيت أمراً من الفرع الطبي رقم (٦٣٨) – بدأ المقرر التلاوة بصوت عال دفعاً للنعاس الذي كان مستولياً على الجميع – فأجريت الفحص على أمعاء الجثمان بحضور مساعـــد المفتش الطبي ، بالطريقة التالية :

١ – الرئة اليمنى والقلب في اناء من الزجاج (٢و٤٠) كيلوغرام .

٢ – عصارة البطن في اناء بلوري (٢و٤٠) كيلوغرام .

٣ – البطن في اناء بلوري (٢و٤٠) كيلوغرام .

٤ – الكبد والكلى والطحال في اناء بلوري (١و٢٠) كيلوغرام .

٥ – الأمعاء في اناء فخاري (٢و٤٠) كيلوغرام .

وهنا قاطع الرئيس المقرر بعد أن تشاور مع زميليه فقال :

– المحكمة ترى الا لزوم لتلاوة هذا التقرير .

فأمسك المقرر وسجل وكيل النيابة ملاحظته بسرعة .

ثم أضاف الرئيس قائلاً : يرجى من حضرات المحلفين معاينة الأدلة .

فتقدم رئيس المحلفين وآخرون غيره من الطاولة حائرين لا يدرون أين يضعون أيديهم ، وجرب التاجر الخاتم باصبعه .

– يا للشيطان ، ما هذه الأصبع . – قال وهو عائد الى مكانه بعد أن وضع الخاتم حيث كان ، وراقه ان يتصور المتوفي عملاقاً .

٢١

على هذه الصورة جرت معاينة الأدلة المعروضة أمام المحكمة . وأعلن الرئيس انتهاء الاستجوابات ، ظناً منه انه بهذه الصورة يستطيع تأجيل الجلسة مبكراً ، وأعطى الكلمة الى ممثل النيابة دون أن يترك له فترة استراحة ، ودون أن يأخذ بعين الاعتبار اذا كان هذا الموظف يحتاج للطعام والشراب والتدخين اسوة بغيره من أبناء الغناء . إلا أن ممثل النيابة لم تأخذه شفقة على غيره ولا على نفسه . كان هـــذا بليداً بطبعه ، ومن سوء طالعه أحرز وساماً من الذهب في المعهد ، وحصل على جائزة في الجامعة على اطروحته « الرق في القانون الروماني » ، مما زاده غروراً بنفسه واعتداداً بها ، بالاضافة الى كونـــه محظوظاً من النساء . وعندما أعطي حق الكلام وقف على مهل ، مدلاً بقوامه الجميل ، وأجال نظره في القاعة وهو يطأطىء رأسه ، وبدأ الكلام متوخياً الا ينظر الى المتهمين . قال :

– سادتي المحلفين . ان الحادثة التي نضعها أمامكم لتروا رأيكم فيها . – كان قد أعد هذا الخطاب حينما كان المقرر يتلو التقارير – هي جريمة لها مميزاتها . اذا جاز هذا التعبير .

كان من رأيه أن ممثل النيابة العامة يجب ان يتوسع في ابداء مطالعته ، وان يجعل لهذه مفهوماً عاماً لتكون شبيهة بدفوع المحامين ذوي الشهرة الواسعة . صحيح ان النظارة كانت مؤلفـــة من حوذي وثلاث نسوة ، احداهن خياطة والأخرى طاهية والثالثة كانت اخت (سيمون) . ولكن هذا كان ذا أهمية ضئيلة ، فقد كانت تلك بداية سائر المحامين . والنائب العام يجب ان يكون على مستوى مهمتـــه ، بمعنى انه يجب عليه أن يتعمق في دراسة (بسيكولوجية) الجريمة ، وان يبرز الادواء التي تنخر كيان المجتمع .

– سادتي المحلفين . نحن الآن أمام جرم خاص بأواخر القرن الحالي . جريمة تحمل في ثناياها نواة الانحلال الخلقي الذي ذر قرنه ، والذي من ضحاياه حالياً بعض افراد المجتمع الذي تشاهدونهم الآن على هذه المقاعد ...

لقد اسهب ممثل النيابة في مطالعته محاولاً شرح الوقائع والتفاصيل التي جمعها ولم يتوقف عن الكلام خلال خمسة أرباع الساعة، سوى فترة قصيرة حيث استرد انفاسه ولكنه عوضها بسيل دافق من الكلام . كانت لهجته عطوفة أحياناً ، وأحياناً اخرى كانت رزينة هادئة ، ولكنه كان لا يلبث ان يعلو صوتـــه وتصبح لهجته ونبرات صوته مهددة متوعدة الا أنه لم ينظر ولو مرة واحدة الى المتهمين ، الذين كانوا يكادون يلتهمونه بعيونهم .

لقد كان في مطالعته كل ما كان المجتمع يعتبره كلمة العلم العليا . لقد أتى على ذكر الوراثة وبحثها ، وللجريمة المتأصلة وجاء على ذكر (لومبردسو) و (تارد) والتطور ، وتنازع البقاء والتنويم المغناطيسي ، والإيحاء (وشاركو) وفساد الجنس ، وكان من رأيه ان (سميلكوف) مثال الروسي البدائي مجسداً . وقد أوقعه كرمه وطيب عنصره فريسة في حبائل جماعة من فاسدي الأخلاق بطبعهم فذهب ضحيتهم. كذلك كان يرى ان (سيمون كيرتنكين) حصيلة جيل متلبد بفعل أجيال من العبودية ويكاد يكون همجياً وجاهلاً وخلواً من الحس المعنوي . وحتى أنه لا يدين بدين . وكان يرى أن (اوفيميا) الخليلة الخليقة به وضحية الوراثة التي تتجمع في شخصها سائر الخصائص المميزة للانحلال الخلقي . وكان من رأيه ان مسبب كل هذا كانت (ماسلوفا) خلاصة الانحطاط الخلقي البالغ الذروة .

– هذه – صاح يقول دون أن ينظر اليها – هذه أيها السادة ، قد أحرزت قسطاً من العلم لا يقتصر على مجرد القراءة والكتابة ولكنها تعرف الفرنسية . هي يتيمة ، ولعل بذور الجريمة متأصلة في قرارة نفسها منذ ولادتها . لقد نشأت في احضان عائلة مثقفة ونبيلة وكان في مقدورها أن تحيا حياة شريفة من عملها . ولكنها بدلاً من ذلك هجرت من أحسن اليها لتنغمس في حمأة الشهوات التي من

أجل الوصول اليها دخلت احد المحلات العمومية . كانت تستغل العلم الذي تعلمته للتأثير بالطريقة الغامضة التي كشف العلم عن حقيقتها بلسان (شاركو) والتي عرفت بكلمة ايحاء . وبهذه الطريقة استطاعت أن تستحوذ على تفكير وصداقة (سميلكوف) الروسي الطيب ، والرجل الكريم الذي أولاها ثقته فنهبته أولاً ثم قتلته قتلة بشعة آخر الأمر .

– أظنه يشتط قليلا . – قال الرئيس للقاضي ذي النظارات .

– بلى هو أهوج . – أجاب الآخر .

– سادتي المحلفين ، بين أيديكم الآن مقدرات هؤلاء الثلاثة . كذلك بين أيديكم ، لحد ما ، مقدرات ومستقبل هذا المجتمع الذي اختاركم لتكونوا مثلاً رائعاً في مقرراتكم ، فتعمقوا في دراسة الجريمة ، والخطر الراهن الذي يشكله للمجتمع هؤلاء الموبوءون ، لكي تحولوا دون تسرب عدواهم اليه ، وتكفوه غائلة شرورهم .

ثم جلس ممثل النيابة في مقعده مرتاح النفس لمطالعته دون شك كمن ارهقته أهمية القرار الذي ينبغي ان يتخذ .

ثم قال بعد ذلك باختصار متخلياً عن براعته الخطابية ان (كاترين) نومت التاجر تنويماً مغناطيسياً ولذا منحها ثقة عمياء وعندما بعث بها الى الفندق لتحضر له بعض الدراهم ، صممت على الحصول على سائر ما كان في الحقيبة من المال . ولما فوجئت بوجود (سيمون) و (اوفيميا) رأت نفسها مجبرة على اقتسام المال معهما . وعندما عادت الى الفندق بصحبة التاجر الغريب قتلته لتغطي جريمتها .

وهنا وقف بين صفوف المحامين رجل متوسط العمر يرتدي بدلة (فراك) وقميصاً منشأ الصدر . كان ذاك محامي (سيمون) و (أوفيميا) الذي تقاضاهما ثلاثمئة روبل ، فألقى دفاعاً بارعاً كل البراعة برر فيه ساحة موكليه ، والقى التبعة على عاتق (ماسلوفا) . وأشار الى قول الفتاة واعترافها بوضعها السم قائلا انه لا يمكن ان يصدق ان (سيمون) و (اوفيميا) كانا حاضرين عندما فتحت الحقيبة ، وانه لا مجال للشك بأن الألف وثمانمئة روبل المودعة في المصرف كانت

حصيلة اتعاب ذينك الشخصين الطيبين اللذين غالباً ما يحصلان على هبات يومية تبلغ الخمس روبلات . أما فيما يتعلق بمال التاجر ، فقال ان (ماسلوفا) سرقته وأودعته عند بعض الناس ، أو لعلها اضاعته بالنظر لحالة عدم الوعي التام التي كانت عليها . كذلك السم فان (ماسلوفا) هي وحدها المسؤولة عنه ، ولذا يطلب الى المحلفين الاعتراف ببراءة موكليه من جريمة السرقة ، وان لا يقروا تدخلهما بوضع السم ، ونفي وجود سبق التصور والتصميم عندهما . ودحضاً لما أورده ممثل النيابة من الحجج ، قال في خطابه ان نظرية الوراثة نظرية علميـــة صحيحة ، ولكنها لا يمكن تطبيقها بحال من الأحوال على (بوتشكوفا) لأنها مجهولة الأب والأم .

وعندما سمع ممثل النيابة هذا القول زوى ما بين عينيه و هز كتفيه باستخفاف شديد .

وجاء دور محامي (ماسلوفا) الذي القى دفاعه خجلاً ، متردداً فلم ينكر اشتراك الفتاة في السرقة ، وقال انها اذا كانت قد وضعت المسحوق في الخمر فقد فعلت ذلك لكي تنيم الرجـــل . وأخيراً عمد الى اثارة شعور القضاة ليباهي ببلاغته وفصاحته فقال ان (ماسلوفا) قد اكرهت على احتراف البغاء بسبب جريمة رجل ظل طليقاً لا تطاله يد العدالة ، في حين تقاسي هي مغبة جريمته . غير ان هذه الالتفاتة التي أريد لها ان تؤثر على احساس القضاة لم يكتب لهـــا النجاح ، لأنهـــا اعتبرت من قبل المحكمة خروجاً عن الموضوع ، وطلب اليه الرئيس التقيد بنقاط الدفاع .

ولما فرغ محامو الدفاع من القاء دفوعهم وقف ممثل النيابة من جديد ، كي يدلل على ما في مطالعته من طيبة فأكد انه لا يكفي ان تكون (بوتشكوفا) مجهولة الأبوين كي تنكر تأثـــير قانون الوراثة وانما وراثة الجريمة أيضاً . وفيما يتعلق بالرجل المزعوم – ولفظ هذه العبارة بلهجة جارحة – الذي يزعمون انه اغوى (ماسلوفا) فقد أكد ممثل النيابة انها هي الغاوية ، وانها سببت كثيراً من الضحايا .

قال ذلك وجلس جلوس الظافر ، وعندئذ سأل الرئيس المتهمين اذا كان لديهم ما يضيفونه دفاعاً عن أنفسهم فأكدت (بوتشكوفا) جهلها بكل شيء ، ملقيـــة تبعته على عاتق (ماسلوفا) وغمغم (سيمون) مردداً قوله : ماذا تريـــدون ؟ ؟ ... أنا لست مذنباً ... هذا ظلم ... أما (ماسلوفا) فلم تحر جواباً . وعندما أعاد الرئيس السؤال عليها لتدافع عن نفسها ، أجالت فـــيما حولها نظرة أشبه بنظرة الحيوان البريء المطارد الذي علق بالشرك ثم خفضت رأسها وأقبلت تبكي وتشهق في بكائها .

– ما الذي دهاك ؟ – قال التاجر يسأل وقد التفت الى مصدر البكاء فاذا به الأمير الذي كان جالساً بجانبه والذي كان يحاول امساك نفسه عن البكاء .

لم يكن (نيكلينندوف) قد أدرك بعد خطورة وضعيته المعنـــوية . وعزا بكاءه والدموع التي كانت تتسابق للانهمار من عينيه لتهيج عصبي أصابه . وكان يرفع نظاراته عن عينيه عدة مرات ثم يعود فيضعها من جديد . كان الذعر من الفضيحة التي سيلاقيها لا محالة عندما يطلع الجميع على ماضيه الأسود ، يطغي على الشعور الطيب النبيل الذي بدأ ينمو في داخله ، وكان الخـــوف من اللحظة الحاضرة يسيطر عليه أكثر من أي شعور آخر .

٢٢

عندما ألقى المتهمون آخر كلمة في الدفاع عن أنفسهم ، تحـــدث الرئيس مطولاً مع زميليه حـــول نوعية الأسئلة التي ستوضع أمام المحلفين لمناقشتها والإجابة عليها ، ثم مضى يتابع الاجراءات المعتادة .

وعلى الرغم من كونه شديد الرغبة في فض الجلسة بأسرع مـــا يستطيع ، وعلى الرغم من علمه بأن المدرسة الفرنسية كانت تنتظره في الفندق فقد كان من عادته أنه إذا ما تكلم فمن العسير عليه أن يتوقف . كان يريد إقناع المحلفـــين بأنهم إذا ما رأوا المتهمين مذنبين فعليهم أن يصرحوا بذلك ، وإذا كان العكس فعليهم أن يعلنوا براءتهم . كذلك قد يتأتى أن يروهم مذنبين في أمر وأبرياء من آخر ففي هذه الحالة يجب أن يأتي قرارهم مطابقاً لاقتناعهم .

كذلك أوضح لهم أنه يجب عليهم استعمال حقهم بهوادة وحكمة . وود لو يوضح لهم أنهم إذا ما أجابوا على أحد الأسئلة بالايجاب فان ذلك يعني موافقتهم على سائر ما ورد في السؤال ، ولذا يجب عليهم إيضاح كل ما لا يقرونه . غير أنه عندما نظر في ساعته ورأى أنه لم يبق سوى خمس دقائق لتصبح الساعة الثالثة قرر الانتقال الى عرض وقائع الدعوى .

– ان النتائج المستخلصة من الوقائع هي كما يلي : – ثم اخذ يتلو وقائع الدعوى كما مر بنا .

كان القضاة ينصتون متجهمي الوجوه . كانوا بلا شك ، يرون ذلك الخطاب صالحاً وملائماً للظروف ومنطبقاً على كافة الأنظمة والأصول ، ولكنهم كانوا يرونه طويلاً ومملاً . وهكذا كان رأي ممثل النيابة وجميع من حضر .

كان الملخص رصيناً . غير أن الرئيس رأى من الضروري إضافة بعض العبارات حول حقوق المحلفين ، فكرر طلبه إليهم باستعمال حقهم بحكمة وانتباه واتزان .

– سادتي المحلفين . لقد أقسمتم اليمين ، وأنتم ضمير المجتمع ، فتذكروا ذلك ، ولا تنسوا الاحتفاظ بسرية قاعة المذاكرة .

منذ اللحظة الأولى التي بدأ الرئيس الكلام فيها لم تفارقه نظرات (ماسلوفا) ، وظلت شاخصة بأبصارها اليه كأنها كانت تحاذر أن تفوتها كلمة من كلماته ، وهكذا استطاع الأمير مراقبتها دون أن تأبه له . لقد حدث له آنئذ ما يحدث لأولئك الذين يمعنون النظر في وجه شخص حبيب لديهم لم يروه منذ أعوام ، إذ تبدو أمامهم للوهلة الأولى سائر التبدلات التي طرأت عليه خلال فترة الغياب ، ثم لا يلبثون أن يعودوا تدريجياً فيرونه كما كان منذ أعوام خلت ، وتختفي التغيرات ، وتنجلي أمام أعين البصيرة الطابع الخاص المميز لكل شخص . بلى . لقد كانت هي بعينها .

وعلى رغم ثوب السجينات الذي كانت ترتديه ، وعلى رغم بدانتها وتضخم أسفل وجهها ، والغضون التي بدأت تظهر في جبينها وصفحتي وجهها ، وتورم

عينيها ، على رغم كل ذلك فقد كانت هي بعينها ، (كاترين) التي أحبها ليلة عيد الفصح ، وأحبها ببراءة وطهارة . أحب عينيها المليئتين بالحب الطافحتين بالحياة الباسمتين سروراً .

— أكان من الضروري أن تنظر هذه الدعوى أمام الهيئة التي أنا عضو فيها، وأن أراها في مقعد المتهمين بعد انقضاء عشرة أعوام على مفارقتي لها . وماذا بعد ذلك ؟ ليت هذه المحاكمة تنتهي بسرعة .

لقد ثار (نيكليندوف) على ما أحسه من ندم بات يثقل ضميره تدريجياً . كان يقول في نفسه ان كل ما يراه أمامه لم يكن سوى محض مصادفة ، وأنه سوف لن يخلف وراءه ما قد يؤثر على حياته . كان يحس احساس الكلب الذي أفرغ فضلاته في غرفة وأخذ صاحبه يمرغ أنفه في تلك الفضلات، فشرع الكلب يتخبط بين يديه محاولاً الإفلات منه والهرب . ولكن صاحبه الذي لا يرحم يأبى إفلاته .

كان قد أدرك مدى حقارة ماضيه ، وأحس بثقل يد صاحبه عليه . ولكنه لم يكن قد تبين مدى الضرر الذي سببه . لم يكن يتصور ان شيئاً ما يمكن أن يؤثر على معنوياته . ولم يصدق ان تلك السلسلة من المآسي التي يشهدها الآن كانت كلها من صنع يده .

كان يجلس في الصف الأول بين المحلفين ، يلاعب نظاراته بيده مظهراً اللامبالاة ، ولكنه في قرارة نفسه ، كان شاعراً بضعته لا لفعلته هذه فحسب ، وإنما لحياته كلها الحافلة بالبطالة ، والفسق ، والقسوة . وهكذا أخذت تنزاح تلك العصابة التي أخفت عن عينيه طيلة عشر سنوات تلك الجريمة وتلك الحياة . وها هي ذي الأشياء قد أخذت تتكشف أمام ناظريه ، وأخذ هو ينظر برعب شديد الى الهاوية التي سيتردى فيها .

٢٣

عندما أنهى الرئيس خطابه الطويل الرتيب ، سلم زميله رئيس مجلس المحلفين ملف الأوراق التي تحتوي على الأسئلة التي قررت المحكمة وضعها أمامهم

ليناقشوها . ثم هب الجميع وقوفاً فارتاح لذلك المحلفون إذ أصبح بمقدورهم أن يتحركوا من أماكنهم ، وذهب هؤلاء الى قاعة كبيرة وقف على بابها ، فور دخولهم إليها ، حارس ينتضي سيفاً مسلولاً يضعه على كتفه ، وغادر القضاة المنصة وسحب المتهمون .

وجلس المحلفون على المقاعد الوثيرة ، وأشعلت لفائف التبغ ، وتوارى ذلك التحفظ المصطنع الذي كانوا يأخذون أنفسهم به ، ونشط الحديث بينهم .

– ليست الفتاة مجرمة . – قال التاجر برزانة . – لقد تورطت من حيث لا تشعر وينبغي أن نكون متسامحين معها .

– هذا ما نحن مقدمون على بحثه – قال الرئيس – لا ينبغي أن ننساق مع انطباعاتنا .

– لقد أجاد الرئيس بتلخيصه . – قال الكورونيل .

– بلى . لقد كان رائعاً . وكاد يغلبني النوم .

– المهم هو ان الخادمين لم يكن في مقدورهما أن يعلما بوجود الدراهم لو لم تخبرهما (ماسلوفا) بذلك – قال المستخدم اليهودي .

– إذن أنت ترى انها هي السارقة ؟

– كلا هذا مستحيل ، أنا لا أصدقه أبداً . – قال التاجر – كانت السارقة تلك المرأة الساقطة العمشاء العينين .

– نعم ، نعم . كلهم ملائكة – أجاب الكورونيل بتمهل مقصود .

– ولكنهم يؤكدون انها لم تدخل الغرفة ...

– وهل تصدقها ؟ أنا لا أصدق كلمة واحدة من كلمات هذه القذرة .

– كونك لا تصدقها لا يكفي . – قال المستخدم اليهودي مقاطعاً .

– لقد كان المفتاح معها ...

– وماذا يعني هذا ؟ – أجاب التاجر .

– والخاتم ؟

– لقد أعطاها إياه – صاح التاجر – كان (سميلكوف) سكيراً فضربها ،

ثم أخذته الشفقة عليها فقال لهـــا خذي هذا ولا تبكي . تصور رجلاً طوله (١٩٦) سنتمتراً ووزنه (١٢٨) كيلو غراماً .

– ليس هذا موضوع البحث – قال (بطرس جيراسيموف) – ان عقدة العقد هي في التأكد مما اذا كانت هي التي تصورت وصممت على دس السم له ، أم كان الخادمان هما الفاعلان .

– لم يكن بامكان الخادمين القيام بذلك وحدهما . إذ كان المفتاح معها .

وتطاول أمد هذه التساؤلات والتقديرات .

– اسمحوا لي يا سادة – قال الرئيس – لنجلس ولنتكلم . تفضلوا ثم جلس .

– أنا أعرف هذه الطبقة من النساء – قال المستخدم اليهودي ، ولكي يبرهن على صحة رأيه في مسئولية (ماسلوفا) أورد حادثة سرقت فيها احدى النساء من مثيلاتها ساعة صديق له من الريف . وأورد الكولونيل تأييداً لرأيه حادث سرقة أشد غرابة وهي سرقة (ساموفار) من الفضة .

– أيها السادة ، أرجوكم أن تطلعـــوا على الأسئلة . – قال الرئيس وهو يضرب بالقلم الرصاص على الطاولة .

وساد الصمت من جديد .

١ – المدعو (سيمون بتروفيتش كيرتينكين) القروي وعمره (٣٤) عاماً من (بوركي) منطقة (كرابيفو) المتهم بتسميم التاجر (سميلكوف) بتاريخ ١٧ كانون الثاني ١٨٠٠) في مدينة (ن) بقصد سرقته ، بالاشتراك مع بعض الاشخاص ، بوضعه السم في كأس كونياك مما سبب له الموت . والمتهم أيضاً بسرقة خاتم ماسي ومبلغ (٢٥٠٠) روبل هل هذه التهمة ثابتة عليه ؟

٢ – هل التهمة الواردة في السؤال الأول ثابتة على المرأة المدعـــوة (أوفيميا بوتشكوفا) وعمرها (٤٣) عاماً ؟

٣ – هل التهمة الواردة في السؤال الأول ثابتة بحق المرأة المدعوة (كاترين ميكايلوفنا ماسلوفا) وعمرها (٢٧) عاماً ؟

٤ – إذا كانت المرأة المدعوة (أوفيميا ايفانوفنا بوتشكوفا) غير ثابتة

عليها التهمة الواردة في السؤال الأول فهل ثابت عليها انهـــا دخلت غرفة (سميلكوف) المذكور في فندق (ماوريتانيا) الذي تعمل فيه كوصيفة ، وانها فتحت حقيبته بمفتاح جاءت به قصد سرقة ماله ؟

وقرأ رئيس المحلفين السؤال الأول ثم قال :

– ما رأيكم أيها السادة ؟

فأجاب الجميع بالموافقة سواء على وضع السم وسرقة المـــال ما عدا شيخ عجوز عمله نقل الرسائل الذي كان دائماً ميالاً للحكم بالبراءة على الجميع ، فقد رأى هذا ان (كيرتينكين) غير مسؤول . فشرح له الرئيس السؤال من جديد ظناً منه انه لم يفهمه ، فلم يفد ذلك شيئاً وظل متمسكاً برأيه وقال :

– هل نحن قديسون ؟

وأجاب المحلفون على السؤال الثاني بتبرئة (بوتشكوفا) من جرم التسميم . غير ان التاجر ارتأى انها هي المسؤولة عن كل شيء لأنـــه كان يريد تبرئة (ماسلوفا) ولكن لما كان الرئيس راغباً في التقيد بأحكام القوانين فقد عمل على انجاح رأيه فكانت (بوتشكوفا) غير مسؤولة عن التسميم .

وأجابوا على السؤال الرابع بالموافقة ، ولكنهم منحوها الأسباب التقديرية وطلبوا لها تخفيف العقوبة .

وأثار السؤال الثالث المتعلق (بماسلوفا) نقاشاً حاداً ، وكان رأي رئيس مجلس المحلفين انها المسؤولة عن وضع السم له في الخمر ، وعن السرقة ، وخالفه التاجر والكولونيل وناقل الرسائل . اما الباقون فظلوا مترددين . وظل رأي الرئيس هو الغالب مدة طويلة لأنهم كانوا قد تعبوا بأجمعهم ، ولأن كل شيء تم بالموافقة .

كان (نيكليندوف) مقتنعاً من براءة الفتاة ، ومن ان هذا كان اقتناع الجميع أيضاً . وعندما رأى أن التاجر كان غير موفق في دفاعه عنها ، ورأى تصلب الرئيس برأيه لمجرد معاكسة ذاك ، أدرك ان الفتاة ستجرم ، ولذا قرر التدخل في الدفاع عنها ولكن بحذر خوفاً من ان يكتشف رفاقـــه قسطه في

المسؤولية عن جريمة (ماسلوفا) . ولكن (بطرس جيراسيموفيتش) كفاه مؤونة ذلك لاستيائه من لهجة الرئيس الآمرة .

– عفواً . أليس من الجائز والممكن أن يفتح خادما الفندق الحقيبة بمفتاح آخر بعد أن أقفلتها الفتاة ؟

– هذا ما أقوله أنا. – قال التاجر مؤيداً .

– انه لمن غير المنطق ان تكون الفتاة قد أخذت المال ، إذ كيف وفي أي شيء ستنفقه وهي في مثل وضعيتها المعروفة ؟

– هذا هو . – قال التاجر .

– قد يكون أكثر احتمالاً ان يوجد ذهابها الى الفندق فكرة السرقة عند الخادمين اللذين حملاها جريمتها .

كان (جيراسيموفيتش) محتداً ، وكذلك كان الرئيس عند دفاعه عن وجهة نظره ، غير ان الأول كان أكثر توفيقاً في اقناع المحلفين ، وهكذا وافق الجميع على براءة (ماسلوفا) من جرم السرقة ، ثم انتقلوا لمناقشة تدخلها بوضع السم .

ورأى التاجر محامي (ماسلوفا) المتحمس انها بريئة مما نسب اليها ، إذ ليس لديها ما يوجب وضع السم ، ولكن الرئيس أجابه ان من المستحيل اقرار هذا القول ، ما دامت هي قد اعترفت بوضعها مسحوقاً في الخمر الذي شربه المتوفي .

– صحيح انها اعترفت بوضع المسحوق ولكن على اعتباره مخدراً ، أي أفيون .

– قد يسمم بالافيون . – قال الكولونيل الذي كان يظهر انه يجد لذة في تحويل مجرى البحث .

وقص حادثة زوجة أحد أقاربه التي تسممت بالأفيون ولولا عناية بعض الأطباء الأذكياء ، واسعافه اياها لكان الموت سبيلها المحقق . وكان يتكلم بلهجة فيها من السلطة والاقناع ما جعل الباقين يتهيبون الرد عليه . ورأى

المستخدم ، وقد شجعه ما كان من نجاح تلك القصة أن يقاطعه ليبتكر قصة مشابهة .

– هناك الكثيرون ممن أدمنوا الأفيون يستطيع أحدهم أن يجرع أربعين نقطة دفعة واحدة . فمثلاً ان أحد ابناء عمي ...

غير أن الكولونيل لم يتوقف عن الكلام ، وظل مواصلاً تعداد النتائج الوخيمة التي جرها الأفيون على زوجة قريبه .

– لقد أوشكت أن تصبح الساعة الخامسة تقريباً . – قال أحد المحلفين .

– هكذا إذن أيها السادة فلنعتبرها مسؤولة ولكن بدون قصد السرقة . وهذا يعني انها لم تسرق المال ، هل أنتم موافقون ؟

فوافق (بطرس جيراسيموفيتش) مسروراً لنجاح رأيه .

– تستحق الأسباب المخففة – أضاف التاجر .

كانوا جميعهم متفقين ما عدا ناقل الرسائل الذي أصر قائلاً :

– كلا . كلا . ليست مسؤولة .

– هذا الذي قلناه – قال الرئيس موضحاً – بدون قصد السرقة ، يعني انها غير مسؤولة .

– حسن . فلنضع الأسباب المخففة وينتهي كل شيء على ما يرام . – قال التاجر مسروراً .

وكان التعب قد أخذ منهم مأخذاً كبيراً ، وكانت المناقشات الحادة التي اشتركوا فيها قد سببت لهم الشيء الكثير من اضطراب الفكر بحيث لم يخطر على بال أحد منهم أن يضيف الى القرار الفقرة التالية : « بلى وانما بغير قصد القتل » . حتى (نيكليندوف) لم يفطن لذلك لاضطراب حالته النفسية إذ ذاك .

وحملت الأجوبة الى المحكمة على هذه الصورة .

لقد قص علينا (ريبيلي) ان بعض المتداعين رفعوا الى أحد القضاة دعواهم ليفصل فيها ، ولكن القاضي بعد أن راجع كافة المصادر القانونية ، وقرأ أكثر

من عشرين صحيفة من التشريع الروماني ولكن بدون جدوى ، عندئذ قرر اللجوء الى عملية (المفرد والمزدوج) وذلك بأن يطرح في الهواء ما يسمى زهر النرد فاذا جاء مجموع الاثنين رقماً مزدوجاً كان معنى ذلك أن الحق بجانب المدعي وينبغي ان تحكم المحكمة لصالحه ، وإذا كان العكس فبالعكس .

ولو ان المحلفين لجأوا لهذه الطريقة دون غيرها ، اذن لما اتخـــذ القرار بالاجماع . غير ان الرئيس كان شديد الرغبة في فض الجلسة للحاق بصديقته الفرنسية التي كانت تنتظره في الفندق فحالت عجلته دون أن يلفت انتباه المحلفين الى ان من حقهم اضافة العبارة التالية الى جوابهم : « بلى ، ولكن بغير قصد القتل » . وفضلاً عن ذلك فان حضرة الكولونيل كان قد أضجر الجميع وأملهم بقصته التي لا نهاية لها من زوجة قريبه. كذلك لم يفطن (نيكليندوف)، لاضطراب أفكاره ، ان يذكر زملاءه بمـــا نسبه رئيسهم . وكان (بطرس جيراسيموفيتش) قد غادر القاعة عندما بدأ الرئيس يتلو الاسئلة وأجوبتها . غير أن السبب الحقيقي لذاك الخطـــأ كان التعب الذي استولى على الجميع ، وحملهم على استعجال الوصول الى اتفاق يخلي سبيلهم بسلام .

وقرع الجرس في غرفة مذاكرة المحلفين فأغمد الحارس ، الذي كان يحرس الباب سيفه وتنحى جانباً ، فعاد القضاة الى المنصة ، ودخل المحلفون القاعة فراداً ، وكان الرئيس يحمل في يده نسخة عن الأجوبة فقدمها لرئيس المحكمة ، فبدرت منه حركة استغراب لدى اطلاعه عليها ، ثم أخذ يتحدث الى زملائه .

لقد كانت غباوة من المحلفين أن يستدركوا للحادثة الأولى فيقولون « بدون قصد السرقة » وألا يستدركوا للحادثة الثانية فيقولون « بدون قصد القتل » فكانت النتيجة انهم نفوا قصد السرقة عن (ماسلوفا) ولكنهم أدانوها بقتل رجل بغير حق .

– أنظروا أي فظاعة اقترفوها – قال وقد توجه الى القاضي الذي كان على يساره – سيكون الحكم بالأشغال الشاقة مع أن الفتاة بريئة .

– كلا ليست بريئة – قال القاضي ذو النظارات .

ـ أكرر أنها بريئة . وأعتقد أن من الواجب الأخذ بأحكام المادة (٨١٧) التي تنص أنه « إذا رأى القضاة قرار المحلفين جائراً فبوسعهم إلغاءه » فما هو رأيك ؟ ـ قال للقاضي الذي على يمينه .

ولكن هذا لم يجب على الفـــور إلا أنه نظر الى رقم الاضبارة التي كانت مواجهة له ، وأخذ يجري في ذهنه عملية قسمة . كان قد قرر أنه إذا كان العدد قابلاً للقسمة على ثلاثة دون أن يدع كسوراً ، فمن الواجب أن يجيب بالموافقة . ومع أن الرقم لم يكن قابلاً للقسمة على ثلاثة فقد وافق على رأي الرئيس ، لما فيه من طيبة .

ـ بلى هذا هو رأيي . .

ـ وما هو رأيك أنت ؟ ـ قال الرئيس يسأل القاضي المقرون الحاجبين .

ـ أرى ألا نلغي هذا القرار . ـ أجاب هذا بلهجة جازمة ـ لقد أكثرت الصحف من التعليق على قرارات البراءة العديدة التي يصدرها مجلس المحلفين ، فما عساها تقول هذه الصحف اذا ما صدرت هذه القرارات عن المحكمة .

فنظر الرئيس الى ساعته فرآها تكاد تبلغ الخامسة .

ـ آسف جداً . ـ قال . ثم أعاد الملف الى رئيس مجلس المحلفين وهنـــا وقف الجميع .

وسعل الرئيس ، ثم أخذ يراوح بين ساقيه وهو يتلو الأسئلة وأجوبتهـــا . فدهش المقرر والمحامون ، وحتى ممثل النيابة لغرابة ذلك القرار ، ولم يبد أي شيء على المتهمين ، وربما كان ذلك لأنهم لم يفهموا مدلول الأجوبة .

وسر ممثل النيابة كثيراً لما أحرزه من نجاح غير متوقع ، وخصوصاً بالنسبة (لماسلوفا) ، وكان شديد الاقتناع بأن الفضل في نجاحه يعود لفصاحته وعندما أعطيت له الكلمة ألقى نظرة خاطفة على قانون الخبراء ثم وقف وقال :

ـ أطلب تطبيق أحكام المادة (١٤٥٢) والفقرة الرابعة من المادة (١٤٥٣) بحق (سيمون كيرتينكين) ، وتطبيق أحكام المادة (١٦٨٩) بحق (أوفيميا بوتشكوفا) وتطبيق أحكام المادة (١٤٥٤) بحق (كاترين ماسلوفا) ، وكانت تلك أقصى عقوبة يمكن الحكم بها .

مذاكرة . — قال الرئيس .

فهب الجميع وقوفاً ، وانصرفوا يتمشون في الأروقة مرتاحي النفوس كمن أدى عملاً مجيداً .

— أتعلمون اننا اقترفنا منكراً ؟ — قال (بطرس جيراسيموفيتش) وهو يدنو من (نيكليندوف) الذي كان الرئيس يشرح له شيئاً . — لقد حكمنا على هذه المنكودة بالسجن .

— ماذا تقول ؟ — صاح به (نيكليندوف) دون أن يعير التفاتاً لوحدة الحال البغيضة التي يظهرها نحوه .

— لا شك في ذلك — قال هذا — كان علينا أن نجيب على السؤال كما يلي . « مذنبة . ولكن بدون قصد القتل » . هكذا قال المقرر ، والآن يطلب ممثل النيابة العامة الحكم عليها بالسجن خمسة عشر عاماً .

— هذا ما اتفق عليه الجميع — قال رئيس مجلس المحلفين .

وعلق (بطرس جيراسيموفيتش) قائلاً لقد كان من الواجب أن يقال : ما دامت لم تسرق ، فانه لا يمكن أن يتكون لديها قصد القتل .

— ولكني تلوت الأجوبة بصوت عال قبل كتابتها فلم يعترض أحد عليها — قال الرئيس محتجاً .

— كنت آنئذ خارج القاعة فلم أتمكن من تفهم القرار — قال (بطرس جيراسيموفيتش) — كيف سهوتم عن هذا ؟

— ما كنت لأتصور ذلك ... — قال (نيكليندوف) مبرراً موقفه .

— أنظروا ماذا فعلنا .

— لا يزال بالإمكان استدراك الخطأ .

— كلا . لقد سبق السيف العذل . كان يجب أن تلاحظوا ذلك قبل الآن .

فنظر (نيكليندوف) الى المتهمين أولئك الذين يتقرر مصيرهم فألفاهم هادئين ساكنين يحرسهم الجنود . وكانت (ماسلوفا) تبتسم من حين لآخر ، فأحس بشعور سيء يولد في نفسه .

عندما كان (نيكليندوف) يتصور من قبل أن (ماسلوفا) قد تبرأ ، وأنها قد تسكن المدينة ، وأن من الجائز والممكن أن يتلاقيا مصادفة ، فان هـــذه الفكرة كانت تسبب له جزعاً شديداً ، أما الآن فان السجن وسيبيريا كفيلان بتحطيم هذه الامكانية سينقطع العصفور المحتضر عما قريب عن الكد في سبيل الحياة ، وسينتهي كل شيء ، وسيسدل النسيان ستاراً كثيفاً والى الأبد على كل شيء حتى على ذكرى وجوده .

٢٤

لم تكن مخاوف (بطرس جيراسيموفيتش) غير واردة ، فها هوذا الرئيس يصحبه القاضيان الآخران يخرجون من قاعة المذاكرة وأخذ يتلو الحكم في ملأ من اللهفة والتشوق . وكان هذا نص القرار :

« في عام (١٨٠٠) وفي (٢٨) نيسان ، وبناء على أوامر صاحب الجلالة ، فان القسم الجزائي من محكمة (ن) وبعد الاطلاع على مطالعة المحلفين ، ووفاقاً لمنطوق الفقرة الثالثة من المادة (٧٧٥) من قـــانون الجزاء والمادتين (٧٧٦) و (٧٧٧) يقرر ما يلي :

« يحكم القروي (سيمون كيرتنكين) عمره ٣٤ عاماً ، والمواطنة (كاترين ماسلوفا) وعمرها ٢٧ سنة بالأشغال الشاقة الأول (سيمون) لمدة ثمانية أعوام ، والثانية (كاترين) لمدة أربـع سنوات ، ويحرمان من كافة الحقوق المدنية ، ويجردان من سائر أملاكهما ، وسائر ما نص عليه قانون الخبراء عملاً بأحكام المادة (٢٥) من القانون المذكور .

« ويحكم على المواطنة المدعوة (أوفيميا بوتشكوفا) عمرها ٤٣ عاماً، بالسجن لمدة ثلاثة أعوام ، وتحرم من حقوقها المدنية وغير ذلك مما ينص عليه القانون وذلك عملاً بمنطوق المادة (١٩) من قانون الجزاء .

« توزع نفقات الدعوى بالتساوي بين المتهمين الثلاثة ، واذا عجز المتهمون عن وفائها فتحال على الخزينة .

« وفيما يتعلق بالأدلة الثبوتية ، فيعاد الخاتم وتتلف المصفاة » .

وفيما كان الرئيس يتـــلو قرار المحكمة كان (كيرتنكين) واقفاً يحرك شفتيه باستمرار ، وكانت (بوتشكوفا) يبدو عليها الهدوء والاطمئنان ، اما (ماسلوفا) فانها لم تكد تسمعه ينطق بالحكم حتى احتقن وجهها ، وصرخت بصوت حاد قوي كاد يصم آذان الحاضرين وقالت :

– أنا بريئة ، أنا بريئة . انكم تقترفون جريمة بحقي ... لم أقصد تسميمه ، لم افكر قط بذلك ، واقسم عليه . اقسم .

ثم سقطت على المقعد وهي تشهق بالبكاء .

وعندما اقتـــاد الحراس المتهم (سيمون) والمتهمة (بوتشكوفا) كانت (كاترين) لا تزال تشهق بالبكاء غير آبهة لما يدور حولها ، مما اضطر احـــد الحراس لأن يشدها من كمها .

– يستحيل ان ينتهي كل شيء هكذا . – قال على الفور (نيكليندوف) بعد ان لاشى ذلك الشعور الأناني الذي كان قد قام في نفسه .

ورغب في أن يرى الفتاة من جديد دون ان يعلم سبباً لذلك ، فخرج الى الرواق غير ملق بالاً لما قد يمكن أن يجره عليه بشرعه من تركيز الانظار عليه . فأدركها، ولكنه مشى أمامها بضع خطوات. كانت الفتاة قد كفت عن البكاء، وكانت تمسح بمنديلها خديها اللذين كانت تبدو فيهما نقط حمر ، وتهز كيانهـــا شهقة بكاء عنيفة من حين لآخر . وعندما مرت بجانبه لم تلتفت اليه ، وعندئذ عـــاد (نيكليندوف) ليواجه الرئيس فألفاه قد غادر المكان فتبعه الى الباب الخارجي .

– سيدي الرئيس . – قال له عندما كان هذا يلبس معطفه – هل تسمح لي بالقليل من وقتك لأتحدث اليك عن الدعوى التي حكمنا فيها منذ قليل ؟ أنا أحد المحلفين .

– لقد سبق ان تشرفت بمعرفتك ، فأنت هو الأمير (ديمتري إيفان نيكليندوف) ، يسرني أن أراك ، لقد التقينا عدة مرات ثم صافحه مذكراً إياه كيف وأين تلاقيا . – هل من خدمة استطيع قضاءها لك ؟

– لقد وقع خطأ في الجواب بالنسبة (لماسلوفا) . هي بريئة وبالرغم من ذلك فقد حكم عليها بالأشغال الشاقة .

– كان حكم المحكمة بناء على مطالعة المحلفين التي لم تكن منسجمة أصلاً مع الوقائع . – أجابه الرئيس دون أن يقف .

– حسن . ولكن ألا يوجد سبيل لإصلاح الخطأ ؟

– توجد على الدوام أسباب صالحة لتمييز الدعوى . فعليك باستشارة بعض المحامين .

– ولكن هذا الخطأ كبير جداً .

– لقد كان لقضية (ماسلوفا) امكانيتان . – قال الرئيس متوخياً مسايرة (نيكليندوف) .

فلم يجبه الأمير .

– هل أنت ذاهب في هذا الاتجاه ؟ – سأله الرئيس .

– بلى . – قال (نيكليندوف) وهو يرتدي معطفه .

وخرجا الى الهواء الطلق ، فرأيا نفسيهما مكرهين على التحدث بصوت أعلى لأن ضجيج الشارع كان يطغي على صوتيهما .

– تأمل ما أغرب ذلك . – قال الرئيس متابعاً كلامه : – لم يكن لهذه القضية سوى امكانيتين ، فإما البراءة وإخلاء السبيل ، وإما الاشغال الشاقة . وليس من حل وسط فلو أجبتم بقولكم « مذنبة ولكن بدون قصد القتل » . لأخلي سبيلها في الحال اذ تحسم مدة محبوسيتها السابقة مما ستحكم به ، على افتراض ذلك .

– لقد كان الخطأ فادحاً .

– وإذا علمنا ان كل شيء كان متوقفاً على هذا الحكم الذي جاء خاطئاً . – قال الرئيس مبتسماً ابتسامة مرثية :

ثم نظر الى ساعته فرأى انه لم يزل أمامه سوى ثلاثة أرباع الساعة لينتهي موعد الانتظار .

– شاور أحد المحامين وليميز الدعوى . هي مسألة بسيطة قال ثم نادى حوذياً يدعى (نوربانسكاجا) وقال له أنا لا أدفع سوى ثلاثين كوبياً .

– تفضل يا صاحب السعادة .

– الى اللقاء الآن ، وإذا جدت لك حاجـــة عندي فستجدني في منزل (دفورنيكوف) شارع (دفوربانسكاجا) – ثم حبا يتأدب واستقل العربة ومضى في سبيله .

٢٥

أصبح الأمير أكثر هدوءاً واطمئناناً بعد المحادثة القصيرة التي دارت بينه وبين رئيس المحكمة . ولطف الهواء الطلق حرارة جسمه . كان يحسب ان الاحداث التي مرت به ذلك النهار ، وكانت كلها مصادفات غير عادية ، كانت السبب في حدة ما تعرض له من انطباعات . ولكنه كان ، على كل حال ، يرى أن لا بد من القيام بعمل ما تلافياً لوضع تلك الفتاة وإنقاذاً لها بأسرع ما يمكن ... وإن لا بد من البحث عن عنوان أحد المحاميين الشهيرين (فانارين) أو (ميكينشكين) .

وعاد (نيكليندوف) ادراجه الى المحكمة ، وفي أحد الأروقة التقى بالمحامي (فانارين) وكان يعرفه بالاسم والوجه ، وأبدى له رغبتـــه في التحدث اليه .

– اعتز كثيراً بأن أضع نفسي تحت تصرفكم . – قال المحامي . – انا الآن متعب ، ولكن إذا كانت القضية غير طويلة ... قصها عليّ ... قصها علي ... ولندخل الى هنا .

ودخلا الى أحد المكاتب ، وجلسا الى احدى الطاولات .

– ما هي القضية ؟ – سأله المحامي .

– قبل كل شيء أرجو ان تحتفظ بسرية ما قد سأقصه عليك .

– ليس من حاجة لهذا الطلب ، فهو واجب علينا .

– لقد كنت اليوم عضواً في مجلس المحلفين ، فحكمنا على امرأة أعلم انها بريئة بالأشغال الشاقة .

قال هذا ثم أمسك عن الكلام واصطبغ وجهه بحمرة الخجل .

فحدق (فانارين) في وجه محدثه ولبث ينتظر .

– لقد حكمنا على امرأة بريئة ، وأرغب في تمييز الحكم ، كما أرغب في ان أوكل أمره اليك .

كان أحب ما لديه انهاء ذلك الشرح بأسرع ما يستطيع لأنه كان مؤلماً له . ولهذا أسرع فقال :

– وفيما يتعلق باتعاب المحاماة ونفقات الدعوى فأنا أقوم بها مهما بلغت .

واحمر وجهه من جديد .

– هذا ما لا أهمية له . – قال (فانارين) : – ولكن ما نوع هذه الدعوى؟

فشرحها له (نيكليندوف) باختصار .

– حسن جداً . غداً سأبدأ بدراسة الدعوى ، وبعد غد ، والأفضل أن يكون الخميس تفضل الى منزلي لأعطيك رأيي . والآن هيا بنا فلا يزال لدي عمل كثير .

فودع (نيكليندوف) المحامي وخرج ، وشعر براحة واطمئنان لأنه مريد المساعدة (لماسلوفا) .

وأخذ يعب الهواء الربيعي في الشارع عباً . كانت الأمسية رائعة فأحب أن يذهب ماشياً على الاقدام غير ملق بالاً لسائقي العربات الذين كانوا يلحون في عرض خدماتهم عليه . وسرعان ما ازدحمت في ذهنه الافكار ، واستيقظت ذكرى (كاترين) ومساوئه ، فأظلمت الدنيا في عينيه .

– كلا . كلا . سوف أفكر في كل هذا . أما الآن فأنا بحاجة لما يرفه عن نفسي .

وإذ تذكر الدعوة التي تلقاها من آل (غورتشاكين) ، نظر في ساعته فرأى انه قد يجوز أن يصل في الموعد المحدد .

وفي هذه الاثناء مرت حافلة (ترام) فصعد اليها ، غير انه لم يلبث أن تركها واستقل عربة فبلغ المنزل قبل أقل من عشر دقائق .

٢٦

لم يكد البواب يلمحه قادماً حتى أسرع وفتح له الباب الكبير الخشبي السميك الذي دار على محوره دون أن يحدث ضوضاء . وانحنى الخادم الأمين احتراماً للأمير ، ورحب به ودعاه للدخول ثم أردف يقول :

– تفضل يا صاحب السمو . انهم بانتظارك على المائدة ، وقد أمروني أن أبلغ سموكم ، انهم ينتظرون حضوركم .

ثم مضى وقرع جرساً .

– هل يوجد زوار ؟ – قال الأمير وهو يلقي اليه بمعطفه .

– يوجد هنا (كولوسوف) و (ميخائيل سيرجيفيتش) بالاضافة الى أهل البيت .

وكان خادم يرتدي (فراك) وقفازاً أبيض يقف منتظراً عند نهاية السلم .

– تفضل يا صاحب السمو انهم بانتظارك .

بلغ (نيكليندوف) غرفة الطعام بعد أن اجتاز قاعة واسعة فخمة . كانت العائلة بكاملها حول المائدة ما خلا الأميرة (صوفيا فاسيليفنا) التي لم تفارق غرفة نومها منذ عدة سنين . وكان يرأس المائدة العجوز (غورتشاكين) ، وعن يساره كان الطبيب ، وعن يمينه أحد المدعوين وهو (فران فراتوفيتش كولوسوف) موظف ومشايع (لغورتشاكين) . وكانت تجلس بجانب الطبيب الآنسة (ريدر) معلمة ابنة (غورتشاكين) وهي طفلة في الرابعة من عمرها تجلس بجانب معلمتها . وكان يجلس في الجهة المقابلة (بيتيا) ابن الأمير (غورتشاكين) الذي كان طالباً وفي الصف السادس ، والى جانبه طالب كان بمثابة معلم له . والى جانب هذين كان يجلس (ميخائيل سرجيفيتش) وقبالته تجلس (كاترين اليكسيتشفنا) وهي عانس في حدود الأربعين من عمرها . وأخيراً (مارغريت) وكان بجانبها مكان شاغر .

– أخيراً جئت فأهلاً ، وسهلاً . تفضل اجلس . كنا على وشك أن ننتهي . – قال (غورتشاكين) ورفع عينيه اللتين كانتا بلون الدم ويبدو كأنهما بلا أجفان في حين كانِ يأكل على ما بقي له من أسنان ، بجهـــد وعلى مهل . ثم نادى الخادم (استيبان) وفمه ممتلىء وأشار الى المقعد الشاغر .

– سأخدم سموكم في الحال – قال (استيبان) .

ودار (نيكلنيدوف) حول المائدة ليصافح المدعوين الذين وقفـــوا جميعهم للسلام عليه باستثناء الجنرال العجوز ، والسيدات . وكان يرى تلك المصافحة سخيفة بغيضة ، فاعتذر عن تأخره ، وكان يهم بالجلوس في المقعد الشاغر بـين (مارغريت) و (كاترين اليكسيتشفنا) ، إلا أن الأمير أصر على أن يأكل من المقبلات التي كانت على طاولة ثانية .

وحسب (نيكلنيدوف) نفسه غير جائع ، غير أنه بعد أن تناول قليلاً من الجبن تفتحت قابليته وابتدأ يأكل بنهم .

– أحسب انكم كنتم تصفون الدرياق لأدواء المجتمع . – قال (غورتشاكين) بسخرية بينة ، ومتبنياً كلمة صحيفة رجعيـــة كانت تهاجم مجلس المحلفين على الدوام – هل برأتم المجرمين وأدنتم الأبرياء ؟

– لقد صنعنا بعض الشيء . بعض الشيء ... أجابه (نيكلنيدوف) .

– قدموا له الطعام – قالت (مارغريت) كيما تبرهن عن وحدة الحال التي بينهما .

كان (كولوسوف) يشرح آنئذ وبصوت عال مقالاً يهاجم مجلس المحلفين .

كانت (مارغريت) فائقة الأناقة كعادتها ، وكانت ترتـــدي ثوباً حسن الطراز وان كان لا يلفت الأنظار .

– ربما كان متعباً . – قالتِ وقد نظرت الى (نيكلنيدوف) .

– كلا . كلا . ليس كثيراً . هل زرتم السقيفة ؟

– كلا . أجلناها لمناسبة أخرى . لقد زرنا آل (سولومانوف) حيث لعبنا التنس . وأؤكد أن السيد (كروكو) لاعب لا يضارعه أحد .

كان (نيكلينندوف) قد جاء الى هذا البيت ترفيهاً عن نفسه ، إذ كان يروقه المنزل وساكنوه ، لما فيه من مظاهر الترف التي كانت توافـــق ذوقه ، وجو الملق الذي كان يشيـع فيه . ولكنه في ذلك اليوم، ولأسباب خفية غامضة لم يقو على ادراكها ، كان يرى كل شيء فيه بغيضاً . كل شيء من البواب حتى الخدم ، ومن المدعوين حتى (مارغريت) نفسها . كان يرى كل شيء مصطنعاً وغير جذاب . كانت لهجة (كولوسوف) الآمرة المبتذلة تسوءه . وخطم العجوز (غورتشاكين) الشهواني كان يثـــير امتعاضه . كذلك كانت لغة (كاترين اليكسيتشفنا) الفرنسية، ووجه المدرسة وتلميذها المرعوبان. وأكثر ما ساءه قول (مارغريت) : « قدموا له الطعام » . لقد كان (نيكلينندوف) يتردد في نظرته للأميرة بين رأيين. فطوراً كان يراها وكان شعاعاً من نور القمر يجللها فتبدو لعينيه جميلة غضة وذكية . وطوراً آخر كان يراها مغمورة بنور يبهر الأبصار فيخفي عنه مواطن النقص فيها . وكان هذا شأنه تلك الليلة . كان يرى غضون وجهها وتجاعيد شعرها الاصطناعية ، وأكواعها الغليظة ، وظفر ابهامها الكبير الذي يشبه ظفر أبيها الأمير العجوز .

— انها لعبة مملة حقاً. — قال (كولوسوف) وهو يقصد التنس بقوله هذا — لقد كانت لعبة (لابتا) أكثر متعة . تلك اللعبة التي كنا نلعبها في الصغر .

— لا يجوز حكمك عليها لأنك لم تمارسها . — أجابته (مارغريت) — هي لعبة جد ممتعة .

وتراءى (لنيكلينندوف) انها تلفظ كلمة « جد » بشكل مقصود .

ودار نقاش حاد حول هذا الموضوع ، اشترك فيه (ميخائيل سرجيفيتش) و (كاترين اليكسيتشفنا) ، وظل الباقون صامتين ، ولكن الضجر كان بادياً عليهم .

— أجدل على الدوام . — قال العجوز (غورتشاكين) ، ثم رفع الفوطة عن صدره ، وأخر كرسيه الى الوراء مسبباً ضوضاء .

فنهض الجميع عن المائدة ، وتقدموا من طاولة صغيرة عليها اقداح ماء فاتر معطر فتمضمضوا فيه .

– أليس صحيحاً ان طباع اللاعبين تتجلى في اللعب ؟ – قالت (مارغريت) تسأل (نيكليندوف) وقد تحولت نحوه .
كانت قد أدركت انه كان مشغول البال ، وكانت شديدة الشوق لمعرفة أسبابه .
– أجهل ذلك لأنني لم أحاول البحث عنه .
– أترغب في زيارة أمي ؟ – سألته (مارغريت) .
– بلى ، بلى – أجابها بلهجة تدل على عدم الرغبة في ذلك ثم اخرج لفافة تبغ من محفظته .
فنظرت اليه الاميرة نظرة استفهام صامتة ما عتم ان تبينها فاستولى عليه الخجل . ثم قال يخاطب نفسه :
– حقاً . ان هذا معناه نقل السآمة الى الناس .
ثم أضاف يقول وهو يتوخى أن يكون أكثر تأدباً ولباقة انه لمن دواعي سروره ان تتنازل الأميرة لاستقباله .
– مما لا ريب فيه ان أمي يسرها ان تراك . وستجد عندها (ايفان ايفانوفيتش) وسيكون بوسعكم ان تدخنوا .
كانت ربة البيت الأميرة (صوفيا فاسيليفنا) قد اعتادت منذ ثمان سنوات ان تستقبل مدعويها وهي جالسة في مقعدها المريح محاطة بالوسائد ، والمطارف، والمخمل ، والذهب ، والعاج ، والنحاس المنقوش ، والورود . وكانت تميز (نيكليندوف) عن سائر اصدقائها لأنها كانت صديقة لوالدته ، ولأنه كان شاباً ذكياً ، وترغب في تزويجه (بمارغريت) .
كان على الزائر ان يجتاز قاعتين قبل الوصول الى الجناح الذي تشغله الأميرة (صوفيا) . وعندما كان (نيكليندوف) يجتاز أولاهما تتقدمه (مارغريت) وقفت هذه وقد وضعت يدها على مسند كرسي مذهب ، وحدقت ملياً في وجهه . كانت جد راغبة في الزواج وكان (نيكليندوف) صفقة جيدة، وفضلاً عن ذلك فقد كان يعجبها . وكانت قد ألفت فكرة كونه لها . وهكذا فقد

كانت تحاول تحقيق رغبتها بمثل الأحرار اللاواعي الخاص بمرض الأعصاب . وها هي ذي تحاول اثارته لانتزاع ايضاحات منه .

– احسب ان حادثاً غير عادي قد حدث لك فهل يمكن ان اعلم ما هو ؟

– قالت تسأله .

فتذكر الأمير الفتاة التي رآها في المحكمة فزوّى ما بين عينيه ، وتغضن جبينه . غير انه أراد أن يكون صريحاً .

– حادث عجيب ورائع وخطير .

– وما هو هذا ؟ ألا استطيع معرفته ؟

– أما الآن فلا . أرجو ان تسمحي لي بكتمانه الآن . ان الذي حدث لي من الغرابة بحيث لم استطع تكوين فكرة واضحة عنه حتى الآن .

واحمر وجهه خجلاً .

– أترفض اطلاعي عليـــه ؟ – قالت تسأله ، وقد تجهم وجهها ، ودفعت الكرسي الى الأمام بحركة عصبية . ثم قالت له – حسن . هيا بنا .

ومشت أمامه مسرعة وهي تهز رأسها كمن تحاول طرد افكار مزعجة وغير مجدية . وحسب (نيكليندوف) انه لاحظ انها تحاول حبس دموعها فساءه ذلك وأخجله . غير أنه كان يعلم ان أي ضعف يبديه تجاهها سيجعلها أكثر أملاً فيه وهو الذي يرى في علاقاته الحالية بها مثار رعب وازعاج . وهكذا تبعها الى غرفة أمها دون أن يفوه بكلمة واحدة .

٢٧

كانت الأميرة (صوفيا فاسيليفنا) قد فرغت قبل قليل من تناول طعامها الذي كان دائماً مؤلفاً من اصناف غنية بالعناصر المغذية . وكانت تتناول طعامها في غرفتها كيلا يراها أحد وهي تقوم بهذه العملية المألوفة . كان آنئذ بالقرب من مقعدها طاولة صغيرة عليها فنجان قهوة ، وكانت هي تدخن لفافة تبغ معطرة ، كانت الأميرة نحيلة الجسم ، طويلة القامة ، سمراء اللون ، طويلة الأسنان ، سوداء

العينين كبيرتها . وكانت تأبى التسليم بانها أصبحت عجوزاً على الرغم من تقدمها النسبي في السن .

كان تروج اشاعات كثيرة عن وجود علاقات لها مريبة بالطبيب . وكان (نيكليندوف) فيما مضى لا يعير أي التفات لتلك الاشاعات . أما الآن فانه لم يتذكرها فحسب ، وانمـــا استرعى انتباهه وجوده بجانبها ولحيته ذا الشقين المنفصلين مطلية بالدهن ، وأوجد له انطباعات سيئة . وكان (كولوسوف) يجلس على مقعد مريح قليل الارتفاع عن الأرض يشرب قهوته .

ودخلت (مارغريت) الى الغرفة بصحبة (نيكليندوف) ولكنها ما لبثت أن غادرتها .

— عندما تحس ان أمي قد تعبت فتفضل الى عندي . — قالت موجهة كلامها الى (نيكليندوف) لتشعره بأنها قد نسيت كلماته الماضية .

— نهارك سعيد يا صديقي . تفضل واجلس ، وحدثني . — قالت الأميرة ، وقد فتحت فمها فبانت اسنانها الاصطناعية التي أجيد صنعها حتى ليظن المرء بأنها ليست كذلك . — لقد قيل لي انك عدت من المحكمة سيىء المزاج . والواقع هو ان هذه المهمة قد تكون شاقة ومؤلمة لذوي القلوب الحساسة . — أضافت تقول بالفرنسية .

— الحق معك فهذا هو الواقع . يشعر الانسان بضآلته ... ويعلم أن لا حق له بأن يدين غيره .

— هذه حقيقة كبرى . — قالت ذلك بلهفة كما لو كانت قد اكتشفته للمرة الأولى . ثم أضافت تقول له كي تتملقه كعادتها مع محادثيها . — ولوحتك ؟ إني لشديدة الرغبة في أن أراها . ولولا مرضي لذهبت الى بيتك قصد رؤيتها .

— لقد أهملتها . — أجابها متضجراً بلهجة جافة لعلمه انها تتملقه .

وعلى رغم الجهد الذي بذله فانه لم يستطع ان يجعل تصرفاته وحديثه أكثر تأدباً ولياقة .

— أتدري أن (ريفرين) نفسه أكد لي ان الأمير يتمتع بموهبة فنية صحيحة؟ — قالت الأميرة موجهة الكلام الى (كولوسوف) .

وإذا تبينت انها لن تستطيع استدراج (نيكليندوف) لحديث أدبي شيق، فقد توجهت الى (كولوسوف) تسأله عن وجهة نظره حول مأساة جديدة صدرت حديثاً ، وكان في لهجتها ما يوحي بأنها ترى في كلامه فصل الخطاب وان كل كلمة منه حرية بأن تنقش على ألواح من المرمر .

فانتقد (كولوسوف) المأساة انتقاداً شديداً ، مبدياً وجهـــة نظره في الفن ، فأعجبت الاميرة أيما اعجاب بصواب انتقاداته . وحاولت احياناً الدفاع عن المؤلف ، ولكنها اضطرت أخيراً لإعلان موافقتها على آرائه والاقرار له بالغلبة عليها .

كان (نيكليندوف) يسمع ويلاحظ فيبدو له كل شيء غريباً . لقد لاحظ ان أياً منهما لم يكن يرى للمأساة أي ميزة إلا تلك التي يراها لها الآخر . وانهما كانا يتكلمان لمجرد الحاجة لتحريك عضلات اللسان والحنجرة بعد الطعام . ولاحظ ان (كولوسوف) كان شبه ثمل على الرغم من انه لم تبـــدر منه أي بادرة قبيحة . كما لاحظ أيضاً ان الاميرة (صوفيا فاسيليفنا) كانت تنظر من وقت لآخر الى النافذة تراقب أشعة الشمس المطلة عبرها والتي كانت توشك ان تقع عليها ، مخافة ان تكشف ما على وجهها من مساحيق .

— بالضبط . — قالت عندما أبدى (كولوسوف) بعض ملاحظاته . ثم قرعت الجرس .

— تحسن صنعاً (يا فيليب) إذا أسدلت الستار . — قالت الاميرة للخادم الذي خف لتلبية ندائها .

وفي حين كانت عيناها تراقبان حركات (فيليب) الخادم حولت مجرى الحديث للصوفية وللشعر .

— ليس هذا هو الستار الذي كان ينبغي أن تسدله (يا فيليب) وانما ذاك . — صاحت تقول له .

فحنى الخادم العريض المنكبين القوي العضل رأسه اعتذاراً وقصد النافذة التي أشارت له الاميرة اليها . ولكن الحظ أبى أن يحالفها هذه المرة أيضاً على

رغم الجهد الذي بذله الخادم لإرضائها . فقطعت حديثها مرة أخرى لتقول (لفيليب) انه يخطىء دائماً وأنه يتعمد تعذيبها بلا رحمة . فاستشاط الخادم غيظاً واتقدت عيناه . فقال (نيكليندوف) في نفسه وهو يراقب وجه الخادم وقد تجهم .

– سيبعث بها الآن الى الشيطان .

ولكن (فيليب) الجميل كبح جماح غيظه ، ولاذ بالصبر الجميل ، وأخذ يقوم بما تأمره به الاميرة (صوفيا) .

– ان نظريات (دارون) رائعة . – كان (كولوسوف) يقول وهو يتململ في مقعده . – لولا ما فيها من المبالغة .

– أتؤمن بنظرية الوراثة ؟ – قالت الأميرة تسأل (نيكليندوف) وقد أزعجها سكوته الطويل .

– كلا لا أؤمن بها . – أجابها وهو غارق في تأملات شاذة خطرت له .

كان قد تصور (كولوسوف) الكبير البطن ، الأصلع الرأس ، الخالي الذراعين من العضلات ، يقف بجانب (فيليب) الذي كان خير أنموذج للرسام ، وكلاهما عاري الجسم . ثم جرب أن يتصور أيضاً منظر أكتاف (صوفيا فاسيليفنا) كما هي في واقعها تحت المخمل والحرير ، ولكن المشهد كان مثيراً للتقزز والإشمئزاز الشديد . فصرفه عنه .

فحدقت الأميرة بنظرها فيه ملياً من رأسه الى أخمص قدميه ثم قالت له :

– أحسب ان (مارغريت) بانتظارك فالحق بها فتسمعك معزوفة جديدة (لفريج) .

– سوف لن تعزف شيئاً . – قال (نيكليندوف) في نفسه . – ما أبرع هذه العجوز في الكذب .

فهب واقفاً ثم صافح اليد النحيلة الشفافة الملأى بالخواتم التي مدتها له الأميرة. وتلاقى وهو يعبر القاعة مع (كاترين اليكسيتشفنا) فاستوقفته وقالت له بالفرنسية :

– أرى ان مهمة المحلفين مجلبة للغم لأصحابها .
– هذا صحيح . وقد أزعجني ما لحق بي من السأم والضجر اللذين لم استطع التخلص منهما بل ربما نقلتهما للآخرين . فمعذرة .
– وماذا أصابك ؟
– أرجو أن تعذريني على كتمانه . – أجاب (نيكليندوف) وهو يفتش عن قبعته .
– ألا تذكر انك قلت مراراً انه ينبغي قـــول الحقيقة دائماً ؟ إذن كيف ترفض الآن التصريح بها ؟ ألا تذكرين ذلك (يا مارغريت) ؟ – قالت ذلك عندما رأت هذه قادمة نحوها .
– لقد كان ذلك مني ، ولكني قلته ونحن نلعب الورق وفي اللعب يمكن التصريح بالحقيقة . – أجاب (نيكليندوف) : – أما في واقع الحياة فنحن جد أشرار ... أو على الأقل فأنا جد شرير بحيث لا أستطيـع فعل ذلك .
– ليس في الحياة ما هو اسوأ من ان يجلب الانسان الغم لنفسه . – قالت (مارغريت) . – أما أنا فلا ولن أحاول ذلك ، ولذا تراني دائمـــاً مرحة ، أتريد أن تأتي ؟ سنحاول شفائك من هذه الحالة النفسية .
كان إحساس (نيكليندوف) يشبه احساس الجواد الذي يعلم انهم يداعبونه ليلجموه . ولكنه في ذلك اليوم لم يكن على استعداد للرضوخ لمشيئة تفرض عليه . ولذا اعتذر بحاجته للذهاب الى بيته ، فودع وخرج .
ولبثت (مارغريت) ممسكة بيده عند وداعه أكثر من المعتاد ثم قالت له :
– لا تنس ان أصدقاءك يهتمون لما يهمك . أتاتي غداً ؟
– لا أظن . – أجاب (نيكليندوف) وهو خجل دون أن يعلم مما أو لماذا ثم خرج مسرعاً .
– ما معنى ذلك ؟ – قالت (كاترين اليكسيتشفنا) تسأل فور خروجه .
– اني منشغلة البال لتصرفه الشاذ . أريد معرفة السبب مهما كلف الأمر . قد تكون قضية كبرياء فحبيبنا (ديمتري) سريـع التأثر .

– ربما كان هناك قضية غير شريفة . – كانت (مارغريت) على وشك ان تقول ولكنها لم تفه بتلك العبارة البذيئة .

ثم قالت وهي ترنو الى الأفق البعيد ويكاد وجهها يكون بلا حياة ، وعلى طرفي نقيض منه عندما كانت تحدق في عيني (نيكلييندوف) .

– لا مفر للانسان من أن تمر به في حياته أيام بؤس ، وأيام هناء . ترى أمن الممكن أن يخدعني هذا أيضاً ؟ سأقف منه « بعد ما رأيت » موقف المحاذرة . هذا ما قالته في نفسها .

ولو أن سائلاً سأل (مارغريت) عما تعنيه بعبارة « بعد ما رأيت » اذن لأحرجها هذا السؤال . لقد كانت في قرارة نفسها تعتبر الأمير أكثر من مجرد أمل لها، كانت تراه وكأنه قد قطع لها عهداً بالزواج منها ان لم يكن عن طريق الكلام فعن طريق النظرات والابتسامات والتلميحات . وكم كان يحز في نفسها اضطرارها على أن تنفض يدها مما كانت تعتبره قد بات منها قاب قوسين أو أدنى .

٢٨

– إن ما أفعله مخجل جداً، ويكاد يكون عملاً وضيعاً – كان (نيكلييندوف) يفكر في نفسه وهو في الطريق الى منزله .

لم يكن قد نسي الانطباع المؤلم الذي ساوره أثر حديثه مع (مارغريت) . ولم يكن يرى نفسه مخطئاً بالنسبة للأميرة اذ لم يصدر منه ما يمكن أن يعتبر وعداً أو عهداً وانه لم يتحدث قط إليها بصورة جدية عن قضية الزواج . غير أنه كثيراً ما لمح لها تلميحات تعد وعداً . وهذا ما كان يقض مضجعه . ومع ذلك فانه لم يكن قد أدرك استحالة زواجه منها مثلما أدركه ذلك اليوم .

– إن ما أفعله مخجل جداً ، ويكاد يكون عملاً وضيعاً . – هكذا كان يردد في سره مفكراً في حياته كلها وليس في علاقاته بالأميرة فحسب . – أجل ان كل ما في حياتي مخجل ومعيب . – كان يردد في سره وهو يدخل البيت .

– لن أتناول طعاماً الليلة . – قال لخادمه الذي تبعه حتى غرفة الطعام حيث كانت المائدة معدة والشاي جاهزاً . – فاذهب ونم .

– كما تشاء سيدي . – أجابه الخادم وهو يرفع صحاف الطعام عن المائدة .

كان (نيكليندوف) ينظر إليه بحنق ، لأنه كان شديد الرغبة في ان يتركوه لوحده ، وأن يدعوه بسلام .

هنا توفيت أمه منذ ثلاثة شهور .

وما أن دخل (نيكليندوف) تلك القاعة ، ورأى ذلك النـــور الباهت المنبعث من قنديلين الذي ينيرها ، وشاهد صورتي أبيه وأمه ، حتى تذكر آخر صلاته بأمه التي لم تكن خليقة بولد بار بأهله . كان يتمنى موتها لا لشهوة الميراث أو حب السلطة وإنما لكي لا يرى ما كانت تقاسيه من آلام لا تطاق ، ومرضها العضال الذي كان يسمم حياته هو .

فأقبل يتملى تلك اللوحة الفنية التي أبدعتها ريشة أحد الفنانين المشهورين ، التي تبرز أمه بثوب الرقص عارية الصدر والظهر وتكاد تكون نصف عارية . فساءه ذلك المشهد وغمه في آن واحد . وازداد غماً واستياء عندما تذكر أن تلك المرأة قد احتضرت وماتت قبل ثلاثة أشهر في تلك القاعة ذاتها وتحت تلك اللوحة عينها التي تبرزها كأجمل ما تكون ، وانها كانت عند موتها كالمومياء ، باردة ، وتنبعث منها رائحة لا تحتمل ، توهم انه يشمها آنئذ.

وتذكر مناسبة أخرى مؤلمة أيضاً . تذكر أن الأميرة قبـــل موتها بيوم واحد ، دعته إليها وقالت له بحزن لا يوصف وهي ممسكة يده بكلتا يـــديها الناحلتين : « لا تقسو في الحكم عـــلي يا صغيري . لا تقسو علي في الحكم اذا كنت قد قصرت في أداء واجبي بعض الأحيان » ثم انهمرت الدموع من بـــين أهداب تلك العيون التي بهت نورها .

– يا إلهي . يا إلهي . يا له من رعب . – صـــاح (نيكليندوف) وعيناه لا تزالان عالقتين بصورة تلك المرأة نصف العارية .

وذكره ذلك العتق الجميل بامرأة شابة . ذكره (بمارغريت) التي دعتــــه

ذات ليلة إليها منتحلة سبباً وهمياً ، كي يشاهدها مرتدية ثوب الرقص ويتملى جمالها ، فأثارت امتعاضه ذكرى ذلك الصدر الجميل ، وذينك الذراعين ...
كذلك ذكره بذلك الأمير العجوز ذي الغرائز الوضيعة الوحشية وذي الماضي القبيح ... وتلك الأم المشهورة بسكرها ... كل شيء كان مخزياً ... كل شيء كان يبعث على الخجل ، ومدعاة للتقزز والاشمئزاز .

– بلى . بلى – كان (نيكليندوف) يقول في نفسه – ينبغي قطع تلك الصلة الزائفة بآل (غورتشاكين) . يجب التحرر من (صوفيا فاسيليفنا) ، والميراث ، وكل شيء . كي أعيش في منأى عن ذلك الجو الفاسد ... خارج البلاد ... في (روما) ... وأنهي لوحتي ...

وعندئذ تذكر أنه يشك في موهبته الفنية .

– هذا ما لا أهمية له – قال في نفسه – على الأقل سيكون بامكاني استنشاق الهواء بحرية . سأذهب أولاً الى القسطنطينية ثم الى روما .

ولكنه قبل كل شيء عليه أن يسوي قضية مجلس المحلفين وأن يجتمع بمحاميه .

وهنا قام في مخيلته بوضوح تام شبح المتهمة بعينيها السوداوين الحولاوين . ترى كم ذرفت من الدموع لدى سماعها الحكم عليها ...

وطرح (نيكليندوف) عقب لفافة التبغ ، وأشعل أخرى ثم أخذ يذرع القاعة ذهاباً وإياباً بخطى واسعة . وعادت الى ذاكرته الهنيهات النشوى التي قضاها معها واحدة تلو أخرى ثم تذكر آخر مواقفه معها . تذكر الشهوة العارمة التي تملكته ، واليأس المبكر الذي أصابه . أواه . ما أجمل ذلك الثوب الأبيض، وذلك الشريط الأحمر . ويا لتلك الصلاة عند منتصف الليل .

– حقاً لقد كنت أحبها ليلة عيد الفصح . كنت أحبها حباً طاهراً ناعماً كحبي لها في الصيف الذي أقمت فيه في منزل خالتي عندما كنت أعد أطروحتي.

ثم عاد فتصور نفسه شاباً متحمساً طيباً ومغرماً لما كان في سالف أيامه ، فغمرته موجة من كآبة عميقة .

كان الفارق كبيراً بين فتى الأمس وبين كهل اليوم. وقد يكون هذا الفارق أكبر مما بين (كاترين) ليلة عيد الفصح وبين (ماسلوفا) التي تجلس الآن على مقعد الاتهام . كان فيما مضى حراً طليقاً ، في زهرة العمر ، واثقاً من المستقبل ، جم الأماني . أما الآن فهو يتخبط في دياجير حياة منغصة ، زرية ، لا يجد له سبيلاً للخلاص منها ، بل أكثر من ذلك ، انه لا يجـد من نفسه إرادة الفرار منها . كان إذ ذاك فخوراً باستقامته وصدقه . أما الآن فهو يعيش في دوامة من الكذب يراها المجتمع الذي يعيش في أوساطه حقائق راهنة . ترى كيف السبيل الى قطع صلاته (بصوفيا فاسيليفنا) وزوجها دون أن يحرج موقفـه ؟ وبأي طريقة سليمة يتوصل لقطع علاقاته (بمارغاريت) ؟ وكيف يوفق بين ما يراه في مبدأ ملكية الأرض من اجحاف ، وبين احتفاظه بالمساحات الواسعـة من الأراضي التي ورثها عن أمه ؟

و (كاترين) التي جر عليها الأذى ، كيف السبيل الى تدارك وضعها ؟ انه لا يستطيع التخلي عنها . وانه ليستحيل عليه التخلي بمثل هـذه الصورة عن امرأة أحبها كثيراً ، فيكتفي بدفـع نفقات المحامي محاولة منه لإنقاذها من عقوبة لا تستحقها ... أيكفر عن خطيئته بالمال كما فعل أول مرة ؟... وهنا تذكر اللحظة التي أوقفها فيها في الرواق ، فدس لها بين ثدييها المظروف الذي كان يحتوي على ورقة المئة روبل . ثم فر هارباً .

– بئس ذلك المـال . بئس ذلك المال . – قال (نيكليندوف) باشمئزاز وجزع . – يا للهول . انه لن يقوى على فعل ذلك إلا وضيـع وحقير . أتراني رجلاً وضيعاً وحقيراً ؟ هل يمكن أن يكون ذلك ؟ – ولفظ هـذه العبارة بصوت عال وقد وقف . – أيمكن أن أكون وضيعاً ؟

وحسب أن صوتاً يجيبه .

– ما عساك تكون إذن ؟ ... أكانت تلك الفعلة هي الوحيدة التي قمت بها في حياتك ؟

ويمضي (نيكليندوف) محاسباً نفسه . ألم تكن عاراً وشيناً علاقاته (بماري

فاسيليفنا) وصداقته لزوجها ، وقبوله الميراث عن أمه مع علمه بتناقضه مع العدل والمنطق ، وحياة البطالة والفسق التي يحياها ؟ أجل انه لوضيع . بوسع الناس أن يصفوه بما يهوون . وبوسعه أن يخدع سائر الناس ، ولكنه لا ولن يستطيع خداع نفسه . وهنا أدرك أن ما كان يشعر به من اشمئزاز إزاء المجتمع والأمير و (صوفيا فاسيليفنا) و (مارغريت) والخدم لم يكن كل ذلك سوى صدى احتقاره لنفسه . وفي حين كان يعترف لنفسه بضعته وحقارته ، كان شعور عزاء وارتياح يولد في داخله .

ليست هي المرة الأولى التي يحس فيها (نيكليندوف) ذلك الاحساس الذي أسماه « تطهير الروح » فقد أحسه مراراً ولكن على فترات متباعدة . وعندما كانت تعرض له حالات « الاشراق » هذه كان يضع لنفسه نهجاً خاصاً ليسير عليه في حياته فيقول : « الآن تبدأ حياة جديدة ، ونهج قويم ينبغي ألا أحيد عنه » غير أن مغريات الحياة ، لا تلبث أن تستدرجه من حيث لا يشعر ، فتلقي به في غيابة هوة سحيقة أعمق غوراً . لقد استرد اعتباره أمام نفسه غير مرة . وكانت الأخيرة عندما قدم استقالته من منصب ضابط في الحرس ، وسافر الى الخارج ليتابع دراسة الرسم . وظل منذ ذلك الحين لا يأبه للتناقض الصارخ بين سيرته في حياته وبين ما يوحي به ضميره . أما الآن فهو يجزع إذ يتجلى له ذلك .

لقد كان ذلك التناقض من الحدة والوضوح بحيث أصبح يشك حتى في امكانية حدوث مثل ذلك « التطهير » .

— كلا . كلا . كل هذا عديم الفائدة . — كان يهيب به صوت داخلي شديد الاغراء .

« كثيراً ما حاولت اصلاح نفسي ، والسمو بها الى مستوى أفضل ، ولكن كانت تنقصني الارادة الحقيقية . فلماذا أعيد التجربة مرة أخرى ؟ وفضلاً عن ذلك فلست الوحيد ، فهنالك الكثيرون من أمثالي » .

ولكن انساناً آخر كان قد تنبه في داخل (نيكليندوف) . لقد استيقظ

ذلك « الأنا » المعنوي الحر ، الحقيقي الوحيد ، الأبدي ، والقوي الذي لا يتغير ، والذي يجب عليه أن يثق به في مستقبل أيامه . لقد كان البون شاسعاً بين ما هو عليه الآن ، وبين ما ينبغي أن يكون . ولكن الانسان المعنوي الذي استيقظ كان يرى كل شيء ممكناً .

– سأحطم حبائل الكذب التي اتشبث بها . – قال بصوت عال وبلهجة حازمة – سأقول الحقيقة مهما كلف الأمر . سأقولها لجميع الناس نزولاً عند نداء ضميري . سأقول (لمارغريت) انني رجل فاسق ، وان زواجنا مستحيل . سأقول (لماري فاسيليفنا) ... كلا . كلا . لن أقول لهذه شيئاً . سأقول لزوجها انني كنت كاذباً في صداقتي له وانني رجل حقير . سأفعل بميراثي عن أمي ما تقضي به العدالة ... سأقول (لكاترين) انني كنت وضيعاً ، وانني مجرم تجاهها . سأحاول التخفيف عنهـــا بشتى السبل ومختلف الوسائل ، وسأطلب السماح منها ... سأطلب السماح كما يطلبه الصبيان .

ثم أمسك قليلاً عن التفكير ، ليعود الى تصوراته .

– سأتزوج منها إذا اقتضى الأمر .

فضم ذراعيه الى صدره كما كان يفعل أيام الطفولة وشخص ببصره الى السماء ضارعاً .

– يا إلهي أعني . أرشدني . أعمل على أن أعود لسابق صلاحي وطهارتي .

كان يتوسل الى الله كي يمنحه القوة المعنوية ويطهره . وها قد تقبل الله توسلاته .

انه الآن لا يحس في نفسه مجرد حرية الحياة وقوتها ومرحها فحسب ، وانما سائر قوى الخير مجتمعة . انه يشعر في نفسه القوة على القيام بكل ما يستطيعه الانسان من الأعمال الصالحة الجميلة . وعندما تبين له ذلك فاضت عيناه بالدموع ، وكانت دموعاً طاهرة نزيهة ، دموع فرح وابتهاج لبعث انسانه المعنوي الذي ظل راقداً أعواماً طوالاً .

وقد يكون في هذا بعض الشر لأن شعوره يبعث الإنسان الفاضل في نفسه آثار فيها حبه لذاته .

وأحس (نيكليندوف) بحرارة ففتح النافذة التي تطل على الحديقة . كانت الليلة قمراء ، وكانت معتدلة البرودة . وكان السكون عميقاً . ونقل اليه الأثير من بعيد صدى ضوضاء عجلة تسير على الطريق، ثم عاد السكون يخيم من جديد . كان أمام النافذة شجرة باسقة ، وكانت تلقي ظلها على فناء الدار الواسع الخاوي من كل شيء . وكان الى اليسار منزل صغير كان نور القمر يغمر سطحه فبدا أبيضاً ، وامتد ظله حتى بلغ الشجرة الباسقة .

كان (نيكليندوف) ينظر الى الحديقة ، والسطح الذي كان يجلـله نور القمر ، والى ظلال الشجرة ، ويصيخ بسمعه الى السكون الرهيب ، ويستنشق ذلك الهواء الرطب المنعش فيهتف حبوراً :

– رباه ما أجمل كل هذا . ما أجمل كل هذا يا رب .

وعاد ففكر في ان البعث المعنوي الذي تم في داخله كان جميلاً أيضاً .

٢٩

عادت (كاترين) مرة ثانية الى السجن فبلغته حوالي الساعة السادسة مساء وهي مجهدة متعبة ، يؤلمها قدماها بسبب طول المسافة التي أرغمت على قطعها سعياً على الاقدام . كان الجوع يعض أحشاءها ، والحكم الجائر غير المتوقع الذي حكمت به كان أكثر ارهاقاً لها من الخمسة عشر كيلومتراً التي قطعتها سيراً على الأقدام .

عندما كانت في المحكمة ، وكان الحراس يأكلون الخـبز والبيض الذي يحملونه ، كان يسيل له لعابها ، وتود لو تستطيع الحصول على ما تسد به رمقها وتدفع به الجوع الذي بدأت تحس بوطأته . ولكنها كانت ترى في استجدائها بلقمة من العيش زيادة في الاذلال . غير انها بعد انقضاء فترة قصيرة على موعد تناول الطعام ، هدأت ثورة جوعها ، وحل الضعف محله .

على هذه الحالة من الجوع والاعياء تلي عليها قرار المحكمة .

حسبت (ماسلوفا) ان سمعها خانها ، ولم تصدق ما سمعته أذناها ، إذ لم تكن تتصور بحال من الأحوال ان هذا سيكون مصيرها . غير انها عندما رأت وجوه المحلفين والقضاة الجادة الهادئة وهم ينصتون الى القرار وكأنه أمر طبيعي عندئذ أطلقت ضجة الاحتجاج تلك التي ملأت أصداؤها القاعة .

– لست مذنبة .

وحتى صرختها هذه بدأت وكأنها أمر عـــادي مألوف قد تعود القضاة والمحلفون سماع الكثير من أمثاله . وإذ تبينت ذلك انفجرت باكيـــة وعلا شهيقها يملأ القاعة ، وأيقنت أن لا مفر لها من الاستسلام للظلم الفادح الذي أصابها .

ومما زادها استغراباً كون الذين حكموا عليها ذلك الحكم الجائر لم يكونوا شيوخاً ، وانما كانوا شباناً ، وكثيراً ما داعبتها انظارهم . وتذكرت انها تبينت من ممثل النيابة العامة مواقف مريبة . وكان غـــيره يتوسلون بشتى السبل ، وينتحلون مختلف الاعذار كي يمروا من أمام باب الغرفة التي كانت تنتظر فيها صدور القرار ، ليكحلوا عيونهم بمرآها . هؤلاء الرجـــال أنفسهم هم الذين حكموا الآن عليها بالسجن أربع سنوات مع الأشغال الشاقة ، على الرغم من براءتها .

بكت كثيراً وطال بكاؤها . وأخيراً هدأت ثورتها النفسية فظلت قابعة في غرفة المتهمين ، مستسلمة استسلاماً تاماً منتظرة أن يقودوها الى غـــير ذلك المكان ، ولم يبق لها من رغبة سوى التدخين .

على مثل تلك الحالة النفسية وجدها (كيرتينكين) و (بوتشكوفا) اللذان نقلا بعد صدور الحكم الى نفس الغرفة التي كانت فيها فلما رأتها (بوتشكوفا) انبرت تكيل لها الشتائم والمسبات وتصفها بالسجينة .

– لكم كذبت أيتها السافلة ، ولكن كذبك لم ينفعك . لقد لقيت ما تستحقينه ...

وكانت (كاترين) وقد دست يديها في كمي (بلوزتها) ، وطأطأت رأسها ، تنظر في الارض القذرة نظرات جامدة مرددة قولها :

– لن أجيبكما بشيء فدعاني بسلام .

وعندما جاء أحد الحراس ، بعد ذهاب (كيرتينكين) و (بوتشكوفا) وأعطاها ثلاث روبلات قائلاً لها :

– هل أنت (ماسلوفا) ؟ خذي . ان سيدة قد أرسلتهم لك فانتفضت وسألته .

– من هي هذه السيدة ؟

– من هي ؟ خذي بلا كثرة كلام . أمن الضروري أن تقدم لك تفاسير ؟

كانت (روسا) هي التي أرسلت الدراهم . لقد سألت هذه الأذن قبل مغادرتها المحكمة إذا كان يسمح بارسال دراهم الى (ماسلوفا) ، ولما أجابها بالايجاب خلعت قفازها الجلدي ذا الازرار الثلاثة لتخرج من جيبها حافظة نقود أنيقة أخرجت منها ورقة من ذوات الروبلين ونصف وأضافت عليها خمسين كوبيك ، أعطتهم للآذن الذي أعطاهم بدوره للحارث .

وقالت له (روسا) أتوسل اليك ان توصلهم (لماسلوفا) .

وقد استاء الحارس من كلمات (روسا) لتوهمه انها تنم عن شك فيه ، ولهذا أجاب (ماسلوفا) بفظاظة .

وكان سرور الفتاة عظيماً لأنها رأت في ذلك المال عوناً لها على بلوغ شهوتها في التدخين .

– كم أكون مسرورة لو أدخن لفافة تبغ . – قالت في نفسها :

واستبدت تلك الرغبة بسائر حواسها حتى كانت تستنشق بشراهة الهواء المشحون برائحة دخان التبغ المنتشر في الرواق .

وصدر الأمر عند الساعة الخامسة بنقلها الى السجن فتقدم منها حارسان سارت وراء أحدهما وتبعها الثاني . وعندما بلغوا الباب الخارجي أعطت أحد الحارسين عشرين كوبيك وتوسلت اليه أن يشتري لها علبتين من لفائف التبغ .

– حسن جداً . حسن جداً . – قال الحارس وهو يبتسم : – سأشتري لك ما تريدين .

ولم يتهيأ لها ان تدخن في طريقها الى السجن ، وهكذا بلغت (ماسلوفا) سجنها دون ان تشبع رغبتها في التدخين .

وعندما دخلت الى السجن كان رتل من المساجين قادماً باتجاه معاكس ، وكان بينهم شباب وشيوخ ، مرد وذوو لحى ، روس وأجانب . فامتلأت القاعة الواسعة بالغبار ، وضوضاء وقع الأحذية الثقيلة ، وصلصلة القيود ، ورائحة العرق الحادة . وعندما كانوا يمرون بجانب (ماسلوفا) كان الجميع يتفحصونها من رأسها الى أخمص قدميها .

– يا لها من فتاة جميلة .

– نهارك سعيد أيتها الحلية .

وقفز شاب أسمر اللون ، ذو شاربين كبيرين نحوها فأحدث قيده ضوضاء قوية ثم قبلها في فمها .

فدفعته (ماسلوفا) عنها بعنف .

– كيف ؟ هل نسيت صديقك ؟ لا مجال للتبجح الفارغ . – قال لها ضاحكاً وقد أبرقت عيناه .

– ما هذا الذي يجري هنا ؟ – صاح نائب المدير وهو يدنو من مكان الحادث. ولما كان السجين قد خف مبتعداً فقد أخذ يعنف (ماسلوفا) .

– ولماذا أنت هنا ؟

وأرادت (ماسلوفا) الاعتذار بقولها انهم جاءوا بها من المحكمة . غير انها كانت من التضعضع المعنوي بحيث لم تدر بماذا تجيب .

– هي عائدة من المحكمة يا سيدي . – قال أحد الجنود وقد تقدم خطوتين منه وأدى التحية العسكرية .

– حسن . خذوها من هنا . ما هذه القباحة !

– نعم سيدي .

ـ خذها حالاً يا (سوكولوف) . ـ صاح نائب المدير .

فتقدم البواب منها ، ودفعها بعنف ، ثم اقتادها الى الرواق المؤدي الى جناح النساء ، حيث تحروها بدقة ، ولما لم يجدوا معها شيئاً من الممنوعات ، لإخفائها لفائف التبغ في رغيف من الخبز أعادوها الى حيث كانت في الصباح .

٣٠

أدخلت (كاترين) الى غرفة كبيرة طولها سبعة أمتار وعرضها خمسة . وكان لها نافذتان مرتفعتان يدخل منها نور الشمس في النهار . وكان في وسطها مدفأة ونوع من أسرة الأرياف يشغلان معاً نحو ثلثي مساحة الغرفة . وكان يعلق في الحائط المواجه للباب أيقونة داكنة اللون يعلوها الغبار ، وأمامها طاقة من الزهور الجافة . وفي الزاوية القريبة من الباب ، حيث كان أرض الغرفة حالك السواد ، كان يوجد خابئة تنبعث منها رائحة خانقة . وكان هذا كل ما في الغرفة .

كان قد أظلم الظلام . وكان ساكنو تلك القاعة الزرية وهم عشر نساء وثلاث صبية ، على وشك أن يناموا . ولم يكن ينفذ عبر النافذتين أي بصيص من نور . ومع ذلك فقد كان لا يزال بعضهن مستيقظات . منهن تلك المرأة التي أوقفت لأنها لا تحمل وثيقة تثبت هويتها ، وتلك التي أوقفت بتهمة سرقة وهي مصابة بالتدرن الرئوي ، وكانت مستلقية في فراشها جاحظة العينين جاهدة في الحد من السعال الذي كاد يخنقها . وكان ثمة ثلاثة نساء أخريات مكشوفات الرؤوس يرتدين قمصاناً من قماش سميك يراقبن المساجين الجدد الذين يعبرون الرواق . كذلك كان ثمة ثلاثة غيرهن يخطن بعض الثياب وهن جالسات في فراشهن .

كانت احدى هؤلاء العجوز التي تحدثت صباح ذلك اليوم مع (ماسلوفا) قبيل ذهابها الى المحكمة . كانت طويلة القامة ، قوية البنية ، عبوسة الوجه متغضنة . وكان في خدها شامة كبيرة سوداء مكسوة بالشعر . وكانت تدعى (كورابلوفا) . وقد حكم عليها بالأشغال الشاقة لقتلها زوجها بضربة فأس لمحاولته اغتصاب ابنتها .

كانت أقوى النساء سلطة بين السجينات . وكانت تبيعهن الخمر . وكان بجانبها امرأة قصيرة القامة ، فطساء الأنف ، صغيرة العينين سوداءهما . كانت حارسة لأحد ممرات القطار ، وقد حكم عليها بالسجن لمدة ثلاثة أشهر لأهمالها وظيفتها ، وعدم ارسالها اشارة الخطر في الوقت المناسب فمر القطار وأحدث مأساة . وكانت الثالثة تدعى (فيدوسيا) . غير أن رفيقاتها كن يدعونها باسم (فنيتشكا) تحبباً . كانت جميلة ذات وجه وردي اللون ، ناصع البياض ، كبيرة العينين زرقاءهما كعيني الطفل ، شقراء الشعر الذي تتـــوج غدائره رأسها . لم تكن قد تجاوزت السادسة عشرة من عمرها وقد سجنت لوضعها السم لزوجها بعد قليل من زواجها . غير انها حين أخلي سبيلها بكفالة مالية ، وخـــلال الثمانية أشهر التي ظلت طليقة خلالها ، سوت أمرها مع زوجها وعاشت معـــه عيشة راضية وكانا على أحسن ما يكون من الوفاق . وعلى رغم كل هذا ، وعلى رغم مـــا بذله حميها وحماتها التي كانت تحبها حباً شديداً ، والتي دافعت عنها كثيراً ، فقد حكمت المحكمة عليها بالأشغال الشاقة في سيبريا .

كانت (فيدوسيا) تلك المرأة الطيبة المرحة الدائمة الابتسام ترقد مـــع (ماسلوفا) ، وكانت تحبها كثيراً وتقدم لها ما تستطيعه من الخدمات .

وكان ثمة امرأتان جالستين على السرير لا تعملان شيئاً . كانت احداهن في الأربعين من عمرها ، صفراء اللون ، نحيلة الجسم ، متجمدة الوجه ، تبدو عليها سيماء جمال ذوى مبكراً . وكانت تطعم طفلة تحملها بين ذراعيها . كان الجرم الذي ارتكبته وحكم عليها بالسجن لأجله يتلخص فيما يلي : عندما جاء الشرطي الى القرية التي تسكنها كي يسوق احد الفتيان ليؤدي الخدمة العسكرية تجمهر السكان وعارضوه قائلين له ان ذلك العمل مخالف للقوانين ، وحالوا بينه وبين أخذ الفتى . وكانت هذه المرأة وهي خالة الشاب المطلوب الى الجندية ، من اكثرهم جرأة وعصياناً فأمسكت بزمام جواد الشرطي . وكانت الثانية عجوزاً متوسطة القامة ، بيضاء الشعر ، مقوسة الظهر . وكانت في طرف القاعة الثاني بالقرب من المدفأة ، تحاول اخافة صبي في الرابعة من عمره كي يكف عن ازعاج

الناس ولكنه كان يركض من حولها لا يستره غير قميص واحد ، مطلقاً قهقهة مرحة مردداً قوله :

– هل تستطيعين اللحاق بي ؟ هل تستطيعين اللحاق بي ؟

كانت العجوز تقضي المدة التي حكم بها عليها لإضرامها النار في احدى المزارع بالاشتراك مع ولدها . وكان يقض مضجعها أكثر فأكثر تذكرها لولدها الذي كان سجيناً مثلها وزوجها الشيخ الذي أصبح بلا معيل وليس لديه من يعتني به اذ أن زوجة ولده قد فرت من المنزل الى حيث لا يدري ، وسيكون في بيته مغموراً بالأقذار دون شك . وكان يقف بقرب النافذة أربعة نساء يتحدثن مع الموقوفين الجدد عند مرورهم في الرواق . وكانت احداهن ، وهي سجينة بجريمة سرقة ، ضخمة الجثة حمراء الشعر مترهلة اللحم متهدلته ، صفراء الوجه نحيلة الجسم ، ومن حين لآخر كانت تطلق كلمات نابية بصوت أبح . وكان بالقرب منها امرأة تبدو وكأنها طفلة في العاشرة من عمرها . وكانت تضحك بلا انقطاع لكل ما تشاهده في الرواق . وكانت عيناها السوداوان تتقدان في وجهها الأنمش . كانوا يلقبونها بالجميلة لأناقتها . وكانت قد سجنت بتهمة سرقة واضرام النار . وكانت تقف وراءها امرأة طويلة القامة نحيلة الجسم ، حبلى ، ضخمة البطن كثيراً ، وترتدي قميصاً قذراً ، وكان منظرها يستدعي الشفقة والرحمة . وقد حكم عليها بالسجن بجريمة التغطئة على اللصوص . كانت صامتة وتراقب بفضول كل ما يجري في الرواق وهي تبتسم .

وكانت الرابعة قروية متوسطة القامة جاحظة العينين، ينضح وجهها بالطيبة ، وقد سجنت لمخالفتها قانون تحريم بيع الخمور في الأرياف . وكانت تقف الى النافذة كزميلاتها ولكن دون أن تفوه بكلمة واحدة، أو أن تكف عن حياكة الجوارب وكان يجانبها طفلان احدهما الذي كان يعابث العجوز . وكانت الطفلة الثانية في السابع من عمرها شقراء الشعر جميلة القوام ، وكانت تصغي باهتمام ، وقد استدارت عيناها، الى ما كانت المرأة الضخمة تقذف به الرجال من الكلام النابي ، فتردده بصوت خافت كأنها تتوخى استظهاره .

وكانت اخيرتهن طويلة القامة حسنة القوام ، جعداء الشعر جميلة العينين . كانت ابنة احد الكهنة وقد اغرقت ابنها في بئر كانت لا تنفك تروح وتغدو في القاعة بخطى واسعة ، منطوية على نفسها ، حافية القدمين ، لا يسترها سوى قميص قذر بلون الرماد ، وغير ملقية بالاً لما يدور حولها .

٣١

لم تكد (ماسلوفا) تدخل السجن بعد عودتها من المحكمة حتى خف النسوة اليها فتحلقن حولها بما فيهن ابنة الكاهن التي وقفت فترة قصيرة ثم زوت ما بين عينيها ، وعادت الى سابق ما كانت عليه من الذهاب والإياب ، دون أن تنبث ببنت شفـــة . وتوقفت (كورابلوفا) عن الخياطة ، ونظرت الى (كاترين) نظرة استفهام .

– كيف ؟ أراك قد عدت . لقد كنت أحسب أنك ستبرئين .

قالت ذلك ورفعت نظاراتها عن عينيها وطرحت الثوب على السرير .

– لقد كنا نحسب ان سيخلى سبيلك يا بنية . – قالت حارسة القطار .

– أردنا شيئاً وأراد الله غيره .

– هل صدر قرار الحكم ؟ – سألتها (فيدوسيا) باشفاق وحنو ، وهي ترنو اليها بعينيها الزرقاوين كعيني الطفل ثم اكفهر وجهها وارتعشت شفتاها اذ كانت توشك ان تبكي . ولم تجب (ماسلوفا) بشيء وانما مضت الى حيث جلست بجانب (كورابلوفا) .

– اظنك لم تأكلي . – قالت (فيدوسيا) وهي تدنو منها .

ولم تجب (ماسلوفا) أيضاً ، ولكنها أخرجت رغيف الخـــبز من جيبها ووضعته على المخدة ، ثم خلعت (البلوزة) التي علاها الغبار وغطاء رأسها . وتقدمت منها أيضاً العجوز المقوسة الظهر التي كانت تلاعب الطفل .

– تشيست . – قالت العجوز للطفل الذي لم يرفع نظره عن رغيف الخبز منذ وقعت عينه عليه .

وإذ رأت (ماسلوفا) نفسها محطة أنظار صديقة ترنو اليها بعطف وحنان ،

بعد ما قاسته في يومها من عذاب معنوي ، أحست بعقدة تنعقد في حلقها . وعلى رغم الجهد الذي بذلته في التغلب عليها فقد غلبها البكاء وعلا شهيقها .

– لقد قلت لك ان تلجئي الى محام بارع . ولو فعلت ما قلته لك ، إذن لأصبحت الآن حرة طليقة .

فلم تقو (ماسلوفا) على أن تجيب بشيء ، وأخرجت لفائف التبغ من رغيف الخبز ، وهي لا تزال تشهق بالبكاء ، وقدمتها « للجميلة » فتناولت واحدة منها أشعلتها وأعادتها (لماسلوفا) .

فأخذت هذه تعب الدخان عباً ، دون أن تكف عن البكاء ، ثم قالت بصوت مشوه .

– لقد حكم علي بالاشغال الشاقة .

– ألا يخاف الله هؤلاء القتلة ؟ – قالت (كورابلوفا) : – أيحكمون على بريئة ؟

وهنا ارتفعت قهقهات النسوة اللواتي كن واقفات وراء القضبان الحديدية ينظرن الى الرواق . حتى الطفلة الصغيرة كانت تضحك وكانت ضحكتها الفضية تختفي في غمرة ضحكات العجائز الخشنة الأغنة .

– آه أيها الفاسق . ماذا تفعل ؟ – قالت المرأة ذات الشعر الأحمر وهي تضحك ضحكة عالية . ثم الصقت جسمها بالقضبان الحديدية وأرسلت كلمات نابية على السمع قذرة .

– يا لك من سمجة . – ما هذه الضحكة التي تضحكينها . – قالت (كورابلوفا) ثم تحولت نحو (ماسلوفا) وسألتها ، وما هي المدة التي حكم عليك بها ؟

– لقد حكم علي بالسجن أربعة أعوام .

قالت ذلك وانهمرت الدموع من عينيها حتى بللت لفافة التبغ فطرحتها جانباً وتناولت غيرها . فأسرعت حارسة القطار لالتقاطها واخفائها . ثم قالت :

– يظهر انهم يفعلون ما يحلو لهم .

وانطلقت تتحدث بصوت خافت وبلا توقف .

وهنا ابتعد بقية النسوة عن النافذة ودنون من (ماسلوفا) وكانت أسبقهن بائعة الخمر ومعها طفلها .

– ولماذا هذه القسوة ؟ – قالت تسألها دون أن تكف عن عملها .

– لأن المال لم يلعب دوره . فبالمال يستطيع المرء أن يفعل ما يشاء . بوسع صاحب ذلك الأنف المنتصب الأرينة ، إخراج شخص يكاد يختنق بالماء ، دون أن يبتل به .

– أجل . – قالت « الجميلة » متدخلة : – ولكن لا بد من وجود ألف روبل قبل الاستماع لأي كان .

– هذا نصيب . – قالت العجوز : – من كان بوسعه أن يتصور انهم سيحكمون بالسجن على زوج المرأة التي اختطفها آخر ، وعلي أنا في مثل سني هذه ؟ ... – ثم أخذت تقص قصتها للمرة المئة . – من الواضح ان أحداً لن يخرج من السجن استجداء .

– هذا ما يحدث دائماً . – قالت بائعة الخمور ، وهي تمعن النظر في رأس ابنتها بعد أن وضعتها على ركبتيها ، ثم شرعت أناملها السريعة الحركة تتسلل بين شعرها . – لماذا تبيعين الخمور ؟ ... لانني لا أدري ما أصنع كيلا يموت أطفالي جوعاً ...

قالت ذلك ثم راحت تواصل البحث عن القمل في رأس ابنتها .

وإذ سمعت (كاترين) ذكر الخمر تذكرت انها عطشى فقالت (لكورابلوفا) وهي تمسح دموعها بكم قميصها :

– اشتهي جرعة من الخمر .

– وما يمنع إذا كان لديك مال ؟ – أجابتها الأخرى .

٣٢

أخرجت (كاترين) الورقة المالية التي بعثتها (روسا) اليها ، وقدمتها

(لكورابلوفا) . ولما كانت هذه أمية وتجهل قيمة الأوراق النقدية فقد أرتها « للجميلة » فأخبرتها انها من ذوات الروبلين ونصف الروبل فصدقتها ، وذهبت الى حيث كانت تخفي زجاجة الخمر .

فتفرق بقية النسوة عنها . وجلست (ماسلوفا) على السرير بعد أن نظفت (بلوزتها) وغطاء رأسها من الغبار الذي علق بها في الطريق من المحكمة واليها ، وأقبلت تقضم رغيف الخبز .

– لقد احتفظت لك بقليل من الشاي . – قالت لهـا (فيدوسيا) ثم أحضرت ابريقاً من التنك – لقد برد .

كان الشاي بارداً . ولكن (ماسلوفا) لم تعبأ بذلك وأقبلت تجرع منه .

– خذ (يا فيناسكا) . قالت ذلك للطفل ثم أعطته قطعة من رغيف الخبز الذي ما برح ينظر اليه بنهم .

وكانت (كورابلوفا) قد أحضرت زجاجة الخمر وكأساً فقدمت (ماسلوفا) الخمر للبائعة و « للجميلة » وكن ثلاثتهن أشبه بما يسمى أريستوقراطية السجن ، إذ كن يملكن مالاً ، وكانت واحدتهن تقدر الأخرى وتحترمها .

وما عتم ان نشطت (ماسلوفا) فأخذت تقص عليهن ما جرى معها ، مقلدة حركات وكيل النيابة وصوته باذلة قصارى جهدها في ابراز كافـة التفاصيل التي كان لها أكبر الأثر على نفسها . كان قد استرعى انتباهها ان جميع الرجال كانوا ينظرون اليها نظرات خاصة سواء في قاعة المحاكمات أو في قاعة المتهمين حيث كان يتذرع بعضهم بحجج كاذبة فيأتي لمجرد النظر اليها .

– حتى الجنود – أضافت تقول – كانوا يأتون ليروها ... واحياناً كان بعضهم يأتي فيطلب ورقة أو شيئاً ما ، غير ان كل هذه ليست سوى وسيلة لرؤيتها إذ يكادون يلتهمونها بعيونهم .

وهنا ابتسمت ورفعت نظرها بكبر .

– كلهم سواء – قالت (كورابلوفا) . يشبهون الذباب الذي يفتش عن العسل . هذا ما يحدث للجميع ...

– حتى في السجن يحدث ذلك . – قالت (ماسلوفا) عندما دخلت السجن تصادف وصول سرب من الموقوفين قادم من المحطة ، فالتفوا حولي . ومن حسن الحظ جاء نائب المدير لنجدتي ، وتواقح أحدهم معي .

– ما هي أوصافه ؟ – قالت الجميلة تسأل .

– هو شاب أسمر ذو شاربين .

– قد يكون هو .

– من هو هذا ؟

– هو (ايشغلوف) ذاك الذي مر منذ قليل من هنا .

– ولكني لا أعرف (ايشغلوف) هذا .

– كيف لا تعرفين (ايشغلوف) ذاك الذي فر من السجن مرتين ؟ ... لقد القوا القبض عليه الآن . ولكن ذلك لا أهمية له فسيفر من جديد . تصوري ان السجان أنفسهم يخافونه .

كانت الجميلة هي التي توزع البريد على المساجين ، ولذا كانت تقف على كل صغيرة وكبيرة في السجن .

– على الرغم من قراره المتكرر فلن يصبح حراً طليقاً . – قالت (كورابلوفا) . ثم أضافت تقول موجهة الكلام (لماسلوفا) : – وماذا قال المحامي عن تمييز الدعوى ؟

– لست أدري . – أجابت (ماسلوفا) .

وكانت المرأة البدينة الشاحبة اللون قد اقتربت من شاربات الخمر ، فقالت (لماسلوفا) وقد دست يدها في شعرها الأحمر الكث المتجمد ، وأخذت تحك رأسها :

– أنا أخبرك (يا كاترين) . يجب أولاً ان تعلني عدم قبولك بالحكم ، ثم تستشيري بعدئذ أحد المحامين .

فالتفتت (كورابلوفا) الى هذه وقالت لها بحنق .

– وأنت ما جئت تصنعين هنا ؟ هل أتت بك رائحة الخمر ؟ نحن نعلم ما يجب علينا فعله ولا نحتاج لارشاداتك .

– انا لا أكلمك . فاسكتي .
– اسمعوا ما تقول . أتريدين خمراً أم لا ؟
– حسن قدمي لها أيضاً . – قالت (ماسلوفا) وكانت مستعدة لمشاطرة رفيقاتها كل ما لديها .
– يا لك من غبية . سأعطيها ما تحتاجه .
فأخذت ذات الشعر الأحمر تتوعد (كورابلوفا) .
– اتحسبين انني أخشاك ؟
– ايتها السجينة القذرة .
– هذه أنت .
– يا خبيثة الأصل .
– اتصفينني بهذه الصفة ؟ وأنت المجرمة القاتلة . قالت المرأة البدينة وقد استشاطت غيظاً .
– ابتعدي من هنا قلت لك . – قالت (كورابلوفا) متوعدة .
ولكن تلك كانت تدنو منها أكثر فأكثر . فلطمتها (كورابلوفا) على صدرها البدين المترهل ، والظاهر ان هذا ما كانت تتوقعه تلك بدليل انها أسرعت فأمسكت بها من شعرها بيد وهمت ان تصفعها على وجهها باليد الثانية ، لولا ان هذه أمسكت يدها وهكذا لبثتا فترة طويلة تحاول كل منهما طرح الأخرى أرضاً . فأسرعت « الجميلة » و (ماسلوفا) لتخليص شعر رفيقتهما منها ولكنها كانت ممسكة بها بقوة ، ثم لفت ضفيرتها على معصمها في حين كانت (كورابلوفا) وهي مطأطأة الرأس ، لا تنفك تضرب خصيمتها وتحاول ان تعض يدها . وتحلق النسوة حولهما محاولات تفريقهن وهن يصرخن صراخاً حاداً . حتى المرأة المصابة بالتدرن الرئوي كانت تراقبهن وهي تسعل سعالاً شديداً . وبكى الأطفال وتجمع بعضهم مع بعض لفرط الرعب ، ودخل السجانون القاعة ليتبينوا ما حدث ففرقوا بين المتضاربتين ، وأخذت (كورابلوفا) تصلح شعرها المنفوش ، وتغطي الأخرى ثدييها اللذين كانا باديين من خلال قميصها الممزق ، وهما تتبادلان الشتائم والتهم .

ـ أجل . أعلم ان الخمر هو السبب في كل هذا . غداً سأخبر المدير ليعاقبها .
ـ كانت السجانة تقول . ـ لا أستطيع سماع قصصك . لتذهب كل واحدة الى مكانها ولتلزم الصمت .

ولكن الصمت لم يسد إلا بعد فترة طويلة وظلت المرأتان تتبادلان الشتائم وإلقاء مسؤولية الشجار . وأخيراً كفتا . فخرج السجانون .

فركعت العجوز أمام الأيقونة المقدسة وشرعت تصلي .

ـ تضاربت امرأتان من المحكوم عليهما بالسجن . ـ قالت بصوت أبح ذات الشعر الأحمر عند الطرف الثاني من السرير متبعة كل كلمة بشتيمة نابية .

ـ أسكتي وإلا كسرت رأسك . ـ أجابتها (كورابلوفا) ثم كالت لها الشتائم .

ثم صمتتا برهة .

ـ لو لم يمسكوني لفقأت عينيها . ـ قالت الأولى ، فردت عليها (كورابلوفا) بالمثل .

وأخيراً هدأت العاصفة وسكتت المرأتان وساد الصمت .

ونام أكثرهن مغمغمات بكلام غير مفهوم ، إلا العجوز فانها ما زالت راكعة تصلي وابنة الكاهن ما فتئت تذرع الغرفة ذهاباً وإياباً .

ولم تكن (ماسلوفا) قد نامت ، ولكنها كانت منصرفة للتفكير بمصيرها وانها أصبحت سجينة ، وقد عيروها بذلك مرتين . فغمها ذلك غماً شديداً .

وكانت (كورابلوفا) راقدة بجانبها وقد أولتها ظهرها . فتحولت الى الجانب الآخر لتصغي اليها وهي تقول .

ـ ما كنت أتصور ذلك أبداً . ـ قالت (ماسلوفا) بصوت خافت .
ـ كم من المجرمات برئت ساحتهن وأنا البريئة أدان .
ـ لا تخافي . ـ قالت لها (كورابلوفا) لتواسيها . ـ في سيبيريا رجال كثيرون ، وستسوي أمرك .
ـ أجل سأسوي أمري . ولكني قبل ذلك سألاقي الأمرين لأنني تعودت على رخاء العيش . لم أكن أستحق ما أصابني .

– إرادة الله لا تقاوم . – أجابت الأخرى : – يفعل الله ما يشاء .
– أعلم ذلك ، ولكن الاذعان يكلف غالياً .
– اسمعي تلك البلهاء . – قالت (كورابلوفا) مسترعية انتباه (ماسلوفا) لشهيق بكاء يأتي من الطرف الثاني من السرير العام .

كانت المرأة ذات الشعر الأحمر تبكي . لقد ضربت وشتمت ، ولكنها لم تظفر بقطرة واحدة من ذلك الخمر الذي طالما تشتهيه ... لقد كان نصيبها الدائم في حياتها حيثما حلت السخرية والشتائم والضرب والمسبات ... وأحبت أن تشجع نفسها وتقوي عزيمتها بالعودة الى ذكرى غرامها الأول (بجد كامولودونكوف) العام الشاب. ثم عادت فتذكرت نهاية ذلك الغرام في تلك الليلة الرهيبة التي قذفها هذا فيها ، على سبيل المزاح ، بمحلول كاو ، ثم أقبل ، وهو في حالة سكر شديد ، يضحك هو وصحبه منها ، في حين كانت تتلوى من الألم ... فأثارت تلك الذكرى اشفاقها على نفسها ، وأزكت احساسها بانها منبوذة ، فأقبلت تبكي بحرارة كالطفل متذمرة شاكية شارقة بدموعها .

– يا لها من منكودة . – قالت (ماسلوفا) انها تستدر الشفقة .
– أجل انها لمنكودة ، وتستدر الشفقة . ولكن عليها ان تحترم الآخرين على الأقل .

٣٣

كان الانطباع الأول الذي استولى على احساس (نيكليندوف) هو ان حدثاً هاماً قد طرأ على حياته . وقبل ان يحاول الكشف عن ماهيته ، كان عميق الاقتناع بأنه لن يكون إلا نبيلاً وأصيلاً : انه (كاترين) والمحاكمة ، وضرورة قول الحقيقة في المستقبل ، والابتعاد عن النفاق .

ومن غرائب الصدف أن يحمل له البريد ذلك الصباح الرسالة المنتظرة بفارغ الصبر ، والتي كان آنئذ أشد ما يكون حاجة اليها . جاءت (ماري فاسيليفنا) تقول له برسالتها انها تترك له حرية التصرف بحياته ، متمنية له السعادة والهناء في زواجه المقبل الذي كانت تتصوره وشيك الوقوع .

– زواج ... – قال باستهزاء . – ما أبعدني عن هذا الأمر .

وتذكر ما كان قد قرره بالأمس من اطلاع زوج المرأة على جريمته ، عارضاً عليه ما يشاءه من ترضيات . ولكنه عاد فرأى فيه خطأ كبيراً .

– ولماذا اتعاس حياة رجل يعيش ناعم البال في جهله ؟ أجل سأفعل ذلك إذا ما سألني وسأعترف له بكل شيء . ولكن ليس من الحكمة في شيء ان أبادر للاعتراف له بذلك .

كذلك رأى ان من العسير عليه التصريح (لمارغريت) بما ينويه بالنسبة لزواجه منها . ورأى ان خير ما يفعله موقتاً الانقطاع عن زياراتهم ، حتى إذا ما سئل عن أسباب انقطاعه أجاب بالحقيقة .

أما بالنسبة (لكاترين) فكان يرى انه ينبغي أن يكون كل شيء واضحاً ومحدداً .

– سأزورها في السجن ، وسأطلب صفحها عن زلتي ، وسأتزوج منها إذا اقتضى الأمر . – بمثل هذا كان يفكر . وكانت فكرة التضحية والزواج من (كاترين) تلبية لنداء الواجب تهز مشاعره .

لم يبدأ (نيكليندوف) منذ زمن طويل ، يوماً كيومه ذاك الذي تزخر فيه نفسه بالمقاصد الطيبة ، والنوايا الحسنة ، والروح العامرة بالاقدام . فها هوذا يدعو قيمة قصره (اغريبينا بتروفنا) ويخبرها بأنه ابتداء من ذلك اليوم لن يكون بحاجة للقصر ولا لخدماتها هي . وان احتفاظه بالقصر حتى الآن كان لرغبته في الزواج . أما وقد تنازل عن فكرته هذه فلا بد له من الاستغناء عنه .

فنظرت اليه قيمة القصر نظرة استغراب ودهشة .

– انني أشكر لك خدماتك لي ، ولكني لست بحاجة لمثل هذا القصر ولا لهذا العدد العديد من الخدم . أطلب اليك ان تهيء لي ثيابي الآن وبعدئذ ستبلغك (نتاليا) أختي الأوامر في حينها .

فهزت (أغريبينا بيتروفنا) رأسها .

– ألا تحتاج لشيء آخر ؟

– كلا . لا احتاج لشيء آخر . وحسناً تصفين إذا أبلغت (كورني) انه حر في تصرفاته اعتباراً من الآن وان كان قد استلف مني راتب شهرين .

– هل فكرت في أمرك ودرست ما أنت مقدم عليه يا (ديمتري ايفان) . إذا كنت ستسافر الى خارج البلاد فستحتاج لقصرك عند عودتك .

– لم تدركي قصدي بعد ، فأنا لا أنوي السفر الى الخارج .

وهنا اصطبغ وجهه بحمرة الخجل حتى منابت شعره .

– لا بد من الاعتراف بكل شيء إذ لا فائدة من الكتمان . – كان يقول في نفسه . – من الضروري إيضاح الأمر .

– لقد حدث لي حادث . – بدأ حديثه معها بصوت عال . – هو حادث خطير وغريب . أتذكرين (كاترين) التي كانت عند خالتي (ماري ايفانوفنا) ؟

– بلى أنا علمتها الخياطة .

– لقد مثلت أمس أمام المحكمة وكنت في عداد المحلفين .

– آه ، رباه . مسكينة . وبماذا يتهمونها ؟

– يتهمونها بجريمة قتل . وكنت أنا المسبب .

– كيف المسبب ؟ ان ما تقوله غريب جداً .

واتقدت عينا العجوز ببريق حاد . انها تعرف تاريخ حياة (كاترين) .

– نعم ، نعم . أنا هو المسبب . وهذا سيغير مجرى حياتي .

– لست أرى أي صـــلة لهذا بحياتك . – قالت (أغربينا) وهي تخفي ابتسامتها .

– ما دمت أنا المسبب لما تلاقيه من الويلات ، فالواجب يقضي علي بأن ابذل جهدي لانقاذها .

– هذا يرجع الى رغبتكم الطيبة . غير ان قسماً هاماً مما جرى لها لا علاقة لك البتة به ، ولا ينبغي ان تبتئس بسببه ، لقد شذت عن الصراط السوي منذ زمن طويل ، فمن كان المخطىء ؟ – قالت العجوز بحزم وقسوة .

– لقد كنت أنا المخطىء ، ولهذا أرغب في تلافيه .

– أرى ذلك عسيراً عليك .

– وكذلك أراه أنا . ولكن على كل حال سأحاول ما استطعت . وبالنسبة لك فانت تعلمين ما أوصت به أمي .

– أنا لا أهتم لنفسي ، فالأميرة المرحومة والدتك كانت جد كريمة معي فلم تدعني احتاج احداً ... وكثيراً ما حاولت ابنة اختي أن اذهب فأقضي عندها بقية عمري . وغداً اذا ما غادرت هذا المنزل سأقيم معها . ولكن صدقني انك ترتكب جريمة في حق نفسك اذا كنت جاداً فيما قلته لي الآن اذ لو لم تأت انت ما أتيت لأتاه غيرك حتماً .

– لا أشاطرك هذا الرأي . أعدي لي الثياب، ودعي المواعظ ... اشكرك على كل شيء .

لقد أصبح (نيكليندوف) أكثر حباً وتقديراً (لأغربينا) و (كورني) منذ تبين له ان الحياة التي يحياها كانت لاخلاقية ، وشعر باحتقار نفسه . وكم تمنى لو يصرح بكل بشيء (لكورني) كما صرح (لأغربينا) ولكن الجـــرأة خانته .

كان (نيكليندوف) وهو في طريقه الى ذات المحكمة تقله ذات العربة التي أقلته يوم أمس ، ويقودها الحوذي ذاته متخذاً اليها ذات الطريق التي سلكها بالأمس ، ومع ذلك فقد كان يحس أنه قد أصبح رجلاً آخر ، رجلاً يختلف كل الاختلاف عما كان في اليوم الماضي .

كذلك أصبح يرى زواجه من (مارغريت) أمراً مستحيلاً ، وكان بالأمس يحسب ان زواجـــه منها سيجعلها جد سعيدة ، أما الآن فقد أصبح يرى نفسه وضيعاً ، ولذا فهو غير كفء للتقرب منها فما بالك بالزواج .

– لو عرفت ماضي حق المعرفة ، إذن لرفضت أن تستقبلني في منزلها . أمن الممكن الشعور بالسعادة ، أو على الأقل الاطمئنان في الحياة ما دمت أعلم أن (كاترين) سجينة ، وانها غداً او ما بعده ستنقل الى مكان ما في سيبيريا لتقضي أعـــوام سجنها ؟ وفي حين تقاسي الأهوال في سيبيريا بجريرتي ، أتقلب أنا في

أحضان السعادة الى جانب امرأة شابه ، أو اقترع في المحكمة وماريشال النبلاء الذي خنتـــه بوقاحة . كلا ، كلا . هذا مستحيل ، سأتحدث مع المحامي . وبعدئذ ... بعدئذ سأواجهها ، وأتحدث معها وأطلب منها الصفح .

واذ تصور أنه سيعود ليراها ، وانه سيعترف لها بخطيئته وسيعدها بالعمل ما أمكن على تلافي أمرها ، وأنه سيتزوجها امتلأت نفسه بهجة وسروراً .

٣٤

عندما بلغ (نيكليندوف) بناية المحكمة صادف أحد كتبتها في الرواق فسأله أين و كيف يستطيع مواجهة المساجين الذين صدرت أحكام بحقهم، فأجابه الكاتب انهم في سجون مختلفة ، وانه قبل أن يبت نهائياً في أمرهم فان الأذن بزيارتهم يعطى من قبل النيابة العامة .

– سأرافق ممثل النيابة بعد الجلسة أما الآن فمن العسير التحدث اليه .

وفيما كان (نيكليندوف) يهم بالدخول الى قاعة المحلفين بعد أن شكر الكاتب على معلوماته ، رأى زملاءه يغادرونها لينتقلوا الى قاعة المحاكات . فحياه التاجر ذو الوجه الصبوح الذي كان قد أكل وشرب جيداً كعادته ، تحية صديق قديم ، ولم يبد (بطرس جيراسيموفيتش) ثقيل الظل للأمير كالمعتاد .

كان (نيكليندوف) راغباً كل الرغبة في اطلاع المحلفين على مدى علاقاته القديمة بالمتهمة التي حكموا عليها بالسجن أربع سنوات نهار الأمس ، على الرغم من براءتها . وكان يقول في نفسه .

– كان من الواجب علي أن أقف أمس فأصرح بجريمتي أمام جمهور الحاضرين.

ولكنه عندما دخل القضاة الثلاثة القاعة الواسعة يتبعهم الكاهن والحرس والمحلفون وأخذ الجميع أماكنهم شعر برهبة وانكماش ، وأدرك آنئذ انه اليوم كما كان بالأمس تعوزه الجرأة على تعكير جلال ذلك المشهد، والاجراءات المهيبة.

وبعد أن أقسم المحلفون اليمين القانونية ، والقى الرئيس كلمته ، تكررت نفس الاجراءات النظامية التمهيدية . كان ينظر آنئذ في دعوى سرقة يتهم فيها شاب في حوالي العشرين من عمره، ضيق المنكبين، شاحب اللون مريض السمات.

وكان يجلس على المقعد بين جنديين شاهري السيوف يراقب الداخلين. كان ملخص الدعوى ما يلي : لقد قام المتهم بالاشتراك مع أحد زملائه بخلع قفل باب أحد المتاجر وسرقة ما قيمته (٣,٧٥) روبل، فداهمهما رجل الشرطة اثناء ارتكابهما الجريمة . وأقر كلاهما بفعلته ، فاعتقلا وأودعا السجن . غير أن الشريك توفي قبل انتهاء المحاكمة ، وظل هذا ليحاكم وحده . كانت الأشياء المسروقة موضوعة على الطاولة أمام القضاة كأدلة اثبات .

وسارت المناقشات سيرتها المعهودة . من استجوابات فيمين فشهود فخبراء فأدلة اثبات . وكان الشرطي الذي القى القبض على الجانبين مقلاً في اجاباته عما يسئل عنه ، سواء من قبل الرئيس أو المدعي العام او المحامين . وكانت جميعها على النسق التالي :

— أجل يا سيدي . كلا يا سيدي . هذا ما حدث .

وكان يبدو أنه يشفق على المتهم فهو لا يريد احراج موقفه . وكان الشاهد الثاني عجوز شاحب اللون ، وهو صاحب المحل التجاري الذي سرقت منه الأمتعة . ولما سأله الرئيس عما اذا كانت الأغراض التي على الطاولة تخصه أجاب بلا رغبة ان نعم . ولما سأله المدعي العام عما اذا كانت الأغراض هذه ذات أهمية بالنسبة له أجاب بقوله :

— لعن الله الفائدة التي انتظرها منها . لو علمت انها ستسبب لي كل هذا العناء ووجع الرأس اذن لما اكتفيت بعدم الشكوى وانما لبذلت مالاً كي اتفادى ما لقيته من مضايقات لقد أنفقت خمس روبلات أجور عربات . وزيادة على ذلك فأنا مريض وأشكو من فتق ، وأشعر بآلام عصبية .

وكان المتهم يعترف بكل شيء . ويتكلم بصوت خافت . وينظر فيما حوله بنظرات شاردة كحيوان صغير علق في الشرك .

كانت القضية بسيطة واضحة كل الوضوح . ولكن ممثل النيابة العامة أخذ بالقاء الأسئلة ، كما فعل في اليوم الماضي ، التي تضلل المتهم الخطر وتوقعه في مناقضات تدينه . ثم قال في مطالعته ان السرقة وقعت في مكان مأهول ، ومصحوبة بكسر ، وعليه فان الجاني يستحق حكماً قاسياً .

وجاء محامي الدفاع يفند حجج ممثل النيابة العامة . فلم ينكر الجرم ولكنه قال ان المتهم لا يشكل بالنسبة للمجتمع الخطر الذي يصوره ممثل النيابة العامة. وشرح الرئيس ، ممثل العدالة والحياد ، ما علمه المحلفون وما لم يستطيعوا علمه . ثم أعلنت فترة استراحة خلال الجلسة ، كما مر أمس ، حيث دخن الجميع وثرثروا ثم أعلن الحاجب افتتاح الجلسة فأخذ الحراس الجالسون ينفضون غبار النعاس عن عيونهم .

وقد علم من سياق الدعوى ان المتهم كان قد أدخله والده كعامل في أحد مصانع التبغ حيث لبث خمس سنوات . ولكنه اقصي عن عمله بعد ذلك ، على أثر خلاف قام بين بعض العمال ورب العمل . ولما أصبح عاطلاً عن العمل لازم الحانة حيث أنفق القليل الذي كان قد ادخره من عمله . وفي أحد المطاعم تعرف على شريكه. وفي حالة سكر من كليهما خلعا معاً قفل باب أحد المتاجر ، وأخذا ما وصلت اليه أيديهما من الأشياء . هذا الشاب يحاول ممثل النيابة العامة الآن ابرازه كخطر على المجتمع .

— أجل. انه شخص خطر كتلك التي كانت بالأمس. — كان (نيكليندوف) يقول في نفسه . — ولكن اذا كان هؤلاء خطرين . فما بالنا نحن اذن ؟ ما عساي أكون أنا الرجل الفاسق الغوي. وما هو المجتمع بكامله ؟ المجتمع الذي لا يكتفي بعدم احتقاره لي ، على الرغم من اطلاعه على رذائلي كلها ، وانما يختصني بالإضافة الى ذلك بكل تجلة واحترام ؟

لقد كان واضحاً جلياً ان الفتى لم يكن مجرماً محترفاً . وإنمـــا فتى فقيراً ، ألجأته ظروفه لارتكاب جريمة السرقة . كذلك أصبح واضحاً أنه كيما نتفادى حدوث وقائع مماثلة ، علينا أن نعمد الى تلك الظروف التي لجأت إليها فنزيلها من الوجود . وتلك هي الحاجة ، والجهالة ، والفقر .

— لو أتيح لهذا الفتى المنكود الطالع رجل شفقة يقول له عند دخوله الحانة بصحبة رفاق يكبرونه سناً ، بعد مجهود اثني عشرة ساعة لينفـــق على الخمر في ساعات قلائل مجهود أيام : « لا تدخل يا بني الى الحانة . ولا تنفق على الخمر ما

اقتضاك الحصول عليه تعباً وكداً » لو أتيح له هذا الرجل إذن لأقلع عن فعلته ، ولما رأيناه الآن جالساً أمامنا في صفوف المتهمين. — هذا ما كان (نيكليندوف) يقوله في نفسه وهو يتأمل وجه الفتى الشاحب المرعوب . — ولكن رجل الخير هذا لم يظهر قط في طريقه وهو يعمل بكد . وقد تعلم من رفاق السوء إن الرجل البارع هو ذاك الذي يحسن شرب الخمر ، والتفوه بالكلام البذيء والسباب ، وخداع القريب . وحينما أصبح مريضاً وفاسداً وراح يتسكع في الشوارع بلا مال وبلا عمل ، ومد يده الى بعض الحاجات العتيقة سداً لعوزه ، يأتي المجتمع فيعاقبه بحجة إصلاحه . إلا أن هذا العمل لمشائن بغيض .

لم يكن (نيكليندوف) ، وهو جالس في الصف الأول بين المحلفين ، يتتبع سير الدعوى وإنما كان منصرفاً لأفكاره هذه مأخوذاً بتأملاته ، فيسبب له تتبعها غماً وأسى . وأدهشه أنه لم يفطن لها من قبل . وأن أحداً غيره لم يفطن لها أيضاً .

٣٥

خرج الأمير (نيكليندوف) الى الرواق في فترة الاستراحة ، وفي نيته ألا يعود الى القاعة مرة أخرى وليفعل القضاة بالمتهم ما يحلو لهم . فقد قرر ألا يكون له في المستقبل أي صلة بتلك المهزلة السخيفة .

واستعلم الأمير عن مكان النائب العام وتوجه إليه . ومانع الحاجب في دخوله عليه محتجاً بكثرة أعماله ، ولكن الأمير نحاه جانباً وتقدم من أحد الكتبة وشرح له قصده . وفعل لقب الأمارة وأناقة (نيكليندوف) فعلها فسمح له بالدخول .

كان النائب العام واقفاً . فساءه إلحاح الأمير وسأله بجفاء .

— ماذا ترغب ؟

— انني أحد المحلفين وادعى (نيكليندوف) واحتاج حاجة ملحة لمواجهة (ماسلوفا) . — أجاب الأمير مسرعاً وقد احمر وجهه خجلاً ، شاعراً بأنه يستخدم نفوذه لغاية بعيدة الأثر على حياته .

كان النائب العام أسمر اللون ، ربع القامة ، حاد العينين كثيف اللحية كث الشعر .

– (ماسلوفا) اعرف من هي ... تعزى إليها جريمة دس السم . ولماذا تريد أن تراها ؟ – قال له بهدوء . ولكي يلطف من جفاء لهجته أضاف يقول : لا أستطيع إعطاء الاذن بالزيارة قبل أن أعرف السبب .

– أريد أن أراها لأمر يهمني كثيراً . – أجاب الأمير وقد ازداد وجهه احمراراً .

– ولكن ، هل صدر بحقها حكم ؟

– بلى . لقد حكم عليها بالسجن أربع سنوات مع الأشغال الشاقة ولكنها بريئة .

– هكذا ؟ – أجاب النائب العام دون أن يأبه لما قاله (نيكليندوف) عن براءة (ماسلوفا) – إذا كان قد حكم عليها بالأمس فينبغي أن تكون في السجن الموقت ، وهناك لا تمنع زيارة الموقوفين أنصحك في أن تذهب الى هناك .

– ينبغي أن أراها حالاً .

– ولماذا تحتاج لمواجهتها ؟

– لأنها حكمت بالأشغال الشاقة وهي بريئة . وأنا المجرم .

– وما يعني هذا ؟

– لقد أغويتها . وبجريرتي هوت الى الدرك الذي تتخبط فيه الآن . ولولا فعلتي لما انحطت بهذا المقدار .

– لست أرى الصلة بين ما تقول وبين طلب الترخيص بزيارتك لها .

– أريد أن أتبعها الى حيث تذهب ... وأريد الزواج منها . – قال هذا واخضلت عيناه بالدموع شأنه في كل مرة كان يتحدث فيها عن مقاصده .

– هل أنت جاد في قصدك هذا ؟ – قال له النائب العام – انها لحادثة فريدة من نوعها . إذا لم أكن مخطئاً فسموك مستشار في مدينة (كراسنوبيورسك) – أضاف يقول ، وقد تذكر أنه سمعهم يتحدثون عن (نيكليندوف) هذا الذي يحدثه الآن بما يعسر تصديقه .

– عفواً . أظن أن هذا لا علاقة له بطلبي . – أجـــاب (نيكليندوف) بنفاد صبر .
– هذا صحيح . – أجاب النائب العام دون أن يتأثر ويكاد يكون باسماً – ان رغبة سموكم شديدة الاغراق في الخيال ، وبعيدة جداً عن المألوف .
– أتمنحني الترخيص ؟
– أجل وسأكتبه حالاً . والآن تفضل بالجلوس .
ثم تقدم من مكتبه وشرع يكتب .
ولبث (نيكليندوف) واقفاً الى أن فرغ النائب العام من كتابة الترخيص ودفعه له وهو يتفحصه ملياً .
– كذلك أود أن أصرح بأنه لا يسعني منذ الآن أن أواصل عملي في مجلس المحلفين .
– هذا الاعتذار ينبغي أن يبنى على أسباب مشروعة .
– سبب ذلك اعتباري كل جلسة من جلسات المحكمة عملاً ليس عـــديم الفائدة فحسب ، وإنما عملاً غير لائق .
– صحيح ؟ – أجاب النائب العام باسماً كما لو كان قد سره هذا التصريح .
– يجب أن تعلم انني كقاض لا يسعني إقرار سموكم على هـــذا الرأي . وأنصح لك بأن تصرح بذلك للمحكمة ، فاذا قبلت اعتذارك ، وإلا فسأراني مجبراً على فرض غرامة على سموكم .
– لقد صرحت بذلك للمحكمة . – أجاب (نيكليندوف) . – وأؤكد لكم انني لن أدخل قاعة المحكمة بعد الآن .
– أرى من واجبي إبلاغ سموكم أنكم بذلك تعرضون نفسكم للغرامة .
– أجابه النائب العام وهو يحني رأسه .
لم يكد (نيكليندوف) يخرج من مكتب النائب العام حتى دخل إليه أحد القضاة فسأل قائلاً .
– من ذاك الذي كان هنا الآن ؟

– هو (نيكليندوف) ذاك الذي كان في مجلس بلدية (كراسنوبيورسك) يقترح اقتراحات خيالية . وهو الآن يفكر في الزواج من امرأة محكومة بالأشغال الشاقة .

– أهذا ممكن ؟

– لقد صرح لي بذلك الآن ... ويبدو أنه واقع تحت تأثير حالة نفسية خاصة .

– أعتقد أن شبيبة اليوم ليست على حالة سوية من العقل ...

– أجل . ولكن هذا ليس فنياً .

– أتعلم أن (إيفاشنكوف) الجزيل الاحترام قد أضجرنا كثيراً ؟ انه يتكلم كالرشاش .

– ينبغي إسكاته . ان هذا نوع من اضاعة الوقت وتعطيل الأعمال .

٣٦

على أثر خروج الأمير (نيكليندوف) من مكتب النائب العام توجه رأساً الى السجن حيث صادف خيبة أمل جديدة . فقد أنبأه المدير ان (كاترين) يجب أن تكون قد اقتيدت الى السجن القديم ، حيث يحشر المحكومون بالابعاد . وكانت المسافة بين السجنين طويلة بحيث لم يستطع الأمير بلوغه إلا بعد الظهر على الرغم من سرعته الفائقة في المسير . وأراد أن يقترب من باب البناية الكبير، القاتم اللون ، إلا أن الحارس لم يسمح له بالدنو منه وقرع جرساً فخف اليه بواب أطلعه الأمير على الترخيص الذي يحمله . غير ان البواب أبى أن يسمح له بالدخول قبل الاستئذان من المدير . وهكذا اضطر (نيكليندوف) أن ينتظر .

وفيما كان (نيكليندوف) يصعد السلم سمع البيانو يعزف مقطوعة من مقطوعات (ليست) . فسأل الخادمة عما إذا كان المدير حاضراً في البيت فأجابته بالنفي .

– ومتى يحضر ؟

– سأستعلم عن ذلك .

وتوقف العزف وارتفع صوت حاد يقول انه غير موجود وسيظـــل غائباً طيلة ذلك النهار . قولي ذلك لكل من يسأل .

وعاد البيانو يبعث أنغامه من جديد . إلا أنه لم يلبث أن توقف من جديد ، وسمع صوت كرسي يجر مما دله على أن العازفة أرادت أن ترى من هـــو الذي يسأل عن المدير في مثل تلك الساعة .

– إن أبي متغيب عن البيت . – بدأت تقول بصوت حاد فتاة قبيحة الوجه شاحبة اللون . ولكنها إذ رأت شاباً أنيقاً غيرت لهجتها وقالت : – تفضـــل أدخل . ماذا تريد ؟

– أريد أن أواجه سجينة ولدي ترخيص من النيابة العامة .

– آه . لا أعرف شيئاً من هذا . – أجابت الصبية – ان أبي متغيب عن البيت . ولكن إذا شئت أن ترى نائب المدير فهو في مكتبه . أتريد أن تترك لي اسمك ؟

– أشكرك كثيراً . – قال لها دون أن يجيب على سؤالها .

ولم يكد يبلغ أعلى السلم حتى عاد البيانو الى إرسال نغماته .

وفي البهو الخارجي التقى بأحد الموظفين فأخبره هذا ان الترخيص بدخول السجن الجديد غير صالح لدخول السجن القديم . وفضلاً عن ذلك فان موعد الزيارات قد فات .

– تعال الى هنا غداً في الساعة العاشرة صباحاً حيث موعـــد الزيارات ، وسيكون المدير في مكتبه .

فعاد (نيكليندوف) الى بيته وهـــو لا يفكر في شيء سوى (كاترين) والحديث الذي دار بينه وبين النائب العام ، وما قاله له الموظفون وما أجابهم به . وكانت محاولة رؤية (كاترين) بشتى الطرق الممكنة ، وتصريحه برغبتـــه للنائب العام ، وذهابه الى السجنين ، كل ذلك كان عاملاً على إثارة أعصابه التي أبت أن تهدأ .

وعندما بلغ المنزل أخرج السجل الخاص الذي اعتاد أن يدون فيه مذكراته اليومية فدون ما يلي :

« منذ عامين لم أسجل هنا شيئاً عن احداث حياتي لأنني كنت أرى ذلك أموراً صبيانية ، وكنت أحسبني غير مخطىء . أنه حديث بين ضميري وذلك (الأنا) الحقيقي المثقف الموجود بين جنبي كل انسان . لقد ظل هذا (الأنا) مغموراً بالظلام طيلة هذه المدة ، وقد تنبه الآن بسبب حادثة غير عادية . ففي (٢٨ نيسان) بينما كنت في المحكمة بوصفي عضواً في مجلس المحلفين ، رأيت على مقاعد الاتهام، وفي ثياب السجينات ، (كاترين) تلــك الطفلة الغريرة التي أغويتها في زمن مضى ، والتي حكم عليها بالسجن مــع الأشغال الشاقة لخطأ اخطأته . أعود الآن من السجن ، بعد ان قابلت النائب العام واستحصلت منه على اذن بمواجهتها ، ولكنهم أبوا السماح لي بذلك . أنا مصمم على رؤيتهـا ، والتحدث إليها ، وطلب الصفح منها ، والتكفير عما اجترحته بحقها ، والزواج منها إذا استلزم الأمر . رباه أعني ... إني لأشعر بسرور فياض يغمر قلبي » .

٣٧

لم تغمض عين (لكاترين) طوال ليلها ، وهي مستلقية في فراشها على ذاك السرير السيء الذي كانت فيه كالمقبورة . وكانت احياناً، وقد اتسعت حدقتاها، تنظر محملقة باتجاه باب السجن ، وأحياناً أخرى تراقب ابنة الكاهن التي ما انفكت تذرع القاعة ذهاباً وإياباً . وكانت عاصفة من الأفكار والتصورات تجتاح مخيلتها . فطوراً كانت تقول أنه ليس من مصلحتها أن تعير التفاتاً لأي من المساجين . وإنما عليها أن تتصل بأحد السجان أو الكتبة أو الموظفين ، فالنساء يجتذبن الجميع على السواء . غير أن فكرة واحدة كانت تشغل بالها وتقض مضجعها ، وهي أنها قد يدركها الهزال نتيجة السجن فينفض الناس من حولها ، وهناك الطامة الكبرى .

تذكرت انها في المحكمة كانت محط انظار الجميع ابتداء من القضاة حتى الجنود . وحتى محاميها كان ينظر اليها نظرات خاصة . كما تذكرت أيضاً أن (سبرتا) قالت لها ان طالباً كانت تحبه أثناء وجودها في محل (روسا) قد

جاء يسأل عنها . كانت تستعرض في ذاكرتها كل شيء ، وسائر الناس ما عدا (نيكليندوف) .

لم تكن تتذكر شيئاً عن طفولتها ، وشبابها ، وعن هيامها بالأمير . لقد احتفظت بتلك الذكريات التي كانت شديدة الإيلام لنفسها ، في أعمق أعماق روحها ، وأوصدت عليها الباب الى الأبد ، فهي لن تتذكر (نيكليندوف) حتى ولو في الحلم .

لم تكن قد عرفته عندما كانت تنظر اليه أثناء المحاكمة . وليس ذلك لأنه قد تغير كثيراً وأصبح ذا لحية ، وانما لأنها لم تفكر فيه اطلاقاً . لقد دفنت كافة ذكرياتها عنه ذات ليلة حالكة عاصفة عندما أبى أن يعرج على بيت خالته أثناء عودته من ميدان القتال .

لم يكن يهمها كثيراً ، تلك الليلة ، أمر ذلك الجنين الذي تحمله في أحشائها لأنها كانت ترتقب لقاء الأمير . وعندما خاب أملها بلقائه تغير كل شيء وأصبح ذلك الجنين الذي سيطل قريباً على الدنيا مثار ازعاج لها ، وعبئاً ثقيلاً لا قبل لها به .

كانت العانس تتوقع قدوم (نيكليندوف) تلك الليلة . ولكنه أبرق في الساعات الأخيرة معتذراً بأنه لا يستطيع التوقف لأن عليه أن يكون في سان بطرسبرج في اليوم التالي . ولما علمت (كاترين) بذلك قررت الذهاب الى المحطة كي تراه وهكذا فانها بعد ان أعانت سيدتها على خلع ثيابها غطت رأسها بملاءة واصطحبت معها (ماسكا) ابنة الطاهية العجوز وذهبت الى المحطة لتكون بانتظاره عند وصول القطار في الساعة الثانية بعد منتصف الليل .

كانت تلك ليلة عاصفة من ليالي الخريف . وكانت الريح تهب عاتية والمطر ينهمر مدراراً . وكان الظـــلام حالكاً حتى لم تكن ترى الأرض . وضلت الطريق في الغابة القاتمة كفم الذئب على رغم معرفتها الجيدة بها . وكان القطار يوشك أن يغادر المحطة عندما وصلتها إذ كان الجرس قد قرع مرتين .

ولما أصبحت على الرصيف رأت الأمير واقفاً في إحدى عربات الدرجة

الأولى ، وعلى مقربة منه ضابطان يلعبان الورق في تلك الشقة الباهرة النور . كان (نيكلليندوف) متكئاً باحدى يديه على مسند المقعد مرتدياً قميصاً شديد البياض وسروال الفرسان وهو يضحك بملء شدقيه . فقرعت (كاترين) الزجاج بأناملها المتجمدة من البرد . ولكن الجرس ما عتم ان قرع للمرة الثالثة فتحركت العجلات . فأعادت الفتاة نداءها ودنت من النافذة . إلا ان العربة كانت تفر منها . فجرت (كاترين) وراءها لتلحق بها . وحاول أحد الضابطين رفع الزجاج فتعسر عليه . ودنى (نيكلليندوف) من النافذة .

وكان القطار قد أصبح يسير مسرعاً . وعلى الرغم من ان (كاترين) كانت تجري باقصى سرعتها ، آملة أن تعود فترى الأمير إلا أن عربات الدرجة الأولى كانت قد توارت ، وجاءت بعدها عربات الدرجة الثانية ولكن لتختفي ، وكذلك عربات الدرجة الثالثة . وكانت قد خرجت من تحت السقيفة ، قد أهمتها عصفة من الريح اطارت ملاءتها عن رأسها والتف ثوبها على ساقيها.

وكانت الطفلة تجري وراءها من بعيد كي تلحق بها وهي تناديها قائلة : يا خالتي (ميكابلوفنا) يا خالتي (ميكابلوفنا) لقد أضعت منديلك .

وأمسكت (كاترين) فجأة عن الجري ، والتفتت الى الوراء ثم انفجرت تبكي بكاء مراً . ثم صرخت تقول :

– لقد ذهب .

هو الآن جالس في مقعد مخملي مريح في عربة قطار فخمة يضيئها نور باهر ، يتندر ويشرب الخمر . وأنا هائمة على وجهي في هذا الظلام الدامس ، تتلاعب بي الريح ، ويبللني المطر أبكي وأبكي . وعندما بلغت هذا الحد من تفكيرها القت بنفسها على الارض باكية بكاء اليائسة مما حمل الطفلة على ان تقول لها متوسلة مرعوبة .

– لنعد الى البيت يا خالة .

فلم تجب (كاترين) وكانت قد قررت أمراً .

– عندما يأتي القطار الثاني سألقي بنفسي تحت عجلاته فينتهي كل شيء ...

هكذا كانت تفكر .

وفجأة أحست بحركة في أحشائها . انه « هو » الطفل . طفلها . لأجله نسيت كل ما كان يرهقها منذ قليل . نسيت كرهها للأمير ، ورغبتها في الانتقام ، وتصميمها على الانتحار .

وإذ هدأت ثورة أعصابها ، غطت رأسها بمنديلها ، وعادت أدراجها الى البيت متعبة مغمومة ، ملطخة الثياب بالوحل ، مبتلة بالماء .

منذ ذلك الوقت بدأ التحول الذي طرأ على نفسها ، والذي كان من المحتم أن يقودها الى الدرك الذي تردت فيه .

كانت تؤمن بالله كما يؤمن به غيرها من الناس . ولكنها ابتداء من تلك الليلة فقدت إيمانها به ، وإيمانها بوجود مؤمنين به . وأصبحت ترى تضليلاً وظلماً ، كل ما يبشر به المبشرون عن الله وشرائعه . كان (نيكليندوف) في نظرها خيراً من غيره من الرجال الذين عرفتهم ، فاذا كان هو كذلك فما عسى أن يكون أولائك يا ترى .

وأكدت لها الاحداث التالية صدق معتقدها . فقد طردتها العانس من منزلها عندما أصبحت لا تصلح دابة لحمل الأثقال . وأساء الآخرون معاملتها ولم يرحموها . واستغلها النسوة كوسيلة للغنم ، ورأى فيها الرجال ابتداء من الشرطي العجوز حتى السجان ، مادة لذة . لم يكن أحد يريدها لغير ذلك . بهذا أقنعها الكاتب العجوز الذي عرفته بعد قليل من سقوطها . كان يقول لها ان اللذة هي سعادة الحياة ، وجمالها ، وشعرها . كل يحيا لنفسه ، وللحصول على لذته الخاصة . أما الله والخير فكلمات غير ذات مدلول .

وعندما كانت تتساءل أحياناً لماذا يكثر الشر على الأرض ، ولماذا يؤذي الناس بعضهم بعضاً ، ولماذا يعم الشقاء العالم ، كانت تجيب نفسها بأن مثل هذه الأفكار والتأملات شديدة الازعاج ومن الضروري التخلص منها . كل الوساوس تنس متى وجد الخمر والتبغ .

٣٨

عندما ارتفع صوت الصفارة المعتاد يوقظ المساجين عند الساعة الخامسة من

صباح اليوم التالي وكان نهار أحد ، أيقظت (كورابلوفا) صديقتها (كاترين) التي كانت قد نامت تلك الليلة نوماً عميقاً . وعندما أقامت هذه شرعت تفرك عينيها وتتنفس بصعوبة ذلك الهواء العفن الثقيل . كانت جد راغبة في أن تعود فتنام ولكن الخوف تغلب على النعاس فهبت من فراشها واقفة ثم عادت فجلست على حافة السرير وأخذت تجيل نظرها فيما حولها .

كانت النسوة قد استفقن جميعهن . وظل الأطفال وحدهن نياماً . وكانت بائعة الخمر ترتدي ثيابها محاذرة ايقاظ الأطفال . والمسلولة تشد بيديهـــا على صدرها شاحبة الوجه وتسعل سعالاً شديداً . وعندما يهادنها السعال كانت تتوجع بصوت عال يكاد يكون صراخاً . وكانت المرأة ذات الشعر الأحمر تقص بسرور رؤيا رأتها . في حين كانت العجوز واقفة تصلي أمام الايقونة المقدسة . وكانت ابنة الكاهن جالسة على حافة السرير وهي تنظر فيما حولها بعينين لا تزالان تصارعان النعاس . والجميلة تسوي شعرها الأسود اللماع .

وسمع وقع أقدام في الممشى ، ثم صليل قفل الباب ، ودخل سجانان يرتديان سراويل قصيرة جداً رمادية اللون ، وحملا الخابئة القذرة التي كانت في الغرفة .

كان النسوة قد خرجن الى الرواق ليغسلن وجوههن . ولم تلبث طويلاً المرأة ذات الشعر الأحمر حتى اشتبكت في شجار مع امرأة اخرى جاءت من الجناح الثاني ، فارتفعت المسبات والشتائم ، والضرب ، والتوجع .

— أتريدين أن تسكتي ؟ — صاح أحد البوابين يقول لذات الشعر الأحمر ، ثم ضربها بقبضة يده ضربة قوية على ظهرها البدين العاري تجاوب صداها في الرواق
— سترين ما يحل بك اذا سمعت صوتك مرة اخرى .

— أنت تمزح ايها الشيطان العجوز . — قالت المرأة .

— اسرعن . اسرعن . وتهيأن لحضور القداس .

ومشطت (كاترين) شعرها على عجل . وجاء المدير يصحبه سجان .

— أجبن على اللائحة . — قال الموظف .

وكن قــــد حضرن جميعهن ولم تتخلف واحدة منهن . فوقفن صفين . ثم صحبتهن سجانة الى الكنيسة .

كانت (ماسلوفا) و (فيدوسيا) في وسط الصف المؤلف من أكثر من مئة امرأة . وكن جميعاً يغطين رؤوسهن بملاءات بيض ويلبسن الثياب بلون واحد . وقلما وجد بينهن من ترتدي ثوباً مختلف اللون ، ما عدا أولئك اللواتي جاء أزواجهن لزيارتهن . وعندما انتقلت (ماسلوفا) من ممشى لآخر تلاقت بعدوتها البغيضة (بوتشكوفا) فأشارت تدل (فيدوسيا) عليها .

ودخلن الكنيسة خاشعات ، وجلسن على المقاعد التي على اليسار وحشر بعضهن بعضاً . ثم جاء بعدهن المساجين المحكومون بالابعاد الى سيبيريا فجلسوا في الجهة اليمنى .

كانت تتوهج تحت نور الشمس ككرة من ذهب الكنيسة الجديدة التي أقامها أحد التجار وأنفق في بنائها مبلغاً ضخماً من المال .

وساد سكون عميق حتى لم يكن يسمع فيها سوى صوت انسان يسعل أو يمخط ، وطفل يبكي ، وصليل القيود . وفجأة اضطرب السجانون وتجمهروا ثم انشطروا شطرين ما عتم ان تكون منهما صفان مر من بينهما المدير الذي كان قد دخل من باب الكنيسة في تلك اللحظة ، ثم واصل طريقه حتى أصبح في مقدمة المصلين .

كان آنئذ يوشك أن تبدأ الصلاة .

٣٩

ارتدى الكاهن ثوباً حريرياً مزركشاً وضيقاً جداً ، فوق ثيابه العادية ثم تناول رغيفاً كبيراً من الخبز فقطعه الى اجزاء صغيرة وضعها في طبق ، وأقبل يصلي بصوت خافت ، وكان وهو يصلي يتناول قطع الخبز الصغيرة ويضعها في كأس . وكان الشماس ايضاً يصلي باستمرار بلغة تكاد لا تفهم ، ولكن كان يستدل على ان اكثرها كان دعاء لله ليحفظ القيصر والعائلة المالكة .

وتلا الشماس بعد ذلك فصلاً من اصحاح الرسل بصوت شاذ وأبح حتى لم يكن بالامكان فهم شيء منه . وتلا الكاهن أيضاً بصوت واضح جلي جزءاً من انجيل مرقص حيث يقول ان يسوع المسيح بعد ان بعث من القبر ، وقبل ان

يذهب ليجلس عن يمين الإله الآب ، ظهر لمريم المجدلية وللأحد عشر رسولاً ، وأمر هؤلاء ان يكرزوا الناس بالإنجيل . ثم قال لهم ان من لا يؤمن فستبتلعه الهاوية الأبدية. ولكن من يؤمن «بي» فسينجو ، وسيتغلب على الأرواح الشريرة، وسيكون في مقدوره شفاء المرضى ، والقبض على الأفاعي دون أن تستطيع ايذاءه ، وسيفهم اللغات الجديدة ، ولن يموت ولو شرب السم .

ولكن جوهر القداس الحقيقي كان الافتراض بأن تلك القطع الصغيرة من الخبز التي وضعها الكاهن في النبيذ ، ستصبح بفضل بعض الصلوات لحم المسيح ودمه . وكان الكاهن يرفع يديه بحركات رتيبة متناسقة ، بمقدار ما يسمح بــه ثوبــه الضيق . ثم يركع ويقبل الهيكل . ولكن الاجراء الأساسي كان وضع منشفة عدة مرات فوق الكأس والطبق . وهذا هو الوقت الذي يصبح فيه الخبز والخمر لحم المسيح ودمه .

– الى القديسة الطاهرة المباركة أم الله . – صاح الكاهن يقول . فرددت الجوقة بلحن رائع : انه لجميل وعادل تمجيد اسم تلك التي وهبت الحياة ليسوع المسيح وهي ما تزال عذراء وان ملائكة السماء تمجدها .

وبعد هذا يمكن القول بان التحول قد تم .

وغمس الكاهن قطعة من الخبز بالخمر ووضعها في فمه مقتنعاً بانه قد أكل قطعة من لحم الإله وشرب جرعة من دمه .

ثم رفــع الكأس بيديه ، واتجه الى المصلين يدعوهم ليأكلوا من لحم الإله ويشربوا من دمه . فتقدم بعض الصبيان فسألهم الكاهن عن اسمائهم وقدم لهم قطعاً من الخبز المقدس ، ثم جاء الشماس فنظف لهم أفواههم وهو يتلو « الاطفال يأكلون لحم الإله ويشربون دمه » .

وبعد ان انتهى الكاهن من توزيـع القربانة على جماعة المؤمنين أغلق الكأس . وحــين فرغ من التهام آخر قطعة من اللحم وجرع آخر جرعة من الدم الإلهي لحس شواربه بعناية ، ونظف شفتيه ، ونزل عن الهيكل مسروراً طلق المحيا ، يطأ الأرض بقوة .

ولكنه بعد ان فرغ من القداس الأول شرع في قداس آخر مواساة للمساجين. فأخذ يصلي صلاة طويلة جداً ، على ضوء الشموع الطويلة ، وهو واقف أمـــام صورة الإله الذهبية ذلك الإله الذي أكل منذ قليل لحمه وشرب دمه .

– يا يسوعي الكثير العذوبة ، يسوع يا مجد الرسل ، أيها السيد المتناهي القوة ، يا مخلصي ، ويا فادي ، ويا حبي ، يا يسوع الطيب أنقذني بشفاعتك ...

وكان من وقت لآخر يكف عن التلاوة ليسترد أنفاسه ، ثم يخشع ويركع ، فيحذو سائر المصلين حذوه . كان المدير يركع ، وكذلك السجانون والمساجين فتصطدم قيود هؤلاء ببعضها .

ثم يعود فيناجي يسوع قائلاً :

– يا يسوعي الطيب ، يا يسوعي المتناهي القوة . يا يسوعي ذا المجد ...

كانت كلمة يسوع التي كان يكثر من ترديدها تخرج من بين شفتيه كالصفير . وعند نهاية كل جزء ، كان يشمر ثوبه المبطن بالحرير ، ثم يركع حتى تلامس جبهته الأرض ، في حين كان المصلون يرددون الكلمات الأخيرة وهم راكعون .

– يا يسوعي . يا ابن الإله خلصني .

ثم يستوي الجميع واقفين فيعلو صليل القيود التي اضنكت الأرجل الهزيلة .

ظل القداس مستمراً على هذا النحو مدة طويلة . وبعد ان فرغوا من هذا الذي ينتهي بعبارة « خلصني » بدأوا بالذي يقول (الليلويا) . كان على المصلين في هذه ان يركعوا مرتين بينما كانوا في الأولى لا يركعون سوى مرة واحدة . ولذا فان جميع المصلين تنفسوا الصعداء ارتياحاً عندما رأوا الكاهن يغلق الكتاب .

ولكن الحفلة لم تنته بانتهاء هذا الفصل . كلا . فهنالك فصل آخر بدأ حين تناول الكاهن من على المذبح صليباً مزخرفاً محلى بالذهب ، ومشى حتى بلغ وسط الكنيسة رافعاً بيديه الصليب ، فأدناه أولاً من المدير فقبله ثم جاء دور السجانين وغـــيرهم الذين كانوا يتهافتون ويزدحمون ويطأ بعضهم بعضاً فيتشاتمون بصوت خافت . ولما كان المدير يسر شيئاً للكاهن فقد كان عندما يحني الصليب يقع على أنوف المساجين الذين كانوا على رغم كل ذلك يبذلون قصارى جهدهم في الوصول اليه ليقبلوه .

على مثل هذه الصورة انتهت الصلاة المسيحية التي أقيمت انماء للروح المعنوية عند الاخوة المنحرفين .

٤٠

لم يكن يخطر على بال أحد ممن حضروا الصلاة، سواء في ذلك الكاهن والمدير و (ماسلوفا) ، ان يسوع المسيح الذي كان اسمه يخرج كالصفير من بين شفتي الكاهن الذي يمجده الآن ويناجيه بمثل تلك الصورة الغريبة ، لم يحرم شقشقة اللسان هذه وحدها الخالية من كل معنى ، وسائر المراسيم والطقوس التي اجراها الكاهن على الخبز والخمر فحسب ، ولكنه حرم كذلك تحريماً قاطعاً ان ينادي أحـــد أحداً بيا معلم . لقد حرم الصلاة في المعابد وفرضها في الخلوة . وحرم اقامة المعابد قائلاً انه جاء ليهدمها، لأن الصلاة ينبغي أن تكون في أعمق اعماق الروح لا في المعابـــد . وكان أكثر تحريماً لما يأتونه الآن من سجن أولئك الذين خلقوا على مثال صورته، وتجريمهم وتعذيبهم . كما حرم سائر أنواع العسف وسوء استعمال السلطة على الناس مصرحاً بأنه جاء لتحرير العبيد والمضطهدين .

لم يكن يدور في خلد أحد ان ما أقيم ثمة من مراسيم كان في الواقع اهانة لدين يسوع . وان ذلك الصليب الذهبي المرصع بالحجارة الكريمة الذي رفعـــه الكاهن عن المذبح وقدمه لأولئك المنكودين ليقبلوه ، لم يكن في الواقع سوى رمز لمنصة الاعـــدام التي صعد عليها يسوع المسيح لأنه حرم ما قام به الكاهن باسمه هنا . كذلك لم يكن يدور في خلد أحد منهم ان أولئك الكهنة يأكلون فعلاً لحم الإله ويشربون دمه .

وإذا كان الكاهن يقوم الآن بما يقوم به مطمئن النفس مرتاح الضمير لعمله فذلك لأنهم لقنوه منذ الصغر ان هذا هو الدين الحق والوحيد ، الدين الذي عاش اسلافه وماتوا عليه . لم يكن يؤمن بأن الخبز سيتحول الى لحم ، وان تلاوة كلمات معينة تفيد الروح ، وانه قد أكل بضعة من الاله (بهذا لا يمكن ان يؤمن أحد) ، إلا أنه كان واثقاً ومقتنعاً من ضرورة الايمان بذلك وكان العامل الأقوى الذي كان له أكبر الأثر في تكوين اقتناعه هذا ، هو كونه منذ

الثامنة عشرة من عمره وحتى الآن ، ما زالت هذه الصلوات والقداديس مورد رزقه الوحيد يحصل منه على ما يقيم به أوَدَ نفسه وعياله .

كذلك كان الأساس الذي يقوم عليه ايمان الشماس الذي كان قد نسي أصول دينه . كان يعلم ان لكل صلاة تعرفتها المقررة ، وان المسيحيين الحقيقيين يدفعونها مسرورين راضين . وهكذا فهو يصيح ، ويلحن ، ويقرأ ويصلي ، مقتنعاً من حاجته لذلك حاجة التاجر لبيع البطاطة والقماش والفحم .

كان مدير السجن وسجانوه ، يجهلون جوهر ديانة المسيح ، ومغزى تلك الطقوس الكنسية . ولم يكونوا يحاولون فهمها . كانوا يعلمون انهم يؤمنون ، وان من الضروري ان يؤمنوا لأن جميع السلطات القائمة بما فيها القيصر يفعلون ذلك . كانوا يحسبون ان الدين يقر قسوة وظيفتهم . فتطمئن نفوسهم ، ولولا ذلك لأحجم الكثير من ممثلي السلطة عن اضطهاد وإرهاق الغير . ولدينا مثل على ذلك مدير السجن ذاك الرجل الطيب الذي ما كان ليرضى عن بقائه في هذا المنصب لو لم يكن له من الدين عون وسند . ولذا كان أثناء الصلاة كثير الخشوع والخضوع بادي التقوى .

كان أكثر المساجين يعلمون ان الدين أكذوبة بارعة اخترعت فكانت وبالاً على بني البشر . ولكنهم كانوا يعلمون أيضاً ان تلك الأيقونة الذهبية ، وذلك الصليب ، وعبارة (يا يسوع أعني) و (يا يسوع أنقذني) كان لها قوة غامضة مجهولة بوسعها أن تهب بسطة من العيش في هذه الدار الدنيا ، وراحة في الدار الأخرى .

صحيح أنه كان بينهم أيضاً الكثير ممن جربوا أن يحصلوا على الحياة الهيئة بفضل تلك الطقوس والصلوات ولكنهم فشلوا . غير ان كلاً منهم كان يحسب نفسه حالة شاذة من حالات سوء الحظ لا تصلح دليلاً على بطلان ذلك الدين الذي انبثقت عنه تلك المؤسسة التي أقرها العلماء والبطريرك .

هكذا كان ايمان (ماسلوفا) . كانت اثناء القداس تشعر ، كغيرها ، بمزيج من السآمة والتقوى ، وفي بداية الأمر ، كانت لا تعير التفاتاً لأي شيء ، ولكنها

ما لبثت أن أبصرت قروياً ذا لحية شقراء واقفاً وراء المدير ، وكان ذاك زوج (فيدوسيا) الذي كانت نظراته لا تفارقها . فأخذت (ماسلوفا) تراقبه ، ثم أسرت شيئاً الى جارتها ، وبلا وعي كانت تخشع وتركع كبقية المصلين .

٤١

أفاق الأمير (ديمتري ايفان) من نومه مبكراً على خلاف عادته ، فارتدى ثيابه على عجل وخرج من المنزل .

كان يبدو ان المدينة ما زالت راقدة ، اذ كان الشارع يكاد يكون خالياً من المارة ، ما عدا قروي كان يقود عربته منتقلاً من باب الى آخر وهو يصيح بصوت أغن حليب حليب .

وكانت أمطار الربيع قد بدأت تهطل ، وأخذت براعم الأعشاب الأولى تظهر في الحدائق ، وأشجار الدلب الباسقة كانت أوراقها الخضراء العطرة تهتز تحت نسمات الربيع الدافئة ، وسكان البيوت كانوا قد شرعوا يفتحون بقـــدر نوافذ بيوتهم لتتسرب منها النسمات العطرة البليلة . وفي الشوارع كانت أبواب المنازل تفتح بتثاقل .

وكان جماعة من الناس يتجمهرون في حديقة سوق الخضار التي سيمر فيها (نيكليندوف) في مواجهة صف الحوانيت المتعددة . وأمام الحانة كان يقف عمال بثيابهم الأنيقة ، دلالة على انهم في يوم عطلة ، ونساء يضعن على رؤوسهن ملاءات زاهية الألوان مرقمة بالخرز .

وكان رجال الشرطة يصطفون على طول المنتزه بجوار اكداس الخضار التي يلعب فوقها بمرح وضوضاء عدد عديد من الأطفال الصغار . وفي الشوارع الرطبة كانت ترتفع جعجعة العجلات الثقيـــلة ، وركض العربات ، وأصوات اجراس حافلات الترام وصدى النواقيس التي تدعو المؤمنين لحضور القداس الإلهي الذي أقيم شبيه له في كنيسة السجن . وكان المارة ، وهم يرتدون ثياب الأعياد، يتجه كل منهم الى كنيسته .

وأقل الحوذي الأمير الى حيث كان السجن ، ولما بلغه كانت أبوابه لا تزال

مغلقة . وكان على مقربة من موقف العربات صف من بيوت خشبية واطئـــة السقف . وعلى بعد أمتار كان يرتفع البناء الضخم من الحجارة والطين الذي كان يمنع الاقتراب منه . وكان على بعد مئة خطوة منه يقف رجال ونساء يتأبط كل منهم رزمة ، والحارس والبندقية على كتفه كان يمشي ذهاباً وإياباً محذراً بجفاء من تسول له نفسه الدنو من البناية . وكان على مقربة من البيوت الخشبية حارس آخر يرتدي ثياب الأعياد الرسمية يسجل على ورقة اسماء الراغبين في زيارة المساجين . فتقدم (نيكليندوف) منه وذكر له اسم (ماسلوفا) ثم سأله لماذا لا يسمحون للناس بالدخول . فأجابه بقوله :

— انهم ما زالوا في الكنيسة يصلون ، ومتى فرغوا ستفتح الأبواب .

فانضم الأمير الى الجمهور المنتظر .

وجاء رجل يمشي حافي القدمين ويرتدي ثياباً رثة ، وعلى رأسه قبعة زرية ، ومضى نحو الباب فانتهره الحارس قائلاً :

— الى أين تريد ؟

— وأنت لماذا تنتهرني هكذا . — أجاب الرجل غير هائب وهو يتراجع .

— اذا كان الدخول ممنوعاً فسأنتظر . لا فائدة لك من الصراخ . كأنك جنرال .

فأغرب الحاضرون في الضحك تأييداً له .

كان معظم أولئك الزوار بثياب قذرة رثة . والقليل منهم كان يرتدي ثياباً أنيقـــة . وكان يقف بجانب (نيكليندوف) شاب أنيق الثياب حسن المظهر يحمل صرة ثياب بيضاء . فسأله الأمـــير اذا كان يأتي الى السجن للمرة الأولى فأجابه بأنه يأتي بصورة متواصلة كل صباح أحد لزيارة أخيه المحكوم بجريمـــة تزوير وفيما كان هذا يهم بأن يسأله بدوره عما اذا كانت هذه أولى زياراته استرعى انتباهـــه وصول عربة يجرها جواد أصيل تقل فتى وفتاة تضع هذه خماراً على وجهها كان الفتى يحمل صرة كبيرة فتقدم من (نيكليندوف) وسأله لمن ينبغي أن يسلم ذلك الخبز الذي جاء يحمله صدقة للمساجين .

— هذه خطيبتي . وقد عن لها ذلك . وسمح لنا أبواها ان نحمل هذه الهبة

للمساجين . فأجابه (نيكليندوف) انه يزور السجن للمرة الأولى ، ولذا فهو لا يستطيع إرشاده بصورة وافية . ونصحه بأن يسأل السجان .

وهنا فتح باب السجن الحديدي الكبير ، وخرج منه ضابط يتبعه سجان . فتناول اللائحة التي كان البواب قد سجل فيها أسماء الزوار وأعلن السماح بالدخول . فتنحى الحارسان جانباً ، وهرع جمهور الزوار يدفع بعضهم بعضاً ، ويصطدم بعضهم ببعض كأنهم يخشون ضياع الوقت . فأخذ السجان يحصي عددهم بصوت عال واضعاً يده على أكتاف كل فرد منهم عندما يمر من أمامه تحوطاً من بقاء أحدهم سجيناً عند الخروج ، واحترا ساً من فرار أحد المساجين .

وكان على بعد بضع خطوات من باب السجن تجويف في الحائط ضمنه صليب .

– ما معنى وجود هذا هنا ؟ – قال (نيكليندوف) يسأل نفسه . وعن غير قصد عاد ففكر ان مثال السيد المسيح ينبغي ان يكون رمزاً للحرية وليس للسجن .

كان الأمير يمشي على مهل ، وفي داخله تصطخب عاصفة من الأفكار والتأملات ، تاركاً المجال لغيره من الزوار الراغبين في السرعة . كان يتنازعه عاملان ، عامل الرهبة من أولئك الجناة ، وعامل الاشفاق على من تحتويهم جدران ذلك البناء الكئيب بغير ذنب ، أمثال ذلك الشاب الذي صادفه يوم أمس ، وأمثال (ماسلوفا) . كذلك كان يشعر بمزيج من الرهبة والتأثر عندما يفكر بأنه سيلتقي (بكاترين) .

وفيما كان الأمير يجتاز باب الردهة الكبيرة سمع مدير السجن يتكلم بكلام لم يأبه له لأنه كان غارقاً في لجة تأملاته ، وظل يمشي وراء الجمهور المتجه نحو سجن الرجال . ولما بلغ القاعة المعدة لمقابلة الزوار طرق سمعه ضجيج يصم الآذان منبعث من مئات الأصوات . وحين تقدم قليلا ورأى ذلك الحشد الحاشد من البشر ، الملتصق بالحاجز كما يلتصق الذباب بقرص من السكر أدرك عندئذ ما يجري هناك .

كان في القاعة حاجزان يبلغان السقف . أولهما كان يقف خلفه المساجين ، ويقف الزوار وراء الثاني. وكانت المسافة بين الحاجزين تبلغ الثلاثة أمتار كان الحراس يتجولون فيها طوال مدة الزيارة . ولذا كان من الصعب رؤية وجوههم بوضوح ما لم يكن ذا نظر حاد فكيف بايصال أي شيء اليهم . كانت الوجوه لاصقة بالحاجز . وجوه أزواج وزوجات ، آباء وأبناء وأصدقاء وكل يحاول التحدث والتفاهم . ولكن الحديث كان من الأمور الشاقة العسيرة لبعد ما بين الحاجزين ، ولأن كل واحد منهم كان يتوخى أن يطغي صوته على صوت جاره ليسمع بوضوح . وهكذا كانوا يتصايحون ويتصارخون وكل يجهد في أن يكون صوته الأعلى .

كانت امرأة عجوز تغطي رأسها بغطاء كبير تقف بجانب (نيكلیندوف) ووجهها لاصق بالحاجز ، وذقنها ترتجف ، وهي تخاطب شاباً شاحب الوجه محلوق الرأس كان يصغي اليها بانتباه وقد زوى ما بين عينيه . وكان بجانب العجوز فتى يتطاول بعنقه مصيخاً بسمعه ليتمكن من التقاط حديث كان يغمغم به سجين ضامر الوجه لفرط ما يقاسيه من ألم ، وهو يهز رأسه .

وكان ثمة سجين يطلق بين فترة وأخرى صرخة تدوية ثم يغرب ضاحكاً . وإلى جانب هذا كانت تجلس على الأرض امرأة تحتضن طفلاً وهي تتوجع ، ولعل تلك كانت أولى زياراتها لرجل أغبر الشعر ، يقف وراء القضبان الحديدية مقيد الرجلين وفي ثياب المساجين .

وكان البواب الذي استقى منه الأمير المعلومات يقف وراء تلك المرأة وهو يتحدث بصوت عال الى سجين أصلع الرأس متوقد النظرات كان يقف وراء الحاجز الثاني .

وعندما تبين (نيكلیندوف) ان عليه ان يتحدث الى (كاترين) في مثل هذه الظروف ثارت ثائرته على أولائك الذين يقيمون مؤسسات على هذه الشاكلة ، ودهش كيف لا يثور سائر الناس احتجاجاً عليها. ولبث زهاء خمس دقائق باهتاً تتنازعه موجة لا توصف من الغم والكآبة .

كان يدرك انه لم يكن نظيرهم ، ولكنه كان يرى انه ما زال عاجزاً عن تقويم الاعوجاج .

– لقد جئت لغاية معينة ومن الضروري أن أسعى لتحقيقها . – كان يقول في نفسه ليتغلب على نفوره .

وفيما كان يبحث بنظره عن أحد ممثلي السلطة رأى رجلاً ذا شاربين يرتدي بزة ضابط ، وهو يسير ذهاباً وإياباً خلف الزوار فتقدم منه وقال له :

– أيتفضل سيدي باعلامي عن مكان وجود السجينات ، وما هي الوسيلة للتحدث اليهن .

– أتبحث عن الجناح الخاص بالنساء ؟

– بلى يا سيدي .

– كان ينبغي ان تستعلم عن ذلك في الردهة الأولى . الى من تريـــد ان تتحدث ؟

– أريد أن أتحدث الى (كاترين ماسلوفا) .

– أسجينة سياسية هي ؟

– كلا . هي لا غير ...

– هل صدر حكم بحقها ؟

– لقد حكم عليها منذ يومين . – أجابه (نيكليندوف) بلهجة متواضعة محاذراً ان يفقد محدثه الاهتمام الذي أظهره نحوه .

ويظهر ان ما أبداه من تأدب ورقة جانب كان له تأثيره على ذلك الرجل الرهيب .

– إذا كنت تريد الذهاب الى جناح السجينات ، فتعال من هنا . – قال الضابط وقد أدرك من مظهره انه خليق بالاحترام ثم التفت الى أحد الموظفين وكان صدره يضيق بالأوسمة وقال له . – رافق هذا السيد الى جناح السجينات يا (سيندوروف) .

وهنا سمع صوت شهيق بكاء عند الحاجز .

كان (نيكليندوف) يرى كل شيء عجيباً وغريباً، وأغرب ما رآه أن يكون من واجبه اظهار الامتنان لكافة موظفي السجن ، وابداء الرضى عن مديري تلك القطائع .

ورافق الموظف الأمير الى جناح السجينات .

٤٢

كانت قاعة الزيارات في الجناح الخاص بالنساء شبيهة بقاعة الزيارات عند الرجال . أي انها كانت مفصولة بحاجزين خشبيين الى ثلاثة أقسام . مع فارق بسيط وهو انها هنا اصغر منها هناك ، وزوارها أقل بكثير من زوار تلك لقلة السجينات . وعلى الرغم من ذلك فان الضجيج والاضطراب كانا أشد وأدهى . كان الحراس يتجولون بين الحاجزين وكذلك رئيسة السجانات التي كانت تضع شريطة في ذراعها تمييزاً لها عن غيرها . كان الجميع لاصقي الوجوه بالحاجز كما هو الحال في سجن الرجال . وفي حين كان البعض يتطاول واقفاً على رؤوس أقدامه ليعلو على غيره ويسمع صوته ، كان هنالك أناس جالسين على الأرض يتحدثون مع بعضهم .

ومما استلفت نظر (نيكليندوف) وجود نورية بينهن نحيلة القوام منفوشة الشعر وعلى رأسها غطاء وضع باهمال فوق شعرها الأجعد . كانت عند منتصف الحاجز تقريباً ، وكانت تحاول التفاهم مع نوري يقف في الجانب المقابل يرتدي سترة خمرية اللون ويضع في وسطه نطاقاً . وكان بجانب النوري جندي يجلس على الأرض وهو يتحدث الى احدى السجينات ، كذلك كان ثمة فتى قروي أشقر اللحية محتقن الوجه للجهد الذي يبذله لحبس دموعه . كان يتحدث مع سجينة شقراء جذابة ترنو اليه بعينيها الزرقاوين بعذوبة فائقة . كان هذان (فيدوسيا) وزوجها . وكان عدد من الرجال وآخر من النساء في كلا الجانبين يتحدثون بصوت عال أو ينظر بعضهم الى بعض وهم صامتون .

لم تكن (ماسلوفا) بين هاتيك النسوة اللواتي كن وراء الحاجز . ولكن (نيكليندوف) رأى صبية حسناء تقف قباله ظنها هي فتسارعت دقات قلبه ،

وحسب انه يكاد يختنق . لقد أزفت الازفة ، وحانت اللحظة الحاسمة .

ودنى من الحاجز فعرف من فوره (كاترين) التي كانت تقف وراء (فيدوسيا) تصغي لحديثها مع زوجها وهي تبتسم . لم تكن في ثياب السجينات ، وانما كانت تلبس ثوباً أبيض يبرز مفاتن صدرها وثدييها ، وتبدو من تحت غطاء رأسها ضفيرتان من شعر أسود ناعم .

— هذه هي اللحظة التي سيتقرر فيها كل شيء . — قال (نيكليندوف) وتسأل كيف ينبغي أن يناديها .

— يجوز ان تأتي من تلقاء نفسها . — قال في نفسه .

ولكنها لم تأت من تلقاء نفسها ، لأنها كانت تحسب ان (برتا) هي التي تبحث عنها ، ولم يكن في حسابها قدوم مثل ذلك السيد .

— من هي التي ترغب أن ترأها ؟ — سأله أحد الحراس .

— أرغب في أن أرى (كاترين ماسلوفا) . — قال وقد بذل جهداً كيلا يبح صوته .

— يا (ماسلوفا) هنا سيد يبحث عنك . — صاح الحارس .

فاستدارت هذه عالية الرأس ، بارزة الصدر بمثل الرزانة التي عرفها منها . وأمعنت النظر طويلاً في وجه الأمير باستفهام صامت . انها لم تعرفه . ولكن ملابسه أخبرتها انه من الاغنياء فابتسمت حبوراً .

— ماذا تريد ؟ — قالت تسأله دون أن تفارق الابتسامة شفتيها ، وهي ما زالت تتفرس في وجهه .

— كنت أريد ان أقول ...

ولبث برهة حائراً لا يدري كيف وبما يخاطبها ، أبصيغة المفرد أم بصيغة الجمع . وأخيراً قرر الأخيرة ومضى يتابع حديثه ولكن بصوت خافت .

— كنت أريد أن أراك ... أنا ...

— يا للشيطان ، بماذا تحدثني . — صاح جاره . — هل استلمته أم لم تستلمه ؟ ثم صاح آخر قائلاً : هو يحتضر ، هو شديد الهزال .

لم تتمكن (ماسلوفا) من فهم ما كان يحدثها به (نيكليندوف) ولكن شعاعاً من نور أضاء مخيلتها ، فاستعادت ذكرياتها القديمة التي طالما أقصتها عنها . فتلاشت الابتسامة عن شفتيها ، وبدت في جبينها غضون مؤلمة .

– لست أسمع ما تقول . – صاحت تقول وقد زوت ما بين عينيها بشكل أقوى .

– لقد جئت ...

كان (نيكليندوف) يقول في نفسه : – انني أقوم بواجبي ... الندامة الصادقة تفرضه علي ... وهنا تزاحمت الدموع الى عينيه وأحس بعقدة في حلقه فتشبث بالحاجز كي يكبح فيض الدموع الذي كان على وشك الانطلاق .

– لن يذهب لولا المرض . – كانت تصيح امرأة .

– أقسم لك انني أجهل ذلك . – صاح آخر .

وشعرت (ماسلوفا) بالانفعال الذي اعترى الأمير ، فظهر عليها التأثر أيضاً واتقدت عيناها ، وعلت خديها الشاحبين حمرة غير متناسقة . إلا ان الموجه ظل محتفظاً بتعبيره القاسي وعينيها الحولاوين ظلتا تنظران اليه بتأدب .

– أظنني أعرفك ولكن لا أدري أين . – صرخت تقول له .

– جئت أطلب اليك الصفح . – قال لها (نيكليندوف) بصوت قوي ثابت كمن يتلفظ بعبارة قد درسها طويلاً . ثم أخذه الخجل وأخذ يلتفت يميناً وشمالاً ، ولكنه كان قد وطد النفس على تحمل ذلك الخجل الذي سيضاعف من طهارة نفسه ثم تابع حديثه بصوت عال :

– لقد اسأت وكنت وضيعاً ... فسامحيني .

وكانت واقفة لا تبدي حراكاً ولا تفوه بكلمة واحدة إلا ان نظراتها لم تفارقه قط . وعندئذ غادر الحاجز كي يخفي دموعه .

فتقدم منه المدير الذي بعث معه من يرافقه ، والذي كان على ما يبدو يهتم له ، وسأله لماذا لا يتحدث مع السجينة فتظاهر (نيكليندوف) بتنظيف أنفه اخفاء لإنفعاله ، وأجابه انه من المستحيل عليه ان يتحدث عبر الحاجز لأنه لن يفهم شيئاً .

ففكر المدير برهة ثم قال :

— حسن ، حسن . سنعمل على أن تخرج لبعض الوقت . — ونادى سجانة كانت هناك وقال لها احضري (ماسلوفا) يا (ماري كارلوفنا) .

٤٣

وأطلت (كاترين) بعد فترة قصيرة من باب جانبي وتقدمت من الأمير ، ووقفت أمامه وأخذت تحدق فيه . كان شعرها الاسود يتدلى على جبينها ، كما كان منذ يومين ، ويبدو على وجهها الأبيض الجميل تعبير عن سكينة وجمال . وكانت عيناها السوداوان تتقدان من حين لآخر ، بنور غريب تحت أجفانها المتورمة .

— هنا بامكانكما أن تتحدثا . — قال المدير وأسرع في الابتعاد .

فتقدم الأمير من مقعد كان قرب الحـــائط ، وتطلعت (كاترين) صوب نائب المدير وهزت أكتافها استغراباً ، وجلست على المقعد بجانب الأمير وقد أصلحت ثوبها .

— أنا أعلم انه من العسير أن أنال صفحك ... — بدأ (نيكلينندوف) كلامه . غير انه عندما شعر بأن الدموع ستحول بينه وبين الكـــلام أمسك قليلاً . — أنا أعلم ذلك وإذا كنت لا أستطيـع محو الماضي ، فسأقوم بكل ما استطيعه على الأقل ... فقولي ، إذن .

— أين رأيتني ؟ — قالت تسأله أخيراً دون أن تجيبه على سؤاله .

— يا إلهي أعني . — كان يتوسل الى الله في سره . — الهمني ما ينبغي أن أصنع .

وما انفك يتأمل ذلك الوجه الذي تغير كثيراً .

— رأيتك منذ يومين في الجلسة التي كنت فيها عضواً في مجلس المحلفين . فهل عرفتني ؟

— لم يكن لدي الوقت الكافي لأعرفك . — قالت (ماسلوفا) : — حتى لم أنظر اليك .

كان (نيكليندوف) يهم بأن يصرح لها باسمه لكنها لم تكن تحتاج ذلك كي تعرفه ، إذ كانت ذاكرتها قد استعادت ذكرى تلك الملامح التي طالما تأملتها ، وطالما استخلصت من تأملها لذة ومتعة .

وأقبل الاثنان يرنو أحدهما الى الآخر . وفجأة سألها (نيكليندوف) .

– ألم تضعي ولداً ؟

– أجل لقد وضعت ولداً ولكن الموت عاجله بسرعة والحمد لله .

– أجابته محتدة وبصوت أجش متحاشية تلافي نظراتها .

– ولماذا ؟

– لأنني كنت مريضة وعلى وشك الموت أيضاً .

– هل طردتك خالتي ؟

– أجل . إذ من يريد خادمة ذات ولد ؟ لقد طردتني عندما تأكدت من حملي ... من الخير تناسي كل ذلك ... لست أذكر شيئاً . لقد ذهب الماضي الى غير رجعة .

– كلا . لم يذهب الماضي ، ولا أريد أن تنتهي الأمور على هذه الصورة . يجب أن أكفر عن خطيئتي .

– ليس ثمة ما يجب التكفير عنه . ما مضى فات . – أجابت (ماسلوفا) . وفجأة تحولت نحوه ، وأخذت ترنو اليه وهي تبتسم ابتسامة أرادت لها أن تكون جذابة ، ولكنها بدت له رهيبة .

لم يكن يخطر على بال (ماسلوفا) انها ستعود فترى الأمير مرة أخرى ، وعلى الأخص في مثل ذلك المكان ، ولذا فانها عندما رأته ثارت شجونها لأنها تذكرت ماضياً كانت تتمنى تناسيه . لقد تذكرت آنئذ عالماً جديداً من احساس مثالي طاهر ، تلاقت فيه بفتى أحبها فبادلته ذلك الحب . ثم تذكرت ما أظهره ذلك الفتى الذي أحبته من القسوة نحوها ، والسلسلة الطويلة المؤلمة من المذلة والهوان والعذاب التي أعقبت تلك البرهة القصيرة السعيدة ، والتي لا تزال تقاسي نتائجها حتى الآن . فأحست بألم عميق . ولما لم تكن لديها القوة

الكافية للتغلب على مشاعرها فقد عمدت الى ما تعودته دائماً من دفن تلك الذكريات تحت ستار من الضباب يتفق ووضعها الحاضر . وأخذت تقارن في ذهنها بين الرجل الذي يقف الآن أمامها ، وبين ذاك الفتى الذي أحبته من قبل . وإذ رأت ان نتيجة المقارنة مؤلمة لها ، سارعت الى طمس تلك الذكريات التي كانت فيما مضى غالية على قلبها . ولذا فانها لم تر في (نيكلیندوف) الرجل الأنيق الحسن الهندام الذي يقف أمامها معطر الوجه ، ذلك الفتى الذي هامت به ذات يوم ، وانما رأت فيه احد أولئك الذين يستغلون سقوط مثيلاتها من النساء ليحصلوا على ما يستطيعونه من لذة ومتعة .

وكانت وهي صامتة ، تفكر في إيجاد طريقة ووسيلة تمكنها من الحصول على أكثر ما يمكن الحصول عليه منه .

– لقد أصبح الماضي ماضياً . – قالت له . – والآن سيبعثون بي الى سيبيريا .

وارتعشت شفتاها عندما لفظت ذلك الاسم الرهيب .

– أنا واثق من براءتك . – قال لها (نيكلیندوف) .

– أجل أنا بريئة . لست لصة ولا قاتلة ... يقولون ان محاميّ كان السبب في إدانتي ... وعلينا الآن ان نميز الحكم ، ولكن ذلك يكلف غالياً ...

– لقد فكرت في ذلك واستشرت محامياً .

– ينبغي اختيار أحد المشاهير وألا ننظر للنفقات .

– سأفعل ما أقدر عليه .

وصمت الاثنان برهة ، ثم ابتسمت ابتسامتها القديمة .

– والآن أرجو ان تسعفني بشيء من المال ... كلا . لا أريد كل هذا . يكفيني عشر روبلات .

– أجل كل هذا . وأكثر من هذا . كل ما تريدين . – أجابها (نيكلیندوف) ثم أخرج حافظة نقوده وقد احمر وجهه خجلاً من جديد .

فتلفتت (كاترين) الى المدير الذي كان يمشي في الردهة ذهاباً وإياباً .

– حذار أن يراك المدير ... تريث الى أن يدبر ، فانه إذا علم أنك أعطيتني مالاً فسيأخذه مني .

وفيما كان (نيكلينندوف) يهم أن يضع في يدها ورقة من ذوات العشر روبلات ، إذا بالمدير ينظر نحوه فاخفى الورقة في يده .

– لقد قضى على هذه المرأة . – كان يقول في نفسه وهو يتأمل ذلك الوجه وتلك الجفون المتورمة ، التي كانت فيما مضى حبيبة الى قلبه ، وتلك العيون التي كانت تراقب خطوات المدير بحنق ثم لا تلبث ان تعود فتنظر بشراهة الى تلك اليد التي تخفي الورقة المالية .

وفجأة عاد ذلك الصوت المغري الذي سمعه الليلة الفائتة ، يرن في أذنه محاولاً اقناعه بالعدول عن اداء واجبه متسائلاً عن الفوائد التي قد يجنيها من وراء عمله هذا .

« انك لن تجني فائدة من هذه المرأة . انها عبء ثقيل تضعه على عاتقك . وستكون عقبة تعوقك عن اتيان أي عمل نافع ومفيد لك وللغير . أعطها مالاً وتناساها الى الأبد » .

كان قد أدرك ان أمراً هاماً تتمخض عنه روحه آنذاك . وان مصير حياته الخاصة كان في كفتي ميزان متعادلتين . وان أي جهد يبذله سلباً أم إيجاباً ، كفيل بأن يميل بهاته الكفة أو تلك . وكان ان قام بهذا المجهود معتمداً على الله الذي تجلى له الليلة الماضية . فكان في عونه . وهكذا صمم على أن يصرح لها بكل شيء . فقال لها :

– يا (كاترين) . لقد جئت لأطلب اليك الصفح فلم تجيبيني ...

غير ان (ماسلوفا) لم تكن تصغي اليه ، وانما كانت تنتقل بنظرها بين يد الأمير التي تخفي الورقة المالية وبين المدير الذي كان يمشي في الردهة مقبلاً ومدبراً . ولم يكد يوليها ظهره حتى اختطفت الورقة من يد الأمير بخفة وأخفتها في زنارها .

ان كلامك لغريب . – أجابت (ماسلوفا) مبتسمة ابتسامة ظنها الأمير ساخرة .

لقد أدرك (نيكلينندوف) انها تضمر له عداء . وان ثمة ما يرغمها على أن تتخذ لنفسها هذا الموقف ، ويحول بينه وبين الوصول الى قلبها . غير ان ذلك كان يزيده قرباً منها بدلاً من اقصائها عنها .

لقـــد أدرك أنه لا بد له من عملية تجديد لنفسيتها ، وان هذه عملية صعبة وشاقة . غير ان ذلك كان يضاعف في نفسه الرغبة في متابعتها حتى النهاية .

كان يشعر نحوها شعوراً ظل حتى ساعتئذ مجهولاً منه . الا أنه شعور مجرد من كل مظاهر الأنانية. لم يكن يطلب شيئاً لنفسه . ويكفيه ان تتنبه معنوياتها، وان تعود كما عرفها منذ عشرة اعوام الطفلة الوادعة .

– لماذا تقولين هذا القول (يا كاترين) ؟ أنا اعرفك تماماً أتتذكرين كيف كنت في (يانوفو) ؟

ولكنها ظلت مصرة على عنادها .

– ولماذا اعادة الماضي ؟ – قالت تسأله بنشافة وقد زوت ما بين عينيها .

– أنا استعيد ذكراه لرغبتي في اصلاح ما فات ، لأنني احبه يا (كاترين)...

كان قد بدأ حديثه اليها هكذا كي يصرح لها برغبته في الزواج منهـــا . ولكن النظرات تلاقت فتبين في عينيها معنى رهيباً قاسياً ووحشياً أوقفه عن الكلام .

وهنا كان الزوار قد بدأوا ينصرفون . فتقدم المدير من الأمير وأشار له أن موعد الزيارة قد انتهى . فهبت (ماسلوفا) واقفة ولبثت تنتظر بانكسار ان يودعها .

– الى اللقاء يا (كاترين) . لدي أشياء كثيرة أود التصريح لك بها . ولكن الوقت لم يسمح بذلك كاترين . – قال لها وهو يمد لها يده .

– أما أنا فأرى انك صرحت لي بكل شيء .

ومدت له يدها دون أن تصافح يده الممدودة لها .

– كلا. كلا . سأحاول أن أراك في مكان آخر لأتحدث اليك بحرية. وعندئذ سأبوح لك باشياء جد خطيرة .

– شأنك وما تريد. تعال اذا كانت هذه رغبتك. – قالت له ذلك وابتسمت ابتسامة شبيهة بتلك التي كانت تبتسمها لزوارها الذين كانت ترغب في اشباع شهواتهم .

– أحبك يا (كاترين) أكثر مما أحب اختي . – تلك آخر كلمة قالها لها .

– مـــا أعذب هذا الكلام . – رددت الفتاة ، ثم حنت رأسها وتوارت خلف الحاجز .

٤٤

كان الأمير (نيكليندوف) يحسب ان (كاترين) بعد ان يجتمع بهـــا ، وتتأكد من رغبته في اعادة اعتبارها ، ستعود تلك الطفلة الغريرة التي عرفها في أيامه الماضية . ولكنه لما ان تبين له ان (كاترين) قد توارت الى الأبد ، وان (ماسلوفا) قد حلت محلها أخذته الدهشة واستولى عليه الجزع . وكان مفاجأة مؤلمة له ، كونها لم تكن تكتفي بعـــدم الشكوى مما آل اليه حالها ، وترديها في تلك الحمأة البشعة ، وانما كان يبدو له انها كانت مسرورة به راضية عنه .

ولا يمكن ان يكون غير ذلك . فلكي يمارس المرء عملاً لا بد له من أن يكون مؤمناً بفائدته وأهميته .

يكاد الناس يجمعون على الاعتقاد بأن اللص ، والقاتل ، والزانية يخجلون من عملهـــم وسيرة حياتهم ، ولكن الواقع خلاف ذلك . فالذين دفع بهم سوء الطالع ، أو قادتهم أخطاؤهم الشخصية للسلوك مسلكاً شائناً يألفون مع الأيام ذلك المسلك، ويصبح من العسير اقناعهم بقبحه . ولكي يقنعوا أنفسهم بصواب ما يذهبون اليه يلازمون أوساطاً معينة تشاكلهم حيث لا ينظر الى عملهم الا بعين الاقرار والموافقة .

والمجتمع يقف مدهوشاً أمام مباهاة القتلة واللصوص بجرائمهم . ولكن هل كان ذلك لأن هؤلاء أقل عدداً نسبياً ، ولأن من يدين ينظر الى الأمور من وجهة نظر مختلفة تماماً ، عن وجهة نظر من يدان ؟ ولكن الا يحدث مثل ذلك بين

الأغنياء فيفاخر هؤلاء بثرواتهم التي هي حصيلة السرقة ؟ وبين القواد الكبار فيمجدون انتصاراتهم التي تكاد الا تختلف في جوهرها عن جريمة القتل ؟ وبين ذوي النفوذ الذين يرجع الفضل في نفوذهم للنفاق ؟ ... واذا كنا لا نعد فيما نراه من هؤلاء اعراض انحطاط فكري، فذلك دون شك لكون الأوساط التي تفكر هذا التفكير اكثر عدداً ، ولأننا نحن بعض أعضائها .

وكانت (ماسلوفا) قــد كونت لنفسها فكرة مماثلة عن حياتها الخاصة ، ووضعها الاجتماعي . وعلى الرغــم من كونها احدى بائعات الهوى الرخيص ، ومحكومة بالسجن ، فانها كانت تحسب ان في مقدورها تبرير سلوكها بناء على نظرياتها الخاصة ، فقد كانت ترى ان معظم الرجال من شيوخ وشباب علمــاء وجهــلاء ، متنفذين ومساكين انما يحيون لمجرد اشباع غرائزهم الجنسية الذي توفره لهم امرأة جذابة ، وفي سبيله يحشدون سائر جهودهم وقواهم حتى في حين يزعمون انهم يفكرون ويعملون لأشياء اخرى افضل وأسمى .

وهي امرأة جذابة وقوية ، وبوسعها ان تسلم نفسها للرجال او تمتنع عليهم ، واذن فهي مخلوقة مرغوب فيها وتطلب وتستعطف وتسترضي .

هذا ما أيده لها تاريخ حياتها الماضية وواقعها الراهن . فقد رأت خــلال الأعوام العشرة الأخيرة من حياتها ان سائر الرجال ابتداء من (نيكليندوف) نفسه حتى السجان كان كل يشتهيها لنفسه ، هذا بقطع النظر عمن عبروا بهــا دون ان تأبه لرغباتهم . ولهذا فقد كانت ترى ان سائر الرجال كانوا يتحينون الفرص لامتلاكها ، متوسلين لذلك بمختلف الوسائل من اغراء ، وعنف ، ومال، وبراعة .

تلك هي الصورة التي كانت (ماسلوفا) ترسمها في ذهنها لحياة الانسان ، وكانت راضية عنها اكثر من أي صورة اخرى . اذ ان أي تبدل في وجهــة نظرها كان معناه بالنسبة لها ، فقدان الشجاعة التي ينبثق عنها رأيها في الحياة . وخشية من أن تفقد تلك الشجاعة ستظل ملازمة للأوساط التي تفكر تفكيرها وترى رأيهــا . وها هي ذي حين عرض عليها الأميران بنقلها الى وسط آخر

يختلف عما ألفته أبت عليه وتمنعت مخافة ان تفقد اعتبارها لنفسها ولهذا السبب نفسه كانت تتناسى حتى ذكريات طفولتها الأولى وغرامها بالأمير لتباينها ووجهة نظرها الحالية . لقد القت هذه الذكريات في غيابة زاوية من ذاكرتها وختمت عليها كما تفعل النحلة بيرقاتها اذ تضعها في الخلايا وتحكم اغلاقها عليها كيلا تعيقها في عملها . لم يعد (نيكليندوف) في نظرها ذاك الفتى الذي أحبته يوماً من الأيام ، وانما أصبح ذلك السيد الثري الذي ينبغي استغلاله ، وابتزاز ماله كغيره من الرجال .

— لم اصرح لها بالغرض الأساسي من مواجهتي لها. لم أقل لها انني أود الزواج منها . ولكنني سأفعل ذلك على كل حال . — هكذا كان (نيكليندوف) يفكر في نفسه .

كان السجانون يقفون في باب السجن ليحصوا الخارجين منه فاذا ما خرج أحدهم ضربه السجان على ظهره . ولم ير (نيكليندوف) في ذلك ما يعتبر اهانة ، حتى انه لم يعره انتباهاً .

٤٥

لقد قرر الأمير (ديمتري ايفان) اجراء تغيير كامل على شكل حياته . كان يفكر في تأجير القصر الفخم الذي يسكنه ، والاقامة في أحد الفنادق الاقتصادية . ولكن قيمة منزله (اغربينا بتروفنا) أقنعته بانه لا يستطيع اجراء أي شيء قبل حلول فصل الشتاء لأن البيوت لا تؤجر قبل ذلك الوقت ، هذا بالاضافة الى انه من الواجب ايداع أثاث البيت والسكنى في مكان آخر .

وهكذا ظل كل شيء على حاله مؤقتاً . غير ان عملاً دائباً كان قد بدأ في المنزل منذ ذلك الحين اشتركت فيه (بيتروفنا) و (كوري) والطاهية العجوز وخادمان آخران . ذلك هو تنظيف الأثاث والطنافس المصنوعة من الصوف والفراء تنظيفاً تاماً ولفها في ملاءات من القماش بعد حشوها بمسحوق مبيد للحشرات .

كان (نيكليندوف) يقف مدهوشاً عندما يطل من النافذة فيشاهد تلك

المقتنيات المنزلية العديمة الجدوى والتي لا عمل لها سوى اشغال سواعد (اغربينا) و (كورني) وغيرهما من الخدم .

– سوف لن أغير شيئاً من شكل حياتي ما دام مصير (ماسلوفا) لم يتقرر بعد . – هكذا كان يفكر .

وذهب (نيكليندوف) لزيارة المحامي في اليوم الذي عينه له. كان (فينارين) يسكن بيتاً فخماً يملكه . وكان على المدرج اصص ازهار فخارية كبيرة ، وعلى النوافذ ستائر فخمة ، ويشاهد في كل مـــكان أثر الترف الخاص بأولئك الذين أثروا بسرعة ، والدال على أرباح أحرزت بجهود قليل .

كان المراجعون يجلسون في غرفة الاستقبال وقـــد أمضهم الضجر منتظراً كل دوره . وجاء أحـــد معاوني المحامي وكان يعرف الأمير فقال له أنه سيعلن قـــدومه للمحامي في الحال . ولكن الباب فتح عندئذ وأطل منه شاب ربع القامة يتبعه (فنارين) وعلى وجهيهما ذلك التعبير الذي يشاهد عند من عقـــد صفقة مشبوهة ولكنها مضمونة الأرباح .

– تلك خطيئتك يا حبيبي . – قال (فنارين) ضاحكاً .

– هأ ، هأ . ان الجنة شيء عظيم ... عند ما لا تحول الذنوب دون الوصول إليها .

– يبدو انك خبير .

– آه . سمو الأمير تفضل . – قال (فنارين) عندما رأى الأمير . ثم اقتاده الى داخل المكتب الفخم ، بعد أن ودع الزائر الاول .

– تفضل دخن . أرجوك . – قال ذلك ثم جلس على مقعد قبالته ، ومحاولاً اخفاء ابتسامة ارتياح للصفقة التي عقدها .

– شكراً ... جئت لأستعلم عن تلك الدعوى .

– حالاً ، حالاً . آه . ما أجهل هؤلاء التجار الأغنياء . – قال يخـــاطب نفسه – هذا الذي كان هنا منذ قليل يملك ما يزيد على اثني عشر مليون روبل . وحديثه أدنى من حديث قروي . وهو على استعداد لتسليم نفسه للجزار قبل أن تفلت من يده ورقة الخمسة وعشرين روبلاً .

– هـــو يتحدث أسوأ من قروي ، وأنت لا تلهج إلا بالمال . – قال (نيكليندوف) في نفسه ، وقد اشمئز من ذلك الرجل المنافق ، الذي يخالف كلامه الآن ما قاله للعميل منذ لحظة .

– لقد أتعبني . كم هو وضيع . وكم هو حقير . – قال بعدئذ بلهجة من يريد الاعتذار الى عميله لأنه لم يحدثه عن الموضوع الذي جاء من أجله . – لنتحدث عن الدعوى . كان محامي الدفاع ضعيفاً ولا يصلح لشيء . لقد أضاع كافة فرص التمييز .

– وعلى ماذا عولت ؟

– لحظة واحدة . – ثم أقبل على معاونه وقال له . – أخـــبره انني لن أتنازل أبداً. وقد أخبرته بذلك . اذا كان يستطيع وإلا فليصنع ما يحلو له .

– لا يرضى .

– حسن . فليتحمل التبعات – صـــاح المحامي ، واختفت أدلة المرح التي كانت بادية على وجهه ولبث فترة مفكراً .

– أنظر . – قال وقد حاول إظهار اللطف . – يقولون اننا معشر المحامين نربح كثيراً بجهد قليل . لقد أنقذت مديناً من دعوى باطلة ، والآن علي أن أتحمل النفقات ... فضلاً عن أن القضية كانت عسيرة التسوية ... هكذا إذن ان دعواكم لم تعالج كما كان ينبغي أن تعالج . لا توجد موجبات صالحة للتمييز ومع ذلك فبالوسع اجراء محاولة ، وقد أعددت هذا ثم فتح مخطوطاً وأقبـــل يتلوه مسرعاً مغفلاً الفقرات المألوفة ، ومركزاً على ما يراه حرياً بالتركيز عليه .

« في جلسة محكمة الجزاء ... الخ وبقرار تلي ... الخ وعلى أساس قرار مجلس المحلفين ... الخ . اعتبرت المدعوة (ماسلوفا) مسؤولة عن تسميم التاجر (سميلكوف) وبناء على المادة (١٤) و (١٥) الخ من قانون الجزاء حـــكم عليها بالأشغال الشاقة الخ ...

ثم توقف قليلاً ، كأنما كان يصغي بارتياح لقراءة ما كتبه ، على الرغم من أنه قد اعتاد مثل ذلك . ثم مضى يتلو بلهجة المقتنع :

« ان هذا القرار هو نتيجة حتمية لأخطاء ونواقص خطيرة في أصـــول المحاكمة ، ولذا نطلب إلغاءه . قبل كل شيء نقول ان تلاوة تقرير الخبير الطبي عن حالة احشاء المتوفي قد قوطعت من قبل الرئيس خلال رؤية الدعوى .

– هذا هو السبب الموجب الأول .

– ولكن إذا كان النائب العام هو الذي طلب تلاوته – قال (نيكلیندوف) مدهوشاً .

– هذا لا يهم . يمكن استغلاله للدفاع .

– لم تكن لازمة .

– حسن . ولكنها تصلح دائماً لئن تكون سبباً .

« ثانياً : لقد قاطع الرئيس محامي الدفاع عندما لمح لسقوطها المعنوي رغبة منه في زيادة الايضاح عن طباع المتهمة ، وطلب اليه التقيد في صلب الدعوى . في حين أن معرفة طباع المتهم معرفة صحيحة هي على جانب عظيم من الأهمية عند الإجابة كما ينبغي على الأسئلة .

– هذا هو الثاني .

وحملق (فنارين) في وجه (نيكلیندوف) .

– لقد كان محامي الدفاع يتكلم بصورة جد رديئة حتى ان أحداً لم يكن يصغي إليه . – قال الأمير وهو يزداد دهشة .

– لم يكن يستطيع أكثر من ذلك لغباوته . – أجاب المحامي وهو يضحك.

– ولكن هذا لا يمنع من استخدامه كسبب .

« ثالثاً : ان الرئيس ، خلافاً لما جاء في الفقرة الاولى من المادة (١٠١) من قانون الجزاء لم يأت ، في الخلاصـــة ، على ذكر العناصر القانونية التي تشترك في تكوين نظرية الادانة . كذلك لم يشر الى أن للمحلفين الحق في أن ينفوا عـــن (ماسلوفا) قصد القتل ، حتى بعد اعترافها بإلقاء السم في كأس (سميلكوف) فينفوا عنها جريمة القتل في أجوبتهم للمحكمة ، ويثبتوا عليها الوقوع في خطأ كانت نتيجته غير المتوقعة من المتهمة ، وفاة التاجر » . وهـــذا هو السبب الرئيسي .

– ولكن كان علينا نحن المحلفين ادراك خطئنا .

– ولنأت الآن على ذكر السبب الرابع . – قال المحامي متابعاً :

« إن جواب مجلس المحلفين على سؤال المحكمة حول مسؤولية (ماسلوفا) يشكل تناقضاً واضحاً . فالتهمة تقول ان (ماسلوفا) قد دست السم للتاجر (سميلكوف) بقصد سرقته . وعندما نفى مجلس المحلفين قصد السرقة عنها ، فقد أراد دون شك نفي قصد القتل عنها ، غير ان الخطأ كان في ملخص الرئيس غير الكامل ولهذا جاء الجواب على هذه الصورة . ويحتم الجواب شرح المادتين (٨٠٨) و (٨١٦) من قانون الجزاء ... الخ ... ويوجب على الرئيس إفهامها لمجلس المحلفين . وهنا تبدأ مناقشات جديدة ويتطلب الأمر جواباً جديداً على السؤال المتعلق بمسؤولية المتهمة .

– لماذا أذن لم يفعل ذلك الرئيس ؟

– كذلك أنا أرغب في البحث عنه . – قال (فنارين) وهو يضحك .

– إذن ستتدارك محكمة التمييز الخطأ ؟

– يتوقف ذلك على من يكون الرئيس . ولنمض مستعرضين أشياء أخرى ثم مضى متابعاً التلاوة .

« وقرار المحلفين هذا لا يخول المحكمة حق تطبيق المادة كذا الخ ... بحق (ماسلوفا) وتطبيق أحكام الفقرة الثالثة من المادة كذا الخ ... دون الوقوع في مخالفة قانونية خطيرة .

« لهذه الأسباب المذكورة مجتمعة أتشرف بتقديم الرجاء ... الخ بتمييز القرار عملاً بأحكام المادة الخ ... وإعادة الدعوى للنظر فيها مرة ثانية » .

– هذا منتهى ما يمكن فعله ، وهذا ما فعلناه . أما الآن فكل شيء يتوقف على الشخص الذي سيرأس المحكمة . إذا كان لديك نفوذ أو وساطة فابدأ باستخدامه حالاً .

– لدي بعضها .

– عجل باستخدامه ، لأن العطلة الصيفية ستبدأ قريباً وفي حال رد طلب التمييز فلن يبقى لدينا سوى التماس العفو من جلالة القيصر .

ـ شكراً ... وكم هو بدل الأتعاب ؟
ـ سيقدم لك المعاون نسخة عن أوراق التمييز ، ولائحة بالأتعاب .
ـ كنت أريد أن أسألك سؤالاً آخر . لقد استحصلت من النائب العام على إذن بزيارة السجينة في السجن . ولكنهم أخبروني أنه ينبغي الحصول على إذن من حاكم الولاية لزيارتها خارج أوقات الزيارة . فهل هذا صحيح ؟
ـ أجل هذا صحيح . ولكن الحاكم مجاز الآن ويقوم نائبه مقامه . ولكني أشك في أن هذا الأحمق سيوافق على ذلك .
ـ (ماسلينيكوف) ؟
ـ بعينه .
ـ أنا أعرفه . ـ قال ذلك واتجه نحو الباب .
وهنا دخلت المكتب زوجة المحامي متهافتة وبدون سابق انذار . كانت امرأة صغيرة الجسم ، قبيحة التكوين ترتدي ثياباً على طراز أولي (Original) تزيدها قبحاً . دخلت دخول الظافرين يتبعها رجل طويل القامة نحيل الجسم ترابي اللون لاصق الشعر بالصدغين والجبين .
ـ يا (انتوليو) . ـ قالت وهي تفتح الباب ـ أنا بانتظارك فعجل . لقد حضر (سيمون فرانوفيتش) وسيلقي بعض قصائده وينبغي عليك أن تتلو شيئاً (لغارسين) .
فحاول (نيكليندوف) ان يخرج من الغرفة غير أن السيدة اعترضت سبيله بعد أن تحدثت مع زوجها بصوت خافت وقالت له :
ـ أيها الأمير أنا أعرفك فلا حاجة للتعارف . أتوسل إليك أن تشرف حفلتنا الأدبية . ستكون رائعة لأن (أناتوليو) يجيد التلاوة .
ـ أرأيت ان لدي مهاماً أخرى ومن نوع آخر . ـ قال المحامي ذلك مبتسماً وأشار الى زوجته اشارة يفهم منها أنه من المستحيل مقاومة رغبات شخص له مثل تلك الفتنة والاغراء .
ولكن (نيكليندوف) ، الذي ظهر الكدر والتجهم على وجهه ، شكرها

بتأدب ودماثة للشرف الذي توليه له بهذه الدعوة ، واعتذر بأن لديه أشغالاً هامة .

– يا له من ثقيل . – قالت المرأة ذلك فور خروج الأمير .

عندما خرج الأمير الى قاعة الانتظار قدم له المعاون نسخة عن عريضة التميز ، ولما سأله الأمير عن أتعاب المحاماة أجابه ان (اناتوليو سيميوفيتش) لا يبدد جهوده في أعمال كهذه ، وانه قد قام بهذه الخدمة اكراماً للأمير فقط . ثم قدر الأتعاب بمبلغ ألف روبل .

– ومن ينبغي أن يوقع الطلب ؟ – سأله (نيكليندوف) .

– توقعه المتهمة . وإذا تعذر ذلك فسيوقعه (فنارين) .

– كلا . كلا . سأذهب الى السجن لأخذ توقيعها . – قال (نيكليندوف) مرتاحاً لذلك ، لأنه يهيء له وسيلة للتحدث الى (كاترين) من جديد قبل اليوم الموعود .

٤٦

ارتفع صوت صفارات الحرس في رواق السجن ، فارتفع على الأثر صوت صليل قيود المساجين ، في الساعة المعتادة من ذلك الصباح ، وفتحت أبواب الأجنحة ، وأخرجت الى الرواق الخوابي الخشبية التي كانت تنبعث منها روائح عفنة تتقزز لها النفس . وخف المساجين لارتداء ثيابهم وغسل وجوههم ، ثم خرجوا الى الأروقة حيث وزع عليهم الماء الساخن ليعدوا لأنفسهم الشاي . وكان حديث الساعة المتداول بين كافة المساجين عقاب (السورغا)[١] الذي يعدون عدته ليعاقبوا به بعض المساجين ذلك الصباح . وكان أحد هؤلاء المستخدم (فاسيليف) الذي قتل حبيبته في ساعة غيرة . كان شاباً متعلماً يحبه رفاقه في السجن كثيراً لخفة روحه وكرمه ، وللطلاقة التي يسير أموره بها مع الرؤساء . وكان مطلعاً على كثير من القوانين ، ويطالب باصرار بوجوب

---

١ – السورغا : شريط حديدي مقرون على بعضه .

تطبيقها بنصها وروحها . حدث منذ ثلاثة أسابيع أن أحد السجان قاصص سجيناً لأنه لوث طرف بزته الجديدة بالحساء عن غير قصد . فخف (فاسيليف) لنصرته مبيناً للسجان أنه ما من قانون يبيح له إساءة معاملة المساجين .

– سأعلمك القوانين . – قال له السجان ثم قذفه بما لا يحصى من الشتائم . فأجابه (فاسيليف) بمثلها . ولما رفع هذا يده فوقه ليضربه قبض على معصميه ودفع به الى الخارج . فقدم السجان تقريراً الى المدير واستحصل منه على أمر بوضعه في احدى زنزانات القصاص .

كانت هذه كناية عن غرف صغيرة باردة لا نور فيها وتغلق من الخارج بقفل كبير وليس فيهـــا كرسي أو سرير مما يضطر السجين ان يجلس أو يستلقي على الأرض القذرة ، متعرضاً لهجمات الفئران التي تكثر هناك والتي تبلغ بها الجرأة الى حد انتزاع رغيف الخبز من يد السجين ، وعضه عندما يكون نائماً .

وأعلن (فاسيليف) امتناعه عن الذهاب الى الزنزانة لأنه لم يرتكب جرماً. فحاول السجان جره بالقوة يساعده بعض رفاقه ولكنه أفلت من بين أيديهم . وهنا أسرع الجميع لمساعدة السجان بما فيهم (بطرس) المعروف بقوته ، فقضوا على كل مقاومة عنده ثم نظموا ضبطاً بالحادث ادعوا فيه انه يقوم بتدبير تمرد ، ولم يلبث أن صدر الأمر بجلد كل مذنب ثلاثين جلدة (بالسورغا) . وكان هؤلاء المذنبون (فاسيليف) والمتشرد (نيبومنياشي) .

كان يجب ان يجلدا في قاعة زيارات النساء وقد اعلن ذلك على المساجين الليلة الماضية فأثار نقاشاً حاداً .

كانت (كورابلوفا) ورفيقاتها الجميلة و (فيدوسيا) و (ماسلوفا) جالسات في احدى الزوايا محتقنات الوجوه منفعلات بفعل ما شربته من الخمر الذي كانت تجود به (ماسلوفا) على رفيقاتها بسخاء، وهن يشربن الشاي ويعلقن على العقوبة.

– لم يأت شيئاً سوى انه دافع عن أحد رفاقه. – كانت تقول (كورابلوفا).

– يقولون عنه انه جريء . – قالت (فيدوسيا) متدخلة .

– حسناً تصنعين اذا حدثته بذلك يا (كاترين) . – قالت حارسة الممر . وهي تعني (نيكليندوف) .

أجل سأحدثه بأمره . — قالت (ماسلوفا) وردت رأسها الى الوراء وهي تبتسم . سيفعل ذلك اكراماً لي .

— بلى . ولكن متى يأتي ؟ — قالت (فيدوسيا) ذلك ثم أطلقت زفرة .

— سيعاقبونه بعد قليل .

— لقـــد شهدت مرة معاقبة قروي بهذه الطريقة . لقد بعث بي حمي لعند (الاستاروستا) [1] وعندما وصلت الى . . .

ولكن القصة التي كانت تنذر بأن تكون لا نهاية لها ماتت على شفتي محدثتها اذ سمع وقع أقدام في المشى فصمت النسوة وأقبلن يصغين .

— لقد جاء به أولئك الشياطين. وسيجلدونه الآن بلا رحمة. انهم يكرهونه لأنه لا يتصاغر أمامهم . — قالت الجميلة .

وساد سكون لم يسمع خلاله أي صوت أو حركـــة في المشى وهكذا استطاعت حارسة الممران تكمل قصتها وان تعبر عن الرعب الذي شعرت به عندما رأتهم يعذبون ذلك القروي . وقصت الجميلة كيف تلقى (ايشكوف) ذلك القصاص دون ان تند عنه كلمة توجع . وهنا وضعت (فيدوسيا) ابريق الشاي في مكانه ، وانصرفت (كورابلوفا) وحارسة الممر الى عملها ، وذهبت (ماسلوفا) فجلست على حافة السرير متضجرة ووضعت يديها تحت ركبتيها وشبكت اصابعها بعضهـــا ببعض . وفيما هي تهم بأن تستلقي على السرير اذا بالسجانة تدخل عليها وتنبئها بأن زائراً ينتظرها في غرفة المدير .

— خاطبيه بشأننا — قالت لها (مانستشوفا) العجوز المتهمة باضرام النار، في حين كانت (ماسلوفا) تصلح غطاء رأسها أمام المرآة المكسورة — قولي اننا لم نضرم النار وانما الذي اضرمها هو ذلك القاتل . وان الخادم رآه . قولي له ان يستدعي (ديمتري) فهو يعرف كل شيء وسيطلعه على كل شيء. انه لظلم. لقد سجنونا نحن وظل هو طليقاً ينعم مع زوجة غيره .

---

[1] — لعلها تعني جابي .

– حقاً أنه لظلم . – قالت (كورابلوفا) .
– سأقول له ذلك فكن واثقات . – أجابت (ماسلوفا) ثم قالت (لكورابلوفا) . – يجب أن آخذ جرعة من الخمر ايقاظاً للجرأة .
فصبت لها هذه نصف كأس من الخمر جرعته دفعة واحدة . ثم نظفت شفتيها وسارت وراء السجانة وهي تردد قولها : إيقاظاً للجرأة .

٤٧

كانت قد مضت مدة من الزمن والأمير ينتظر في قاعة انتظار السجن . وعندما وصل وأبرز الاذن الذي بيده من النائب العام سأله الحارس المناوب قائلاً :
– عمن تبحث ؟
– أود مواجهة السجينة (ماسلوفا) .
– يستحيل ذلك الآن لأن المدير مشغول .
– أين ؟ أفي مكتبه ؟ – قال الأمير مستفسراً .
– كلا : انه في الادارة .
ولكن (نيكليندوف) لاحظ تردداً في جواب الحارس .
– هل توجد عطلة اليوم ؟
– كلا . هناك قضية داخلية .
– متى أستطيع مواجهته ؟
– بعد فترة قصيرة ، انتظر .
وفيما كانا يتحدثان دخل عريف أول ذو شاربين تنبعث منهما رائحة دخان التبغ ، والعرق يتصبب من جبينه . فالتفت الى السجان وصاح فيه بجفاء قائلاً .
– لماذا سمحت له بالدخول الى هنا ؟
– ظننت أن المدير موجود هنا . – قال الأمير متدخلاً وقد استغرب الاضطراب البادي على العريف .

وهنا فتح الباب ودخل (بطرس) مضطرباً والعرق يتصبب من جبينه .
– أظنه سيذكرها مدة طويلة. – قال متوجهاً بالكلام الى العريف .
فأشار له هذا بعينيه اشارة يلفت فيها نظره لوجود الأمير فسكت ثم زوى ما بين عينيه وخرج من الغرفة .
– ترى من ذاك الذي سيتذكر ؟ ... ولماذا هذا الاضطراب البادي عليهم اليوم ؟ ولماذا أشار العريف الي بعينيه ؟ – كان الأمير يفكر في نفسه .
فقال له العريف :
– لا يمكن بقاؤك هنا . تفضل الى مكتب المدير .
وفيما كان (نيكليندوف) يهم باللحاق به إذا بباب يفتح من ورائه ويدخل منه المدير أكثر اضطراباً من مرؤوسيه . كان ممتقع الوجه لاهثاً . ولكنه عندما رأى الأمير التفت الى أحد السجان وقال له .
– أحضر (ماسلوفا) يا (فيدوتوف) من الجنـــاح الخامس ثم دعا (نيكليندوف) للدخول .
ودخلا الى غرفة متوسطة الاتساع ، ذات نافذة واحدة حيث يوجد مكتب وبعض الكراسي . فجلس المدير .
– هنالك واجبات شاقة ومؤلمة . – قال وهو يخرج من جيبه لفافة تبغ ويصعد زفرة .
– يبدو انك مرهق بالعمل . – قال له الأمير .
– أنا جد مرهق من وظيفتي ، لأنها تحتم علي القيـــام بواجبات خطرة ومحزنة . يتمنى المرء التخفيف عن هؤلاء التعساء ولكن ذلك يضاعف ويلاتهم أحياناً . لا يزال بعيداً الوقت الذي أرى نفسي فيه حراً ... ان ثمة واجبات جد مؤلمة .
لم يستطع (نيكليندوف) التكهن بأسباب ذلك الغم . ولكنه أدركته الشفقة عليه لما رآه من فرط غمه .
– اعتقد ان القيام بأعباء هذه الواجبات قد يكون شاقاً . ولكن لماذا رضيت بهذا المنصب ؟

– لأنني رب عائلة وليس لدي مورد آخر .
– ولكن إذا كان يسبب لك الازعاج ...
– أحاول صنع الخـــير ما وسعته طاقتي . وأبذل قصاراي في تخفيف الآلام ... ان واحداً غيري في مكاني سيتصرف بصورة مختلفة ... تصور ان عندي هنا الفي سجين . ولك ان تتصور من أي فصيلة هم ... رباه .

ثم سرد قصة شجار وقع بين سجينين انتهى بجريمة قتل . وقطع حديثه دخول (ماسلوفا) يتبعها الحارس . وكان (نيكليندوف) قد لمحها على عتبة الباب قبل ان يتنبه المدير لوجودها . كان وجهها محتقناً . وكانت تسير وراء الحارس بخفة ونشاط وهي تبتسم . ولكنها عندما رأت المدير أجفلت إلا انها أخفت ما بها وأظهرت السكينة ومضت نحو الأمير .

– نهارك سعيد . – قالت له وهي تجر الكلمات ، بينما كانت تصافحه بشدة وحرارة .

– جئت أحمل اليك عريضة التمييز لتوقيعها لقـــد وضعها المحامي ، وهي بحاجة الآن لتوقيعك عليها . ثم بعدئذ رفعها لسان بطرسبرج . – قال ذلك وقد أدهشه منها ذلك اللقاء .

– ولم لا ؟ سأوقعها ... كل شيء ممكن في هذه الدنيا . – اجابتـــه وهي تبتسم .

فأخرج (نيكليندوف) من جيبه ورقة مطوية وتقدم من الطاولة .
– أنستطيع الكتابة هنا ؟ – قال يسأل المدير .
فالتفت هذا الى (كاترين) وقال لها :
– تقدمي واجلسي . تحسنين الكتابة ؟
– كنت في ما مضى أحسنها . – أجابته وهي تجلس ثم أصلحت ثوبها وأكمامها .

ثم أسرعت وتناولت القلم بيد صغيرة عصبية ، ولوت وجهها ناحية الأمير وهي تبتسم . فعين لها المكان الذي ينبغي ان توقع فيه . فغمست القلم بالحبر بعناية ثم هزته فوق المحبرة و كتبت اسمها .

– هل بقي ما يجب فعله ؟ – قالت تسأل وهي تنقـــل نظرها بين الأمير والمدير ، في حين كانت تضع القلم طوراً على المحبرة وأخرى على غطاء الطاولة .

– كنت أود أن أقول لك شيئاً آخر . – قال لها (نيكليندوف) وقد تناول منها القلم ووضعه في مكانه .

– تكلم إذن . – أجابته الفتاة : – وكأنما كان قد خطر لها خاطر أو أخذها نعاس فانقلبت جادة .

فخرج المدير عندئذ من غرفة المكتب . وجلس الحارس الذي رافقها بعيداً عنها قرب النافذة . فأصبحا منفردين .

٤٨

لقد دنت الساعة الحاسمة .

ما فتىء الأمير يؤنب نفسه لأنه لم يبد لها رغبته في الزواج منها عندما رآها المرة الأولى . كانت جالسة قبالته على مقربة من الطاولة . ولما كانت الغرفة كثيرة النور فقد أخذ يتفرس في ذلك الوجه الذي لم يره منذ سنوات . فراعته تجعدات عينيها وفمها ، والورم البادي حـــول عينيها فأخذته الشفقة عليها . فانحنى على الطاولة كيلا يسمع حديثهما الحارس الذي كان شبيهاً باليهود . ثم قال لها :

– إذا لم نحصل على شيء فسنتقدم بالتماس الى جلالة القيصر سنبذل جهدنا .

– ليت هذا كان قبل الآن ... لو أتيح لي محام قدير . – هتفت تقول .

– ولكن محامي كان من القيادة بحيث لم يكن لديه مـــا يقوله سوى تملقي .

– وأردفت هذه الكلمات بقهقهة صاخبة . – لو علمت انك ستتذكرني اذن لسارت الأمور جميعها بصورة مختلفة . اليوم يعتبرني جميع الناس لصة .

كان (نيكليندوف) يفكر في نفسه ويقول : لا بد أن اليوم قد جد لها أمر غريب . – وفيما كان يهم بأن يصرح لها بأفكاره إذا بها تعود الى الكلام .

– أريد أن أطلب اليك أمراً . يوجد هنا في هذا السجن عجوز طيبة ، يعجب الجميع لسجنها . كذلك يوجد مسجون آخر هو ولدها والاثنان متهمان

بإضرام النار في أحد البيوت مع انها بريئان . – قالت هذا وحولت وجهها شطره وصوبت نظراتها اليه . – لقد توسلت إلي أن أرفع لـــك أمرها وأمر ولدها كي تتوسط لها . ويدعى (مانسشوفا) ... أتعرفه ؟ هي عجوز طيبة وجد طيبة حتى ليكفي مجرد النظر اليهـــا للتحقق من براءتها . اهتم لذلك يا حبيبي ... – ثم أطرقت بنظرها الى الارض وهي تتبسم .

– حسن . حسن . سأرى ذلك . – قال (نيكليندوف) وهـــو يزداد دهشة لجرأتها . – أود الآن ان أتحدث اليك بأمر هام جداً أتتذكرين حديثي آخر مرة ؟

– يا للشيطان ... لقد تحدثت كثـــيراً آخر مرة ... ماذا قلت لي ؟

– أجابته وهي لا تزال تضحك في حين كانت تهز رأسها وتتلفت يميناً وشمالاً .

– قلت انني جئت أطلب سماحك .

– ولماذا تلح بطلب السماح ؟ ... السماح ... السماح ... كل هذه أشياء لا طائل تحتها ... الأفضل ...

– أريد أن أقول انني أود التكفير عن خطيئتي . – قال مكملا حديثه .

– ليس بالكلام فحسب وانما بالفعال أيضاً . لقد صممت على الزواج منك .

فعلت ملامح وجه (ماسلوفا) موجة من الرعب لا توصف . وكانت تحدق فيه بنظرها ، وكأنها لا تراه .

– وما الداعي لهذا ؟ – قالت بحنق مكبوت وقد زوت ما بين عينيها .

– أعلم أن ذلك واجب علي ، وأقسم عليه أمام الله .

– أي شيطان يتحدث عن الله الآن ... انه لا يتحدث عـــن شيء في أوانه ... الله ... ومن هو الله ؟ ... كان ينبغي أن تفكر فيه قبل الآن .

– أجابت وقد فغرت فاها .

وعندئذ أدرك (نيكليندوف) سر انفعالها الغريب لأن رائحة الخمر قد ملأت أنفه . فقال لها :

– هدئي روعك .

– آه . تطلب إلي أن أهدأ روعي . أحسبك تظنني سكرى ؟ بـلى أنا سكرى . ولكني أدرك ما أقول . – ثم أخذت تتحدث بتهافت شديد في حين كانت حمرة الخجل تعلو وجهها . – أنا امرأة سجينة ، وأنت سيد غني وأمير ، وينبغي ألا تدنس نفسك بالاقتراب مني ... اذهب مع أميراتك .

– مهما بلغت قسوتك علي ، فانها لن توازي ما ألاقيه من تبكيت الضمير .

– قال (نيكليندوف) مغمغماً وهو يرتعش – ليس بوسعك أن تتصوري مدى شعوري بالخطأ تجاهك .

– شعوري بالخطأ . – قالت تقلد كلماته بحدة . – ولكنك لم تشعر بخطئك وألقيت بوجهي مئة روبل إليكها فخذها . انها ثمن حبك .

– لقد كنت حقيراً وقاسياً . – كان يردد قوله – ولكني الآن صممت على ألا أفارقك ، وسأحافظ على وعدي .

– يبدو من كلامك انك لن تبر بوعدك . – أجابت وهي تقهقه ضاحكة .

– يا (كاترين) .

– ابتعد عني . دعني . أنا طعمة السجون . وأنت أمير ومكانك ليس هنا .

– صرخت بوجهه بحدة وسحبت يدها من يده .

ولما كانت قد تحركت في نفسها عاصفة من الكراهية له ، شرعت تقذفه بما يعني لها من الكلام .

– لقد جعلت مني وسيلة للذتك في هذه الحياة . والآن تريد أن تتخذ مني منقذاً لنفسك في الدار الأخرى ... انك لبغيض الي بنظاراتك وخطمـك الضخم القذر ... أغرب عني أقول لك ... أغرب ... أغرب ...

وهبت واقفة بحركة عصبية .

– اصغي . ما هذه الضجة التي تقيمينها ؟ من الذي سمح لك ؟ – قال لهـا الحارس وقد خف إليها عندما سمع صراخها .

– أرجوك أن تدعها . – قال (نيكليندوف) .

– لا يجوز للسجينة بحال من الأحوال ... – قال ولم يكمل .

– أرجو أن تتريث قليلاً . – قال الأمير ملحاً .

فعاد الحارس الى مـــكانه قرب النافذة ، وجلست (ماسلوفا) مرة أخرى وأطرقت بنظرها الى الأرض ، مشبكة أصابعها الصغيرة .

وكان (نيكليندوف) واقفاً أمامها ولا يدري بماذا يخاطبها .

– ألا تصدقينني إذن ؟

– أصدق انك ستتزوجني ؟ هذا لن يكون أبداً . سأقتل نفسي قبل ذلك. فتأكد .

– وعلى الرغم من ذلك أرغب في أن أكون مفيداً لك .

– هذا مجرد كلام . أقول لك جادة لا حاجة لي لخدماتك ... أواه ، لماذا لم أمت تلك الليلة . – هتفت تقول ثم انفجرت تبكي بكاء مراً يبعث الشفقة .

كان قد أصبح الكلام متعذراً على (نيكليندوف) ، وعندما رأى دموعها تنهمر بغزارة غلبته دموعه فبكى .

وران الصمت عليها برهة . وإذ رأت (ماسلوفا) دموع الأمير تبلل خديه أخذتها الدهشة وأقبلت تمسح دموعها بمنديلها . فتقدم الحارس منهما وأعلن لهما أن المقابلة قد طالت .

– لقد غلبها الانفعال . – قال الأمير للحارس ، في حين كانت تقف . ثم قال لها . – سأحضر غداً اذا تهيأ لي ذلك ، وعلى كل حال فكري فيما قلته لك .

فلم تجبه ، وإنما تبعت الحارس حتى دون أن تلتفت إليه .

– صحيح يا عزيزتي . لقد اصطدت صيداً حسناً . – قالت لها (كورابلوفا) عند عودتها الى السجن . – يبدو أنه مغرم بك حقاً . فاغتنمي هذه الفرصة لأن بوسعه انقاذك فالأغنياء يستطيعون كل شيء .

– هذا صحيح. – قالت حارسة الممر . – لا بد للشيطان الفقير من التفكير مراراً قبل الاقدام على الزواج . أما الغني فيأتي ذلك على الفور .

– هل حدثته عني ؟ – قالت (ماتسشوفا) تسألها .

ولكن (ماسلوفا) لم تحر جواباً ، ولم تعر أذناً صاغية لأسئـــلة رفيقاتها

وحديثهن ، بل كانت ، وهي مستلقية على السرير ، تحدق بنظرات شاردة باتجاه زاوية مظلمة من زوايا السجن ، بينما كانت روحها تتمخض عن تحول اليم ...

لقد أعادت كلمات (نيكليندوف) الى ذاكرتها ذكرى ذلك المجتمع الذي ذاقت ويلاته ، والذي صبت عليه فيضاً من اللعنات عندما فرت منه . وأصبح يتعذر عليها الآن استعادة ذلك النسيان الذي ما زالت تخفي في طياته ذكرياتها . كما أصبحت ترى الحياة شاقة عليها في غمرة ذكريات ذلك الماضي ...

وأخيراً سكن انفعالها قليلاً ، عند حلول الظلام ، فطلبت المزيد من الخمر ، وأقبلت تعب منه هي ورفيقاتها حتى ثملن .

٤٩

كل شيء في هذه الحياة يأتي على نمط واحد . — كان الأمير يفكر في نفسه عند مغادرته السجن .

وتجلت له مسؤوليته بالنسبة (لكاترين) بصورة واضحة جلية .

ولو لم يحاول التكفير عنها ، إذن لما استطاع إدراك مـــداها ، وحتى (ماسلوفا) نفسها ما كانت لتدرك مبلغ الأذى الذي ألحقه بها .

وقد بات يعرف الآن مقدار ما أوقعه بتلك المنكودة الحظ من فادح الضر والأذى ، الذي يرى أنها هي قد أصبحت عالمة به أيضاً . لقد تبـــين له أنه ، حتى ذلك الوقت ، ما انفك يتلاعب بشعورها ، فأرعبه ذلـــك ... ولكن . أيدعها وشأنها ؟ انه يرى ذلك مستحيلاً عليه . ومع هذا فقد كان لا يدري على وجه التحقيق أي نوع من العلاقات سيقيمه معها في المستقبل لتصبح الصـــلات بينهما أقل إيلاماً لكليهما .

وفيما كان يغادر السجن تقدم منه سجان تزين صدره الأوسمة ، ويتجـــلى الرياء في وجهه ، وقدم له رسالة بصورة سرية قائلاً له :

— لدي رسالة لسموكم .

— ممن هي ؟

— إقرأها أولاً وعندئذ تعلم ممن هي . انها من مجرمة سياسية وأنا حارس في

احدى القلاع ... لقد توسلت إلي ... وعلى الرغم من كون ذلك محظوراً علينا فقد رأيت أن أصغي لتوسلاتها ، فدهش (نيكليندوف) وعجب بنقل حارس مولج بالمحافظة على المساجين السياسيين ومراقبتهم رسالة منهم ويسلمها على مرأى من الناس . لقد كان دون شك يجهل أن ذاك الرجل كان يقوم في السجن بمهمة جاسوس بالاضافة الى وظيفته كحارس .

كانت الرسالة مكتوبة بيد ثابتة . وهذا ملخصها :

« لما كنت قد علمت انك قد جئت الى السجن يحدوك العطف على شخص معين ، فاني أرغب في أن أراك . فاطلب مواجهتي فسأطلعك على أشياء هامة عن محميتك وعن السجناء السياسيين .

« المعترفة بفضل سموك (فيرا بوغودوتشوفسكاجا) » .

— من هي هذه يا ترى ؟ — ظل (نيكليندوف) مدة طويلة يتساءل وهو ما زال متأثراً من مقابلته (لماسلوفا) .

كان يبدو انه لا يعرف صاحبة هذا الاسم .

كانت هذه ابنة كاهن . وقد التقى بها (نيكليندوف) في احدى رحلاته لصيد الدببة حيث توقف ورفاقه التماساً للراحة في قرية من ريف محافظة (نوفجورود) كانت هذه تعمل فيها كمدرسة . فالتمست منه تلك المعلمة المسكينة أن يعينها بقليل من المال لتواصل دراستها في الجامعة . فقبل الأمير التماسها ولبى طلبها وقدم لها ما تحتاج اليه . ثم احتوى النسيان في طياته ما أسداه من جميل ومن اسدي إليها . وهي الآن ، اذ علمت بمجيئه الى السجن الذي كانت فيه كمعتقلة سياسية ، يبدو أنها ترغب في أن تقدم له ما تقوى عليه من خدمات .

وتذكر (نيكليندوف) بسرور ذلك الزمن الذي تعرف فيه على تلك المخلوقة .

كان ذلك في بعض أعياد المرافع ، وفي قرية جد صغيرة متخفية بين الغابات حيث كان الصيد وافراً . وكان الصيادون قد عادوا من رحلتهم محملين بصيدهم .

وجلسوا يتناولون طعامهم فدخل صاحب الفندق عليهم وأعلن ان هناك ابنة أحد الكهنة ترغب في التحدث الى الأمير (نيكليندوف) .

– هل هي جميلة ؟ – قال واحد منهم .

– أسكت يا رجل . – قال (نيكليندوف) ثم غادر المائدة متعجباً من رغبة ابنة أحد الكهنة في التحدث اليه . وفي غرفة ثانية وجد فتاة دميمة ، ولكنها جميلة العينين ، ترتدي ثياباً حقيرة .

– هذا هو الأمير يا (فيرا افراموفنا) . – قال لها صاحب الفندق . تستطيعين التحدث اليه ، وها أنا ذاهب .

– أي خدمة استطيع تقديمها لك ؟ – سألها (نيكليندوف) .

– انني ... انني ... انظر يا صاحب السمو . أنت غني تبدد مالك في الصيد وفي سبيل مسراتك . – أجابته الفتاة مرتبكة . – بينما أنا أرغب في أن أكون نافعة لبني الانسان ولكن يستحيل ذلك علي لافتقاري للعلم .

– وماذا يمكنني عمله ...

– أنا معلمة وأرغب في الالتحاق بالجامعة ، ولكن لا يسمح لي ... كلا . هو انه ... ليس لدي المال اللازم ... هذا ما التمسه من سموكم ... فكن جواداً ... سأنهي دروسي وسأعيده لك .

كنت وما زلت اتوسم خيراً بأولائك الأغنياء الذين يضرون بالناس ويسكرون القرويين عندما يأتون لصيد الدببة ، وإنهم قد يأتون أعمالاً خيرية ... ان ثمانين روبلاً تكفيني .

ولما رأت (نيكليندوف) يحدق فيها بنظرات فاحصة رزينة ظنت انه قد يرفض طلبها أضافت تقول بحدة :

– ولكن ... وإذا كنت لا تريد اعطائي هذا المبلغ ، فاني شاكرة لك على كل حال .

– الأمر بالعكس . فانه لمن دواعي سروري أن تهيأت لي هذه المناسبة ...

وأيقنت الفتاة ان الأمير مانحها ما طلبت فاحمر وجهها خجلاً ولبثت صامتة .

– إذا رأيت أن تنتظريني برهة قصيرة فسأعـــود حالاً . – قال لها (نيكليندوف) .

ولما خرج من الغرفة رأى ان أحد رفاقه كان يتلصص عليـــه من شقوق الباب . ثم مضى يطلب المبلغ الذي طلبته دون أن يعير تعليقات رفاقه ومزاحهم أذناً صاغية . وعندما قدم لها المال قال لها :

– اليك ما طلبته . ولكني أطلب اليك ألا تفوهي بكلمة شكر واحدة فأنا الذي ينبغي عليه أن يؤدي واجب الشكر .

وحينما عاد الى المائدة كاد أن يشتبك مع أحد رفاقه الضباط في عراك لمزاحه معه حول الفتاة .

وأحس (نيكليندوف) بارتياح نفسي عندمـــا تذكر تلك الأمسية . وعاودته روعة تلك الرحلة وبهجة العودة منها .

لقد تذكر ما كان يساور نفسه من بهجة وارتياح ، وما يغمر كيانه من اطمئنان عندما كانت رئتاه تستنشقان الهواء الثلجي ، والثلج يكوي وجهه عند سقوطه عن الأشجار . وحين كان سائر كيانـــه مغموراً في شبه غيبوبة لذيذة . أيام لم يكن يثقل ضميره ندم أو ازعاج ، خوف أو رغبات .

– كم كنت سعيداً آنذاك ! – كان يقول في سره . – وكم أنا تعيس الآن ! كنت يومئذ أرى كل شيء هيناً مفرحاً . أما الآن فأرى كل شيء شاقاً ومحزناً .

لقد أصبحت (فيرا افراموفنا) ثورية دون شك ، ولذا اعتقلت لآرائهـــا السياسية . فقرر (نيكليندوف) العمل على مواجهتها اذ قد تقدم له بعض ما يفيده في التخفيف عن (ماسلوفا) .

وهكذا انصرف الى منزله ، مفكراً في الماضي الحي المليء بـــنزق الشباب ومسراته ، وفي الحاضر الكئيب المحزن .

٥٠

عندما استفاق (نيكليندوف) من نومه في اليوم التالي تذكر كل مـــا مر به بالأمس فجزع له . ولكن التردد لم يجد سبيلاً الى نفسه في مواصلة ما وطد العزم

عليه من انتشالها من الهوة التي تردت فيها . فخرج من منزله قاصداً منزل (ماسلينيكوف) ، يحفزه هذا العزم ، لكي يلتمس اذناً له بزيارة العجوز (مانستشوفا) و (بوغودوشوفسكاجا) التي قد تكون ذات فائدة لمصلحة (ماسلوفا) .

كان الأمير يعرف (ماسلينكوف) منذ عيّن أمين صندوق للغرفة . وكان آنئذ ضابطاً طيباً وخدوماً . غير أن (نيكليندوف) حسب أنه قد تغير بعد ان تزوج من امرأة ثرية محبة للسلطة ففرضت عليه الاستقالة من الجيش والبحث عن وظيفة مدنية . وكانت زوجته تهزأ به وتدلله وتعني به كما يعنى بحيوان أليف جميل .

كان (نيكليندوف) قد زاره مرة واحدة ، ولكنه لما لم يجد في ذلك البيت ما يستحق الاهتمام اقلع عن زياراته له من جديد .

وعندما عاد (ماسلينيكوف) فرأى الأمير اشرق وجهه سروراً . كان لا يزال له لون وجهه الوردي ، ومظهره الرائع . كان فيما مضى يرتدي بزة عسكرية تظهره مظهراً رائعاً . واليوم يلبس بدلة مدنية تبرز تقاطيع جسمه الحسن التكوين .

كان فارق السن بينهما كبيراً ، ومع ذلك فقد كانا يتحدثان بحرية ووحدة حال .

– شكراً لك على هذه الزيارة. – قال له. – تعال معي للسلام على زوجتي. لا يزال أمامنا عشر دقائق لبدء الجلسة . لقد سافر الحاكم ، والآن أنوب عنه في الحكم . – قال ذلك بسرور لم يقوَ على اخفائه .

– جئت أطلب اليك خدمة .

– ما عساها تكون هذه الخدمة ؟ – قال (ماسلينيكوف) يسأل بقلق وقسوة وهو يترقب .

– يوجد في السجن امرأة اهتم لها . – فازداد وجه الحاكم امتقاعاً – وأتمنى أن أتحدث اليها خارج غرفة الزيارات . وقد أخبروني ان أمر ذلك راجع اليك.

– اني مستعد لخدمتك يا صديقي الحبيب . وسأخدمك . غير اني لست مَلِكاً إلا لفترة قصيرة .

– أتعدني باعطاء الاذن ؟

– أجل . ومن هي هذه المرأة ؟ وبماذا تتهم ؟

– هي متهمة بجريمة سرقة وتسميم إلا انها بريئة .

– هكذا هي المحاكم . – قال له : – أنا أعلم أنـــك تخالفني في الرأي ، ولكن رأيي يرتكز على أسس قوية . أما أنت فتحرري .

كان منذ عام تقريباً قد تبنى رأياً اقتبسه عن احدى الصحف المحافظة الرجعية .

– لا أدري إذا كنت كذلك أم لا . – أجابـــه (نيكليندوف) :

– ولكني أؤكد لك ان محاكم اليوم ، صالحة كانت أم طالحة ، هي خير من محاكم الأمس .

– أي محام اخترت لها ؟

– لقد اخترت لها (فنارين) .

– آه . (فنارين) . – قال (ماسلينيكوف) وقد لمز بفمه .

كان قد تذكر ان (فنارين) قد عذبه ذات مرة وكان قد حضر كشاهد في بعض الدعاوي وظل يسخر منه ويهزأ به ويحرجه بالاسئلة طوال نصف ساعة .

– لا أحبذ اختيارك . أن (فنارين) شبيه بالمجانين .

– كذلك أود أن أطلب اليك خدمة أخرى . – قال (نيكليندوف) مغفلاً اجابته على كلامه . – يوجد في السجن معلمة فقيرة منكودة الطالع أود أن أراها . أتستطيع اعطائي اذناً بزيارتها ؟

فأطرق (ماسلينيكوف) برأسه يفكر ملياً . ثم قال :

– أظنها متهمة بجرم سياسي .

– بلى . هكذا قيل لي .

– لا يمكن السماح بزيارة هؤلاء إلا لذويهم . سأعطيك اذناً عاماً بزيارة

السجن ... وأظنك لن تسيء استعمال هذه الثقة . ما اسم محميتك هذه ؟ ... (بوغودوتشوفسكاجا) ؟ ... هل هي جميلة ؟

– انها مرعبة .

فهز (ماسلينيكوف) رأسه دلالة الموافقة وتقدم من الطاولة ثم كتب : « أجيز للأمير (ديمتري إيفان نيكليندوف) مواجهة السجينة (ماسلوفا) والطبيبة المتمرنة (بوغودوتشوفسكاجا) في مكتب مدير السجن » . ثم وقعه بتوقيعه .

– ستشاهد النظام الذي يسود ذلك المكان ، علماً بأن هؤلاء سيذهبون قريباً الى سيبيريا . وقد احتطت لهم وأوليتهم عنايتي ، لأن تلك المهمة مما يتفق ومواهبي . لقد كادت تقع محاولة تمرد عندنا ، ولو كان غيري في مكاني لأبلغ نبأها للمسؤولين، ولساء بسبب ذلك وضع أولئك التعساء. أتدري ماذا قررنا ؟ لقد قررنا جلد سجينين . فانتهى كل شيء . صحيح انه ينبغي العطف عليهم . ولكن كذلك ينبغي اتخاذ الحزم عندما يستدعي الأمر ذلك .

– لقد زرت السجن مرتين . فخرجت متألماً في كلتيهما .

– صحيح ؟ كان ينبغي عليك أن توثق صلاتك بالكونتيس (باسيك) ما دمت تهتم لحال المساجين . انها امرأة منقطعة النظير محسانة . لقد اعتنها ما وسعني ذلك . وأؤكد لك أن نظام السجون قد تحسن كثيراً . فاليوم لا تشاهد فظائع الأمس . فيما يختص (بفنارين) أؤكد لك انه شخص سيء على الرغم من عدم معرفتي له . في الجلسات يسأل سؤالات ... وأي سؤالات هي ...

– شكراً لك . – قال (نيكليندوف) وقد تناول من يده الاذن بزيارة السجينات اللاتي يهتم لهن .

– كيف ألا تذهب معي لزيارة زوجتي ؟

– كلا . أرجو أن تعفيني وتسامحني ، فليس لدي وقت .

– انها سوف لن تغتفر لي ذلك إذا قلت لها انك جئت الى هنا وذهبت دون أن تزورها .

ثم سار يرافق الأمير الى عتبة الباب الداخلي وهو يقول له أتوسل اليك ان تأتي لزيارتها فترة قصيرة .

ولكن (نيكلينندوف) لم يتأثر بتوسلاته فاعتذر بضيق وقته بينما كان الخادم يحضر له المعطف والعصى ويفتح له الباب .

— إذن فالى نهار الخميس استودعك الله . — صاح يقول : — هذا هو اليوم الذي نستقبل فيه الزوار . — سأخبرها بأنك سوف تحضر .

٥١

ذهب الأمير من منزل (ماسلينيكوف) قاصد السجن حيث سأل عن المدير . فأطلت الخادمة التي رآها في المرة الأولى ، وسمع العزف ولكنه كان من منوعات (كلمنتي) فأدخل الأمير الى غرفة قليلة النظافة في وسطها طاولة عليها قنديل فوقه اطار قد احترق جانبه . وما لبث ان جاء المدير بوجهه المتعب الكئيب .

— تفضل اجلس . ماذا تريد أيها الأمير ؟ — قال يسأله وهو يكمل زر بزته .

— لقد أجاز لي نائب الحاكم زيارة السجن . وهذا ترخيص عام . واحب أن أواجه (ماسلوفا) .

— (ماركوفا) ؟ — قال له المدير مقاطعاً لأنــــه لم يتبين الكلام بسبب ضجيج البيانو :

— كلا . هي (ماسلوفا) .

— حسن . هي (ماسلوفا)

فقام المدير من مكانه وفتح الباب نصفه حيث كان مصدر انغام (كلمنتي) وقال متذمراً كالشاكي من هذه الانغام .

— صغيرتي . توقفي عن العزف بعض الوقت . لسنا نستطيع التحدث .

فتوقفت الأنغام . وسمع وقع أقدام قادمة مسرعة . وأطل شخص من

الباب . فتظاهر المدير بارتياحه لتوقف العزف وأخرج لفافة تبغ وأشعلها وقدمها للأمير الذي اعتذر عن قبولها .

– ليس بوسعك أن ترى (ماسلوفا) هذا النهار لسوء الحظ .

– ولماذا ؟

– أنت المسؤول يا صاحب السمو . – أجاب المدير وهو يبتسم ابتسامة خفيفة . – لقد منحتها أمس بعض المال فاشترت خمراً شربته فسكرت وتشاجرت مع سائر رفيقاتها .

– ولكن .

– فاضطررنا الى اتخاذ اجراءات صارمة بحقها . كلهن سواء . انها رزيلة من العسير استئصال شأفتها . أرجو أن لا تعطها مالاً بعد الآن .

فتذكر الأمير موقفها معه بالأمس فأخذه الجزع .

– والمرأة (بوغودوتشوفسكاجا) الموقوفة بجرم سياسي أأستطيع مواجهتها ؟

– لا مانع من ذلك . وأنت ماذا تريدين ؟ – قال يسأل طفلة في الخامسة أو السادسة من عمرها كانت قادمة نحوه وعيناها لا تفارقان (نيكليندوف) .

– إذن أنا ذاهب لأراها . – أجاب الأمير .

– هيا بنا نذهب معاً .

ونحى الطفلة جانباً برفق وحنو ثم وقف وخرج الى الرواق فلم يبلغه حتى عادت أنغام (كليمنتي) الى سابق سيرتها .

– انها فتاة موهوبة . – قال المدير مؤكداً . – انها تدرس الآن في (الكونسرفاتوار) وتستعد للامتحان .

عندما بلغا السجن فتح الحراس الباب مؤدين التحية . كان أربعة من المساجين يحملون خابئة من الخشب ، فلما رأوا القادمين افسحوا لهما الطريق ، ونظر أحدهم اليهما نظرة رهيبة .

– ما اسم الموقوفة التي تود رؤيتها ؟ – قال المدير يسأله :

ـ أسمها (بوغودوتشوفسكاجا) .
ـ هي في القلعة . ولا بد من الانتظار بعض الوقت .
ـ هل استطيع أن أرى خلال هذه المدة الأم (ماتستشوفا) وابنها المتهمين بإضرام النار قصداً ؟
ـ الموجودان في الرقم (٢١) بلى ، نستطيع رؤيتها .
ـ أرغب أن أراهما في زنزانتيها .
ـ حسن . ولكنك تكون أكثر راحة في غرفة الزيارات .
ـ أفضل رؤيتها في الزنزانات .
ـ حسن . حسن . لقد اخترت مهمة صالحة .
وهنا دخل عليها نائب المدير وهو ضابط أنيق ، فقال له المدير :
ـ رافق الأمير الى الزنزانة رقم (٢١) حيث يوجد الفتى (ماتستشوفا) ثم عد به الى المكتب . وسأطلب ... ما هو اسمها ؟
ـ اسمها (فيرا بوغودوتشوفسكاجا) .
كان نائب المدير شاباً أشقر اللون ، تفوح منه رائحة ماء الكولونيا ، وقد غمر شاربيه بالدهن فقال (لنيكليندوف) .
ـ معذرة . أيهمك أمر مؤسستنا ؟
ـ أجل . يهمني أمر هذا الرجل الذي قيل لي عنه انه بريء .
فهز الضابط كتفيه . وقال :
ـ قد يكون ذلك ممكناً . ولن ينعدم حادث من هذا النوع . ولكن هذه البراءة المزعومة قد تكون أكثر الاحيان مجرد كذب واختلاق .
كانت السجون مفتوحـــة أبوابها . وكان الكثير من ضيوفها في الأروقة . فمضى النائب ومرافقه في طريقها . وكان النائب يرد على تحية السجانين بإيماءة خفيفة من رأسه ، بينما كان لا يأبه للمساجين الذين كانوا يسارعون لتحيته ثم يفسحون له الطريق فيقفون بجانب الحائط . وبلغا رواقاً آخر مغلقاً بباب حديدي وكان أكثر عفونة وظلاماً من سابقه . كان على الجانبين أبواب مغلقة

بأقفال ضخمة وفي وسط كل باب ثقب صغير مربع الشكل طوله سنتيمتران في في مثلها عرضاً .

– أين هو (ماتستشوفا) ؟ – قال الضابط يسأل سجاناً متغضن الوجه حزين السمات .

– في القسم الثامن على اليسار .

– هل كل الزنزانات مشغولة ؟ – سأله (نيكليندوف) .

– أجل أن جميعها مشغولة ما عدا واحدة .

٥٢

– أتسمح لي بأن أنظر من الثقب ؟ – سأل الأمير .

– نعم . نعم . – أجاب الضابط بتأدب .

فأدنى (نيكليندوف) عينه من ثقب الباب فشاهد شاباً أشقر اللون طويل القامة ، يرتدي قميصاً قصير الأكام يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً . وعندما أحس بحركة عند الباب وقف برهة وتطلع ناحية الباب وقد زوى ما بين عينيه ثم تابع مسيرته . وعند الباب الثاني التقت نظرات الأمير بنظرات رجل كان يتأمله مرعوباً ، فابتعد عنه الى الثالث حيث شاهد رجلاً مستلقياً على الأرض ويغطي رأسه بثوبه . ورأى في مكان آخر رجلاً طويل القامة نحيل الجسم يجلس على الأرض وذقنه على صدره ويداه على ركبتيه . وعندما سمع وقع الاقدام تلفت باتجاه الباب بلا مبالاة كمن لا يهمه الأمر ، وكمن يعتقد ان ما من شيء يفيد في التخفيف عنه . وكانت نظراته تنم عن ألم شديد أثار عاطفة الاشفاق في نفس (نيكلينيدوف) عليه ، فأسرع هذا يلتمس الباب ذا الرقم (٢١) الذي فتحه الحارس بناء على اشارة الضابط .

كان على مقربة من السرير شاب نحيل الجسم ، مستدير العينين تنم نظراته عن طيبة . وكان ينظر الى الزائرين برعب وهو يرتدي سترته . وأكثر ما استرعى انتباه (نيكلينيدوف) تانك العينان المستديرتان الطيبتان اللتان كانتا تنتقلان برعب بين الضابط و (نيكلينيدوف) .

– هذا السيد يرغب في الاطلاع على القضية المتهم فيها أنت .
– صحيح ؟ شكراً .
– لقد بلغتني من سواك . – قال (نيكلينيدوف) وهو يدخل الزنزانة ثم وقف بجانب النافذة القذرة ذات الحاجز الحديدي . – ولكني أرغب في أن تقصها أنت بكاملها علي .

فاقترب (ماتستشوفا) من النافذة أيضاً ، وابتـــدأ يقصها عليه ، وهو يسارق الضابط النظر اليه . كان صوته حيياً عندما بدأ يتحدث ، إلا انه أخذ يزداد شيئاً فشيئاً قوة وثباتاً . وعندما خرج نائب المدير لإلقاء بعض التعليمات على السجانين ازداد جرأة فكان واضحاً وصريحاً .

وهزت كلماته وحركاته مشاعر الأمير وأثر في نفسه مرأى شاب قروي طيب وبسيط يقف أمامه في السجن مرتدياً ثياب المساجين فيقص عليه قصته . كان الأمير يتأمل السرير والحشية التي كانت فوقه ، أو قـــل كيس القش ، والنافذة ذات الحاجز الحديدي الضخم ، والجدران الرطبة السوداء ومنظر ذلك السيء الحظ الذي يثير الشفقة والرحمة ، فيزداد كآبة وغماً . وكم كان يتمنى لو يستطيع ألا يصدق ما يقوله ذلك المنكود الطالع ، كما كان يؤلمه أن يتصور أن تلك القصة ملفقة ، وان يكون في وسع صاحب ذلك الوجه الذي تنيره تانك العينان المستديرتان الحانيتان أن يزور الحقائق .

كان الحادث واضحاً وثابتاً . لقد اختطف أحد تجار النبيذ زوجة الرجل بعد قليل من زواجها . فلجأ هذا الى المحكمة فأقرت له حقه وأعـــادت له زوجته . ولكن هذه ما لبثت أن فرت من المنزل في اليوم التالي . فذهب يبحث عنها في منزل التاجر ، فانكر هذا وجودها على الرغم من ان زوجها رآها عنده ، وطلب اليه مغادرة المكان . ولما لم يذعن هذا استعان التاجر بصانعه وضرباه حتى سال دمه . ولم يمض إلا القليل حتى شب الحريق ، فاتهم التاجر زوج المرأة وأمه زوراً وبهتاناً ، بينما كان الزوج يوم وقوع الحريق في بيت عرابيه .

– هكذا إذن . لست المسؤول عن حريق المتجر .
– كلا يا سيدي . انها فكرة مـــا خطرت لي قط على بال . لقد كان هو الجاني . حرقه لأنه كان مؤمناً عليه . ثم القى التبعة علي وعلى أمي ، مدعياً اننا هددناه ... صحيح انني توعدته ... ولكني لم أنفذ وعيدي . وكنت غائباً عندما احترق المخزن . كان هو الجاني . أمّن على المحـــل ثم اضرم النار فيه ليقضي علي وعلى أمي .
– هل ما تقوله كل الحقيقة ؟
– أجل يا سيدي ، وأقسم على ذلك كما لو كنت أمام الله . أواه يا سيد . ليكن في قلبك شفقة علينا . – ثم حاول ان يلقي بنفسه على قدمي (نيكليندوف) إلا انه منعه من ذلك . – اشفق علينا ، أنقذنا فنحن أبرياء .
– هكذا كان يتوسل اليه ، وفجأة تقلصت عضلات وجهه وأخذ يبكي بكاء مراً ، ثم أخذ يمسح دموعه بكم قميصه القذر .
– هل انتهيت ؟ – سأله نائب المدير وهو يتقدم منه .
– بلى . تذرع بالصبر يا صاح وتأكد انني سأقوم في سبيلك بكل ما في وسعي . – قال له (نيكليندوف) قبل ان يفارقه .
وظل السجين يتبع الأمير بنظراته حتى توارى عنه وعندما أغلق الباب أخذ يتلصص من الكوة الصغيرة حتى اختفى في الممشى .

٥٣

كانت أبواب سائر الزنزانات مفتوحة لأنها كانت ساعة تناول طعام العشاء . وكان الأمير قد رق كثيراً لحال أولئك المساجـــين التعساء ، واستحيى لنفسه من وقـــوفه موقف اللامبالي إزاء تلك المشاهد المؤثرة . وعندما كان ماراً في ممشى أسرع أحدهم في الدخول الى أحد الأقسام وخرج ومعه عدة رجال ما لبثوا ان التفوا حوله ، وأخذوا يتوسلون اليه .
– كن جواداً يا صاحب المعالي يا من نجهل اسمه . واطلق سراحنا .
– لا سلطة لي هنا . ولا استطيع أن أفعل شيئاً .

– ابلغ شكوانا السلطات المختصة . – قـــال له أحدهم – لقد مضى علينا شهران في هذا السجن بلا أي سبب .

– ولماذا ؟ – قال (نيكلیندوف) مستفهماً .

– لقد جاؤوا بنا الى السجن. ومضى علينا شهران دون ان نعلم سبباً لذلك.

– هذا صحيح . – قال له المدير متدخلاً . – هؤلاء قرويون يحملون هويات انقضت مدتها ولم تبدل ، وكان ينبغي أن نبعث بهم الى مراكز ولاياتهم ولكن سجن تلك الولايات التهمته النيران فظـــلوا هنا . وقد نقل رفاتهم الى مراكز ولاياتهم .

– كيف ؟ المثل هذا السبب وحده ؟ – قال (نيكلیندوف) يسأل وقد توقف عن متابعة طريقه .

كان ما يقرب الأربعين شخصاً قد تحلقوا حول الأمير ونائب المدير ، وأخذوا يتحدثون دفعة واحدة غير ان الضابط أسكتهم جميعاً .

– هدوء . وليتكلم واحد لا غير .

فبرز من بينهم قروي طويل القامة جاد الملامح في حوالي الخمسين من عمره وابتدأ يشرح للأمير كيف أوقفوهم لأن ليس لديهم هويات . أو بأصح تعبـــير لمرور بضعـــة أيام على انقضاء المدة القانونية على هوياتهم دون أن تبدل . ولم يكونوا من قبل يأبهون لمثل ذلك . أما الآن فيعتقلونهم شهوراً كالمجرمين .

– كلنا عمال وننتمي لجمعية واحدة ... يقولون ان السجن في ولايتنا قـــد التهمته النيران فما ذنبنا نحن . كن جواداً ، وانقذنا .

لم يفهم (نيكلیندوف) الا القليل مما قاله ذلك الكهل لأنه كان عالق النظر بقملة سوداء كانت تدب هبوطاً من شعر رأس العامل الى خده .

– ولكن هل يمكن ان يسجنوهم لأجل قضية تافهة كهذه ؟ – قال الأمير يسأل نائب المدير .

– بلى . هذا صحيح . وكان من الواجب نقلهم الى ولاياتهم .

ولم يكد نائب المدير ينهي كلمته هذه حتى برز من بينهم رجل ضخم الجثة ، وبدأ يشكو من سوء المعاملة والتعذيب بلا سبب موجب وقال :

– انهم يعاملوننا أسوأ مما يعاملون الكلاب .
– هيه . يتحدث هذا على الدوام هكذا ... اسكت وإلاّ ...
– ما ينبغي أن أقول اذن ؟ – هتف القروي يقول بلهجة القانط . – أترانا مجرمين ؟
– هدوء . – صاح بهم نائب المدير يقول بلهجة الآمر فسكت القروي .
– ما معنى كل هذا ؟ – كان (نيكلييندوف) يتساءل ، في حين كانت مئات العيون تراقب حركاته من وراء القضبان الحديدية . ثم قال :
– أيوجد أبرياء في السجون ؟
– وكيف تفادي ذلك ؟ – أجاب الموظف – وفضلاً عن ذلك فانك اذا حملت ما يقولونه محمل الصدق فجميعهم أبرياء .
– ولكن هؤلاء القرويين لا ذنب لهم .
– بالتأكيد ... ان وظيفتنا مؤلمة جداً لاتصالها أكثر ما يكون بذوي السوابق السيئة والفاسدين . واذا لم نكن أشداء حازمين فانهم يتمردون علينا . لقد اضطررنا ان نعاقب سجينين نهار البارحة .
– وكيف تعاقبونهما ؟
– لقد عاقبناهما (بالسوركا) بناء على أوامر عليا .
– ألم تلغ العقوبات الجسدية ؟
– أجل . ولكن ليس بالنسبة للمحكومين بأحكام طويلة الأمد لحرمانهم من الحقوق المدنية .
فتذكر (نيكلييندوف) الغموض والتكتم الذي كان يوم أمس يسود الجميع عندما كان ينتظر حضور (ماسلوفا) في قاعة الزوار وأدرك أسبابه الآن . لقد كانوا يعاقبونهم ، فعصفت بلبه عاصفة من الغم والأسى والألم والاشمئزاز والتقزز لم يشعر بمثلها في حياته . فأسرع متجهاً نحو مكتب المدير ليتخلص من ذلك المكان العفن غير ملق بالاً لمرافقه ودون ان يلتفت لأحد . وكان المدير يتحدث مع بعض الناس ، وقد نسي ما كان الأمير قد طلبه منه ولم يتذكره الا حين رآه .
– تمهل قليلاً . – قال له المدير . – تفضل بالجلوس ، وسأبعث بطلبها حالاً .

٥٤

كان مكتب المدير مؤلفاً من جناحين ، أولهما عبارة عن غرفة ذات نافذتين قذرتين في داخلها مدفأة مهشمة، وتمثال يسوع المسيح الموجود دائماً حيث يعذب اشباهنا ، وبعض السجان . وكان في الجناح الثاني ما يناهز العشرين شخصاً بين رجل وامرأة ، متحلقين حلقات ، يتحدث بعضهم الى بعض بصوت خافت . وبعضهم كانوا أزواجاً . فجلس المدير الى طاولة بالقرب من النافذة وأشار الى كرسي جلس عليها الأمير بالقرب منه ، ومضى يراقب الحاضرين . فاستوقف نظره فتى ذو محيا جذاب، يرتدي سترة قصيرة كان يتحدث الى رجل في ثياب المساجين ، والى فتاة كانت واقفة بجانبه . وكان الى جانب هؤلاء رجل عجوز يضع على عينيـــه نظارات داكنة يتحدث الى فتاة سجينة وكان ثمة صبي يرمق العجوز بنظرات الجزع. وعلى بعد قليل كان يجلس شاب وفتاة ربما كانا حبيبين. كانت هي صغيرة السن ، تبدو وكأنها طفلة ، شقراء قصيرة الشعر ، أنيقة الملبس حازمة الملامح فاتنة . وكان هو قوي الجسم أجعد الشعر وفي ثياب المساجين . كانا يتحدثان همساً وكان يستدل من مظهرهما ان كليهما يحب الآخر حباً جنونياً. وكان بجانب الطاولة عجوز قد اغبر شعرها ترتدي ثياباً سوداء، وهي قائمة ترنو بنظرات حب وحنان الى ولدها الشاب البادية عليه اعراض مرض السل الذي يتأكل كيانـــه . وكان يبدو انها ترغب في أن تقول له شيئاً ، غير ان الدموع كادت تخنقها ، بينما كان الشاب يقلب بين يديه صحيفة ورق ويحركها بحدة .

كان على بعد خطوات منها فتاة جميلة حسنة التكوين ، ذات لون صحيح ، وعينين لامعتين ، تجلس بقرب أمها التي كانت تبكي ، وتمر بيدها على اكتافها بحنان . كل ما فيها كان جميلاً . اليدان الطويلتان البيضاوان ، والشعر القصير الأجعد ، والأنف ، والفم ، والشفتان . وأكثر من كل هذا تانك العينان الواسعتان النجلاوان الحلوتان الصريحتان . وعندما دخل الأمير صوبت هذه اليه عينيها الرائعتين فترة من الزمن ثم حولتها الى أمها . وكان بجانب الحبيبين رجل اسمر اللون ، منفوش الشعر ، غامض المظهر يتحدث بسخط الى رجـــل

يبدو عليه انه من جماعة (سكوبتز) [1] وأخيراً كان بقرب الباب شاب يرتدي مشمعاً وكان يهتم لما يحدثه وجوده من انطباعات عند الزوار اكثر من اهتمامه بالحديث الذي يتحدث به .

كان (نيكليندوف) وهو جالس بجانب المدير يقلب نظره فيما حوله بفضول كبير . وفجأة استرعى انتباهه طفل صغير تقدم منه وسأله بصوت صاف حاد:

– وأنت من تنتظر هنا ؟

فدهش (نيكليندوف) لهذا السؤال ، ولكنه عندما تفرس في ذلك الوجه القاسي الملامح ، ورأى تينك العينين المعبرتين الوديعتين أجابه أنه ينتظر احدى معارفه .

– لعلها أختك ؟ – قال له الصبي ملحاً .

– كلا . ليست أختي . – أجابه (نيكليندوف) وقد ازدادت دهشته .

– وأنت يا صغيري من تنتظر هنا ؟

– أنا هنا مع أمي السجينة السياسية .

– خذي (كوليا) يا (ماري باولوفنا) . – قال المدير الذي كان من رأيه ان موقف الأمير مع الطفل مخالف للأنظمة .

فهبت واقفة الفتاة الجميلة التي أعجب بها (نيكليندوف) فبان قوامها البارع المديد وأسرعت نحو الأمير والطفل .

– لا شك في أنه كان يسألك من أنت . – قالت وهي تبتسم ورمقته بعينيها الواسعتين الحلوتين المتوقدتين . وكان في كلامها البساطة العذبة التي يبديها أولئك الذين يرون التخلي بلطف وحنان الأخت في علاقاتهم مع الناس، من الضروريات.

– يريد أن يعرف كل شيء . – قالت ذلك ثم ابتسمت ابتسامة عذبة لم يستطع (نيكليندوف) والطفل الا مقابلتها بالمثل .

– أجل لقد سألني عمن انتظر .

– تعلم (ماري باولوفنا) ان الحديث مع الغرباء ممنوع . – قال المدير .

---

١ – اسم تعرف به طائفة روسية .

– بلى ، بلى . حسن جداً . – أجابت الفتاة .

ثم تناولت بيدها البضة الطويلة يد (كوليا) الصغيرة وعادت الى حيث كانت أمها .

– من هو هذا الطفل ؟ سأل الأمير المدير .

– هو ابن امرأة سجينة سياسية . لقد ولد هنا في السجن .

– أحقاً ما تقول ؟

– وسيذهب قريباً الى سيبريا مع أمه .

– وهذه الفتاة ؟

– لا استطيع اجابتك على هذا السؤال . – قال المدير هازاً اكتافه . – ها قد اتت (بوغودوتشوفسكاجا) .

٥٥

جاءت (فيرا ايفراموفنا) تمشي بخطى ثابتـــة من الباب الداخلي . كانت قصيرة القامة ، ناحلة الجسم ، صفراء اللون ، قصيرة الشعر ، واسعة العينين ، ينضح وجهها بالطيبة .

– كم أنا مسرورة لقدومك . – هتفت تقول وهي تصافحه بحرارة – ألا تزال تتذكرني ؟ فلنجلس .

– ما تصورت قط انني سألتقي بك في هذا المكان .

– آه . بالنسبة لي ، فانني بحالة لا بأس بها هنا ، ولا أتمنى شيئاً .

وكانت وهي تتحدث الى الأمير ترنو اليه بعينين واسعتين يقرأ فيها الرعب . وتحرك عنقها الطويل الناحل الشاحب اللون .

وشاء (نيكليندوف) أن يستفهم عن السبب في اعتقالها وعندئذ بدأت (بوغودوتشوفسكاجا) تقص عليه قصة اعتقالها الرائعة ، وترصع حديثها بفقرات علمية وتعابير دخيلة . فتحدثت عن الدعاية ، وتفكك الجماهير ، وعن الفروع وفروع الفروع التي كانت ترى ان من واجب الجميع أن يعرفوها ، والتي لم يسمع بها (نيكليندوف) قط . كانت تشرح له كل هذه الأمور نقطة فنقطة ظانة انها

تهمه . ولكن (نيكليندوف) كان يحدق بنظره في ذلك الشعر الخفيف الصافي اللون المنفوش حول ذلك العنق الطويل الشاحب ، ويتساءل مستغرباً لماذا جيء بها الى هذا المكان . ولماذا كانت تبدو فخورة .

لقد كان يشفق عليها من وضعها الحالي ، ولكنها شفقة تختلف عن تلك التي كان يشعر بها نحو (مانستشوفا) وولدها السجينين البريئين في هذا السجن العفن. لقد كان يشفق عليها من تلك الدوامة الغريبة الصاخبة من الأفكار التي كونتها لنفسها ، والتي ، بسببها ، كانت تحسب نفسها بطلة .

وكان الأمير قد لاحظ تشابهاً كبيراً بين تصرفها وتصرف غيرها من مساجين تلك القاعة الذين استرعى وجوده انتباههم فاتخذوا لأنفسهم وضعية غير طبيعية وضعية التحفظ أمام الغريب .

وبدا له أنه تبين مثل هذه التصرفات عند الفتاة التي ترتدي ثياب السجينات وعند العاشقين أيضاً . كما تبين شبيهاً لها عند سائر الموجودين حوله ما عدا العجوز . والشاب المصاب بالتدرن الرئوي والفتاة الجميلة ذات العينين السوداوين البراقتين .

كانت (فيرا ايفراموفنا) تحاول كسب عطف الأمير لصالح احدى رفيقاتها تدعى (شينستوفا) التي لم تكن منتسبة للحزب ، ولكنها اعتقلت لعثورهم في منزلها على كتب ووثائق أودعت عندها لحفظها . ولما كانت (فيرا) ترى نفسها مسؤولة نسبياً عن اعتقالها فقد توسلت للأمير ليبذل جهده لانقاذها.

لم يكن لديها ما تقصه عن تاريخ حياتها سوى القليل . فهي بعد ان أنهت دراستها في الجامعة كقابلة ، اتصلت بأحد فروع حزب (محرري الشعب) . وكانت قد قرأت كتاب رأس المال (لكارل ماركس) فأظهرت رغبة في العمل على انجاح « الثورة » . ولم تدر كيف انضمت الى الحزب . وسارت الأمور في البداية على خير ما يكون ، ولكن الأمر انعكس أخيراً عندما قبض على أحدهم وضبطت في حيازته رسائل ومستندات ، فألقي القبض على الجميع .

— لقد ألقوا القبض علي أيضاً ، وقريباً سيبعثون بي الى سيبيريا ... ولكن

هـــذا ليس بذي أهمية بالنسبة لنفسي ، فأنا على حالة حسنة ، حسنة جداً .
– قالت مبتسمة ابتسامة تستدر الشفقة .

فسألها (نيكليندوف) عن تلك الفتاة التي كانت تعني بالطفل ، فأخبرته انها ابنة لأحد كبار القواد ، واحدى المنتميات لحزب ثوري منذ مدة طويلة ، وانها قد اعتقلت بناء على اعترافها باطلاق النار على أحد الجنود ، مع انها ليست الجانية الحقيقية . كانت تسكن مع بعض أفراد الحزب في منزل كان يعتبر بؤرة المؤامرات ، لوجود مطبعة داخله . وذات ليلة داهمهم رجال الشرطة بغية تحري المنزل غير ان من كانوا فيه قرروا المقاومة فأطفأوا الانوار بغية اتلاف كل ما يدينهم . ولكن الشرطة كانت قد ملأت المكان . وفي غمرة هذا الظلام انطلق عيار ناري أصاب مقتلاً من أحد رجال الشرطة . وعندما سألها المحقق من اطلق النار اعترفت بأنها كانت الفاعلة . وعلى الرغم من ان يدها لم تلمس قط سلاحاً نارياً ، وانها في الواقع أعجز من ان تقتل ذبابة فقد اعتبر اعترافها صحيحاً ، وحكم عليها استناداً على ذلك الاعتراف بالاشغال الشاقة وستنقل قريباً الى سيبيريا .

– انها روح نبيلة محبة للخير ... – كانت تردد (ماري ايفراموفنا) .

لقد كان واضحاً جلياً انها جد راغبة في الكلام . ولعل من أسباب هذه الرغبة رغبتها في اظهار مقدرتها وفصاحتها للناس . وكان (نيكليندوف) يقتصر على بعض أسئلة يطرحها عليها من حين لآخر ، وعندئذ كانت تندفع في الكلام دون توقف . وعلى الرغم من كل ذلك فقد سنحت للأمير فرصة صرح لها فيها بخشيته من عدم استطاعته أن يكون ذا فائدة لها في ما شاءت توسيطه فيه لانعدام النفوذ الذي تسرعت وعزته اليه .

وأخيراً تحدثت عن (ماسلوفا) كانت قد اطلعت على تاريخ حياتها ، كما يحدث دائماً في السجون حيث لا يلبث ان يصبح معروفاً كل شيء . فنصحت (نيكليندوف) بنقلها الى سجن المجرمين السياسيين ، أو على الأقـــل الى المستشفى حيث يوجد عمل كثير ونقص في العمال .

فشكر لها (نيكليندوف) نصيحتها ، وأعاد عليها ما يتوقعه من عجزه عن خدمة (شينستوفا) . ولكنه وعدها بأنه سيحاول ذلك عندما يذهب الى سان بطرسبرج .

٥٦

قطع المدير حديث الأمير و (فيرا ايفراموفنا) عندما اضطر على التصريح لهما بأن الوقت المحـــدد لهما قد انتهى . فهب (نيكليندوف) واقفاً ، وودع (فيرا) ومضى نحو الباب حيث وقف يشاهد المشهد الذي كانت وقائعه تمثل أمام عينيه .

وعبثاً كان المدير يردد القول بانتهاء وقت الزيارات ، فان أحداً لم يبد حراكاً سواء في ذلك الزوار والمساجين ، ما عدا حلقتين أو ثلاثة هؤلاء وقفوا ولكنهم لبثوا يتحدثون وهم وقوف . وعندما أخذ بعضهم يودع البعض الآخر كان الكثيرون يعلو نحيبهم . ولكن أشد تلك المشاهد تأثيراً على النفوس كان مشهد وداع الفتى المسلول لأمه التي كانت تشهق بالبكاء وهي ملقية رأسها على كتف ابنها . وكانت الفتاة الجميلة ، التي كان (نيكليندوف) يوليها عنايته دون أن يأبـــه لذلك ، واقفة أمام أمها التي كانت تبكي فتحاول الترفيه عنها ببعض العبارات . وكان الحبيبان العاشقان يقفان متقابلين ويد الواحدة بيد الآخر وقد غابا في نشوة سامية . وكان الشيخ ذو النظارات الداكنة ما زال يمسك بكلتا يديه يد ابنته وهو يهز رأسه دلالة على موافقته لما تقوله له .

— هذان هما السعيدان الوحيدان. — قال الفتى ذو السترة الاميركية المشمعة (لنيكليندوف) . — سيتكللان هذه الليلة في السجن وستلحق به الى سيبيريا.

— وهو ؟

— هو محكوم بالأشغال الشاقة . طوبى لأولئك الذين يسعدهم الحظ بالحصول على قليل من السعادة في حمأة شقاء كهذا . — أضاف يقول عندما سمع بكاء الشيخ ذي النظارات الداكنة .

— سادتي . أرجـــو أن تضعوا حداً لزيارتكم . — كان المدير يردد بصوت

مضطرب ضعيف . — لا تكرهوني على أن أكون قاسياً . لقد انتهى الوقت ، وأقول ذلك للمرة الأخيرة .

وكان تارة يهب واقفاً ، ثم يعود فيجلس على كرسيه ، ويأخذ نفساً عميقاً من لفافة التبغ ، ثم يتركها تنطفىء ، فيشعلها من جديد . وكان يبدو أنه بالرغم من شدة تأصل المبررات الزائفة في نفسه ، تلك المبررات التي يجيز لرجل تعذيب رجل سواه دون أن يعتبر نفسه مسؤولاً عن ذلك ، فانه كان يستحيل عليه أن ينجو من محاسبة ضميره له واعتباره إياه أحد مسببي تلك المآسي التي تمثل في تلك القاعة . وكان يُرى أنه يتألم أيضاً وان عبئاً ثقيلاً يجثم على صدره .

وأخيراً دبت الحركة بينهم فاتجه المساجين ناحية واتجه الزوار ناحية اخرى ، اذ أولى أولئك وجوههم شطر الداخل ، بينما أولاه هؤلاء ظهورهم . وكان أول من ترك القاعة الشاب المسلول ، وكان آخرهم الشيخ ذو النظارات الداكنة الذي كان يمشي على مهل ، خرج وبعد خروجه (نيكليندوف) .

— من حسن الحظ ان المدير شخص طيب . — كان الفتى الذي يرتدي المشمع يقول للأمير وهما متجهان معاً باتجاه الباب الخارجي . — ولكن مثل هـذه الاجتماعات التي رأيناها هي في الواقع غير عادية وغير مألوفة ، ومع ذلك ففيها القدر الكبير من الآلام والمرارة . هذا ما يقول به سائر الناس .

— ولكن هل شكل الزيارات في السجون الأخرى يختلف عما هو عليه هنا؟

— بلى يا سيدي فان اقصى ما يستطيعه الزائر للمجرمين السياسيين هـو رؤيتهم من وراء حاجزين ، كالمجرمين العاديين سواء بسواء .

كان الأمير يتحدث الى (ميدنتزف) الفتى الذي قدم نفسه للأمير بهـذا الاسم ، حينما التقى بالمدير في البهو الخارجي ، فقال هذا له ، وامارات التعب بادية عليه .

— اذا شئت ان ترى (ماسلوفا) فتعال غداً . — قال ذلك مجاملة للأمير .

— حسن . أشكرك . — أجاب هذا وأسرع بالخروج .

كان الأمـير يحس ، بالاضافة الى الشفقة ، احساساً بالغثيان المعنوي ذلك

الاحساس الذي شعر بـــه لدى دخوله قاعة الزيارات في الجناح الخاص بالنساء لأول مرة. كان يرى ان الآلام التي يقاسيها ذاك الفتى (مانستشوف) مضنكة. ومضنك أيضاً الشك الذي لا بد سيساوره حول وجود الله ، والحاجة للخير في هذا العالم المليء بالشرور . كذلك كان يرى ان حادث أولئك القرويين المساكين الذين سجنوا كل هذه المدة لنقص في هوياتهم أمراً مريعاً . ومريعة أيضاً حياة أولئك السجانين الذين لا عمل لهم الا ارهاق اخوانهم . غير ان ما كان يراه أشد ترويعاً هو اضطرار المدير ذلك الشيخ الطيب الضعيف الخلق للحؤول بين الأم وولدها ، بين الأخ وأخته ، بين الزوج وزوجته ، والتفريق بين من أعدتهـــم الطبيعة ليعيشوا معاً الى الأبد .

— لماذا كل هذا؟ — كان يسأل نفسه دون أن يقع على جواب ترتاح نفسه اليه .

٥٧

في اليوم التالي ذهب (نيكليندوف) الى منزل (فنارين) وقص عليه قصة (مانستشوف) وطلب اليه ان يتولى الدفاع عنه . فأصغى المحامي بانتباه واهتمام للقصة ثم قال له اذا كانت القضية كما رويتها لي فسأدافع عنها مجاناً .

كذلك قص عليه قصة المئة وثلاثين قروياً المعتقلين بلا جرم ، وسأله بمـــن تتعلق قضيتهم ، ومن هو المسؤول عما حدث لهم . فلبث المحامي صامتاً بعض الوقت باحثاً عن جواب ترتاح نفسه اليه فلا يجده ثم قال :

— تسألني من هو المسؤول ؟ — ثم لبث برهة يفكر وقال: — ليس من أحد. اذا راجعت النائب العام فسيحيلك على (ماسلينيكوف) باعتباره مسؤولاً . واذا راجعت هـــذا فسيؤكد لك ان المسؤولية تقع على عاتق النائب العام . والنتيجة هي انك لن تعرف من هو المسؤول .

— حسن . سأذهب الآن لمواجهة (ماسلينيكوف) وسأقص عليه خـــبر كل شيء .

— لا حاجة لذلك . لأن (ماسلينيكوف) (وأحسبه ليس صديقاً لك أو من احد اقربائك) رجل سافل . وأسوأ من ذلك هو سافل مراء .

فتذكر (نيكليندوف) ما قاله نائب المدير عن المحامي (فنارين) ولكنه لزم الصمت . ثم ودع المحامي ومضى الى بيت (ماسلينيكوف) حيث كان ينوي ان يلتمس منه أمرين أولهما نقل (ماسلوفا) الى المستشفى ، والثاني أن يهتم لقضية المئة وثلاثين منكوداً الذين كانت جريمتهم الوحيدة وجود نقص في هوياتهم . كان يسوءه ان يلتمس خدمة من رجل (كاسلينيكوف) غير انــه لم يكن لديه وسيلة اخرى لبلوغ غايته .

وشاهد (نيكليندوف) أمام بيت نائب الحاكم، عربات كثيرة فذكره ذلك بما قاله هذا له حول استقبالات زوجته ، التي شدد عليه بالدعوة لحضورها .

حينما وصل (نيكليندوف) الى منزل (ماسلينيكوف) كان خادم يرتدي بزة خاصة وقبعة سوداء طويلة ، يساعد على الترجل من العربة سيدة أنيقة قد أمسكت بيدها ذيل ثوبها ورفعته عن الأرض حتى بان حذاءها الجميل الأسود اللماع . ورأى عربة آل (غورتشاكين) بين العربات ، فحياه سائقها بتقدير واحترام كما ينبغي لسيد قريب جداً من العائلة .

وفيما كان الأمير يسأل أحد الخدم عما اذا كان (ميخائيل ايفانوفيتش) اسم (ماسلينيكوف) الحقيقي ، موجوداً في البيت ، اذا به يراه قادماً نحوه مشيعاً شخصية عسكرية برتبة رفيعة . كانا يتحدثان عن (يانصيب) خيري سينظم في المدينة قريباً. وكان كلاهما يتحدث طوراً باللغة الروسية ، وآخر باللغة الفرنسية عن احتفالات كان لفيف من السيدات يقمنها ويرصدن ريعها للأعمال الخيرية . وكان من رأي تلك الشخصية الكبيرة ان مثل هذه الأعمال هي أخلق بالسيدات.

– فيعملن وليبارك الله عملهن. – هتف (ماسلينيكوف) قائلاً ، ثم التفت الى الأمير مجيباً . وقال : مساء الخير يا سمو الأمير ، ما أصعب أن نراك. تفضل معي كي اقدمك لزوجتي . ان آل (غورتشاكين) موجودون هنا . ستتسابق سائر جميلات هذا البلد عليك أيها الوارث النبيل .

– الى اللقاء يا صديقي . – قال القائد وهو يصافح (ماسلينيكوف) .

– هيا بنا الى الطابق العلوي . – قال له هذا . – ليس بوسعك ان تتصور مدى سرورنا بحضورك اجتماعاتنا .

وصعد الدرج بخفة وسرعة فائقتين اذا أخذنا بعين الاعتبار ضخامة جسمه ، وهو ممسك بذراع الأمير .

كان (نيكلينندوف) يعتقد ان السرور البادي على (ماسلينيكوف) كان سببه الانتباه الذي أولاه اياه القائد ، واللطف الذي خاطبه به . وان أي مظهر من مظاهر الاحترام والتكريم يلقاه من الجهات العليا يكون له في نفسه رد فعل سار كذاك الذي يحدث لكلب صغير عندما يشرع صاحبه يدلله . وهذا كان شأن (ماسلينيكوف) الذي لم يلاحظ التجهم البادي على وجه (نيكلينندوف)، واقتاده بالقوة الى القاعة .

– فيما بعد . سنتحدث عن قضاياك فيما بعد . وسأفعل كل ما تطلبه مني . – كان يقول له وهو يجتاز قاعة كبيرة . ثم قال لأحد الخدم الذي كان واقفاً بجانب الباب : اعلن للقائدة وجود الأمير (نيكلينندوف) . أنت جئت تطلبني وحدي ولكنه من الضروري ان تحيي زوجتي أولاً. لقد أنبتني لأنني لم اصطحبك لعندها في المرة الأخيرة .

وكان الخـــادم قد أعلن لها ذلك ، ولذا فان (آنا اغناتيفنا) حنت رأسها تقديراً له من وراء الطوق المضروب حولها من قبعات النساء .

كان عدد من النساء والرجال الذين يرتدون بزات رسمية ، وتزين الأوسمة صدورهم يتحلقون حول مائدة في جانب من القاعة . وفي آخر القاعة من الجهة المقابلة كان ثمة نسوة يجلسن حول مائدة شاي وهن يتحدثن الى بعض الرجال الذين كانوا يقفون أمامهن .

– الحمد لله. ألعلك أصبحت لا تريد التعرف علينا ؟ هل أسأنا لك ؟ – بمثل هـــذه الكلمات الدالة على حالة رفع الكلفة التي لم توجد قط ، استقبلت (آنا اغناتيفنا) الأمـــير (نيكلينندوف) . هل من معرفة سابقة بينكما يا سيدة (بيليافسكي ميخائيل ايفانوفيتش شرتوف) ؟ اجلس بجانبي . تفضلي بالجلوس الى مائدتنا يا (مارغريت) . سيحضرون لك الشاي الى هنا . وانت تعال الى هنا ... – قالت ذلك لضابط يتحدث مع (مارغريت) . – هل لك بكأس من الشاي أيها الأمير ؟

– كلا . كلا . انك لن تستطيع اقناعي . – كان صوت نسائي يقول :
– انك لا تستطيع اقناعي . قل انه لم يكن يحبها .
– الأصح انه كان يستطيب الحلوى .
– أسخريته لاذعة على الدوام ؟ – قالت احدى السيدات التي كانت تختال في الحرير والذهب والحجارة الكريمة ضاحكة بملء شدقيها .
– انها لذيذة . اعطني قطعة أخرى .
– أتذهب بمثل هذه السرعة ؟
– أجل . فهذا آخر يوم تقضيه هنا .
بمثل هذا الجو الرائع يمكن العيش هنيئاً في الريف .
كانت (مارغريت) رائعة حقاً بقبعتها الجميلة وثوبها القاتم المرقم الذي يبرز عجيزتها دون ان يدع ثنية . فاحمر وجهها خجلاً عندما رأت (نيكلنيندوف) وقالت له .
– ظننت انك سافرت .
– عن قريب سأسافر ، إذ لا يزال يحول دون سفري بعض القضايا الهامة . وإذا كنت الآن هنا فبسببها .
– تعال لوداع والدتي . اعتقد انها ترغب في أن تراك . – قالت له الأميرة ، وقد ازداد وجهها احمراراً لأنها كانت تكذب وتعلم أنه يعلم ذلك .
– أشك كثيراً في أن يتهيأ لي الوقت الكافي للاستمتاع بمثل هذا السرور .
– أجاب (نيكلنيندوف) متجاهلاً ما علا وجهها من حمرة الخجل .
فزوت (مارغريت) ما بين عينيها ، وهزت كتفهـــا ثم انصرفت الى ضابط أنيق يقف بجانبها كان قد عرض نفسه ليحمل لها الشاي ، ولكن سيفه اصطدم بقوائم أحد المقاعد .
– ينبغي عليك أن تضحي بشيء في سبيل الملجأ . – كان صوت يقول :
– لن أتأخر . ولكني احتفظ بسخائي لليانصيب . هناك ستريني .
كانت حفلة القائدة رائعة وناجحة . وكانت ربة المنزل شديدة الارتياح لهذا النجاح .

– لقد أخبرني (ميكا) ان سموكم تولون السجون عنـــاية كبيرة وتقومون بزيارتها . – قالت (اغناتيفنا) موجهـــة الكلام للأمير . – ما أعظم ما يفهمك . قد يكون (لميكا) بعض النقائص ، ولكن سموكم تعلمون كم هو طيب . انه بمثابة الأب لأولئك التعساء . ان طيبة (ميكا) فائقة الحد .

وأمسكت عن الكلام ، كمن لم تجد ألفاظاً كافية للتعبير عن مدى « طيبة » زوجها . ثم اتجهت بنظرها وهي تبتسم شطر سيدة عجوز تحلى شعرها بأشرطة ليلكية كانت آنئذ تدخل القاعة . ثم راحت تتحدث معه عن أشياء كثيرة لا صلة لها بالقضايا العامة ولما تأكد لدى الأمير انه قـــد قام بما يرضي العرف الاجتماعي العام تقدم من (ماسلينيكوف) وقال له :

– هل تسمح لي ببضع دقائق من وقتك ؟

– اجل ، صحيح . فلندخل الى هنا .

ودخل الاثنان غرفة مؤثثة على الطراز الياباني وجلسا معـــاً الى احدى النوافذ .

٥٨

– أنا الآن رهن رغباتك . أتريد ان تدخن ؟ – مهلاً وأحضر لك صحناً لكي لا تتسخ ثيابك . – قال وهو يقدم له المنفضة .

– جئت لأحدثك بقضيتين .

– صحيح ؟ – أجاب (ماسلينيكوف) وعلت ملامحه علامات الضجر . ولم يبق فيه ما يذكر بالكلب الصغير .

كانت الأصوات تدوي متشابكة في القاعة وكان يطغي عليها صوت نسائي يردد قائلاً :

– أبداً . أبداً لن أصدق .

في حين كان يسمع صوت رجـــل يروي قصة يذكر فيها الكونتيس (فوروزوف) و (فيكتور أبراكسين) كما كانت تسمع ضحكات صاخبة ولغط شديد .

وفيما كان (ماسلينيكوف) يصغي الى الأمير لم يكن يترك كلمة تفوته مما كان يقال في القاعة .

– جئت أراجع بشأن تلك الفتاة ...

– بلى . أعلم ذلك . تلك البريئة .

– أطلب اليك خدمة جديدة ، اعتماداً على ثقتي بأن صداقتي لك كفيلة بأن تغتفر لي كافة المضايقات التي قد أسببها لك . لذلك أرجو منك أن تدخلها المستشفى كخادمة .

فمض (ماسلينيكوف) على شفته ولبث هنيهة يفكر .

– أشك في ذلك ... سأبحث هذا الأمر غداً وسأبلغك النتيجة .

– لقد قيل لي انه يوجد كثير من المرضى وانهم بحاجة لمرضات .

– نعم ، نعم . كن مطمئناً . على كل حال سأخبرك بما يجد .

– تراني شاكر أحسن صنيعك .

وهنا ارتفعت في القاعة قهقهة عامة مفاجئة .

– قد يكون هذا (فيكتور) . – هتف (ماسلينيكوف) باسماً .

– انه حلو المعشر عندما يكون حسن المزاج .

– كذلك يوجد في السجن مئة وثلاثون قروياً معتقلون بسبب هوياتهم .

– كيف علمت ذلك ؟ – قال (ماسلينيكوف) وظهرت على وجهه دلائل القلق والأستياء .

– كنت في زيارة لأحد المساجين ، فالتف حولي أولئك التعساء وقصوا علي قصتهم .

– من هذا الذي ذهبت لرؤيته ؟

– ذهبت لأرى قروياً متهماً وهو بريء ، وقد خاطبت محامي بشأنه . ولكن المشكلة ليست هنا . وانما كيف نفسر ان عدداً من الأبرياء يلقى بهم في غيابة السجن لمجرد فقد الهوية أو نقصها ؟

– هذا أمر يتعلق بالنائب العام . – قال (ماسلينيكوف) يقاطعه بلهجة

جافة . — ان من واجب النائب العام ومعاونيه تفقد السجون والتثبت من عدم وجود ظلامات فيها . انهم بدلاً من ذلك يقضون الوقت بلعب الورق .

— هكذا إذن أنت لا تستطيع عمل شيء ما ؟ — قال له (نيكليندوف) وقد تذكر ما قاله (فانارين) من ان هذا سيلقي التبعة على النائب العام .

— لا أقصد ذلك . وانما أحب أن استوضح . سأقوم بعمل ما اكراماً لكِ . وأؤكد لك انني سوف لا أنسى . — قال (ماسلينيكوف) وقد نفض الرماد عن لفافة التبغ بأصبع يده البيضاء المليئة بالخواتم .

— هذا شر عليها . هي بلون الرماد . كان صوت نسائي يقول في القاعة . وارتفعت قهقهة عامة في القاعة من جديد .

— لنعد الى القاعة .

— لا يزال لدي سؤال آخر . لقد قيل لي انهم جلدوا بالأمس أحد المساجين . فهل هذا صحيح ؟

— آه . أتريد التدخل بمثل هذا أيضاً ؟ كلا . كلا يا صديقي . يبدو انه ليس بالوسع السماح لك بزيارة هذه الأماكن لأنك تضع أنفك حيث لا ينبغي لك . تعال ، تعال معي ، فآنا تدعوك . — قال (ماسلينيكوف) وقد أمسك (نيكليندوف) من ذراعه ، وظهر عليه الانفعال كشأنه بعد حديثه مع القائد ، ولكنه كان وليد القلق لا وليد السرور . فأفلت (نيكليندوف) منه بعنف وانطلق يجتاز الردهة فالقاعة الكبيرة ، فالصالة الأمامية دون أن يودع أحداً ودون أن يفوه بكلمة واحدة ، ماراً بين الخدم الذين خفوا للوقوف اجلالاً له ، ثم خرج الى الشارع .

— ما به ؟ هل أغضبته ؟ — قالت (آنا) تسأل زوجها .

— هذا وداع على الطريقة الفرنسية .

— كلا . هذا وداع على طريقة (زولو) .

— لا مجال للإستغراب فقد كان هكذا دائماً .

وانصرف أناس وجاء غيرهم . واستؤنفت الأحاديث ، وكانت الصورة التي

غادر فيها (نيكلينندوف) القاعة موضوعاً صالحاً تداوله الحاضرون فترة من الوقت .

في اليوم التالي لزيارة (نيكلينندوف) لمنزل (ماسلينيكوف) تلقى الأمير رسالة مكتوبة بخط جميل مطمئن يقول له فيها نائب الحاكم انه كتب لطبيب السجن مستنسباً نقل (ماسلوفا) الى المستشفى كخادمة . وكانت الرسالة تنتهي بالعبارة التالية : « صديقك ورفيقك المحب (ماسلينيكوف) » .

— يا له من أحمق . — هتف الأمير يقول عندما فرغ من تلاوة الرسالة .

لقد أدرك (نيكلينندوف) ان (ماسلينيكوف) يقصد من كلمته « رفيقك » وضع نفسه في مستواه ، وانه ، وهو مقتنع من أهميته الشخصية ، يريد ان يتملق الأمير ، أو على الأقل ، اضفاء امتياز على مركزه ، ولهذا وقع الرسالة بكلمة « رفيقك » .

٥٩

يسود الاعتقاد بأن لكل شخص صفات تميزه عن غيره من الناس . وهذا الخطأ الذي أصبح شائعاً ، بعيد كل البعد عن أن يكون حقيقة ثابتة ، وان كان لا يخلو من بعض مظاهرها . بوسعنا أن نقول أن زيداً من الناس طيب أكثر مما هو شرير ، ذكي أكثر مما هو غبي ، نشيط أكثر مما هو خامل أو بالعكس . ولكنه من البلاهة بمكان القول بأن زيداً هذا طيب وذكي دائماً ، وان عمراً على العكس شرير وغبي على الدوام . ونحن نصنف الناس هكذا ، ولكنه غير منطقي ، وغير مصيب ، فالناس يشبهون الأنهر ، يجري الماء فيها جميعها . غير ان أحدها قد يكون مستقيماً في مكان ما ، ومتعرجاً في مكان آخر ، واسعاً وضيقاً ، صافي الماء وعكره ، فاتراً وبارداً . وهكذا شأن البشر ، فهم يحملون في داخلهم بذور الفضائل والرزائل ، فطوراً تتغلب هذه وطوراً تتفوق تلك . وقد يحدث ألا يظل الانسان على حالة واحدة ، على رغم كونه ما زال هو هو لم يتغير ولم يتبدل .

وينبغي أن يكون نصب أعيننا أن هذا التغيير قد يقع بصورة فجائية ،

كما هو الحال مع (نيكلينندوف) ، إذ انقلب شعور الطهارة والارتياح الذي شعر به فور خروجه من قاعة المحكمة ، ومن السجن بعـــد اجتماعه الاول (بكاترين) ، الى شعور بالرعب والاشمئزاز منها . كان قد عقد العزم على ألا يفارقها وألا يتخلى عنها ، وأن يظل محافظاً على ما قطعه على نفسه بالنسبة لها ما دامت هي موافقة عليه . وكان هذا مثار غم له واستياء .

وعاد (نيكلينندوف) ذلك النهار الى السجن كي يرى (ماسلوفا) فسمح له المدير بالتحدث اليها ولكن في غرفة الزيارات بدلاً من مكتبه وقد لاحظ الأمير منه زيادة في التحوط ، على الرغم من طيب عنصره ، فرأى أن ذلك يعود ، دون شك ، لتعليمات خاصة بوجوب اتخاذ المزيد من الاحتياطات بالنسبة له ، وردتهم من نائب الحاكم أثر اجتماعه به .

– بمقدورك أن تراها ، ولكني أتوسل اليك ألا تعطها مالاً بعد الآن . وفيما يتعلق بنقلها الى المستشفى ، كما أمر صاحب السعادة نائب الحاكم ، فقد وافق الطبيب عليه ، ولكنها رفضته قائلة انها لا تريد أن تنظف أوساخ المرضى. أواه يا سمو الأمير . يبدو انك لا تعرف هذا النوع من البشر .

وكان جواب الأمير الوحيد على قوله هذا ، تكرار الرجـــاء بالسماح له بزيارتها . فنادى المدير أحد السجان وأمره بأن يرافق الأمير الى قاعة الزيارات في الجناح الخاص بالنساء .

كانت قاعة الزيارات هذه خالية عندمـــا دخلها الأمير . ولكنه لم تكد تمضي بضع دقائق حتى فتح الباب الداخلي وأطلت منه (ماسلوفا) .

كانت تبدو عليها سيماء الرزانة والخجل عندما أبصرها الأمير خلف القضبان الحديدية ، فتقدمت منه وقالت له بصوت خافت وهي ترنو اليـــه بعينيها السوداوين .

– سامحني (يا ديمتري ايفان) . لقد كان تصرفي معك نهار الأمس غير سليم .

– أنا الذي احتاج للصفح . – أجاب الأمير .

– دعني ولا تفكر بي . – أجابته ، وقد تبين الأمير عـــداء في عينيها السوداوين اللتين ما زالت تصوبها اليه .

– لماذا ترغبين في أن أدعك وشأنك .

– هذه رغبتي .

– اشرحي لي أسباب رغبتك بشكل أستطيع فهمه . تكلمي بوضوح .

فعادت الى التحديق فيه بتلك النظرات القاسية التي تفيض بالكثير من الأفكار السيئة .

– أقول لك جادة ... دعني ... وشأني ... ذلك خير لك وأجدى ... تناس تلك الفكرة ... لن أستطيع تحقيقها . – قالت له ذلـــك بشفتين مرتعشتين . ثم صمتت .

وساد صمت قصير تبادلا أثناءه النظرات بامعان . ولم تلبث (كاترين) ان قالت :

– دعني . فسأنتحر قبل تحقيق رغبتك .

لقد أدرك (نيكليندوف) ان كراهية شديدة ، ناجمة عن اساءة لم تصادف غفراناً ، تكمن وراء ذلك الرفض ، ولكنه رفض يصدر عن قصد نبيل . وقد وضع حداً لكل شك ، ورد روحها الى سابق احساسها السامي الذي احسته أول الأمر .

– أكرر الآن لك ما قلته من قبل (يا كاترين) . أتوسل اليك أن ترضي بي زوجاً . وإذا أبيت فسأتبعك اينما ذهبت ، الى أن توافقين .

– أنت تقول ذلك . أما أنا فلن أزيد حرفاً واحداً . – أجابته وشفتاها ترتعشان .

وكان قد بلغ من تأثر (نيكليندوف) ان تعذر عليه الكلام . وأخيراً سكن تأثره قليلاً فقال .

– أنا ذاهب الآن الى الريف ، وبعد ذلك سأذهب الى سان بطرسبرج ، وسأبذل قصارى جهدي في سبيل قضيتنا ... قضيتك . آه . سوف لن ينفذ هذا الحكم انشاء الله .

– وإذا نفذ ... فأنا استحقه ، ان لم يكن لهذا الأمر فلغيره من الآثام ...
– أجابته (كاترين) وقد أدرك مدى الجهد الذي تبذله لحبس دموعها .
– هل رأيت آل (منستشوف) ؟ – قالت تسأله لتخفف من حدة تأثرها . – أصحيح ما قيل عن براءتها ؟
– هذا ما أظنه .
– يا لتلك العجوز من امرأة طيبة . – قالت له .
فأعاد عليها (نيكلينندوف) كل ما قصه عليه القروي . سألها عما اذا كانت تحتاج لشيء آخر . وأعقب ذلك فترة ساد فيها صمت عميق . وفجأة قالت (كاترين) .
– فيما يختص بالمستشفى فسأذهب اليه إذا أحببت ... وأعدك انني سوف لن أعود لشرب الخمر مرة أخرى .
فأحد (نيكلينندوف) النظر في عينيها اللتين كانتا تبتسمان ، ولم يقو على أن يفوه بكلمة سوى قوله :
– حسن .
وكان يحدث نفسه بقوله : لقد تغيرت تغيراً تاماً .
وبعد ان استعرض ما كان قد تبينه بالأمس من انفعالها أخذ يستعرض الشعور الجديد الذي لم يذكر انه عرفه منها قط .
لقد أصبح الآن لا يشك بسلطان الحب .
وحين عادت (ماسلوفا) الى سجنها العفن بعد انتهاء المقابلة ، خلعت (بلوزتها) وجلست على حافة السرير وأسبلت يديها على ركبتيها .
لم يكن في ذلك القسم من السجينات سوى المسلولة والقروية التي مانعت في سوق ابن أخيها للخدمة العسكرية ، و (مانستشكوفنا) وحارسة خط القطار والطفلين الصغيرين . أما ابنة الكاهن فقد كانت قد نقلت الى المستشفى نهار أمس لظهور أعراض الجنون عليها . وكان الأخريات يغسلن ثيابهن .
كانت (مانستشكوفنا) مستلقية على السرير ، والطفلان يتوثبان في المشى

الذي كان بابه مفتوحاً . فتقدمت حارسة الممر و (فلاديمير سكتشا) من (ماسلوفا) ، ويداها الرشيقتان لا تنفك تحوك الجوارب .

– هل رأيته ؟ – قالت الاثنتان تسألانها .

فلم تجبها بشيء وظلت تحرك ساقيها اللتين لا تبلغان الأرض .

– ما دهاك يا حبيبتي ؟ – قالت تسألها حارسة القطار . – يجب أن تكوني جريئة .

فلم تجب (ماسلوفا) أيضاً .

– لقد ذهبت الرفيقات لغسل الثياب . – قالت (فلاديمير سكتشا) :
– يقال انهم وزعوا احساناً هذا اليوم .

وفجأة صاحت حارسة القطـــار قائلة : – يا (فيناسكا) أين أنت أيها الصغير ؟ – ثم طرحت الجوارب وخرجت تعدو .

وهنا سمع وقع أقدام ولغط نساء ، ودخل السجينات الأخريات يجررن قباقيبهن ، وكل واحـــدة تحمل رغيفاً من الخبز ، وبعضهن تحمل رغيفين . وتقدمت (فيدوسيا) من (ماسلوفا) ثم قالت تسألها بلهجة عذبة وهي تنظر اليها بعينيها الزرقاوين تتوضحها .

– ماذا دهاك ؟ هل حدث لك شيء ؟ أنظري لدينا خبز للشاي .

– أتراه غير فكره وأقلع عن فكرة الزواج ؟ – سألتها (كورابلوفا) .

– كلا . لم يغير رأيه ، وانما أنا التي رفضت . – أجابت (ماسلوفا) .
– لقد قلت له ذلك بصراحة .

– هذه غباوة منك . – أجابتها (كورابلوفا) بصوت أبح .

– ولماذا ؟ إذا استحال العيش معاً فمـــا معنى الزواج ؟ – أجابت (فيدوسيا) .

– ألا ينوي زوجك اللحاق بك ؟ – قالت حارسة القطار .

– هذه حادثة من نوع آخر ، اذ نحن زوجان قديمان . ولكن ماذا يفيد هذان من زواجهما إذا كانا لا يستطيعان العيش معاً ؟

– ألا تعلمين أيتها الغبية أن بوسعه أن يغمرها بالذهب إذا تزوجها ؟
– لقد قال لي : سألحق بك الى حيث تذهبين . – قالت (ماسلوفا) .
– بوسعه ان يلحق بي أو لا يلحق إذا شاء . ذاك شأنه ... سوف لن أرجوه ... سيذهب الى سان بطرسبرج ليتوسط لقضيتي ... فكل الوزراء أقاربه ... ومع كل هذا ، فلست احتاجه .
أقرك على ذلك . – قالت (كورابلوفا) وهي تبيت أمراً وترمي لغاية . فلنتناول الآن قليلاً من الخمر .
– لست راغبة بذلك فتناولن أنتن إذا شئتن وأنا أدفع الثمن . – أجابت (ماسلوفا) .

٦٠

كان قد تقرر انعقاد المحكمة في سان بطرسبرج للنظر في طلب التمييز الذي تقدمت به (ماسلوفا) ضد قرار الحكم الذي أصدرته المحكمة بحقها . وكان الأمير شديد الرغبة في الذهاب الى هناك لمحاولة استخدام نفوذه لصالحها . وكان ينوي في حال رد الطلب ، أن يرفع التماساً الى الامبراطور باسمها عملاً بنصيحة (فانارين) له . – كان من الضروري استدراك ذلك لأن المحامي يرى أن الأسباب الموجبة للتمييز كانت ضعيفة . – وحتى في حال فشل الالتماس فان (نيكليندوف) كان مصمماً على اللحاق بها . ولما كان موعد سفر الدفعة الأولى من المساجين الى سيبيريا التي ستضم (ماسلوفا) ، سيعين في أوائل شهر حزيران ، فقد كان ينوي التأهب لهذه الرحلة والقيام قبل ذلك بزيارة الى ممتلكاته لاتخاذ الاجراءات اللازمة . وبدافع من هذه الرغبة قام برحلة الى (كوسمينسكوجي) أوسع ممتلكاته وأقربها وأوفرها غلة . لقد قضى في هذه المزرعة أيام فتوته ، ولكنه بعد ان اصبح شاباً لم يزرها سوى مرتين ، كانت أولاهما في حياة أمه وقد اصطحب معه مديراً المانياً جديداً أوكل اليه ادارة الأملاك بعد أن درس أحوالها دراسة وافية ولذا فقد كان مطلعاً على كافة

أوضاعها ، والشروط التي تربط القرويين بأصحاب الاملاك ، وتجعل المزارع جزءاً منها .

كان (نيكليندوف) يعلم ذلك منذ وزع ميراثه عن أبيـــه على فقراء المزارعين مدفوعاً بنظرية (سبنسر وهنري جورج) التي كان يعتنقها منذ كان طالباً . ولكنه بعد أن التحق بالجيش وانغمس في حمأة الملذات مبدداً عليها ما يزيد على عشرين ألف روبل في العام ، فقد فقدت تلك النظرية قوتها المعنوية لديه ، وتناساها لأنه أصبح يراها غـــير ملزمة له ، ولم يكلف نفسه ولو مرة واحدة ، عناء البحث عن الوسائل التي كانت أمه تحصل منها على ما يسد نفقاته ، بل ان هذا لم يخطر له قط على بال . أما الآن فقد وضعته وفاة والدته وحاجته للعناية بأملاكه وجهاً لوجه أمام قضية ملكية الارض من قبل شخص واحد .

لو ان فكرة تغيير النظام الراهن كانت قد عرضت له قبل شهر واحد من الآن اذن لرآها ضرباً من (أوتوبي) الأحلام البعيدة التحقيق ، ولرأى ان استغلال أملاكه لا يتعلق به مباشرة وإنما بالواسطة ، ولظل ، وهو مطمئن لهذه النظرية ، مثابراً على نهج حياته يتقاضى ربـع أملاكه وهو بعيد عنها . أما الآن ، وعلى الرغم من ان رحلته الى سيبيريا تضطره على الاتصال بالمحامين والموظفين والسجانين ، وتفرض عليه الاحتفاظ بوضعيته الاجتماعية ، وبدخله السنوي ، فانه يرى انه لا يقوى على ترك الأمور على حالها دون إدخال تعديل كبير عليها ، حتى ولو كان في ذلك اضرار بمصالحه . ولذا فقد قرر عدم استغلال ممتلكاته مباشرة ، وتأجيرها بأجر معقول للمزارعين كي يتمكن هؤلاء من الاستقلال التدريجي .

وعندما كان (نيكليندوف) يقارن بين وضع مالك كبير للأراضي وبين من يسترق العبيد ، كان يبدو له أن من يستغل أرضه باستخدام مزارعين فقراء وعمال مأجورين لا يفرق كثيراً عن مسترق العبيد . على أنه لو أجرهم الأرض لقاء أجر سنوي معقول لكان ذلك بمثابـــة منحهم أرضاً يستغلونها لحسابهم

الخاص . وليس هذا بالحل النهائي للقضية ولكنه خطوة كبيرة نحو الحل الحقيقي . وسبيل صالح للوصول الى تحسين عادل وانساني لأحوالهم .

كان وصول (نيكلنيدوف) الى (كوسمينسكوجي) حـــوالي منتصف النهار . وبما انه قد جاء دون ان يخبرهم بقدومه فقد اضطر أن يكتري عربة تنقله من المحطة الى البيت .

جلس الحوذي في مقعده مواربا وكان يدعى (جامسيك) ويرتدي ثوباً يشده على وسطه بزنار . وظل طوال الطريق يتحدث الى الأمير تاركاً جياده تسير في الطريق على هواها . ولما كان (جامسيك) يجهل انه يتحدث الى مالك المزارع . — وقد تعمد الأمير الا يعرف نفسه لأحد . — فقد اندفع يتحدث عن المدير .

— هو الماني متأنق . — قال وقد تحول بنصف جسمه ناحية الأمير ثم فرقع سوطه . يقتني عربة فخمة لا مثيل لها . وعندما يخرج فيها للنزهة مع زوجته ، فليس ثمة من يضاهيه ... ما أروع شجرة عيد الميلاد التي أقامها في بيته في الشتاء الماضي ... لقد رأيتها لأنني نقلت الى بيته عدة مدعوين ... ما أعظم تلك الشجرة . لم يصنع شبيه لها في سائر الولاية ... يقول الناس عنه انه يسرق كثيراً ... وهذا أمر طبيعي ، لأنه يتصرف كما لو كان مالكاً . ويقولون انه اشترى ملكية رائعة .

كان (نيكلنيدوف) يحسب انه لا يهتم لمعرفـــة الطريقة التي يدير فيها الالماني ملكيته . ولكن كلمات (جامسيك) أيقظت في نفسه ندماً ظل ملازماً له طوال الطريق . كان وهو في العربة يتملى جمال ذلك النهار الهادىء ويستمتع به ، ويساير بنظره الغيوم التي تعبر السماء من وقت لآخر ، والطيور التي تجتاز الفضاء ، والغابات المزدانة بحلل قشيبة ، والمهار التي ترعى في الرياض ، والحقول الخضراء ، وعلى الرغم من كل ذلك فان ثمة ما هو محزن ومغيظ كان يعكر صفو استمتاعه بتلك المناظر الخلابة . ولو ان (نيكلنيدوف) رغب في التعمق بحثاً عن كنه ذلك المحزن المغيظ لاعادت كلمات (جامسيك) الى ذاكرته صورة عن الطريقة التي يدير بها ذلك الالماني أملاكه .

غير ان هذا الانطباع لم يلبث أن تلاشى من نفس (نيكلنيدوف) فور وصوله الى (كوسمينسكوجي) وانصرافه لمعالجة وبحث القضايا التي جاء من أجلها . وما هي إلا نظرة سريعة القاها على سجلات الادارة ، وحديث دار بينه وبين وكيله الذي كان يحاول ببراءة الأطفال تبيان الفوائد التي يجنيها من امتلاك المزارعين لقطع صغيرة من الأرض ضمن ممتلكاته ، حتى اقتنع بوجهة نظره ، وازداد تمسكاً برغبته في التخلص من المضايقات ، والتنازل عن سائر ممتلكاته لصالح المزارعين .

وقد علم من السجلات ومما قاله له وكيله ان ثلثي أراضيه الصالحة الخصبة كانت تستثمر بعمال وأدوات حراثة جيدة أما الثلث الباقي فكان يعطى للعمال على أن يدفع لهم خمس روبلات عن كل مساحة من الأرض تتسع (لفنيقة) من القمح [1] وعلى العامـــل أن يحرثها ويمشطها ثلاث مرات ، وأن يحصدها . وبالاختصار كان عليه أن يقوم بكافة العمليات التي لا يقوم بها العامل المياوم بأقل من عشر روبلات هذا في حال قبوله بأدنى الأجور . وكان المزارعون يدفعون للادارة ثمن ما يحتاجون اليه من غلالها أعمالاً ، ويدفعونه غالياً . كانوا يعملون في الحقول ، وزراعة البطاطة ، والغابات ومع هذا فقد كان أكثرهم يظل مديناً للادارة . وإذن فان تأجير الأراضي على هذه الصورة للمزارعين سيكون أكثر انتاجاً مما ينتظر منها مع فائدة خمسة بالمئة .

كان (نيكلنيدوف) يعلم ذلك من قبل ، ولكنه الآن يبدو له جديداً فيدهش له ، ويتساءل كيف لم يلاحظ هو وغيره من الملاكين مبلغ الاجحاف في اتفاقياتهم مع العمال والمزارعين . وكان من رأي وكيله أنه يجب بيع المحصولات المخزونة في الاهراء بسعر أقل ، وأن الأرض إذا ما استغلها المزارعون لحسابهم الخاص ستكون أوفر غلة ، وان الأمير سيخسر كثيراً . فوافق ذلك الرأي ما في نفس الأمير ، وأقنعه بوقوع الخسارة عليه ولكنه رأى أنه في مقابل ذلك يكون قد قام بعمل جليل ، فقرر وضع مشروعه موضع التنفيذ على الفور ،

---

١ – الفنيقة نوع من الكيل كان يكتال به .

وأوكل الى المدير ان يتدبر طريقة لاسترجاع البذار الذي بذره في الأرض ، وأن يبيع محتويات الاهراء ، وكافة المباني التي لم يعد يحتاج اليها .

وهكذا رغب (نيكليندوف) الى وكيله ان يدعو كافة المزارعين في القرى الثلاثة التي تتكون منها ملكيته للحضور في اليوم التالي ليعلن لهم رغبته وليعينوا بدل ايجار الأرض .

خرج (نيكليندوف) من مكتب المدير مرتاح النفس ، لتمسكه بوجهة نظره ، ورفضه آراء المدير ، واصراره على التضحية بمصلحته لصالح المزارعين ، ثم أخذ يطوف حول المنزل ، مفكراً فيما هو مزمع على القيـــام به ، فطاف بالرياض التي كانت بالأمس مزدهرة يانعة ، وأصبحت الآن مهملة ، ومر بحقل (التنس) وفي منتزه البيلسان الذي كان له مرتعاً يطيب له التدخين فيه ، وحيث لاحق بغرامه (كيرينوف) الجميلة عندما نزلت ضيفة على والدته منذ ثلاث سنوات .

وعاد الى منزل الالماني ، بعد أن أعد في ذاكرته ما سيخاطب به المزارعين في اليوم التالي . وكان ، وهو يتناول الشاي ، يقلب أوجه الرأي في الطريقة المثلى للتخلص من ميراثه ، ثم دخل الغرفة التي أعدوها له في البيت الخاوي مرتاح النفس شأن من يقدم على عمل نبيل .

كان في الغرفة الجميلة ، الحسنة التهوية ، صور معلقة على الحيطان لبعض مناظر البندقية ، ومرآة بين النافذتين وسرير جميل وطاولة صغيرة عليها كوب ماء وعلبة ثقاب وأداة لإطفاء المصابيح .

كانت حقيبة الأمير موضوعة على الطاولة الكبيرة التي تحت المرآة ، وهي مفتوحة وفيها ثيابه الفاخرة وبعض الكتب بينهـــا كتاب بالروسية عنوانه « دراسات قانونية حول المسؤولية » وكتابان آخران يبحثان الموضوع ذاته أحدهما بالالمانية والآخر بالانجليزية .

كان يرغب في المطالعة خلال فترات الفراغ القليلة التي يسمح له بها وقته عند زيارته لممتلكاته ، غير انه في هذه المرة ، لم يصادف تلبية من نفسه ودافعاً من

رغبته ، وخصوصاً لمثل هذه الدراسات التي كان ذهنه مشغولاً عنها بأخرى تختلف عنها كل الاختلاف . وعندما وقـــع نظره صدفة ، على تواليت مرقمة ومصنوعة من خشب الورد كانت فيما مضى تحتل مكاناً بارزاً من غرفة نوم أمه ، شعر بألم عميق عندما تأكد من تخليه عن منزله الذي سيتهدم ، وحديقته التي ستملأها الأعشاب الضارة ، وغاباته التي ستباد ، وأهرائه المتقنة ، والمهار ، والأدوات الزراعية ، وعن ثروة إذا لم يكن قد كسبها فلا أقل من أنه كان لا يزال محتفظاً بها . كان قبل الآن يحسب أن التنازل عن كل شيء من الأمور السهلة الهينة ، اما الآن فقد أدرك ان مجرد التفكير به لا غير ، قد ملأ قلبه غماً وأسى . وعلى الأخص تنازله ، في مثل ظروفه عن نصف وارده السنوي . وطافت برأسه آلاف الأفكار والنظريات التي كانت ترى في تأجيره أراضيه ضرباً من الجنون ، وتهديماً منه لكيانه وثروته .

– ينبغي ألا أحتفظ بشيء من الأراضي ، ومتى كنت كذلك فليس بي من حاجة لإدارة أو مديرين ، وهكذا أذهب الى سيبيريا حيث لا أحتاج لبيت أو ممتلكات . – بمثل هذا كان يهيب به صوت فيجيبه آخر قائلاً :

– حسن جداً ، ولكنك سوف لن تقضي كل حياتك في سيبيريا ... وقد تتزوج غداً ، وقد تنجب أطفالاً وعندئذ يكون من واجبك تسليم هذه الأراضي لهم كما أسلمها لك اسلافك. عليك واجبات حتى تجاه الأرض ذاتها ينبغي أن تؤديها ... ان هبة الأرض ، وتهديم الثروة والكيان أمور بالغة السهولة ، ولكن الصعب الشاق فاعادة البناء . تفحص ، وتقصى بإمعان ، وأعمل الفكر ، وتأمل بمستقبلك ، وبعدئذ صرف شؤونك وفاقاً لما تكون قد كونته لنفسك من رأي .

وكان (نيكليندوف) لا ينفك يتساءل عن البواعث التي تكمن وراء ما ينويه من أعمال ، هل كانت بباعث من الضمير أم اهتماماً لما سيتحدث به الناس عنها ، ولكسب ثنائهم . وكان لا مفر له آخر الأمر عن الاعتراف بأنه كان لما سيتحدث به الناس ضلعه الأوفى فيها .

وكان وهو منصرف لتأملاته ، تستوقفه علامات استفهام جديدة ، وتبدو له القضية أكثر تعقيداً . ولكي يطرد عنه تلك الأفكار الملحة المقلقة استلقى على السرير محاولاً أن ينام قائلاً في نفسه : سأفكر في هذا الموضوع المعقد غداً عندما تكون الأعصاب هادئة ، والذهن مرتاحاً . غير انه لم يستطع رقاداً . كان يبلغ سمعه نقيق الضفادع وصداح العنادل المنبعث من الغابة غير النافذة التي كان ينساب منها نور القمر والهواء البليل . فأعاد ذلك الى ذاكرته الانغام التي كانت توقعها ابنة مدير السجن ، وهنا تذكر (ماسلوفا) وتمثلها أمامه ، في اللحظة التي قالت له فيها وشفتاها ترتعشان :

– ما مضى فات ، ولا داعي لاحيائه .

وصور له وهمه ان الالماني قد خرج لاسكات الضفادع ... وكان لا بد من العمل على الحؤول دون ذلك ... ولكن الالماني كان قد هبط السلم وغادر المنزل . وعلى غير ما وعي أو ادراك منه فقـــد تحول المدير في مخيلته الى (ماسلوفا) عندما كانت تزجره قائلة له :

– اليك عني ، دعني . أنا طعمة السجن . وسموك أمير ؛ فهتف يقول وقد اقشعر بدنه وعاد له سابق وعيه :

– كلا يجب ألا أتردد . ولكن يا ترى هل ما أنا مقدم على عمله صالح أم طالح ؟

كان لا يزال يجهل ذلك ، وسيعلمه فيما بعد ... ثم أخذ يبدو له وكأنه يهبط ، ويهبط باستمرار ومعه المدير و(ماسلوفا) ولم يلبث ان لفه الظلام في حواشيه .

٦١

كانت الساعة قد بلغت التاسعة عندما استفاق (نيكليندوف) من نومه في اليوم التالي ، فاحضر له الخادم الذي خصصه المدير لخدمته حذاء طويلاً لماعاً كصفحة المرآة ، وماء طازجاً نقياً ، وأبلغه أن المزارعين سيأتون قريباً تلبية لرغباته .

فقفز (نيكلييندوف) من سريره . وكان ما ساوره من ندم الليلة الماضية عندما فكر انه يتنازل عن أراضيه ويخرب بيته بيديه ، قد زايله دون أن يدع أثراً وراءه ، حتى أنه تذكره باستغراب ، وهو يرتدي ثيابه على عجل ، مرتاح النفس لوضعه موضع التنفيذ عملاً يكسبه الفخر . وكان يطل من حين لآخر على حقل (التنس) حيث كان سيجتمع مع المزارعين .

لم يكن عبثاً نقيق الضفادع العنيف الذي استمر طيلة الليلة الماضية ، فقد تساقط المطر رذاذاً عند الصباح ، وكانت قطراتـــه التي ظلت عالقة باوراق الأشجار وبراعم النبات تتلمع تحت نور الشمس كحبات اللؤلؤ ، وتفوح رائحة هي مزيج من عبير القرنفل ، ورائحة التربة المتعطشة للمزيد من الماء . وكان (نيكلييندوف) وهو يرتدي ثيابه يرى المزارعين يتوافدون الى حقل التنس ، فيحيي بعضهم بعضاً ، ويتحدث بعضهم الى بعض ، ويتحلقون حلقات متوكئين على هراواتهم الضخمة . وجـــاء بعد ذلك المدير ، وهو رجل قوي البنية بارز العضلات يرتدي سترة قصيرة عليها ازرار غير عادية ، جاء يعلن للأمير ان المزارعين قد اجتمعوا ، ولكن باستطاعتهم الانتظار الى ان يفرغ من تناول ما أعد له من طعام وشراب .

– كلا . من الأفضل أن أخرج اليهم الآن . – قال الأمير .

ولم يلبث ان استولى عليه الخجل ، عندما تذكر انه سيتكلم الى جمهور . لقد قدم المكان تلبية لرغبة ملحة ، وهو الآن لا يجرؤ حتى على اعلانها . جاء ينوي تقديم الغنم لهم ... ومع ذلك فالخجل يمنعه عن ذلك. ولم يكد يدنو منهم حتى كشفوا عن رؤوسهم تحية له وتقديراً ، فكانت متباينة الأشكال والألوان، فمنها الأشقر الشعر ومنها الأجعد ، والأصلع ، والذي وخطه الشيب . فكان ذلك سبباً جديداً في ازدياد خجله وتفاقم حصره ، وهكذا لبث فترة ليست بالقصيرة لا يقوى على التفوه بكلمة واحدة . وكان المطر ما زال يسقط طلاً ، فتقع قطراته الصغيرة اللماعة على الشوارب واللحى والرؤوس، ولبث المزارعون برهة شاخصين بابصارهم بانتظار ما سيقوله لهم سيدهم الذي كان قد بلغ بـــه اضطرابه حداً اعجزه عن الكلام .

وكان المدير شديد الثقة بنفسه ، متبجحاً بمعرفته التامة لاخلاق المزارعين ، يتكلم اللغة الروسية تكلماً صحيحاً ، قوي البنية ، وحسن التغذية ، بحيث كان منظره وهيئته يتعاكسان ومنظر المزارعين ذوي الوجـــوه المتجعدة الطالحة ، والاكتاف الهزيلة التي كادت تكون اقفاصاً فخفف لنجدته وليقطع حبل ذلك الصمت البغيض . فقال :

— ان الأمير يرغب في مديد المعونة لكم ، ويريد تسليمكم الأراضي ولكنكم لا تستحقونها .

— ولماذا لا نستحقها ؟ ألم نعمل لك كثيراً وجيداً ؟ — أجابه قروي أحمر الشعر .

— لقد كنا جد مسرورين على أيام المرحومة الأميرة ، ونحن جد شاكرين للأمير تفقده لنا .

— نحن راضون عن اسيادنا . — قال أحدهم وكان طويل اللحية ، بارز عظام المنكبين . — ولكن المعضلة الكبرى هي اننا قد تكاثرنا بحيث ضاق المكان بنا.

— لأجل هذا دعوتكم، وأرغب في أن أوزع عليكم الأراضي ما دمتم ترغبون ذلك . — قال لهم (نيكلينندوف) .

فوجمـــوا جميعاً ، ولبثوا صامتين كأنهم لم يفهموا ما قاله لهم ، أو كأنهم لم يصدقوا ما سمعته آذانهم . ووقف بعد قليل أحد (الموجيك) وكان متوسط العمر وقال :

— وماذا يعني توزيـع الأراضي علينا ؟

— يعني ايجارها لكم لتستطيعوا الاستفادة منها مقابل بدل زهيد تدفعونه .

فهتف الجميـع بصوت واحد مرحبين بالفكرة .

— هذا أمر عظيم . — قال مزارع عجوز .

— المهم أن يكون هذا البدل مستطاعاً .

— ان ما تعرضه حسن ونحن نقبل به .

— وسيكون ذلك أنفع حتى لسموك . ولكن المهم ان ندفع . تحدث في هذه الأيام أمور كثيرة ...

– أنتم المسببون وحدكم لما يحدث . – أجابه الالماني . – لو تصرفتم بنظام وعملتم عملاً صحيحاً لتأمنت مصالحكم .

– ماذا بوسعنا ان نعمل أكثر مما تعمل (باباسيليو كارلوفيتش) ؟ قال يسأل عجوز مستدق الأنف – انت تكرهني منذ مـــدة لأن حصاني دخل بعض حقولك ، وتريد ان تنتقم مني الآن .

– بامكانكم ان تكونوا أكثر محافظة على أملاك الغير .

– هذا قول يصلح للحديث ، ولكن العمل به أمر عسير . – أجابه فتى اسمر اللون كث الشعر .

– لقد أمرتكم بأن تقيموا حواجز .

– بلى . ولكن القول وحده لا يكفي . ولا بد من وجود الخشب ايضاً .

– اجابه قروي صغير الجثة منهك الجسم .

– ما معنى هذا الكلام ؟ – قال الأمير يسأل وكيله :

Der corte Dieb im Dorfe.

– أجابه بهذا ثم أضاف باللغة الالمانية . – في كل عام نقبض عليهم ملتبثين بجريمة سرقة اشجار الغابة . – وأنت – قال موجهاً الكلام الى العامل – تعلم ان تحترم ملك الغير .

– اترانا لا نحترمك ؟ – أجاب العجوز .

– لا يسعنا الا ان نحترمك لأننا تحت رحمتك .

– يا أعزائي . ما دمتم تكرهون المضايقات ، فجربوا أن لا تؤذوا الناس على الأقل .

– نحن نؤذيك ؟ لقد خرب بيتي في الصيف الماضي . وها آنذا تراني . يبدو ان الحاكم لا تحكم على الأغنياء .

– لو تصرفت كما ينبغي لما حدث لك ما حدث .

ظل الحوار بين العمال والمدير يسير على هذا الشكل فترة غير قصيرة ، على الرغم من أن أحداً منهم لم يكن يدري لما يفعل ذلك او ماذا يتوخى منه . غير

ان (نيكليندوف) كان يرغب في انهاء تلك القضية بأسرع ما يستطاع، وتعيين قيمة أجر الأرض ، وكيفية دفعه .

– حسن . ماذا تقررون بشأن الأرض . اتستأجرونها أم لا ؟ اذا تنازلت لكم عنها نهائياً فماذا تدفعون لي بدل أجرها ؟

– ما دامت الأرض تخصكم فعليكم وحدكم تعيين بدل الآجار .

فعين (نيكليندوف) لهم قيمة . فأخذوا يبكون ويشكون زاعمين أنه أجر غال جداً . كما هو الحال دائماً ، حتى ولو كانت القيمة أقل بكثير مما يدفعه جيرانهم .

كان (نيكليندوف) يحسب ان عروضه ستلاقي ترحيباً وقبولاً من قبل المزارعين ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، ولم يبدر منهم ما يدل على انهم كانوا يرونها لصالحهم الا عندما سألهم عما اذا كان ينبغي ان يتنازل عنها لصالح جمعية أم لأفراد ، اذ نشب خلاف حاد بين الفئة التي تحاول اقصاء الأضعف والأفقر ، وبين من يعارضون ذلك .

وأخيراً ذللت الصعاب وسويت الأمور بفضل تدخل الالماني ، واتفق على قيمة البدل وطريقة دفعه فعاد القرويون الى منازلهم وهم يتناقشون ويتجادلون في الموضوع وكان نقاشهم صراخاً . وعاد الأمير ووكيله الالماني الى المكتب ليضعوا صيغة العقد .

انتهى الأمر كما كان يرغب الأمير ، وحصل المزارعون على الاراضي بشروط أفضل من شروط القرى المجاورة ، وهبطت بسبب ذلك ، نسبة وارداته الى ما يقرب النصف ، غير انها كانت ما تزال عالية ، حتى بعد حذف ما يحصل عليه من بيع الغابة ، والأصناف المخزونة في الاهراء . وكان يبدو ان كل شيء قد تم بشكل مرضٍ ، الا أن الأمير كان يبدو قلقاً منقبض النفس ويشعر بما يشبه الخجل . لقد اتضح له ان المزارعين على رغم ما أظهروه له من الشكر والامتنان لم يكونوا على رضى تام لتوقعهم ما هو أكثر . وهكذا فقد تبين له انه قد ضحى بقسم كبير من دخله ، دون ان يتوصل لارضائهم .

في اليوم التالي لتوقيع الاتفاقية مع المزارعين استقل (نيكليندوف) عربة المدير التي حدثه عنها (جامسيك) الحوذي، وذهب الى المحطة مودعاً من شيوخ المزارعين وكهولهم الذين رافقوه مفكرين مترددين ، وهم يهزون رؤوسهم . كان الأمير يحس احساس من بدأ عملاً صالحاً ولكنه لم يتممه . لم يكن راضياً عن نفسه ... كما لم يكن يعلم سبباً لذلك . وكان يشعر بالغم والخجل على السواء .

٦٢

على أثر مغادرةِ (نيكليندوف) لمزرعته في (كوسميسكوجي) ذهب الى (بانوفـــو) المزرعة التي ورثها عن خالتيه ، والتي التقى فيها (بكاترين) للمرة الأولى .

كان ينوي تسوية أموره فيها على غرار ما فعله في مزرعة (كوسمينسكوجي) ولكنه كان أكـــثر رغبة في الحصول على المزيد من المعلومات عن (كاترين) وولدها ... وهل مات حقاً ؟ ... وكيف كان موته ؟

كان وصوله الى (بانوفو) صباحاً ، وأول ما استرعى انتباهه وهو يجتاز الرواق في ذلك القصر القديم ، مظاهر الاهمال البادية عليه . كان السطح ، وهو من الحديد ، قد علاه الصدأ لأنه لم ينظف منذ أمد بعيد. وكانت أبواب الواجهة الرئيسية مفككة الأوصال مخلعة ، وكذلك الباب الصغير الخلفي الذي يوقظ الكثير من الذكريات في نفس الأمير (نيكليندوف) ، والنوافذ تتجلى فيهـــا مظاهر الخراب، وحتى غرفة الادارة والمطبخ وغرف الخدم كلها كانت مهجورة قذرة . ولم يكن ثمة ما قد لقي قليلاً من العناية والاهتمام سوى الحديقة لاحتوائها على الكثير من أنواع الفاكهة. كانت أغصان أشجار الكرز والخوخ التي أمـــام الباب تتسابق منتشرة في الفضاء ، مثقلة بازهارها مشبهة الغيوم البيضاء . وفي الناحية المقابلة كانت الأشجار أيضاً تنوء بازهارها كعهده بها منذ اثني عشر عاماً، عندما جرى جنباً الى جنب مع (كاترين) فسقط على الأرض وتشقق كفاه . كذلك كان النهر يجري في مجراه المعهـــود ، ويرتفع صوت خرير مياهه عند

الطاحون حيث يكون شلالاً، وتمتد على الضفة الثانية منه الحقول الواسعة حيث كانت المهار والخراف المتباينة الألوان ترعى هادئة مطمئنة .

كان المشرف على تلك المزرعة رجلا قد تخرج من إحدى المدارس الدينية ، ولكنه هجر مسوحه والتحق بخدمة ذلك البيت. وعندما وصل (نيكليندوف) خف لاستقباله الى خارج الرواق هاشاً باشاً تمييزاً له . ودعاه الى مكتبه . ولما عادت العربة التي حملت الأمير من المحطة ساد سكون مطبق وهدوء شامـــل . وكان بالقرب من النافذة فتاة تسير حافية القدمين ، ومن ورائها قروي لا يرتدي سوى القميص . فجلس (نيكليندوف) أمام النافذة وراح ينصبت وهو يسرح نظره في الحديقة من مكان لآخر . كانت نسمات الربيع البليلة تلطف جو الغرفة، فتدغدغ جبينه الذي كان يتصبب عرقاً ، وتعبث بأوراق كانت على الطاولة ، وتحمل إليه رائحة التربة التي حرثت حديثاً . وكان صـــوت مخابط الغسالات اللواتي كن يغسلن الثياب في النهر ، يبلغ صداه مسامعه متشابكاً موحـــداً أحياناً ، ويمتد عبر النهر الذي كانت مياهه تتلمـــع تحت نور الشمس . وفجأة حدثت له ظاهرة فريدة من نوعها .

لقد أعادت له مخيلته صورة نفسه أيام كان شاباً وبريئاً . كان آنئذ يجـــد سلوى في الإصغاء الى صوت مخابـــط الغسالات ، وسقوط الماء في الطاحون . وكانت آنئذ نسمات الهواء تتماوج فوق جبينه الذي ينضـــح عرقاً ، وتداعب أوراق الأشجار . فعاد لا ليرى نفسه كما كان في تلك الأيام السعيدة فحسب ، بل أكثر من ذلك عاد ليرى نفسه ممتلئاً براءة وغضارة فتوة ، تتمخض روحه بأحلام في المستقبل ، ومثل عليا رائعة . وكما يحدث في عالم الأحـلام ، فإنه سرعان ما تبين أن كل ذلك قد ذهب الى غـــير رجعة ، فاستولت عليه كآبة عميقة .

— متى تريد أن تتناول الطعام ؟ — قال له المشرف باسماً .

— كما تريد . غير انني لا أشعر بميل للطعام الآن ، وسأقوم قبل ذلك بجولة في القرية .

– إذا أردت تفقد حال المنزل فستجده من الداخل على أحسن ما يرام ... إذا كان مظهره الخارجي ...

– كلا . كلا . سأتفقده فيما بعد . ألا تزال حية المرأة المدعوة (مـــاترونا كارينا) ؟

كانت تلك خالة (كاترين) .

– بلى . وهي تسكن القرية ، وتسبب لي كثيراً من المزعجات . تمتلك حانة ولا أنفك في شجار معها . ولكن ما العمل ؟ لست أريد أن أبلغ السلطات عنها لكونها عجوز ، وتحتضن أطفال أختها . – أجاب المشرف دون أن يكف عن الابتسام .

– أين تسكن ؟ اشتهي أن أراها .

– في نهاية القرية ، في الكوخ الثالث بعد الشارع الكبير سأرافقـــك إذا أحببت .

– أشكرك . على كل حال سأهتدي الى منزلها . والآن أرجوك أن تدعـو المزارعين لأنني أرغب في التحدث إليهم .

كان في نية (نيكليندوف) أن يتخلى عن ممتلكاته في (بانوفا) كما تخلى عنها كوسمينسكوجي) .

٦٣

عندما غادر (نيكليندوف) المنزل التقى بفتاة ترتدي قميصاً موشى تسير في الطريق حافية القدمين ملوحة بيدها اليسرى بحركة هادئة رتيبة ، في حـــين كانت اليمنى تحتضن ديكاً أحمر يماوج عرفه تيهاً واعتزازاً ، ويمد احدى ساقيه من حين لآخر فتعلق أظافره بثوبها . ولما أبصرت الفتاة الأمير قادماً تباطأت ثم وقفت الى أن حاذاها فحيته كالعادة بأن أرجعت رأسها الى الوراء، ثم انصرفت تسرع الخطى ، وهي ما تزال تحتضن الديك . كذلك التقى ، عنـــد البئر ، بعجوز ترتدي قميصاً رمادياً قذراً ، ترزح تحت قلتين من الماء أنزلتهما الى الأرض عندما اقترب منها وحيته بمثلما حيته به الفتاة . وكان هذا البئر بداية القرية .

كان النهار صحواً وحاراً ، وعلى الرغم من كون الساعة لم تكن قد تجاوزت العاشرة صباحاً ، فقد كان الجو خانقاً . وكانت الغيـــوم قد بدأت تتكاثف فتحجب نور الشمس أحياناً، وتنبعث رائحة نفايات الحيوانات المحملة في العربات التي تتجه بها الى المرتفعات ، ومن الأكداس التي أخرجت حديثاً من الدور التي كان (نيكليندوف) يمر بها .

كان العمال الذين يسيرون وراء العربات حفاة الأقـــدام ، عراة الرءوس ، ملطخو القمصان والسراويل بالأوساخ ، يظلون فترة من الوقت يتلفتون وراءهم ليشاهدوا ذلك السيد الطويل القامة الضخم الجثة ، الذي يضع على رأسه قبعة رمادية اللون عليها شريطة حريرية تتلمع تحت نور الشمس ، وهو يسير باتجـــاه القرية يقرع الأرض بعصاه ذات المقبض المذهب . وكان العمال العائدون بعرباتهم من الحقول ، يحملون قبعاتهم بأيديهم ، ينظرون بفضـــول الى ذلك السيد الذي جاء يتنزه في شوارع قريتهم . والنساء وهن جالسات أمام بيوتهن كن يتآرنه أنظارهن ويتغامزن عليه .

واضطر (نيكليندوف) على أن يتوقف بعض الوقت عند الباب الرابع ، لأن عربة كبيرة محملة بالزبل كانت تخرج منه آنئذ محدثة ضجيجاً قوياً بعجلاتها . كان يقود الجواد عجوز أحمر اللون ، قوي البنية ، حافي القدمين ، يرتـــدي سروالاً بالياً وقميصاً قـــذراً ينكشف عن أكتاف عارية من اللحم . وعندما خرجت العربة والجواد الى الشارع التفت العجوز ناحية البيت وحيا الأمير .

— ألعلك ابن أخت السيدة ؟

— أهلاً بك . هل جئت لزيارتنا ؟ — قال العجوز مرتبكاً .

— بلى . كيف صحتك؟ — قال له (نيكليندوف) استدراجاً له في الحديث .

— بِـشْ ... كيف تريد أن تكون حياتنا ؟ انها قليلة السرور . — أجاب العجوز الذي يبدو أنه كان يريد أن يقول أكثر مما قال .

— ولماذا ؟ — سأله الأمير بعد أن دخل البيت .

— أعتقد أنها لا يمكن أن تكون أسوأ . — قال العجوز وهو يقوده الى ما تحت السقيفة المصنوعة من القش .

– نحن هنا اثنا عشر شخصاً في هذا البيت . – قال العجوز وهو يشير الى امرأتين كانتا تقفان في كومة النفايات حافيتين ملوثتي الساقين بسائل أصفر ، مشمرتي الثياب ، وتغطيا رأسيهما بغطاء رقيق وتستند كل منهما على مذراة . – احتاج الى ست (بوندات) من الخبز شهرياً (البند ١٦,٥٠ كيلوغرام) وليس لدي مال .

– ألا تكفيك غلتك ؟

– غلتي ؟ – قال الشيخ ساخراً . – ان الأرض التي استغلها تعيل ثلاثة أشخاص فقط ، وكان نتاجها هذا العام ثمانية أكياس من الحبوب ، وقد استهلكت قبل حلول عيد الميلاد .

– اذن ، كيف تسوون أموركم ؟

– يشتغل أحد أبنائي كعامل ، واستدنت بضع روبلات من صاحب المعالي ، وقد وفيته ولكني لم أتمكن من تسديد أجر الأرض .

– وكم تدفعون ؟

– علي أن أدفع أجر المنزل سبعة عشر روبلاً عن كل أربعة أشهر . ما أسوأ هذه الحياة ... لا يستطيع المرء التخلص من الضائقة .

– هل يمكن لي أن أدخل البيت ؟ – قال (نيكليندوف) يسأل وهو يتقدم من فناء البيت ماشياً في النفايات التي كانت تنبعث منها رائحة قوية حادة .

– ولمَ لا ؟ – أجاب العجوز وهو يمشي حافي القدمين ليفتح له الباب ، فيندفع سائل أصفر من بين أصابع قدميه .

وكانت المرأتان ، وقد أصلحتا غطاء الرأس ، وسدلتا الثياب ، تراقبان بجزع ذلك السيد ذا الأزرار المذهبة الذي يدخل كوخهما . وخرجت من باب الكوخ فتاتان جميلتان لا تلبسان سوى قميص .

ونزع (نيكليندوف) قبعته عن رأسه ، ودخل الغرفة مطأطىء ، فالمطبخ حيث كانت تنبعث رائحة الطعام . كان بجانب الفرن قروية عجوز قد شمرت عن ساعديها وانصرفت تعد الطعام .

– هذا هو السيد المالك وقد جاء ليتفقد حالنا . – قال الرجل العجوز .

– تفضل . تفضل اجلس . – هتفت المرأة العجوز تقول بأدب وهي تسدل أكامها .

– أحببت أن أرى كيف تعيشون . – قال (نيكليندوف) .

– إن حياتنا كما تراها . يكاد الكوخ أن يتداعى لفرط القدم . وإذا سقط فقد يقضي علينا جميعنا . نحن نحيا كالملوك . – قالت العجوز بلهجة مرحة وهي تهز رأسها . – أنا الآن أعد الغداء ، لأن من الضروري أن يأكل من يعمل .

– ماذا أعددت للغداء ؟

– ماذا أعددت ؟ لقد أعددت طبقاً فاخراً . خبز و كفاس للطبق الأول . كفاس وخبز للطبق الثاني . – أجابت العجوز ضـــاحكة فظهرت اسنانها المسوسة .

– أرجو ألا تمزحي ، وان تطلعيني على ما أعددت لغداء اليوم .

– آه أتريد أن ترى غداءنا الريفي ؟ يا له من فضول ؟ أرى إنك تريد أن تطلع على كل شيء . لقد قلت لك أنه خبز مع الكفاس ثم قليل من الحساء مع السمك الذي جاءت به النسوة نهار أمس ، وقليل من البطاطة .

– أهذا كل شيء ؟

– وماذا تريد بعد ذلك ؟ لدينا قليل من الحليب – قالت العجوز وهي تضحك ناظرة ناحية الباب المفتوح الذي كان قد ضاق بالأطفال والنساء اللائي جئن يحتضن أطفالهن وقد أعجبن من أمر ذلك السيد الذي يهتم بالاطلاع على غداء القرويين .

– أقول لك يا سيدي ان حياتنا مؤلمة . – قال له الرجل العجـــوز ، ثم التفت الى الجمهور المحتشد في باب الغرفة وصرخ قائلاً :

– ماذا تريدون أنتم ؟

– الى اللقاء إذن . – قال لهم (نيكليندوف) مودعاً وخرج وهو مضطرب الأفكار يشعر بخجل لا يستطيـع له تعليلاً .

وأفسح له النساء والأطفال الطريق فخرج الى الشارع ليتابـــع طريقه الى الجبل . وتبعـــه طفلان حافيان ، يرتدي أطولهما قميصاً قذراً جداً ، حتى لا يعرف إذا كان لونه في الأصل أبيضاً . ويرتدي الثاني قميصاً وردي اللون بالياً .

– الى أين تريد الذهاب ؟ – قال له أكبر الطفلين .

– أريد الذهاب لبيت (مانزوتا كارينا) . – أجاب الأمير – أتعرفان بيتها ؟

فأغرب الصغير في الضحك ، ولكن الأكبر سأله جاداً :

– أي (ماترونا) تعني ؟ أهي عجوز ؟

– أجل هي عجوز .

– آه – هتف الأول . – قد تكون هذه (سيمينيك) . إن منزلهـــا في طرف القرية الثاني . سنرافقك الى هناك . هيا بنا يا (فيدكا) . ولنرافق السيد .

– والخيل ؟

– لا عليها . دعها .

فوافق هذا في الحال وانطلق الثلاثة .

٦٤

كان الأمير يجد في مرافقة الصبيان متعة أكثر مما يجده في مرافقة الرجال البالغين ، ولذا أخذ يتحدث إليهما .

كان الصبي ذو القميص الوردي ... قد كف عن الضحك ، وأخذ يتحدث كالرجال البالغين .

– من هو أفقر شخص في قريتكم ؟ – سألهما (نيكلنيدوف) .

– من هو الأفقر ؟ ان ميخائيل فقير و (سيمون مكاروف) فقير ، وحتى (مارفا) أيضاً شديدة الفقر .

– إن أفقر شخص هي (أنيسيا) . هي فقيرة لدرجة أنه ليس لديها عجلة صغيرة ، وهي تقيم أودها مما تستجديه .

– صحيح انه ليس لديها عجلة صغيرة ، ولكن عائلتها مـــؤلفة من ثلاثة أشخاص فقط . أما (مارفا) فانها تعيل خمسة .

– ولكن (أنيسيا) أرملة .

– إذا كانت (مارفا) ليست أرملة فهي منفصلة عن زوجها .

– وأين هو زوجها ؟ – قال (نيكليندوف) سائلا :

– هو في السجن . – ثم أخذ يشرح له كيفية وقوع الحادث – كان المسكين قد قطع في الصيف الماضي ، شجرتين من غابة صاحب المزرعة ولذا اقتيد الى السجن منذ ستة أشهر في حين تعيش زوجته وأولاده الثلاثة وأمه العجوز على الاستعطاء .

– وأين هو بيت (مارفا) ؟

– ها هوذا . – أجابه الصبي ثم أشار الى بيت صغير يلعب أمامه طفـــل هزيل الجسم شاحب اللون .

– أين أنت يا (فاسكا) يا شيطان – صرخ صوت نسائي من داخل البيت ، ثم خرجت على أثره امرأة متهافتة لا يكسوها غير قميص قـذر ، وانقضت على الطفل ، واختطفته من أمام الأمير والرعب ظاهر على وجهها ، ودخلت به الى البيت ، كأنها كانت تخشى أن يناله الغريب بسوء . كانت تلك (مارفا) زوجة الرجل السجين لقطعه شجرتين من غابة الأمير .

– هل (ماترونا) فقيرة ؟ – قال الأمير يسأله بعد برهة وجيزة .

– كيف تكون فقيرة وهي تبيع الخمر . – قال الصبي الصغير .

وصرف (نيكليندوف) الصبيين عندما اقترب من المنزل ودخـــله . كانت غرفة واطئة السقف ، بحيث لا يستطيع شخص طويل القامة الوقوف فيها بملء قامته . وكان في وسطها مدفأة ومن ورائها سرير .

– في هـــذا السرير كانت (كاترين) مريضة . – قال (نيكليندوف) في نفسه .

كان منظر الكوخ زرياً ، وتتدلى على حيطانه خيوط العنكبوت . وعندما

دخل (نيكليندوف) فاصطدم رأسه بعتبة الباب ، كانت العجوز تعد عملاً لكبرى بنات أختها ولنفسها أيضاً .

– عمن تبحث ؟ – قالت العجوز تسأله منذ مرة ساخطة لأن ما تعمله لم يأت على نحو يرضيها ، فضلاً عن أنها كانت تكره دخول الغرباء الى بيتها مخافة الوشاية بها لبيعها الخمر الممنوع بيعه .

– أنا صاحب المزرعة وأرغب في التحدث اليك .

فدهشت العجوز واستولى عليها الوجوم، وأقبلت تتفحص الأمير . وسرعان ما تبدلت لهجتها ، وقالت بتودد مصطنع .

– هـذا أنت يا حبيبي ؟ لم أعرفك لفرط جهالتي . ظننتك بعض الغرباء الكثيرين ...

– أريد أن أتحدث اليك على انفراد . – قال (نيكليندوف) وهـو ينظر باتجاه الباب حيث كان يقف بعض الصبية وامرأة هزيلة الجسم تحتضن طفلاً شاحب اللون على رأسه قبعـة وقد تآكلت الحمى جسمه فاشتد هزاله ، ومع ذلك فقد كان دائم الابتسام .

– ماذا تريدون أيها الفضوليون ؟ انتظروا قليلاً لأريكم عاقبة ازعاج الناس . أعطني هذه العصا . – صاحت العجوز . ولما رأت أن الصبيان قـد فروا ، قالت للمرأة الهزيلة : اغلقي هذا الباب .

ففعلت المرأة ما أمرتها به .

– وأنا التي كنت أقول ترى من عساه يكون ؟ وكنت أنت يا سيدنا الطبيب الكبير المحبوب . ألا تتقزز نفسك من الدخول الى زريبتنا ؟ ما أطيبك . اجلس هنا يا صاحب السعادة على هذا المقعد . – قالت العجوز ذلك ومسحت المقعد بصدارتها – وأنا التي كنت أقول ترى من هذا القادم إلينا ؟ وكنت أنت أيها السيد المحسن الينا ، الذي يعولنا جميعاً . سامحني انني امرأة جاهلة وأكاد أكون عمياء .

جلس (نيكليندوف) على المقعد ، ووقفت العجوز أمامه واضعة كف يدها

اليسرى تحت كوعها الأيمن ، وذقنها على راحة كفها الثاني ، ثم مضت تواصل حديثها .

– أتدري يا صاحب السعادة انك تبدو أكبر سناً ؟ عندما عرفتك كنت ما تزال قوياً نشيطاً ، وقد تغيرت كثيراً . ويبـــدو انك لست خلي البال من منغصات الحياة .

– جئت لكي أسألك عن (كاترين ماسلوفا) فهل لا تزالين تتذكرينها ؟

– (كاترين) ؟ لا شك في أنني لا أزال أتذكرها . هي ابنة أختي ، وقد كلفتني دموعاً غزيرة . أعرف تاريخ حياتها بـــكافة تفاصيله ... ولكن من ذا الذي لم يقترف ذنباً ؟ لقد كنتما حدثين تتناولان الشاي معاً ، وتشربان القهوة سوية و ... ليكن ما يكون ... ما العمل ؟ ولم يكن لديك ما يمنع من تركها ، ومع ذلك فقد أعطيتها مئة روبل . تأمل كيف كانت نهايتها . يا لها من غبية . لو أطاعت رأيي وعملت بنصحي اذن لعاشت عيشة حسنة . ولكنها لا تساوي إلا القليل ، أقول ذلك على الرغم من كونها ابنة أختي ، فالحق يجب أن يقال . لقد بحثت لها عن عمل حسن ، فلم ترض التقيد به وشتمت سيدها فطردوها . ثم بعد ذلك لماذا لم تبق في منزل حارس الاحراج ؟ انها بدلاً من سلوك السبيـــل الحسن ، أساءت التصرف فطردت أيضاً .

– يهمني أن أعلم ما هو مصير الطفل . أظنه ولد هنا . فماذا حدث له ؟

– لقد بذلت جهدي في سبيله . كانت (كاترين) بحالة خطرة ، وحسبتها ستموت . ولذا عمدت الطفل وبعثت به الى ... لمـــاذا أترك بريئاً يتعذب ؟ بعضهم يدع الطفل ليموت جوعاً ... أما أنا فأبيت له ذلك . ولذا بعثت به الى الميتم .

– أتتذكرين رقمه ؟

– كنت أحمل رقمه ولكن الطفل مات بعد أيام قلائل بناء على مـــا قالته هي لي .

– من هي هذه ؟

– انها المرأة التي كلفتها بهذه المهمة وقد ماتت ، وكانت تدعى (ميلانيا) . كانت تترك الأولاد عندها حتى يصبح لديها ثـــلاثة أو أربعة ، ترضعهم بالرضاعات .

– بصورة كان ...

– هكذا فعلت بابن (كاترين) . لقد طال بقاؤه عندها حتى مرض ومات.

– هل كان جميلاً ؟

– بلا ريب . – قالت العجوز متملقة . – وكان يشبهك تماماً .

– ولكن لماذا مرض ؟ أمن نقص التغذية ؟

– هذا ما أتصوره . لقد كان أهم شيء لدى هذه المرأة تسليمه حياً . لقـد أخبرتني أنه مات فور وصولهم الى موسكو وقد أعطتني شهادة الوفاة . لقد كانت بارعة بمثل هذه الأمور . لقد كانت تجتهد في تنظيم أمورها .

ومضى الأمير يلقي عليها السؤال تلو السؤال ، ولكن سؤالاته وتحرياته لم تأت بأكثر من ذلك .

٦٥

عندما هم الأمير بمغادرة الكوخ ، كان قد أصيب بخيبة أمل مريرة ، إذ لم يحصل على مزيد من المعلومات من تلك العجوز المتملقة ، السيئة القصد . ولدى خروجه من الكوخ اصطدم رأسه بعتبة الباب .

كان الولدان الصغيران اللذان رافقا الأمير ، وكثيرون غيرهما لا يزالون في الشارع ، ومعها امرأتان تحتضنان طفلين، وكذلك المرأة الهزيلة التي تحمل ذلك الطفل الهزيل الذي يشبه وجهه وجـــه عجوز ، والذي لا تفارق الابتسامة شفتيه . فعرف (نيكليندوف) فيها بسمة الألم . وعندما سأل من تكون هــذه قيل له انها (أنيسيا) المرأة التي تحدثوا عنها . وعندئذ سألها مما تعول نفسها .

– مما أعول نفسي ؟ يا لتعاستي. أعول نفسي من احسان المحسنين . – قالت ذلك وامتلأت عيناها بالدموع بينما كان الطفل الصغير يحرك ساقيه الهزيلتـــين كتحرك الدودة فأخرج الامير حافظة نقوده وأعطاها عشر روبلات . ولكنه

لم يكد يخطو أربع خطوات ، حتى تقدمت منه امرأة تقود طفلاً ، ثم عجوز ، ثم امرأة أخرى ، وأخرى ، وكلهن يشكين له سوء حالهن ، ويتوسلن إليه أن يمد لهن يد المساعدة . غير أنه لم يكن يحمل معه سوى سبعين روبلاً وزعها عليهم ثم عاد الى البيت وقلبه طافح بالغم .

وخف المشرف لاستقباله بوجه مشرق باسم ، وأبلغه ان المزارعين سيأتون مساء ذلك اليوم .

— حسن . شكراً لك . — أجاب الأمير .

ولم يدخل المنزل ، وانما لبث بعض الوقت يطوف في ممرات الحديقة حيث كانت أشجار التفاح تمطرها بفيض من أوراق أزهارها ، مستعرضاً في مخيلته مشاهد الفقر المدقع التي رآها . يموت الشعب الذي ألف هذا الاحتضار البطيء الأليم . ويموت الأطفال ، وتسقط النسوة عياء تحت وطأة الأعمال المرهقة ، التي تفوق حدود طاقتهن . ومع ذلك فالجميع ، وخصوصاً الشيوخ العجزة ، لا يجدون قوت يومهم . ولما كان الشعب قد بلغ هذه الحالة بصورة تدريجية ، بطيئة ، ولاشعورية ، بحيث لم يتبين معها سوء حاله ، فقد ظنها الأغنياء أمراً طبيعياً لا يمكن أن يكون بصورة أخرى .

وبدت تلك الحقائق المؤلمة لعيني (نيكليندوف) من الوضوح والجلاء بحيث أخذ يتساءل مدهوشاً كيف لم يلاحظها الآخرون حتى الآن ، وكيف ظلت طوال هذه المدة خافية عليه ، وكيف لم يدرك انه إذا كان الشيوخ والأطفال يسقطون عياء وجوعاً فلأن الأرض لم تنبت ما يشبع الماشية ، ولأنها عجزت عن انتاج الكفاية من الحبوب والأسمدة ، فقامت في ذهنه فكرة متهوسة لمشروع جريء وهي تأجير الأرض للمزارعين مقابل بدل زهيد يكون من حصيلة رأسمال يحتفظ به لصالح المزارعين أنفسهم يستعملونه لدفع الضرائب ، وللأعمال المشتركة المنفعة بينهم . وحتى هذا ليس بالحل النهائي الصحيح للمشكلة ، ولكنه بداية الطريق اليه . وهو الآن مقدم على تنازله عن الملكية الفردية للأموال غير المنقولة .

وفور عودته الى البيت استقبله المشرف بشوشاً كعادته ، ودعاه الى غرفة الطعام حيث أعد له الغداء ، معتذراً ، ومبدياً تخوفه من أن يكون الطعام الذي أعدته زوجته وابنتها مما لا يرضي ذوقه .

كان يغطي الطاولة غطاء سميك ، فوقه مناشف مطرزة الحواشي لتحل محل فوط المائدة ، وقدر قـــديم يحتوي على نوع من الطعام هو مزيج من لحم الدجاج والبطاطة . وقد يكون هذا لحم الديك الذي رآه في الصبـــاح يعتز بعرفه ، ونوع آخر من الطعام مصحوب بلحم الدجاج ، وعجة مجللة بالجبن والسمن والسكر ، وخمر . وبوجه الاجمال فقد كانت وجبة قليلاً ما تتشهاها النفس . ولكن (نيكليندوف) لم يلق بالاً لما أكله إذ كان منصرف الفكر لما هو مقدم على القيام به . وكانت الكآبة التي لازمته في أعقاب عودته من القرية قد زايلته .

كانت زوجة المشرف لا تنفك تطل عليهم من الباب باستمرار ، في حين كانت ابنتها شبيهة بالمرعوبة وهي تنقل أطباق الطعام . وكان رب البيت دائم الابتسام ، راضي النفس ، فخوراً من براعة زوجته . وعندما رفعت المائدة دعى (نيكلنغدوف) وكيله وأجلسه بجانبه وأخذ يشرح له المشروع الذي ينوي وضعه موضع التنفيذ ، طالباً اليه رأيه . وكان هذا ، وهو ما زال يبتسم ، يعلن موافقته مسروراً لتلاقي رأييهما ولكن الحقيقة كانت غير ذلك ، فهو لم يفقه شيئاً مما شرحه له ، ولم يكن هذا عن قصور أو عجز في التعبير من جانب الأمير ، وانما لأن الفكرة التي جاء بها هذا تناقض نظريته حول الملكية لدرجة انه عندما قال له الأمير انه سيتنازل عن كل شيء ، وان ما ينتج من بدل أجار الأرض سيتكون منه رأسمال يحتفظ به لصالح المزارعين أنفسهم يستعملونه لحاجاتهم ، عندما قال له الأمير ذلك حسب انه قد أساء الفهم . فقال بلهجة الظافر .

— لقد فهمت الآن . ستتقاضى سموك الفوائد .

— كلا . تمعن فيما أقوله جيداً . سأتنازل لهم عن الأرض كلياً .

– وتبقى بدون دخل البتة ؟ – سأله المشرف وقد زايله الابتسام .
– هذا بالضبط . سأتنازل عن كل دخل .
فصعد المشرف زفرة عميقة ، ثم عاد الى الابتسام وراح يفكر في مصلحته وكيفية الاستفادة في المستقبل ، وعندما تأكد من استحالة ذلك عليه استولى عليه الحزن والغم الشديد ، ولكنه على رغم ذلك عاوده الابتسام مسوقاً بطبعه الخنوع .
وإذ أدرك (نيكليندوف) ان وكيله كان في شغل عنه ولم يكن يصغي اليه ، قام من مكانه وجلس الى طاولة صغيرة ملطخة بالحبر وشرع في وضع مشروعه .
كانت الشمس قد أخذت تتوارى خلف أشجار البيلسان ، والذباب المتسرب ارجالاً من النافذة قد بدأ يلاحقه بلسعاته ، ويسمع صوت نوافذ وأبواب تفتح وتغلق ، ولغط رجال يتحدثون بأصوات عالية دفعـــة واحدة ، فهب (نيكليندوف) من مقعده ، وتناول قدح الشاي الذي قدمته له زوجة المشرف ومضى لملاقاة المزارعين الذين كانوا قد تجمعوا عند مدخل القرية .

٦٦

كان لغط المزارعين المحتشدين أمام باب الجابي شديداً وحاداً ، ولكنهم ما ان ابصروا الأمير قادماً نحوهم حتى نزعوا قبعاتهم عن رؤوسهم ، وهدأ الضجيج وساد السكون .
كان هؤلاء المزارعون اجمالاً أشد فقراً من سكان (كوسمينسكوجي) . فكانوا يحتذون الخشب وبعضهم كان يمشي حافياً . وقمصانهم ممزقة ، وبعضهم كان قد عاد لتوه من العمل .
وشرع (نيكليندوف) يتحدث اليهم عن مشروعه ، بعد مجهود كبير قام به للتغلب على خجله ، وصرح لهم برغبته في التنازل لصالحهم عن كل ما يملكه ، ولكنه لم يلاحظ منهم أي بادرة رد فعل حسن لديهم .

– أنا أعتقد ان لكل فرد حق فيما تنتجه الأرض . – قال وقد احمر وجهه خجلاً .

– هذا هو . هكذا يجب أن يكون . – أجاب الجميع بصوت واحد .

ومضى (نيكلينديوف) متابعاً كلامه قائلاً : ان خيرات الأرض للجميع . ولذا قررت أن أتنازل لكم عنها بأجر تعينونه انتم . ومن هذا الأجر يتكون رأسمال تستغلونه لصالحكم .

كان كلامه موضع استحسان الجميع . ولكن تعبيرات وجوههم القاسية كانت أقوى دليل على تخوفهم وشدة حذرهم وكأن لسان حالهم يقول : سوف لن نقع في الفخ . ومع هذا فلم يكونوا يرغبون في احراج الأمير ، فقد كانوا لا يرفعون أنظارهم اليه .

كان حديث (نيكليندوب) من الوضوح بحيث لا يـــدع مجالاً للبس أو ابهام . وكان بين المزارعين غير واحد ممن يحسنون الفهم ، ومع ذلك فان أحداً منهم لم يبد عليه انه فهم شيئاً مما عرضه لهم ذلك لأنه كان فوق مقدورهم ان يتصوروا ان رجلاً يبلغ من الطيبة والانسانية درجة تجريد نفسه من سائر ما يملك لصالح الغير بمثل هذه السرعة والسهولة دون أن يكون في الزوايا خفايا .

– أي أجر نضع للأرض ؟ – قال لهم (نيكليندوف) .

– ليس أمر ذلك عائد الينا . أنت صاحب الأرض . والحق لسموك في تعيين البدل . – قال الجميع .

– بما ان ما سيعين أجراء للأرض سيعود لكم في النهاية فأنتم الذين ينبغي أن تعينوا البدل لصالح جمعيتكم .

– الجمعية شيء والعمل شيء آخر .

– اصغوا جيداً وانتبهوا . – قال المشرف متدخلاً : – أن الأمير يتنازل لكم عن الأرض مقابل أجر تدفعونه عنها ، ومن هذا الأجر يصبح لديكم رأسمال تستخدمونه لمصلحتكم .

– أجل . أجل . لقد فهمنا . – أجاب عجوز أدرد مستاء دون أن يرفع

نظره عن الأرض . — هو نوع من المصارف وعلينا أن ندفـــع في أوقات معينة ... ولذا نحن لا نقبل . ان أحوالنا في غاية السوء ، وسيكون ذلك خراباً للجميع .

فارتفعت من بينهم صيحات استياء وتكاد تكون صرخات غضب .

— كلا . كلا . خير لنا أن نبقى كما كنا حتى اليوم .

وعندما أوضح لهم (نيكلنيدوف) المشروع من جديد وأفهمهم ان اتفاقاً سينظم يكون هو أول الموقعين عليه ارتفعت الأصوات بالاحتجاج .

— وما حاجتنا لذلك ؟ لقد عملنا حتى الآن ، وسنواصل العمل كما كنا . ولماذا هذه التوقيعات ؟ نحن جهلاء .

— كلا . كلا . لن نقبل بذلك . لم نتعوده . إذا شئت عمل شيء لصالحنا « فأعفنا من البذار » .

وكان هذا يعني ان يقدم المالك في المستقبل بتقديم البذار للزراعة المقبلة .

— ألا تريدون ؟ ألا ترغبون في الأرض؟ — قال (نيكلنيدوف) يسأل قروياً شاباً كان يقف أمامه حافي القدمين ، مشرق الوجه ، وقبعته في يده شأن الجندي الذي يقف أمام رئيسه .

— كلا يا سيدي .

— هذا يعني انكم غير محتاجين لشيء وان لديكم كفايتكم .

— كلا يا سيدي . — أجاب الجندي بمرح ، وهو ممسك قبعته بيده كمن يريد تقديمها لمن يطلبها .

— فكروا في الأمر . — قال لهم الأمير ثم شرع يشرح لهم المشروع من جديد .

— لسنا بحاجة للتفكير . هذا لا يوافقنا . — أجاب العجوز الأدرد بلهجة جافة .

— حسن . سأبقى في (بانوفو) طيلة نهار الغد ، فاذا عن لكم وغيرتم رأيكم فليبلغه لي أحدكم .

فصمت الجميع ولم يحيروا جواباً . وهكذا عاد (نيكليندوف) الى المنزل دون أن يبت بشيء ما .

– أحب ان أطلعك على شيء يا سيدي . – قال المشرف بلهجة التأكيد .

– انك لن تصل معهم الى نتيجة مرضية ، فهم عنيدون وعديمو الثقة ، وسيئو الظن . عندما يأتيني أحدهم منفرداً فأدخله البيت وأقدم له المقعد والشاي يبدو كالوزير ويصبح معقولاً يعقل الأمور . ولكنهم عندما يجتمعون يصبحون عاجزين عن أي شيء صالح ...

– وهل بالامكان استدعاء بعضهم الى هنا ؟ أذكاهم. – سأشرح لهم المشروع بكافة تفاصيله .

– سأعمل على ذلك . – قال المشرف .

– فليأت بعضهم غداً .

– سأفعل ما طلبت .

ومن جديد عاد المشرف الى الابتسام عندما رأى امرأتين تفتريان من الباب . فخرج للقائها وأشار لهما أن يتبعاه ثم انتحى بهما ناحيـــة خلف البيت ، تاركاً (نيكليندوف) يفكر بمشروعه ويقتل الذباب عن اليمين والشمال .

وأخرجت الأمير من تأملاته صيحة امرأة مغبطة ، بينما كان المشرف يجيبها بهدوء . فأصاخ الأمير بسمعه فتبين الحوار التالي :

– ماذا تريد ؟ لقد اضمحلت قواي ، وتريد الآن أن تقضي علي تماماً . – كان يقول صوت نسائي بحدة مطردة .

– لقد أغفلتها برهة وجيزة . – كانت المرأة الثانية تقول . – أتوسل اليك أن تعيدها لي . أي سرور تجـــده في تعذيب هذا الحيوان ؟ أضف الى ذلك سيبقى أطفالي بدون حليب .

– أخير كم بين الدفع نقداً وبين مقابله عملا . – كان المشرف يقول .

فاقترب (نيكليندوف) منهم . كانت المرأتان تقفان بجانب الباب منفوشتي الشعر ، واحداهما كانت حاملاً . وعندما ابصرتا الأمير اصلحتا غطاء

رأسيها الذي كان مائلاً . وابتسم المشرف . كان الأمر غـــاية في البساطة . كانت المرأتان قد تركتا دوابها ترعيان في حقل المالك فاحتجزها المشرف وهو الآن يطلب منهما غرامة قدرها ثلاثون روبلاً .

– لقد تعبت من القول لهما ان تراقبا الدواب عندما تطلقانها لترعى قرب الحقل .

– ذهبت أفتقد ولدي فهربت البقرات .

– كان ينبغي ألا تفارقيها .

– ومن يعني بولدي ؟

– لو انها رعت الكثير من العشب إذن لكان للعمل مبرر . – قالت المرأة الأخرى . – ولكنك احتجزتها فور دخولها الحقل كما تعلم .

– لقد أفسدوا العشب . وإذا تسامحنا معهم فسوف لن يبقى لدينا من التبن ما نطعم به حيواناتنا . – أجاب المشرف موجهاً الكلام للأمير .

– لا تكذب ، فالكذب حرام . – أجابت المرأة الثانية : – لم تدخل دوابي حقولك أبداً .

– حسن . الآن وقد ضبطتها بالجرم المشهود ، فادفعي مـــالاً أو فأعملي مقابل ذلك .

– سأعمـــل فاطلق سراح الحيوانات . – أجابت المرأة بحدة – ليس لدي وقت ارتاح فيه . ان حماتي مريضة ، وزوجي سكير ، والعبء يقع علي وحدي حتى وهت قواي . انبعجي الآن وانت تعملين لهذا . ثم شرعت تبكي . فأمر الأمير باخلاء سبيل الدواب ودخل الى البيت ممتلئاً غماً . وكان في كل مرة يزداد دهشة كيف لا يرى الآخرون ما هو واضح وجلي .

– هل سمعت ؟ يا له من محب لخير القريب . – كان شاب قروي يمتطي فرساً سميناً يقول لرفيق له عجوز يركب جواداً آخر ، وهما يسوقان جيادهما ليـــلاً لترعى خلسة في حقول صاحب المزرعة .

– انظر كيف تنمو الأعشاب . – أجاب الآخر – ينبغي أن تأتي النساء فتحصد الكثيف منها ، وإلا فالويل لنا منهن .

– يطلب منا أن نوقع له . – قال الشاب وهو يعني الأمير – وعندما نضع تواقيعنا سيأكلك حياً .

– هذا مما لا شك فيه . – قال الآخر مؤكداً .

وأعقب ذلك فترة صمت لم يكن يسمع خلالها سوى وقع حوافر الجياد على التربة القاسية .

– أتنازل لك عن الأرض مجاناً ، على أن توقع لي هنا لا غير – أضاف الآخر – لقد أهلكونا. ولكن ذلك لن يتكرر الآن . لقد أصبحنا ندرك شيئاً.

– ثم التفت الى الوراء يتفقد مهراً كان يجب أن يتبعه وأخذ يناديه باسمه (كونياسك ، كونياسك) ولكن المهر كان قد دخل الى الحقل المبلل بندى الليل . وأخذ يصهل بين الاعشاب .

– خذ . لقد أصبح في حقل المالك . هو يعرف ما يوافقه فقد اعتاد ذلك .

٦٧

عندما عاد الأمير الى البيت رأى انهم قد أعدوا له في المكتب سريراً عالياً عليه حشية من الريش ومخدتان وثيرتان ولحاف مطرز بالحرير . فعرض عليه المشرف بعض المشروبات الروحية ولكنه أبى تناولها فخرج المشرف وتركه وحده .

لم يعكر رفض القرويين صفو الأمير ، وظل هادئاً مطمئناً حتى عندما أظهروا له سوء الظن به والاستعداد للعنف معه على عكس ما أظهره مزارعو (كوسمينسكوجي) الذين قبلوا عروضه شاكرين .

كان الحر شديداً في تلك الغرفة شبه القذرة ، ولذا خرج الأمير الى الرواق بغية الطواف بين أشجار الحديقة . ولكن شبح أيامه الماضية ، وعلى الأخص ، تلك الليلة المشؤومة سرعان ما تمثل أمام بصيرته، ولم يطق ، بل أبى أن يطوف في تلك الأماكن التي تحتفظ بذكرى جريمته . ولذا فقد جلس على عتبة البيت يستنشق النسمات البليلة ، محدقاً في الظلال الكثيفة التي تملأ الحديقة ، حيث كان

يسمع صوت الهزارات وصفير طائر مختبىء بين اغصان شجرة عند الباب الخارجي .

وأشرق القمر ، وراح ينير بنوره ، شيئاً فشيئاً ، الحديقة المنورة ، والمنزل الذي كان مظهره يذكر بالخرائب . ودوى من بعيد هزيم الرعد، وارتفعت غيمة سوداء فغطت ثلثي السماء ، ووجمت العصافير بغتة ، وارتفعت اصوات الأوز عبر الطاحون ، وصاحت الديكة يجاوب بعضها بعضاً .

هناك مثل روسي يقول : اذا صاحت الديكة بين غروب الشمس وقبل حلول الظلام فذلك يشير بليلة هادئة .

وكانت تلك الليلة أكثر من هادئة بالنسبة (لنيكليندوف) . كانت فوق ذلك مرحة هنيئة ، اذ استيقظت في نفسه ذكريات ذلك الصيف الحية الذي قضاه في تلك الأماكن عندما كان لا يزال فتياً وبريئاً . لقد عاودته أكثر من الذكرى . عاودته فتوته الأولى عندما لم يكن يتجاوز الرابعة عشرة من عمره ، وعندما كان دائم الصلاة لله والتوسل اليه ليكشف له عن الحقيقة . وعندما كان، وهو على ركبتيْ أمه ، يبكي ويقول لها ، قبل ان يغادرها ، انه سوف يسير سيرة صالحة ، وأنه لن يسبب لها غماً . كان يحس نفسه وكأنه على مثل تلك الحالة النفسية التي كان عليها عندما تعاهد مع رفيقه (نيقولا أرتينيف) على أن يعيشا عيش الأشراف ، وأن يتبادلا العون والمساعدة ، وان يعملا على اسعاد حياة الغير ...

وفجأة تذكر انه في (كوسمينسكوجي) كان متردداً ازاء تنازله عن بيته، واحراجه ، وأراضيه . فتساءل عما اذا كان يسره ان يفقد كل شيء ، فكان الجواب ، كلا . أما الآن فهو على العكس يرى من المستحيل عليه التردد او التراجع . وعاودته ذكرى حوادث يومه . تذكر منزل القروي الفقير ومنزل (ماترونا كارينا) التي كانت ترى ان من واجب بنات طبقتها أن يسلمن أنفسهن لصاحب الملك . وتذكر ذلك الطفل الصغير ذا الطاقية ، الذي كان يضمحل ويتلاشى لنقص التغذية . وتلك المرأة الحبلى ، المنهوكة القوى التي يحاول مشرفه

تشغيلها فوق ما هي عليه من الاجهاد لأنها لم تراقب حيواناتها مراقبة كافية ...

كان القمر يسطع بكامل بهائـــه باهراً ويكاد يكون بدراً ، غامراً الحديقة بنوره ، وناشراً في ارجائها ظلالاً كثيفة تمتد الى جانب أنواره التي يتلمع تحتها سطح المنزل الحديدي وانطلقت أصوات طيور الهزار ترسل أنغامها البلورية عبر الفضاء كأنها تحيي النور ، بعد ان كانت قد صمتت فترة من الوقت .

تذكر (نيكليندوف) انه في (كوسمينسكوجي) كان محتاراً لا يدري كيف يتغلب على الصعاب التي كانت تعترض سبيـــله في السير على النمط الذي اختاره لسلوكه المقبـــل في الحياة . أما الآن فهو يرى كل شيء سهلاً ، لم يكن يفكر في عواقب المشروع ، وانما كان جل همه محصوراً فيما يجب عليه عمله . لم يكن يحسب حساباً لما قد يحدث له ، وانما كان يفكر في ما ينبغي عليه صنعه لصالح الآخرين . لقد أصبح الآن يرى من المستحيل الا يوزع أراضيه بـــين المزارعين ، وانه لا يستطيـع التخلي عن (كاترين) ، وأنه يتوجب عليه حمايتها، والتكفير عن زلته معها . واتضح له ان من الضروري ان يدرس بامعان كل ما له صلة بالمحاكم والسجون والعقوبات التي رأى فيها تفاصيل تخفى على الكثيرين. كان يجهل ما يسفر عنه كل ذلك . ولكنه كان يراه واجباً عليه .

كانت الغمامة السوداء تزداد اتساعاً في رقعة السماء ، ويزداد لونها قتوماً . وكان الـــبرق الذي كاد يكون متواصلاً ، يضيء بنوره الباهت البيت الكبير وأبوابه المخلعة ، ويتلوه هزيم الرعد . فعادت الطيور الى وجومها ، وما لبثت ان اهتزت اغصان الاشجار واضطربت عندما عصفت بها الريح ، وبلغت عصفة شديدة حيث كان يجلس (نيكليندوف) . ثم سقطت قطرة كبيرة من المـــاء تبعتهـــا اخرى ثم اخرى فأخريات ، فكان يسمع صوت وقعها على السطح . وفجأة بدا وكان السماء قد التهبت عندما أومض برق شديد أعقبته لحظة سكون جد قصيرة . وقبل ان يتمكن (نيكليندوف) من أن يرفع رأسه صك سمعه هزيم رعد قاصف ثم أخذ صداه يتجاوب منتشراً في شتى الاتجاهات .

فدخل الأمير الغرفة ، وهو يردد في سره .

– أجل . إنه ليستحيل ادراك أسرار الحياة وتفهم مغزاها . لماذا وجدت خالتاي العجوزان ؟ ولماذا مات (نيقولا ارتينيف) ولماذا عرفت (كاترين)؟...

كذلك استعصى عليه إدراك جنونه في حياته الشاذة التي كان يحياها . ولكنه اذا تعذر عليه تبين حكمة الله في خلقه ، فبوسعه على الأقل تحقيق المشيئة الإلهية التي أودعها الخالق تعالى في ضميره كإنسان .

كان المطر يتساقط مدراراً ، وكان البرق ما زال متتابعاً ينير الأكوان . فخلع (نيكليندوف) ثيابه واستلقى على الفراش الذي كان يخشى أن يكون مليئاً بالحشرات كما يستدل من منظر الغرفة .

وكان يحدث نفسه مغتبطاً بقوله : شعور المرء بأنه عبد أفضل من شعوره بأنه سيد .

ولم يكد يطفىء المصباح ويستلقي في فراشه حتى تحققت مخاوفه من وجود الحشرات في سريره التي هاجمته بعنف .

– سأتنازل عن الأرض ، وسأذهب الى سيبيريا ... سأتحمل شظف العيش وأقذار الحياة إذا اقتضى الأمر ذلك ... – هكذا كان يردد في سره .

ولكنه على رغم ذلك الاستعداد الطيب فانه لم يطق صبراً عليها فهب من فراشه ووقف أمام النافذة شاخصاً ببصره الى السماء .

٦٨

لم تغمض للأمير عين طيلة الليل وحتى مطلع الفجر . ولذا أفاق من نومه في ساعة متأخرة من صباح اليوم التالي .

وجاء قبيل الظهر سبعة من المزارعين ، كانوا ، على حد قول المشرف ، أذكى أهل القرية جميعاً . وجلسوا على مقاعد متباعدة ، متحلقين حول طاولة صغيرة تحت أشجار التفاح . وقد بذل الأمير مجهوداً كبيراً لاقناعهم بالجلوس وارتداء قبعاتهم وخصوصاً الجندي السابق الذي كان قد ارتدى لهذه المناسبة الهامة جوارب جديدة وقبقاباً جديداً أيضاً . غير أنهم لما رضي بالجلوس عجوز

جاد الملامح أجعد اللحية كبيرها كلحية (موسى) بريشة (ميكال انجلو) ، ووضع قبعته الواسعة على جبهته التي لوحتها الشمس حذا الجميع حذوه .

وجلس (نيكليندوف) أمامهم متكئاً بكوعيه على الطاولة الصغيرة ، وأخذ يشرح لهم مشروعه بشكل مفصل . وكان في حديثه أكثر ثقة من نفسه واطمئناناً ، وقد يكون ذلك لأنهم كانوا قلة ، أو لأنه كان أقل انتباهاً لنفسه. وعلى غير تعمد كان يوجه كلامه بصورة خاصة للعجوز ذي اللحية الكبيرة الغبراء متوقعاً أن تبدر منه بادرة تدل على موافقة أو معارضة ، ولكن خاب ما كان يتوقع فانه على رغم احناء رأسه كرأس البطريرك ، وانه كان يزوي ما بين عينيه عندما كان أحدهم يقاطع الأمير ، فان كلمة واحدة لم يقوَ على فهمها ما لم تنقل له باللهجة التي يفهمها . وكان أكثرهم تفهماً لحديثه عجوز يكاد يكون أجرداً وإحدى عينيه حولاء ، الذي كان يبدو من تقويس حاجبيه أنه يبذل جهداً في تفهم كلام الأمير . كذلك كان ثمة عجوز قصير القامة ، قوي البنية ، أبيض الشعر واللحية متوقد النظرات ذكيها ، سريع الفهم لما يقول الأمير ، ويغتنم المناسبات ليعلق على كلامه ممازحاً ، مغتبطاً لبراعته دون ريب . ولكن كان أكثر الجميع مناقشة للاتفاقية ، وبصورة جدية ، قروي طويل القامة قصير اللحية طويل الأنف يرتدي بزة خاطها منزلياً ، ويحتذي قبقاباً جديداً . كان سريع الفهم ، يقاطع عندما يرى حاجة للمقاطعة . أما الآخران ، العجوز الأدرد والجندي السابق فكانا يصغيان بانتباه دون أن يفوها بكلمة واحدة .

وأخذ (نيكليندوف) يشرح لهم نظريته حول الملكية قائلاً :

— يجب أن يمنع بيع الأرض وشراؤها ، وإلا فسرعان ما يستولي الأغنياء عليها جميعها ، وعندئذ يفعلون كغيرهم ما يطيب لهم لحقهم على الأرض . ثم أضاف مردداً أحد تعابير (سبنسر) وهو قوله : ليس بعجيب أو مستغرب أن يضعوا ضريبة للسماح بالوقوف عليها .

— عندئذ لن يبقى من سبيل للتخلص من تلك الضريبة غير صنع جناحين لركوب الهواء . — قال العجوز الساخر .

– هذه هي الوسيلة الوحيدة . – قال ذو الأنف الطويل .
– هذا هو الصحيح . – قال الجندي السابق .
فقال البطريرك . يسجنون امرأة لأن بقرتها رعت قليلاً من العشب .
– إذا كان لأحد قطعة أرض ، وكانت تبعد عنه مسافة خمسة أميال مثلاً ، وأراد استئجار غيرها ، فلن يستطيع ذلك لغلاء الأجور . – قال العجوز الأدرد محتداً .
– بما انني أعرف ذلك ، لذا جئت أتنازل لكم عن الأرض . – أجاب (نيكلنيدوف) .
– ولم لا ؟ انه عمل رائع . – قال البطريرك .
– لقد قدمت (بانوفو) خصيصاً لهذه الغاية . للتنازل لكم عن الأرض . والآن علينا ان نعين الطريقة التي سنتبعها تحقيقاً لذلك .
– تنازل لنا عنها ، ولا تحسب حساباً لغير ذلك . – قال العجوز الأدرد .
فاستولى الخجل على الأمير لما تتضمنه تلك الكلمات من شك في نواياه ، ولكنه سرعان ما تغلب عليه ، مستغلاً تلك الملاحظة ليشرح مشروعه من جديد .
– يسرني كثيراً أن أتنازل لكم عن الأرض . ولكن بأي شكل ؟ والى من من المزارعين العديدين المحتاجين ؟ ولماذا نوزعها لأبناء هذه القرية وليس (لديمنسكوي) القرية المعدمة .
فلم يجبه أحد ، إلا الجندي السابق الذي غمغم قائلاً :
– هذا صحيح .
– والآن أوضحوا لي كيف ستفعلون إذا ما تنازلت لكم عنها بدون قيد أو شرط ؟ – أجاب الأمير .
– ماذا سنصنع بها ؟ ... سنتقاسمها فيما بين الجميع بأجزاء متساوية .
– قال العجوز الذي كان يقوس حاجبيه .
– بلى هكذا سنفعل . – أجاب أحد الشيوخ .

– ما تفهم بكلمة سنتقاسمها فيما بين الجميع ؟ – أجابه (نيكليندوف) .
– هل يدخل في عداد هذا «الجميع» سائر أولئك الذين يعملون لحساب المالك ؟ وهل تشركونهم في هذا التوزيع ؟

– كلا . مطلقاً . – قال الجندي السابق متوخياً أن يسبغ على جوابه مسحة من المرح .

فتدخل القروي الطويل القامة النشّيط معلناً معارضته لهذا الرأي .

– ما دامت ستوزع فمن العدل أن تكون للجميع . – أجاب بصوت ثابت .

– هذا غير ممكن . – أجاب (نيكليندوف) إذ كان قد أعد دفاعه كما يلي :

– إذا وزعنا الأراضي على الجميع وبالتساوي فان من لا يستغلونها بأيديهم سيبيعونها من الأغنياء فيصبح لدى هؤلاء مساحات واسعة من الأراضي . كذلك فان بعضكم ستتكاثر عائلته فتصبح أرضه غير كافيه له وعندئذ يبتاعها الأغنياء لحاجتهم اليها .

فأسرع الجندي السابق بالإجابة قائلاً : هذا صحيح .

– يكفي أن يمنع بيع الأراضي ، واعطاءها لمن يستغلها بيده لا غير . – قال ذو الحواجب مقاطعاً .

غير انه كان لا يزال لدى (نيكليندوف) اعتراض آخر على هذا الجواب وهو : كيف يمكن تعيين من يعمل لحسابه ومن يعمل لحساب الغير ؟

وعندئذ تدخل القروي الطويل الذي برهن عن براعة فاقترح أن تستغل الأرض بصورة مشتركة .

– من يعمل فسيكون له نصيب من خيرات الأرض ، ولكن من لا يريد أن يعمل فلن يكون له شيء . – أجاب بصوته الثابت .

فاعترض (نيكليندوف) على هذه الطريقة ، قائلاً : ان العدالة تقضي ، في مثل هذه الحالة ، أن يكون لدى الجميع آلات زراعية وجياد تتساوى في

العدد والثمن كيلا تختلف الوضعيات أو أن تكون الجياد والأدوات الزراعية بكاملها ملكاً للجميع ، ولكي يتحقق ذلك فلا بد من أن يظل الجميع على وفاق ووئام .

— إذا كان لا بد من هذا فأؤكد لك اننا لن نتفق أبداً . — قال الشيخ الأدرد .

— سينشب الخلاف الى ما لا نهاية . — قال ذو اللحية البيضاء والعينين الذكيتين .

— ستتشاجر النساء في كل يوم .

— لقد عن لي اعتراض جديد. — قال (نيكليندوف) . — بأي حق يأخذ أحدكم أرضاً خصبة ، في حين يأخذ آخر أرضاً مجدبة ؟

— سنقسم الأراضي بالتساوي . — أجاب أحد الشيوخ .

ولكن (نيكليندوف) أبان لهم أن الصعوبة الكبرى ليست في توزيع الأراضي بين أبناء القرية الواحدة ، وانما بين أبناء الولاية كلها . وعندئذ سيطلب كل واحد خيرة الأراضي .

— هذا صحيح . — أجاب الجندي السابق .

أما الباقون فلبثوا صامتين .

— ان القضية ليست سهلة كما تبدو ولأول وهلة . — أضاف (نيكليندوف) . لسنا الوحيدين الذين فكروا في هذا الموضوع ، فقد قتـــله الكثيرون بحثاً وتدقيقاً ، وفي عداد باحثيه أحد أبناء أميركا الشمالية يدعى (جورج) ، الذي أشار بالطريقة التي سأشرحها لكم لأنني من الآخذين برأيه .

— وما حاجتنا لذلك ؟ — قال العجوز الادرد مقاطعاً . — أنت هـــو المالك ، وسنعمل بما تراه .

فأحدثت هذه المقاطعة ارتباكاً (لنيكليندوف)، غير انه تبين بارتياح أن الباقين لم يكونوا موافقين عليها .

فقال العامل الذي كان أكثر تعقلاً .

– مهلاً يا عم (سيمون) . دعه يتكلم .

فأخذ (نيكلينيدوف) يشرح لهم نظرية (هنريش جورج) حول ملكية الأرض . وكان أول ما قاله :

– الأرض ليست ملكاً لأحد . وانما هي ملك لله .

الأرض مشاع بين الناس وللجميع حقوق متساوية عليها ولكن من الأراضي ما هو خصب ومنها ما هو سبسب. وطبيعي أن يتطلب الجميع أجودها. فكيف تسوى هذه الفوارق ؟ في مثل هذه الحالة يتوجب على من يريد قطعة أرض خصبة أن يدفع ثمنها العادل لمن يملكها . ولكن لما كان من المعقد والصعب تعيين ثمنها ، وتعيين المصدر الذي يأخذه ، وكذلك لما كان لا بد من الاحتفاظ بقدر من المال تحوطاً للنفقات العامة ، لذا ينبغي ان تسوى الأمور بشكل يكون على من يستغل أرضاً أن يدفع بدلها للصندوق العام كي ينفق منه على الحاجات العامة . وبهذه الطريقة يستفيد الجميع . من يريد أرضاً فعليه أن يدفع قدراً معيناً يتناسب وجودة الأرض ، ومن لا يريد فلن يدفع شيئاً . وأما الذين لديهم أراضي فسيساهمون بالحاجات العامة حتى فيما يخصك أنت .

– هذا شيء حسن . – قال ذو الحواجب موافقاً . – من يحتفظ بالأرض الجيدة فعليه أن يدفع قدراً أكبر .

– يا لهذا الأميركي (جورج) من عبقري . – قال العجوز ذو اللحية الجعداء .

– المهم ان لا يكون الثمن أكثر مما نطيق . – قال القروي الطويل ظاناً ان الأمير قد انتهى من إيضاح مشروعه .

– يجب ألا يكون السعر أعلى أو أقل ، إذ لو ارتفعت أسعار الأرض فلن يقدم على شرائها إلا القليل لتعذر دفع الثمن ، وإذا هبطت أسعارها فسرعان ما يتداولون بيعها ويتخذون منها سلعة للتجارة . هذا مشروعي الذي وضعته لمصلحتكم .

– انه لعادل وحسن فلماذا لا نوافق عليه ؟ – صاحوا بأجمعهم لأنهم فهموا ما قاله لهم فارتاحوا له .

– ما أروع هذا التفكير . – كان يردد ذو اللحية الجعداء .
– ما أعظم عبقرية (جورج) .
– وإذا أردت أنا الاحتفاظ بقطعة أرض ؟ – قال المشرف وهو يبتسم كعادته .
– إذا بقي شيء فاحتفظ به واستثمره . – قال الأمير .
– أنت ؟ وما حاجتك لها ؟ ألست تأكل جيداً دون أن تعمل في الأرض ؟
وهكذا انتهت المناقشة .

وكرر (نيكليندوف) على مسامعهم الخطوط الأساسية لمشروعه ، وقال لهم انه لا يطلب منهم جواباً عاجلاً ، ورجاهم ألا يبتوا في شيء قبل بحثه مع سائر رفاقهم والحصول على موافقتهم عليه . فوعدوه بذلك وخرجوا من عنده وهم متحمسون للفكرة وظلت أصواتهم تسمع مدة غير قصيرة مبتعدة شيئاً فشيئاً ، تحملها نسمات المساء الندية .

لم يقم أحد من المزارعين بعمل طيلة اليوم التالي ، وقضوا النهار في مناقشة عروض سيدهم . وانقسم سكان القرية الى قسمين يقول أحدهما بأن لا خطر البتة من مشروع الأمير ، في حين كان الآخر يرى فيه خبيئة يخشاها لأنه لا يدرك كنهها . وفي اليوم الثالث جاءوا جميعهم لإعلان قبولهم بشروع الأمير وموافقتهم عليه .

وكان الفضل الأكبر في اقناعهم يعود الى حد كبير لاحدى العجائز إذ فسرت لهم الأسباب الرئيسية الخفية التي حفزت الأمير على هذا التنازل وعللتها كما يلي :

لقد أخذ الأمير (نيكليندوف) يفكر في انقاذ روحه ولذا عمد الى هذه الوسيلة ، وأيدت رأيها بالمبلغ الضخم الذي تصدق بـــه على الفقراء والمتسولين أثناء وجوده في (بانوفو) .

كانت تلك هي المرة الأولى التي يشاهد فيها (نيكليندوف) الفقر بكافة ويلاته ومآسيه ، ولأول مرة تتكشف أمام ناظريه قسوة الحياة التي يحياها

أولئك القرويون ، ويتبين الحرمان الذي يلاقونه ، ولذا فانه لم يقو ، وقد أثارته مشاهد البؤس والمرض ، وحركت عاطفة الشفقة والمرثية في نفسه ، إلا أن يتصدق على الفقراء والمعوزين من المال الوفير الذي جـــاءه من بيع غابات (كوسمينسكوجي) ، والعربون الذي أخذه عن بيع المخزون في الاهراء ، على الرغم من اقتناعه بأن مثل ذلك العمل أمر غير منطقي .

وبما أن أخبار الهبات التي منحها الأمير للفقراء قد انتشرت في القرية ، وتسامع بين الناس انه يمد يد المساعدة لكل طالب فقد تقاطرت اليه جموع النساء من شتى الجهات يستجدينه ويطلبن احسانه . وكان لا يدري لمن يهب ، ولا كم يهب ، غير انه كان يرى انه ما دام المال متوفراً لديه فليس بوسعه أن يصم أذنيه عن نداء أولئك النسوة المحتاجات اللواتي تبدو عليهن الحاجة لذلك ، كما كان يرى من غير الحكمة تبديد المال على مثل هذه الصورة . وقد رأى أن خير سبيل لتفادي هذه المشكلة هو الخروج من القرية ، وهكذا كان .

في اليوم الأخير من اقامته في (بانوفو) خطر له ان يزور البيت القديم . وفيما كان يفتش في درج خزانة مصنوعة من خشب الورد كانت لاحدى خالاته ، وكانت موضوعة في إحدى زوايا الغرفة عثر على رسائل عديدة وصور كثيرة لخالته (صوفيا فاسيليفنا) وله أيضاً و (لكاترين) الجميلة الغضة البريئة ببسمتها الرائعة . وكان هذا كل ما أخذه الأمير الذي ترك كل ما عدا ذلك للشاري الذي اشترى منه البيت بعشر ثمنه مدعياً انه بحاجة للهدم .

وإذ تذكر الغم الذي ساوره لتخليه عن ممتلكاته في (كوسمينسكوجي) ، أخذته الدهشة لاستسلامه لمثل هذا الشعور القبيح وان يكن لبرهة وجيزة . أما الآن فهو على العكس ، يشعر بارتياح كبير لعمله ، وللحدث غير المنتظر ، كما يشعر المسافر الذي أضناه السير عندما يلمح عن بعد واحة في مفازة سحيقة .

٦٩

عندما وصل الأمير (نيكلينдوف) الى المدينة كانت أضواؤها قد أنيرت ، فرأى شيئاً جديـــداً وغريباً استحوذ على اعجابه ، وذهب من محطة السكة

الحديدية رأساً الى البيت حيث كانت رائحة (النفتالين) لا تزال تملأ غرفه ، وحيث كانت (بتروفنا) و (كورني) لا يزالان منهمكين بإصلاح البيت وقد برح بهما الجهد والضجر .

كانت غرفة (نيكليندوف) غاصة بالصناديق المفتوحة بحيث كان يتعذر على المرء ان يتحرك فيها . فرأى الأمير أن وجوده سيعيق أعمال الخدم وسيحول دون انجاز مهمتهم في حفظ أشياء البيت .

كان الأمير قبل الآن يرى في مثل تلك البلبلة متعة ولذة . أما الآن فانها تبدو له بغيضة زرية ، بعد ما شاهده من بؤس حياة القرويين ، ولذا قرر الانتقال الى أحد الفنادق تاركاً (لأغريبينا بتروفنا) مهمة تسوية مقتنيات البيت ريثما تأتي أخته التي ستأخذ على عاتقها تدبير أمرها .

كان البرد قارساً ، وكان المطر الذي سقط في الأيام الأخيرة والعواصف التي هبت قد خلفت وراءها موجة مفاجئة من الصقيع ذهبت بدفء أيام الربيع الأولى ، وكان الهواء يهب بارداً حتى كان (نيكليندوف) وهو في ثياب الصيف ، يرتعد من البرد فيستحث الخطى كي يبعث الحرارة في جسمه . وكانت مخيلته تستعرض أشباح من شاهدهم في (بانوفو) ، من نساء وعجزة وأطفال . والحياة البائسة الأليمة التي يحيونها ، فكان ، عن غير قصد ، يقارن بينها وبين ما في المدينة من مشاهد رائعة .

كان ينظر الى المتاجر التي تبيع اللحم والسمك والألبسة الجاهزة فيدهش لذلك كأنما كان يراه للمرة الأولى . وكانت تدهشه وجوه التجار وسائقي العربات الفخمة بثيابهم الأنيقة وستراتهم ذات الازرار المذهبة وقبعاتهم الممتازة ، والخادمات بمآزرهن البيض والعصائب المخملية التي يعصبن بها جباههن ، كما كان يدهشه منظر بعض المارة الأقوياء البنية ذوي الوجوه المشرقة الوضيئة الذين كانوا ينظرون الى المارة نظرات الازدراء .

كان يتصور ، وهو على حق ، ان معظم أولئك الذين يراهم كانوا من سكان الأرياف الذين أرغمهم على التخلي عن مسقط رؤوسهم وهجر مساكنهم شظف

العيش وشقاء الحياة . ومن هؤلاء أولئك الذين يبدون مرتاحي النفوس منشرحي الصدور لأصابتهم بسطة من العيش هيأتها لهم المدينة فأحسنوا استغلالها . غير انه كان الى جانب هؤلاء كثيرون ابتلعتهم هاوية حياة المدينة، فهم يلاقون شراً من حياتهم الأولى ، من بين هؤلاء التعساء بوسعنا ان نعد الغاسلات والكوايات الهزيلات الأجسام الشاحبات الألوان المنفوشات الشعور اللواتي يعملن بأيد عارية من اللحم على ابواب الدور التي يتصاعد منها بخار الماء والصابون . وكذلك عمال المصابغ الذين يأتزرون بمآزر من الجلد ، الملطخون بالصباغ من قمة رؤوسهم الى أخمص اقدامهم ، المشمري الأيدي حتى الأكواع الذين لوحت الشمس سواعدهم، وتكاد ملامحهم تفصح عما يلاقونه من نصب وجهد وما يعانونه من غم وكآبة ، في حين لا تنفك أيديهم التي أوشكت أن تكون جلداً على عظم ، تنقل جرار الصباغ من جهة لأخرى دون توقف لحظة واحدة ، وهم يجدفون ويلعنون . امثال هذه الوجوه تشاهد عند سائقي العجلات الذين يعلوهم الغبار ، وعند أولئك الذين يقفون عند ملتقى الشوارع من رجال ونساء يستجدون ويستعطون ، عند بعض مرتادي الحانات التي مر (نيكليندوف) من أمامها ، فرأى جماعات من الناس يجلسون وراء الطاولات الصغيرة والقذرة الغاصة بالزجاجات وأقداح الشاي ، الذين كانت تعلو وجوههم كآبة عميقة أو افراط في السرور وهم يضحكون أو يغنون . غير ان ذلك السرور لم يكن صادراً عن حياة حسنة ، أو تدفق حيوية ، وانما كان سروراً زائفاً جاءت به سورة الخمر .

ـ لماذا يجلس هؤلاء هنا ؟ ـ كان (نيكليندوف) يقول محدثاً نفسه في حين كان الهواء البارد يعصف حاملاً اليه رائحة الصباغ وزيته الخانقة .

ومرت بجانبه عجلة محملة بقضبان الحديد ، وكانت جعجعتها تكاد تصم الأذان كلما ارتطم بعض حملها ببعض فاهتزت لذلك وتأرجحت . فأسرع في سيره ليتقدمها ولكنه ما لبث أن سمع صوتاً يناديه باسمه ، فوقف وتلفت يميناً وشمالاً وإذ به يرى جندياً ذا شاربين مفتولين كالنصال مشرق الوجه يشير اليه اشارات التودد وهو يكاد يكون مستلقياً في عربة فخمة ، مبتسماً له ومبدياً أسنانه اللؤلؤية .

– مرحباً (يا نيكلنيدوف) أهذا أنت ؟

وكان الانطباع الفوري الذي أحدثته المفاجأة عند الأمير انطباعاً ساراً.

– أهذا أنت يا (شمبوك) ؟ – أجابه بكثير من البهجة .

ولكنه سرعان ما تنبه الى أنه لم يكن ثمة موجب لذلك الابتهاج إذ كان (شمبوك) الذي عرفه منذ القديم .

لم يكن قد رآه منذ مدة طويلة ، ولكنه كان قد علم انه اضطر على الاستقالة من الجيش بسبب ديونه المتعددة ، وانه قد انصرف للتجارة بأشياء عدة أخصها بيع وشراء الخيل ، وانه كان يكسب من تلك التجارة ما يقيم به أود حياته كما أبهم فهمها . وكان الارتياح البادي عليه يدل بوضوح على أن حياته ليست سيئة .

– ما أعظم سروري بوجودك هنا إذ يكاد لا يوجد أحد في المدينة . ولكني أرى انك قد بدأت تهرم .

كان قد ترجل من العربة ، وأخذ يلوي ظهره الى الأمام والى الوراء ليتخلص من الكسل .

– لقد عرفتك من مشيتك ... انتعشى معاً ؟ ... الى أين نذهب لنتناول عشاء طيباً ؟

– لست أدري . وربما ضاق بي وقتي عن ذلك . – أجاب (نيكلنيدوف) وهو يفكر بطريقة لبقة يتخلص بها من هذا الرفيق دون أن يسيء له . – وأنت لماذا جئت ؟

– هي الأعمال ، الأعمال يا حبيبي . ألا تعلم انني أصبحت الآن وصياً ؟ أنا الآن أدير أملاك (سامانوف) ذلك الغني الكبير الغريب الأطوار . أتعرفه ؟ انه يملك مساحة من الأرض تتسع لخمسين ألف (فانيكا) من القمح (الفانيكا تعادل ١٦،٥٠ كيلوغرام) .

ولفظ (شامبوك) الأرقام بلهجة يتوخى من ورائها مضاعفة أهميته كما لو كان هو مالك هذه الثروة .

– كانت الملكية مهملة اهمالاً مريعاً . فالأراضي كانت بيـــد مزارعين لا يدفعون بدل أجرها . وكان المتخلف له عندهم يقارب الثمانين ألف روبل وقد بدلت الأوضاع خلال عام واحد خرجت بعده بفائدة سبعين بالمئة . فما رأيك ؟

فتذكر (نيكلينندوف) انه قد بلغه أن (شمبوك) بسبب تبديده ثروته ، ووقوعه تحت دين كبير لا قبل له بوفائه أبداً ، قد أقيم وصياً على غني عجوز وهو الآن ينفق على نفسه من راتبه في هذه الوصاية .

– كيف السبيل الى التخلص من هذا دون ان أسيء اليه ؟ – كان (نيكلينندوف) يتساءل في سره .

وفيما كان يصغي لرفيقه القديم وهو يقص عليه كيف سوى أمور وصايته ، كان يتأمل ذلك الوجه المشرق الوضاء كالبدر والشوارب المفتولة .

– أين تريد أن نتناول العشاء ؟

– ليس لدي الوقت الكافي . – أجابه (نيكلينندوف) وهو ينظر في ساعته .

– إذن هنالك فكرة أخرى . سيجري سباق للخيل هذا المساء وأظنك لن تتأخر عن حضوره .

– لا أستطيع الذهاب .

– تعال ، يا رجل تعال . لم يعد لدي جياد خاصة ، ولكني أثـــق بجياد (غريغوريوس) فلدي مجموعة صالحة من التكهنات والترجيحات ... تعال وسنتناول العشاء معاً .

– لا أستطيع ذلك يا صديقي . ليس لدي الوقت الكافي لتناول العشاء معك . – أجابه الأمير مبتسماً .

– يا لك من رجل . الى أين أنت ذاهب الآن ؟ تعال فاصطحبك معي في عربتي .

– أشكرك فأنا ذاهب لمنزل أحد المحامين وهو قريب من هنا .

– آه . صحيح لقد غاب عني انك مهتم الآن بقضايا السجون . لقد قص

علي آل (غورتشاكين) شيئاً من هذا . وبهذه المناسبة أتعلم أنهم الآن في الريف ؟ ألا تريد أن تخبرني ما هي هذه القضية ؟

– أمن الممكن أن أشرحها لك الآن هنـــا في الشارع وبالسرعة التي تريدها ؟ ...

– لقد كنت دائماً أولياً ، أتحضر السباق ؟

– كلا يا رجل كلا . ليس لدي وقت ولا رغبة ، أتوسل اليك ألا تستاء لذلك .

– أي استياء ، وأي شيء آخر .

وفجأة انقلبت ملامح وجهه جادة ، ونظرته جامدة ، وزوى مـــا بين عينيه . لقد كان يحاول تذكر شيء ما دون شك . ولكن الأمير تبين في وجهه البلاهة التي لفتت نظره قبل قليل في وجه رجل كان يقف على باب احدى الحانات .

– ان البرد قارس هذا النهار .

– هذا مما لا شك فيه .

– الى اللقاء يا حبيبي . لقد سررت كثيراً بلقائك .

وصافحه مصافحة حارة ، ثم صعد العربة وأخذ يلوح له بيده التي كان يلبس فيها قفازاً من الجلد الأبيض الفاخر ، وابتسم له ابتسامة كشفت عن أسنانه البيضاء الناصعة .

٧٠

حالما وصل الأمير الى منزل المحامي (فانارين) دعاه هذا الى مكتبه دون أن يتركه ينتظر دوره ، وشرع يحدثه على الفور عن دعوى (منسشوف) التي طالعها ، فأظهر امتعاضه منها لأنها لا ترتكز على أساس على حد رأيه .

– انها قضية تثير الامتعاض . كل الدلائل تدل على ان مسبب الحريق هو المالك الذي أشعل النار ليتقاضى من شركة التأمين المبلغ المؤمن عليه . ولكن الأمر الثابت هو انه لا يمكن اثبات مسؤولية (منسشوف) ، ولو ان الدعوى

ستنظر هنا وليس في محكمة الولاية لضمنت النجاح فيها دون أي أجر . وفيما يتعلق بالقروية (فيدوسيا بيرينيوف) فقد وضعت التماساً باسم المحكوم عليها ليرفع لصاحب الجلالة الامبراطور . وانصح لك أن تحمـــله بيدك الى (سان بطرسبرج) ، وأن تبحث عن أصحاب النفوذ لدى أعضاء هيئة العفو .

– لقد كتبوا لي أيضاً ...

– أرى يا سمو الأمير انك انقلبت الى صدى للمساجين . – قال المحامي مبتسماً . – وأظنك تهتم أكثر من اللازم بمثل هذه القضايا ، وانك قد لا تدري كيف تسوي أمر نفسك في النهاية .

– لا يا صاحبي . أرجو أن تصغي لهـــذه القضية ، انه حادث رهيب . وأخذ يقصه عليه بكلمات موجزة .

كانت القضية تتعلق بمزارع يحسن القراءة والكتابة وكان هذا يشرح الانجيل لرفاقه ، ولما بلغ خبره رجال الكنيسة تدخلوا لدى السلطات فاقتيد المزارع الى السجن ، وصدقت المحكمة العليا حكم المحكمة الأولى .

وأنهى (نيكليندوف) كلامه قائلاً : انه لأمر رهيب . أتصدق ان مثل هذا قد يحدث ؟

– لا تستغرب ذلك . وينبغي أن تعلم أن القاضي والمدعي العام ورئيس المحكمة ليسوا سوى موظفين ينتظرون آخر الشهر ليتقاضوا راتبهم . وتبريراً لتناولهم هذا الراتب فانهم على استعداد لإتهام وإدانة نجمة الصبح .

– ولكن هل توجد في القانون مادة تنص على ابعاد الشخص لمجرد شرحه الانجيل لرفاقه ؟

– ليس بالابعاد فحسب ، وإنما بالسجن أيضاً إذا ما ثبت انه خرج في شرحه عما أقرته الكنيسة ، وعندئذ يتهم بمحاولة تغيير العقيدة الأرثوذوكسية ويحكم بالسجن .

– انه لشيء رهيب .

– بلى . ومثل هذا كثير . حتى انني عندما أرى القضاة كثيراً ما أراني

شاكراً ممتناً منهم لأنهم لم يبعثوا بسموك وبي أيضاً الى السجن . لأن بوسعهم أن يتهمونا ويحاكمونا ويحكموا علينا بالابعاد الى سيبيريا بكل سهولة وبساطة .

– ولكن إذا كان كل شيء منوط بالنائب العام والقضاة فما فائدة المحاكم ؟

فأطلق المحامي ضحكة عالية .

– لا تسألني عن هذا يا حبيبي . هذا يسمى تفلسف ... بوسعنا أن نبحث هذا إذا أجبت فتعال ليلة السبت فستجد هنا أدباء ورسامين وعلماء وعندئذ سنبحث كل هذا ... هل تعرفت على زوجتي ؟ ... أرجو أن تحضر .

– سأبذل قصارى جهدي كيلا أتخلـــف عن الحضور . – أجاب (نيكليندوف) متعمداً الكذب لأن أمثال هذه الاجتماعات كانت تزعجه .

لقد أدرك الأمير (نيكليندوف) أنه إذا كان يحس ببعده عن رفيقه (شمبوك)، فانه الآن قد تبين من القهقهة التي أطلقها المحامي عندما حدثه عن العدالة وعسف القضاة ورؤساء المحاكم ، ومن اللهجة التي لفظ بهـــا كلمة « تفلسف » انه أشد بعداً عن المحامي والمجتمع الذي يعايشه .

٧١

استقل الأمير (نيكليندوف) فور خروجه من منزل المحامي ، عربة تنقله الى السجن بدلاً من الذهاب اليه سيراً على الأقدام ، لأن المسافة بعيدة وكان الوقت متأخراً . وأثناء الطريق تحول الحوذي نحوه ، وكان متوسط العمر طيب المظهر ، وقال له مشيراً الى بناية لا تزال في طور البناء .

– أنظر ، ما أروع هذا البناء الذي يشيدونه .

قال ذلك بلهجة كما لو كان مساهماً فيها .

لقد كانت فعلاً بناية ضخمة ذات طابع فني معقد . وكان البناؤون يتنقلون على السلالم والمدارج كالنمل الدؤوب والعمال يتسلقون السلالم وهم يحملون أكياس الاسمنت وغيره من مواد البناء ، وكان النحاتون ينحتون الحجارة ويعدونها لتكون صالحة للبناء ، وغيرهم ينقلون الجسور الحديدية والخشبية . وكان ثمة رجل جاد الملامح قاسيها يشير بيده الى فوق وهو يتحدث مع متعهد البناء الذي

كان يصغي اليه بإذعان مراقباً سائقي العجلات والعمال الذين كانوا يفرغون حمولة تلك العجلات .

وكان (نيكليندوف) يتأمل البناية مفكراً :

— ان العمال وأرباب العمل مقتنعون بأن الأمور يجب أن تكون هكذا وليس بصورة أخرى ... وفي حين تقتل النسوة أنفسهن جهداً في عمل يفوق طاقتهن ، والأطفال بقبعاتهم القذرة البالية ، والشيوخ يتضورون جوعاً يقيم هؤلاء هذا البناء الشامخ السخيف العديم الفائدة ... حقاً انه لعمل بليد .

— قال ذلك بصوت عال مختزلاً فيه أفكاره .

— كيف يكون عملاً بليداً ؟ — قال الحوذي كمن أهين : — ألا ترى أنه يوفر العمل للكثيرين ؟ انه ليس عملاً بليداً ولا أقل من ذلك بكثير .

— انه عمل غير ذي فائدة .

— ما داموا يبنونها فذلك دليل على فائدتها . — أجاب الحوذي : — وبهذه الطريقة يوفرون الطعام للكثيرين .

فلم يجب (نيكليندوف) ولكن الحوذي ما عتم أن عقب بقوله :

— كم من الناس يهبطون المدينة . وليس عجيباً ألا يجد بعضهم إن لم نقل أكثرهم عملاً يعمل به . — قال هذا ثم أشار بيده الى جمهور من القرويين قادمين باتجاه معاكس حاملين على ظهورهم مناجل وفؤوس وصرر الثياب .

— هل ازداد عددهم هذا العام ؟

— بلى . وهذا هو سبب هبوط أجـــور العمال وندرة العمل . ولكنهم يطرقون كل باب ويلجأون الى كل وسيلة .

— وما هو سبب ذلك ؟

— يرجع السبب في ذلك لكثرة المواليد حتى لا يدرون مما يقتاتون آخر الأمر .

— وماذا يهم تكاثرهم ؟ أليس لديهم أراضي ؟

— ان الأرض لا تنتج ما يكفي لإعالتهم .

لقد حدث (لنيكلينندوف) ما يحدث عادة لأولئك الذين يؤلمهم عضو من أعضائهم فلا تقع الصدمة إلا عليه . وربما كان الناس يتعمدون وضع الملح على الجراح .

– أيمكن أن يكون الأمر واحداً في كل مكان ؟ – قال (نيكلينندوف) مفكراً .

ثم سأل الحوذي كم يملك من الأرض في بلده ولماذا هبط المدينة . فأجابه بقوله .

– نحن أربعة ولدينا قطعة أرض تكاد لا تذكر ، فهبطت المدينة وذهب أخي ليؤدي خدمته العسكرية الاجبارية في حين ظل والدي وأخي الآخر للعناية بقطعة الأرض . ولكن أي حياة يحياها أبي وأخي . ان هذا يفكر في الانتقال الى موسكو .

– ولماذا لا تستأجرون أرضاً غيرها ؟

– وممن ؟ لقد أصبحت كل الأراضي بيد التجار ومع هؤلاء يعسر الاتفاق ... هم أرغب في استغلالها لحسابهم . ان مالك أرضنا فرنسي ويأبى الكلام عن الاستئجار .

– هو فرنسي ؟

– بلى هو فرنسي ، ويدعى (دوفر) ولعلك تعرفه . انه حلاق الممثلات . ويبدو ان هذه المهنة تدر كثيراً لأنه كون ثروة لا بأس بها ... لقد اشترى كافة الأراضي التي نسكن فيها وهو الآن يتصرف بنا على هواه ... ولكننا راضون بذلك لأنه رجل طيب . أما زوجته الروسية فانها على طرفي نقيض معه . انها حشرة ضارة ، ولينجنا الله منها . انها كارثة لنا ... ها قد وصلنا . أين تريد ان أقف ؟ أمام المدخل الرئيسي ؟ أظنهم لن يسمحوا لك بالدخول الى السجن .

الفصل الثاني

١

تقدم الأمير (نيكليندوف) من مدخل السجن وهو شديد التأثر قاصداً زيارة (كاترين) . وكان وهو يقترب من البناية يتساءل في داخله قائلاً : ترى على أي حالة نفسية سأجد (ماسلوفا) وعندما تذكر الغموض الذي يكتنف تلك المنكودة وغيرها من المساجين التعساء تملكه رعب شديد أخذ يجاهد عبثاً في التغلب عليه .

ونادى الأمير السجان واستعلم منه عن (ماسلوفا) فأخبره انها رضيت أخيراً بانتقالها الى المستشفى فذهب اليه بعد ان استخبر عن مكان وجوده والطريق اليه ، فأخبروه بأن عليه أن يمر في المشى الكائن أمام جناح الصبيان .

وخرج على ندائه طبيب شاب خشن الصوت وسأله ماذا يريد . وعلى الرغم من مظهره الجاف فقد كان هذا الطبيب طيب القلب . وإذا كان قد استقبل (نيكليندوف) متذمراً فلأنه كان يخشى ان يطلب اليه ما فيه خروج على النظام ، فأراد بذلك افهامه انه لن يخالف القانون خدمة لكائن من كان .

— ليس هنا سجن النساء .

— أعلم ذلك . وقد جئت أبحث عن ممرضة .

— آه ... نعم يوجد هنا اثنتان ... ماذا ترغب ؟

— انني أهتم كثيراً لأمر احداهن التي تدعى (ماسلوفا) وأرغب في مواجهتها الآن . — قال له الأمير : — أنا ذاهب الى (سان بطرسبرج) لأقدم باسمها أوراق التمييز ، وأود ان أعطيها هذه الصورة قبل سفري . وأراه اياها .

— حسن ، حسن . — قال الطبيب وقد لطف لهجته : — هذا مسموح به . ثم أمر احدى العجائز ان تذهب فتحضر (ماسلوفا) في الحال .

وإذ رأى (نيكليندوف) ما كان عليه الطبيب من طيب العنصر تجرأ فسأله عن سلوك (ماسلوفا) فأجابه بقوله :

– ان سلوكها حسن . وأنا راض عنها . تقوم بما تستطيعه من الأعمال وتضع فيه كل عنايتها . ها هي ذي قد جاءت .

وأطلت العجوز من أحد الابواب ومن ورائها (ماسلوفا) كانت ترتدي ثوباً مرقماً ومن فوقه الرداء الأبيض ، وتضع على رأسها غطاء أبيض يستر شعر رأسها الاسود . ولما أبصرت (نيكليندوف) احمر وجهها خجلاً ، ووقفت برهة كالمرتبكة المترددة ثم زوت ما بين عينيها وأطرقت بنظرها الى الارض وتقدمت منه بخطى متقاربة سريعة ، وفي نيتها ألا تمد له يدها ولكنها عندما أصبحت أمامه مدت له يدها لتصافحه ، وازداد وجهها احمراراً .

لم يكن قد رآها منذ طلبت اليه ان يسامحها لما قالته له . وكان مقتنعاً بأنه سيجدها على مثل تلك الحالة النفسية التي غادرها عليها . غير انه رأى في وجهها تعابير لم يستطع فهمها . كانت تعابيراً جافـــة متحفظة عدائية بالنسبة له . فأخبرها بما قاله للطبيب وقدم لها الصورة .

– هذا رسم قديم وجدته في (بانوفو) . وظننت انك قد تسرين بالاحتفاظ به . فخذيه .

فألقت نظرة على الصورة وزوت ما بين عينيها ، وكأنها كانت تسأل نفسها ماذا يعني هذا ؟ ثم أخذتها منه وأخفتها في ثنايا ثوبها الأبيض .

– لقد رأيت خالتك .

– صحيح ؟ – أجابت تسأله بلا مبالاة .

– هل أنت مرتاحة هنا ؟

– كثيراً .

– ألا تتعبين من مهمتك ؟

– كلا مطلقاً على الرغم من انني لم أعتدها .

– يسرني ذلك . على كل حال هنا خير من هناك .

– أي هناك ؟ – سألته وقد احمر وجهها حتى أذنيها .

فأسرع قائلاً : – هناك في السجن .

– ولماذا ؟

– لأنني أعتقد ان هنا أوفى لصحة العقل والجسم . على الأقــل لست مضطرة على الاتصال بمن فيه من المساجين .

– يوجد هناك قوم طيبون . – قالت الفتاة .

– لقد بحثت عن قضية (مانسشوف) يحتمل أن يبرأ .

– يسرني ذلك كثيراً . يا لهــا من عجوز طيبة . – أجابت (كاترين) مبتسمة ابتسامة خفيفة .

– سأذهب اليوم الى (سان بطرسبرج) لأن طلبك سينظر فيه قريباً . وأرجو أن ترد الدعوى للنظر فيها من جديد .

– لقد أصبحت الآن لامبالية .

– ولماذا الآن ؟

– لأنه هكذا ... – أجابته وهي تنظر اليه نظرة استفهام صامتة .

فأدرك (نيكلينلدوف) مغزى ذلك الاستفهام وانها تريد ان تعلم ما إذا كان الامير لا يزالُ مصراً على ما صرح لها به من رغبته في الزواج منها ، أم انه قد غير رأيه بسبب الرفض الذي جابهته به .

– لست أفهم لماذا أصبحت لامبالية . على كل حال أنا ما زلت عند قولي .

وكانت اللهجة التي لفظ بهــا هاته الكلمات حاسمة ، فرفعت (كاترين) رأسها وصوبت اليه عينيها السوداوين ، وأشرق وجهها بالبشر والسرور ، غير ان الشفاه لم تبح بما عبرت عنه النظرات .

– لا فائدة مما تقوله .

– أقوله ليبقى محفوراً على لوحة عائلتك .

– لقد قلته غير مرة ، ولا داعي للتكرار من جديد . – قالت وهي تمسك ابتسامتها بجهد .

وهنا رتفعت ضجة في الغرفة المجاورة ثم بكاء طفل ، فتلفتت (ماسلوفا) قلقة وقالت :

— أظنهم ينادونني .

— الى اللقاء اذن . — قال لها (نيكليندوف) ثم مد لها يده .

فتظاهرت بأنها لم ترها وأسرعت عائدة أدراجها دون أن تصافحه ، كأنها تريد إخفاء فوزها ثم توارت وراء الباب .

— بماذا يتمخض عقلها ؟ ... وماذا يشغل قلبها ... وماذا يجـــول في ذهنها ؟ ... أتراها تريد اختباري . أم هي لا تستطيع الصفح عني ؟ ... ألعلها لا تجرؤ على الافصاح عما في نفسها ، أم هي لا تريد ؟ ... أتراها انقلبت رحيمة أم قاسية ؟ ...

ولكن (نيكليندوف) لم يتمكن من الاجابة على هذه الاسئلة أجابة تطمئن لها نفسه ، على الرغم من ترديده الدائم لها . غير ان شيئاً واحداً كان بارزاً وواضحاً وهو ان الفتاة قد تبدلت . وان تطوراً هاماً قد طرأ عليها ، تطوراً لا يدنيها منه فحسب ، وإنما يزيدها دنواً وقرباً من ذلك (الله) الذي حدث ذلك التطور بإرادة منه .

وتلقت (ماسلوفا) أمراً بإعداد سرير فور عودتها الى الغرفة التي كان يوجد فيها ثمانية صبيان . وعندما كانت تنشر الغطاء فـــوق السرير ، وقد انحنت كثيراً ، زلقت قدمها وأوشكت أن تسقط على الأرض . فأغرب أحد الصبيان ضاحكاً فلم تطق (ماسلوفا) امساك نفسها عن الضحك فألقت بنفسها على السرير وأغربت ضاحكة ضحكة صاخبة امتدت عدواها الى الصبيان فانفجروا بأجمعهم ضاحكين . فعنفتها الممرضة على ذلك وقالت لها :

— ماذا دهاك ؟ أتظنين انك الآن حيث كنت ؟ اذهبي واحضري العلاج .

فوجمت (ماسلوفا) وتناولت الكأس ، وهمت بالخروج إلا أنها قبل ذلك نظرت الى الصبي الذي كان أول من ضحك وأطلقت قهقهة مدوية .

كانت أثناء النهار تخرج الصورة من مخبئها وتقبل عليها تتأملها كلما خلت

لنفسها وفرغت من عملها . وعندما جن الليل وانفردت في مخدعها أقبلت عليها تتأملها مدة طويلة دون ان تشبع عيناها من النظر الى ذاك الذي يعود الى ذهنها الآن بعد أعوام طوال . كانت تحدق في تلك الورقة الصفراء الشاحبة ، فتداعب بنظراتها سائر ما فيها : السلم ، وأشجار الحديقة ، وعلى الأخص ذلك الوجه الغض الجميل والشعر الأجعد المتدلي على الجبين ، وكانت منصرفة انصرافاً كلياً لتأملاتها بحيث لم تشعر بالمرضة عندما دخلت عليها .

– ما هذا ؟ هل أعطاك اياها هو ؟ – قالت المرضة تسألها وقد أكبت لترى الصورة : – أأنت هذه الطفلة ؟

– ومن هي إذن ؟ – أجابت (ماسلوفا) ضاحكة .

– ان لك الآن وجهاً مختلفاً . قد يكون قد انقضى عشر سنوات على هذه الصورة .

– عشر سنوات ؟ انها حياة بكاملها . – أجابت الفتاة بلهجة جادة وقد تلاشى اشراق وجهها وحلت محله غمامة من الغم والأسى وبرزت تجاعيد جبينها .

– حقاً . لقد كانت حياتك قاسية .

– لقد كانت أسوأ من حياة السجون بألف مرة . – أجابت (ماسلوفا) .

– ولماذا لم تستبدليها ؟

– لقد حاولت كثيراً فلم أتمكن . – قالت (ماسلوفا) وقد القت الصورة في درج احدى الطاولات ، وفتحت الباب وخرجت الى الرواق حابسة دموع الشجاعة .

لقد بدا لها للوهلة الأولى عندما كانت تتأمل الصورة انها ما زالت تلك الفتاة التي تتمثل فيها . وكالحالة عاودتها السعادة التي ذاقتها في تلك الأيام الهنيئة ، وناداها صوت داخلي قائلاً لها : انه ما زال بوسعها أن تكون سعيدة « معه » .

غير ان كلمات رفيقتها اعادتها الى واقعها وذكرتها بما صارت اليه الآن ،

وأبرزت أمامها ويلات حياتها التي بدأت تدرك مداها الآن . تذكرت ليالي خلاعتها الرهيبة وخصوصاً ليلة من ليالي (الكرنفال) عيد المرافع المريعة .

كانت آنئذ ترتدي ثوباً وردي اللون يكشف عن الصدر والظهر ، ملطخاً بالخمر ، منفوشة الشعر الذي تحيطـــه بشريطة حمراء لا تمسكه ، متعبة ، سكرانة ، منهوكة القوى . فجلست في احدى فترات الاستراحة بجانب احدى زميلاتها وكانت طويلة القامة نحيلة القوام فشكت لها حالها فأجابتها هذه بالمثل وانضمت اليهما (كلارا) صديقة (ماسلوفا) فكان شأنها كشأنهما وأكدت انها مصممة على هجر هذه الحياة واستبدالها بغيرها فصممن على ذلك . غير ان عازف الكمان عاد يعزف من جديد فهب الشبان ، واحتضنها أحدهم وكان شاباً يرتدي بزة سوداء وربطة عنق بيضاء فطوق خصرها بذراعه القوية ، واحتضن آخر (كلارا) ، وهكذا انقضت ساعات تلك الليـــلة بين خمر ، وتدخين ، ورقص ... وهكذا عامــاً بعد عام ... ولم يكن باستطاعتها ان تبدل حياتها ... وكان هو المسبب لكل هذا ...

وفجأة عاودها حنقها الأعمى الذي أحسته من قبل على الأمير ، وقامت في نفسها رغبة جامحة ملحة لتوبيخه وشتمه ، وندمت على افلات الفرصة من يدها لأن تقول له انها تعرفه جيداً وانها لا تثق بكلامه ، وانها لن تسمح له في أن يسيء استغلال روحها كما أساء استغلال جسدها ، وان أي دليل على سخائه لن يرضيها ...

وشعرت بحاجتها الملحة للقضاء على ذلك الألم النفسي العميق واغراقه في الخمر .

ولو انها كانت ما تزال في السجن إذن لمضت تعب الخمر ولكنها هنا لا تستطيع الحصول عليـــه إلا بواسطة الطبيب المتمرن ، الذي كانت تخشاه لملاحقته لها ، وكان أي اتصال جسدي بالرجال يثير اشمئزازها .

وظلت مدة طويلة جالسة على مقعد في الرواق ، ثم ما لبثت ان انتفضت ، وهبت من مقعدها ومضت الى مخدعها دون ان تجيب زميلتها ، وشرعت تبكي هناك بدموع غزار حياتها البائسة الشقية .

٢

كانت الدوافع التي حملت (نيكليندوف) على الذهاب الى (سان بطرسبرج) متعددة ، ولكن كان أهمها الأربعة التالية : أولاً تقديم عريضة لتمييز باسم (كاترين) ودعمها ببعض أصحاب النفوذ . ثانياً تقديم التماس لصاحب الجلالة الامبراطور باسم (فيدوسيا) . ثالثاً العمل على اخلاء سبيل (شينستوفا) التي كانت (فيرا بوغودوتشوفنا) تهتم كثيراً لقضيتها . والتوسط لشاب سجين بجرم سياسي للسماح لأمه بزيارته ، وتحسين أوضاع أولئك القرويين المبعدين الى القفقاس لشرحهم الانجيل .

لقد أصبح الأمير (نيكليندوف) بعد مواجهته (لماسلينيكوفا) وبصورة خاصة بعد رحلته الى ممتلكاته ، شديد الاشمئزاز من المجتمع الذي شب وترعرع وتثقف في أحضانه ، ذلك المجتمع الذي يتظاهر بأنـــه لا يرى آلام ألوف وألوف الناس كي ينعم وحده بمباهج الحياة ومتعها . لقد كان شديد الاقتناع من ان سائر من يضمهم ذلك المجتمع ، عاجزون عن ادراك ما في الحياة من بؤس ومبلغ ما فيها من قسوة . انه الآن لا يستطيـع اقامة أي علاقة مع أحد أفراد ذلك المجتمع دون ان يحس وخز الضمير . ومع ذلك فقد كانت تشده الى هذا المجتمع عادات حياته الماضية ، وصلات القربى والصداقة . وبصورة خاصة رغبته في تلبية موحيات قلبه لإنقاذ (ماسلوفا) وضمان النجاح في مساعدة غيرها من المساجين التعساء الذين وثقوا به .

حل الأمير (نيكليندوف) ضيفاً على خالته الكونتيس (شارسكي) زوجة وزير سابق عند وصوله الى (سان بطرسبرج) وهكذا عاد الى الوسط الاريستوقراطي الذي كان يميل للابتعاد عنه . فساءه ذلك ، إلا أنه كان أمراً لا بد منه .

كان في نزوله في الفندق اهانة لخالته التي يرجـــو صداقتها لصلاتها الطيبة وصداقاتها المتعددة مع شخصيات من ذوي النفوذ الكبير الذين يستطيعون تقديم خدمات جلى له .

– أصحيح ما سمعته عنك ؟ يا لها من اعجوبة حقيقية ... – قالت الأميرة (إيكاترين ايفانوفنا) عندمـــا أبصرته . – انك لتتقمص (هيوارد)[1] . مساعدات للمتهمين ، زيارات للسجون ، اصلاح لطريقة ممتلكاتك ...

– لا تصدقي يا خالتي . ليس الأسد قبيحاً كما يصورونه ...

– ولم لا ؟ على كل حال هي بادرة طيبة ... حدثني ... حدثني ...

فقص عليها (نيكليندوف) علاقته القديمة (بكاترين) دون ان يغفل شيئاً .

– بلى . بلى . أذكر ذلك . لقد قصت علي المسكينة (ايلين) شيئاً من هذا . لقد كانت تخشى أن تزوجك العانس بربيبتها .

كانت الكونتيس (ايكاترين) تتحدث دائماً بلهجة الاحتقار عن الأختين العانستين عمتي (نيكليندوف) .

– وهل لا تزال جميلة ؟

كانت (ايكاترين) امرأة في حوالي الستين من عمرها مرحة صحيحة الجسم قوية البنية طويلة القامة ضخمة الجثة متحمسة وثرثارة كبيرة . وكان (نيكليندوف) يحبها حباً جنونياً . وقد اعتاد على مرحها وتحمسها منذ نعومة اظفاره .

– كلا ، كلا يا خالتي الحبيبة . لقد انتهى كل شيء . كل ما ابتغيه الآن هو انقاذها ومساعدتها لأنني كنت سبب سقوطها وعلى عاتقي تقع المسؤولية المعنوية لكافة أخطائها .

– لقد أكدوا لي انك قررت الزواج منها .

– هذا صحيح . ولكنها لا توافق على ذلك .

فحدجت (ايكاترين) ابن أختها بدهشة واستغراب .

– أرى انها أكثر ادراكاً منك . يا للغباوة ... وكنت جاداً في تفكيرك بالزواج منها ؟

---

١ – جون هيوارد هو رجل الانسانية الانكليزي الشهير في القرن الثامن عشر . أنفق معظم ثروته في مساعدة المساجين . زار أكثر سجون أوروبا ومات في روسيا مصاباً بحمى خبيثة.

ـ كنت مصمماً كل التصميم .

ـ وعلى الرغم من كل ما فعلته ؟

ـ لأجل هذا على الاخص . ليست هي المذنبة .

ـ يالك من غبي ممتاز ـ قالت الكونتيس باسمة ـ غبي جدممتاز. أتعلم أن (إلينا) قد افتتحت ملجأ للمجدليات التائبات ؟ لقد زرت المؤسسة ويا لها من مرعبة . لقد ظللت أغتسل ثلاثة أيام متتالية . بوسعك أن تبعث بحميتك إلى هناك .

ـ لقد حكم عليها بالسجن مع الاشغال الشاقة ، وقد جئت للتوسط لإلغاء هذا الحكم . وهذا هو الحافز الرئيسي لحضوري إلى (سان بطرسبرج) .

ـ آه ... وأين تنظر هذه القضية ؟

ـ لدى المحكمة العليا . في مجلس الشيوخ.

ـ في مجلس الشيوخ ؟ ان ابن عمي ؟ (ليوفسكا) عضو فيه . ولكنه ينتمي للمجلس الاستشاري (الهيرالدي). أما الباقون فلا أعرف أحد منهم . كلهم ويعلم الله من هم . إما المان . أ. ب. ت. إلى آخر الحروف الهجائية . وأما (إيفانوف)(سيمونيوف)(نيكيتين)أو(إيفاتنكو)(سيموننكو)نيكيتنكو... تتغير الوجوه ... رجال من العالم الآخر . ومع ذلك فسأوصي زوجي. وسنرى إذا كان يلبي طلبي .

وهنا دخل خادم يرتدي سروالاً قصيراً يحمل رسالة في صنية من الفضة .

ـ انها رسالة ترد في وقتها . هي من (إلينا) سنستمع إلى (كيزيفتر).

ـ ومن هو هذا ؟

ـ كيزيفتر) ؟ سيأتي هذه الليلة ... وستشبع فضولك . انه مبشر فصيح جداً . حتى المجرمين المحترفين يندمون عند سماعهم كلامه .

كانت الكونتيس من مشايعي النظرية الدينية التي كانت آنئذ منتشرة في أنحاء روسيا والقائلة بأن جوهر المسيحية هو الإيمان بالفداء وعلى الرغم من اتباع

هذه النظرية لا يقرون اقتنـــاء الصور والتماثيل فقد كان لدى الكونتيس طائفة كبيرة منها موزعة في سائر أنحاء المنزل حتى على رأس السرير الذي ترقد عليه، دون أن ترى أي تناقض في ذلك .

ـ كم أتمنى لو تسمعه مجدليتك ... انها سترتد حتماً ... وأنت هل تبقى في البيت هذا المساء فتسمعه ؟

ـ يهمني قليلاً هذا يا خالتي .

ـ أقول لك انه جد مفيد . جرب ألا تتغيب . ولننتقل الآن إلى موضوع آخر : وماذا كنت تريد أن تطلب مني ؟

ـ كنت أرغب في طلب وساطتك بشأن سجين في القلعة .

ـ في القلعة ؟... إذن سأزودك برسالة إلى البارون (كيسغموت) . انه رجل طيب . يجب أن تتعرف عليه فقد كان صديقاً لوالدك . أظنه قد أصبح الآن روحانيـاً ، ولكن هـذا لا يهم . وبمـاذا يستطيع أن يخدمـك ؟

ـ بالسماح لأم السجين بزيارته. غير انه قد بلغني أن الامر يعود (لسيرفيانسكي) وليس (لكسغموت) .

ـ أنا لا أستخف ظل (سيرفيانسكي) . غير أن زوجته (ماريتا) تحبني كثيراً ، وأحسبها لن تتردد في أن تسدي لي هذا الجميل .

ـ كذلك أود التوسط لصالح سجينة في القلعة لا تدري لماذا سجنت .

ـ هذا غير معقول يا حبيبي . انها تعلم السبب جيداً . ان سائر قصيرات الشعر يعلمن جيداً لماذا سجن . انهن يتمنين البقاء هناك . وهن خليقات به .

ـ لا أدري. ولكني أعلم أنهن يتألمن... وأنتِ التي تدينين بالمسيحية وتؤمنين بالإنجيل هل يخلو قلبك من الرأفة ؟

ـ ان الإنجيل شيء والمجرمين شيء آخر . ان العطف على (النهيليين) وعلى الاخص (النهيليات) ذوات الشعر القصير ، لأشد سوءا وخصوصاً عندما أكون لا أستطيع احتمالهن .

ـ لمـــاذا ؟
ـ أو بعد أول أذار تسألني لماذا ؟
ـ ولكنهن لم يشتركن جميعهن في المؤامرة .
ـ ومن قال لهن ان يتدخلن بمـــا لا يعنيهن ؟ ان هذه القضايا ليست من اختصاص النساء . . .
ـ وهل تعني (مارييتا) بمثل هذه القضايا ؟ ـ سألها الامير .
ـ ان (مارييتا) هي (مارييتا) . . . وهؤلاء يعلم الله من هن . . . لنرى إذا كانت ستحكمنا امرأة في يوم من الايام .
ـ إنهن لا يطمعن في ان يحكمن ولكنهن يحاولن خدمة الشعب .
ـ لا حاجة بنا اليهن ليعلمننا انه يجب إعانة المحتاجين فنحن نعلم ذلك .
ـ ولكن هل من العدل ان يستنفذ الفقراء قواهم في العمل فلا يجدون غذاء يعيد لهم نشاطهم وحيويتهم في حين نسبح نحن في الوفر والرخاء ؟
ـ كان (نيكليندوف) يتكلم بحماس متوخياً عرض نظرياته .
ـ على ما يبدو تريدني ان اعمل وأن لا آكل .
ـ كلا ، كلا ، كلي . هذا ما أطلبه . أُريد أن يعمل الجميع وأن يأكل الجميع.
وعادت الاميرة تحدق بنظرها في (نيكليندوف) مستغربة أمره وراغبة في زيادة الاطلاع . ثم قالت له:
ـ ستنتهي نهاية سيئة يا ولدي .
ـ ولمـــاذا ؟
وهنا دخل القاعة رجـل طويل القامة عريض المنكبين يرتدي بزة عسكرية برتبة جنرال وكان هذا زوج الكونتيس الوزير السابق .
ـ أهلاً بك يا ديمتري . ـ قال هذا ثم قدم له خده المزين حديثاً كي يقبله .
ـ متى جئـــت ؟
ثم قبل جبين زوجته دون ان يقول شيئاً.

ـ انه ثوروي . ـ قالت الكونتيس . ـ ولو أقمت وزناً لكلامه لكان علي ان أذهب لغسل الثياب في النهر ، وأن اجعل من البطاطا غذائي الوحيد . يا له من غبي . وبالمناسبة ـ اضافت قولها ـ يقولون ان (كامنيسكي) مريضة وفي حالة خطرة ، وميؤوس من شفائها ، فينبغي ان تعودها .

ـ في الحقيقة انها حادثة مريعة . ـ قال الزوج :

ـ ينبغي ان تذهبا معاً . سأكتب بضعة رسائل .

ولم يكد (نيكليندوف) يتخطى عتبة الباب حتى صاحت تقول له :

ـ اتحب ان اكتب (لمرييتا) ؟

ـ اجل . وأرجوك بذلك يا خالتي .

ـ حسنٌ . سأكتب لها . لا تحسبني سيئة حتى ولو كنت لا استطيع هضم من تحميهم . لست اتمنى لهم شراً ... بوسعك الآن ان تذهب. ولكن لا تتخلف عن الحضور هذه الليلة . سنستمع إلى (كيزيفتر) وسنصلي. انا اعلم انكم لا تصلون . كذلك كان يفعل (إلين) . إذهب مع السلامة .

٣

كان (ايفان ميكايلوفيتش شارسكي) زوج الكونتيس ووزير الدولة السابق متطرف العادات ، صلب المبادىء ، يدافع عنها منذ نعومة اظافره بعناد خليق بقضايا اسمى . ومع ذلك فلم يكن فيها ما هو غير عادي . فكما ان من الطبيعي للعصفور ان يقتات بالدود ، وأن يكون مكسو الجسم بالريش ، وأن يطير ، كذلك كان جد طبيعي له ان يأكل طعاماً غالي الثمن اعده طهاة مشهورون ، وأن يرتدي ثياباً فائقة الاناقة ، وأن يذهب للنزهة في عربة فخمة تجرها جياد اصيلة . وبالاختصار فقد كان همه ان ينعم بكافة اسباب الراحة .

كذلك كان من مبادىء الكونت الاساسية ان يحصل من اموال الدولة على كل ما يستطيعه ، على الرغم من ثرائه ، وأن يقلد من حين لآخر بعض الاوسمة ، وأن يوثق صلاته بذوي النفوذ . وما عدا ذلك كان ثانوي الاهمية في نظره . وقد

اختص مدينة (سان بطرسبرج) بنشاطه ، طبقاً لهذه المبادىء ، إلى ان بلغ الاربعين من العمر عندما عين رئيساً للوزارة .

كان يجمع في شخصه عدة مؤهلات للنهوض بأعباء هذا المنصب ، إذ كان يعرف القوانين ، ومدلول الاعمال العلومية ومع انه كان قليل الخبرة فقد كان يحسن الكتابة دون غلط في الإملاء — وكانت له مظاهر الابّهة . وإذا كان في بعض المناسبات الخاصة يبدو متغطرساً ، فإنه كان عند غاياته وضيعاً ، ومجرداً من القيم الاخلاقية والاجتماعية ، ولذا كان ، تبعاً للظروف ، ظهيراً أو مناهضاً لجميع الناس . كان قليل الكلام خشية الوقوع في مناقضات فاضحة . وسواء كانت تصرفاته اخلاقية او غير اخلاقية ، افادت ام اخرت بروسيا والعالم اجمع فذلك ذو اهمية ثانوية في نظره .

وعندما تسلم منصب رئاسة الوزارة ظن الكثيرون انه يتحلى بصفات رجل الدولة . وكان هذا اقناعه هو . غير انه بعد انقضاء مدة من الوقت عجز خلالها عن القيام بأي شيء ، وعندما ارغمه على الاستقالة رجال من مثل خميرته وموظفون بلا مبادىء ولكنهم يجيدون القراءة والكتابة ، اتضح عندئذ بصورة واضحة جلية انه لم يكن قليل الذكاء فحسب ، وإنما قليل العلم ايضاً يعتد بقوته .

وأخيراً اقتنع بأنه ليس لديه ما يميزه عن غيره من الموظفين الكبار القليلي العلم والمعرفة الراضين عن انفسهم . غير ان هذا ما كان ليكفي الا يقتنع بأنه يجب على الحكومة ان تجعل له راتباً سنوياً وأن تمنحه الاوسمة .

اصغى الكونت (إيفان) إلى (نيكلنيدوف) كما كان من قبل يصغي لكاتبه . وبعد ان فكر برهة وجيزة وعده بإعطائه رسالتي توصية ، إحداها (لفولف) عضو مجلس الشيوخ وأحد اعضاء المحكمة العليا .

— تروج حوله إشاعات مختلفة . ولكنه على كل حال رجل مستقيم ودقيق . وقد خدمته كثيراً . ومما لا شك فيه انه سيبذل قصارى جهده .

لقد اظهر الكونت اهتماماً كبيراً لقضية (فيدوسيا) كما ابرزها له (نيكلنيدوف) . ووافق رئيس الوزراء السابق فكرة تقديم الإلتماس لجلالة الإمبراطورة ونصح له بالإسراع به ما امكن.

ولم يكد الامير يحصل على الرسالتين اللتين وعده بهما الكونت ورسالة خالته (لماريبتا) حتى خرج إلى الشارع لإيصالها .

وكان اول ما قام به زيارته (لماريبتا) . فتذكر انه كان قد عرفها منذ كانت لا تزال طفلة. كانت ابنة لعائلة اريستوقراطية فقيرة، فتزوجت من رجل حامت حوله مئات الشبهات .

واستولى عليه الخجل لاضطراره إلى اللجوء إليها، كما يحدث عندما تضطر المرء ظروفه للالتجاء إلى لا يحترمه . ورأى انه يعود شيئاً فشيئاً لذلك الجو الخانق ، وذاك المجتمع السخيف المتحجر الفؤاد الذي طالما اثار اشمئزازه .

كان، قبل قليل، قد عاوده ذلك الاشمئزاز من جديد، عندما كان يتحدث مع خالته الكونتيس التي هزأت من اشياء هي في نظرة اخلق بالإحترام من كل ما في الدنيا .

كانت (سان بطرسبرج) التي لم يرها (نيكلنيدوف) منذ عهد بعيد ما تزال تحدث في نفسه الانطباعات المعهودة كالانفعالات العنيفة ، وميوعة النفس . كل ما فيها جميل ومريح جم الرفاهية هادىء مما يجعل الحياة ناعمة مرحة .

وحمله حوذي حسن المنظر جميل الصورة، متخذا طريقه من امام بعض افراد شرطة البلدية الاقوياء البنية ، الاصحاء الاجسام الدمثي الاخلاق ، وبيوت جميلة حديثة الدهان ، في شارع رائع قد رش بالماء ونظف ، إلى ان بلغ منزل (ماريبتا) .

كانت تقف امام باب البيت عربة يجرها جوادان مطهمان من اصل إنجليزي، كانا يراوحان بين قوائمها الاولى بصبر نافذ . وأسرع البواب الذي كان يرتدي

سترة ناصعة البياض لماعة ، ففتح مصراعي الباب امـــام الامير . واقتاده إلى ردهة البيت .

– ان الجنرال لا يستقبل احدا ، وكذلك زوجته . وعن قريب ستغادر (الجنرالة القائدة) البيت . – قال له الخادم:

فأخرج (نيكلنيدوف) رسالة خالته وبطاقته الخـــاصة وتقدم من طاولة صغيرة عليها سجل تسجل فيه اسماء الزوار . وكان قد بدأ بالكتابة مبدياً اسفه الشديد لأنه لم يوفق إلى التحدث مع السيدة ، إذا بالخادم يتقدم من السلم، ويصيح البواب قائلا :

– إلى الامام .

وتقدم الحاجب وأخذ يتبع بنظره سيدة مكتنزة الجسم قصيرة القامة كانت تهبط السلم بخطوات وئيدة تتلاءم ومركزها الاجتماعي .

كانت (ماريتا) تضع على رأسها قبعة كبيرة سوداء مزدانة بالريش يعلوها برقع يغطي وجهها ، وثوب حداد يــــكاد يغطيه ثوب آخر اسود شفــــاف ، وقفازاً اسوداً .

وعندما رأت (نيكلنيدوف) أزاحت البرقع عن وجهها فبان من تحته وجه جميل رائع ، تزينه عينان جميلتان سرعان ما تحولتا نحوه.

– آه . الامير (ديمتري إيفان) هتفت تقول بمرح ظاهر ولهجة متحببة .– لقد عرفتك على الفور ...

– حتى انكِ لا تزالين تذكرين اسمي .

– ولم لا ؟ هل نسيت؟ لقد مر وقت كنت انا وأُختي من عاشقات سموك .– اجابت) ماريتا) بالفرنسية– لقد تغيرت كثيراً ... كم يسوءني كوني مضطرة للذهاب... قد تستطيع الانتظار قليلا .

قالت ذلك ووقفت لتنظر في ساعتها ثم اردفت تقول :

– كلا . كلا . ذلك مستحيل . انا ذاهبة لتشييع جنازة . ألم يبلغك؟ إن كل من في (بطرسبرج) لا يتحدثون بغير هـــذا الحديث . لقد مـــات ابن (كامتيسكاجا) في مبارزة مع (بوسن) ... وهو وحيدَ أبويه ...

– بلى لقد بلغني شيء من هذا .

– اتعلم انني لا استطيع ان اتخلف ؟ تعال غداً ، والافضل ان تأتي هـــذا المساء . ـ أضافت تقول وهي تتقدم نحو الباب بخطى متقاربة رشيقة .

– يستحيل علي الحضور هذا المساء . ـ اجاب (نيكلنيدوف) وهو يرافقها حتى عتبة الباب . ـ ومع ذلك فانا بحاجة لجميل تسدينه لي .

– وما هو نوعه ؟

– احمل رسالة من خالتي شرحت فيها كل شيء .

– لقد فهمت . تحسب الكونتيس ان لي تأثيراً علىزوجي في اعماله الرسمية . ولكن الواقع غير ذلك إذ ليس لي اي تأثير عليه ، ولا ارغب في التدخل ... ولكن إكراماً للكونتيس ولسموك سأجرب ان افعل ... قل إذن ما هو ؟

وكانت اثناء ذلك تبحث بيدها التي تلبسالقفاز عن جيبها دون ان توفق في العثور عليه .

– ارغب في مساعدة فتاة مريضة مسجونة في القلعة خطأ .

– ماذا تدعى ؟

– تدعى (شيوستوفا ليد با شيوستوفا) ستجدين إسمها في الرسالة .

– حسنٌ . سأفعل كل ما استطيعه . ـ قالت (ماريتا) .

ثم قفزت إلى العربة الفخمة التي كانت تنتظرها تحت اشعـــة الشمس ، ثم فتحت المظلة وهي تلقي اوامرها على الخادم لينقلها بدوره إلى الحوذي .

وتحركت عجلات العربة . ولكن الكونتيس (ماريتا) وكزت الحوذي

بالمظلة فأوقف الجياد الاصيلة التي كانت تقوس رؤوسها العارية من اللجم وتقرع الارض بحوافرها .

ـ لا تتأخر عن زيارتي ولكن بدون مصلحة . ـ قالت باسمة بسمة من يعلم مدى قيمتها .

ثم اسرعت فأسدلت البرقع على وجهها ، كما يسدل الستار بعد نهاية العرض في المسارح .

ـ إلى اللقاء إذن . ـ قالت وقد وكزت الحوذي بالمظلة من جديد .

فرد (نيكلنيدوف) تحيتها بإجلال وتوقير ومضت الجياد تنهب ارض الشارع نهباً ، وابتعدت العربة مسرعة وهي تتنزى فوق المنخفضات .

٤

عندما تذكر الامير بعدئذ بسمة (الجنرالة) اخذ يهز رأسه وهو يقول:

ـ يستدرجني ، دون وعي مني ، هذا الضرب في الحيـــاة . ولا سبيل إلى نكران ذلك .

وحز في نفسه ان يضطر إلى التماس خدمات قوم لايحترمهم .

وذهب الامير إلى مجلس الشيوخ . فأدخل إلى قاعة رائعة حيث وجد عدداً من الموظفين الرصنين الذين سارعوا لإعلامـــه بأن طلب التمييز المقـــدم من (ماسلوف) قـــد أحيل للدراسة إلى الجنرال (فولف) الذي يحمل له رسالة توصية من عمه .

ـ ستجتمع المحكمة هذا الاسبوع، ولكننا لا نستطيـع تعيين موعد النظر في الطلب الذي يهمك . وقد يجوز ان يناقش في الاسبوع المقبل إذا توسطت له .

وفيما كان الامير ينتظر ، سمع بعض الحاضرين يشرح تفاصيل حادث المبارزة الذي ذهب ضحيته الشاب (كامنيسكي) وتتلخص في مـــا يلي : كان فريقاً من

الضباط يتناولون طعامهم في احد المطاعم ، ويسرفون في شرب الخمر كعادتهم فذكر احدهم بسوء الفرقة التي ينتمي لها (كامينسكي) . فكذبه هذا . فبادره ذاك بالصفع ، فكانت المبارزة التي انتهت بسقوط الشاب (كامينسكي) جريحاً برصاصة اخترقت أحشاءه . وقد أوقف (بوسن) والشهود ، ولكن جميع الناس يعلمون انهم سيخلى سبيلهم بعد أسبوعين .

واذا رأى الامير ان انتظاره سيمتد فتره اخرى رأى ان يواجه البارون (فوروبيوف) احد الموظفين الكبار ذوي النفوذ الذي يشغل دارة في قصر مجلس الشيوخ . ولكن لما كان حاجب مجلس الشيوخ قد انبأه ، وهو ينظر اليه شزرا ، ان البارون لا يقابل في غير الايام المعينة للمقابلات ، فقد ترك بطاقته وخرج لانتظار العضو (فولف) .

كان هذا قد فرغ من تناول غذائه ، وانصرف كعادته يدخن لفافة تبغ وهو يتمشى في الغرفة ذهابا وأيابا ، تسهيلاِ لعملية الهضم ، فاستقبل الأمير وهو واقف على قدميه .

كان (فلاديمير فاسيلييفيتس فولف) انيقا اناقة تامة تميزه عن زملائه . وكان وهو ينظر الى هؤلاء بترفع ، لا يستطيع الا الاعتراف بان مناسبة ما مهدت له سبيل النجاح . فقد تزوج زواجاً موفقاً حصل منه على ثروة ضخمة يبلغ ريعها السنوي حوالي ثمانية عشر الف روبل ، وعلى منصبه في مجلس الشيوخ .

كان يعتبر نفسه ممتازا جداً ونزيها . وكانت النزاهة في مفهومه عدم قبول هدية من احد .

وكان ، من جهة اخرى ، لا يرى في قبوله تعويض السفر ، وتعويض الأقامة ، والرضوخ كالعبد لأوامر الدولة للحصول على كل ذلك ، ما يلوث نزاهته في شيء . كذلك لم يكن يرى في سحق مئات من الاشخاص لمجرد دفاعهم عن معتقداتهم ووطنهم ، ومعاقبتهم بالنفي وبالسجون كما فعل عندما كان

حاكما في ولاية (بولونيا) عملا شائنا ، وانما كان يراه عملا نبيلا ووطنية حقة . كذلك لم يكن يرى عيبا في استئثاره بثروة زوجته الهائمة به وبثروة اختها واستثمارهم لصالحه الخاص . لقد كان ، على العكس ، يعتقد انه بذلك يضمن بنجاح مستقبله الخاص ومستقبل سائر الأثره .

كانت تلك العائلة مؤلفة من الزوجة المنكودة الفاقدة الأرادة ، ومن اختها التي استأثر باملاكها وباع اراضيها ، واستغل ثمنها لصالحه ، ومن ابنة شابة قبيحة الصورة صبية وجبانة تعيش في عزلة قاسية ولكنها اخيراً بدأت تحضر الحفلات التي كانت تقام في منزل (الينا) والكونتيس (شارسكي) .

وكان (لفلاديمير فاسيلييفيتش) ولد شاب مرح اطلق لحيته ولما يتجاوز الخامسة عشر من عمره . وكان لا يقوم بعمل الا شرب الخمر وتدخين التبغ وتبديد المال . ولما كان قد بلغ العشرين من العمر دون ان ينهي علومه ، فقد طرده والده من المنزل لملازمته رفاق السؤ ، وتبذيره المال ، واثقال كاهله بالديون مما يهدد مركز ابيه بالضياع . كان الشيخ قد وفى دينا استدانه ولده في بعض المناسبات ، وكان يبلغ المئتي روبل ، وفي مناسبة اخرى قدى عنه دينا بلغ ستمائة روبل وانذره بانها ستكون الاخيرة ، واذا لم يغير من سيرته فسيطرده من البيت لا محالة . ولكن الشاب لم يقم وزنا لوعيد ابيه ، واستدان الف روبل اخرى ، واعرب لوالده عن ضجره من البيت وانه له كالسجن . فنفذ الوالد وعيده وطرد ولده من البيت ورفض الاعتراف به كولد . واذ اعلن ذلك احجم سائر من في البيت عن ان يأتي على ذكر اسم ذلك المنكود الحظ وهكذا حسب عضو مجلس الشيوخ ان حياته البيتية قد استقامت كافضل ما يمكن .

واستقبل الشيخ (فولف) الأمير ببسمة ساخرة (كما كان شأنه مع سائر الناس) وامسك قليلا ثم حياه وتلا رسالة التوصية .

ـ تفضل بالجلوس ، ولا تواخذني اذا ما لبثت امشي اثناء تحدثي معك فانا

بحاجة لذلك . فاعذرني . ثم طفق يمشي ذهاباً واياباً ويداه في جيبه — لقد تشرفت بمعرفتك ويسرني كثيرا ان يكون في مقدوري اسداء خدمة (لايفان ميكا ييلوفيتش) . — قال ذلك وهو ينفث دخان التبغ الأزرق ببطء .

— اسمح لنفسي بان اتقدم بالرجاء لسعادتكم كي ينظر في طلب التميز باقرب ما يمكن ، حتى اذا كان لا بد من ذهاب المحكوم عليها الى سيبيريا فالأفضل التبكير به . — قال الأمير . — اعلم ذلك جيدا . في هذه الحالة تذهب مع البواخر الاولى من (نيجني نوفجورود) . — اجاب الشيخ الذي كان دائماً عالما بكل شيء حتى قبل الاطلاع عليه .

— ما اسم مقدمة الطلب ؟

— اسمها (ماسلوفا) .

فجلس (فولف) الى الطاولة الصغيرة ، والقى نظرة على بعض الاوراق ثم قال :

— حسن سأتحدث بذلك الى زملائي ، وسيبث بالقضية نهار الاربعاء .

— أأستطيع الابراق بذلك للمحامي ؟

— آه — الديها محام ؟ ولماذا ؟ لا فائدة من الابراق . ولكن اذا كنت تريد .

— قد تكون الاسباب الموجبة للتميز والواردة في طلب غير وافية . ولكن من سياق الدعوى يبدو جليا ان الحكم كان الخطأ .

— اجل قد يحدث هذا احياناً . ولكن المحكمة لا تستطيع اضاعة الوقت في تدقيق كافة التفاصيل . اجاب (فولف) بلهجة قاسية وهو ينظر الى رماد لفافة التبغ — ان مهمة المحكمة هو العمل على تطبيق القوانين تطبيقا حسنا ودقيقا .

— هذه حادثة استثنائيه .

— اعلم ذلك ، اعلم ذلك ، على الدوام حوادث استثنائية سنؤدي واجبنا . وغير ذلك لا استطيع ان اضيع شيئا .

وكان عمود الرماد ما زال عالقاً باللفافة الا ان ثغرة كانت قـد فتحت فيه واصبح ينذر بخطر السقوط .

ـ هل وصلت منذ قليل الى (بطرسبرج) ؟ ـ سأله (فولف) وقد امسك اللفافه بيده محاذرا ان يسقط الرماد . ولكنه اذ رآها تتأرجح اقترب بهدوء وحيطة من منفضة الرماد والقاه فيها . ـ كم هي مريعة حادثة (كامينسكي) لقد كان شاباً قوياً . وفضلاً عن ذلك فهو وحيد . يا لأمه كم تستحق المرثية .

كانت كلماته هذه اختزالا لحديث سائر سكان المدينة كلها بالنسبة لآل (كامينسكي) .

وتحدث (فولف) فترة اخرى ثم قرع الجرس وودع الامير وخرج .

ـ مع التقدير والاعتبار . ـ قال (فولف) وهو يمد له يده .. تعال الى العشاء في اي يوم ، الاربعاء مثلا . وهكذا تطلع على ما يكون قد تم بالقضية .

ومضى (نيكليندوف) الى بيت خالته فور خروجه من منزل (فولف) لأن زيارته كانت قد استغرقت وقتاً طويلاً .

٥

جلس الأمير الى المائدة في بيت خالته ، عند الساعة السابعة والنصف مساء فادهشه ما رآه من تصرف الخدم ، اذ انهم ما يكادون يضعون الطعام ، ويستبدلون الاطباق الملوثة حتى يتواروا فلا يظهرون بعدها الى ان تدعوهم ربة البيت بقرع الجرس ، وعندئذ ياتون بالطبق الجديد ، ويرفعون الصحون المستعملة ثم يتوارون من جديد تاركين الجماعة وشأنهم يسوون امورهم كما يعن لهم . وهكذا يرى الرجال انفسهم مجبرين على خدمة السيدات .

كان الطعام فاخرا ، وكان سائر ما على المائدة من طعام وخمر ممـــا يشرف اهل البيت .

كان على المائدة ستة اشخاص ، الكونتيس والكونت وولدهما الضابط في الحرس ، ومعلمة فرنسية او قارئة ، ومدير املاك الكونت العام الذي وصل من الريف قبل قليل ، والامير (نيكلينندوف) .

وكان طبيعيا ان يستأثر حادث المبارزة بحديثهم . وقد قيل ان الامبراطور اتى لحال الأم المنكودة الطابع . غير انه قد قيل ايضا انه سوف لن يقسو على (بوسن) لأن عمله كان انتصاراً لشرف البزة العسكرية . فقبحت الكونتيس صنيع القاتل ، لتدل على ان لها رأيها الخاص . وقالت :

– هذه حصيلة الخمر . يشربون ويسرقون ، ثم بعد ذلك يقتتلون .. انهم لا يستحقون العفو .

– لست افهم جيدا ما تقولين . – قال زوجها .

– ليس هذا بغريب ، وانما الغريب ان تفهمني . – قالت نجيب ثم التفتت الى الامير واضافت تقول : – هذا ما يحدث على الدوام . يفهمني سائر الناس ما عدا زوجي . اقول انني ارثي لحال الام واتمنى الا يذهب الدم هدرا دون ان تقتص له . فتدخل ولدها الذي ظل صامتا حتى ذلك الوقت ، مدافعا عن (بوسن) فأكد انه لم يكن يسعه ان يتصرف بصورة اخرى ، والا طرده رفاقه الضباط من صفوفهم .

فأدرك (نيكلينندوف) ما يرمي اليه ابن خالته من قوله هذا ، لأنه كان جنديا ، ولكنه كتم موافقته له . وعلى غير تعمد ، اخذ يقارن بين هذا الضابط الذي قتل رفيقه في السلاح ، وبين ذلك القروي الشاب القوي العضل الذي قتل رفيقه في حادث شجار. ولما لم يستطع ضبط نفسه عن الكلام فقد قص الحادث.

كان الخمر سبب الجريمة الأول في كلا الحادثين . ولكن في حين يعود الضابط فينعم باعتباره وراتبه ومنصبه ، يئن ذلك القروي المسكين في السجن محلوق الراس ، لا يرجو من احد خيرا .

وللوهلة الاولى وافقت الاميرة على كلام ابن اختها ، ولكنها سرعان ما وجمت كبقية الحاضرين ، وران عليهم الصمت . فادرك (نيكليندوف) انه جاء امرا اذا .

وانتقلوا من القاعة بعد ان فرغو من تناول الطعام ، اذ كان الزوار قد بدأوا يتواردن و كلهم لهفة لسماع (كيزيفتر) .

كانت القاعة واسعة ، وكان فيها صفان من الكراسي ؛ وطاولة عليها قدح من الماء ومن وراء الطاولة مقعد فخم . كان قد اصبح في القاعة كثير من النساء اللواتي يرتدين الثياب الحريرية والمخمل ، وعدد من الرجال الذين يرتدون البزات الرسمية او ثياب الاحتفالات ، وبعض افراد الشعب . كاحد التجار والحوذيين وغيرهم .

كان (كيزيفتر) قوي البنية مستدير الوجه ، غليظ الاحناك . وكان يتكلم باللغة الانكليزية فتنقل ما يقوله الى الروسية فتاة نحيلة القوام تضع نظارات على عينيها .

كان يؤكد ان خطايا الأنسان عظيمة ، وان القصاص سيكون قاسياً جداً ، وان انتظار هذا القصاص مضى .

يكفي ان نفكر ايها الاخوة والاخوات ، في حياتنا هذه التي نحياها . يكفي ان نفكر اننا نستثير باستمرار غضب الله علينا واننا نثير الآم ابنه الالهي يكفي هذا لكي نعلم اننا لا نستحق الغفران وان هلاكا مريعاً يتهددنا ، وعذاباً ابدياً ينتظرنا — هكذا كان يقول بصوت مرتعش — وما هو طريق الخلاص ؟ كيف نتحاشى هذا الحريق الرهيب ايها الاخوة ؟ اوه . لقد اشتعل البيت وليس من منقذ للخلاص .

ثم صمت فترة واخذت الدموع الصادقة تترقرق على خديه البدينين . لقد لبث ثمانية اعوام يكرر هذه الموعظة ، التي كانت تروق كثيراً ، دون ان

يضيف عليها او ينقص منها حرفا واحدا . وكان كل مرة يبلغ «البيت الملتهب» يشعر بعقدة في حلقه وتهيج في انفه فلا يسعه الا البكاء .

وارتفع في القاعة شهيق بكاء . وكانت الكونتيس وهي متكئة بكوعيها على طاولة صغيرة من الموزاييك وتمسك راسها بيديها ، تنتفض اكتافها من حين لأخر . كذلك كان معظم الحاضرين يخفون وجوههم بأيديهم . وكانت ابنة الشيخ (فولف) تبكي وهي راكعة . والحوذي ينظر الى المبشر نظرة مرعوبة كما لو كان يوشك ان يدهسه بعربته ، ويحاول (كيزيفتر) الأبتعاد عن الخطر .

وبعد صمت قليل ، رفع الخطيب رأسه ثم مضى متابعا خِطابه بلهجة رقيقة معبره مبتسما ابتسامة الممثلين عندما يريدون التعبير عن سرورهم .

ـ ومع ذلك فانه لا يزال لدينا سبيل للخلاص . ذلك السبيل هو دم الابن الالهي الوحيد المسفوح ، الذي قاسى لاجلنا كل صنوف العذاب . اذن ايها الاخوة ـ وهنا اصبح صوته مرتعشا . ـ فلنحمد الله الذي بعث لنا بابنه قدس الاقدس . ان دمه الالهي ...

هنا بلغ الاستياء مبلغه في نفس (نيكليندوف) ولم يعد يتحمل المزيد من بقائه في القاعة فغادرها وهو يقار .

٦

عندما استفاق الامير من نومه في اليوم التالي ، قدم له الخادم بطاقة المحامي (فانارين) الذي جاء الى العاصمة لأعمال تتعلق بمهنته ، يقول فيها ان بوسعه البقاء الى ان يبث في طلب (فاسلوف) هذا اذا كان سينظر فيه قريبا . وعندما اطلع (نيكليندوف) المحامي على اسماء القضاة الثلاثة الذين ستتألف المحكمة منهم ابتسم وقال :

ثلاثة من اعضاء مجلس الشيوخ ، هم ثلاثة انواع مختلفة من الرجال ... قال

(فاتارين) .. (ففولف) موظف من (سان بطرسبرج) و (سكوفورودنيكوف) متشرع مشهور ، و (بي) رجل دواوين وان كان اذكاهم . بماذا اجابوك في اللجنة التي تنظر في طلبات التمييز ؟

ـ سأذهب اليوم لمقابلة البارون (فوراهيوف) لأنني لم اتمكن حتى الان من الاجتماع به .

ولما كان (نيلكيندوف) قد لفظ بلهجة خاصة كلمة (بارون) وهو لقب يبدو غريبا اذا ما اضيف الى اسم روسي فقد اخبره (فاتارين) ان الامبراطور بطرس قد منح هذا اللقب لاحد اسلافه الذي كان وصيفا له . ثم انتقل بالوراثة من والد لولد . وكان البارون الحالي النذل الكبير شديد الأعتزاز والتيه بهذا اللقب .

ـ على رغم كل هذا فانا بأمس الحاجة لاستعطافه .

ـ حسن . سارافقك فترة قصيرة . واحملك معي في عربتي .

وفي غرفة الاستقبال جاءه الخادم برسالة من (ماريينا) مكتوبة باللغة الفرنسية . وهذا نصها :

« خروجا على عهدي الذي قطعته على نفسي ، فقد خاطبت زوجي بالموضوع اكراما لك . سيخلي سبيل محميتك في الحال لان زوجي قد كتب بذلك لآمر الموقع . احضر لمواجهتي « نجلوغاية » انا بانتظارك ـ م .

ـ ما قولك ؟ يسجنون امرأة ستة اشهر ثم يطلقون سراحها على لا شيء .

ـ هذا ما يحدث دائما . لقد حققت غرضا من اغراضك على الأقل .

ـ ولكن ما يجنون من سجنها ؟

ـ الافضل عدم التفكير بذلك .

وكان الاثنان واقفين بالباب .

ـ سأرافقك اذن . ـ قال (فاتارين) .

واستقل الاثنان العربة الفخمة ، وراحت الجياد تنهب الارض نهبا متجهة الى منزل البارون .

كان البارون حاضرا في البيت . وكان احد الموظفين يتحدث الى رجلين تبدو عليهما سيماء الوقار وهو لا يهدأ عن الحركة لحظة واحـــدة . والتفت الى « نيكلیندوف » يسأله .

ـ ما اسمك ؟
ـ الأمير « ديمتري ايفان نيكليندوف » . ـ اجابه هذا .
ـ لقد انبأني البارون عن سموكم . تفضل وادخل حالا .
واذ ذاك كان موظف آخر يرافق سيدة ترتدي ثياب الحداد ، وتسدل على وجهها حجاباً لتخفي دموعها .

ورافق الموظف الاول الامير حتى باب مكتب البارون وفتح له الباب ، وتنحى قليلا ليفسح طريقا للأمير . ولما دخـــل « نيكليندوف » الغرفة القى نفسه امام رجل ربع القامة ، ضخم العضلات ، قصير الشعر جالس امام مكتب ضخم ، وهو ينظر الى السقف . وكان بياض شعر لحيته ورأسه يزيد احمرار وجهه وضوحا وبروزا . وعندما تنبه لوجود الامير انفرجت شفتاه عن ابتسامة.

ـ يسرني كثيرا ان اراك ... اجلس ، اجلس ... ان صلة المعرفة قـديمة بيننا ... لقد رأيتك عندما كنت طفلا في منزل والديك... اي خدمة استطيع تأديتها لك ؟ قل ، قل ، ودع المجاملات .

فشرع « نيكليندوف » يقص عليه قصة « فيدوسيا » . وكان البارون يردد من حين لآخر قوله :

ـ بلى ، بلى . افهم .
وعندما انتهى الأمير من كلامه اضاف يقول :
ـ ان هذا مثير جدا . هل اعددت الطلب ؟

ـ بلى ها هو ذا ـ اجاب « نيكلنيدوف » ـ ولكنني اود ان احدثك عنه لأنني اعتقد انه يجب ان يؤيه له بشكل خاص .

ـ لقد احسنت صنعا . انها قضية مثيرة جدا . هي فتاة وهو رجل همجي يسيء اليها ويعذبها ... ثم يدور الزمن فينقلبا حبيبين . . اجـل . اجـل . سأهتم لهـا .

ـ كذلك سيتدخل الكونت « ايفان ميكا بيلوفيتش » لصالحها .. ـ قـال الأمير ولكنه لم يكد يذكر الكونت حتى تغيرت ملامح البارون .

ـ ابعث الطلب الى الدائرة ، ومن جهتي سابذل جهدي .

وهنا دخل الموظف الذي رافق « نيكلنيدوف » الى المكتب .

ـ السيدة التي خرجت منذ قليل تريد ان تعرض عليكم بعض كلمات .

ـ فلتدخل . لا تستطيع ان تتصور مقدار الشكاوي التي اتلقاها كل يوم .

وفتح الباب فدخلت منه المرأة التي ترتدي ثياب الحداد .

ـ غاب عني ان اتوسل اليكم الا تسمحوا لها برؤية ابنتها لأنها قد تقوم ..

ـ لقد وعدت بذلك .

ـ شكرا يا سمو البارون اذ بهذه الصورة تنقذون اما . . .

ثم تناولت يده وقبلتها .

وهب الأمير واقفا ليودعه فور خروج السيدة .

ـ سابذل قصارى جهدي . ـ قال البارون ـ وسأصلك بوزير العـدل ، وسأقوم من جهتي ..

فودعه الامير اثر هذا الوعد وخرج .

وعندما كان يجتاز الدوائر الرسمية ويشاهد الحجاب ببزاتهم الرسمية الجديدة

ووجوههم المشرقة ، كان يقارن بينهم وبين المساجين والعمال فيعصف بنفسه غم لا يوصف .

٧

كان مصير المساجين منوطا بقائد عجوز في بطرسبرج ، ادى خلال خدمته العملية ، خدمات جلى . كان من اصل الماني ، وعلى رغم الاوسمة العديدة التي كان من حقه ان يحلي بها صدره ، فانه لم يكن يحمل منها سوى صليب ابيض يضعه في عروة سترته .

لقد ادى خدمته الاولى في القفقاس . وكان على رأس جيش من القرويين يرتدون بزات عسكرية ، فقتل المئات من الناس لغير ما ذنب سوى دفاعهم عن استقلالهم وعائلاتهم واموالهم . فاستحق هذا الصليب الأبيض تقديرا لهذه البطولة . ثم قام بعد ذلك في بولونيا بأعمال بطولية مماثلة استحق لأجلها صلبانا اخرى . واخيرا ، وعندما اصبح شيخا هرما قد هدمه المرض اسند اليه منصب المدير العام للسجون الذي كان له كالماء للسمك وكالفضاء للطير .

كان شديد الحرص على تنفيذ الاوامر المعطاة له ، فلا يسمح لنفسه قط بتجاوزها . ولكنه في الامور التي يترك له الخيار في تصريفها كان يظهر تساهلا وتسامحا . كانت مهمته الاحتفاظ بالمجرمين السياسيين في السجون ، واخذهم بنظام لا تنقضي عليهم معه عشر سنوات الا ويكون اكثرهم قد جن ، او انتحر او مات مسلولا . وكان القائد يرى كل ذلك دون ان يحرك ضميره ، او يحدث ايما اثر في نفسه اكثر مما تحدثه انباء الكوارث الطبيعية كالعواصف والفيضانات في بلد قصي ، لان مسؤلية ما قد يحدث فعلى ما تلقاه من اوامر صادرة عن مصادر عليا قد تكون عن الامبراطور نفسه ، وما دام امر تنفيذها موكولا اليه فهو يعتبر نفسه غير مسؤول عن نتائجها .

كان الجنرال يقوم بتنفيذ هذه الاوامر دون ان يسمح لنفسه بابداء الرأي

فيها او التعليق عليها ، لانه كان يرى في ذلك جرأة غير بريئة لا تصدر عن عن جندي صالح ، ومواطن شريف. وكان يقوم اسبوعيا بزيارة تفقدية للسجون حيث يستمع لشكاوي المساجين ، ويتلقى طلباتهم ، تنفيذاً للأوامر المعطاة له ايضاً ، فكان يصغي اليهم بهدوء وانتباه . ولكن هل كان ، في الحقيقة ، يولي ايا منها اي التفات ؟ كلا . لاعتباره اياها غير مشروعة .
كانت الساعة المنصوبة على احد الابراج القريبة في المكان تعزف نشيدا روسيا تمجيدا لله ، ثم دقت بعده دقتين في اللحظة التي وصل فيها (نيكليندوف) الى منزل الجنرال .

وكان هذا جالسا امام طاولة صغيرة في غرفة مؤثثة باثاث قاتم اللون ، ويجلس قبالته رسام شاب اخ لاحد مرؤسيه ، وهو يمسك بيده اليمنى صحنا صغيرا للقهوة مقلوبا ، كان يتنقل من مكان لآخر بقوة النبض في اصابع الجنرال والرسام ، فوق قطعة من الكرتون كتبت عليها الاحرف الهجائية وهما بانتظار ان يجيب على اسئلة القياها عليه .

كان الجنرال قد سأله « كيف تتعارف ارواح الاموات فيما بينها ؟ » . وحين وصل (نيكليندوف) كانت روح (جان دارك) تجيب بواسطة الصحن مستعملة الاحرف الهجائية المرسومة على قطعة الكرتون انها « تتعارف فيما بينها ... » . وهنا قامت مشكلة عندما اكد الجنرال ان الصحن بعد ان وقف امام الحرف (ب) تحول نحو الحرف (ع) ثم نحو الحرف (د) وذلك يعني انها تتعارف (بعد) ان تتطهر . ولكن الرسام كان واثقا من ان روح (جان دارك) قد اجابت بواسطة الاحرف انها تتعارف « عن طريق النور » .

وبدون ان يأبها كان كل واحد منهما يدفع الصحن باتجاه الحرف الذي يناسبه ، وهو شديد الايمان عميقه .

وحينما قطعت زيارة الامير تسلية الجنرال اظهر امتعاضه ثم وقف ووضع نظارته على عينيه وقرأ الرسالة ثم قال :

ـ ليدخل الى المكتب .

ـ اذا سمحت سعادتكم فسأواصل العمل وحدي . ـ قال له الرسام . ـ فها قد حضرت الروح .

ـ حسن . اكمل العمل . ـ اجاب الجنرال وهو يسير بخطى واسعة متزنة باتجاه المكتب .

ـ ان سروري عظيم برؤيتك . ـ هتف الجنرال يقول بصوت اجش عنـدما عندما ابصر الأمير . ثم اضاف وهو يشير له الى كرسي ليجلس عليها . ـ هـل وصلت الى بطرسبرج منذ مدة طويلة ؟

ـ لقد وصلت منذ ايام قليلة .

ـ وكيف والدتك ؟

ـ لقد توفيت .

ـ معذرة فقد اخبرني ولدي بذلك فتألمت . ولكني نسيت .

كان ينتظر ابن الجنرال مستقبل باهر . اذ كان في مكتب المعلومات مولجا بأخذ الاسرار من الجواسيس .

ـ اجل . اجل . لقد أديت ووالدك الخدمة العسكرية الاجبارية سوية. كنا رفاقاً طيبين ... وهل سموكم في الجيش ؟

ـ كلا .

فهز الجنرال رأسه دلالة على عدم الموافقة .

ـ جئت اطلب اليك خدمة . ـ بدأ (نيكلييندوف) الكلام

ـ ساقوم بها ما دامت في مقدوري .

ـ اذا كان رجائي يبدو لعيني سعادتكم غير موافق فارجو المعذرة . وعلى كل حال لا بد لي من تقديمه .

ـ وما هو نوعه ؟

ـ يوجد بين المساجين في القلعة فتى يدعى (غور كيفيتش) تطلب امه السماح لها بزيارته او على الاقل ان تبعث له بكتب .

فلم يبدر من الجنرال ما يدل على الاستياء او الارتياح، وكان يتظاهر بالتفكير ولكنه في الحقيقة لم يكن يفعل ذلك رغبة منه في التقيد بالانظمة والقوانين المرعية الاجراء ، وانما استغلالا للمناسبة للتخفيف عن عقله المتعب .

ـ ليس بالامكان تلبية رغباتك . ـ اجاب ـ فالقوانين تحظر الزيارات . اما الكتب فلدينا مكتبة مليئة بالكتب ونحن نقدم لهم كل ما يطلبونه منها .

ـ هو يريد كتبا علمية لاكمال دراسته .

ـ دراستة ؟ لا تصدق .

ثم صمت برهة ليتابع بعدئذ كلامه قائلا :

ـ انه لا يريد اكمال الدراسة ، وانما يرغب في ازعاجنا . وهـذا كل ما في الأمر .

ـ ولكن كيف سيقضي وقته خلال مدة سجنة التي لا نهاية لها ؟

ـ اذا اعرتهم اذنا صاغية فسوف لن تسمع منهم غير الشكوى ... لقد اصبحنا نعرفهم .

كان يتحدث عن المساجين بنفس اللامبالاة التي يتحدث فيها عن عرق مختلف وطبقة خاصة من الناس .

ـ لقد منحناهم هنا امتيازات لم تعطى لسواهم من المساجين .

ثم اخذ يعدد وسائل الراحة التي اختصوا بها ، والتغذية الحسنة التي كانت تقدم لهم ، والعناية الخاصة التي يولونهم اياها ، كي يبرهن على صدق قوله . وركز بصور، خاصة على التغذية الحسنة ليدلل على مدى نكران الجميل عند المساجين .

ـ وفوق ذلك لديهم كتب دينية ، وصحف قديمة ، ولكنهم لا يلتفتون اليها . ولدينا مكتبة منتقاة ، ولكنهم لا يطالعون الا من حين لآخر . هـذا

امر واضح . وحتى انه يسمح لهم بالكتابة . ففي كل قاعة لوحة وطباشير يستطيعون استعمالها باستمرار اذا محو ما كتبوا ... ولكن . ليس هناك من يفكر بهذه الطريقة . هذا ما ينبغي الاعتراف به . كلهم في بداية سجنه تقوم قيامته ، ولكنهم اخيرا يسمنون ويطمئنون .

كان الامير يصغي لذلك الصوت الابح المتراخي ويحدق بتلك الاعضاء المنهوكة ، وتينك العينين المنطفئتين تحت تلك الحواجب الكثيفة ، وتلك الخدود المترهلة المتدلية فوق ياقته الرسمية ، وذلك الصليب الابيض ، مفكرا في نفسه بان اي معارضة له او محاولة لتبيان حياة المساجين بصورة مختلفة عما يقول هي مهمة خاسرة وعديمة الجدوى . ومع ذلك فقد سأله عن (شينستوفا) تلك السجينة التي سيخلى سبيلها .

ـ (شينستوفا) ؟ (شينستوفا) ؟ .. لا اذكرها .. لدينا عدد عديد من المساجين .. ـ اضاف يقول وكانه يأسف لوفرة هذا العدد ...

وقرع جرسا يدعو كاتبه ، وفيما كان ينتظر قدومه ، حاول اقناع (نيكليندوف) بضرورة البحث عن وظيفة . .

ـ الوطن بحاجة لخدمات اشخاص اشراف نبلاء . ليكن لك مني اسوة حسنة ، فهاانذا على رغم شيخوختي لا ازال اخدم وطني جهد طاقتي .

كان الكاتب جافاً ، متوقد العينين ذكيها ، فاخبره بان (شينستوفا) لا تزال سجينه لانهم لم يتلقوا اي تعليمات بشأنها .

ـ عندما تردنا الاوامر سنطلق سراحها فورا ، اذ لا مصلحة لنا بالاحتفاظ بها عندنا . ـ قال الجنرال وهو يحاول تكوين بسمة على فمه ، ولكنها ماتت في تقلصات عضلات وجهه .

ـ الى اللقاء يا صديقي . ـ قال له ـ اوجو الا يسؤك صريح الكلام . لا تتصل بالمساجين . ليس من بريء سوى المجتمع . نحن اعرف بهم .

لقد كان مقتنعا من صواب ما يقول ، ولو شك لكان عليه ان يعترف بانه لم يكن بطلا يختتم حياته بالمجد والفخار ، وانما موظفا باع ضميره في شبابه ولا يزال يبيعه حتى في شيخوخته .

وصعد (نيكليندوف) زفرة عميقة ، وانحنى يصافح اليد الكبيرة التي اصبحت جلدا على عظم ، والتي كان القائد يمدها له بتغاضي واسترخاء ثم خرج من المكتب .

وهز القائد بدوره رأسه استياء ، واخذ يحك خاصرته وهو يعود الى القاعة حيث كان الرسام بانتظاره ليطلع على جواب روح (جان دارك) الذي كان قد سجله الرسام . فوضع القائد نظاراته على عينيه وقرأ ما يلي : « تتعارف فيما بينها بواسطة النور الذي ينبعث من هياكلها الاثيرية . »

ـ آه . ـ قال وقد اغمض عينيه دلالة الموافقة . ـ ولكن اذا كان النور متشابها فيها جميعها . فكيف تتعارف ؟

وعادت اصابعه الى التشابك من جديد باصابع الرسام ، بعد ان جلسا معا امام الطاولة الصغيرة

واسرع الحوذي بالابتعاد عن ذلك المكان يحمل الامير . ثم قال وقد تحول نحوه .

ـ ان هذا المكان يبعث الغم في النفوس . اوشكت ان ادعك وأذهب .

ـ هذا صحيح . ـ اجاب الامير وقد احس باطمئنان وراحة ، وهو يرنو بنظره الى الغيوم الخفيفة التي كانت تطوف الفضاء ، والبواخر والقوارب التي كانت تهزها مياه (النيفا) بلطف وشكل رتيب .

٨

ذهب (نيكليندوف) الى قصر مجلس الشيوخ في اليوم التالي وهو موعد انعقاد

المحكمة للنظر في طلب التمييز الذي تقدمت به (كاترين) فوافق وصوله اليه وصول المحامي (فاتارين) فدخلا معا وصعدا سلما فخما اوصلهما الى الطابق الثاني . وكان المحامي قد زار القصر غير مرة ، فدخل الى بعض الغرف حيث ترك معطفه ، وبقي بثوب (الفراك) وربطة العنق البيضاء . وعندما ابلغه المقرر ان المحكمة قد انعقدت ، دخل الى قاعة محاذية للتي كان فيها .

كانت القاعة واسعة يشطرها الى شطرين ستار عال وكان يتصدرها شيخ اشيب الشعر يرتدي بدلة رمادية يجلس امام طاولة وضعت فـــوق منصة يصعد اليها بسلم قصير . وكان يصعد السلم آنئذ موظف آنيق يتأبط محفظة اوراق . وعندما تلاقى (فاتارين) بزميل له من بطرسبرج يرتدي الثوب الرسمي ، شرع يتحدث اليه بحماس عن قضايا مهنية .

كان (نيكليندوف) آنئذ يتفحص الاشخاص الموجودين في القاعة ، وكانو في حدود الخمسة عشر شخصا بينهم امرأتان احداهما صبية تضع نظارات على عينيها ، والثانية عجوز قد وخطها الشيب .

وكان الطلب الذي سينظر فيه أولا يتعلق بدعوى نشر ، وجريمة تشهير ، ولذا كان في المحكمة نظارة اكثر من المعتاد .

وتقدم المقرر من (فاتارين) وسأله ما الذي جاء به فلما اخبره انه محامي (كاترين ماسلوف) كتب بعض كلمات في ورقة كانت في يده .

وخرج الشيخ ذو المظهر البطريركي من باب داخلي كان مفتوحا ، ليرتدي البزة الرسمية الرائعة التي تجعله شبيها بعصفور جميل . وكان الشيخ مضطرب الحواس دون شك ، بدليل انه ما عتم ان توارى وراء باب مقابل للمدخل وهو يسير مسرعا اكثر من المعتاد .

– هذا هو (بي) الرجل الاكثر نفوذا في هذا القصر . – قـــال (فاتارين) للأمير .

وفتحت الجلسة بعد دقائق قليلة . فجلس (فاتارين) و (نيكليندوف) في مكان النظارة ، وجلس المحامي الثاني في الجانب الاخر امام طاولة صغيرة. وعلى الرغم من كون المحكمة العليا اقل اتساعا واكثر بساطة من محكمة الجنايات فانها كانت تمتاز عنها بغطاء الطاولة المخملي الاحمر بدلا من الغطاء الكتاني الاسود وفيما عدا ذلك فقد كانتا لا تختلفان في شيء حتى الأيقونة والهيكل الصغير . كذلك وقف المقرر كما وقف زميله هناك ، وصاح بملء صوته :

ـ المحكمة .

وكذلك تقدم اعضاء مجلس الشيوخ بأبهة مرتدين البزات الفخمة ، وجلسوا على المقاعد ذات المسند العالي ، محاولين الظهور بمظهر طبيعي .

كان هؤلاء اربعة : (تيكيتين) وكان حليق اللحية قاسي النظرات حادها كنصل الخنجر ، و (فولف) وكان مقطب الشفتين ابيض اليدين يحمل فيهما بعض الاوراق . (وسكوفور ودنيكوف) الرجل البدين الثقيل الجثة المنفوخ الوجه . واخيرا (بي) الشيخ العجوز البطريركي . وجاء معهم الناموس العام بالنيابة عن النائب العام ، وهو رجل ربع القامة نحيف الجسم ، حليق اللحية اسود العينين ، وحزينا دائما وعلى الرغم من البزة التي كان يرتديها والتي كانت تظهره بمظهر مختلف ، وعلى رغم الاعوام الست التي مرت دون ان يراه (نيكليندوف) فقد عرفه على الفور لانه كان من خيرة اصدقائه ورفيقه اثناء الدراسة في الجامعة .

ـ اهذا هو النائب العام (سيلينين) ؟ ـ سأل الامير (فاتارين) .

ـ اجل . ولماذا تسألني عنه ؟

ـ لانني اعرفه جيدا . انه شخص ممتاز .

ـ هو نائب عام رائع وذكي . وربما كان مفيدا لنا الاتصال به .

ـ يصرف اعماله بمقتضى وحي ضميره . ـ اجاب الامير ، وقد تذكر الصداقة المتينة التي كانت تربطه به والنزاهة التي عهده يتحلى بها .

ـ لقد اصبح ذلك متأخرا . ـ اضاف المحـامي وهو يصغى الى تـــلاوة الملخص .

كذلك حاول (نيكليندوف) الوقوف على فحوى تلك الدعوى الا انه لم يتمكن من ذلك تماما . اذ ان الذي يناقش دائمـــا في الدعوى ليس العنصر الاساسي فيها وانما ملابساتها الثانوية . كانت الدعوى ملاحقة للصحيفة اكتشفت تلاعب مدير شركة مساهمة فاذاعته . وكان منطقيا ان تتحرى المحكمة عـن صحة ما يعزى الى المدير من التلاعب بارواح المساهمين ولكنهم كانوا يبحثون عما اذا كان الجرم مجرد تشهيراً أو تهمه ، وعما إذا كانت هـــذه تتضمن عناصر التشهير او هـذا يتضمن عناصر تلك . كذلك كانوا يبحثون فيما هو اشد غموضا وابهاما على الناس ، اذ كانوا يبحثون عن الصلة بين قرار حكم ، وبين قرار حـكم سابق .

لم يبد جليا واضحا لعيني (نيكليندوف) اللهم الا امر واحـد وهو ان (فولف) الذي يقوم في هذه الدعوى بدور المقرر ، والذي صرح له منذ يومين بانه لا يمكن بحث اصل الدعوى ، قد اصبح الان متحيزا ، وان (سيلينين) المعروف بتساهله ، يقف الان موقفا مخالفا عنيفا . والسبب في ذلك كونه يعرف الظنين معرفة تامة ، ويعلم ما تنطوي عليه نفسه من سوء وانه جـــدير بارتكاب اي جريمة على حساب مصلحة الغير ، وانه قبل قليل من رؤية الدعوى كان قد اولم وليمة حضرها (فولف) كمدعو .

كل هذه العوامل جعلت (سيلينين) يثور عند سماعه مطالعة (فولف) ، ويقف فيبدي رأيه بحماس غير معهود فيه . وكان لذلك رد فعل سيء لدى (فولف) الذي كان يتململ في مقعده ، ويبدي بيديه حركات كمـن يشير اشارات ، ويغمغم بكلام غير مفهوم وقد احتقن وجهه . غير انه اخيرا انسحب مع بقية الاعضاء الى غرفة المذاكره بكبرياء الكرامة الجريحة .

ـ لمصلحة من جئت ؟ ـ قال الكاتب (لفانارين) .

ـ لقد قلت لك من قبل انني جئت محاميا عـــن (كاترين ماسلوف) . ـ اجابه المحامي .

ـ حسن جدا . ولكنهم سيناقشون طلبها بصورة مختلفة .

ـ وما معنى ذلك ؟

ـ بما ان هيئة المحكمة كانت تعتقد بان صاحبة العلاقة سوف لا تحضر الجلسة فقد رأوا البقاءَ في قاعة المذاكرة ولكني ... ساحاول اعلامهم .

ـ باي طريقة ؟

ـ سافكر في ذلك ، سافكر في ذلك ـ اجابه الكاتب وهو يدون شيئا على ورقة كانت بيده .

والواقع ان اعضاء مجلس الشيوخ كانو يتودن، بعد ان يفصلوا دعوى التشهير في جلسة علنية ، ان ينظروا في بقية الدعاوي على انفراد في قاعة المذاكرات وهم يدخنون التبغ المعطر ويرتشفون اقداح الشاي .

٩

حالما دخل اعضاء المحكمة قاعة المذاكرات تحلقوا حول طاولة وبدأ (فولف) مطالعته بحماس شديد ، مبينا الاسباب الموجبة لتمييز القرار موضوع البحث .

ولكن الرئيس الذي كان سيء المزاج ، كان قد اصدر قراره في هذه الدعوى مسبقا . وفيما كان يفكر في احد فصول مذكرات حياته التي ينوي وضعه ، كانت كلمات (فولف) تبلغ سمعه كانغام موسيقية مزعجة نائية .

كان الرئيس (نيكيتين) قد كتب في اليوم السابق فصلا في مذكراته هاجم فيه بعض الموظفين من الدرجة الاولى حالوا بينه وبين انقاذ روسيا من خراب محقق أو باصح تعبير ، حالوا دون تقاضيه راتبا اكبر من راتبه الحالي . وفيما كان القاضي المقرر يلقي مطالعته ، كان هو يفكر في ان مذكراته ستكون وثيقة تنقل تلك الاحداث الى الاجيال المقبلة .

ـ هذا الواقع . ـ قال معقبا على كلمات (فولف) التي لم يكن قد وعى منها حرفا واحدا .

وكان (بي) يصغي وامارات الغم بادية على وجهه متلهيا برسم تاج على ورقة بيضاء .

كان متحمسا لحرية الصحافة ، محافظا على تقاليد نصف القرن الماضي . واذا كان قد تحيز في احكامه ذات مرة فقد كان لصالح الحرية . وكان من رأيه رد الطلب في تلك القضية لأنه يعتبر الدعاوي ضد الصحافة بمثابة اعتداء على حرية النشر .

وعندما انهى (فولف) مطالعته ، ولم يكن (بي) قد انجز رسم تاجه ، صرح هذا بصوت حزين وكلمات مقتضبة ان الاسباب الموجبة للتمييز كانت غير كافية ، ثم عاد الى متابعة الرسم .

كان (سكوفورو دنيكوف) جالسا قبالة (فولف) وهو يقضم شعر لحيته وشواربه ، فلم يكد (بي) ينتهي من كلامه حتى هب من مقعده واقفا وقال بصوت ابح عال انه كان يرى ان تميز الدعوى اذا كانت الاسباب الموجبة كافية. على الرغم من اقتناعه بنذالة صاحب العلاقة . وبما ان هذه الاسباب غير كافية فانه يرى نفسه مجبرا على القول برد الطلب وفاقا لما ارتأه (بي). وكان الارتياح باديا عليه شأنه في كل مرة يعاكس فيها (فولف) . وجاء رأي الرئيس موافقاً لرأي (سكوفورو دنيكوف) فرد الطلب .

وهناك ادرك (فولف) ان تحيزه قد افتضح فاغتم لذلك غما شديدا ، ثم تناول طلب (ماسلوفا) وشرع في دراسته .

كان اعضاء مجلس الشيوخ بعد ان تناولوا الشاي ، يعلقون على حدث كان يستأثر باهتمام الرأي العام كمبارزة (كامينسكي) ، وذلك هو الدعوى التي رفعت

على رئيس محكمة ارتكبت جريمة مخالفة المـــادة (٩٩٥) من القانون مخالفة صريحه .

ـ انها لفضيحة . ـ هتف (بي) يقول .

ـ لست ادري لماذا يرى الناس ما هو غـير عادي في ذلك . ـ اجـــاب (سكوفورو دنيكوف) ـ بوسعي ان اسمي مؤلفا المانيا يؤكد ان هذا العمل لا يشكل جرما ، ويقترح ان تجيزا القوانين الزواج بين رجل ورجل .

ثم قهقه عالياً وهو يعب دخان لفافة التبغ التي يحملها بين سبابته والوسطى .

ـ هذا مستحيل . ـ قال (بي) محتجا .

ـ وسأسميه لكم . ـ وذكر لهم عنوان الكتاب وتاريخه ومكان طباعته .

ـ يؤكدون انهم سيبعثون به حاكما على احدى مـــدن سيبيريا . ـ اضاف يقول (نيكيتين) .

ـ رائع . وسيخرج المطران لاستقباله رافعا بيده الصليب ولكنني اتمنى ان يكون المطران على شاكلته . وقد يكون بوسعي ان اقدم رجلا صالحا لمثـــل هذا . ـ قال (سكوفورو دنيكوف) .

وهنا جاء الكاتب واعلن للاعضاء رغبة (نيكلیندوف) (وفاتارين) في حضور مناقشة طلب (كاترين ماسيلوفا) .

انها حكاية ممتعة . ـ قال (فولف) . ثم قص عليهم ما يعلمه من عـــلاقة (نيكلیندوف) بالسجينة .

وعاد الشيوخ الى القاعة بعد ان فرغوا من شرب الشاي وتدخين التبـغ . ثم تلو القرار الذي اتخـــذوه بالنسبة للطلب الاول ، وشرعوا في بحث طلـــب (ماسلوفا) . فشرح (فولف) بصوت ناعم كافة مراحـــل الدعوى بكافة تفاصيلها ، ولكن بدون تحيز الا ان رغبته في قبول التمييز كانت واضحة . فسأل الرئيس المحامي (فاتارين) اذا كان لديه ما يضيفه .

فهب هذا من مقعده واقفاً بارز الصدر يزيده بروزا قميصه الابيض المنشأ ، وطفق يتكلم بأبهة رائعة ولسان زلق عن المخالفات التي ارتكبتها المحكمة لروحية القوانين ، وحصرها في ست نقاط . واشار الى الظلم الفادح في القرار . وكان في دفاعه المقتضب الذي يضع النقاط على الحروف ، يعتذر عن الحاحه الشديد ، على الرغم من شدة اقتناعه من حكمة ومعرفة الشيوخ بروحية القوانين ، بقوله انه يؤدي واجبه ويلبي نداء ضميره .

وكان يبدو انه من المستحيل ان يشك احد بعد ذلك الخطاب في ان المحكمة ستقرر فسخ الحكم . وهذا هو الانطباع الذي استولى على (نيكليندوف) عندما رأى اشراقة وجه محاميه والابتسامة التي انهى هذا دفاعه بها . ولكنه لاحظ الى جانب ذلك ان الضجر كان قد استولى على الجميع سواء في ذلك الشيوخ والنائب العام ، اذ ان كلا منهم قد اطلق زفرة ارتياح عند نهاية الدفاع شأن من يفرغ من عمل شاق .

واعطيت الكلمة للنائب العام ، ففند هذا الطلب بكلمة مختصرة حاسمة ، واعتبره غير مستوف اسبابه الموجبه . ثم انتقل الشيوخ الى قاعة المذاكرة حيث وافق (فولف) على الطلب وايده (بي) لانه كان قد تبين الحقيقة ، وابان لزملائه اغلاط المحلفين بوضوح محاولا جهد اقناعهم بها . وارتأى (نيكيتين) الشديد المحافظة على القوانين خلاف ذلك . وهكذا كان رأى (سكوفورو دنيكوف) الرأي المرجح .

وكان ان صوت هذا ضد الطلب . لقد كان في رغبة الامير بالزواج من (ماسلوفا) تلبية لنداء الواجب مايعتبر جنونا في نظره . وكان ، وهو الداروني المادي المتشدد ، يرى ان مبادىء الاخلاق المجردة ، بل اكثر من ذلك كان يرى في الشعور الديني ليس جنونا فحسب وانما اهانة شخصية له . وقد ازعجه ما اثير من ضجة لاجل امرأة زانية ، كحضور محام مشهور للدفاع عنها ،

وحضور (نيكليندوف) نفسه الذي ينوي الزواج منها. وأبدى رأيه بصوت طبيعي وهو ما زال يعض لحيته ، متجاهلا سائر ما قيل عن القرار، بالموافقة على رأي الرئيس برد الطلب .

وهكذا وقع ، ورد الطلب. فبدد هذا القرار اول امل داعب نفس (نيكليندوف) طيلة شهر كامل .

— ١٠ —

ـ يا للصغارة . الخطأ بين ، والظلم في القرار واضح . ـ كان (نيكليندوف) يقول (لفاتارين) وهما خارجان من قاعة المحاكمات . ـ ان رفض اصلاح الخطأ في قرار المحكمة مراعاة للشكليات حقارة مدهشة . يا للضعة .

ـ لا يتوقع غير ذلك من المحكمة . ـ قال المحامي .

ـ حتى (سيلينين) عارض الطلب . يا للفظاعة ، يا للفظاعة .

ـ كان (نيكليندوف) ما زال يردد . ـ والآن . ما العمل ؟

ـ علينا ان نتقدم باسترحام لصاحب الجلالة الامبراطور والاوفق تقديمه قبل مغادرتنا (سان بطرسبرج) . سأكتبه في الحال .

وهنا جاء (فولف) وهو ما زال في بزته الرسمية الرائعة المغطى صدرها بالصلبان وتقدم من (نيكليندوف) وقال له .

ـ ما حيلتنا يا حبيبي . لقد كانت الاسباب الموجبة غير كافية . ثم هز كتفيه ومضى في طريقه .

وجاء بعده (سيلينين) وكان قد علم بوجود صديقه (نيكليندوف) في المحكمة .

ـ لم يكن يخطر لي على بال ان التقي بك في هذا المكان . ـ قال وهو يتقدم من الامير مبتسما ابتسامة تتناقض مع ما في نظرته من حزن . ـ لم أعلم بوجودك في بطرسبرج .

ـ كنت اجهل انك اصبحت نائباً عاما . .

ــ قل وكيل . ـ قال مصححاً ، وهو يحدق في صديقه . ـ ولماذا جئت إلى مجلس الشيوخ ؟

ــ لماذا جئت ؟ .. لانني كنت اثق من ان العدالة آخذة مجراها هنا ، وان قراراً ظالماً ادان امرأة بريئة بائسة سيلغى .

ــ واي امرأة ؟

ــ تلك التي رددتم طلبها بتمييز الحكم .

ــ آه . اجل . هو طلب (كاترين ماسلوفا) . ـ قال (سيلينين) وقد تذكره ـ ولكن هذا الطلب لا يرتكز على اساس .

ــ ليست القضية قضية الطلب . فكر في انهم اوقعوا على امرأة بريئة عقوبة لا تستحقها .

فزفر (سيليين) زفرة عميقة .

ــ قد يمكن . ولكن ...

ــ لا يمكن . هو ...

ــ ولكن . كيف علمت انت ؟

ــ كنت من المحلفين في الدعوى ... واعرف جيداً الخطأ الذي ارتكبناه .

فاخذ (سيلينين) يفكر .

ــ كان ينبغي ان تصرح به في الحال . قال ملاحظاً .

ــ هذا ما حصل .

ــ لا يكفي ذلك . كان ينبغي عرضه مع المعلومات الشفوية ولو ذكر في طلب التمييز ..

ويبدو ان (سيلينين) كان جم المشاغل ، وقليل الاختلاط باوساط المجتمع ، اذ كان يجهل قصة صديقه (نيكليندوف) الذي ادرك ذلك ورأى انه من غير المناسب اطلاعه على شيء منه .

ــ حتى من القرار ذاته يستدل على وجود الظلم .

ـ ليس هذا من صلاحية المحكمة . فلو انهم بدلا من البحث عما اذا كان ثمة مخالفات قانونية ، خالفوا قرار المحكمة الدنيا واخضعوا اساس الدعوى لقناعتهم ، اذن لتعرضوا لخطر ازهاق العدالة بدلا من اقرارها ـ قال وكيل النيابة معلقاً ـ وعلاوة على ذلك فقد تفقد مطالعة المحلفين خاصيتها .

ـ كل هذه أقوال وجيهة . ـ قال (نيكليندوف) . ـ ولكنها لا تخفف شيئاً مما ارتكب من ظلم فادح . لقد صدقت اعلى المحاكم خطأ فادحاً .

فأغمض (سيلينين) عينيه .

ـ كلا . كلا . انها لم تصادق شيء لأنها لم تبحث في اساس الدعوى ، اذ ليس من اختصاصها بحثه ... ولنتكلم عنك . ـ قال كمن يريد وضع حـد لحديث غير مرغوب فيه ـ لقد اخبرت امس انك موجود في بطرسبرج ، وانك تقيم في منزل خالتك الكونتيس(اليكاترين) التي دعتني لحضور موعظة لاحد الوعاظ المشهورين. واكدوا لي انك ستحضرها .

ـ اجل . ولكني انصرفت متقززاً . ـ اجاب (نيكليندوف) بجفاء لأنه لاحظ ان صديقه يرغب في تغيير مجرى الحديث .

ـ ولماذا ؟ هو على كل حال عمل ديني .

ـ بالنسبة للموعظة اؤكد لك انها كانت ثرثرة غير ذات محتوى .

لا ، لا . لا أستطيع ان افهم . كلكم تقريباً تدافعون عن بدع جديدة بدلا من المعتقدات القديمة . ـ اجاب (سيلينين) كأنه يتوخى معرفة رد الفعل الذي تحدثه كلماته لدى (نيكليندوف).

فحدق فيه الامير مدهوشاً ، ومستنطقاً عينيه . فأطرق هذا بنظره الى الارض ليخفي عنه الاستياء البادي فيهما ممتزجاً بحزنه المعتاد .

ـ ولكن هل تؤمن انت بمعتقدات الكنيسة ؟ ـ قال (نيكليندوف) يسأله .

ـ بلا تردد .

ـ انه لامر غريب . ـ اجاب (نيكليندوف) .

ـ سنبحث هذا فيما بعد . ـ قال (سيلينين) ثم التفت إلى احد الكتبة وكان يتقدم منه وقال له . ـ سأعود قريباً . ـ ثم أضاف ـ ينبغي ان نتواجه . متى واين استطيع الاجتماع بك » انــه لمن دواعي سروري ان اراك . اسكن في شارع (نارجيدينسكايا) ... ولكن كم تغيرنا منذ افترقنا .

ثم ابتسم له وهو يتبعد .

ـ سأرى اذا كان يتسع وقتي لذلك . ـ اجاب الامير .

واحس ان قد انفصم ما بينهما . وان ذلك الصديق الذي كان فيما مضى حميماً ، قد اصبح بعد ذلك اللقاء القصير شخصاً عادياً غامضاً بالنسبة له ، ويكاد يكون عدوا .

- ١١ -

كان (سيليين) عندما تعرف عليه (نيكليندوف) وتوطدت اواصر الصداقــة بينهما ، شاباً طيب الشعور دمث الاخلاق ، وصديقاً مخلصاً وصدوقاً ، ويكاد يكون رجل امة بالنسبة لسنه ، يحترم الجميع ، ومحترماً من الجميع . وكان دؤوباً على الدرس مع حسن استفادة وعدم تبجح ، على الرغم من الاوسمة العديدة التي حصل عليهــا في المسابقات الثقافية .

كان في شبابه يقول بوجوب التضحية في سبيل الغير ، وينفذ هذا القول عملاًلاقولاً فحسب . ولما كان يرى الوظيفة الرسمية اوفى بهذه الغاية ، فقد بحث عن اكثرهــا امكانية خدمة ، فالتحق بالقسم الثاني من القضاء المولج بتنفيذ القوانين ولكنه ما عتم ان ادرك ان هذا المنصب غير خليق بإبلاغه ما يصبو اليه فانتقل الى المحكمة العليا .

وكان هناك في مكانه المناسب . الا انه لم يكن راضياً كل الرضى ، لانه ادرك انه لم يصبح الرجل الذي كان يرغب في ان يكونه . فتوسط له اقاربه في ذلك الوقت فعين (جنتلمان) في البلاط . فسارع وهو يرتدي بزته الرسمية الزاهية المطرزة لتقديم الشكر والامتنان لاولئك الذين اوصلوه بسعيهم لمنصب الخادم . ولكنــه ادرك حينذاك انه كان يزداد بعداً في كل مرة عن اهدافه في الحياة . غير انه لم يكن بوسعه

ان يرفض المنصب مخافة الاساءة الى ذويه ، هذابالاضافة الى انه عندما رأى نفسه في البزة الرسمية الرائعة المطرزة بالذهب ، ابتسم حبوراً وأخذ بالاجلال الذي يبـــديه الجمهور للابسيها .

كذلك كان شأنه عند زواجه ، اذ انتقى له المقربون منه فتاة ، بمقتضى الموافقـة الاجتماعية ، فلم يجرؤ على رفض الزواج منها خشية إيـذاء شعور اولئك الذين يهتمون لامره ، وكذلك كيلا يحرج موقف الفتاة التي كانت جميلة وابنة لعائلة ممتازة واسعة الثراء . ولكن هذه ، اعربت عن زهدها بعد الولادة الاولى ، في انجـاب المزيد من البنين ، واندفعت في تيار الملذات الدنيوية التي جرفته اليها .

وكانت وحيدته الجعداء الشعر التي كانت على الدوام عارية الفخذين ، تشب غريبة عن والدها ، خصوصاً لانهم كانوا ينشؤونها على غير رغباته . وكان هذا الصراع المستمر الصامت المستتر عن اعين الناس الغرباء يجعل حياة (سيلينين) البيتيـة مؤلمة جـداً . ومن هنا كان منشأ الكآبة الدائمة المرتسمة في نظراته .

غير ان المكان الذي كان اكثر ادراكاً انه فيه غير ما ينبغي ان يكون هو فهمه للدين . كان ، كغيره من الاشخاص العديدي الذين في مثل وضعيته ومن مثل زمنه ، قد فصم العرى التي تربط النفس بتوافه الخرافات الدينية . وكان ، وهو الرجل الجاد الشريف ، لا يكتم قط آراءه ، ولا يؤخذ بدوافع الرياء .

ولكن حرية الضمير هذه اصبحت ، بمرور الزمن ، وبسبب نجاحه المطرد في حياته ، مصدر ازعاج له في ذلك المجتمع الذي تعصف به رياح الرجعية .

كان على (سيلينين) ان يختار بين امرين : فاما ان يتظاهر باعتناق دين كان بعيداً كل البعد عن الايمان به . وهذا ما يتناقض وطبعه الصادق الصريح ، او ان ينتهج لنفسه نهجاً في الحياة لا يحتاج معه الى التظاهر بما لا يشعر به حقاً . ولكنه كي يأخذ بهذا الاخير الذي يبدو لاول وهلة سهلا ، كان عليه ان يستعد لاشياء جمة ، منها معارك مستمره مع احبائه ، واستقالته من منصبه ، وتخليه عن فكرة مساعدة القريب . الامر الذي كان يرجو ان يحققه في المستقبل . وكشخص مثقف ، دارس للتاريخ ،

مطلع على نشأة الكنيسة المسيحية وتطورها ، فقد كان واثقاً من انه كان على حق ، وكان لا يقيم وزناً لمعتقداتها . ولكن ضرورات الحياة وحاجاتها ارغمته على التساهل قليلاً مع ضميره ، قائلاً في نفسه ان اظهار مغايرة قانون ما للمنطق وللعدالة يقتضينا ان نبحث عن مكان وجود هذه المغايرة . وكان ان قاده ذلك التساهل البسيط ، وتلك الاكذوبة الصغيرة الى حقل الاكاذيب الكبيرة الشاسع الذي يكاد يختنق فيه الآن.

لقد قرأ مؤلفات لكبار العلماء امثال (فولتير) و (شوبنهور) و (كنت) و (سبنسر) ، وقرأ مؤلفات (هيجل) الفلسفية ومؤلفات (فينت) و(شوميا كوف) الدينية . ولما كان كان طبيعياً ان يجد فيها كل ما ينشده فقد اطمأنت نفسه المضطربة القلقة لوقوعه على مبررات لتلك النظريات الدينية التي ما زال ذكاؤه يرفضها منذ أمد بعيد ولكنه ما زال يراها ضرورية للتخلص من ذلك الصراع الذي كان يقض مضجعه في حياته . لقد قيل باستمرار انه ليس بوسع رجل واحد ، حتى ولا يسع جماعات منتقات من الرجال ان يدركوا الحقيقة ، وان خير سبيل لمعرفتها هو الوحي الالهي الذي اختصت به الكنيسة وحدها . وهكذا اصبح بوسعه التستر بهذه السوفسطائيات وامثالها ، فيتناول القربانة ، ويركع مرتاح الضمير مطمئن النفس ، ثم يتابع تدرجه في السلك فيخفف من مرارة حياته البيتية بإسداء الخير للناس .

واخذ يقنع نفسه شيئاً فشيئاً بأنه كان مؤمناً ، في حين كان سائر كيانه ينطق بأنه ، في هذا ، اكثر من اي شيء آخر ، لم يكن الرجل الذي ينبغي ان يكون . وهكذا كانت الكآبة المطلة من نظراته انعكاساً لكآبة روحه .

وعندما التقى في هذه الظروف بالأمير الذي عرفه عندما كانت نفسه مبرأة من تلك الاضاليل ، احس اكثر من اي وقت مضى ، بأنه اضاع سبيله في الحياة فغمرته موجة من الغم كادت تضنيه .

كذلك كان شأن (نيكليندوف) اثر الوهلة الاولى من سروره بلقاء صديقه القديم (سيلينين) . وهكذا افترق الصديقان القديمان ولم يلتقيا بعدها على رغم الوعود المتبادلة بالاجتماع مرة ثانية . وغادر (نيكليندوف) مدينة بطرسبرج دون ان يعود فيرى صديقه القديم .

بعد خروج الامير و (فاتارين) من قصر مجلس الشيوخ طفقا يمشيان معاً على رصيف الشارع . وامر المحامي حوذيه باللحاق بهما عن كثب. ثم شرع يقص على الامير الحادثة التي اشار اليها الشيوخ اثناء حديثهم اي تعيين ذلك الوغد حا كماً على سيبيريا . كذلك قص عليه كيف ان لجنة مؤلفة من بعض ذوي النفوذ وضعت يدها على مبلغ من المال كان قد جمع لاقامة نصب تذكاري ، وقصصاً اخرى لا تهم الامير بكثير او قليل . كحادثة بيع رجل لزوجته ، وغيرها كشراء رجل ازوجته بالمال ، واختلاسات ، وجرائم من مختلف الاشكال ارتكبت من قبل اشخاص من ذوي المكانة والنفوذ ، الذين اصبحوا مدراء شركات صناعية ، ورؤساء اعمال خيرية وسخافات غيرها تشا كلها ، وكان ينبغي ان يقبروا في السجون .

هذه اشياء لها اهميتها بالنسبة (لفاتارين) لانها تتصل بمهنته كمحام ، ولكنها كانت غير ذات اهمية بالنسبة للامير ، ولذا فقد دهش صديقه عندما ودعه واستقل العربة عائداً إلى البيت ، قبل ان ينهي حديثه .

كان الامير شديد الغم . وزاده المأ قرار المحكمة العليا برد طلب التمييز الذي قدمته (كاترين) لانه لا يستطيع تناسيها وهي البريئة المدانة . كذلك كانت القصص التي رواها له المحامي بطلاقة وقوة بيان من العوامل كان لها اثرها في مضاعفة غمه ، والنظرة الباردة الكئيبة التي ودعه بها (سيلينين) الذي عرفه طيباً نبيلا مستقيماً . وعندما بلغ البيت قدم له البواب بطاقة كتبتها في مكتبه امرأة هي ام (شينستوفا) التي جاءت تشكر من احسن اليها ، وكان له الفضل في خلاص ابنتها ، وتتوسل اليه ان يزورهما في منزلها بشارع (فاسيليفكاجا) الصف الخامس في اليوم التالي اذا تهيأ له ذلك فيضاعف سرورهما . وسيتحدثون عن (فيرا ايفرا موفنا) . كذلك وردته رسالة من (بوغاتيروف) مساعد الامبراطور ورفيق (نيكليندوف) السابق الذي كان قد طلب اليه ان يقدم شخصياً استرحاماً باسم المبعدين الى القفقاس بقضايا دينية.

ويقول (بوغاتيروف) في رسالته التي كتبت باحرف كبيرة انه سيسلم الاستوحام يدأ بيد الى جلالة الامبراطور تنفيذاً لوعده له ، ثم يعرض عليه فكرة عنت له ،هي. الا يرى من الافضل القيام بعمل ما لدى اولئك الذين يرتبط بهم مصير الدعوى ؟.

كانت انطباعات الايام الاخيرة التي قضاها الامير في بطرسبرج قد هدمت كثيراً من معنوياته اذا كان لمقاصده الرائعة التي كان قد وضع خطوطها في موسكو نفس الاثر الذي تحدثه احلام المراهق التي تتبخر حالما يخطو خطواته الاولى في طريق الحياة .

كان الامير منذ وصوله الى بطرسبرج يرى ان الواجب يقضي بان يحقق سائر مشاريعه ، فأخرج من جيبه بطاقة ام (شينستوفا) ، واقبل يقرأها من جديد ، وفيما هو كذلك وقف خادم بالباب ودعاه ، باسم خالته الكونتيس للذهاب الى جناحها ليتناول الشاي عندها . فخف في الحال ملبياً دعوتها . وعندما مر بقرب احدى النوافذ رأى عربة (ماريتا) واقفة امام باب المدخل ، فسره ذلك سروراً عظيما وانتزع منه البسمة انتزاعا .

كانت (ماريتا) ترتدي ثوباً ملونا وتضع على رأسها قبعة فاتحة اللون ، وهي جالسة بقرب الكونتيس تتناول الشاي ، وتغمغم ببعض كلمات ، ويتألق بريق عينيها الضاحكتين الجميلتين . وعرف نيكليندوف) من ضحكها انه قد قطع عليها حديثاً سخيفاً كانتا تتحدثان فيه عندما دخل عليها كانت الكونتيس تقهقه ضاحكة وتتلوى بجسمها الضخم ، اما (ماريتا) فعلى العكس كانت تكتفي بالابتسام وتدني وجهها المرح الجريء من محدثتها ، وتحدق فيها بنظرها . واستدل (نيكليندوف) من بعض كلمات عابرة انها كانتا تتحدثان عن تعيين الحاكم الجديد على سيبيريا .

– اسكتي ، اذا كنت لا تريدنني ان انفجر . ـ قالت الكونتيس دون ان تقوى على امساك نفسها عن الضحك .

فحيا الامير السيدتين ثم جلس على احد المقاعد . واوشك ان يحكم بالخفة على (ماريتا) ، ولكنها ادركت ما يجول في خاطره ، فأسرعت بطرد امارات المرح

عن محياها ارضاء له . (لقد كان هذا هدفها منذ رأته لاول مرة) ، وظهرت الرزانة والجد على وجهها وسائر كيانها ، والتعب من الحياة كمن يرى الوقت يمر وهو يبحث باهتمام عن شيء لا يجده . ولم يكن هذا منها تصنعاً ، اذ انها استطاعت في وقت من الاوقات ان تتبنى حالات (نيكليندوف) النفسية ، على الرغم من عدم استطاعتها تحديدها لو طلب اليها ذلك .

فسألته (ماريتا) بدماثة وكياسة عن القضايا التي تهمه ، فأخبرها عما صادفه من سوء الطالع في المحكمة ، وعن لقائه (بسيلينين) .
ـ (سيلينين) ؟ يا له من روح طاهرة . انه شهم حقيقي لا غبار عليه ، ولا مكان للخوف في نفسه . يا له من روح طاهرة . ـ قالت المرأتان مرددتين النعت الذي كان المجتمع يصف به (سيلينين) .

ـ وزوجته ، ماذا تصنع ؟ وكيف تعيش ؟ ـ سأل (نيكليندوف) .
ـ امرأته ؟ ... لا اريد ان انتقصها ، ولكنها لا تستطيع ان تفهم زوجها ... ولكن ، هل وقف معارضاً لطلب التمييز ؟ ـ قالت (ماريتا تسأله ـ انه لأمر رهيب . انني ارثي لحال هذا الشاب ... ـ اضافت تقول وهي تصعد زفرة . فزوى (نيكليندوف) ما بين عينيه وطفق يتحدث عن (شينستوفا) ليغير مجرى الحديث ، واخبرها انه قد اخلي سبيلها بفضل تدخل زوجها الذي لا يدري كيف يشكر له حسن صنيعه . وكان ينوي ان يضيف الى ذلك قوله انه من المحزن حقاً ان تتألم عائلة بكاملها طوال هذه المدة لانعدام من يهتم بها ليس إلا ، غير ان (ماريتا) لم تترك له فرصة اذ قاطعته مؤنبة . وكانت الكونتتس (ايكاترين ايفانوفنا) قد تبينت مطاردة (ماريتا) لابن اختها فسرت لذلك كثيراً .

ـ اتدري بماذا افكر الآن ؟ ـ قالت بعد صمت قليل . ـ تعال غدا مساء الى منزل (الينا) حيث سيكون (كيزيفتر) . وتعالي انت ايضا. ـ قالت (لماريتا) ثم وجهت الكلام لابن اختها قائلة : لقد استرعت انتباهه ،وقد قال لي ان ما تعانيه نذير خير ، ويعني انك سترتد الى الحظيرة . تعال ، تعال على كل حال . قولي له

يا (ماريتا) ان يذهب . وانت ينبغي الا تخلفي عن الحضور .

ـ قبل كل شيء يا سيدتي الكونتيس ارى انه ليس من حقي ان اقدم نصائح لسمو الامير . ـ اجابتها (ماريتا) وهي ترمق الامير بمؤخر عينيها ـ ثم ينبغي ان تعلمي انني لست ممن يعجب ...

ـ اعرف ذلك منك انك تأتين الاشياء على غير وجهها الصحيح ، وعلى هواك .

ـ اهكذا ترينني ؟ ـ اجابتها وهي تضحك ـ فيما يتعلق بالدين فانا اؤمن به كما تؤمن أبسط قروية . ثم انا ساذهب غدا الى المسرح الفرنسي .

ـ هل استمعت لها ؟ ... ماذا تدعى ؟

فذكرت لها (ماريتا) اسم الفنانة الفرنسية الشهيرة .

ـ اذهب لتشاهدها . انها لروعة .

ـ الى من استمع اولا يا خالتي الحبيبة ؟ الفنانة ام للواعظ ؟ . ـ قال (نيكليندوف) يسأل ضاحكاً .

ـ لا تهزأ بكلماتي .

ـ يبدو لي انه من الافضل ان استمع الى الواعظ اولا ، ثم الى الفنانة كيلا افقد كل طعم الموعظة . ـ قال الامير .

ـ كلا . الافضل ان تبدأ بالمسرح وتنتهي بالتوبة . ـ اجابت (ماريتا) .

ـ ارجو الا تهزأ بي . الواعظ هو الواعظ ، والمسرح هو المسرح . وخلاص الروح لا يتطلب وجوهاً عابسة ، وعيوناً كالينابيع تتفجر منها الدموع باستمرار . في الأيمان غناء وكفاية للاحساس بالسرور العظيم للخلاص .

ـ انت يا خالتي تتكلمين خيراً من سائر الوعاظ .

ـ حسن . ـ قالت (ماريتا) بعد ان فكرت قليلًا . ـ بماذا ستبدأ غداً ؟ تعال غداً إلى مقصورتي .

ـ اخشى الا يكون ذلك في مقدوري .

وقطع عليهم الحديث خادم جاء يعلن قدوم سكرتير إحدى الجمعيات الخيرية التي كانت الكونتيس رئيسة لها .

ـ انه مزعج حقاً . سأقابله فترة قصيرة . قدمي له الشاي يا (ماريتا) ريثما اعود

قالت الكونتيس ثم خرجت من الغرفة بخطى سريعة رشيقة .

فخلعت (ماريتا) قفازها فبدت يدها اللطيفة العصبية القوية وأصابعها الملأى بالخواتم .

ـ هل لك في كأس من الشاي . ـ قالت وهي تقدمه له . ـ انه لما يبعث الألم في نفسي ان ارى من اقدرهم يخدعهم حاضري فيحسبونني انتمي للجو الذي اعيش فيه مضطرة .

وفجأة علت وجهها امارات غم وأسى ، كما لو كانت على وشك أن تنفجر باكية.

فأثر ذلك في نفس (نيكلنيدوف) . ورأى في كلماتها الشيء الكثير من الطيبة والنبل على الرغم من غموضها وابهامها . وكان للنظرات المتوقدة التى كانت ترنو بها اليه تلك المرأة الشابة الأنيقة الجميلة من التأثير على نفسه حتى كانت وهي تداعبه بهاتكبله بأغلالها .

وكان يرنو اليها بنظراته وهو صامت دون ان يقوى على ان يرفع نظره عن ذلك الوجه الجميل .

ـ اتحسب انني لو أدرك ما يجول في خاطرك ؟ . ـ هتفت تقول (ماريتا) ـان ما فعلته اصبح ملء الأسماع ، وانني لمعجبة بك ، وفوق ذلك اقرك عليه .

ـ ليس هنالك ما يستحق الإعجاب . لقد قمت بعمل قليل .

ـ هذا لا يهم ، فأنا اقدر الشعور الذي حملك عليه . كذلك ادرك ما تشعر هي به . انه لصنيع جميل . جميل جداً . ولكن لندع الكلام في هذا . ـ اسرعت تقول عندما تبينت شبح الاستياء قد بدأ يعلو وجهه . ـ انا اعلم جيداً انه ازاء ما يلاقيه المساجين من هول وويلات . ـ قالت متابعة حديثها متوخية استجلابه اليها، ومدركة بما لدى الجنس النسائي من دقيق الحس أهم الأشياء في نظره وأغلاها لديه . ـ انا اعلم انك ترغب في إسعاف هؤلاء الذين يتضورون ألماً بسبب لا مبالاة وقسوة الآخرين. واعلم ايضاً انه قد يضحى بالحياة في سبيل غاية نبيلة ... حتى قد افعل ذلك انا ، لكن الحظوظ تختلف .

ـ إذن ، ألست راضية عن حظك ؟

ـ انا ؟ ـ اجابته مدهوشة كأنما لا يجوز ان يوجه لها مثل هذا السؤال ـ انا ؟ . . ينبغي ان اكون راضية ، وكذلك انا بالفعل . ولكني أسمع هاتفاً يهتف في أعماق نفسي . .

ـ ينبغي الا تدعيه يصمت ، وان تتقي بذلك الصوت . ـ قال الأميروقد استسلم بكليته للخداع .

وظل (نيكليندوف) مدة طويلة يردد قولة انه يتذكر باستحياء ما بدا منه من ضعفه ، والقول المنمق الزائف ، والانتباه الحاني الذي كانت تصغي به اليه وهو يتحدث عن ويلات السجون وعن الانطباعات التي ولدتها في نفسه زيارته للقرية .

وعادت الكونتيس إلى الردهة فرأتها يتحدثان كما لو كانا صديقين حميمين قديمين باستطاعتهما ان يتفاهما فيما بينهما في ملأ من الناس ، دون ان يستشف ذلك منهما . كانت الشفاه تتحدث عن الظلم ، والمضطهدين ، وآلام الضعفاء وبؤس الشعب ، ولكن النظرات التي كانا يتبادلانها كانت تكاد تفصح عن قولها .

ـ هل تستطيع ان تحبني ؟

فيجيبها :

ـ اجل . استطيع ذلك .

فتغمرهما موجة من الشهوة ، مقنعة بقناع المثالية النبيلة .

وعندما افترقا اكدت له استعدادها لخدمته بكل ما تستطيعه ، ورجته الا يتخلف الليلة المقبلة عن الحضور الى مقصورتها في المسرح الفرنسي لأنها ستقص عليه اشياء جد هامة .

ـ ومتى سأراك . ـ اضافت تقول وهي تصعد زفرة ، ثم لبست قفازها . ـ عدني بأن تأتي .

فوعدها (نيكليندوف) . وجفا النوم عينيه تلك الليلة وعندما استلقى في فراشه واطفأ المصباح ، وعاودته ذكرى مشاهد يومه ، ورفض المحكمة العليا لطلب التمييز

فقاده ذلك لتذكر (ماسلوفا) ورغبته في اللحاق بها إلى سيبيريا ، ثم عاد فتصور ما سنكون عليه ملامح وجهها عندما يطلعها على رد المحكمة للطلب ، والزفرات التي ستصعدها .

فعاوده من جديد الندم الذي كان قد زايله منذ مدة طويلة . وهتف في اعماقه هاتف بقول :

اليس من الجنون لحاقك بهذه الفتاة واضاعة ثروتك ؟ . .

واحس (نيكليندوف) انه في تلك الليلة الصافية التي كان بهاؤها يتسرب اليه عبر ستائر نوافذ الغرفة ، قد فقد ثباته ومناعته . وكانت الاجوبة التي كان يرد بها على نفسه تبدو مضطربة غامضة ، واصبحت جهوده لاستعادة ماضي اقدامه ، وأفكاره ورغباته عديمة الفائدة ، لانها كانت تنقصها قوة الاقناع .

ـ انني احيل الحياة شاقة علي نفسي ، وسأندم على تصرفاتي هذه . ـ بهذا كان يخاطب نفسه .

واذا اعوزه ما يجيب به على ذلك اخذه غم وكآبة ، فنام نوما ثقيلا كذاك الذي يعقب ليالي الخلاعة او العمل المضني الشاق .

ـ ١٣ ـ

عندما استفاق (نيكليندوف) في صبيحة اليوم التالي احس وكأن امراً محزناً قد اصابه يوم امس الدابر فانصرف بكليته لتأملاته .

لقد بدا له ان رغبته في ربط مستقبل حياته بمستقبل (ماسلوفا) وتنازله عما ورث عن امه من املاك ، وكل ما كان قد قرره واعتزمه من قبل ، ان هو الا احلام بعيدة التحقيق ورغبات طائشة تكاد تخلو من الانسانية . وان المعقول هو العودة الى ما كان عليه .

كلا . ليست اعمالا قبيحة . وانما هي افكار قبيحة ، تعمل دائماً تقريباً على اتيانها. وهذا اسوأ . فقد يندم المرء بعد عمل قبيح . الافكار القبيحة تنبثق عنها سائر الاعمال

القبيحة المشينة التي قد يأتيها الانسان . والعمل السيء يمهد السبيل لمثله . والافكار الشريرة تقذف بنا في المنزلق الخطر .

واذ تذكر (نيكليندوف) في الصباح ما راوده في امسه من خواطر اخـــذته الدهشة ، وعجب لنفسه كيف خطرت له . وعلى رغم العقبات التي كان لا بد له من التغلب عليها قبل بلوغه ، وعلى رغم وعورة السبيل الذي قرر سلوكه ، فانه ما زال يراه السبيل الوحيد الممكن اتباعه في المستقبل . لقد كان يرى ان اعترافه بالغلبة معناه الموت .

لقد كانت فترة التردد التي مر بها يوم امس ، تشبه رغبة النائم الذي يشعر بحاجته للنهوض من فراشه ولكنه ما زال يتشهى ان لم يكن الرقاد ، فعلى الاقل البقـــاء في الفراش فترة اخرى حتى على حساب ما ينتظره من امور سارة هامة يعرفها .

وتذكر البطاقة التي تلقاها من (شينستوفا) والتي تدعوه فيها لزيارة منزلها . ولما كان ذلك اليوم آخر ايام اقامته في بطرسبرج فقد اسرع لتحقيق رغبتها .

كانت هذه تسكن في الطابق الثاني من بنـــاية في جزيره (فاسيفكاجا) . وعند ما بلغها (نيكليندوف) صعد السلم الخاص بالعمال فبلغ مطبخاً تنبعث منـــه روائح الطعام الحادة ، وكانت هناك امرأة متوسطة العمر ، تضع صدارة فوق ثيابها ونظارات على عينيها ، وهي تحرك قدراً تطهي به الطعام ، وقد شمرت عن ساعديها . فسألته بجفاء عما يبتغيه وهي تحدق فيه من فوق نظاراتها المتدلية على انفها .

ـ عمن تبحث ؟

ولما اعلن لها عن اسمه اشرق وجهها بسرور مرعوب .

ـ مرحباً بك ايها الامير . ـ هتفت تقول وهي تنظف يديها بصدارتها . ـ لماذا صعدت على هذا السلم ؟ ... ايها المحسن الحبيب الينا . انا ام الفتاة التي انقذتها . ـ وهمت بتقبيل يده . ـ لقد ذهبت نهار امس الى منزل سموك ، لان اختي التي تقيم معنا قد طلبت ذلك مني ... تعال معي من هنا ارجوك ...

ودخلت من باب صغير ، ثم تحولت إلى ممشى والأمير يتبعهـــا ، وكانت وهي ماشية تصلح ثوبها وشعرها المبعثر .

ـ اختي (كورتيلوف) ... لعلك سمعت بذكرها . ـ قالت بصوت خفيض وقد وقفت امام احد الابواب .. لقد اشتركت في قضايا سياسية ... انهـــا امرأة فائقة الذكاء ..

وفتحت الباب فدخل الامير إلى ردهة صغيرة كانت تجلس على مقعد كبير فيها امرأة بدينة قصيرة القامة شاحبة الوجه كامها وشعر الاشقر الاجعد يحيط به كالاطار وترتدي ثوباً مخططاً .

وكان يجلس قبالتها شاب اسود الشاربين واللحية يرتدي قميصاً روسياًمطرزالياقة، وقد انحنى إلى الامام . كانا يتحدثان حديثاً قد استوعبهما حتى انهما عندما دخل الامير كادا لايأبهان له.

ـ هنا الامير (نيكلينדوف) يا (ليديا) ذاك الذي ...

فهبت الفتاة من مكانها واقفة بحركة عصبية ، فأصلحت خصلة عصبة منشعرها، وحدقت بالضيف ، بعينيها الرماديين في شيء من الرعب .

ـ اانت هي المرأة الرهيبـــة التي اوصتني بهـــا (فيرا افراموفنا) . ـ قال

ـ بلى ، انا هي . ـ اجابت (ليديا) وانفرجت شفتاها عن ابتسامة ساذجة عذبة كبسمة الطفل ، فأبدت صفين من اسنان عاجية . ـ ان خالتي شديدة الشوق لمرآك . يا خالتي .. ـ صرخت تقول بصوتها العذب الرنان واتجهت شطر الباب .

ـ ان سجنك كان مصدر الم (لفيرا افراموفنا) . ـ قال (نيكلينדوف) .

ـ تفضل اجلس هنا ... او هنا . ـ قالت (ليديا) وهي تشير الى المقعد المريح الذي اخلاه الفتى . ـ انه قريبي (زاكاروف) . ـ قالت اخيرا عندما رأت الامير يطيل النظر إليه .

فحيا الفتى الامير مبتسما ، ثم جلس على كرسي قرب النافذة وجاء من الغرفة المجاورة فتى مراهق اشقر الشعر في حوالي الخامسة عشرة من العمر ، وجلس في فناء النافذة دون كلام .

ـ ان (فيرا افراموفنا) صديقة جد عزيزة على خالتي . اما انا فمعرفتي بها تكاد لا تذكر . ـ قالت (ليديا) .

وهنا دخلت الردهة امرأة بشوشة الوجه ذكية، ترتدي صدرة يشدها إلى خصرها زنار من الجلد .

ـ نهارك سعيد . ـ قالت ثم جلست في المقعد الطويل بجانب (ليديا) . ـ شكراً لك على هذه الزيارة ... كيف حال (فيرا) ؟ هل رأيتها ؟ وكيف احتمالها للسجن ؟

ـ انها لا تشكو ولا تتذمر . ـ اجاب (نيكليندوف) ـ الا لها قوة احتمال (اوليمبية) .

ـ يا حبيبتي يا (فيرا) . ما اصدق هذا الوصف . ـ اجابت الخالة وهي تبتسم .

ـ هي بحاجة لمن يفهمها . انها مخلوقة نادرة . كل شيء للغير . ولا شيء لنفسها .

ـ حقاً . انها لم تطلب شيئاً لنفسها . ـ اجاب موافقاً . ـ وان ما تأسو له هو مصير ابنة اختك . ان مجرد تفكيرها بأنها سجينة كان يسبب لها عذاباً ممضاً .

ـ اجل . انه لأمر مريع . واذا علمت ان هذه المسكينة تتألم بسببي .

ـ لا . يا خالتي لا . ـ اجابت (ليديا) . ـ لو انها لم تأخذ البطاقات منك ، لاخذتها من غيرك .

ـ انا اعلم منك بذلك . ـ اجابت خالتها ثم التفتت الى (نيكليندوف) واضافت . ـ يتلخص الامر فيما يلي : لقد طلب مني شخص ان احتفظ له ببطاقاته فترة من الزمن ، ولما لم يجدني تركها عندها . وفي المساء جاء الجند فتحروا المنزل . واذ وجدوا البطاقات عندها اعتقلوها واخذوا البطاقات ، واصروا على ان تبوح باسم الذي اودعها عندها .

ـ أنا لم ابح بشيء . ـ اسرعت الفتاة تقول ، وهي تصلح تجعيدة من شعرها ما زالت عصية .

ـ انا لم اقل انك بحت باسمه . ـ اجابتها الخالة .

ـ اذا كانوا قد اعتقلوا (ميتين) فليس بسببي . ـ قالت (ليديا) وهي تنظر بقلق فيما حولها ، وقد اصطبغ وجهها بالحمرة .

فتدخلت امها وقالت لها :
ـ دعينا من هذا الحديث يا بنيتي .
ـ كلا . لا استطيع السكوت . اريد ان اصرح بكل شيء .
وكان وجهها يزداد احمراراً ، وتتلفت حولها ، وتثني تجعيدة الشعر باصابعها ، وقد تهيجت اعصابها .
ـ الا تتذكرين ما حدث لك يا حبيبتي يوم امس عند ما تحدثت بذلك ؟
ـ لا شيء . لا شيء ... دعيني يا امي . انا لم اقل شيئاً . وكنت دائما صامتة . وعندما سئلت مرتين عن خالتي وعن (ميتين) اجبت بأني لن أقول شيئاً عنهما . وعندئذ (بتروف) ..
ـ ان (بتروف) هذا ، هو قليل من كل شيء . ـ اجابت الخالة . ـ فطوراً هو سجان ، وطورا آخر جاسوس ، وحيناً وغد كبير .
ـ لقد حاول اقناعي ـ واصلت (ليديا) قولها وهي تزداد انفعالا . ـ قال لي : « ان ما تصرحين به لن يؤذي احداً ، وربما كان العكس ، فلعلك تنقذين ابرياء » فاعدت عليه انني لن اتحدث بشيء . وعندئذ اجـــابني « حسن لا تبوحي بشيء . ويكفي الا تنكري ما اقوله أنا . » وبدأ يذكر اسماء في عدادها (ميتين) .
ـ اسكتي ماذا تجنين من هذا الحديث ؟ ـ قالت لها خالتها .
ـ لا تقاطعيني ... واخذت تثني التجعيدة بأقصى شدة ـ وفي اليوم التالي علمت انهم اعتقلوا (ميتين) واودعوه السجن . وقد اخبروني بذلك بواسطة الضرب على الحائط . وفجأة خطرت لي فكرة رهيبة وهي انني كنت السبب في ما اصابه . انا وحدي ... فأصابني غم شديد اخشى معه ان اجن .
ـ لقد اتضح فيما بعد انك لست السبب .
ـ ولكنني كنت اجهل ذلك ... كنت لا ازال أحب انني كنت المسببة . كنت لا افتأ اذرع زنزانتي . وكانت فكرة مسؤوليتي لا تفارق ذهني . حاولت ان انام ، فاستحال ذلك علي ، وبذلت جهداً كي انسى ، فاستحال علي ايضا . يا للهول ، يا للرعب ...

وكانت ، وهي تزداد انفعالا ، لا تفتأ تثني تجعيدة شعرها حيناً ، وتدعها حينا آخر ، ثم تعود إلى ثنيها من جديد ، في حين كانت عيناها تدور مذعورة فيما حولها .

- يا (ليديا) يا بنيتي ، يا (ليديا) رحمة بي . هدئي ثائرة نفسك قليلا . - قالت امها متوسلة .

ولكن ذلك كان قد اصبح عسيرا عليها .

- ان الامر اشد رعبا ... - بدأت تقول ، ولكن الانفعال كان قد استبد بها بحيث اخذها شهيق بكاء عنيف ، فهبت من مقعدها هارعة إلى الغرفة المجاورة ملقية في طريقها باحد الكراسي الى الارض . فلحقت بها امها.

- يجب قتل جميع اولئك الاشقياء . - قال الطالب الذي كان جالساً في فناء النافذة .

- ايعنيك هذا ؟ - قالت الخالة .

- لا يعنيني ، ولكن ... اجاب الطالب ثم تناول لفافة تبغ عن الطاولة وراح يدخن .

-١٤-

- صدقني يا سيدي الامير ان السجن أمر مريع بالنسبة للشباب . - قالت الخالة، ثم اشعلت لفافة تبغ واقبلت تدخن وهي تهز رأسها .

- هذا ما اراه سواء بالنسبة للشباب وللشيوخ ، ولسائر الناس . - اجاب (نيكليندوف) .

- كلا . هو ليس كذلك . انه بالنسبة للثوريين الحقيقيين بمثابة مكان هدوء واستراحة . هذا ما اكده الثوريون انفسهم . إن من يدسون الدسائس ويحيكون المؤامرات ، ويقاومون الانظمة والقوانين التي لا يطيقون إحتمال وطأتها ، يظلون في غم مقيم ويتألمون لانفسهم ولرفاقهم وللحزب الذي ينتمون اليه . ولكنهم عند ما يقبض عليهم ينتهي كل شيء . وتنعدم المسؤولية ، ويصبحون في راحة . وقد اكد لي بعضهم انهم يسرون . ولكن بالنسبة للفتيان الابرياء ، والمساجين الاول هم

دائماً ابرياء كطفلتي هذه المسكينة (ليديا) . اواه . فالصدمة الاولى جد هائلة ، لا لأنهم يجردونهم من حريتهم ولا لأنهم يعاملونهم بقسوة وفظاظة ، ويقدمون لهم طعاما فاسداً ، ولا لان الهواء فاسد ، وليس لانهم يسومونهم سوء العذاب ، ولو ضاعفوه مراراً ، إذن لكان بالوسع تحملها . وإنما بسبب الهزة المعنوية العنيفة التي تأخذ المرء عندما يقع للمرة الاولى بين ايديهم .

- وكيف عرفت ذلك ؟

- انا ؟ . . . لقد سجنت مرتين . - اجابت وهي تبتسم ابتسامة عذبة كئيبة - عندما القوا القبض علي للمرة الاولى وكنت بريئة كان لي من العمر اثنان وعشرون عاماً ، وكنت حاملا بعد ولادة بكري . وصدقني اذا قلت لك ان فراقي لزوجي ، وبعدي عن اولادي ما كان يقاس بشيء امام شعوري بأنني فقـــدت كوني انسانة ، واني اصبحت اعد من الاشياء . هممت بتقبيل ولدي فنهروني قائلين اسرعي الى العربة التي تنتظر . سألتهم الى اين يذهبون بي ، فقيل لي انني سأعلم ذلك عندما اصل . وأسأل بماذا يتهمونني فلا يجيبني احد . واخيراً ، وبعد تحقيق طويل اعطوني ثياباً تحمل ارقاماً واخذوا مني ثيابي ، واقتادوني الى زنزانة ادخلت اليها وحدي . كان ثمـــة حارس يتقلد بندقية يروح ويغدو في الممشى وهو ساكت ، ويتلصص على من حين لآخر من خلال شق في الباب . وعندئذ شعرت بألم محض لا يوصف . واني لا ازال اذكر الطريقة الساخرة التي قدم لي فيها الضابط الذي ضبط افادتي لفافة تبغ . هو يعلم ان التدخين يطيب للرجال ، وان الحرية والنور يشوقانهم ، ويعلم ان الامهات يحببن اولادهن ، والاولاد يحبون امهاتهم . . . وقد انتزعوا مني كل ما هو حبيب لدي ، وجردوني من الحرية ، وسجنوني كما تسجن الحيوانات المفترسة . اواه صدقني اذا قلت ان تحمل كل هذا لا بدله الا ان يترك مضاعفات هائلة . اذا كان المرء يؤمن قبل ذلك ، بوجود الله ، وبالاخرة بين البشر ، وبشرعة الحب المتبادل السامية ، فانه بعد ذلك يستحيل عليه ان يؤمن بشيء . . . لقد انقلبت شريرة منذ ان بدأت اشك في طيبة النوع الانساني .

قالت ذلك وارتسمت على شفتيها بسمة رقيقة .

وهنا جاءت ام (ليديا) لتعلن ان ابنتها قد غلبها الانفعال واصبحت غير قادرة على الخروج .

ـ تأمل . هاهنا كائن فتي يتهدم . وان ما يؤلمني هو كوني المسببة لذلك عن غير قصد . ـ قالت الخالة .

ـ يعين الله . ـ قالت الأم ـ ربما تحسنت حالها في الريف ، فقريباً سنبعث بها الى عند ابيها .

ـ مما لا شك فيه انه لو لا توسط سموكم بالامر اذن لماتت في سجنها . ـ اضافت الخاله . ـ الف شكر لك . ولي اليك رجاء هو ان توصل رسالتي هـذه الى (فيرا افراموفنا) .

واخرجت من جيبها مظروفا قدمته له .

ـ انها رسالة مفتوحة . بوسعك ان تقرأها ثم تسلمها لصاحبتها او اعدامها إذا رأيت ذلك . ولكن على كل حال ليس فيها ما يدين سموكم .

فتناول الامير الرسالة وأكد لها انه سيوصلها لصاحبتها . ثم وقف مودعا وخرج من البت . وعندما أصبح في الشارع اغلق المظروف دون ان يطلع على مضمونه . ولكنه على اي حال مستعد لتسليمه يدا بيد (لفيرا افراموفنا) .

- ١٥ -

كان لا يزال على (نيكليندوف) ان يقوم بآخر مهمة من المهام التي كانت السبب في حضوره إلى بطرسبرج . كان عليه ان يرفع استرحاما الى جلالة القيصر عن طريق رفيقه القديم (بوغاتيروف) باسم المبعدين إلى القفقاس بسبب القضايا الدينية. ولذا فانه عند خروجه من منزل (شينستوفا) ذهب رأساً إلى منزل (بوغاتيروف) وبلغه عندما كان هذا يتهيأ لتناول طعام الغذاء :

(بوغاتيروف) الرجل الربع القامة ، المتين البنية ، الذي زودته الطبيعة بقوة هائلة يستطيع معها ان يثني حذوة الجواد ، كان طيب النفس ، نزيها ، مستقيما، متحرر الافكار . وبفضل هذه الصفات الطيبة ، ولولائه الصادق للقيصر والعائلة

المالكة ، فقد كان محبوبا ، مقدراً حق قدره في البلاط . في مثل هذا كان تنصرم حياته . وعلى رغم هذا - ومن يدري كيف - فقد كان موفقا في اختيار الجانب الصالح للاشياء ، وتجنب السيء والمشكوك في نزاهته . كان من مبادئه الا يدين انساناً قط او شيئاً . فاما ان يلزم الصمث ، او يعلن ما يراه حقيقة بصراحة ، ثم يتبع ذلك بقهقهة مدوية . ولم يكن ذلك منه مداورات سياسية وانما فطرة وخلق طبيعي .

- لقد احسنت في حضورك . اتريد ان تشاركني الطعام ؟ صدقني ، واقبل نصيحتي ، ان (البيفتاك) شيء رائع . هل لك في كأس من هذا الخمر ؟ - قال وهو يمد يده ليتناول زجاجة جن لقد فكرت بك . ساحمل الاسترحام وسأسلمه يداً بيد الى صاحب الجلالة الامبراطور . ولكن ارى من الاوفق ان تتصل (بتوبوروف) وتخاطبه بهذه القضية .

فاكفهر وجه (نيكليندوف) عند سماعه هذا الإسم .

- كل شيء متعلق به . وحتى لو قدمت الاسترحام بيدي فلا بد من اطلاعه عليه لأنه سيدلي بمعلوماته ، ويقدم تقريره . وأذا عملت بنصيحتي فقد يتبنى هذه القضية خدمة لك .

- هذا صحيح . وساعمل بنصيحتك .

- حسن . والآن قل لي كيف رأيت بطرسبرج ؟ - قال (بوغاتيروف) بصوت عال . - قل . خبرني .

- اي انطباعات احدثتها في نفسي ؟ اني لأراني وكأني قد نومت تنويما مغناطيسيا .

- قد نومت تنويما مغناطيسيا ؟ - قال (بوغاتيروف) وهو يقهقه ضاحكاً . ثم نظف شاربه بالمنشفة وأضاف . - اذن انت لا ترغب في مرافقتي على الغذاء ؟اترغب في مقابلة (توبوروف) ؟ اخبرني إذا رفض لأقدم الاسترحام غدا . وعندما نهض عن المائدة رسم بيده اليمنى رسم الصليب على صدره بصورة آلية دون ان يدري لماذا

كما نظف شواربه وتناول سيفه بصورة آلية ايضا . ثم قال وداعا يا عزيزي فلا بد لي من الذهاب .

ـ هيا بنا نذهب . ـ قال (نيكلنيدوف) .

وتبادلا التحية عند الباب ، وصافح الامير يد رفيقه الكبيرة التي مدها له ، وان كان غير واثق من نجاح هذه الزيارة .

كان (توبوروف) يشغل منصبا تتمثل فيه مناقضات لا تذهب خافية الا على جاهل كبير ، او رجل مجرد من القيم الاخلاقية . وكان حظه من هاته الخليتين كبير جداً . كان يرى ان من واجبه حماية الكنيسة والدفاع عنها بكل ما لدى الانسان من وسائل بما في ذلك العنف . تلك الكنيسة التي اقامها الله على اساس ثابت مكين لا تنال من صولة البشر او الجحيم . كأن ما اسسه الله يحتاج حماية وعون مؤسسة بشرية مؤلفة من بضعة من الموظفين يرأسهم (توبوروف) . وكان لا يرى هذا التناقض ، او انه كان لا يرغب في ان يراه . وهكذا ، فقد كان يخشى ان يقوم كاهن كاثوليكي ، او راع انجيلي ، او حاخام موسوي ، فيهدم تلك الكنيسة التي لا يثبت امامها سلطان الجحيم وكان يحاذر عليها من اي من هؤلاء ويحسب له حسابا .

كان (توبوروف) خلوا من الشعور الديني الحق الذي ينادي بالاخوة والمساواة بين ابناء البشر . وكان يرى ان الشعب يتألف من عنصر يختلف في جوهره عن العنصر الذي يتكون منه ، وان ما هو بالنسبة له غير ذي فائدة فهو الضروري الهام بالنسبة للشعب . وكان في قرارة نفسه لا يؤمن بشيء . ولكن تفكيره بان الشعب قد يبلغ مثل وضعة كان مرعيا له ، ولذا كان من اقدس الواجبات لديه (انقاذ الشعب) على حد تعبيره .

كانت نظرته للدين الموضوع تحت حمايته كنظرة مربي الدواجن لما يطرحه للفراخ الصغيرة من النفايات التي يرى فيها شيئا قذراً تشمئز منه النفس ولكنها من ضروريات الفراخ التي تلتهمها بشهية .

كان « توبوروف » يقول في نفسه .

ـ مما لا شك فيه ان تقديس سيدات (كازان) و (ايفرسكاجا) و (سمولنسكاجا) ليس سوى عبادة اصنام وضيعة . غير ان الشعب يؤمن بها ، ولذا ينبغي المحافظة عليها وحمايتها .

ولم يخطر له قط على بال انه اذا كان الشعب يؤخذ بالاوهام فذلك لانه كان ولا يزال يوجد رجال قساة القلوب هو احدهم ، يستغلون هذا الايمان لا ليخرجوه من ظلمات الجهل وإنما ليزيدوها كثافة وقتوماً .

وعندما وصل (نيكليندوف) إلى منزل (توبوروف) كان هذا يتحدث في مكتبه إلى رئيسة أحد اديرة الدعاة المبشرين بالعقيدة الارثوذوكسية في البلاد الغربية وبين اشياع (اونياتي) الذين ارغموا بالقوة على التخلي عن معتقدهم .

وخف احد الموظفين لاستقبال الامير في الردهة . وعندما علم انه يريد تقديم استرحام لجلالة الامبراطور باسم المبعدين بسبب قضايا دينية طلب منه ان يسلمه اياه. ثم اقتاده إلى مكتب (توبوروف) . ولم تلبث ان خرجت الرئيسة التي كانت ترتدي قبعة شبيهه بما يسمى (قلبق) وثوباً اسوداً ، وتحمل بيدها البيضاء المصقولة الاظافر سبحة من حجارة كريمة ، واتجهت نحو الباب . ولكن ما زال على الامير ان ينتظر.

واخذ (توبوروف) يتلو الاسترحام بسرعة ، وكان من حين لآخر يهز رأسه مدهوشاً ومستاء من تلك العريضة التي كانت موضوعة بلهجة رصينة واضحة حازمة .

ـ إذا وصلت هذه ليد الامبراطور فقد تحدث لي مضايقات ومتاعب عدة . وقد تكون سبباً لما لا يسر . ـ قال يحدث نفسه بعد ان فرغ من تلاوتها، ثم ترك الوثيقة على المكتب وامر بادخال (نيكليندوف) عليه .

لم يكن قد نسي شيئاً من تفاصيل تلك الدعوى التي اقيمت على بعض مشايعي طائفة جديدة . وقد تلقى استرحاماً لصالحهم .

كان بعض اتباع الطائفة الارثوذوكسية قد تحولوا عن عقيدتهم ، ولما استحالت إعادتهم إلى سابق معتقدهم ، احيلوا إلى المحاكم التي قررت براءتهم . فتواطأ المطران

والحاكم وقرروا ان زواجهم اصبح غير شرعي ، استناداً إلى نظرية سوفسطائيـــة ، فشتتوا شمل العائلات وابعدوا الآباء عن الابنـــاء والزوجات ، وهؤلاء عن اولئك وشردوهم في مختلف انحاء روسيا . وكان هؤلاء هم الذين يتقدم الآن (نيكليندوف) باسمهم باسترحام.

وعندما اتصل نبأ هذه الاعمال التعسفية « بتوبوروف » للمرة الاولى ظـــل مدة طويلة حائراً مرتبكاً ؛ لا يدري أيقر ما فعله المطران ويوافق عليه ليظــل ساري المفعول ، ام يقف منه موقف المعارض له فيبطل مفعوله . في الحالة الاولى لم يكن يرى خطراً في تشتيت شمل العائلات وتشريد ابنائها ، ولكنه كان يرى في بقائهم قريباً بعضهم من بعض ما يهدد كيان المذهب الارثوذوكسي . ولكن الامر قد تغير الآن لقد تدخل في الامر محام (كنيكليندوف) ذو نفوذ في العاصمـــة بطرسبرج نظراً لعلاقاته الشخصية . وقد يصل الاسترحام إلى يد الامبراطور بطريقة ما فتنفضح اعمال اولئك الذين اقروا ذلك الابعاد . وقد تتحدث به الصحافة الخارجية ... ولذا فقد بيت أمراً .

ـ نهارك سعيد . ـ قال للامير بلهجة الرجل الكثير الاعمال . وشرع يحدثه عما يهمه قبل أن يجلس . ـ اجل . اعرف جيداً الدعوى التي تتحدث عنها . وعلاوة على ذلك فقد رأيت الاسماء فتذكرت القضية وهي في الحقيقة مدعاة للأسى. وإني لاشكر لك تذكيري بها . لقد بلغت سلطات الولاية حد الافراط في حرصها وغيرتها .. غيرة مفرطة .. و . ،

وفيما كان (توبوروف) يتكلم مقلباً بين يديه الاسترحام كأنه يريـــد ان يريه إياه ، كان (نيكليندوف) يتفرس في ذلك الوجه الشاحب الذي لا ينم عما في نفس صاحبه فتتوالد في نفسه ظنون السوء .

ـ ساصدر امراً بالغاء قرار الحكم الصادر بحق هؤلاء الاشخاص .

ـ إذن لا حاجة لهذا الطلب ؟

ـ كلا ، فانا اعدك وعداً صادقاً .

وركز على كلمة اعدك كما لو كان ليس ما هو اسمى من شرفه وكلمته . ثم أضاف

ـ ساصدر الاوامر اللازمة .

ثم شرع يكتب بسرعـــة . فاستغرب الامير الذي كان ينظر إلى ذلك الرأس الضيق الاصلع ، كيف سارع هذا الرجل اللامبالي إزاء كل شيء للعمل على إرضائه .

ـ لقد انتهى . ـ قال (توبوروف) وهو يغلق المظروف ـ بوسعك ان تنقل ذلك لمحبيك . ـ قال وهو يحاول ان يضحك .

ـ ولكن لماذا تركوا هؤلاء يتألمون كل هذه المدة ؟

فرفع (توبوروف) رأسه ، وابتسم كما لو كان سؤال الأمير يجلب له سروراً كبيراً .

ـ ليس بوسعي الإجابة على هذا السؤال . ان واجبات موظفي الدولة قاسية جداً في بعض الأحيان ، ولكنها ضرورية في أغلبها .

ـ ولكن كيف يخالفون باسم الدين المبادىء الاساسية للخير ، فيشتتون شمــل العائلات و . . . ؟

وكان (توبوروف) ما زال يبتسم يتسامح كما لو كان ما يقوله الامير مما يجلب له السرور .

ـ ربما كنت على حق إذا نظرنا إلى الامور من وجهة نظر خاصة ، ولكن ليس كما يدعونا الواجب ان ننظر اليها للمحافظة على سلامة الدولة . احتراماتي اذن . ـ ثم حنى رأسة ومد له يده مودعاً .

فصافحـــه (نيكليندوف) ولم يجب على كلامه ، ولكنه اخذه الغيظ وخرج مسرعاً .

ـ مصالح الشعب . ـ كان يقول في نفسه مستعيداً إلى ذاكرته ماقاله (توبوروف)

ـ وسلامة الدولة . . . قل مصلحتك ، ومصلحة أشباهك ، هذا ما كان يجب انتقول.

ومضى يتابع تفكيره. فتذكر اولئك الذين تلاحقهم المؤسسات التي تنتحل لنفسها مهمة الدفاع عن العدالة ، والدين ومصالح الشعب . ثم يزج القائمون عليها في السجون تلك القروية لانها تبيع الخمر ، والفتى الشريد الذي اضطرته الحاجة لارتكاب السرقة ، ويلقون بالزنزانة تلك المنكودة الطالع (ليديا) لنقلها اخباراً ومعلومات يراها بعضهم مفيدة ، واولئك التعساء الذين انقذهم ، لكفرهم بالمذهب الارثوذوكسي ، و (غوركيفيتش) لمطالبته بالدستور . لقد اتضحت للامير حقيقة واحدة وهي انه إذا كان هؤلاء قد سجنوا وشردوا وعذبوا فليس لمخالفتهم القوانين الاساسية ، وإنما لانهم حجر عثرة في سبيل كبار الموظفين والاغنياء الذين يريدون ان ينعموا وهم مطمئنون بالثروات التي ينهبونها من الشعب .

كانت الفتاة المدعوة (ليديا) وبياناتها ، واولئك الذين يحاربون الاوهام ، و (غوركيفيتس) المطالب بدستور يحدد علاقة الامير ورعاياه ، كان كل هؤلاء عقبة مقيمة في سبيل اولئك وخطراً يهدد مصالحهم .

لقد ادرك الامير الآن جيداً ان جميع اولئك الموظفين ، ابتداء من الكونت (ايفان ميكايلوفيتش) حتى اعضاء مجلس الشيوخ ، ومن (توبوروف) حتى احقر موظف في الدولة لا يختلج اي وتر من اوتار نفسه إزاء آلام الالوف من التعساء الابرياء الذين اعتقلوا ، ما دام بينهم بضع نفر خطرين .

لم يكن يحسب حساباً للنظرية القائلة بأن من الافضل ان يبرأ عشرة مجرمين من ان يدان بريء واحد . وكان الواقع هو العكس . إذ انهم كانوا يلقون في سجونهم بعشر ابرياء كي يقصوا عن المجتمع مجرماً واحداً ، كما يحدث في العمليات الجراحية إذ يعمد إلى استئصال بضعة من الجزء السليم عندما يستأصل عضو موبوء .

هكذا كان (نيكليندوف) يصور لنفسه ما يجري حوله ، وكان تصويراً واضحاً وبسيطاً ، ولكنه على الرغم من بساطته ما كان ليحول دون ان يتردد طويلاً في قبوله كذلك كان يرى مستحيلاً ان تكون العدالة والشرعية والحب والايمان بالله مجرد كلمات براقة يراد منها إخفاء احط الفظائع والمصالح الوضيعة ...

كان (نيكليندوف) يتمنى لو يغادر بطرسبرج في ذلك اليوم لولا ان تـذكر وعده (لماريتا) بالذهاب الى المسرح الفرنسي . وعلى رغم اقتناعه بانه لا ينبغي له ان يذهب ، فقد كان يخادع نفسه بالقول بوجوب الوفاء بالوعد .

كان يقول بوجوب التضامن ، المرة الأخيرة مع ذلك المجتمع الذي اصبح الآن لا يبالي به ، وان كان فيما مضى حبيباً لديه .

ـ اريد ان اعلم اذا كنت اقوى على مقاومة الاغراء . ـ كان يقول في نفسه .

فارتدى ثياب السهرة وذهب الى المسرح فبلغه قبل ان يبدأ الفصل الثاني . كانت تمثل آنئذ رواية (غادة الكاميليا) الخالدة ، وكانت ممثلة اجنبية تمثل دور امرأة مسلولة تحتضر .

كان المسرح غاصاً بالناس . فاستعلم (نيكليندوف) عن موقع مقصورة (ماريتا) ، وعندما بلغها فتح له الباب خادم يرتدي بزة الاحتفالات ، وانحنى له احتراماً .

كان الرجال والنساء في المقصورات المقابلة سواء في ذلك الواقفون والقاعدون ، يولون ظهورهم للجمهور . وكان البهو الارضي يموج كالبحر بالرؤوس ما بين اصلع ، ورمادي ، وما يقرب منه ، واجعد ، والجميع يتجهون بابصارهم شطر الممثلة النحيلة القوام ، البارزة العظام ، المرتدية ثوبا حريرياً ثميناً ، التي كانت آنئذ تغني . وعندما فتح باب المقصورة واحـدث ضوضاء ، طالب بعضهم بالمحافظة على الهدوء ، واحس الأمير بنسمة هواء حارة واخرى باردة تلفحان وجهه .

كانت (ماريتا) في المقصورة تصحبها امرأة اخرى تضع غطاء احمر على شعر رأسها الذي صففته بطريقة تجعله عاليا كالبرج . كذلك كان ثمـة رجلان احدهما زوج (ماريتا) وكان جميلاً قاسي الملامح غامضهـا ، اقنى الأنف ، وعلى صدره الواسع شارة الخبير . وكان الآخر اشقر اللون ، اصلع الرأس مفتول الشوارب .

كانت « ماريتا » رائعة ، انيقة ، عارية الصدر والظهر ، مستـديرة الكتفين بضتها ، وكان في احدهما شامة سوداء ، فالتفتت الى (نيكليندوف) ، وفي حين

كانت تشير له بالمروحة الى كرسي كان من ورائها يجلس عليه ، ابتسمت له ابتسامة قرأ فيها الشكر على حضوره .

وعندما انتهت الممثلة من غنائها دوت القاعة بالتصفيق والهتاف . فهبت (ماريتا) من مقعدها ومشت الى داخل المقصورة رافعة بيدها ذيل ثوبها الحريري الذي كان يسمع صوت تكسره وحفيفه ، كي تقدم ضيفها (نيكليندوف) لزوجها وللحاضرين . فانفرجت شفتا القائد عن كلمتي « سعيد جداً » قالها بلهجة متحفظة ، وشرعة عيناه تضحكـــان .

ــ كنت قــد قررت السفر هذا النهار ، ولكن لما كنت قد وعدتك . . . ــ قال (نيكليندوف) موجها كلامه (لماريتا) .

ــ اذا لم يكن لتراني ، فعلى الاقل لترى ممثلة رائعة . ــ اجابته (ماريتا) كي تدله على انها ادركت مغزى كلماته .

ــ اليست رائعة حقا هذه الممثلة؟ــ قالت تسأل زوجها فأومأ هذا برأسه موافقا .

ــ لا يثير ذلك اي احساس في نفسي . ــ قال (نيكليندوف) معقبا . ــ لقد رأيت اليوم آلاماً من نوع آخر . آلاماً حقيقية . . .

ــ اذن اجلس وحدثني .

و كان القائد يصغي ، ومن حين لآخر كانت ابتسامة عينيه تبدو اكثر سخرية .

ــ لقد ذهبت لزيارة تلك الفتاة التي اخلي سبيلها بعـــد ان امضت عدة شهور في السجن . . . مسكينة . انها مريضة .

ــ هي الفتاة التي رجوتك فيها . ــ قالت (ماريتا) لزوجها .

ــ صحيح ؟ انه ليسرني كثيراً انقاذي لها من السجن . ــ قال هذا بهدوء ، ثم حني رأسه قليلا وابتسم ابتسامة رآها الأمير ساخرة

كان الامير يتوقع ان تقص عليه (ماريتا) « الأشياء الهامة » التي وعدته بها . ولكن شيئا من هذا لم يحدث لا من قريب ولا من بعيد ، لانهـــا كانت منصرفة للتبذر على المأساة التي كان من رأيها انها ستحدث انطباعا في نفس (نيكليندوف) .

فأدرك الأمير ان تلك المرأة ارادت ان تستحوذ على اعجابه بروعة ثوبها ، وجمال كتفيها العاريتين، فتلاقى في نفسه السرور الكبير والأشمئزاز العميق . ومـا زال الأغواء الذي كان يفيض به سائر كيانها قائما ، غير انه كان قد اصبح يتكشف عما يخفيه . كان اعجابه بها كبيرا ، ولكنه تبين انها قد كذبت فيما زعمته بالأمس ، وانها كانت على وفاق تام مـع زوجها الموظف الكبير ذي المستقبل الحسن ، وانهـا كانت راغبة في ان تحمله على الهيام بها فحسب ، دون ان يعلم لذلك سببا وربما كانت هي ايضا اقل منه علما .

وكان ذلك يغويه ويثير الاشمئزاز في نفسه .

وهكذا لبث مدة مترددا ، بين البقاء ومغادرة المسرح ، وكثيرا ما تناول قبعته وهم بالذهاب . ولكن عندما عاد الجنرال الى المقصورة مفتول الشوارب ، ورائحة التبغ تنبعث منها ، فوجه الى الأمير نظرة ازدراء ، نظرة حام الى محميه ، خرج هذا الى الرواق ، قبل اغلاق الباب فتناول معطفه ساخطا وغادر المسرح .

وفي طريقه الى البيت ، ماراً بشارع (نفسكي) رأى عن غير قصد امرأة تتصيد المارة . ولما كان يسرع الخطى فقد ادركها واخذ يتأملها . كان وجهها ما زال جميلاً ، ولكنه كان تستره المساحيق والطلاء وكانت متوقـدة النظرات . وعن غير قصد تذكر الأمير (ماريتا) ، واحس بما يجزيه الى هذه ، وباشمئزاز يقصيه عنها ، تماماً كما احس في المسرح منذ هينهة .

واخذ يسرع الخطى وهو ناقم على نفسه ، وتحول الى شارع (مورسكايا) حيث شرع يتمشى على الرصيف المحاذي لمجرى النهر بدهشة من (الغوروفوروي) [1] .

حتى (ماريتا) ابتسمت عندما دخـل عليها في مقصورتها ، وكان مغزى الابتسامتين واحدا . والفرق الوحيد بين المرأتين هو ان ابنة الشارع كانت تخاطب الناس بصراحة وبلا مواربة ، في حين كانت الاخرى تستتر وراء رغبات سامية نبيلة لتخفي ضعة الشهوة .

---

(١) هي كلمة روسية لعلها تعني الحرس او الشرطة .

ـ كانت الأولى صادقة ، وكانت الاخرى كاذبة . ـ قال الأمير مخاطباً نفسه . وعندما تذكر علاقته الماضية بزوجة ماريشال النبلاء ادركه الخجل .
ـ كم هو رهيب وجود الحيوان في الأنسان . ـ كان يقول في نفسه . ـ وانت قد تستطيع احتقاره ، وفي حالي انصياعك اليه او تمردك عليه ، انت اقوى منه متحكم به اذا ما ظهر واضحا جليا . ولكنه اذا ما استتر وراء مظاهر شعرية براقة ، وفرض سلطانه عليك وانصعت اه وفقدت قوة التمييز بين الخير والشر فهنالك الطامة الكبرى ...

وادرك بوضوح تام كل ما كان يحيط به من اشياء واشخاص وشهوات واحساس لأن تحولاً نهائياً قد طرأ على نفسيته تلك الليلة ، فانقشعت الظلمات التي كانت قد رانت على بصيرته ذات يوم .

ولم يبق لديه من شك في ان كل ما كان الناس يرونه هاما ونبيلا كان مجرد صغارات وسخافات ، وان ابهة حياته تخفي وراءها جرائم قديمة العهد لم تذهب دون قصاص عليها فحسب ، وانما كوفىء مقترفوها وخرجوا خروج الظافرين محاطين بشتى مظاهر التكريم التي وسع الانسان ابتكارها. وقد كان بوسعه تجاهل ذلك والتستر عليه ، غير ان الحقيقة كانت تفرض نفسها عليه فرضاً . وكما كان يجهل مصدر النور الذي يغمر بطرسبرج كذلك كان الامير يجهل مصدر الينبوع الذي انبجس منه النور الذي لاشى ظلمات نفسه . ولكنه لم يكن بوسعه الا ان يرى الاشياء التي تنيرها اشعته على حقيقتها ، وان يكن بصورة مشوشة محزنة وغير طبيعية .

واحس بعذوبة فائقة وقلق شديد يغمران روحه في آن واحد .

- ١٧ -

وصل الامير (نيكليندوف) إلى موسكو ، وكان أول ما فكر به الذهاب إلى مستشفى السجن لينقل إلى (ماسلوفا) النبأ المؤلم ، نبأ تصديق المحكمة العليا للحكم ، وان عليها الآن ان تستعد للذهاب الى سيبيريا . وفيما يتعلق بالالتماس الذي يحمله كي توقع عليه (ماسلوفا) والذي ينوي رفعه لجلالة الامبراطور فقد كان لا

يعلق عليه آمالا كباراً . والغريب في الامر هو ان الامير كان قد اصبح يتمنى ألا يلغى الحكم ، اذ كان قد الف فكرة الذهاب إلى سيبيريا ، والعيش فيها كما يعيش المبعدون والمحكومون بمختلف الاحكام ، وانه لا يستطيع تصور الحياة بجانب (ماسلوفا) اذا اخلى سبيلها .

لقد قال (تورو) الكاتب الاميركي الشهير عن بلده اميركا عندما كان لا يزال الرق مشروعاً فيها ان السجن هو خير مكان يليق بالرجل الشريف في تلك الدولة التي يحمي فيها نظام الرق . فتذكر (نيكليندوف) هاته الكلمات بعد مشاهداته في بطرسبرج ، وقال مخاطبا نفسه ان السجن هو المكان الوحيد فى روسيا كما كان قديماً في اميركا القديمة ، الخليق بالرجل الشريف .

وسارع سجان عجوز عرف الامير فأبلغه ان (ماسلوفا) قد نقلت من المستشفى.

ـ اين هي اذن ؟

ـ لقد نقلت الى السجن الجديد .

ـ ولماذا نقلت ؟

ـ تعلمون يا سمو الامير ان هذه الطبقة من الناس هي دائما هي .ـ اجاب السجان بازدراء . ـ لقد اخذت تغازل الطبيب المتمرن ، وعندما لاحظ الطبيب ذلك منها طردها .

فلم يجب (نيكليندوف) . لم يكن يتصور قط ان شأن الفتاة وسلوكها سيستأثران باهتمامه بهذا المقدار ، اذ ان ما اخبره به السجان قد غمه غماً كبيراً كما لو كان قد فوجيء بكارثة هائلة ، واستحيا لنفسه . واستحال عليه في باديء الامر ، ان يصدق ما سمعته اذناه . وكان هو خارج من المستشفى يفكر في نفسه قائلا : ترى اكانت كلمات (ماسلوفا) ورفضها قبول تضحياته ، ودموعها وتعنيفها له ، مجرد دهاء امرأة ساقطة تحاول ان تحصل منه على اكثر ما تستطيع . ثم تذكر انه قد لاحظ عندما تحدث اليها آخر مرة ، ان من المستحيل اصلاحها .

ـ والآن ، ماذا ينبغي ان افعل ؟ هل ثمة ما يربطني بها ؟ اليس في فعلتها ما يجعلني في حل منها ؟

ولكنه قبل أن يجيب جواباً مرضياً ادرك ان في قطع صلاته بها ، وتخيله عنها ، عقابا لنفسه ، قبل ان يكون عقابا لها . فخانته الجرأة .

– كلا . كلا . لن يغير ما حدث شيئاً مما صممت عليه .

يجب ان ارفع معنوياتها ، فقد تنقاد لما في روحها من دوافع ... فهي خليقة بذلك ... ان واجبي يهيب بي ان البي نداء الضمير . والضمير يقضي بان اضحي بحريتي تكفيراً عن زلتي . ينبغي ان اتزوج منها ، حتى ولو كان شكلياً ، وينبغي ان اتبعهـــا الى حيث يذهبون بها . هكذا يجب ان يكون .

وخف إلى السجن الجديد ، بعد ان وطد العزم على ذلك ، وطلب إلى الحارس المناوب ان ينقل الى المدير رغبته في مقابلة (ماسلوفا) . وكان الحارس يعرف الامير فأخبره ان المدير القديم قد استقال من منصبه وحل محله مدير جديد صارم ومتشدد .

– هم الآن اكثر تشددا من ذي قبل . – اضاف يقول – وعلى كل حال سأبلغه ذلك .

وكان المدير آنئذ في السجن . ولم يلبث ان واجه الأمير . كان طويل القامة ، نحيل الجسم ، مقطب الحاجبين ، بطيء الحركات فقال دون ان ينظر إلى الامير :

– يسمح بالزيارات في الايام المعينة لها فقط ، وفي القاعة العامة .

– احمل التماسا باسم السجينة ليرفع لجلالة الامبراطور وينبغي ان توقعه هي .

– بوسعك ان تعطيني اياه .

– انا بحاجة لمقابلتها . – اجاب الامير ولدي تصريح بذلك من الحاكم .

قال ذلك واخرج من جيبه حافظة اوراقه .

– معذرة . – قال المدير ، ثم تناول الورقة بين أنامله الطويلة البيضاء النحيلة ، وقرأها بامعان . ثم قال له . – تفضل الى المكتب .

كان المكتب آنئذ خاليا . فجلس المدير إلى طاولته واخذ يقلب أوراقا كانت أمامه ، وهو ينوي ان يحضر المقابلة . ولما سأله (نيكليندوف) عما اذا كان باستطاعته ان يرى (فيرا افراموفنا) السجينة بجرم سياسي أجابه بجفاء ان ذلك مستحيل .

- ممنوع كل المنع التحدث إلى المساجين السياسيين . - قال له ، ثم واصل تقليب الاوراق .

وأحس (نيكليندوف) احساس من كان ينوي القيام بعمل قبيح ، فاكتشف ان امره قد افتضح واخفق في عمله .

وعند ما جاءت (ماسلوفا) رفع المدير رأسه دون ان ينظر الى أحد منهما وقال .

- بوسعكما ان تتحدثا . - ثم واصل تقليب الأوراق .

كانت الفتاة قد أصبحت في ثياب السجينات ، وهي صدرية بيضاء وغطاء رأس أبيض وفستان . وإذ رأت الأمير جافا ، سيء المزاج ، وهي تدنو منه احمر وجهها، وأطرقت بنظرها الى الارض وهي تفرك باصابعها طرف ثوبها ، فايدت هذه المظاهر الدالة على الانفعال والبادية عليها ما قاله السجان له وعلى الرغم من انه كان قد قرر ان يظهر امامها بمظهر عادي فقد أحس بشعور اشمئزاز عنيف عندما مد لها يده .

- جئت أحمل اليك نبأ سيئاً . - قال لها بصوت أجش متحاشيا تلاقي نظراتها ، وقبل أن يصافحها . لقد رفضت المحكمة العليا طلب التميز .

- كنت واثقة من ذلك . - أجابت (كاترين) وهي ترتعش كما لو كانت ستختنق .

لو انها كانت في مناسبة غير هذه اذن لسألها (نيكليندوف) كيف علمت ذلك . ولكنه اكتفى بان نظر اليها فاذا بالدموع تملأ عينيها ، ولكن هذه الدموع أثارت استياءه بدلا من ان تحرك عطفه .

كان المدير قد وقف واخذ يذرع الغرفة ذهابا وأيابا .

وعلى رغم الاشمئزاز الذي كان يشعر به (نيكليندوف) فقد رأى ان من واجبه ان يواسيها ببضع كلمات ليقوي من عزيمتها .

- لاتيأسي فالاسترحام المرفوع الى جلالة الامبراطور سيؤدي إلى نتيجة حسنة ، وآمل ان ...

- ليس هذا ما يبكيني . - قالت ذلك وحدجته بعينيها الحولاوين المخضلتين بالدموع ، الناطقتين بالألم .

– وبما تبكين اذن ؟
– أبكي لانك قد تكون ذهبت إلى المستشفى وعلمت ...
– هذا لا يهمني . – أجاب الأمير وقدزوى مابين عينيه وأخذه شعور بالكرامة الجريحة عندما ذكر أمامه إسم المستشفى ، فقال في نفسه . رجل من الطبقة الرفيعة تتسابق لطلب يده سائر بنات الطبقة الاريستوقراطية ، قد رغب في الزواج من هذه المرأة التي لم تطلق كبحا لجماح نفسها ، وأخذت تبادل الحب طبيبا عاديا ... فغموته موجة من الكراهية صعدت الى رأسه .
– وقعي هذا الطلب . – قال لها ثم اخرج من جيبه مغلفا كبيراً اخرج منه الاسترحام ووضعه أمامها على الطاولة .
فكفكفت غرب دموعها ، ومسحت عينيها بمنشفتها وتقدمت من الطاولة ، وسألته اين ينبغي ان توقع ، فدلها على مكان التوقيع . وعندما جلست على الكرسي ظل الامير واقفا بجانبها دون ان يفوه بكلمة ، وهو ينظر الى ظهرها المقوس فوق الطاولة الذي كان يهتز لفواق البكاء . لقد كان شعور الكرامة الجريحة يتصارع في داخله ، وشعوراً آخر يدعوه للصفح . وقد يكون هذا شعور الرحمة الذي كان قلبه طافحاً بها نحو اولئك الذين يتألمون ، كما قد يكون لأنه قد تذكر ماضيه ، وتذكر انه هو أيضا قد ارتكب الخطيئة التي يؤاخذها الآن عليها . وهنا ادرك انه كان خاطئا فأشفق عليها .
وبعد ان وقعت (كاتزين) الطلب ، ونظفت أصابعها بطرف ثوبها من الحبر ، وقفت وأخذت تحدق مليا في وجهه .
– على كل حال ، ليس ثمة ما يحملني على تغيير شيء مما اعتزمته . – قال لها (نيكلنيدوف) ليواسيها . سأفي كل ما وعدت به دون تردد . سأذهب الى حيث تذهبين .
– كلا . هذا لا يجدي . – اجابت فوراً وقد أشرق وجهها .
– فكري فيما قد تحتاجين إليه في السفر .
– شكرا لك . اعتقد انني لن احتاج لشيء ... شكراً لك .

وهنا تقدم المدير منهما ، فحيا الامير وخرج من المكتب .

كان انئذ يشعر بسرور هادىء رزين ، وحب للانسانية كبير لم يشعر بمثله منذ امد بعيد . وكان اقتناعه بأن ما من عمل سيء تقوم به (ماسلوفا) يقوى على الحؤول دون شفقة عليها ، يرفع من شأنه أمام نفسه ويملأه حبوراً .

لقد كان لا يعنيه ان تهوى الطبيب المتمرن ، فهو لم يكن يحبها لنفسه ، وإنما لذاتها في سبيل الله .

ولم تكن (كاترين) هي المذنبة في ذلك الموقف الغرامي الذي طردت من أجله من المستشفى .

كان الحادث غير ذي بال . لقد تلقت (كاترين) امرا بالذهاب إلى الصيدلية لاحضار الشاي ، وهنا التقت بالمتمرن (اوسيبوف) الطويل القامة المنتفخ الوجه الذي كان يطاردها منذ عدة أيام . ولما امتدت يده اليها دفعته عنها بعنف فاصطدم باحدي الواجهات حيث سقطت منها زجاجتان فتحطمتا . وصادف أن كان رئيس الأطباء ماراً فسمع صوت تحطم الزجاج . وإذ رأى (كاترين) تخرج من الصيدلية مسرعة محتقنة الوجه مرتعشة صرخ فيها بجفاء .

ـ اسمعي يا بنيتي . إذا كنت تنوين أن تبدأي هنا من جديد فسأطردك حالاً . هل علمت ؟ ... ماذا حدث ؟ ـ قال يسأل المتمرن وهو ينظر اليه من فوق نظاراته .

فراح هذا يبذل قصارى جهده في تبرير نفسه فحدجه الطبيب بنظر شزر دون أن يصغي اليه ، وذهب يتفقد المرضى ، ثم كتب إلى مدير السجن يرجوه أن يستبدل (كاترين) بأرصن منها .

كان الطرد من المستشفى بتهمة إقامة علاقات مشبوهة مع بعض الرجال مؤلماً لنفس (ماسلوفا) وهي التي كانت على أثر اجتماعها الاول (بنيكليندوف)تتقزز من أي تماس حسي مع الرجال ، أضف إلى ذلك فان معرفتها بأن كل رجل كان يرى لنفسه الحق في إهانتها ، لماضيها السيء وظروفها الراهنة . ثم هو فوق ذلك يعجب إذا ما صدته وامتنعت عليه . ان معرفتها هذه كانت تثير الالم في نفسها والاشفاق

عليها حتى تتفجر الدموع من عينيها . لقد حاولت تبرير نفسها لدى الامير من تهمة كاذبة لا شك في انها بلغته ، ولكنها تبينت فور ابتدائها بالكلام انه سوف لن يقيم وزناً لكلامها ولذا دفنته في صدرها وسكتت على مضض .

كانت (ماسلوفا) لا تزال تؤمن ، وتريد أيضاً أن تظل مقتنعة بأنها لم تسامح (نيكليندوف) كما صرحت له في اجتماعها الاول به ، بل انها تكرهـــه . ولكن تلك الكراهية كانت في جوهرها مزيجاً من كراهية وحب . كانت تحبـــه ، وتلبي سائر رغباته ، دون أن تتقصد ذلك . فلأجله امتنعت عن التدخين ، ولأجله هجرت الخمر ، وتصيد الرجال ، ورضيت بانتقالها إلى المستشفى . كانت ترضى بكل شيء ما دام فيه إرضاء للأمير . وإذا كانت قد رفضت وترفض بصورة قاطعة زواجها منه كلما عرض عليها ذلك ، فلأنها كانت راغبة في أن تعيد على مسامعه الكلام العنيف الذي جابهته به عند أول اجتماع لها به ، ذلك لانها كانت ترى ان زواجها منه سيكون وبالاً عليه . لقد عقدت العزم على رفض تضحياته . ومع ذلك فقد كان يحز في نفسها ظنها بأنه ما زال يحتقرها ، وانه يحسبها ما تزال غارقة في حمأة الرذيلة ، وانه لم يتبين التحول الذي كان قد طرأ على نفسيتها .

وعندما ظنت الآن ان (نيكليندوف) يعتبر سلوكها في المستشفى كان غير شريف ، تألمت ألماً ممضاً يفوق ألمها عندما تأكد لديها انها ستقضي المدة التي حكم عليها بها خلافاً لكل عدالة .

١٨

شرع الأمير (نيكليندوف) يعد عدته للرحلة الى سيبيريا لاحتمال سفر (ماسلوفا) مع القافلة الاولى . وكانت الأمور التي تستدعي الحلول قبل سفره من الكثرة بحيث رأى انه ، حتى ولو اتسع له الوقت كثيراً فانه لن يستطيع لها حلا .

وشتان ما هما يومه وامسه ، وشتان ما حدث ويحدث له فيهما . كان بالأمس لا يدري اي مهمة يبتكرها لنفسه قتـــلا للوقت ، اذا كان لا يهتم لغير نفسه ، بغير الأمير (ديمتري ايفان نيكليندوف) . وعلى رغم ذلك فان كل شيء كان يبدو له ثقيـــلا

ومضجرا . واذا اصبح الآن يهتم لغيره ، فان كل شيء اصبح هاماً لديه ، وغـــدا الوقت قصيراً جداً بحيث لا يتسع للمهام التي تتطلب منه عنايته واهتمامه .

كانت المهام التي تشغل وقته وتفكيره تنحصر في ثلاث فئات . وهكذا ينظمها ويرتبها في اضبارات خاصة واضعاً كل فئة على حدة .

كان قبـــل كل شيء اشد اهتماماً بمستقبل (ماسلوفا) ، وتحقيقاً لذلك كان دائم البحث عن ذوي النفوذ ، دعما للاسترحام الذي ستتقدم به (كاتوين) لجلالة الامبراطور ، في حين لا ينفك يعمل استعداد للرحلة الى سيبيريا .

وكان عليه ان يسوي امور ممتلكاته . ففي (بانوفو) اجرت الاراضي للمزارعين مقابل بدل زهيد سيرصد للنفقات العامة . ولكن كي يصبح هذا التنازل مشروعاً كان لا بد من وضع اتفاقية يوقعها الطرفان المتعاقدان ، ووضع وصية منه تحوطا لما قد يحدث في مستقبل الأيام.وكانت الاتفاقية التي ابرمت مع مزارعي(كوسمينسكوجي) تقضي بان يتقاضاهم اجراً دون ان تعين قيمته . كذلك لم يبين ما سيترك للمزارعين لسد نفقاتهم العامة . وما سيبقى له لسد نفقاته الخاصة .

وكان بحاجة لمعرفة القيمة التقديرية للنفقات التي يتطلبها سفره الى سيبيريا . كذلك لم يكن يريد التخلي عمـــا بقي له من ثروته التي ذهب نصفها . واخيراً كانت تشغله قضايا المساجين الذين كانوا غالباً ما يهرعون اليه باعداد هائلة . كان ، في باديء الامر ، عندمايطلب اليه سجين حاجة ، يخف لنجدته والترويح عنه في الحال.ولكن المطاليب كانت قد أصبحت من الكثرة بحيث أدرك استحالة تلبيتها مادياً . وعن غير قصـد ، رأى نفسه مسوقاً للتفكير بمعضلة جديدة ، معضلة اجتماعية كانت في الأيام الأخيرة قد احتلت مكان الصدارة من تفكيره . كان يرغب في أن يعلم بموجب أي قانون تعمـل تلك المؤسسة الغريبة المسماة محكمة الجنايات ، ومن أين جيء بتلك التي من نتائجهـا القريبة السجون وساكنوها ، والمعتقلات العديدة ابتداء من قلعة (بيتروبالوفسك) حتى (ساكالين) حيث تسقط الضحايا بالالوف .

كان (نيكليندوف) قد قام بتحريات خاصة بين المساجين ، واستقى معلومات

من المحامي ومدير السجن وكاهنه العجوز ، واطلع أخيراً على سجلات السجون فخرج من كل هذا بالرأي التالي حول من يسمونهم مجرمين . كان يقسمهم إلى خمسة أقسام . ففي القسم الأول يأتي الابرياء والعمال الذين أضربوا فسجنوا بتهمة التمرد على السلطة.

أما القسم الخامس فيؤلفه جماعة هم اقل اجراماً بالنسبة للمجتمع مما هو بالنسبة لهم. اناس اهملوا وتركوا لانفسهم ، فعاشوا بين شتى انواع الاغراء والرذائل المختلفة ، وبلد الاضطهاد المستمر إحساسهم ، أمثال المئات من الرجال والنساء الذين رآهم (نيكليندوف) في السجون وخارج السجون ، والذين لا مفر لهم من ان يصبحوا مجرمين نظراً لظروفهم الحياتية . هؤلاء يرى (نيكليندوف) انهم سيصبحون لصوصاً وقتلة كالذين شاهدهم في الايام الاخيرة . وإلى هؤلاء يمكن إضافة اولئك الفاسدين واتباع الرذيلة ، الذين اسمتهم المدرسة (الانتروبولوجية) المجرمين بالطبيعة ، والذين يستدل بوجودهم في المجتمع الانساني على الحاجة للقوانين الجزائية ، وللقصاص . هؤلاء المسمون (المجرمين بالطبيعة) الفاسقون المنحطون يضيفهم الأمير لاولئك الذين يرى ان المجتمع اكثر إجراماً تجاههم ، مما هم تجاهه ، بلا فارق سوى انه إذا كان المجتمع غير مسؤول عن حاضره ، فهو مسؤول عن ماضيه السحيق أيام كان يسمح بانحطاط أسلافه .

وقد لفت نظره بصورة خاصة المجرم (شوتين) اللص ذو السرقات المتكررة ، والابن الطبيعي لامرأة عاشت كل حياتها في حمأة الرذيلة « والذى كان منذصباه منضماً لعصابة أشقياء ، ويأوي إلى حجر رخيص . ولكنه حتى بلوغه سن الثلاثين من عمره لم يقع ، دون شك ، على رجل فاضل محب للخير . ومع ذلك فقد كان هذا الرجل يتحلى بخفة روح اكسبته محبه رفاقه . وكان يتوسل إلى الأمير أن يساعده متندراً على نفسه ، وعلى القضاة ، والسجن ، والقوانين الانسانية ، وحتى على الشرائع الالهية .

وهناك مجرم آخر يدعى (فيدوروف) كان قد قتل ، بالاشتراك مع اشقياء كان يرأسهم ، موظفاً عجوزاً قصد سرقته . كان أبناً لمزارع طرد من بيته بغير وجه حق ، وخلال ادائه الخدمة العسكرية الاجبارية ، عوقب لانه احب خليلة أحد الضباط .

كان حسن الصورة قوي البنية يتدفق كيانه بالحيوية والشهوات ، راغباً في اغتنام قسطه من منبع الحياة التي يراها من حقه ، مهما كلفة الأمر ، أذ انه لم ير من يعف عن اغتصاب ما يرغب فيه ، وكذلك لأن أحداً لم يقل له ان للحياة غاية اسمى من إشباع الغرائز والشهوات .

كان (نيكلیندوف) يري ان كليها كان من طبيعة منتجة ، فياضة بالقوى ، إلا انها قوى شوهها الاهمال ، كما تنمو الأشجار في الحديقة شائهة إذا ما اهملت . لقد رأىٰ متشردين ومتشردات تشمئز من مرآهم النفوس ، ولكنه لم يصادف المجرم النموذجي الذي تتحدث عنه المدرسة الايطالية . كان اولئك التعساء يثيرون اشمئزازه ولكنه اشمئزاز لا يختلف جوهره في شيء عما يثيره في نفسه غيرهم من البلداء الذين يراهم خارج السجن بثياب فاخرة وتزين صدورهم اوسمه لامعة ، سواء في ميدان العمل أو المراقص . إذن لماذا يسجن اولئك التعساء في حين يظل من لا يختلف عنهم في شيء يسير في الأرض مرحاً ، وأكثر من ذلك ، هو يحاكم الأولين ؟ هذا هو الموضوع الذي كان يستأثر بالكثير من تفكير (نيكليندوف) خلال الايام الاخيرة .

كان (نيكليندوف) في بداية امره يأمل في ان يجد جواباً على سؤاله . فاقتنى كل ما كتبه حول الموضوع الكتاب امثال (لومبروسو) و (غاروفالو) و (فيري) و (ليست) و (منديا) و (تارد) ، و شرع في دراستها بأمعان . غير انه كان كلما اوغل في القراءة يزداد امله خيبة . وكان يحدث له ما يحدث لأولئك الذين يطرقون ابواب العلم يبتغون منه جواباً صريحاً وبسيطاً ودقيقاً على سؤال يوجهونه له يستطيع العلم حل الكثير من القضايا المعقدة المتعلقة بالقوانين والمؤسسات الجزائية ، ولكنه لايستطيع جواباً على هذا السؤال البسيط : لماذا ويأتي حق يقوم قلة من الناس بسجن ، ومعاقبة ، وتعذيب ، ونفي ، واعدام اشباههم ، في حي ليسوا خيرا منهم ؟ . انه يقدم لنا بديلاً عن الجواب الحاسم ، سبلا من المحاضرات حول المواضيع التالية : هل يستدل من قياسات جمجمة مجرم ما ، على مدى مسؤوليته . ما اهمية وراثة الأجرام. اذ كان الاجرام واللا أخلاقية تنبع من النفس ، ما هي الاخلاق ، والجنون ،والانحلال

والنوعية ؟ ما هو تأثير المناخ والجهل وحب التقليد ، والايحاء على الاجرام ؟
ما هي الاسس التي قام عليها المجتمع . وما هي واجباته ؟
لقد أعادت هذه الدراسات بحثاً عن الجواب المنشود ، إلى ذاكرة الامير حادثـة وقعت له في شبابه ، ذلك انه في إحدى المناسبات سأل صبيـاً يعود من المدرسة إذا كان يحسن النهجية . فأجابه الصبي .
– أجل . أحسن النهجية .
– حسن إذن هج لي كلمة حافر .
– أي حافر ؟ أحافر الحمار ؟ – أجاب الصبي وهو يضحك بخبث .
ويحدث له الآن ذات الحادث .
تجيبه كتب العلم على سؤاله بأسئلة . هنالك شروح بحاثة مفيدة وهامة . ولكن ينقصها الجواب المنشود : بأي حق يقاصص رجل رجلا ؟ . . . انه لم يكن ينقصها الجواب فحسب ، وانما كان سائر ما يرد فيها من الحجج يأتي دعما وتبريراً للحاجة الى القصاص . حاجة اعتبرت بصورة عامة قضية مسلما بها . ولما كان (نيكلينلوف يقرأ كثيراً ، وانما بصورة منقطعة ، فقد ظن ان فشله في الحصول على الجواب الصحيح قد يعود لدراسته السطحية ، وظل حي الأمل بالوقوع عليه ذات يوم · ولكنه كان اثناء ذلك ، يكون لنفسه رأيا كان يردده باستمرار ، ولكنه كان يشك في صدقه وصحته ، ولا يوليه ثقته التامة .

– ١٩ –

لقد تعين اليوم الخامس من شهر تموز ، موعداً لسفر القافلة الأولى الى سيبيريا والتي ستكون (كاترين)في عدادها · وكان الأمير قد تهيأ للسفر معهم في الميعاد المعين ، ولكن اخته وصلت الى المدينة قبل ذلك بيوم واحد لوداع اخيها ·
كانت « نتاليا سفانوفنا راغوجينسكاجا تكبر اخاها الأمير بعشر سنوات ، وبوسعها أن تقول انه ربي بين أحضانها . وقد حدث قبل قليل من زواجها ، أي عندما كانت في الخامسة والعشرين من عمرها ، وهو في الخامسة عشرة ، أن قامت

بين الاثنين صداقة ومودة ، كالتي تقوم بين أشخاص من سن واحدة . كانت (نتاليا) آنئذ تهوى (نيقولا ارتينيف) صديق أخيها وقد توفي فيما بعد . كان الأخوان يحبانه حباً جماً ، ويحبان فيه ولأجله كل ما هو طيب ومصطفى وسائر ما يؤول إلى توحيد بني الانسان . ولكن مع الأيام ، وبعد وفاة (ارتينيف) طرأ تغير على كليهما ، ففسدت أخلاق كليهما . هو بسبب حياته الجديدة بعد التحاقه بالجيش ، وهي لزواجها من رجل شهواني الحب ، لا يقدر الشعور الذي كانت هي وأخوها (ديمتري) يريانه أثمن وأقدس من كل شيء ، حتى انه لم يكن يفهمه ، وكان يعزو ما يبشران به من كمال معنوي ، ووجوب تقديم العون للغير الذي كانت (نتاليا)جد راغبة في تكريس حياتها له ، للطموح ، ولحب الظهور بين طبقات المجتمع .

كان (راغوجينسكي) غامضاً فقيراً ، وبلا لقب . إلا انه كان بارعاً في التذبذب بين حزبي الاحرار والمحافظين ، تبعاً لما يراه من إمكانية وصول أحدهما إلى الحكم . وكذلك بفضل بعض الصدف ، واكثر من كل ذلك ، بفضل مقدرته على إرضاء السيدات فقد تدرج في سلك القضاء حتى بلغ مرتبة عالية . وعندما شارف كهولته تعرف ، في الخارج ، على عائلة (نيكليندوف) ، وتمكن من استهواء (نتاليا) فتزوجها على رغم معارضة امها التي كانت تراه زواجاً غيرمتكافيء .

اما (ديمترى ايفان) ، وان كان يخادع نفسة، محاولاً التغلب علىشعورهالداخلى، فقد كان يكره صهره ويستثقل ظله لضعة إحساسه ، وقلة ذكائه وجفائه وغروره واكثر من كل ذلك لاجل اخته . كان يستحيل عليه ان يصدق ان هذه قد احبت بمثل هذا الحب الأناني والشهواني ، طبيعة حقيرة كهذه ، وانها لكي ترضيه قضتعلى النبل والسمو في نفسها . وكان يحز في نفس (نيكليندوف) أن يتصور كون اخته زوجة لهذا الرجل الغزير الشعر ، المفتون بنفسه ، الاصلع اللماع الرأس . وكان اشمئزازه منه يتعداه لأولاده . ولذا فانه كان كل مرة يبلغه ان اخته (نياليا) قد وضعت مولوداً جديداً يتولاه الذعر ، ويري انها قد دنست بذلك الغريب عن سائر افراد العائلة .

جاء آل (راغوجينسكي) دون ولديهما (كانا ذكراً وانثى) وحلوا في احسن غرف افخم الفنادق .

وسرعان ما ذهبت (نتاليا) إلى بيت اهلها ، ولكن (اغريبينا بيتروفنا) اخبرتها ان اخاها يقيم في الفندق . فذهبت اليه على الفور . غير ان خادماً قذر الثياب انبأها ان اخاها كان غائباً آنئذ فطلبت إرشادها إلى مخدعه لتكتب له رسالة .

وفي الغرفة الصغيرة لاحظت (نتاليا) الدقة التي امتاز بها اخوها ، والبساطة التامة في كل شيء . فأدهشها ما رأت . وكان على المكتب كل ما تحتاجه للكتابة ، ومؤلفات (هنريش جورج) ، ومؤلف باللغة الفرنسية (لتارد) ووجدت بين صفحاته موسى لقص الصفحات .

فجلست تكتب لاخيها رسالة رجته فيها ان يذهب إلى الفندق بأسرع مايستطيع ثم ابدت حركة استياء لما علمته من اخبار اخيها وعادت إلى الفندق .

كان ثمة امران يستوليان على اهتمامها بالنسبة لاخيها الاول والاهم كان اصراره على الزواج من (كاترين) ذلك الاصرار الذي كثر اللغط حوله في المدينة التي تسكن فيها ، ورغبته في التنازل عن ممتلكاته في الريف لصالح المزارعين ، الامر الذي يتحدث عنه لجميع الناس ، معتبرة ذلك عملا سياسياً خطيراً . فمن جهة كانت ترى في اصرار اخيها على الزواج من (كاترين) مفخرة لها ، إذ كانت ترى فيه ذاتها ، كما كانت قبل زواجها ، ومن جهة اخرى فقد كان يستولي عليها الذعر عندما كانت تتصور ان اخاها سيربط مصيره بمصير امرأة من مثل تلك الطبقة الوضيعة . وكان ان تغلب هذا الشعور فقررت العمل على اقناع اخيها بالعدول عن هذا الرأي ، على الرغم من إدراكها مسبقاً صعوبة هذه المهمة . اما فيما يتعلق بتنازله عن ممتلكاته ، فقد كان قليل الاهمية بالنسبة لها . ولكن زوجها قد نصحها باستخدام كل ما لديها من تأثير على اخيها لتحمله على الاقلاع عما كان يعتبره جنوناً . كان (اغناسبونيكوفوروفيتش) يقول ان عملا كهذا لهو الغاية في العنجهية والغرور والتسرع ، ودليل على فقد الرزانة . وان خير مايوصف به عمل كهذا هو كونه محاولة استعلاء وتبجح ، وليجعل من نفسه احدوثة الناس .

– اريد ان اعلم إذا كان من التعقل منح الاراضي للمزارعين مقابل اجر يدفعونه ... لمن ؟ ... لانفسهم – كان يقول – إذا كان لديه مثل هذه الرغبة فبوسعه ان يلجأ إلى احد المصارف الزراعية ليكون وسيطاً .. هكذا يصبح مفهوماً ... ولكن ، على كل حال ، فمثل هذا التصرف يعتبر دليلاً على انه لا يتمتع بكافة قواه العقلية .

وكان يفكر في إمكانية مجلس وصاية ، ويحرض زوجته على التحدث إلى أخيها عن هذا المصير .

– ٢٠ –

وجد الامير رسالة اخته تنتظره في الفندق حين عاد اليه فخف مسرعاً للبحث عنها .

كان الوقت اصيلاً ، وكان (اغناسبونيكوفوروفيتش) يرقد القيلولة ، فاستقبلته اخته وحدها . كانت هذه ترتدي بتاً من حرير اسود ، على صدره شريطة حمراء . وكان يلاحظ ، سواء في البيت ، أو في تصفيف شعرها الاجعد تصفيفاً رائعاً ، مدى اهتمامها بالظهور بمظهر الشباب ، كي تروق في عيني زوجها الذي كان في مثل سنها .

وهرعت للقاء اخيها عندما رأته قادماً نحوها ، وقد ارتفع صوت حفيف ثوبها الحريري ، فتعانقا وأقبلا يتبادلان النظرات والابتسام . كان الوفاء والنبل يتجليان في تلك النظرات الغامضة التي تبادلاها والتي لا يستطاع التعبير عنها بالكلام ولكنها فياضة بالمعاني . غير انهما عندما بدءا يتحدثان تلاشى ذلك الوفاء وذاك النبل . لم يكن احد منهما قد رأى الآخر منذ وفاة امهما .

– لقد اصبحت بدينة وما تزالين فتية . – قال الامير .

فارتعشت شفتاها لفرط السرور .

– وانت اراك قد اصبحت نحيلاً .

– وكيف حال زوجك ؟

– بخير . وهو يرقد القيلولة الآن ، لانه لم يذق طعم الرقاد طوال الليلة البارحة .

كانا في شوق شديد للتحدث . ولكن الشفاه ظلت منطوية على ماتحتجزه وراءها، غير ان العيون كانت تنطق بأن على الشفاه ان تطلق سراح ما تحتجزه .

ـ لقد ذهبت لزيارتك في البيت .

ـ علمت بذلك . لقد تخليت عن البيت لاني رأيته واسعاً علي وخاوياً ، وكنت شديد الضجر لوجودي وحدي ضمن تلك الجدران . لست بحاجة لذلك الاثاث والمفروشات فخذيها .

ـ هذا ما قالته لي (اغربينا) ، فشكراً لك كثيراً ، ولكن ...

وهنا دخل خادم الفندق يحمل انية الشاي الفضية فأمسكا عن الكلام ريثما يضع الخادم الاكواب والصحاف ، ثم تقدمت (نتاليا) من الطاوله وأخذت تعد الشاي وهي صامتة ، بينما كان اخوها (نيكليندوف) يتابع حركاتها وهو صامت .

ـ حسن يا (ديمتري) . لقد اخبرت بما تنويه . ـ قالت له بجرأة وقد صوبت نظراتها اليه .

ـ هذا من دواعي سروري .

ـ ولكن هل تتوقع إصلاحاً (لكاترين) بعد تلك الحياة القذرة الشاذة التي عاشتها ؟ ـ قالت (نتاليا) .

كان (نيكليندوف) ، وهو جالس على الكرسي منتصب القامة ، ولا يستند بظهره عليها ، ينظر إلى اخته مصغياً بكليته اليها بغية تفهم كلامها جيداً ، والاـابة عليه كذلك . وكان الاطمئنان الهادىء الرزين ، وذلك الحب المتناهي للجنس البشري كافة الذي بعثه في نفسه حديثه الاخير مع (كاترين) ما يزال حياً في جوانبه .

ـ انا لا انشد إصلاحا لها ، وإنما لنفسي . ـ أجاب الامير .

فصعدت اخته زفرة وقالت :

ـ اعتقد ان ثمة وسائل عديدة تصلح لذلك .

ـ انا أرى العكس ، وانه خير السبل ، لانه يصلني باناس قد اكون مفيداً لهم .

ـ أخشى ألا تكون سعيداً .
ـ لست أنشد سعادتي ...
ـ لقد فهمتك . ولكن حتى هي لن تشعر بالسعادة إذا كانت طاهرة القلب ، ولن ترضى .
ـ هذا ما حدث ، فالواقع انها لم ترض .
ـ ولكن الحياة...
ـ كيف ؟ الحياة .
ـ للحياة مطالب اخرى .

ـ ليس للحياة متطلبات غير تلك التي تنبع من القيـــام بالواجب . ـ أجاب (نيكلیندوف) وهو يحدق في وجه اخته الذي كان لا يزال جميلا على رغم التجاعيد الخفيفة التي بدأت ترتسم حول فمها وعينيها .
ـ لست أفهمك . ـ قالت (نتاليا) وهي تصعد زفرة .
ـ يا لها من أخت منكودة . ـ كان يقول في نفسه . ـ كيف استطاعوا تغييرها بهذا المقدار .

وعندما تذكر (نتاليا) التي عرفها قبل الزواج شعر بفيض من الحنان يغمر نفسه حنان حافل بذكريات الصبى .
وهنا جاء (ايغناسيونيكوفوروفيتش) مزهواً بنظاراته ولحيته السوداء وصلعته جاء منتصب القامـة منفوخ الصدر ، باسماً .
ـ أهلا وسهلا ، أهلا وسهلا . ـ قالها بلهجة تشتمل على شيء من السخرية .
ومع انهما كانا قد أصبحا بعد الزواج يتخاطبان بصيغة المفرد ، فقد عادا الآن للتخاطب بصيغـة الجمع .
فتصافحا بحرارة ، ثم جلس (ايغناسيو) بتكـاسل على أحـد المقاعد .
ـ أعتقد ان وجودي سوف لن يحـد من حرية أحد ...
ـ كلا . فأنا لا أخفي عن أحد شيئاً مما أفعله أو أقوله .

كان منظر وجهه ويديه ، والكلمات القليلة التي نطق بها بلهجة الدعاية كافية لتلاشي تلك الطمأنينة وذلك السرور من قلب (نيكليندوف) كمن أصيب بصاعقة .

ـ بلى ، كنا نتكلم عما اعتزمه . ـ قالت (نتاليا) ثم تنـــاولت ابريق الشاي وأضافت قائلة تسأل زوجها . ـ أتريد شاي ؟

ـ شكراً . وما الذي تعنينه ؟

ـ سفري إلى سيبيريا مع المساجين الذين ستكون بينهم تلك المرأة التي اعتبر نفسي مجرماً تجاهها . ـ قال الأمير .

ـ اظنني سمعت أن الأمر يتعدى مجرد المرافقة .

ـ أجل . وأن اتزوج منها متى وافقت على ذلك.

ـ آه . وهل بوسعك اطلاعي على الدوافع التي حملتك عليه .. ؟ لأنني لم أستطع تبينهـــا .

ـ الدوافع هي ان تلك المرأة ... ان اول خطوة خطتها في طريق الخطيئة ...

ـ قال (نيكليندوف) ولم يجد الكلمات المناسبة للتعبير عن أفكاره .ـ الدوافع ؟. لقد كنت المجرم وهي التي تقاصص .

ـ إذا كانت تلاقي القصاص فذلك دليل على انها ليست بريئة .

ـ بلى انها بريئة كل البراءة .

وبدأ يقص عليه ، وهو منفعل ، تطورات الدعوى .

ـ أفهم ذلك . هذا ناتج عن إهمال كبير من الرئيس ، وجواب من المحلفين غير مدروس . وهو خارج عن اختصاص محكمة التمييز .

ـ لقد رفضت الطلب .

ـ إذا كانت قد رفضته فذلك يعني ان الأسباب الموجبة غير كافيـــة . ـ قال (ايغناسيو نيكوفوروفيتش) .

ومعنى هذا انه كان يؤمن بأن الحقيقة وقف على مـداولات المحكمة .

ـ التمييز لا ينظر في أساس الدعوى ، وإذا كان ثمة خطأ قضائي فمن الضروري رفع استرحام لجلالة الامبراطور .

– لقد رفعنا هذا الاسترحام . ولكن امكانية نجاحه ضئيلة ، اذ انهم سيطلبون ايضاحاً من وزارة العدل ، وهذه بدورها من مجلس الشيوخ ، وهذا سيصدق قراره ، وستكون النتيجة معاقبة البريء كما يحدث دائماً .

– اولا . ان وزارة العدل سوف لا تطلب معلومات من مجلس الشيوخ . –

اجاب (ايغناسيو) وهو يبتسم ابتسامة اشفاق . – وانما سينظر في وقائع الدعوى كما اوردتها في المحكمة ، فيوافق او لا يوافق على قرارها بعد درس الدعوى طبقاً للقانون . ثانيا . لا يعاقب الأبرياء . واذا حدث شيء من هذا ، ونادراً ما يحدث ، فانه من قبيل الشواذ . اما اولئك الذين يمضون مدة العقوبة فذلك لأنهم يستحقونها .

كان (ايغناسيو) يتكلم بتؤدة مبتسما ابتسامة الظافر .

– اما انا فارى العكس . – قال (نيكلينيدوف) مؤكدا ، وقد استاء من صهره . – فانا مقتنع كل الاقتناع من ان ليس كل من تدنيهم المحاكم مجرمين .

– ماذا تعني بكلمة غير مجرمين .

– بالمعنى الصحيح للكلمة . أمثال تلك المرأة المتهمة بوضع السم ، وهي الآن تقضي مدة العقوبة ، وذلك القروي الذي تعرفت عليه منذ ايام قلائل ، والمتهم بجريمة قتل لم يرتكبها . وتلك المرأة المسكينة وولدها ، المتهمين بحرق منزل ، فسجنا بسببها عدة شهور في حين ظل المجرم الحقيقي وهو صاحب المحل ، يسرح ويمرح حراً طليقاً .

– حقا ، انه ليستحيل ، وسيظل كذلك ، تجنب بعض الأخطاء . ان عمل البشر لن يكون كاملا .

– هنالك اناس ارتكبوا اعمالا حسبوها غير محظورة ، لوجودهم في أوساط موبؤة ، ولكن المجتمع يحظرها ويعاقب عليها فهم والحالة هذه بنظري أبرياء .

– معذرة يا حبيبي . ان ما تقوله مغاير للمنطق . ان كل سارق يعلم ان السرقة محظورة ، لا يوجد قانون انساني لا يعاقب عليها . – قال (ايغناسيو) بمثل الهدوء والابتسامة اللذين اثارا ثائر (نيكلينيدوف) .

– كلا انه لا يعرف ذلك . عند ما ينهونه عن السرقة ثم يرى اسياده يتلاعبون

عليه في عمله ، وينقصون من اجره ثم يرى ايضا الحكومة ذاتها تسرقه باستمرار عن طريق موظفيها بشكل ضرائب ، وان ...

- هـــذه نظريات فوضوية بحتة يا حبيبي . - قال له (ايغناسيو) مقاطعا ، ومتوخيا ايضاح مغزى كلمات ابن حميه .

- اجهل ما هي . ولست افعل سوى تبيان الواقع . - قال (نيكليندوف) مواصلا . - هو يعلم ان الموظفين يسرقونه ، ويعلم اننا نحن كبار الملاكين ننعم بخيرات ارض للجميع عليها نفس الحقوق . ثم اذا التقط من الارض بعض أغصان الأشجار اليابسة ليشعل ناره فاننا نسجنه ونقنعه بأنه لص. هذا في حين يرى العكس ، يرى أن اللص سواه ، ذاك الذي اغتصبه قطعة الأرض التي تخصه . وان الواجب يقتضيه اعادة ما سرق منه لعائلته .

- لست افهم . او على الأقل لست من رأيك . ان الأرض لا يمكن الا ان تظل خاضعة للملكية الفردية . اذا وزعت اليوم . - قال (ايغناسيو) مواصلا كلامه مقتنعا بان (ديمتري) كان اشتراكيا فهو يريد اقناعه بكلمات موجزة يخطل رأيه . - اذا وزعت الأرض اليوم باجزاء متساوية فانها ستذهب لا محالة الى ايدي الأذكى والأكثر عملا .

- ومن قال انه يجب توزيعها باجزاء متساوية ؟ ان الارض لا ينبغي ان تكون ملكاً لأحد . ولا ينبغي ان تكون سلعة تباع وترهن .

- ان حق الملكية فطري في الطبيعة الانسانية . الغ هذا الحق فستجد ان ما من احد يرغب في حراثة الأرض . الغ هذا الحق فسترى اننا نعود الى حالة التوحش . - قال (ايغناسيو) ذلك بلهجة الآمر .

- انا أرى العكس . سيحدث فقط ان الارض سوف لن تظل قليلة الانتاج كما هي الآن .

- لا تتعب نفسك يا (ايفان) ان ما تقوله جنون . أمن الممكن القول الآن بالغاء حق ملكية الأرض ؟ انا اعلم انك كنت دائما تقول بهذا الرأي . ولكن

اسمح بأن احدثك بصراحة . . . وهنا شحب وجه (ايغناسيو) وارتعش صوته. كان في ذلك ما يثير انفعاله دون شك . . . اذا جازلي ان اسدي لك النصح ، فأني اقول لك فكر مرتين قبل ان تضع نظرياتك موضع التنفيذ .

ـ أتتكلم عن قضاياي الخاصة ؟

ـ اجل . اعتقد انه ينبغي علينا جميعنا ان نفي بمتطلبات المكانة الأجتماعية ، وانه يجب علينا ان نكيف سلوكنا بحب البيئة التي نعيش فيها . واننا اذا كنا قد ورثنا ثروة عن اسلافنا ، فواجبنا يقضي بأن نورثها لأبنائنا .

ـ اعتقد ان واجبي . . . .

ـ اسمح يا . . . قال (ايغناسيو) مقاطعاً ـ لست اقول ذلك .من اجل اولادي ، فأن رزقهم مضمون ، ودخلي يؤمن لي عيشة مريحة واظن ان اولادي سيكونون كذلك . ان اعتراضي على تصرفاتك غير المعقولة ، وسامحني على هذا التغيير ، لا ينبع من مصلحة خاصة ، وانما لأنني اعتنق مباديء معينة ، تحول دون تبيني آرائك . واذا جاز لي ان اقدم نصائح فأقول لك فكر مليا ، طالع ، وشاور .

ـ اسمح لي بأن احل قضاياي الخاصة بنفسي . وان اصنع ما اراه من مصلحتي . اجاب (نيكليندوف) .

ومضى يتناول الشاي دون ان يضيف حرف واحد ، وقد شحب لونه بادلاً جهده ليكظم غيطه ، وقد تثلجت يداه وقدماه .

-٢١-

اخذ (نيكليندوف) يستعلم من اخته عن ولديها ، بعد ثوان معدودات من تغلبه على ثورة نفسه ، فسرها انه يضع بذلك حدا لتقاشه مع زوجها ، واخبرته انهما ظلا عند جدتها ، واقبلت تشرح له كيف كانا يلعبان اثناء الرحلة تماما كما كان يلعب هو في صغره .

ـ الاتزالين تذكرين ذلك ؟ ـ قال لها ضاحكا .

ـ بالطبع . تصور انهما يفعلان ما كنت تفعله .

واذ رأت (نتاليا) ان النقاش قد انتهى . ولما كانت لاترغب في التحدث امام زوجها عن اشياء لايفهمها غير اخيها فقد اخذت تتحدث عن حادث بطرسبرج ، وعن شعور ام الفتى (كامينسكاجا) الذي ذهب ضحية المبارزة . فاستغل (ايغناسيو) تلك المناسبة ليقول انه ينبغي اعتبار القتل في المبارزة كالقتل العادي الذي يعاقب عليه القانون . غير ان (نيكليندوف) اعترض على ذلك فنشبت بينهما معركة كلامية حادة ، لم يقنع فيها احدهما الآخر .

كان (ايغناسيو) شديد الأسف لوقوف ابن حميه موقف المعارض لكل ما يجهد نفسه في تأييده ، ولذا كان راغباً في اقناعه بضعف تفكيره وآرائه كذلك كان (نيكليندوف لايستطيع الا ان يشعر بالأشياء عندما يرى ذلك الرجل المحدود الذكاء يتشبث بعناد في اعتباره عادلا ومنطقياً كل مايراه الأمير ضربا من جنون مطبق ، هذا عدا عن الحنق الذي كان يشعر به عندما يناقش صهره قراره في توزيع املاكه ذلك الحنق الذي كان يتضاعف لدى تفكيره ان (لأيغناسيو) واولاده بعض الحق في ميراثه . فيحز في نفسه ذلك النفاق .

ـ ماذا يجب ان تفعل المحكمة اذن ؟ ـ قال يسأله (نيكليندوف) .

ـ ينبغي ان تحكم على من يخرج حيا من المبارزة بالأشغال الشاقة ، تماما كما تحكم على القاتل في جريمة عادية .

ـ وهذا يسمى عملا ؟ . . .

ـ هو عمل عادل .

ـ اذن علينا ان نعترف بأن غاية المحكمة اقرار العدالة . . . قال الأمير .

ـ وما هي غايتها اذن ؟

ـ غايتها المحافظة على المصالح الطبقية في رأيي ان المحكمة انمـــا انشئت لتكون وسيلة مريحة لحماية اوضاع الطبقة الحاكمة .

ـ تلك فكرة جديدة كل الجدة . قال (ايغناسيو) ملاحظاً وهو يبتسم ابتسامته المعهودة . المتعارف عليه هو ان لوجود المحاكم مبررات اخرى .

هذا صحيح من الوجهة النظرية ، ولكنها ليست كذلكمن الوجهة العملية . هذا ما تأكد لدي . ان مهمة المحاكم هي المحافظة على المجتمع بوضعه الراهن . ومن هنـــا جاءت ملاحقتها ومعاقبتها لمن هم فوق المستوى العـــام ورغبوا في رفع المجتمع إلى مستواهم ، ولمـن كان دون هـذا المستوى .

ـ لا يعقل أن يعاقب قوم لأنهم فوق المستوى العام . هؤلاء هم زبـدة المجتمع . وفسادهم ، وان اختلف في بعض الحالات ، فليس أقـل من فساد المجرم الذي تضعـه تحت هذا المستوى .

ـ أؤكد لك انني أعرف أشخاصاً هم أسمى بكثير من القضاة الذين حاكموهم . أمثال اولئك المحكومين بقضايا دينية ...

ولكن صهره الذي كان من عادته الا يسمح بمقاطعتـه عندما يتكـلم ، اندفع في حديثه مثيراً بذلك حنق الامير .

ـ يستحيل التسليم بأن مهمة المحاكم هي المحافظة على الحالة الراهنة . ان مهمتها واضحة جلية فاما اصلاح ...

ـ يا له من إصلاح . الاصلاح عنطريق السجن .

ـ واما اقصاء هؤلاء الاشخاص الفاسدين ، الوحوش الحقيقية التي تهدد كيـــان المجتمع على الدوام .

ـ الواقع ان المحاكم لا تقوم بهذا الامر او بذاك ، وحتى لو حاولته فان المجتمع ليس لديه الوسائل الكافية .

ـ لست افهم . ـ قال (ايغناسيو) وهو يبتسم.

ـ اقول ان بين العقوبات المعقولة تماماً يوجد اثنتان وقد كانتا مستعملتين في قديم الايام أعني بها العقوبة الجسدية وعقوبة الاعدام . ولكن بفضل تطور العادات فقد ندر استعمالها .

ـ هذا شيء جديد ومن فمك شديد الغرابة .

ـ اجل . انا ادرك ذلك ويبدو لي معقولاً ان يعاقب جسدياً كل من يضر الناس

حتى يتذكر في المستقبل ما حل به من ألم فيمتنع عن تكرارها . كذلك افهم جيداً، واراه معقولاً أن يكون لمجتمع الحق في إعدام من يتفاقم خطره . هذان العقابان منطقيان . ولكن بماذا نصف سجننا لشخص أفسدته البطالة ورفاق السوء . في مثل هذه الحالة يزداد بطالة ، ويرافق من هو أشد سوءاً . فاما ان نثقل الميزانية العامة لان كل واحد من هؤلاء يكلف الدولة اكثر من خمسماية روبل ، وتنقله على حساب الخزينة العامة من (تولا) إلى محافظة (ايركوتسك) ومن هذه إلى ...

ـ ومع ذلك فان المجرمين الذين ينقلون على نفقة الدولة يتوجسون خيفة من هذه الرحلة . وإذا كنا نتحدث هنا مطمئنين فبفضل تلك الرحلات وتلك السجون .
ـ لا تضمن السجون الاطمئنان الدائم لان نزلاءها ليسوا سوى ضيوف عابرين ، وسيغادرونها عاجلا ام آجلا وينالون كامل حريتهم بعد ان يكونوا قد تمرسوا على الفساد ، وهكذا تأتي الغاية من هذه المؤسسة معكوسة ، ويتفاقم الخطر بدلاً من تلافيه .

ـ انت ترى انه ينبغي تحسين نظام السجون ؟
ـ ليس بالامكان بلوغ الغاية من تحسينها . لان السجن الكامل يكلف اكثر مما ينفق على التعليم . فضلاً عن كونه عار على الشعب .
ـ ان العيوب في نظام السجون لا يمكن بحال من الاحوال ، ان تكون سبباً كافياً لالغاء المؤسسات القضائية . ـ اجاب (ايغناسيو) محاولا محاصرة ابن حميه بالحجة المنطقية .

ـ انه عيب كياني لا يمكن إصلاحه . ـ اجاب (نيكلنيدوف) بصوت عال .
ـ إذن ما العمل ؟ أنحكم بالاعدام ؟ أنسمل العيون كما يرتأي بعض رجال الحكم المشهورين ؟

قال (ايغناسيو) ذلك وافترت شفتاه عن ابتسامة انتصار .
ـ سيكون في ذلك كثير من القسوة . ولكنه على الأقل يهدف لغاية ، في حين ان النظام الحالي قاس ولا يهدف لغاية .

ـ وعلى الرغم من كل هذا فأنا افهمه . ـ قال (ايغناسيو) وقد شحب وجهه .
ـ لقد رأيت اثناء المحاكمة مدعي عام يبذل قصارى جهده ليضمن الحكم بالسجن على فتى يستدعي الشفقة من كل من ليس فاسداً . وبلغني عن مدعي عام آخر كان يحاول تجريم رجل لتلاوته الانجيل على ملأ من الناس . وبصورة إجمالية فان اعمال المحاكم تكاد تكون كلها جائرة وقاسية ...
ـ لو فكرت كما تفكر اذن لما كنت في منصبي الحالي . اسرع (ايغناسيو) مجيبا وقد قفز من مقعده ، وتلمع شيء وراء زجاج نظاراته .
ـ أتبكي لهذا ؟ ـ سأله (نيكليندوف) .
كان يبكي حقاً . وكان بكاؤه للكرامة الجريحة . ودنا (ايغناسيو) من النافذة ورفع النظارات عن عينيه وشرع ينظفها وهو يسعل ثم مسح دموعه وجلس على المقعد الكبير واشعل لفافة تبغ ولم ينبث بعدها ببنت شفة .
فأدرك الخجل (نيكليندوف) امام هذا الصمت ، وبكته ضميره لأنه ادرك انه بكلماته تلك قد اهان صهره واخته ، فأسف لذلك خصوصاً لأنه سيسافر في اليوم التالي ، وسوف لن يكتب له اللقاء بهما الا بعد انقضاء مدة طويلة . وقـام فودع مشوش الأفكار مضطرب النفس وذهب الى منزله .
ـ ربما كنت قد أديت ما اتوخاه . . . كان يقول في نفسه وهو يسير في الشارع لم يجب (ايغناسيو) على كلماتي الأخيرة على الأقل . ولكن ما كان ينبغي لي ان اقول ما قلته . لقد تغيرت وما كان لي ان ادع نفسي تنساق مع شعور استياء حقير فسببت بذلك الغم لأختي المسكينة .

- ٢٢ -

كان موعد خروج قافلة المساجين في الساعة الثالثة بعد الظهر . وكانت (كاترين) احد افرادها .
كان الأمير يرغب في ان يراها عند خروجها من السجن ثم يتبعها في الشارع ، فرأى ان ينتظر عند باب السجن قبل حلول وقت الظهر .

وعندما كان يضع ثيابه واوراقه في الحقائب فتح سجل مذكراته اليومية وشرع يتلو بعض ما دون فيها.

كان منذ بداية حياته الجديدة قد اعتاد ان يسجل بعض ذكرياته من حين لآخر ، فيشعر بارتياح نفسي .

« لم تقبل (كاترين) تضحياتي ، وانما تضحياتها هي . لقد انتصرت . وكذلك انا انتصرت . »

كان قد كتب هذه الفقرة قبل ذهابه الى بطرسبرج .

« كم يسرني ما اراه من التيقظ الذي يراود روحها . لقد ولدت ولادة جديدة لتحيا حياة جديدة . . . ومع ذلك فانا لا ازال احاذر ان اصدق . »

ثم تأتي بعد ذلك ذقرة اخرى .

« لقد تألمت اليوم كثيراً ، وسررت ايضا سروراً كبيراً . لقد علمت ان (كاترين) قد طردت من المستشفى ، فتألمت الما ممضا .

وعندما تحدثت اليها بعدها شعرت بتقزز منها وكراهية لها لا تقاوم . ولكن سرعان ما تذكرت انني كنت في كل مرة اتهمها اشمئز في نفسي ، وتأخذني شفقة عليها . ما اجمل ان ترى دائما الخشبة في عيوننا . . . وما افضلنا عندئذ . »

واضاف ذلك الصباح فقرة جديدة .

« لقد اجتمعت (بنتاليا) . . . وربما كنت كثير الرضى عن نفسي ، وسيئا تجاهها ولكنني سأبدأ حياة ابتداء من غد . فاودع الى الابد سلوكي القديم . تجتاح نفسي موجة من الأنطباعات لا اقوى على تنسيقها لأن قوة لا ينالها ادرا كي تحول دون ذلك .

وعندما استفاق من نومه صبيحة اليوم التالي تذكر الأمير ما دار بينه وبين صهره من نقاش وشجار فاخذه الندم .

— يستحيل علي ان اغادر المدينة على هذه الصورة — كان يقول في نفسه . . . يجب ان اراهما وان اقدم ترضية لهما .

ولكن نظرة واحدة القاها على الساعة اقنعته بعدم استطاعته اضاعة الوقت ، اذا

كان حقا يرغب في الأنتظار اما باب السجن قبل ان تتحرك قافلة المساجين . فبادر الى ثيابه فارتداها مسرعا وانجز سائر استعداداته ثم استقل اول عربة صادفها ، وذهب الى السجن بعدان بعث « تاراس » زوج « فيدوسيا » الى المحطة .

كان القطار العادي الذي ينوي « نيكليندوف » السفر معه يغادر المحطة بعـــد خروج القطار الذي يحمل المساجين بساعتين وتجنباً للعودة إلى الفندق فقد سدد الأمير ما يطلب منه لصاحبه .

كان الحر خانقاً ، كعادته في شهر تموز . وكانت الحجارة المرصوفة في الشوارع ، وجدران المنازل ، والأسطحة الحديدية التي لم تتبرد بعد تلك الليلة القائظـة ، ترسل شواظاً من نار تتلظى .

كان الهواء ساكناً ، وإذا مرت نسمة ، فلفحة من نار خانقة تحمل في ثناياهـــا رائحة الغبار أو الدهـان . وكان المـارة قلة في الشوارع . وهؤلاء كانوا يبحثون عن بضعة من ظل يلتجئون اليها . ومع ذلك فقد كان عمال رصف الشوارع مكبـين على عملهم ، تلفحهم أشعة الشمس وهم ينهالون بمطارقهم على الحجارة التي كانت تنغرس في الرمل الملتهب . وكان رجال الشرطة ، وهم يرتدون قمصاناً فضفاضة وطويلة تحيط بها حمائل المسدس الصفراء ، يقفون منتصبين كالأصنام كالحي الوجوه غامضين كأن لا حياة بهم .

وكانت حافلات (الترام) التي لفحتها الشمس ، تمر بمشقة تجرها جياد بلا عزم ، تظلل رؤوسها مظلات لا تظهر منها سوى اذانها .

وعندما وصل (نيكليندوف) إلى السجن لم تكن القافلة قد بـــدأت تتحرك للخروج .

وكان الصخب والضجيج قد بدأ منذ الساعة الرابعة صباحاً داخل بناية السجن ، واحصاء وإعادة احصاء المساجين .

كانت القافلة تتكون من ستمائة وثلاثة وعشرين رجلا ، وأربعة وستين امرأة . وكان من الضروري التحقق من هوياتهم جميعاً ، ووضع لائحـــة بأسمائهم ، وفصل

المرضى عن الاصحاء ، والعهد باولئك للحرس المواكب لهم .

كان المدير الجديد ، ونائبه ، وأحد الموظفين ، ورئيس الحرس المرافق ، وأحد الكتبة جالسين حول طاولة في منتصف باحة السجن ، وكانت الشمس قد بدأت تلقي بأشعتها على تلك الطاولة . وكان الحر خانقاً يكاد لا يحتمل حتى عندما كان الظل يملأ الباحة ، لقلة الهواء وفساده بسبب كثرة اللهاث المنبعث من المساجين الذين كانوا يتقدمون من الطاولة فرادى فيجيبون على أسئلة عديدة وينطق كل باسمه .

ـ أليس من نهاية لهذه العملية ؟ ـ قال ضابط قوي البنية ضخم الجثة عريض المنكبين قصير الذراعين . ـ من لدن أي شيطان جاءوا بكل هذه المخلوقات؟ ألايزال كثيرون ؟

فسأل الكاتب عن ذلك فقيل له .

ـ لا يزال هناك أربعة وعشرون رجلا والنساء أيضاً .

ـ تقدموا . لماذا تقفون ؟ . صاح الضابط بالمساجين الذين لم يكونوا داخل الصف .

كانوا يقفون تحت وهج الشمس منذ ثلاث ساعات بانتظار أن يحين دورهم .

وكان يقف خارج بناية السجن حوالي عشرين عربة لنقل الضعاف منهم ، والثياب وبعض أمتعة الرحلة . كما يقف أيضاً حشد من أقارب المساجين وأصدقائهم الذين جاءوا لوداعهم أو لاعطائهم بعض ما يحتاجون اليه .

وكان (نيكليندوف) واقفاً بين هؤلاء ينتظر منذ أكثر من ساعة ، فرأى حركة السجانين تزداد تهافتا ، ويكثر الذهاب والاياب ، ثم بدأ يسمع صلصلة القيود والاغلال ، ووقع الاقدام ، وصوت سعال ، وصراخ قوي ، فعلم عندئذ ان القافلة قد انطلقت المسير .

وظل الصراخ قائما زهاء خمس دقائق . ثم ارتفع صوت جاف أمراً ففتح الباب على مصراعيه محدثا ضجة كبيرة . فوضح صوت صليل الحديد . وخرج الجنود إلى الشارع بثيابهم البيضاء شاهري السلاح ، وتحلقوا بنصف دائرة أمام الباب .

واعطي الأمر بالمسير ، فانطلق المساجين في الحال بطاقياتهم المسطحة على رؤوسهم المحلوقه وكان كل منهم يضع على اكتافه سترة يمسك بهـــا بأحدى يديه تاركا الأخرى مسدولة على جانبه ، وقدماه تجر القيد بجهد .

كان الرجال يسيرون في المقدمة ، مابين شاب وشيخ ، وبدين ، وهزيل ، وشاحب اللون ومحمره ، وصاحب لحية وذي شوارب ، وامـــرد ، وروس وتتري ويهودي والجميع بثياب السجون ، ويحملون كيسا على الأكتاف . خرج الجميع وقد ارتفعت جلبة الحديد ، ملوحين باليد الطليقة كمن يتهيأ لمسيرة طويلة . ثم وقفوا وانتظمو في صفوف من اربعة اشخاص يسير بعضهم في اعقاب بعض . وجاء على اثرهم المبعدون يمشون بلا قيود في الأرجل ولكن مغلولي الأيدي . واخيراً اولئك الذين يذهبون الى سيبيريا بملء ارادتهم .

وجاءالنساء على مثل ذلك النظلموفي طليعتهن المحكومات بالسجن بقمصانهن الرمادية وغطاء الرأس الأبيض ، ثم يتلوهـــن المنفيات ، وفي اعقابهن اللواتي يرافقهن بعض المساجين .

وكان يختبيء بينهن بعض الصبية من ذكور واناث كما تختبيء المهار الصغيرة بين امهاتها عندما تشعر بخطر مداهم . كان الرجال يمشون محافظين على النظام يسعل بعضهم احياناً ويتحدث البعض الأخر بين حين وحين . واما النسوة فقد كان اللغط متواصلا بين صفوفهن .

وظن (نيكليندوف) انه لمح (كاترين). ولكنه ما عتم ان اضاعها بين ذلك الحشد الحاشد حيث لم يكن يرى سوى كتلة رمادية اللون تتحرك ، دون ان يستطاع تمييز اي وجه بينها .

وعلى الرغم من إحصائهم لهم داخل السجن فقد كان لابد من اعادة احصائهم مرة ثانية في العراء . غير ان هذه العملية كانت غير ذات نهاية لأن المساجين كانوا ينتقلون من مكان لآخر بحسب الموافقه ، وعندئذ كان يضطرب الأمر على الجنود فيوسعونهم شتما وسبابا ، ثم يعيدون العملية من جديد .

وكان ان تمت العملية بمشيئة الله، فاصدر آمر الحرس المواكب امره فعمت الفوضى فترة من الزمن ، وتقدم الرجال الضعاف والمرضى واالسناء والصبية من العربات حيث وضعوا اكياسهم فيها ثم صعدوا اليها . وكان سرور الصبية وهم يتنازعون الاماكن يتناقض وحزن وتجهم وجوه الرجال . وكان بعض هؤلاء ينزع قبعته عن رأسه ويتقدم من الضابط يتحدث اليه .

وقد علم (نيكليندوف) فيما بعد انهم كانوا يطلبون منه ان يسمح لهم بركوب العربات . ولكن الضابط كان يظل صامتا وهو يحــــدق بمحدثه دون ان يكف عن التدخين . وفي احدى المرات هم بحركة كمن يريد ان يصفع ولكن محدثه اندس بين الصفوف تفاديا لتلك المداعبة .

ومع ذلك فقد استطاع عجوز مقوس الظهر الحصول على امر بركوب العربة فرأى (نيكليندوف) كيف نزع الرجل قبعته عن رأسه ، وكيف رسم الصليب على صدره مراراً ثم كيف تقدم من احدى العربات . وعاقه القيد عن الصعود اليها فأعانته عليه امرأة كانت داخل العربة ، بأن مدت له يدها .

واذ اصبح كل من يحمل اذنا داخل العربات . كشف الضابط رأسه ،ومسح العرق المتصبب عن جبينه وعنقه ثم رسم الصليب على صدره وصاح :

ــ الى الامام :

فوضع الجنود البنادق على اكتافهم ، وبعضهم صلّب على صــدره ، وصاح بعض الاقارب بعض الكلام اجابهم المساجين بمثلها . وارتفع ضجيج حــــاد بين جمهور من النساء ، وتحركت القافلة تسير تحت غمامة من الغبار اثارتهُ الاقـــدام التي تجر القيود . كان رتـــل من الجنود يسير في المقدمة يتلوه الرجال فالنساء فالعربات ، حيث كان ينبعث من احداها شهيق بكاء امرأة ملفوفة ببعض الاسمال ، يعلو حادا متواصلا هستيريا.

- ٢٣ -

كانت القافلة طويلة بحيث غابت الصفوف الاولى عن الانتظار قبل ان تتحرك العربات من مكانها . وعندئذ صعد الامير الى عربته وطلب الحوذي ان يتقدم القافلة كان يود ان يرى بين تلك الكتل البشرية بعض الوجوه التي يعرفها ، وبصورة خاصة كان يرغب في ان يرى (كاترين) كي يسألها اذا كانت قد استلمت الثياب التي بعث بها اليها .

كان الحر يزداد حدة ويصبح غير محتمل . وكان الهواء ساكناً ، والغبار الذي تثيره الأقدام يبدو وكأنه صادر عن حرائق . وكان المساجين يمشون في منتصف الشارع بحيث استحال على عربة الامير ان تتقدم القافلة . كانت تلك الصفوف البشرية الكالحة الوجوه التي تنقل أقدامها بشكل رتيب ، وتحتذي أحذية متشابهة ، وتلوح بأيديها الطليقة كأنها تشجع ذاتها ، كان هؤلاء من الكثرة والتشابه بحيث أن (نيكليندوف) كان أكثر من غيره ، يحسبهم بقايا الاساطير .

وسرعان ما تلاشى ذلك الانطباع من نفسه عندما عرف بين المساجين وجه (فيدوروف) ، وبين المبعدين وجه (شوتين) وغيرهم ممن التمسوا مساعدته . وكان أكثرهم ينظرون إلى العربة وإلى من يجلس داخلها متتبعاً خطواتهم . وعرفه كل من (فيدوروف) و (شوتين) على الفور . فحياه الاول باحناء رأسه . والثاني بغمز عينه . ولكنهما كانا يحاولان اخفاءها لظنهما بأنها محظورة .

ورأى (نيكليندوف) (كاترين) ، وكانت في الصف الثاني . كانت الاولى فيه فتاة دميمة الخلقة سوداء العينين ، قصيرة الساقين . وكانت الثانية (الجميلة) . والثالثة كانت (ماسلوفا) وهي تحمل الكيس على كتفها ، ناظرة نظرات هادئة مطمئنة ثابتة في الفضاء وكانت الاخيرة امرأة جميلة ترتدي (بلوزة) قصيرة ، وتغطي رأسها بغطاء على نسق النساء المتزوجات وكانت تلك (فيدوسيا) .

فترجل (نيكليندوف) من العربة ، وتقدم من النسوة . كان يرغب في سؤال (كاتوين) عما إذا كانت قد استلمت الاغراض التي ارسلها لها ، وإذا كانت تحتاج لشيء آخر . ولكن أحد الحراس أسرع اليه وقال له :

– ممنوع الاقتراب من المساجين يا سيد.

ولكنه عندما عرف الامير ، وكانوا جميعهم يعرفونه ، أدى له التحية العسكرية ، وأضاف :

– يستحيل ذلك الآن . انتظر ريثما نبلغ المحطة . هيه . وانت . سنرى إذا كنت تمشي . – قال لاحد المتخلفين .

ثم أسرع عائداً إلى مكانه رغم الحر الشديد ، وهو يطأ الارض بقوة بحذائه الجديد الرائع .

وطلب الامير من الحوذي ان يظل على مقربة من القافلة التي كانت تثير عند الاهلين الفضول الممزوج بالمرثية والذعر . وكان راكبوا العربات يتطاولون بأعناقهم ويتبعونها بأنظارهم ما استطاعوا . والمشاة يقفون ليشاهدوا تلك الصفوف التي توحي الذعر . وبعضهم كان يلقي اليهم بدراهم على سبيل الاحسان فيلتقطها الجنود . كما كان منهم من يستهويه المشهد ، فيرافقهم بعض الوقت ثم يقف وهو يهز رأسه ويشيعهم بنظراته . كذلك كان الجيران يتنادون فيطلون من النوافذ والابواب ليروا اولئك التعساء .

وعند بعض الازقة الضيقة حال الركب بين عربة فخمة وعبور الشارع . كان الحوذي البدين الحسن التغذية جالساً في مقعده مولياً ظهره لاسياده . وكانت العربة تقل عائلة مؤلفة من رجل يرتدي ثياباً فاتحة اللون ويضع على رأسه قبعة طويلة . وسيدة على رأسها قبعة من القش الابيض ، وفتاة جميلة ، وصبي في نحو الثامنة من عمره شاحب اللون مريض السمات .

كان السيد يعنف الحوذي لانه لم يتقدم القافلة قبل ان تسد عليه السبيل . وكانت

السيدة متقلصة عضلات الوجه وعلى فمها لمزة ازدراء ، وتكاد مظلتها تكون لاصقة بوجهها وقاية له من الشمس والغبار . كان السائق يصغي لتعنيف سيده له بغيظ مكبوت . وكان الشرطي على استعداد للنزول عند رغبة السيد راكب العربةفيوقف الركب فترة وجيزة ليمر . غير ان ذلك المشهد كان من الجلال الحزين بحيث لم يكن أحد يجرؤ على إيقافها حتى ولو كان إرضاء لذلك السيد الواسع الثراء . وهكذا وهكذا اكتفى الشرطي بأن رفع يده إلى طاقيته ليدلل على تقديره للثراء ، في حين كانت القسوة تتجلى في نظراته إلى المساجين ، كأنه بذلك يعد السادة مستقلي العربة بحمايته لهم من اولئك السفلة .

ورأى الثري نفسه مرغماً على الانتظار حتى مرت العربة التي كانت تحمل المرأة الهستيرية ، التي عادت إلى الصياح والبكاء بعد أن سكنت أعصابها فترة قصيرة . وعندئذ أرخى الحودي لجياده العنان فراحت تنهب الارض الموصوفة نهباً ، حاملة اولئك السادة إلى مزرعة قريبة طلباً للاستجمام .

ولم ير الاب ولا الام من المناسب أن يشرحا للاولاد مغزى ما شاهدوه.وهكذا كان عليهم أن يفسروه لانفسهم بما يعن لهم .

وإذا حكمنا عليها بناء على حركات الام ، فبوسعنا ان نقول ان الابنة كانت ترى اولئك يختلفون عنها ، ومن طبقة غير طبقتها ، وربما رأتهم اشراراً ، وانهم في معاملتهم لهم معاملة قاسية قد احسنوا صنعا ، ولهذا شعرت برعب عندما رأتهم ، وتنفست الصعداء عندما توارب القافلة عن الانظار .

وفسرها الصبي بصورة مناقضة تماما . كان الله قد اوحى له ، دون شك ، ان اولئك الاشخاص هم اشباه له ولغيره من المخلوقات وان بعض الناس قد وضعهم في هذه الوضعية وهو يعاملهم بما يستحقون . وكان يرعبه تفكيره بأولئك المحلوقي الرؤوس ويرعبه اكثر فأكثر علمه بوجود اناس خليقين بارتكاب مثل هذه المنكرات. وكان يحس بتورم عينيه ، ولكنه كان يغالب البكاء لانه كان يرى فيه ما يزري بحقه في مثل ذلك الظرف .

- ٢٤ -

كان الامير يتبع القافلة مسرعا سعيا على الاقدام . وعلى رغم كونــــه يرتدي ثيابا صيفية يعلوها معطف يشفاف ، فقد كان الجو الخانق شديد الازعاج له ، وكأنما كان يلفحه بشواظ من نار .

وبعد أن قطع ما يقرب من نصف ميل على هذه الصورة عاد فاستقل العربة وتقدم القافلة . وكان الحر يزداد من حين لآخر حدة ... فتذكر (نيكليندوف) ما كان من شأن الحديث الذي دار بينه وبين صهره وكيف انقلب مشادة حاميــة فلم يكن أسفه لذلك من الحدة كما كان عند الصباح ، فقد طغت عليه إحساسات اخرى كمسيرة قافلة المساجين ، والسير تحت الاشعة المحرقة والحر اللاهب .

وكان طالبان يقفان جنب الحائط يستظلان ظل شجرة ، عند بائع عصير الليمون ، واحدهما يجرع كأسه ، بينما كان الثاني ينتظر البائع ليملي له الكأس من تلك العصارة الصفراء . فقال الامير يسأل الحوذي وقد أحس بحاجته للابتراد .

– أين اجد ما ابترد به ؟

– إذالم يكن ثمة ما يمنع فبوسع سموك الدخول إلى هذه الحانة التي هنا . – اجاب الحوذي ثم ذهب به إلى باب كبير تعلوه لوحة كبيرة .

كان ثمة خادم بدين يرتدي قميصاً ورداياً ، يجلس على مقعد وهو يتحدث مع زملائه الذين كانوا يلبسون قمصاناً ربما كانت في احد اطوار حياتها بيضاء . وعنـــدما شاهد هؤلاء الزائر الممتاز عرضوا عليـــه خدماتهم ، فطلب منهم ماء (سلتز) وجلس إلى طاولة عليها غطاء أسود قذر ، وكان يجلس إلى طاولة اخرى ، حيث كان يوجد جهاز الشاي وزجاجة بيضاء ، رجلان وهما يمسحان عرقهما ويتحدثان بهـدوء . كان أحدهمـا وهو اصلع الرأس ، والبقية الباقية من شعر رأسه ، يشبه(ايغناسيونيكوفوروفيتش) فتذكر الامير من جديد المناقشة الحادة التي دارت بينه وبين صهره الليلة الماضية .

– لا يمكنني ان اواجهه ولكني سأعتذر بتحرير . – قال في نفسه .

ثم طلب دواة وورقاً ليكتب له تحريراً وأخذ يرتشف الماء البارد الفوار . ولكن تعذرت عليه الكتابة لاضطراب أفكاره .

« حبيبتي (نتاليا) . انه ليستحيل على ان اسافر وانا احمل في داخلي الانطباع المؤلم الذي خلفته مناقشتي امس مع (ايغناسيو نيكوفوروفيتش) ...
– وماذا بعد ذلك ؟ ... هل يجب ان اطلب السماح يا ترى ؟ .. لم افه إلا بما اؤمن به . فاذا طلبت سماحه فسيظن انني نادم على ما قلت . وفضلا عن ذلك بأي حق يتدخل بقضاياي الخاصة ؟ .. كلا . كلا . هذا مستحيل .
وعاودته كراهيته لذلك الرجل المفتون بنفسه ، فأخفى ما كتبه في جيبه ، ودفع ما عليه لصاحب الحانة وخرج مسرعاً ليلحق بالقافلة .

كان الحر ما زال يزداد حدة . وكأنما كانت الحجارة المرصوفة في الشوارع وواجهات البيوت تقذف اللهب . وعندما وطأت قدمه سلم العربة شعر بحرارة لا تطاق كما أرغمته الحرارة على ان يرفع يده عن ستار الدولاب اللماع عندما اسند يده عليه إذ كادت تحترق . كان الجواد يخب على الطريق التربة غير المستوية بخطى متعبة مترددة . والحوذي يكاد يكون نائماً . وكان (نيكليندوف) ، وهو جالس داخل العربة ونظره شارد في الفضاء ، يرى نفسه عاجزاً عن إبداء اية رغبة .

وشاهد جمهوراً من الناس مجتمعين عند ملتقى بعض الشوارع ، أمام باب كبير ، ويقف على مقربة منهم جندي شاهراً سلاحه . فطلب (نيكليندوف) إلى الحوذي ان يقف ثم سأل بعض المارة قائلا :
– ماذا حدث ؟
– لقد حدث حادث لاحد المساجين . – اجاب ذاك .
فترجل (نيكليندوف) من العربة ودنا منهم .

كان ثمة رجل ملقى على رصيف الشارع يرتدي ثياب المساجين منكس الرأس ، قوي البنية متوسط العمر ، احمر اللحية مستدق الانف ، محتقن الوجه . وكان من وقت لآخر يأخذه فواق رتيب يهتز له صدره العالي القوي بعنف . بينما كانت غيناه

الجامدتان الخاليتان على اي تعبير ، المحمرتان كأنما حقنتا بالدم ، تبدوان وكأنهما تحدقان في قبة السماء اللاهبة . وكان إلى جانبه حارس مقرون الحاجبين غامض وفتى مراهق ، وساعي بريد ، ومستخدم ، وامرأة عجوز ، وصبي يحمل سلة فارغة ، وهم يتحدثون تعليقاً على الحادث .

– ينهك السجن أجسامهم ، وبالرغم من حالتهم الصحية المريضة ، فانهم يرغمونهم على المشي في مثل هذا اللهيب . – قال المستخدم موجهاً الكلام للامير .

– هو يحتضر . – قالت العجوز بصوت مرتعش .

– حل له ازرار قميصه . – أشار بذلك ساعي البريد .

فشرع الحارس يفك ازرار قميصه بيده الثخينة المرتجفة كاشفاً عن رقبته المحتقنة وأوردته المتضخمة الملأى بالدم . كان متأثراً ومضطرباً ، فراى من واجبه ان يصيح .

– ماذا تصنعون هنا ؟ الا ترون ان الحر شديد ، وانكم تمنعون الهواء عنه ؟

– كان يجب ان يفحصهم الطبيب ، فلا يسمح للمرضى منهم بالذهاب إلى المحطة سيراً على الاقدام . لقد كان هذا مريضاً منذ ايام ومع ذلك أرغموه على الذهاب ماشياً . – قال المستخدم ليظهر معرفته بالاوامر المعطاة .

فالتفت الحارس يميناً وشمالا ثم قال :

– هيه . اذهبوا من هنا . لا عمل لكم عندنا .

ثم التفت إلى (نيكليندوف) منتظراً موافقته ، ولكنه رأى ان هذا ظل جامداً فتحول إلى الجندي فاذا به ينظر إلى كعب حذائه غير مبال .

وكان الاهلون يعلقون على الحادث بتعليقات ليست في صالح موظفي الدولة .

– انهم لا يفكرون في شيء . كأنه من الجائز قتل الناس بمثل هذه الطريقة .

– إذا كان محكوماً عليه بالسجن ، فهل يحول ذلك دون ان يظل إنساناً .

– ارفعوا له رأسه ، واسقوه ماء . – قال لهم (نيكليندوف) .

– لقد ذهبوا ليحضروا له ماء . – أجاب الحارس .

ثم أمسك المسكين من تحت إبطيه ، ونقله من مكانه ووضعه في مكان آخر بحيث اصبح رأسه أعلى من ذي قبل .

وفجاة سمع صوت قوي يقول بلهجة آمرة .

ـ ما يصنع كل هؤلاء هنا ؟

كان صاحب الصوت رئيساً للحرس ، وكان يرتدي بزة جديدة وحذاء لماعاً .

ـ اذهبوا من هنا ، ماذا تصنعون ؟ ـ عاد يقول قبل ان يعلم السبب في هذا التجمع . ولكنه عندما شاهد السجين ممدداً على الارض وهو يحتضر ، هز رأسه كمن كان يتوقع ذلك .

ـ ماذا حدث ؟ ـ قال يسأل الحارس .

فأخبره هذا بايجاز عن الحادث .

ـ احضروا عربة تنقله الى الموقع .

ـ لقد ذهبوا بطلبها . ـ قال الحارس مؤدياالتحية العسكرية فتجرأ المستخدم معلقا واشار الى شدة الحر .

ـ وماذا يعنيك انت من هذا ؟ اذهب في طريقك . ـ قال رئيس الحرس وقد حدجه بنظرة قاسية ، اسكتته عن الجواب.

ـ اسقوه ماء . ـ قال (نيكليندوف) بدوره .

فنظر اليه الرئيس شزرا ولم يجبه . ولكن عندما جاؤا بالماء امرهم ان يسقوه منها. فرفع له الحارس رأسه وأدنى الكأس من شفتيه ، غيران المنكود الطالع لم يقو على بلعة فتبللت ذقنه وقميصه الذي يعلوه الغبار .

ـ صب له الماء على رأسه . ـ قال لهم رئيس الحرس ففعلوا ما امرهم به .

فأجال المريض محجريه ، ولكنه لم يتغير من وضعيته شيء وكان الماء يجري على وجهه دون ان تبلغ حلقه قطرة منه واستبد به تشنج عنيف .

ـ هل جاءت العربة ؟ ـ قال الرئيس يسأل مرؤسيه . ـ خذ هذه . ـ واشار الى عربة (نيكليندوف) .

فأجابه الحوذي باستياء . ـ ان عربتي مأجورة .
ـ انهامأجورةلي. ـ قـــال الأمير ـ ولكني اسمح باستعمالها وانا ادفع اجرتها .
ـ عجل . عجل .
فنقل الحراس المحتضر الى العربة محاولين اجلاسه فيها . ولكنه لم يكن يتمالك نفسه ، وكان رأسه يسقط طورا الى اليمين وآخر الى الشمال ، ثم الى الوراء والى الأمام ، بينما كان جسمه ينزلق .
فأمرهم الرئيس بان يضعوه ممددا .
ـ سآخذه هكذا . ـ اجاب الحارس ثم جلس بجانب السجين واحاطه بذراعه ، بينما كان الجندي يدخل ساقيه في العربة .

فتناول الرئيس طاقية السجين والبسه اياها ، وامر الحوذي بالذهاب ، فأتجه هذا على غير رغبته شطر الموقع . كان رأس المحتضر يتأرجح ذات اليمين وذات الشمال ، وجسمه ينتفض بين ايدي الحارس والجندي اللذين كانا يبذلان جهدا جبارآلتهدأته . ومشى الامير في اعقاب العربة .

ـ ٢٥ ـ

عندما بلغت العربة موقع الشرطة اوقف الحوذي الجياد أمام باب الباحة الكبيرة حيث كان عدد من رجال الأطفائية يغسلون بعض العربات مشمري السواعد ، وهم يتحدثون بصوت عـــال ، ويتضاحكون . ولكنهم عندما رأوا العربة التفوا حولها، واخرج اثنان منهم المريض الذي كان قد اضبح جثة هامدة . فخلع احدهم قبعته عن رأسه ورسم الصليبعلى صدره ، وهو راكع .

فصعدوا بالجثة الى الطابق الأول ، ودخل الأمير وكان يتبعه ، الى غرفة قذرة ، ذات شكل زري ، حيث كان يوجد اربعة اسرة . كان في احدهما رجلمسلول، وفي الثاني جريح مائل الفم معصوب العنق . فوضعوا الجثمان على السرير الثالث ، فأسرع اليه رجل قصير القامة ، متوقد النظرات ، لايفتأ يحرك حاجبيه ، وليس عليه من الثياب

سوى القميص الداخلي والسروال ، وعاري القدمين الا من الجوارب ،وتقدم من السرير مسرعاً ونظر الى الميت ثم الى (نيكليندوف)ثم اطلق قهقهة مدوية . .

ـ آه . آه . يجتهد كي يفزعني ولكنه لا يستطيع . ـ قال ـ اؤكد لك انه لا يستطيع .

كان هذا احد المجانين ، معتقلا هناك .

ودخل الحارس يرافقه الطبيب المتمرن الغرفة بعد دخول (نيكليندوف) اليها ، فتقدم الطبيب من الجثمان ، وامسك بيده التي مـــا زال بالوسع تحريكها ، ولكنها اصبحت باردة تعلوها صفرة الموت . وظل يتحسسها فترة من الوقت ثم تركها تسقط على بطنه .

ـ لقد انتهى كل شيء . ـ قال الطبيب المتمرن وهو بين رأسه ولكي يزداد تيقنا وعملا بمنطوق القانون ، حـــل ازرار القميص القذر المبتل بالماء ووضع اذنه على صدره العالي المصفر من الحياة .

ورفع الطبيب رأسه بعـــد صمت قليل ولمس جفن احدى عينيه ، ثم جفن الثانية اللتين كانتا مفتوحتين وجامدتين .

ـ اكرر القول انه لن يفزعني . ـ قال المجنون موجها كلامه للطبيب المتمرن .

ـ ما ترى ؟ . . .ـ قال رئيس الحرس .

ـ باستطاعتكم نقله الى مستودع الموت . ـ اجابه الطبيب .

ـ دقق جيداً هل انت واثق من موته ؟

ـ انا واثق كل الثقة . ـ اجاب الطبيب ـ ولكن اذا كنت ترى ضرورياً ان تبعث بطلب (ماتيوايفانوفيتش) فسيؤكد لك ما قلته انا .

ـ خذوا الجثمان الى مستودع الموتى . ـ امر الرئيس ـ وانت ـ قـــال موجهاً الخطاب للجندي الذي لم يفارق الجثمان . ـ اذهب الى المكتب لتوقع هناك .

فخرج الجندي من الغرفة ، في حين حمل الحرس الجثة ، وصعدوا بها الى الطابق العلوي . وكان (نيكليندوف) يهم باللحاق بهم لولا ان استوقفه المجنون .

صحيح انك لست موافقاً لهؤلاء ؟ ـ قال يسأله ـ اعطني لفافة تبغ .

فأعطاه (نيكليندوف) ما طلب ، فزوى المجنون ما بين عينيه وشرع يتذمر من ايذائهم المستمر له .

كلهم ضدي . وكلهم يعذبوني بالصلوات ...

غير ان الأمير لم يكن لديه وقت يضيعه بالاصغاء اليه فقاطعه قائلا له عفوا . ثم خرج مسرعاً ليرى إلى اين حملوا الجثمان .

كان الحرس قد اجتازوا باحة الدار ، ودخلوا الى احدى الحجرات ، فأحب ان يلحق بهم غير ان الرئيس اوقفه عند عتبة الباب وسأله قائلا : ماذا تريد ؟

ـ لاشيء .

ـ اذا كنت لا تريد شيئاً فامض في طريقك .

فعاد (نيكليندوف) الى العربة ، وايقظ الحوذي الذي كان قد ادركته سنة من النوم وامره ان يذهب به الى المحطة . غير انه لم يكد يبتعد به بضع خطوات حتى التقى بعجلة يرافقها جندي من جنود حرس القافلة ، تحمل جثة سجين ميت ، ذي لحية سوداء وتكاد طاقيته تغطي وجهه اذ تبلغ انفه ، وكان رأسه المحلوق يتنزى عند كل اخدود يصادف العربة ، فيصطدم بجدارهـــا الخشبي . كان يقود العربة رجل يحتذي حذاء طويلا يرافقه احد الحراس . هؤلاء كانوا كل مشيعي تلك الجنازه .

فلمس (نيكليندوف) كتف الحوذي وساله قائلا :

ـ ما شأن هؤلاء؟

فأوقف الجواد ، وترجل (نيكليندوف) من العربة ولحق بالعجلة ، ودخل الى باحة القسم من جديد . كان رجال الأطفاء قـــد فرغوا من تنظيف العربات . وجاء الرئيس وكان طويل القامة هزيلا بادي العظام ، يتفحص بامعان جواداً جميلًا يظلع من احدى قوائمه الأمامية ، ويعنف الطبيب البيطري الذي كان واقفاًبجانبه ، ملقياً على عاتقه مسؤولية مايشكو منه الجواد . كان رئيس الحرس ما زال في باحة القسم فتقدم من العجلة عندما علم انها تحمل ميتا جديداً ، وهو يهز رأسه باستياء .

ـ اين وجدتموه؟
ـ وجدناه في شارع (ستاروغورباتوفسكاجا) .
ـ هل هو سجين ؟ ـ قال رئيس مصلحة الأطفاء يسال .
ـ بلى يا سيد .
ـ هذا هو الثاني لهذا اليوم . ـ قال رئيس الحرس .

حبذا العمل ، وحبذا العاملون . ـ قـــال رئيس فرقة الأطفاء . ثم التفت لأحد مرؤسيه وقـــال له . خذه الى غرفة الزاوية وانت ايها البليد ، سأعلمك كيف تجرح جواداً هو اغلى منك . يا فظ ، يا حيوان . ـ قال وقد تحول نحو البيطري .

واخرجوا الميت من العجلة وذهبوا به الى الطابق الأول ، فتبعه (نيكليندوف) و كأنما كان يرزح تحت وطأة كابوس مزعج .

ـ ماذا تريد ؟ . ـ قال احد الحراس يسأله .

ولكن الأمير ظل مواصلا طريقه وراء الجثة دون أن يجيب بشيء .

كان المجنون جالسا على احد الأسرة يدخن بنهم اللفافة التي كان الأمير قد اعطاه اياها ، فهب لاستقباله مدهوشا وقال له

ـ آه . لقد عدت من جديد .

وعندما رأى الميت تقلصت عضلات وجهه بلهزة استخفاف .

ـ ميت آخر؟ ... هذا كثير ... باللذة . ـ ثم قهقه ضاحكا ضحكة صاخبة .

لم يكن (نيكليندوف) يصغي اليه ، وانمـــا كان يحدق نظره في تلك الجثة التي كشف احـــد الحراس عن وجهها فبانت تقاطيعه الدقيقة واجزاء جسمه المتناسقة . كان في ريعان قوته ، جميلا ، بمقدار ما كان الميت الأول مرعباً . وعلى الرغم مما كان رأسه المحلوق يشوه من خلقته ، فقد كان جبينه الواسع فوق تينك العينين السوداوين الخاليتين من الحياة ، وذلك الأنف المستقيم فوق ذينك الشاربين الاسودين الدقيقين ، وتينك الشفتين الصفراوين اللتين لا تزالان تنفرجان عن ابتسامة ، واللحية التي تحيط بذلك الوجه ، كل ذلك ينطق بما كان عليه من الجمال الناعم، وينضح بسكينة الايمان .

لم تكن تعابير وجهه هي الناطق الوحيد بأن قسوة البشر قد اطفأت حياة زاهية مزدهرة بعقلية منتجة فعالة ، وانما تناسق يديه ورجليه اللتين يجمع بينهما القيد ، وسائر اعضائه تظهران انموذجا بشريا جميلا قويا وبارعاً يموت بموته . وهو ، كحيوان، اسمى بكثير من الجواد الذي كان رئيس مصلحة الاطفاء معنياً به . وقد قتلوه بلا مبالاة فلم يبكه أحد كإنسان أو حيوان صالح لعمل مثمر ، فذهب لم يفد من موته أحد . . ولم يحرك أي إحساس بين اولئك القوم اللهم إلا الخوف من تعفن ذلك الجسم إذا لم يدفن .

وجاء الطبيب المتمرن ورئيس الأطباء وكان قوي البنية يرتدي سترة من الحرير وسروالا ضيقاً وضابط شرطة بدين منفوخ الوجه كالطابة وقد تعود أن يملأ فمه بالهواء ثم يعود فينفثه بصورة تدريجية . فجلس الرئيس على السرير وأمسك يد المتوفي واستمع إلى دقات القلب ثم قال . لا فائدة ترجى من أي شيء . وتمطى بساقيه وقال :

ـ لا شك في موته .

فالتفت ضابط الشرطة إلى الجندي وهو ينفث الهواء تدريجياً وسأله ، إلى أي سجن ينتمي .

فأخبره عن سجنه وقال له ان القيد ما يزال في رجلي الميت .

ـ سآمر بفك القيد من رجليه . ـ قال الضابط وقد نفث نفثة قوية من الهواء ثم خرج من الغرفة.

فتقدم الامير من رئيس الأطباء وسأله ·

ـ ماذا حدث؟

فنظر اليه الطبيب من وراء نظاراته وقال :

ـ ماذا حدث ؟ انهم يموتون من وقدة القيظ ، لانهم يحتفظون بهم بلا عمل أو حركة طوال مدة الشتاء ، ويحرمونهم من النور ، ثم يخرجون بهم في يوم قائظ كهذا على غير تهيء أو استعداد ، ولذا يموتون .

ـ ولماذا يرغمونهم على الذهاب سيراً على الاقدام في مثل هذا اليوم ؟
ـ اسأل هذا السؤال من يعلم لماذا ... ولكن ... من أنت ؟
ـ أنا أحد المدنيين .
ـ آه صحيح ؟ إذن أنا ذاهب لعملي إذ ليس لدي وقت أضيعـــه معك .. قال الطبيب ثم مشى نحو الأسرة التي كان عليها المرضى ، وقد شد سرواله إلى أعلى . ـ كيف حالك ؟ ـ قال يسأل ذا الفم الملتوي والعنق المعصوب .
وكان المجنون ، وهو جالس على السرير بعد أن فرغ من تدخين اللفافة ، يبصق باستمرار باتجاه الناحية التي كان الطبيب فيها.
فهبط (نيكليندوف) إلى فناء الدار ماراً من أمام الجياد والخفير ، ثم استقل العربة بعد أن أيقظ الحوذي الذي كان نائماً ، فنقله إلى محطة السكة الحديدية .

- ٢٦ -

كان مساجين القافلة قد أصبحوا ضمن عربات القطار التي كانت نوافذها مغلقة بحواجز حديدية عندما بلغ (نيكليندوف) المحطة . وكان على الرصيف أناس كثيرون من الاقارب والاصدقاء الذين جاءوا لوداع أقاربهم وأصدقائهم . ولإلقاء نظرة أخيرة عليهم إلا أنه لم يكن يسمح لاحد منهم بالدنو من العربات .
كان قد أصيب ثلاثة من المساجين بضربة الشمس غير الاثنـــين اللذين رآهمـــا (نيكليندوف) نقل آخرهم إلى القسم ، ووضع الآخران في إحدى غرف المحطة . وقد أقلق ذلك بال الجنود ، لا لأن خمسة ممن كانوا تحت حراستهم قد ماتوا ، الأمر الذي كان غير ذي أهمية في نظرهم ، وإنما لأن الاجراءات القانونية المقتضاة في مثل هذه الحالات تسبب لهم الازعاج كتسليم الجثمان في المكان المختص ، والمحافظة الوقتية على اشيائه . وحذف اسمه من سجل الذين سينقلون إلى (نيجني) حيث تنتهي مهمتهم في المحافظة عليهم . وكانت تلك الاجراءات جد مملة ومضجرة لهم لا سيما في مثل ذلك اليوم القائظ . وعلى رغم ذلك فان الأمير استطاع أن يقترب من العربات بفضل حلوان منحه لأحد الحراس الذي اشترط عليه الاسراع في العودة ، وتحاشي رؤية الضابط له.

كان القطار ، عدا عن عربات الحرس ، يتألف من ثماني عشرة عربة خاصة بالمساجين . وكانت هذه غاصة بهم . وكان الأمير وهو يمشي بالقرب منها يصغي بانتباه إلى ما يدور في داخلها ، فيسمع صليل الحديد وهو يجر على الأرض ، ومشادات كلامية ترافقها شتائم بذيئة ، ولكن أحداً من راكبيها لم يتطرق بحديثه من قريب أو بعيد إلى رفاقه الذين سقطوا صرعى في الطريق . كانوا جميعاً يتحدثون عن اختيار المقاعد ، وعن الاكياس ومياه الشرب . كذلك شاهد الأمير من وراء الحواجز الحديدية أحد الجنود يحل قيود المساجين ، ومن ورائه جندي آخر يلتقطها ويجمعها رزماً .

كانت عربات النساء مقطورة وراء عربات الرجال ، وكان ينبعث من إحداها صوت امرأة تتوجع وتتألم من حين لآخر .

ــ أواه ، يا سيد . أواه ، يا سيد .

وأشار الجندي إلى عربة يدل (نيكليندوف) عليها . فتقدم هذا من نافذتها فجبهته لفحة من هواء حار مثقل بأنفاس بشرية . كانت المقاعد غاصة بالنساء اللواتي كن يتصببن عرقاً ، محتقنات الوجوه لفرط الحر ، مكشوفات الرؤوس يتلاغطن .

ودهش النسوة عندما أبصرن (نيكليندوف) فاقتربت من النافذة كل من استطاعت ذلك ، ولبثن صامتات بينما أخذ الأخريات يتكهن من عساه يكون ذلك السيد . وكانت (كاترين) متنحية قليلا ، ولكن (فيدوسيا) ذات العينين الزرقاوين الباسمتين والجسم البض عرفت الأمير على الفور . فأشارت (لكاترين) تدلها على النافذة . فهبت هذه من مقعدها واقفة ، وبعد أن غطت شعرها الأسود بمنديلها . تقدمت من القضبان الحديدية محتقنة الوجه تتصبب عرقاً .

ــ ما هذا الحر الذي لا يطاق . ــ قالت مبتسمة .

ــ هل استلمت ما بعثت لكِ به؟

ــ اجل . واشكرك على ذلك

ــ هل أنت بحاجة لشيء آخر؟

كان الحر المنبعث من العربة ، من الحدة بحيث كان الامير يحسب نفسه أمام فوهة الفرن .

ـ كلا . شكراً لست نحاجة لاي شيء . ـ أجابت (كاترين) .

ـ لو أمكن أن تقع على جرعة ماء . ـ قالت (فيدوسيا)وهي تصعدالزفرات.

ـ كيف . أليس لديكم ماء ؟

ـ لقد نفذ ما أعطوه لنا .

ـ سأرجو أحد الجنود كي يحضر لكم بعض الماء . ـ قال (نيكليندوف) .

ـ سوف لن نتواجه حتى (نيجني) .

ـ سترافقنا يا صاحب السمو ؟ ـ قالت (ماسلوفا) تسأل بسذاجة كما لو كان ما صمم عليه الامير مجهولاً منها .

ورنت اليه بعينيها السوداوين وهي تبتسم حبوراً .

ـ أجل . وسأستقل القطار الأول .

فلم تنبث (ماسلوفا) ببنت شفة ، ولكنها بعد لحظات صعدت زفرة عميقة.

ـ سيدي هل صحيح انهم قتلوا عشرة مساجـــين ؟ ـ قالت امرأة عجوز تسأل بصوت خشن مرتعش . كانت تلك (كورابلوفا) .

ـ لم ار إلا اثنين .

ـ يؤكدون انهم اثني عشر ... وليس من يحتج . يا للضعة ، ويا للصغارة .

ـ أو لم يحدث حادث لواحدة منكن ؟

ـ النساء أكثر احتمالا . ـ قالت امرأة صغيرة الوجه مستديرته .

ـ لقد عن لواحدة منا أن تضع طفلها . أتسمع صراخها ؟

ـ قالت واحدة منهن مشيرة بيدهـا إلى العربة المجـــاورة التي تنبعث صرخات التوجع منها .

ـ لقد سألني إذا كنت أحتاج لشيء . ـ قالت (ماسلوفا) وهي تحـاول إخفاء ابتسامة الحبور التي أخذت ترتسم على شفتيها .

ـ ماذا تريدين ؟ ـ قال الامير يسأل .

أليس بالامكان العمل على إبقاء هذه المرأة هنا ؟ انها تتـــألم كثيراً . راجع من بيدهم الأمر .

ـ سأقوم بذلك حالا .

ـ كذلك أرجو أن نرى إذا كان بإمكان رفيقـتي أن ترى زوجهـا . ـ قالت ذلك وأشارت إلى (فيدوسيا) . ـ هو معنا .

ـ يا سيد . يا سيد . ممنوع التحدث إلى المساجين .ـ صاح قائد فرقة الحرس المرافقة للقافلة يقول :

فابتعد الامير عن النافذة ، واستعلم عن رئيس البعثة ليتوسط بشأن المرأة النفساء، وبشأن زوج (فيدوسيا) ولكن مضت مدة طويلة قبل أن يرشده اليه الجنود الذين كانوا منهمكين كثيراً ، وهكذا فقـــد قرع الجرس للمرة الثانيـــة عندما تمكن (نيكليندوف) من التحدث إلى الرئيس الذي كان يوبخ عريفاً على إهمال بسيط ، وهو يفتل شاربه الذي كان يغطي فمه .

ـ ماذا تريد ؟ ـ قال يسأل الامير .

ـ ان بين نساء القافلة امرأة على وشك الوضع وأظنها ...

ـ صحيح ؟ إذن لتضع بسلام . وبعدئذ نرى ما نصنع . ـ أجاب الضابط وقـــد دس نفسه في العربة ولوح بيديه بطلاقة .

وأطلق رئيس المحطة الذي كان آنئذ يمـر هارعاً صفرة ، تلاهـا قرع الجرس ، فصريخ توجع وبكاء منبعث من عربة النساء .

فتقدم الامير إلى الامام ، وكانت آنئذ تمر العربات ذوات القضبان الحديـــدية المليئة برؤوس محلوقة ، ثم تلتها عربة النساء الاولى حيث كن مجتمعات على النوافذ مكشوفات الرؤوس فالعربة التي كانت فيها النفساء . وأخيراً جاءت العربـة التي كانت (ماسلوفا) فيها . كانت هذه واقفة إلى النافذة ، تنظر بانتباه وعندما أبصرت (نيكليندوف) ابتسمت له غير ان ابتسامتها لم تكن ابتسامة سرور ، لانها كانت تنضح بالغم .

كان لا يزال أمام (نيكليندوف) ساعتان من الوقت قبل سفر القطـــار الذي سيحمله إلى سيبيريا ، فأحب أن يغتنمها لزيارة أخته . غير أن أحداث يومه ،وحركة الذهاب والإياب اللذين قام بهما طوال يومه كانت قد أتعبتـه ، مضافاً إلى ذلـك الحر الشديد ، لدرجة أنه لم يكد يجلس على كرسي تركي في قاعة الدرجة الأولى حتى راح في سبات عميق .

وأيقظه من نومه شاب أنيق يرتدي (فراك) ويتأبط منشفة بيضاء قائلا له :

ـ عذراً سيدي . أأنت هو الأمير (نيكليندوف) ؟ هنا سيدة تريد أن تراك .

فهب (نيكليندوف) من مقعده وأخذ يفرك عينيـه ، وعادت إلى ذاكرتـه الانطباعات التى أحسها في الصباح . تذكر قافلة المساجين ، ومسيرتهم المؤلمةفيشوارع المدينة التي تتلظى بوقدة الحر ، والموتى ، والعربات ذوات القضبان الحديدية الغاصة بالرجال والنساء ، وتوجع المرأة النفساء ، وابتسامة (ماسلوفا) التي تدمي الفؤاد .

وسرعان ما استرد وعيه وتـذكر أين هو . فلاحظ ان سائر من في القـاعة كانوا يتجهون بأبصارهم بفضول شطر الباب فحذا حذوهم .

كان جمهور من الناس يحمل امرأة ممددة على كرسي ومغطاة بستار شفـــاف . فتذكر (نيكليندوف) انه يعرف اثنين منهم . احدهما كان بواباً يرتدي قبعة طويلة وكانت الثانية خادمة تسير خلف الكرسي ، وتضع على صدرها صدرة بيضاء، وتحمل بيديها صرة من الثياب وحقيبة من الجلد الفاخر ومظـلات ، ثم جاء بعـد ذلك الأمير الشيخ (غورتشاكين) يتقدمه صدره ، ويضع على رأسه قبعـــة سفر . واخـــيراً (مارغاريت) وابن عمهـــا (ميشا) وشاب ملحق باحدى السفارات يعرفـــه (نيكليندوف) وكان دائم المرح.

وأطل الطبيب كالح الوجه يدخن . كان آل (غورتشاكين) ذاهبين للاصطياف في مزرعة لأخت الأمير الشيخ تقع على الطريق إلى (نيجني) .

وحملوا الأميرة الام التي كان الطبيب والخادمة يتبعانها ، إلى صالة خاصة بالسيدات ، مثيرة فضول الحاضرين واحترامهم .

وجلس الأمير الشيخ إلى إحدى الطاولات وطلب بعض الشرائح والمرطبات .

ودخلت (مارغاريت) و (اوستن) إلى القاعة ، وفيما هما يهمان بالجلوس ، إذا بالباب يفتح وتدخل منه سيدتان هما (نتاليا ايفان ترافقها (اغريبنا بيتروفنا) فخفا لاستقبالها . ولم تكد (نتاليا) تدخل حتى أخذت تدور بنظرها في أنحاء القاعة فرأت (مارغاريت) وأخاها . فحيت هذا باشارة وخفت للقاء (مارغاريت) وقبلتها . ثم التفتت إلى اخيها وقالت له .

ــ أحمد الله لأنني وجدتك .

كان (نيكليندوف) قد نهض واقفاً ، فرد على تحية اخته ثم حيا (مارغاريت) ومرافقيها .

فقصت عليهم (مارغاريت) خبر حريق شب في مزرعتها ، مما اضطرها على الذهاب إلى مزرعة عمتها ، كما قص (اوستن) اخبار حرائق اخرى سخيفة .

فالتفت (نيكليندوف) إلى اخته وقال لها .

ــ كم انا مسرور لقدومك .

ــ لقد وصلت منذ مدة . ــ أجابت (نتاليا) ــ فبحثنا عنك في كل مكان فلم نجدك .

ــ لقد أخذتني سنة من النوم . ولم أكن اتوقع ان اراك ولذا بدأت بكتابة رسالة لك .

ولماذا ؟

وهنا لاحظت (مارغاريت) ان الحديث قد اصبح خاصاً فابتعدت هي ورفاقها ، وانتحى نيكليندوف) ناحية منعزلة بجانب كومة من الحقائب والصناديق .

ــ بعد ان غادرتكما نهار امس اخذني النوم ــ هكذا بدأ كلامه . ــ وكم كان

يطيب لي ان اعود فأعتذر لكما ، غير اني خشيت ان يفسر زوجك اعتذاري تفسيراً سيئاً ... لقد كنت فظاً معه ، وهذا الذي أقض مضجعي .

ـ لقد كنت واثقة من ذلك . ـ أجابت (نتاليا) ـ انك لا تستطيع انتكون سيء القصد . انت تعلم ان ...

وهنا اغرورقت عيناها بالدموع ، وامسكت يد اخيها بيد مرتعشة .

كانت تلك العبارة ، وتلك الدموع دليلا صارخاً على حبها الشديد لاخيها ، ومدى تألمها لوقوع ما يسيء بينها . وقد كان ذلك واضحاً جلياً ، فأثر في نفس (نيكليندوف) .

ـ شكراً لك . شكراً لك يا حبيبتي (نتاليا) .

وأسرع على الفور يقول لها ، كما لو كانت جثث موتى ذلك النهار قد تمثلت أمام عينيه بحقيقتها الرهيبة المؤلمة فقد بادر يقول لها .

ـ اواه . ليتك تعلمين ما رأيت اليوم ... مساجين قد قتلوا .

ـ كيف قتلوا ؟

ـ لقد أرغموهم على الذهاب مشياً على الأقدام في هذا الحر اللاهب ... فسقطوا في الشوارع صرعى.

ـ اليوم ؟منذقليل ؟

ـ بلى اليوم . ومنذ قليل . لقد رأيت بأم عيني جثتين هامدتين .

ـ وكيف تؤكد انها قتلا ؟ ومن قتلها ؟

فاستشاط غيظ (نيكليندوف) . لم تعد هذه (نتاليا) الطيبة الرحيمة التي يعرفها . فهي لم تعد ترى إلا بعيني زوجها .

ـ من قتلها ؟ لقد قتلها اؤلئك الذين ساقوهما بالقوة في الشوارع . ـ أجابها بجفاء .

ـ اواه . رباه . ـ قالت (اغريبينيا بيتروفنا) .

ـ لسنا ندرك ولا يسعنا تكوين اي فكرة عن الطريقة التي يعامل بها اولئك التعساء . لا بد من ان نرى بأم اعيننا .

وعن غير قصد حول الأمير نظره ناحية الأمير الشيخ (غورتشاكين) وكان جالساً إلى إحدى الطاولات وأمامه زجاجة شمبانيا قد احيط عنقها بمنشفة بيضاء .

ـ ايه . (نيكليندوف) أتريد ان تتبرد ؟ ذلك انسب قبل القيام بالرحلة .

فرفض (نيكليندوف) واولاه ظهره .

ـ ولكن ما عساك فاعلا لمصلحة (كاترين) . ـ قالت (نتاليا) .

ـ كل ما في وسعي . لا ازال اجهل ما سأفعل . ولكن وجداني يأمرني بأن اقوم بعمل ما لتحسين وضعها . وسأقوم به .

ـ أفهم . افهم . ـ ثم اضافت تقول وهي تبتسم ابتسامة خبيثة مشيرة إلى الآنسة (غورتشاكين) . أمن الممكن ان تكون قد قطعت صلتك بهذه ؟

ـ بلى . لقد انتهى كل شيء ، واظن ان اياً من الطرفين لم يشعر بأي رد فعل سيء .

ـ يسؤني ذلك كثيراً . لأنها فتاة تعجبني كثيراً .

ـ لماذا لا تجرب ان توجد صلات جديدة ؟ ولماذا تسافر ؟

ـ لأن الواجب يمليه علي . ـ اجاب (نيكليندوف) بقسوة وإيجاز شأن من يرغب في وضع حد لنقاش مزعج .

ـ ولكنه ندم لجفائه مع اخته فأخذه الخجل ، على الأخص لوجود قيمة المنزل العجوز . فقال .

ـ أتلمحين لعزمي على الزواج من (كاترين) ؟ لقد كنت على اتم استعداد ، ولكنها رفضت .

وهنا ارتعش صوت الأمير كأنما كان على وشك البكاء ، شأنه في كل مرة يتحدث عن هذه القضية .

ـ انها تعارض في تضحيتي ، وتضحي بنفسها . لا استطيع ولا ينبغي ان اتحمل

ولو دقيقة واحدة ... سأتبعها ، وسأكون حيث تكون . وسأحاول ان اكون مفيداً لها ، ولعلي استطيع تحسين وضعها .

فلم تجب (نتاليا ايفان) بشيء . وطأطأت (اغريبينيا بيتروفنا) رأسها، وكانت تنظر اليها نظرات الاستفهام .

وهنا جاء الخدم فحملوا الاميرة (غورتشاكين) . وعندما وقع نظرها على (نيكليندوف) اومأت اليه ان يدنو منها ومدت له يدها المليئة بالخواتم بحركة مجهدة ، وتكاد تكون مرعوبة ، كأنها كانت تخشى ان يضغط عليها .

ـ شيء رهيب . ـ قالت وهي تعني الحر . ـ لا استطيع تحمله . ان هذا الجو يخنقني .

وبعد ان تحدثت قليلا عن قسوة المناخ الروسي ، وبعد ان دعت (نيكليندوف) لقضاء عطلة في مزرعتها ، امرت الخدم ان ينقلوها إلى الرصيف ، والتفتت إلى الامير وقالت له .

ـ هكذا إذن أنا بانتظارك ... لا تتخلف .

فنقلها الخدم إلى حيث كانت تقف عربات الدرجة الاولى .

ولكن الامير ذهب باتجاه آخر يتبعه حمال يحمل له حقائبه ، و (تاراس) المثقل بالاكياس والحقائب .

ـ هذا رفيقي .. قال الامير لاخته مشيراً إلى القروي .

فوقف الحمال عند عربة من عربات الدرجة الثالثة واخذ يرصف الحقائب بينما صعد (تاراس) اليها يحمل الاكياس .

ـ ماذا ارى ؟ ـ صاحت (نتاليا) مدهوشة . ـ أتسافر في الدرجة الثالثة ؟

ـ اجل . فهنا اكثر راحة . وفضلا عن ذلك لا اضطر لمفارقة (تاراس) . ـ قال (نيكليندوف) باسماً .

ـ اريد ان اطلعك على امر . ـ اضاف يقول لها . ـ لم اتنازل عن ممتلكاتي في

(كوسمينسكوجي) حتى الآن . وهكذا إذا ما مت فسيكون اولادك ورثتي الشرعيين .

ـ ما هذا القول (يا ديمتري) . لا تقل ذلك رحمة بي . ـ قالت (نتاليا) محتجة .

ـ حتى ولو تنازلت عنها ، فما تبقى سيكون لاولادك إذ قد لا أتزوج ، وإذا تزوجت فلن انجب اولاداً ، وهكذا يكون ...

ـ (ديمتري) اتوسل اليك الا تخاطبني كذلك . ـ اجابت (نتاليا) .

غير ان الامير كان قد لاحظ بوضوح تام الارتياح الذي احدثته لها كلماته .

كان حشد كبير يحتشد إزاء شقة (آل غورتشاكين) كي يشاهدوا ترف تلك العائلة . وكان المسافرون الذين وصلوا متأخرين يسارعون إلى اتخاذ اماكن في العربات ، والمستخدمون يغلقون الابواب بقوة . فصعد (نيكليندوف) إلى العربة ، غير ان الحر ورائحة انفاس المسافرين كانا من الحدة بحيث لم يُطق تحملها فخرج إلى مدرج العربة . كانت (نتاليا) وهي واقفة بجانب العربة، وعلى مقربةمن(اغريبينيا) وعلى رأسها قبعة جميلة ، تحاول التحدث إلى اخيها ولكنها كانت لا تدري كيف تبدأ .

وكانت التوصيات المعتادة التي يُوصَى بها المسافرون ، بأن يكتبواحالوصولهم، موضع سخرية دائمة من الاخوين ومثاراً لضحكهم ، ولذا فقد كان من غير المعقول ان تلجأ اليها . وفوق ذلك فان الكلمات التي فاه بها حول الميراث قد اوجدت فتوراً في روابط المودة التي تربطها واصبحا يشعران وكأنها غريبان ، ولذا فقد أحسا بارتياح عندما اقلع القطار ، وخرج من المحطة .

واستطاعت (نتاليا) ان تقول بصوت ناعم حزين وقد اقتربت من النافذة .

ـ استودعك الله . وداعاً .

غير ان العربة لم تكن تتوارى عن عينيها حتى احست برعشة وغامت عيناها ، فما تدري ما ستقول لزوجها عما تحدثت به مع اخيها ؟

اما (نيكليندوف) فأنه على رغم محبته لاخته ، كان قد ايقن انها لم تعد تلك الفتاة

الحبيبة المحبة التي عرفها قديماً ، وانها اصبحت تتأثر الى حد بعيد بزوجها الثقيل الروح. وعندما تبين ان موجة من السرور غمرتها عندما حدثها عن الميراث اغتم واحس بألم عميق .

- ٢٨ -

كان الجو خانقاً ، والهواء ثقيلاً في العربة الكبيرة المخصصة للدرجة الثالثة ،والمعرضة للشمس طيلة النهار مما اضطر (نيكليندوف) الى البقاء مدة طويلة خارج العربة ؛ حيث ظن ان الهواء انقى منه في داخلها . ولكنه كان قد افسد بما تسرب اليه من العربة . وهكذا فأنه لم يكن بوسعه التنفس بملء رئتيه الا بعدما غادر القطار المحطة .

— لقد قتلوهما . — كان يردد وقد تذكر كل ما قاله لأخته .

واستعادت مخيلته بعض الارتياح ، ومن بين شتى الاشياء التي احدثت انطباعات في نفسه ذلك النهار ، شبح الجثمان الثاني والبسمة المرتسمة على شفتيه ، والاستنكار المتجلي في جبينه

الرهيب في الامر هو انها قد قتلا وليس بالوسع تعيين القاتل. حقا ان ما حدث كان ولا ريب نتيجة لاوامر صدرت عن (نيكليندوف) وكتبت بخط يده ، وانما ليس بوسعنا أن ندل عليه كمسؤول عن الكارثة ، وليس بالامكان القاء تبعتها على الطبيب الذي زار المساجين لان مهمته كانت تنحصر في عزل المرضى عن الاصحاء . وليس في مقدوره التكهن بحدوث ما حدث من الحر الشديد ، او انهم سيرغمونهم على السير في حمارة قيظ كهذا . كذلك ليس المدير مسؤولا فهو قد تلقى أمراً بارسال أشخاص معينين من المساجين في يوم معين ايضاً لابعادهم إلى سيبـــيريا فصدع بالامر . وليس قائد الحرس مسؤولا فهو قد تلقى شحنة من البشر بموجب لائحة بأسماء معينة تسلمها بعد مراجعتها ، وسيسلمها بدوره لمن يلزم . لقد قاد غيرها من قبل ، وليس في مقدوره التكهن عما إذا كان هذا السجين أو ذاك ممن تبدو عليهم صلابة الجسم وامارات القوة سوف لا يحتمل السير على الاقدام في حر الشمس ، وان هذا الشخص او ذاك سيموت . .

ان أحداً لا يستطيع التنبؤ بذلك ، وإذن فليس من مسؤول . ولكن على الرغم من كل ذلك فان حياة بشرية قد انطفأت دون أن يسأل احد عنها . ـ ثم عاد يحدث نفسه . ـ يحدث كل هذا لان هؤلاء من حكام ، ومدراء سجون ، واطباء ، وجنود يحسبون ان من حقهم معاملة جميع الناس كما يحلو لهم . ولو لم يكونوا في مناصبهم هذه ، سواء في ذلك (ماسلينيكوف) وغيره ، إذن لحاسبوا انفسهم اكثر من مرة ولتسألوا عما إذا كان من العدل إرغام الناس على السير على الاقدام في مثل ذلك الحر الشديد ، ولكانوا أسعفوا عشرين مرة رجلا مرهقاً خائر القوى ، وجرعوه ماء ، وسمحوا له بالاستراحة بعض الوقت ليستعيد قواه . اما الآن فانهم يفعلون العكس ذلك لانهم لا يؤمنون بحق مشروع لاولئك الذين يرونهم امامهم من المخلوقات البشرية ، وإنما يرون فحسب التزامات الوظيفة وواجباتها التي يضعونها فوق مستوى الحقوق الانسانية . هذا هو تفسير ذلك الحادث المؤلم . وإذا سلمنا بوجود ما هو اسمى من شرعة الحب التي تسود الانسانية فلن تبقى جريمة إلا ولها مبرراتها .

كان (نيكليندوف) منصرفاً بكليته لمثل هذه التأملات فلم يلحظ التغير الذي كان قد طرأ على حالة الطقس إذ كانت قد اندفعت غيمة دكناء قريبة من الارض انقسمت أشلاء فغطت وجه الشمس ، كما اندفعت اخرى من الغروب رمادية اللون سرعان ما تحولت كثيفة عند الافق البعيد فلطفت حرارة الجو .

وكان وميض البرق ينير جوانب الغيوم الكثيفة الداكنة من حين لآخر . وهزيم الرعد البعيد الطويل يختلط وجعجعة عجلات القطار . ولم تلبث ان سقطت بضع قطرات من الماء حملتها معها الريح التي كانت تهب عاتية ، والقتها على مؤخرة العربة فوشت معطف الامير بنقط دكناء ، بينما كانت الغيوم تزداد دنواً .
فانتقل الامير إلى مكان آخر حيث بوسعه ان يستنشق الهواء العليل البارد ، ورائحة التربة العطشى المتشوقة للمطر . وكانت الحقول والكروم والغابات والمزارع تمر امامه بسرعة الاحلام ، ومنظر الحقول يزداد بهاء ورواء عندما تلامسها قطرات الماء المنعشة .

كان (نيكليندوف) يستمتع بمنظر الرياض والحقول والحدائق ـ ثملا بمنظرها ، وكان يبدو ان الحياة تبعث فيها من جديد بفعل تلك القطرات المنعشـــة . فيهتف قائلا :

فليسقط الماء مدراراً .

وسرعان ما مرت العاصفة ، وانقشعت غيوم السماء ، واصبح المطر طلا تتساقط قطراته الصغيرة عمودية على الأرض . واشرقت الشمس وضاءة ، وظهر في الافق قوس قزح منخفضاً يسوده اللون البنفسجي .

وكان القطار قد دخل في منخفض من الارض ، وراح ينساب في واد قليل الانحدار تفترش جانبيه الاعشاب الخضراء من مختلف الاشكال والاجناس . فعاد (نيكليندوف) الى سابق تأملاته .

ـ ومن يدري . ـ كان يقول في نفسه . ـ لعل مدير السجن والضباط والسجانين كانوا صالحين قبل نيلهم وظائفهم ، ولكن التزامات الوظيفة هي التي انتزعت الرحمة من قلوبهم .

ومر في خاطره ما كان قـــد لاحظ من لامبالاة (ماسلينيكوف) عندما كان يتحدث عن احوال السجون ، كما تذكر الغلطة التي اظهرها الضابط عندما رفض السماح للمساجين بالصعود الى العربات ولا مبالاته بتوجع المرأة النفساء . فكان يقول مخاطبا نفسه .

ـ ان قلوب هؤلاء ابعد عن تقبل الرحمة بعد الصخور الصماء عن تقبل الماء . وقد يكون لهذه الصخور بعض الفائدة غير ان قحط هذه الارض (النفوس)وخلوها ، التي قـــد تنتج حبوباً ، واعشاباً ، وشجراً وشجيرات كالتي تزين الهضاب المحيطة به ، كان ذلك مما يجلب الغم لنفسه .

ـ قـــد يحدث للبشر ما يحدث للأرض . وقد يكون المجتمع بحاجة لهؤلاء الحكام والموظفين والضباط . ولكن ما يرعب منهم هو ان ما من احد منهم يحب اخر ولا يرأف بأحد . وهم يتقبلون كقانون مـا ليس كذلك ، ثم هم يتجاهلون ويحتقرون

الشريعة الأبدية السامية التي لا جدال فيها والتي سكبها الله في قلوب البشر . ترى هل كان مصدر الضيق الذي اجده بينهم . اني اخافهم ، فهم مرعبون واشد ارعاباً من القتلة انفسهم . فقـــد تأخذ الشفقة هؤلاء رغم كل شيء . ولكن قلوب اولئك عصية على الرحمة كالصخر الأصم على جذور النبات. لقد اشتهر الشقيان (بوغاشوف)و(رايم)[1] بقسوة القلب . ولكن أليس أولئك اسوأ من هذين بألف مرة ؟ اعتقد اننا اذا نظرنا للأمر من وجهه نظر علم النفس فلا مفر لنا من التساؤل : كيف يؤذي الناس ، من يتمتعون بشعور ديني ، وعنصر صالح دون ان يشعروا بوخز الضمير ؟

والجواب الوحيد هو : يكفي ان تقيمهم حكاماً ومدراء وسجانـين وضباطـاً . يكفي ان يشعروا بأن لهم امتياز موظف الدولة حتى يجيزوا لأنفسهم معاملة الانسان كالأشياء ، وحتى يحسبوا ان مسؤولية اعمالهم لن تقع على شخص بعينه ، وإنمـــا على سائر الجهاز الحكومي . وفي ما عدا ذلك فإنهم لن يرتكبوا الجرائم التي شهدتهـــا اليوم .

هنالك من يعتقد بأنه من الجائز معاملة القريب بلا محبة في بعض الظروف . هذا كذب وزور فليس من وجود لمثل هذه الظروف . بلا محبةتقطع الاشجار ، وتكسر الحجارة ، ويُطرّق الحديد . ولكن من يحسب نفسه غير مسيء في معاملته للقريب بلا محبة فمثله مثل ذاك الذي يتعرض للنحل بلا حذر وحيطة ، ثم يزعم انه لا يسيء لاحد ولن يلقى اذى ... ومن غير المعقول ان يكون غير ذلك . لان الحب المتبادل بين البشر هو حجر الاساس في الحياة . وإذا كنـا ، في الواقـع ، لا نستطيـع إرغام احد على المحبة ، فكذلك ليس بوسعنا تلقينه الأساة لمشابهينا .

وما زال (نيكليندوف) مواصلا تأملاته هذه .

— إذا كنت لا تستطيـع ان تحب الناس ، فعش وحيداً واهتم لنفسك، واشغلها بالأشياء المحيطة بك ، ولكن لا تحاول الاختلاط بهم . بوسعك ان تأكل دون ان

(١) هما شقيان روسيان شهيران .

تؤذي صحتك ، ولكنك لا تشعر بلذة الطعام إلا عند الجوع . وهكذا فان بوسعك ان تعاشر الناس دون الاضرار بأحد ، ولكنك عندما تحبهم ستكون مفيـــداً لهم . وإذا تركت نفسك تنساق مع البغض ، واللامبالاة ، وغيرهما من الاحساسات السيئة في معاملتك للناس ، كمعاملتي لصهري نهار امس ، فستهوي في المنحدر ، ولن تكون لقسوتك مع القريب من حدود ، كما اثبتته لي احداث اليوم . كما لن تكون لآلامك نهاية ... هذا هو الخير . وهذه هي الحقيقة .

كانت برودة الجو التي اعقبت ذلك الحر الشديد قـــد رفهت كثيراً عن نفس (نيكليندوف) ، ولكن وقوعه على حل للمعضلة التي ظلت مدة طويلة تستـــأثر باهتمامه قد احدثت له السرور الاعظم .

- ٢٩ -

في العربة التي كان (نيكليندوف) مسافراً فيها ، كان بعض الخدم وعمال المصانع والمستخدمين وجندي وامرأتان احداهما شابة والثانية متوسطة العمر تضـــع في يدها سواراً براقاً ، يعودون إلى مقر اعمالهم . كانوا يجلسون بطمأنينة من وجد مكانـــاً خالياً يرتاح فيه . بعضهم كان يأكل والبعض الآخر كان يدخن ، وآخرون كانوا يتحدثون مع جيرانهم .

وكان (تاراس) مرحاً مغتبطاً ، كما يستدل من قسمات وجهه ، وهو جالس بقرب الممشى محتفظاً بالمقعد (لنيكليندوف) يتحدث بحرارة مع جنـــائني يقف امامه ، كان في طريقه لاستلام وظيفة اسندت اليه .

وفي طريقه لاحتلال المقعد الذي يحتفظ له (تاراس) به وقف الامير برهة عند عجوز مهيب الطلعة كان يتحدث مع امرأة تدل هيئتها على انها قروية ، تجلس بجانبها فتاة في حوالي السابعة من عمرها ترتدي قميصاً طويلا وجديداً ، يتدلى فوقه شعرها الذي كاد يكون ابيضاً . ولم يكن ساقاها يبلغان الارض ، وبين يديها ألعـــاب تتلهى بها .

وعندما رأى الرجل العجوز ان الامير ينظر الى المرأة افسح له مجالا ليجلس فيه ودعاه بتأدب قائلا :

ـ ارجو ان تجلس .

فجلس الأمير بجانبه بعد ان قدم له الشكر ، وواصلت المرأة حديثها عن زيارتها لزوجها الذي كان في المدينة .

ـ لقد زرته في اعياد المرافع ، وشاء الله ان اعود فأراه الآن . فلننتظر ما تعده لنا مشيئة الله في عيد الميلاد .

ـ شيء جميل جداً . ـ قال الرجل العجوز وهو يرمق الأمير بمؤخر عينيه . ـ شيء جميل جداً . من الضروري ان تذهبي لزيارته من حين لآخر ، للحؤول دون اكتسابه مصائب المدينة .

ـ آه . لست اخشى ذلك ، فزوجي لا يشبه الكثيرين . يكاد يكون كالصبية ، ويبعث لي بآخر كوبيك يكسبه ... لقد اثر كثيراً في نفسي ما بدا من سروره عندما قدمت له صغيرتنا لم يكن يدري كيف يظهره لي .

وكانت الفتاة تصغي لأمها بامعان ، فأخذت تنتقل بنظراتها الذكية المطمئنة بين الامير والرجل العجوز ، كأنما كانت تريد تزكية كلام امها .

ـ حظ كبير كونه واعيا . ـ قال العجوز ـ ولكن الم تتسرب اليه عدوى هذا ؟ قـــال ذلك واشار الى رجل وامرأة كانا جالسين معاً على مقربة منهم ، وقد يكونا زوجين .

كان الزوج يرفع زجاجة الخمر على فمه يعب منها بنهم ويبدو ان الزوجة كانت تنتظر دورها .

ـ كلا . كلا . ان زوجي لا يعاقر الخمر ولا يدخن . ـ اجابت المرأة مغتنمـــة الفرصة لاطراء زوجها مرة اخرى . ـ اقول لك يا جداه انه قلما وجد رجل مثله .

ـ هذا صحيح . ـ اجاب العجوز وهو ينظر إلى شارب الخمر .

كان هذا قد ناول الزجاجة لزوجته فأدنتها من فمها وهي تبتسم ابتسامة ارتياح . وعندما رأى العجوز والامير يراقبانه بدأ عليه الاستياء فقال :

– لماذا تنظرون إلي ايها السادة ؟ ألاننا نشرب الخمر ؟ عندما أعمل فـلا أحداً يراني ، ولكن عندما أشرب خمراً يراني الجميع . بلى هكذا . لقد عملت وشربت الخمر . وانا الآن اقدم الخمر لزوجتي كي تشرب . ألا يعجبكم ذلك ؟

– الحق معك . – قال الأمير لأنه لم يكن يدري بماذا يجيب .

– بلى هكذا . – قال العامل ملحاً . – ان زوجتي امرأة طيبة وانا احبها كثيراً لانها تعني بي ، وتحبني ايضاً . أليس كذلك (يا مافرا) ؟

فرفعت المرأة ذراعها كالسكرى .

– أتريد ان تسكت ؟

– اجل . اجل ... هي امرأة طيبة . طيبة جداً ... ولكنها تحتاج للجلد ... انها قمينة بأن تأتي ... ما لا يتوقعه احد ... صحيح ؟ ... معذرة ايها السادة .. لقد شربت قليلا .. والآن ... ماذا ينبغي ان اصنع ؟

وإذ قال ذلك تمدد على المقعد واضعاً رأسه على ركبة زوجته التي كانت ترنو اليه وهي تبتسم .

ولبث الأمير بعض الوقت جالساً بجانب الرجل العجوز الذي كان يقص عليه تاريخ حياته وحياة اولاده الذين ذهب بهم إلى المدينة ، ثم غادره إلى حيث كان (تاراس) ينتظره.

– تفضل اجلس يا سيد . – قال الجنائني الذي كان قبالة (تاراس) سننحي الكيس جانباً .

– سنكون محشورين ، ولكن بسلام كأصدقاء طيبين . – قال (تاراس) ورفع بذراعه القوي الكيس الذي كان لا يقل وزنه عن خمسين كيلو غراماً ، ووضعه بقرب النافذة .

– المكان واسع ... على كل حال بامكاننا الوقوف أو الاستلقاء على الارض . ماذا نطلب أكثر من ذلك ؟

لقد اعتاد (تاراس) ان يقول انه عندما لا يشرب الخمر ، فانه لا يحسن الكلام، وان الخمر يوقظ الالهام . وفي الواقع فقد كان مقلا من الكلام عندما لم يكن قد عاقر الخمر . واما إذا كان الامر بالعكس ، كما هو الآن ، فان رغبته في الكلام لا ينضب لها معين . ويبدو في حديثه طيباً بسيطاً وصادقاً . وكانت نظرات عينيه الزرقاوين ، وابتسامته الوادعة تؤكد ذلك .

وعندماجاء الأمير كان يتحدث باسهاب عن زوجته . فأمسك عن الكلام برهة ، ولكنه ما عتم ان واصل حديثه . وبما ان (نيكلیندوف) لم يكن مطلعاً على تلك التفاصيل فقد أصغي اليه بامعان .

– كنت اقص كيف وقعت المأساة . – قال موجهاً الكلام (لنيكليندوف) بلهجة المودة الحانية – لقد عثرت على رجل حساس القلب وهاأنذا اقصها عليه .
حسن ، حسن . – قال له (نيكليندوف) .

– هكذا يا حبيبي وقعت القصة . لقد اخذت العجينة وقالت « انا ذاهبة لعند (اوريادينك) . وكان والدي رجلا طيباً فحاول إقناعها بالعدول عن فكرتها قائلا لها ان (فيدوسيا) ما تزال طفلة ، ولكنها أبت الاصغاء اليه وقالت « إذا هي بقيت في البيت فانها ستقتلنا جميعاً ذات يوم كالخنافس » ثم ذهبت لعند (اوريادنيك) فلبى طلبها حالاً .
– وماذا كنت تفعل انت ؟ – سأله الجنائني .
– كنت في فراشي انقلب واصرخ كمن مسته العفاريت واشعر كأن في جوفي ناراً ولا استطيع الكلام . وعندئذ وضع ابي (فيدوسيا) في العجلة ، واخذها اولاً لعند (ستانوفي) ثم لعند قاضي التحقيق حيث اعترفت بكل شيء . اعترفت كيف حصلت على الزرنيخ ، وكيف مزجته بالطحين . وعندما سألها القاضي لماذا فعلت ذلك . اجابته بأنها تبغضني وانها تفضل الذهاب إلى سيبيريا على العيش معي .

« فوضعوها في السجن ، وعاد أبي وحده . ولكن عندما حان وقت العمـــل في الحقول ، ولم يكن في البيت سوى امرأة ضعيفة وعجوز قررنا ان نطلب إخلاء سبيل (فيدوسيا) موقتاً . فراجع ابي بعض معارفه فلم ينجح ثم راجع آخرين فكانت النتيجة واحدة . واخيراً وفقت بمن قال لي ان باستطاعته ان يسوي الأمر لقاء خمس روبلات . فاتفقنا على ثلاثة دفعتها له وتم الامر . ولما كنت قد شفيت ذهبت اطلبها بنفسي . وعندما وصلت المدينة تركت الفرس في الخان وذهبت إلى السجن وبيدي الرسالة . فسألني احدهم .

ـ ماذا تريد ؟

ـ جئت لان زوجتي مسجونة هنا . اجبت .

ـ هل لديك ارواق ؟

فأريتهم ما احمله ، فنظر إلي بعض الموظفين ملياً وقال لي :

ـ انتظر .

ثم ذهب . فجلست . وبعد انتظار حسبت انه لن ينتهي ابداً جاء احد الرؤساء فقال :

ـ هل انت (فرغوتشوف) ؟

ـ بلى . اناهو .

ـ أذن هذه هي زوجتك .

وفتح باب في الحال واطلت منه (فيدوسيا) مرتدية ثيابها .

ـ هيا بنا . ـ قلت لها .

ـ كيف . أجئت ماشياً ؟ ـ قالت تسألني .

ـ لقد جئت على جواد .

وذهبنا إلى الخان ، ودفعت ما علي واسرجت الجواد ، واصطحبت العلف اللازم ، وجلست هي دون كلام وكذلك فعلت ، ومشينا . وعندما اصبحنا على مقربـــة من المنزل سألتني .

ـ الا تزال امك حية ؟
ـ بلى . ـ اجبتها .
ـ ووالدك ايضاً ؟
ـ كذلك هو حي .
ـ اغتفر لي ما كان من جنوني . لقد فقدت رأسي .
ـ ينبغي الا تتذكري تلك القصة . لقد مضى ذلك ولا ينبغي ان تتذكري مما مضى شيئاً .

وهكذا بلغنا البيت . وعندما دخلت ترامت على قدمي امي فقالت لها :
ـ فليسامحك الله .
وقال الجد .

ـ لا تتحدثوا بالماضي ، ولنتحدث المستقبل . كل شيء على ما يرام . كل شيء حسن ايتها الفتاة ، فالزرع ينمو ، وتلك نعمة من الله . ولا بد من حصاده وجنيه .

وفي اليوم التالي بدأت تعمل بحماس أدهشنا . لم تكن ترتاح قط ، وكانت دائماً إلى جانبي تعمل كما اعمل ، فتربط الزرع المحصود أو تأخذ المنجل بيدها فتعمل حتى كنت اكرهها على أن تستريح . وعندما تعود مساء إلى البيت كانت تقوم بالأعمال المنزلية قبل العشاء .

ـ إذن لقد انقلبت امرأة صالحة بعد السجن ؟ ـ قال الجنائني يسأل .

ـ لقد أصبحت خيراً من أي امرأة اخرى . كانت تحبني حتى لتستطيع ان تقول أننا روحاً واحدة في جسدين . وكثيراً ما كانت امي تقول .

ـ يظهر انهم ابدلوا لنا (فيدوسيا) لقد أصبحت وكأنها غيرها .
وكنت احياناً اسألها ونحن في الحقل .
ـ وكيف عن لك أن تفعلي ما فعلت ؟
فتجيبني بقولها :

ـ كنت اشمئز من قربك ، والعيش معك . فقلت في نفسي ان السجن او الموت خير من الحياة معه .

فسألتها : والآن ؟

ـ الآن أحلك في نفسي .

ثم أمسك (تاراس) برهة عن الكلام ، وأطرق برأسه ملياً ليواصل بعد ذلك الكلام مشدوهاً.

ـ وعندما كان العمل في الحقول على وشك الانتهاء ، إذ لم يكن قد بقي سوى قطع القصب ... عدت إلى البيت لأجد دعوة من المحكمة ... هذا في حين كان قد تنوس كل شيء..

ـ قد يكون بعض الشياطين قد فعل ذلك . ـ قال الجنائني ـ فهو وحده من يرغب في هلاك النفوس ... كذلك انا قد عرفت رجلا ...

وقطع حديثه وقوف القطار على إحدى المحطات .

ـ لقد بلغنا محطة فهلم بنا نشرب .

فانقطع الحديث وهبط الأمير على اثر الجنائني ووطأ تربة الرصيف المبتلة بالماء .

- ٣٠ -

رأى الأمير من نافذة عربة القطار ، قبل أن يهبط إلى الأرض عربات فاخرة تهز جيادها أطواق الجلاجل المعلقة في أعناقها فترتفع أصواتها في الفضاء . ثم رأى بعد قليل لفيفاً من السيدات بجانب إحدى عرباب الدرجة الأولى ، استرعت انتباهه إحداهن وكانت طويلة القامة بدينة ، وعلى رأسها قبعة جميلة وشاب طويل القامة نحيف الجسم يرتدي ثياب راكبي الدراجات يتبعه كلب في عنقه طوق ثمين براق . وكان من وراء ذلك الجمهور من النساء عدد من الخدم وحوذي يكاد أن يختفي تحت تل من الأغطية المختلفة الاجناس والاشكال والالوان .

وكان قد تحلق حولهم كالمعتاد ، حلقة من الفضوليين والمعجبين ، وخدام الغنى كمدير المحطة ، وحارس الاحراج ، وسيدة طويلة القامة ، في عنقها عقد من الحجارة

الزائفة ، التي كانت تستقبل سائر القطارات ، وعامل البرق وبعض المسافرين .

وعرف الأمير فيهم آل (غورتشاكين) . وكانت السيدة الطويلة هي التي سيحلون ضيوفاً في منزلها . وفتح المدير باب العربة الخارجي فغادرتها بقية آل (غورتشاكين). فتبادلت الاختان التحية ، وإقبلتا تتحدثان بالفرنسية عما إذا كان من المناسب الذهاب بعربة مغلقة أو مكشوفة . ثم ذهب الجميع تتبعهم الخادمة التي تحمل المظلات .

كان الأمير يرغب في أن يتفادى سلاماً ووداعاً جديدين ، فتوقف قليلا ريثما تقدمه الشيخ (غورتشاكين) الذي كان يتحدث مع ابنة حميه . فطرقت سمعه عبارات متقطعة اثرت احداها في نفسه . وكان الشيخ (غورتشاكين) يقول بالفرنسية .

— آه . حقاً ان الكون رائع .

وما كاد هؤلاء يتوارون وراء جمهرة الرؤوس التي كانت تنحني لهم ، حتى وصل إلى المحطة حوالي عشرين عاملا يحتذون أحذية خشبية ، ويحملون على ظهورهم صرر الثياب فتقدموا بخطى ثابتة من أول عربة صادفوها خالية ، وفيما هم يهمون بالصعود اليها نهرهم أحد الحراس بعنف ، فاتجهوا إلى التي تليها دون أن يظهروا استغراباً أو تردداً . وكانوا على وشك الصعود اليها عندما تقدم منهم حارس آخر فأرغمهم على مغادرتها ، وهبوط من كان قد دخلها منهم . فمضوا بمثل الخطى الثابتة القوية نحو العربة التي كان الأمير جالساً فيها . فقال الحارس ان لا مكان لهم فيها فتدخل الأمير قائلًا ان في العربة متسعاً لهم وان بامكانهم الصعود . ثم صعد هو في اثرهم .

ولكن رجلًا متوسط العمر ، يضع على قبعته شعاراً وطنياً وسيدتين احتجوا عندما علموا انهم سيرافقونهم في العربة ، وطلبوا منهم ان يعودوا ادراجهم . فهم العمال بالخروج مرتبكين خائفين كمن يشعر باقترافه أمراً نكراً ، متعثرين في كل مكان بالأكياس الثقيلة مستعدين للوصول إلى آخر عربة في القطار أو إلى أقاصي الارض إذا لزم الامر ، بحثاً عن مكان .

— هيه . إلى أين تذهبون أيها البله ؟ هل توجد هنا أمكنة شاغرة ؟ — صاح فيهم احد الحراس الذي خف لملاقاتهم .

– توجد طوائف على الدوام . – قالت بالفرنسية أقوب السيدتين للشباب وهي تحسب ان الامير سيؤخذ دون شك بقوة لهجتها .
وغمغمت الاخرى بكلمات حول السفر برفقة ابناء الارياف الذين تنبعث منهم رائحة الغبار وتفايات الحيوانات .

واخيراً جلس العمال بسرور واطمئنان من يخرج ظافراً من خطر محيق ، بعدان طرحوا عن اكتافهم الاكياس التي كانوا يحملونها . وكان ثلاثة منهم قد جلسوا بجانب (تاراس) وفي مقابلته . ولكن عندما جاء الامير واقترب منهم اخذوا بظهره ، وارتبكوا ، فهبوا واقفين من مقاعدهم تلقائياً ، وهموا بالذهاب ولكنه استوقفهم ، ولبث واقفاً بجانبهم ، متكئاً على مسند أحد المقاعد .

وتبادل أحدهم وكان في حوالي الخمسين من عمره ، نظرات الدهشة والرعب مع شاب كان يجلس مقابلا له . لقد اخذتهم ، الدهشة من ان يقوم سيد (كنيكليندوف) فيلاطفهم ، ويتنازل لهم عن مقعده ، بدلاً من شتمهم وطردهم كما كان منتظراً ، فكان في ذالك ما يحملهم على الظن بأن وراء ذلك نية سيئة . ولكنهم عندما رأوا (نيكليندوف) يساير (تاراس) اطمأنوا وأجلسوا فتى منهم على بعض الاكياس ، واجتهدوا في أن يعود الامير فيشغل مكانه .

كان العامل المسن يظهر التوقير للامير ، محاولاً الابتعاد عنه ما أمكن ، وألا تلامس رجله ذلك السيد اللطيف المعشر الدمث الاخلاق . ثم اخذ يتحدث معه ومع (تاراس) وشيئاً فشيئاً بلغت به وحدة الحال معه ان صار يضرب بكفه متودداً على ركبتي الامير . كان يتحدث عن نفسه ، وعن وضعيته ، وعن عمله الذي كان يرغمه هو ورفاقه على الوقوف في الماء حتى الركب من شروق الشمس حتي غروبها ليربح عشر روبلات شهرياً .

– انها حياة مؤلمة جداً لمن لم يتعودها . ولكنه متى اعتادها ... فصبراً والمهم ان يكون الغذاء جيداً . في البداية كان الطعام قبيحاً ،ولكنناقدمنا احتجاجاًفحسنوه . واصبح العمل الآن يبدو سهلا . واضاف يقول انه منذ ثمانية وعشرين عاماً وهويعمل

خارج بيته . وانه عندما يعود اليه يحمل معه كل ما يكون قد كسبه . كان في البداية يسلم المال لوالده ، وعندما توفي صار يسلمه لاخيه الاكبر ، ثم لابن اخيه الذي كان يعني بالبيت . ولم يكن يحتفظ لنفسه بأكثر من روبلين او ثلاثة ، ثمناً للتبغ .
ـ واحياناً ، عندما اشعر بالتعب ، اتناول قليلا من الخمر . ـ اضاف يقول كمن يرى انه ضبط وهو يقترف اثما .

وقص عليهم ايضا ان النساء في بيته هن اللواتي يعتنين به . وان مراقب العمل ، اهدى له ولرفاقه قبيل سفرهم خمس ليترات من الخمر . وان احد رفاقه قد توفي ، وان آخر مريض الآن ، واشار يدلهم عليه حيث كان في ركن منعزل من العربة . وكان شاباً يشكو من الحمى وقد ازرقت شفتاه .
ـ لم اصادف قط في سائر اسفاري سيداً بمثل هذا اللطف ودماثة الخلق . ـ قال موجهاً الكلام (لتاراس) . ـ لم يكتف بأنه لم يطردنا وانما تنازل لنا عن مكانه . يظهر انه يوجد بين الاسياد من مختلف الطبقات .

واقترب (نيكليندوف) من المريض . ولكنه رأى في نظراته مر القسوة ماجعله يحجم عن إزعاجه بتوجيه الاسئلة . واقتصر على نصيحة الشيخ باستعمال الكينا وكتب له اسمها على ورقة سلمها له . وحاول ان يعطيه بعض المال ، ولكن العامل ابى قائلا له ان لديه ما يكفيه إذا اقتضى الامر .
كان (نيكليندوف) يتفرس ، اثناء ذلك ، في تلك الاعضاء الجافة ، البارزة العضلات ، وتلك الوجوه التي لوحتها اشعة الشمس فأصبحت بلون النحاس ، وتلك الثياب الخشنية الجافية التي خيطت في المنزل ، فيحسب نفسه بين اقوام جدد ، تعمل عملا جدياً ، تحفزها افراح واتراح حياة عمل حقيقي . فيحدث نفسه قائلا .
ـ بلى انه عالم مختلف عن العالم الذي عشت فيه إلى يومي هذا . هو عالم جديد ، العالم الحقيقي الرفيع .
وعندما تذكر ما سمعه من عبارات العجوز (غورتشاكين) تفاقم استياؤه من تلك الطبقة التي لا تعمل عملا ، ومن مصالحها الوضيعة ، وشعر شعور راكب البحر

عندما تبدو له في الأفق ارض جديدة مجهولة تزخر بالاماني العذاب .

- ٣١ -

كانت القافلة التي تضم (كاترين) ، قد قطعت اكثر من خمسة آلاف (فرستا) ، بعضها في القطار ، والبعض الآخر في السفن . وكانت (ماسلوفا) ما تزال بين المحكومين بجرائم عادية . ولكن الامير قام بوساطة في (بيرم) فنقلت إلى صفوف المجرمين السياسيين ، بناء على نصيحة قدمتها له (فيرا بوغودوتشوفسكاجا) التي كانت إحداهن .

كانت الرحلة حتى (بيرم) مضنكة (لماسلوفا) ، التي لاقت آلاماً مادية ومعنوية. لقد تألمت مادياً لقلة الهواء ، ورائحة بعض البعوض الكريهة ، وملاحقته لها . ولعلها كانت من الجهة المعنوية اكثر تألماً لملاحقة الرجال لها ، الذين ربما كانوا اكثر من البعوض اثارة لاشمئزازها . ولم يكونوا أقل منه إلحاقاً ، وكم من مرة صدت أناساً تقدموا منها بعروض قذرة كانت ذكراها تثير اشمئزازها .

كانت قد قامت بين المساجين من الجنسين وبين حرس القافلة وحتى الرؤساء منهم ـ علاقات مألوفة في مثل هذه الحالة ، هي أقرب للوقاحة والاستهتار ، حتى كان على كل امرأة ، وخصوصاً الفتيات منهن ان تظل يقظة حذرة ليل نهار ، إذا هي ارادت ان تظل في منجى من الانحلال الخلقي العام .

كانت تلك الحالة من القلق الدائم ، مثار إزعاج وضيق لهن . هذا بقطع النظر عن ان (ماسلوفا) كانت أكثر الجميع تعرضاً لها بسبب جمالها أولاً وثانيا لماضيها المعروف من الجميع . كان اولئك الوقحون يرون في امتناعها التام عليهم إهانة لهم ، ولذا كانت تزداد النقمة عليها ساعة فساعة . ولولا صداقة (فيدوسيا) لها ولولا زوجها (تاراس) الذي أدرك ما تتعرض له كرامة زوجته فعمل على الدخول في صفوف المساجين حتى (نيجني نوفجورود) للدفاع عنها ، لولا ذلك إذن لساءت حالها كثيراً وأصبحت لا تطاق .

وعندما قُبلت بين المبعدين السياسيين تحسن وضعها كثيراً ، فقد كان هؤلاء

ينزلون منزلاً أفضل ، ويقدم له طعام أغزر من طعام اولئك وأصبحت لا تلاقي بين هؤلاء ما كانت تلاقيه بين اولئك من سوء التربية والخلق ، وأضحت في منجى من كل ملاحقة ومطاردة . وهكذا استطاعت أن تنس ماضيها الذي كانوا يذكرونها به على الدوام بسخرية مريرة . ولم يكن هذا كل ما في الأمر . إذ قد هيأ لها انتقالها ما هو أهم ، وذلك اتصالها بأشخاص كان تأثيرهم عليها عميقاً وحاسماً .

كان ما توسط لها به (نيكليندوف) يتلخص في أن تنام وتقيم طيلة الرحلة بين المبعدين السياسيين لا غير . ولكنها كانت تمشي على الأقدام بين مرحلة وأخرى كغيرها من المجرمين العاديين . وكان يرافقها أثناء المسيرة المجرمان السياسيان (سيمونسون) الرجل القصير القامة ، الأسمر اللون ، الكبير العينين الغائرتين ، و (ماري باولوفنا كتينين) الفتاة الجميلة ذات العينين الزرقاوين التي رآها (نيكليندوف) في قاعة الزيارات في السجن .

كانت (ماري باولوفنا) تمشي على أقدامها لتنازلها عن مكانها في العربه لرفيقتها المجرمة العادية التي كانت حاملا . وكان (سيمونسون) يرى من الظلم استغلال الامتياز المبني على التمييز الطبقي الاجتماعي . وكان على الثلاثة أن يستيقظوا مبكرين أكثر من غيرهم من المجرمين السياسيين ليلتحقوا بقافلة المجرمين العاديين . وظلواهكذا حتى بلغوا مرحلة تسلم فيها القيادة ضابط شرطة جديد .

كان ذلك ذات صباح من شهر أيلول غامض ورطب . وكان الثلج يتناوب مع المطر ، وأحياناً تعصف ريح ثلجية . وكانت القافلة التي ستجتاز المرحلة سيراً على الأقدام تملأ فناء الثكنة ، وعددها اربعماية رجلًا وخمسون امرأة . وكان بعضهم يحيط بقائد القافلة الذي كان يوزع عليهم زاد يومهم ، والبعض الآخر كان يبتاع مأكولات من النسوة اللائي دخلن إلى فناء الدار . وكان بعضهم يحصي دراهمه ، والبعض الآخر يتحدث أو يتشاجر مع رفاقه أو مع البائعات .

كانت (كاترين) و(ماري باولوفنا) ترتدي كل منها . معطفاً قصيراً وتحتذي حذاء طويلا وتضع على رأسها غطاء كبيراً . فخرجتا من القسم الذي باتافيه ليلتها ، ومضتا

الى فناء الدار حيث كانت البائعات يعرضن بضاعتهن ، من خبز طــــري ، وسمك ، وحلوى ، ولحم بقر ، وبيض ، وحليب . وكانت واحدة منهن تعرض خنزيراً صغيراً مشوياً .

كانت (سيمونسون) وهو يرتدي سترة من المطاط ويحتذي حذاء خشبياً لأنه كان نباتيا ، لا يجيز استعمال لحم الحيوان ولا جلده ، واقفاً في فناء الدار منتظراً الأمر بالمسير ، عند الباب وهو يسجل في يومياته فكرة عنت له وهي هذه :

« اذا استطاعت جرثومة ما ان تراقب وتتفحص ظفراً بشريا فستجد ان هذا الظفر يشكل جزاء من مجموعة غير عضوية . وهكذا نقول بعـــد دراستنا للقشرة الخارجية للكرة الأرضية ان الأرض كائن غير عضوي . »

كانت (كاترين) تضع مـــا ابتاعته من خبز وبيض وحلوى في الكيس . وكانت (ماري باولوفنا قد دفعت مـــا عليها للبائعة عندما قامت حركة مفاجئة في فناء الدار كان الجنود يقفون صفوفاً امام الضابط ،استعداداً للأجراءات الشكلية المعتادة عندكل صباح وقبل كل مسيرة .

فأحصي المساجين ، كالعادة ، وفحصت القيود ، وغلت ايــــدي اولئك الذين ينبغي ان يمشوا ازواجا. ولكن سرعان ماقطع تلك الاجراءات المألوفة صوت صراخ مهتاج صادر عن الضابط ، وبكاء طفل . فساد السكون برهة في فناء الدار ، اعقبه ضجيج عم الدار من اقصاه الى ادناه فخفت (كاترين) و(ماري باولوفنا) للأستعلام عن الحادث .

- ٣٢ -

وعندما بلغتا حيث كان يحتشد الناس في فناءالدار رأتاالضابط الطويل القامة القوي البنية ذا الشاربين الطويلين الأشقرين ، ينظف قبضة يده اليمنى الملطخة بالدم ، وهو يتقيأ سبابا وشتائم لسجين كان واقفا أمامه ، واضعاً احدى يديه على وجهه المرضوض الذي كان يتفصد دما ، ويحتضن في الثانية طفلة ملفوفة بشال ، وهي تبكي وتصرخ

صراخاً شديداً . كان نصف رأس السجين محلوقاً ، وكان طويل القامة نحيل الجسم يرتدي ثوباً قصيراً جداً وسروالا لا يتجاوز نصف فخذه .

- ستتعلم ان تكون معقولا . - كان الضابط يقول ، ثم يمزج كلامه بالشتائم . - هيه . دع الطفلة في الأرض ، وتقدم لتغل يدك .

كان قد سمح لهذا السجين ، في الأيام القليلة الماضية ببقاء يده طليقة كي يستطيع حمل ابنته التي ماتت امها في احـــدى المراحل بمرض التيفوس . ولكن الضابط الذي كان سيء المزاج ذلك اليوم أمر بان تغل يـده ، فأحتج السجين على ذلك ، فضربه الضابط بقبضة يده على عينه .

كان يقف خلف الضابط سجين طويل القامة اسود اللحيةمغلول اليدالى أحدالسجناء، فكان تارة ينظر بضجر الى الضابط وتارة الى رفيقه .

وأمـــر الضابط ان تؤخذ الطفلة من ابيها وان تغل يده فأرتفعت من بين الحشد احتجاجات ولغط كانت تزداد بين حين واخر .

- منذ (طومسك) ويداه طليقتان . - ليس مايحمله كلبا وانما طفلة . - كان يقول قائل في الصفوف الخلفية .

- ستموت هذه الطفلة . - كان آخر يقول . - القانون لا يسمح بذلك .

- ماذا ؟ ماذا ؟ - صرخ الضابط ثم التفت كمن لسعته افعى . - ساعلمك نصوص القانون . من قال ذلك ؟ أنت ؟ أم أنت ؟

- لقد تكلمنا كلنا ... - قال سجين في الصف الأول .

- آه هل كنت انت ؟

وشرح الضابط يوزع لطماته ذات اليمين وذات الشمال .

- آه . أتتمردون ؟ ساعلمكم ما نصنع . ساقتلكم كالكلاب وسيشكر لي رؤسائي ذلك . هيه خذوا هذه الطفلة

فوجم الجمهور . واخذ احـــد الجنود الطفلة التي لم تكف عن البكاء والصراخ . وجاء جندي اخر فمد السجين يده صاغراً ليضع الغل فيها .

ـ سلموا هذه الطفلة للنساء . ـ قال الضابط للجندي .

كانت الطفلة محتقنة الوجة تتخبط بذراعيهـــا محاولة افلات يديها من الشال الذي يلفها . وعندئذ تقدمت (ماري باولوفنا) من الضابط مخترقة الجمهور وقالت له .

ـ سيدي اذا سمحت لي فانا آخذ الطفلة .

ـ من انت ؟ قال يسالها .

ـ أنا من فرع المجرمين السياسيين .

فأثر جمال وجه (ماري باولوفنا) وعينيها الزرقاوين وشعرهـا الأسود في نفس الضابط الذي كان قد رآها منذ قليل فلفتت نظره . وعاد فحدق في وجههـــا ملياً ثم أطرق بنظره إلى الأرض مرتبكاً .

ـ خذيها إذا شئت . ولكن أي ذوق لكن في الرأفة على هؤلاء المناكيد . إذا فر أحدهم فلن تكن أنتن المسؤولات .

ـ كيف يقوى على الفرار ما دام يحتضن طفلا ؟ ـ قالت (ماري باولوفنا) .

ـ لا أريد ان اجادل . خذي الطفلة واذهبي .

ـ أأستطيع تسليم الطفلة ؟ ـ سأله الجندي .

ـ بلى . سلمها حالا .

ـ تعالي معي . ـ قالت (ماري باولوفنا) للطفلة وهي تحاول أخذها من الجندي. ولكن الطفلة كانت تأبى إلا الذهاب مع والدها ، وما انفكت تصرخ وتتخبط.

ـ تمهلي (يا ماري) انها تعرفني . فقد ترضى بأن تأتي معي . ـ قالت (ماسلوفا) وقد أخرجت قطعة خبز من الكيس .

وكانت الطفلة تعرف (ماسلوفا) ، ولذا فقد كفت عن الصراخ والبكاء عندما رأتها ، ثم ذهبت معها دون مقاومة .

وتلت ذلك فترة هـدوء ، ثم فتحت أبواب الدار ، وخرجت القـافلة واصطف المساجين . وتحدثت (ماسلوفا) التي كانت تحمل الطفلة بين ذراعيها ، مع (فيدوسيا) التي كانت في الصفوف الأولى .

كان (سيمونسون) قد شهد المشهد وهو صامت لا يفوه بكلمه واحدة ، وفجأة تقدم من الضابط الذي كان قد صعد الى عربته ، وقال له .

– لقد اسأت التصرف يا سيادة الضابط .

– اذهب وقف في صفك فهذا أمر لا يعنيك .

– أريد ان أقول لك الحق . وأكرر قولي انك اسأت التصرف . – أجاب (سيمونسون) وقد حدج الضابط بنظرة من عينيه القابعتين تحت حواجبه الكثيفة السوداء .

– هل انتم جاهزون ؟ اذن الى الامـــام . – صاح الضابط بعد أن نظر الى (سيمونسون) وهز كتفيه .

وتقدمت القافلة تسير في طريق موحلة على جانبيها حفر مملوءة بالماء .

– ٣٣ –

على الرغم من قسوة الظروف التي كانت تحيط (بكاترين) فانها لم تكن ترى الحياة التي اجبرت عليها مريرة كل المرارة . كانت معاشرتها للمجرمين السياسيين اقل ازعاجاً لها من معاشرتها للبغايا في المحلات العامة التي قضت فيها ثماني سنوات . وكانت العشرون (فرستا) التي تقطعها سيراً على الاقدام ، والاستراحات العديدة التي كانت تقضي فيها يوماً كاملا بعد كل مسيرة يومين ، والغذاء الحسن الذي كان يقـــدم لهم ، وامكانية النوم على سرير حسن ، كل هذا كان يعيد لها نشاطها ويجدد شبابها . زد على ذلك اختلاطها برفاقها الجدد الذي كشف لها عن اهداف هامة في الحيـاة ما كانت تعلم قط بوجودها .

لم تكن قد تعرفت من قبل على أناس « غير عاديين » ، على حد تعبيرها، كهؤلاء الثوريين الذين اصبحت تشاطرهم حياتهم . بل أكثر من ذلك ، انها كانت تجهـل كل الجهل ان في الدنيا اشباها لهم. لقد كانت أول الأمر ، ترى الدوافع التي تحفزهم غريبة شاذة ، ولكنها ما لبثت أن تفهمتهم فاعجبت بهم كل الاعجاب . لقد رأتهم يقفون مع

الشعب ضد السلطات . وعندما علمت أن من بينهم من كان ينتمي للطبقة الحاكمة فضحى بامتيازاته ، وحريته ، وحياته في سبيل مصلحة الشعب ، تضاعف عطفها عليهم.

كانت معجبة بكافة رفاقها الجدد . لكنها كانت أكثر اعجاباً (بماري باولوفنا) ، وتحمل لها حباً مقروناً بالتقدير والحماس . لقد ادهشها ، منذ الوهلة الأولى ، ما رأته منها ، وهي الفتاة الغنية ، المثقفة ، النبيلة ، وأبنة أحد القواد ، كيف كانت ترتدي ثياب ابسط القرويات ، وتوزع بين رفيقاتها المال والاغراض التي يبعث لها به والدها. وتبدو وكأنها تحاول اخفاء جمالها الطبيعي عن الناس ما استطاعت .

وعلى الرغم من قلة ما لا يدهشني وما لا يثير الاعجاب في صفات (ماري باولوفنا) فان (كاترين) كانت أشد دهشة من عزوفها التام عن مغازلة الرجال ومطاردتهم ولم يكن ذلك لفقدانها الشعور بجمالها . كلا . فان (ماسلوفا) كانت تعلم أنها شاعرة به ومسرورة منه أيضاً . ولكنها بدلا من رضاها عما يحدثه من أثر في نفوس الرجال فقد كانت تخشاه وتنفر من قريب وبعيد من كل ما يسمى حباً .

كان سائر رفاقها يعلمون ذلك منها ، وحتى اولئك الذين كان جمالها يستهويهم كانوا يبالغون في اخفاء ذلك عنها ما استطاعوا . وكان رفاقها في الحزب يعاملونها كالرجال. ولكنها كانت خارج الحزب عرضة لملاحقة الرجال لها ، واضطرت أكثر من مرة لاستعمال قبضة يدها القوية لصدهم عنها .

ــ ذات يوم ، أوقفني شاب ، في عرض الشارع . ـ كانت تقص على (ماسلوفا) . وأمسكني من ذراعي . وعبثاً حاولت الأفلات منه . فقبضت عليه من كتفه وهززته بعنف ففر هارباً مذعوراً .

كذلك قصت عليها كيف أصبحت ثورية. كانت منذ صغرها قليلة الميل لحياة الأغنياء ، بينما كانت تشعر بميل شديد لحياة الفقراء . وكانت تعنف من قبل أهلها لقضائها اكثر أوقاتها في المستودع ، أو المطبخ ، أو الاسطبل ، بدلا من القاعة . « لقد كنت أجد سلوى مع الطاهية ، في حين كنت أمل معاشرة السيدات. وكنت

ازداد يوماً عن يوم معرفة بتفاهة الحياة التي يرغبون في أن احياها . لقد ماتت أمي وأنا طفلة . وكان ابي لا يهتم بي . وعندما بلغت التاسعة عشرة من عمري فررت من البيت برفقة إحدى صديقاتي ، واشتغلت كعاملة في احد المصانع . ولم يطل عملي فيه ، فذهبت الى الريف ، ثم عدت الى المدينة حيث عملت بحماس في الدعاية . فاعتقلت . وحكم علي بالاشغال الشاقة » . ولم تزد (ماري باولوفنا) على ذلك شيئاً ، ولكن (ماسلوفا) علمت بعدئذ أنه قد حكم عليها لاعترافها بارتكاب جريمة قتل لم تقترفها .

كانت (ماري باولوفنا) لا تهتم لنفسها اينما كانت وفي أي وضعية وجدت ، وانما كانت تفكر في السبل التي تبلغها ما تصبو اليه من مساعدة الغير . كان أحد المجرمين السياسيين المدعو (نوفود فوروف) الذي كان في القافلة ، يقول عنها مازحاً أنها كرست حياتها « لرياضة عمل البر » . وفي الواقع ، فكما ان كل همّ الصياد هو أخذ صيدة ، كذلك فان غاية ما تنشده تلك الفتاة في حياتها هو البحث عن المناسبات لخدمة الغير . وقد تأصلت تلك « الرياضة » في نفسها ، حتى كانت تؤديها بصورة جدطبيعية حتى ان الذين كانوا يحيطون بها لم يكونوا يعجبون لذلك ، ويتلقونها كأمر طبيعي.

وعندما ألحقت (ماسلوفا) بقافلة المجرمين السياسيين لاحظت بعض الاستياء في وجه (ماري باولوفنا) ولكنها تبينت أيضاً انها كانت توليها عناية أكبر مما توليه لسواها .. وكان لهذه العناية التي توليها اياها فتاة تعتبرها أسمى من الرجال ، أثرها العميق في نفس (ماسلوفا) حملها على ان تندفع بكليتها اليها ، وان تتبنى سائر افكارها مغمضة العينين ، وان تقلدها .

وأثر ذلك في نفس (ماري باولوفنا) فوطدت أواصر الصداقة والمودة بينها وبين (ماسلوفا) ، اذ كان يجمع بينهما شعور واحد ، وهو ان كليتهما تمقتان الحب الجنسي. والفارق الوحيد بينهما هو ان (ماسلوفا) كانت قد واجهت بشاعة ماضيها وذاقت ويلاته . بينما كانت تلك تأنف منه لانها كانت ترى فيه عقبة كأداء في سبيل بلوغها مثلها الاعلى الذي تحلم به .

٣٤

كان الحب الذي تحمله (كاترين) (لماري باولوفنا) نتيجة مباشرة للتـأثير الذي تمارسه هذه عليها .

ولكن تأثير آخر كان يسيطر عليها ايضاً هو تأثير (سيمونسون) لما يحمله لها من حب صادق .

يحيا الناس جزءاً من حياتهم ، ويتصرفون بجـــزء من تصرفاتهم طبقاً لافكارهم ورغباتهم الخاصة . ولكنهم يحيون ايضاً ويتصرفون بالجزء الباقي طبقـاً لافكار الغير ورغباته . واحد الفوارق الاساسية التي تميز النـاس بعضهم عن بعض هو العقل الذي ينبثق عن افكارهم الخاصة أو افكار الغير .

منهم من يكتفي باستخدام افكاره الخاصة وحدها ، كما في اللعب ، ويستعمل عقله كعجلتي آلة قد ابطل عمل الرابط بينهما . اي بلا عمل . ولكنهم في سائر الحـــالات الخطرة عندما يتعلق الامر فعلا بقضايا ذات اهمية كبرى ، يلجئون الى افكار الغير التي يعمدونها باسماء اخرى « كالعادة » حيناً وحيناً « التقـاليد » وآخر « الموافقة » و « القانون » . ومنهم ايضاً « وهؤلاء قلة ، من يعتبر عقـله المرشد الاول في حياته فيهتدي بهديه . والى هذه الفئة كان ينتمي (سيمونسون) ذاك الذي لم يسترشد قـط الا بعقله .

لقد أوحى له عقله وهو ما زال طالباً ان ثروة ابيه القاضي الغني قـــد جاءته عن طريق غير مشروع . فبـــادر على الفور بالتصريح لوالده بأنه ينبغي عليه ان يعيدها للشعب . ولما لم يصغ ابوه اليه وزجره ، هجـــر البيت الابوي ، متنازلا عن كافة امتيازات وضعيته ، وقرر تبعاً لموحيات عقله ان جهل الشعب هو السبب الوحيـــد لسائر ويلات روسيا ، ولذا فانه فور تخرجه من الجامعة طلب تعيينه مدرساً في احدى القرى . حيث اخذ ينشر على تلامذته وعلى القرويين كل مـــا يراهم بحاجة لمعرفته . فاعتقل وحوكم .

وخلال الجلسة صرح للقضاة بان ليس لهم اي حق في محاكمته . ولما رأى ان القضاة لم يقيموا لقوله وزناً ، وواصلوا رؤية الدعوى ضده قرر المقاطعة . ولم يفه بعدها بكلمة واحدة حتى نهاية الدعوى . وقد حكم عليه بالابعاد الى مدينة صغيرة في محافظة (اركانجل) لاعتباره مدنباً . وهناك وضع مذهباً دينياً اصبح منذ ذلك الحين يصدر في سلوكه عن تعاليمه ، وكان يقول بأن الكون حي ، وان لا وجود للموت ، وان كافة الاشياء التي تحسب ان لا حياة فيها ، انما هي جزء من كل عضوي . ولهذا «ان من واجب الانسان المحافظة على حياة ذلك الكيان الكبير . ومن هنا استنتج ان الاعتداء بكافة اشكاله على الحياة كان اجراما . فقبح السجن والحروب وقتل الحيوانات .

كذلك كانت له نظرياته الخاصة حول الزواج والعلاقات الجنسية التي كان يراها وضيعة . ويؤكد ان الاهتمام بانجاب الابناء (لأن الحب اصبح ينحصر في ذلك) لم يكن إلا سبيلا لاقصائنا عن المهمة الاغزر فائدة ، والاجدر باهتمامنا الا وهي اسعاف الكائنات الحية ، لنستكمل حياة الكون . وكان من رأيه ان الاشخاص المتفوقين ، اذا ما تحاشوا العلاقات الجنسية ، فانهم يشبهون كريات الدم ، التي تنحصر مهمتها في مساعدة الاماكن الضعيفة في الجسم . وبعد ان اعتنق هذه العقيدة ، اصبح يصدر عن تعاليمها في سائر اعماله وتصرفاته على الرغم من انه كان في شبابه يسير على نهج مختلف .

كان حبه (لماسلوفا) مغايراً لتعاليمه كما يبدو لأول وهله . غير ان ذلك لم يكن الا ظاهرياً ، لأنه كان يقول انه يحبها كأخت . وان هذا الحب ابعد عن ان يكون عقبة تعوقه عن غرضه في الحياة وهو ان يكون محسناً للانسانية ، وانه سيكون له بمثابة نقطة ارتكاز وعون .

ولم يكتف باخضاع سائر قضاياه النظرية لاحكام عقله وانما تعداها لقضاياه العملية .

كانت له نظريات خاصة في شتى تفاصيل الحياة يسير بمقتضاها . فقد كان له اراؤه حول اوقات العمل واوقات الاستراحة ، وحول نظام التغذية ، وشكل اللباس ،

وافضل طريقة للأنارة ، وكذلك طريقة التدفئة . الخ ...

ومع ذلك فقد كان (سيمونسون) حيياً جداً . فلم يحاول قط الظهور ، وابراز مؤهلاته ، وفرضها على الغير . ولكنه عندما يقرر امراً فليس على وجه الارض من يستطيع منعه عنه .

هذا هو الرجل الذي هام حباً (بماسلوفا) .

وكانت هذه قد ادركت بغريزتها النسائية ما احدثته في نفسه من انطباعات . فرفع من شأنها عند نفسها ادراكها انها اثارت الحب في نفس رجل « غير عادي » (كسيمونسون) .

وعندما عرض عليها الامير الزواج منه ادركت عندئـــذ انه يفعل ذلك لسمو روحه ، وليكفر عن زلته القديمة ، بينما يحبها (سيمونسون) بوضعها الحالي، ولانه هكذا ، ولانه يحبها .

كانت تحسب ان (سيمونسون) عندما احبها كان يرى فيهـــا امرأة تختلف عن سواها من النساء ، وان لها مميزات خلقية ليست لغيرها . ولكن . ترى ما هي تلك الصفات . انها لم تستطع تبينها . ولذا فهي بغية ايجاد مبرر لرأيه السامي فيها ، اخذت تجهد نفسها في انماء اطيب الشعور الذي هي خليقة بتصوره . وهكذا ، فانها بتأثير من (سيمونسون) اصبحت تحاول ادراك ما تقوى عليه طبيعتها من كمال .

ولكن هذا كان قد بدأ منذ مدة طويلة . كانت (ماسلوفا)تلاحظ النظرات الملحة التي يرمقها بها ذلك السجين ذو العينين الزرقاوين الذي يرتدي سترة من المطاط ، عندما كانوا يقفون في فناء دار السجن . ومنذ ذلك الحين بدأت تشعر ان الرجل قد يكون غريب الاطوار .

وكانت قد لاحظت التناقض الصارخ المتجلي في وجهه . بين قسوة جبينه ، وبين عذوبة الطفولة التي كانت تقرأ في عينيه .

وعادت بعد مدة ، عندما انضمت في (طومسك) الى جماعة المجرمين السياسيين ، للقاء مع محبها الغريب الاطوار .

وجمعت بينهما النظرات المتبادلة بصداقة خاصة ، دون ان يكونا قد تبادلا كلمة واحدة . وهكذا ، وعلى الرغم من انه لم يكن قد تم بينهما لقاء على انفراد ، فقد ادركت (ماسلوفا) ان (سيمونسون) ، عندما كان يتحدث بحضورها ، كان يوجه كلماته اليها ولأجلها كان يجتهد في ان يتكلم بهدوء وبأجلى ما يستطيعه من وضوح . كانت تصغي اليه بسرور ، وكان لا يمل من الكلام لأجلها ، وخصوصا عندما كانو يجتازون المسافات الطويلة سيرا على الاقدام في اعقاب المجرمين العاديين .

٣٥

خلال المسافة الطويلة التي قطعتها القافلة منذ تركت (بيرم) لم يتمكن الأمير من مواجهة (كاتوين) سوى مرتين كانت احداها في قاعة الزيارات ومن وراء القضبان الحديدية في (نيجني نوفجورود) . والثانية في (بيرم) من وراء القضبان الحديدية ايضا . وكانت في كلتا المرتين صموتة فاترة . وعندما كان يسألها عما تحتاج اليه كانت تجيبه بلهجة جافة غامضة ، تذكره بالرغبة السيئة التي استقبلته بها المرة الاولى في السجن . لقد غمه كثيرا ذلك الموقف المعادي الذي وقفته منه ، لأنه كان يجهل ان من اسبابه ، خاصة ، غيظها من الحاق الرجال على مطاردتها . لقد كانت تخشى ان تعود من جديد تحت تأثير ماضي وضعها اللا اخلاقي الى سابق انهيارها المعنوي وكرهها لنفسها وللعالم اجمع . لقد خشيت ان تستعيد ماضي كراهيتها له ولذا كانت تلجأ الى الخمر والتدخين .

ولكنه كان من المستحيل عليه انقاذها مما هي فيه ، لأن رؤساء الحرس قد وقفوا موقف المعارض من اتصالها به ولكنه عندما توصل اخيرا لألحاقها بالمساجين السياسيين ادرك بطلان مخاوفه .

كانت (كاتوين) منذ مواجهة الأولى لها في (طومسك) لا تزال على مثل الحالة النفسية التي وجدها عليها لدى زيارته الأخيرة لها في السجن . فقد كانت

تستقبله بسرور صادق ، وتجزل الشكر له على ما اداه لها من خـــدمات وما زال يؤديه ، بدلا من الموقف الساخر الحائر الذي كانت تقفه منه ، والاستياء الذي كان يبدو عليها عند رؤيتها له من قبل .

كذلك لاحظ (نيكليندوف) ان التغير الذي طرأ عليها قد اخذت تبـــدو آثاره على مظهرها الخارجي .

كانت مسيرة الشهرين قد قضت على بدانتها فاصبحت رشيقة القـــوام نحاسية البشرة ، وظهرت التجعدات في جبينها وعلى فمها ، واختفى كل اثر لماضي تهتكها . كثيابها وتصفيف شعرها وحركاتها .

وكان هذا التحول مدعاة لسرور عميق في نفس (نيكليندوف) واصبح يحمل نحوها شعورا جديدا .

لم يكن شعوره هـــذا شبيها لشعوره الأول المتحمس الفـتي ، ولا لتلك الشهوة العارمة التي استبدت به بعد ذلك ، ولا للشعور النبيل والأناني في آن واحـد الذي طغي عليه غندما رأى (كاترين) فقرر التكفير عن زلته بزواجه منها . لقـد كان شعوره الان مزيجا من رحمة رحنان احسه مراراً في السجن مع فارق بسيط . وهـو انه كان يشعر به من قبل على فترات اما الان فانه يلازمه بصورة مستمرة دائمه .

لتفعل (كاترين) ما تريد ، ولتفكر بما تريد التفكير به فان قلبه لن ينفك عامرا بالرحمة والحنان عليها .

اقد فجر هذا الشعور الجديد في نفس (نيكليندوف) لما فعـل حبه الاول من قبل ، ينابيع الرحمة والحنان التي زودته بها الطبيعة والتي ظلت مغلقة اعـواما عديدة .

كان الأمير ، منذ بدأ تتبعه لقافلة المساجين ، يعيش في دوامة احساس مشبوب يحمله احيانا على الاهتمام باحساس الغير ومشاعرهم ابتداء من الحوذي وحرس القافـلة حتى مدراء السجون والسجانين .

لقد اتاح نقل (ماسلوفا) الى فرع المجرمين السياسيين ،فرحة سانحة (لنيكليندوف) للاتصال بالكثير من اولئك المجرمين الذين كانوا يؤلفون المجموعة التي لحقت بهـــا (كاترين) وخصوصا خمسة رجال منهم واربع نساء . وعلى ضوء هـــذه الاتصالات اجرى الأمير تعديلا على ما كان قد كونه لنفسه من رأي عنهم وعن الحزب الثوري الروسي بكامله .

كان (نيكليندوف) يكره القائمين بالحركة الثورية في روسيا في بداية امرها ، وكان يشمئز من العنف والوسائل الخفية التي يستعملونها في صراعهم مـع السلطات ، والدس والاعتداءات الاجرامية التي كانوا يقومون بها . كذلك كان يحتقر مظاهر الغرور المسيطر على الكثير منهم . ولكن بعد ان عرفهم عن كتب ، واطلع على ما كانوا يلاقونه من ظلم من السلطات ، ادرك ان اولئك لم يكن بامكانهم ان يكونوا غير ما كانوا .

ان الآلام التي يلاقيها من اصطلح على تسميتهم بالمجرمين العاديين قبـــل الحكم وبعده ، كانتا مـا كان نوعها هي على الاقـــل ذات مظهر شرعي . ولكن بالنسبة للمجرمين السياسيين فان هذا المظهر مفقود . وكان (نيكليندوف) قد رأى ذلك في بطرسبرج في مغارة (كيوستوفا) . اما الأن فانه يتبينه بصورة أجلى فيـــما يقصه عليه رفاق (كاترين) . لقد رأى ان ثمة تشابها بين الطريقة التي يعامل بهـــا اولئك التعساء وبين ما يفصله صيادو الاسماك الذين يطرحون صيدهم على رمال الشاطيء ثم يعمدون الى كبرى السمكات فياخذونها ثم يتركون صغارها ملقاة على الرمال .

هكذا كانت اجراءاتهم في تصيـــد الثوريين ، اذ كانوا يوقفون الناس بالمئات، وبدون تمييز ، حتى ولو كان بينهم ابرياء ، فيسجنونهم شهورا او اعواما الى ان يمرضوا ، ويجنوا ، او ينتحروا . يحتفظون بهم في السجون لعـدم الاسباب الموجهة لاخلاء السبيل ، او لموافقة بقائهم تحت تصرف السلطات لتفادي ملاحقتهم من جديد او ليكونوا شهودا . كان مصير هؤلاء منوطا بنزوات ومزاج مـــدير شرطة ، او مدعي عام ، او قاضي تحقيق ، او حاكم ، او وزرائه .

واذا عن لأحد الموظفين ان « يبرز » يعمد الى اعتقال كافة الشبان الذين يشتبه باشتغالهم بالسياسة واما اذا ارادالعيش بهدوء واطمئنان فلا يعتقل احد .

على مزاج الحاكم او الوزير يتوقف مستقبل هؤلاء الموقوفين فبعضهم ينفى الى اقاصي الارض والبعض الآخر يوضع في الزنزانات لذات الجرم . وللجرم نفسه يحكم على اخرين بالاشغال الشاقة ، بينما يحكم على غيرهم بالاعدام والجرم واحد . وكثيرون هم الذين يظلون احرارا لأن سيدة انيقة توسطت لهم .

هؤلاء التعساء يعاملون كما يعامل الاعداء ابان الحروب . وهم بدورهم يعاملون السلطات كذلك .

وكما يقوم الضباط والجنود في ساحات القتـال باقتراف اعمال هي في ايام السلم جرائم لا شك فيها ، كذلك فان اعمال العنف التي يقوم بها الثوريون في صراعهم مع السلطات تعتبر في نظر سلطاتهم نبيلة واخـــلاقية ، ذلك لانهم يأتونها على حساب حريتهم وحياتهم ، وكل ما هو ثمين عند غيرهم من الناس .

هكذا كان الأمير يفسر الامور لنفسه اذ يرى كثيرا ممن لا يقوون على تحمـل منظر الالم ينساقون بكل هدوء واطمئنان لاقتراف اعمال العنف والقتل ، ويوافقون على هذه الجرائم على اعتبارها وسيلة من وسائل الدفاع عن النفس ، او اداة صالحة لادراك مثل اعلى لاسعاد الانسانية .

والتقدير الرفيـع الذي ينظر به الثوريون لانفسهم ولاعمالهم منشأه دون شك الاهمية التي يوليها لهم اعداؤهم ، والشدة والعنف اللذين يلاحقونهم بها .

وعندما اتفق للامير ان اتصل بهم ووقف على حقيقة امرهم تبين له جليا انهم لم يكونوا جناة خطرين كما يصورهم البعض ، ولا ابطالا كاملين ؛ كما يراهم اخرون ولكنهم رجال عاديون بعضهم صالح والبعض الاخر طالح ، والاكثرية بينهم عادية . منهم من اعتنق مبـــادىء الثورة مخلصا لأعتقاده بوجوب مقاومة الشر ، ومنهم من

انتحل الثورية بدافع الانانية او الطموح او للمباهاة . ولكن اكثرهم انضم اليهـــا بدافع يعرفه (نيكليندوف) جيدا لانه انجرف معه ابان الحرب مـــع الاتراك . واعني به الدافع الذي يحمل الشباب على نشدان الخطر ، وحب المغـامرة تخلصا من الحياة الرتيبة .

واكتشف (نيكليندوف) بين بعض المجرمين السياسيين وبين غيرهم من الناس فارقا رئيسيا وهـــو ان الالتزامات المعنويه عندهم اسمى منها عنـد غيرهم من الناس العاديين .

والواقع ان المجرمين السياسيين كانوا يرون ان الواجب ليس مجرد احتمال للتعب والحرمان ، ولا مجرد صراحة وتجرد فحسب ، وانما تضحية بالممتلكات ، وحتى بالروح في سبيل المجموعة البشرية .

ومن هنا ، وبسبب اولئك الذين هم اسمى من مستوى الثوريين العام ظهر النقص واضحا جليا ، لما بين ذكائه والمثل العليا التي يتطلعون اليها من تناقض . وهكـــذا اصبح (نيكليندوف) يحمل لبعض المجرمين السياسيين الذين يرافقون (كاترين) تقديرا ، بينما كان لا يحمل لغيرهم سوى اللامبالاة والازدراء .

٣٦

كان (كريلتزوف) المبعد السياسي الشاب المصاب بالتـــدرن الرئوي الذي يرافق المجموعة التي منها (كاترين) — المفضل من الامير الذي تعرف عليه في مدينة (ايكاتبرنبرج) . وكثيرا ما كان يتحدث اليه منذ ذلك الوقت . وفي احدى المرات قضى معظم النهار معه ، خلال فترة استراحة القافلة . فقص عليه (كريلتزوف) تاريخ حياته .

كانت قصة حياته قصيرة ، على الأقل حتى تاريخ توقيفه : كان وهو طفل، قد فقد والده الملاك الثري بالقرب من (كييف) . فربته امه التي كان وحيدها وعلمته،وكان

في المدرسه والجامعة على السواء ، متفوقاً ومجليا في شتى المجـالات . واصبح وهو في العشرين من عمره في القمة بين الرياضيين . فنصح له اساتذته ان يذهب الى الخـــارج للدراسة ليصبح استاذاً في الجامعة . ولكنه كان متردداً لأنه احب فتـاة وكان ينوي الزواج منها والعيش بين املاكه. وفي احد الايام طلب اليه رفاقه في الجامعـة التبرع ببعض المال « للخير العام » . كان يعلم ان هذا « الخير العام » ثوري . ومـاذا يعنيه منه ؟ ومع ذلـك فقد تبرع له ببعض المـــال اكراماً لرفاقه ، وانفة من ان ينسبُ اليـــه الخوف . فضبط المال ، وعثر على قيود تثبت ان (كريلتزوف) هو المتبرع به ، فاعتقل وسجن .

كان يقص كل هذا على (نيكلينذوف) وهو جـالس في سريره وعلى ركبته عباءة محدقاً في الفضاء بعينيه السوداوين الحادتين .

ـ لم يكن قاسيا نظام السجن الذي اعتقلت فيه ، فقد كنا لا نمنـــع من تبادل الاشارات ، وان نتحدث مـع بعضنا في الممشى ، وان نتقاسم المأكل والتبغ ، وان نجتمع ليلاً وان نغني . وكان جوني جميلا . وكنت اجد لذة في الغناء مع المجموعة . ولولا ما كانت تلاقيه أمي من غم وحسرة لحسبت نفسي سعيـــداً . وتعرفت على بعض اشخاص من ذوي الأهميـة ، اخص بالذكر منهم (بتروف) الشهير الذي ذبح نفسه فيما بعد بقطعة من زجاج . ولكنني لم أكن ثوريا ، كمـا لم أكن على استعداد لأن اكونه .

وعندما جيء بي الى السجن كان بجواري شابان كانا قد أبعــــدا الى سيبيريا لتوزيعهما منشورات بولونية . وفي الطريـق حاولا الفرار ، وكان احدهما البولوني (لوزينسكي) والآخر من اصل يهودي ويدعى (روزمبرج) . كان هذا يكاد يكون طفلا وبالرغم من ادعائه انه في السابعة عشرة من عمره فقد كان واضحاً أنه لم يتجاوز الخامسة عشرة . كان قصير القامة ، نحيف الجسم ، تتقد عيناه السوداوان كالجمر ، قلقاً ثرثاراً ، وكسائر اليهود طبيباً بارعاً . كان صوته ، الذي لم يكن قد تطور بعد ، جميلا يلذ الأصغاء اليه .

وفور وصولها الى السجن اخرجا للمحاكمة. وفي المساء ابلغا الحكم عليهما بالاعدام. لم يكن هذا متوقعاً ، لأنهما على رغم مـا ابديا من مقاومة عند القبض عليهما ، فانهما لم يجرحا احداً . هذا فضلا عن انه كان من المستحيل التصور ان مراهقاً « كروزمبرج » سيحكم عليه بهذا الحكم القاسي . ولذا حسبنا ، نحن المساجين ، ان ذلك الحكم كان ارهابا لا غير ، وانه لن ينفذ . وهذا الأحساس الذي اثاره ذلك الحادث وعدنا لسابق حياتنا .

وذات ليلة ، أخبرني السجان سراً ان العمال يعدون المنصة . فلم افهم بادىء الأمر ما يعنيه . المنصة ؟ وأي منصة ؟ ولما كان الانفعال ظاهراً جلياً على السجان ، فقـد ادركت ما يعني . فأحببت ان انذر رفاقي ايماء ، ولكني خشيت ان يلحظ جاراي ذلك مني . وكان يخيم على الممرات والزنزانات سكون الاموات ، فظننت انرفاقي لا بد ان يكونوا قد اصبحوا مطلعين على ما سيحدث. ولم يعن لأحد منا أن يتحدث أو يغني تلك الليلة .

وفي الساعة العاشرة اخبرني السجان العجوز ان الجلاد آت من موسكو . فناديته لاستزيده ايضاحاً واذ بي اسمع « روزمبرج » يسألني من زنزانته قائلاً :

— ماذا جرى لماذا تدعوني ؟

فأجبته انني بحاجة للتبغ ، ويبدو ان « روزمبرج » قد اخذته الريبة لأنه بـــادر بسؤالي وهو مضطرب لماذا لم تغن تلك الليله ولم تتحدث · ولست ادري بماذا اجبته ، ولكني اعلم انني تناومت كي اضع حداً للحديث .

لم اطق النوم طوال تلك الليلة التي كانت مرعبـة بالنسبة لي . سوف لا أنسى هولها قط ما حييت . لقد لبثت في فراشي بلا حراك متسقطاً اقل تأمة ، مرتعداً كما لو كنت انا الذي سيعدم . وعند الصباح سمعت صوت باب الممشى يفتـح ، ووقفت ارقب من الكوة الصغيرة . كان النور ضعيفاً في الممشى فرأيت مدير السجن يمر من امامي ، وكان بدينا ، راضي النفس على الدوام ، شامخ الرأس . ولكنه كان ذلك اليوم شاحب اللون كالحا ويمشي وهو مطرق بنظره الى الارض . جاء ومن ورائـه

ضابط شرطة ودركيان . مر هؤلاء الاربعة من امام زنزانتي ثم وقفوا على مقربة منها فسمعت ضابط الشرطة يقول: « انهض يا(لوزنسكي)وألبس قميصاً أبيض ». ثم ران صمت عميق ، سمعت بعده صوت باب يفتح ووقع أقدام البولوني وهو يخرج من سجنه . لم أكن أستطيع أن أرى من الكوة غير المدير الذي كان شاحب اللون ، مهدماً ، يفتل شاربيه دون أن يرفع رأسه. وفجأة رأيته يتراجع إلى الوراء كالمذعور، إذ كان (لوزنسكي) قد مر من أمامه ليقترب من زنزانتي .

كان (لوزنسكي) شاباً جميل الصورة ، ونموذجاً للفتى البولوني . جبهة عريضة مستقيمة ، وشعر أشقر ناعم يطل من تحت طاقيته وعينان زرقاوان رائعتان كعيني الطفل ، وصحة ممتلئة حيوية ، وزهرة إنسانية حقيقية . كان قد وقف أمام الباب بشكل كنت أستطيع أن أرى وجهه جيداً. لقد كان انئذ كالح الوجه مرعباً وباسماً في نفس الوقت ، فقال : « هل لديك لفافة تبغ يا (كريلتزوف) ؟ » فهممت بأن أقدم له ما طلب ، وإذ بالمدير يسرع بتقديم حافظته له . فتناول (لوزنسكي) لفافة أشعلها له الضابط ، وراح يدخن وهو يفكر . وفجأة رفع رأسه كمن تذكر أمراً وقال : « انه تظلم ، فأنا لم أفعل شيئاً . أنا ... » وارتعش عنقه الأبيض الذي لم أقو على أن أرفع نظري عنه ، ثم سقط على الأرض .

وهنا سمعت (روزمبرج) يصرخ بصوت اليهودي المرتعش فطرح (لوزنسكي) لفافة التبغ ثم ابتعد عن الباب ، وهنا تقدم (روزمبرج) منه ، كان وجهه ، وجه الطفل ، بعينيه الصغيرتين السوداوين ، مختنقاً ويتصبب عرقاً ، كان يلبس قميصاً أبيض أيضاً ، وكانت سراويله طويلة جداً ، وكان لا ينفك يرفعها باستمرار إلى ما فوق وسطه ، وكان جسمه يرتعش ، فأطل من الكوة وقال : « صحيح أن الطبيب أشار أن أشرب نقيع الأعشاب يا (اتا تولبو بيتروفيتش) ؟ أنا مريض وأريد أن أشرب هذا النقيع » ، فلم يجبه أحد ، وكان يرسل نظرات استرحام ينقلها بيني وبين المدير ، ولم أعلم قط ماذا كان يعني بكلمة منقوع الأعشاب .

وعاد الضابط إلى الصياح ، فقال بلهجة قاسية : « هيــه ، كفى مزاحاً ، إلى

الامـام ، » ولكن (روزمبرج) لم يكن بحيث يستطيـع أن يفهم مه ، إذ راح يركض في الممشى أولاً ، ثم وقف وسمعت توسلاته الممزوجة بشهيق البكاء ، ثم بدأ الشهيق يخفت رويداً رويدا ، وأغلق باب الممشى ولم أعد أسمع سوى صراخ ذلك المنكود الحظ (روزمبرج) يرتفع من حين لآخر .

لقد أعدما شنقاً ، وقص علي سجان حضر المشهد ان (لوزنسكي) ظل هادئاً ، ولكن (روزمبرج) قاوم كثيراً كثيراً وطويلا ، ممـــا اضطرهم لأن يرفعوه إلى المنصة بالقوة ، وان يدخلوا رأسه ضمن حلقة الحبل . كان ذلك السجان قزماً نموذجياً بلد إحساسه الخمر . « لقد أكدوا لي انه شيء رهيب . ولكني لم أره كذلك . حالما وضع رأسه داخل حلقة الحبل اهتزت أكتافه مرتين . فشد الجلاد العقدة على عنقه ، فانتهى كل شيء . أوكد لك انه ليس رهيباً كما قيل لي » .

وعندما انتهى (كريلتزوف) من روايته هـــذه ، اعتراه الوجوم ، ورأى (نيكليندوف) ان يديه ترتعشان ، وانه يحاول حبس عبراته .

– منذ ذلك الوقت أصبحت ثورياً . – أضاف يقول عندما هدأت اعصابه . وأكمل بقية تاريخ حياته .

كان قد انضم إلى حزب الشعبيين فترأس فرقة من الإرهابيين كي تتنازل الحكومة عن السلطة تحت ضغط الخوف فتسلمها للشعب . وسافر باسم فرقته إلى بطرسبرج ، والى خارج البلاد ، وعاد إلى (كييف) ثم إلى (أوربا) دون ان يتعرض له أحد بسوء . ولكن رجلاً كان قد وضع ثقته به أبلغ عنه ، فاعتقل وسجن سنتين حكم عليه بعدها بالاعدام ثم استبدل هذا الحكم بالأشغال الشاقة المؤبدة . وفي السجن أصابـه المرض ، وهو الآن بسبب حالته الحاضرة ، يعلم ان ايام حياته معدودات ، ولكنه لا يتألم لذلك ، ويقول (لنيكليندوف) انه لو اعطيت له حياة جديدة اذن لقضاها في العمل على الاطاحة بأوضاع تقرأ مثال ذلك الظلم والقسوة .

وهكذا كشفت قصة ذلك الفتى المنكود الحظ ، وسائر كيانه عن أشياء كثيرة لم يكن (نيكليندوف) قد أدركها حتى ذلك الوقت .

- ٣٧ -

استيقظ الأمير (نيكليندوف) ، الذي كان يبات في الفندق ، صبيحة اليوم الذي تشاجر فيه الضابط والسجين في فنـــاء دار السجن متأخراً عن ميعاده ، فكتب عدة رسائل كان لا بد من كتابتها وهكذا الحق بالقافلة متأخراً كثيراً . وعند المساء بلغ قرية كانت إحدى مراحل استراحة القافلة ، فأوى إلى الفندق حيث غير ثيابه الداخلية والخارجية التي كان الضباب قد بللها ، ثم جلس في القاعة الكبيرة النظيفة الجميلة الأثاث والتي تعلق على جدرانها صور القديسين ، والعائلة المالكة الأمبراطورية . وبعد ان تناول عدة كؤوس من الشاي ، محتملاً ثرثرة صاحبـة الفندق ، تهيأ للخروج كي يستحصل من الضابط على إذن بالتحدث مع (كاتوين) .

كان هذا الطلب قـــد رفض خلال الأيام الأخيرة ، الا انه استطاع ان يتحدث قليلاً اليهـــا وإلى رفاقهـا في الطريق ، ولكنهم رفضوا السماح له بالدخول إلى غرف المسجونين ، بحجة أنهم يتوقعون زيارة موظف كبير يرافقه مفتش السجون . وأخيراً جاء المفتش ، وبأصح تعبير مر مسرعاً دون ان يتوقف ، وهكذا اصبح أمل (نيكليندوف) كبيراً في ان يسمح له الضابط الذي تولى القيادة من جديد بالتحدث الى المساجين كأسلافه .

وعرضت صاحبة الفندق على الأمير ان تحمله في عربتها الى القافلة التي كانت في الطرف الثاني من القرية ، غير انه اعتذر مفضلاً الذهاب ماشياً على الأقدام . فتقدم أحد خدم الفندق ، وكان عريض الأكتاف ، يحتذي حذاء طويلا مدهوناً بالقطران حديثاً ، وعرض نفسه لمرافقته . كان الضباب من الكثافة بحيث أن (نيكليندوف) لم يكن يرى رفيقه الذي كان يمشي امامه على بعد خطوات ، إنمـا كان يسمع خبط حذائه الكبير عندما يغوص او يرفعه من الوحل الكثيف ، وعندما اجتاز شارع القرية الطويل ، حيث كان يشاهد بصيص بعض الأنوار عبر بعض النوافذ ، اشتد الظلام حلكاً ، ولكنه لم يلبث ان رأى المصابيح المضاءة على باب السجن كنقـط حمراء ، ثم أخذت تزداد حجماً ووضوحاً الى ان اتضحت تماماً وتبين الأمـــير غرفة الخفير

وشبحه الغامض واقفاً بجانب الباب شاهراً سلاحه . فصاح الخفير بكلمته التقليدية في الظلام الدامس قائلا : « من يعيش ؟ » . ولما تبين ان القادمين ليسا من القافلة ، صاح فيهما انه ليس بإمكان أحد الدخول الى هنا، حتى ولا الوقوف قريباً من المكان. غير ان الدليل الذي كان يرافق الأمير لم ترهبه تلك الفظاظة فأجابه :

ـ ايه لك يا رجل . تبدو كالعفاريت ! أبلغ رئيسك أننا ننتظره هنا .

فالتفت الجندي الى ناحية الباب ومضى لينادي احد رفاقه ، ثم عاد الى حيث كان فرأى الخادم كيف كان ينظف حذاء الأمير من الوحل بقبضة من الورق ، وكان يسمع عبر الجدران ضجيج متشابك من ضحك وحديث .

وفتحت كوة صغيرة في الباب بعد انتظار قليل ، فرای (نيكليندوف) عريفاً عجوزاً يبدو من خلال الضباب مرتدياً بزته الرسمية تنعكس عليه أنوار المصابيح فبدا جسمه كاملاً . فسألهما ماذا يريدان منه ، فقدم له الأمير بطاقته التي كان يحملها بيده ورجاه ان يبلغ رئيس القافلة أنه يرغب التحدث اليه بقضية شخصية .

كان العريف أقل قسوة من مرؤوسه ، ولكنه كان فضولياً فأحب ان يعلم لماذا يريد (نيكليندوف) ان يرى الضابط ، ومن أين آت ، ومن هو ؟ كان دون شك ينتظر مكافأة ، لأنه أبى ان ينقل البطاقة للضابط الا بعد ان وعده الامير بها إذا استحصل له على إذن بمواجهته . فطأطأ رأسه وعاد مسرعاً . وبينما كان الامير ودليله ينتظران أمام الباب . فتح هذا ليخرج منه جمهور من النساء يحملن سلالاً وأكياساً وأباريق وزجاجات . كن يتحدثن مع بعضهن ويسرعن في الكلام بلهجتهن السيبيرية الغامضة . وكن يرتدين معاطف قصيرة تجعلهن أقرب الى بنات المدينة منهن الى بنات القرية . وكن قد شمرن ثيابهن حتى كانت سيقانهن تبدو حتى الركب . فأقبلن يتفحصن الامير ودليله على ضوء المصابيح . ودفع السرور إحداهن عندما عرفت خادم الفندق لتغدق عليه سيلاً من الشتائم بسرعة ، ممازحة على الطريقة السيبيرية :

ـ أهذا انت يا خنزير ؟ لماذا جئت أيها الحيوان الخبيث ؟

ــ جئت أرافق غريباً ــ أجاب الفتى ــ وأنت ما تحملين ؟
ــ جئت احمل جبناً ، وقيل لي تعالي غداً .
ــ او لم يطلب اليك ان تنامي ! قال الفتى يسأل بخبث .
ــ عد معنا الى القرية .
فقال الفتى كلمة أضحكت الجميع حتى الخفير الجاف . ثم التفت الى الامير وقال له :
ــ هل تعرف طريق العودة .
ــ اجل ، اجل فاذهب بسلام .
ــ عندما تبلغ الكنيسة . الباب الثالث على اليمين بعد البيت الكبير ذي الطابقين هناك الفندق . خذ عصاي فقد تحتاج اليها . ثم اعطاه عصاً طويلة رفيعة كان يحملها بيده ثم توارى وراء الضباب مع النسوة متخبطاً بالوحل بحذائه الضخم .
وعندما عاد العريف العجوز ليبلغ الامير موافقة الضابط على مقابلته له . كان لا يزال ضحك النسوة ولغطهن يبلغ سمعه .

- ٣٨ -

دخل الامير إلى بناية تكاد تكون كغيرها من البنايات المبنية في المحطات على الطريق الى سيبيريا . كانت مؤلفة من ثلاثة أبنية اقيمت على منبسط من الارض ، يحيطها سور عـــال . وكان المساجين يقيمون في اكبرها التي كانت نوافذها محاطة بقضبان حديدية . وينزل الحرس في الثانيـــة ، بينما كانت الثالثة مخصصة للضابط والكتبة . وكان ينبعث منها عبر زجاج النوافذ نور يشع كالامل بالاطمئنان والسرور والراحة ، الخداع دائماً ولا سيما في مثل هذه الحالة . ويعلق بجانب باب كل بناية مصباح ينشر فيما حوله نوراً باهتاً يبلغ السور حيث كان يعلق خمسة مصابيح اخرى .

وقاد العريف (نيكليندوف) الى البناية الصغرى . وبعـد ان صعد معه ثلاث درجات أفسح له المجال ، فدخل الامير الى ردهة صغيرة ينيرها مصباح وتفوح فيها رائحة الفحم الخانقة . وكان في احدى زواياها جنـــدي لا يرتدي سوى القميص

وسروالا اسود منهمكاً بإعداد (الساموفار) . ولما رأى الامير اسرع ليأخذ معطفه ثم هرع الى الفرقة التالية وقال :

ـ لقد حضر يا سيد .

ـ فليدخل . ـ أجابه صوت تدل نبراته على مزاج سيء .

ـ تفضل ادخل يا سيد . ـ قال له ثم انشغل (بالساموفار) .

فتقدم الامير . كان ينير الغرفة مصباح معلق في سقفها وكان في وسطها طاولة عليها بقايا طعام وزجاجتان فارغتان . وكان يجلس وراء الطاولة ضابط ذو شاربين أشقرين كبيرين ووجه محمر، ويلبس سترة نمساوية ذات نطاق تبرز عرض العجيزة والاكتاف . وتفوح في جو الغرفة الثقيل رائحة كريهة ممتزجة برائحة دخان التبغ .

ـ أي خدمة أستطيع ان أسديها لك ؟ قال الضابط يسأل (نيكليندوف) عندما دخل عليه وقد حدجه بنظرة تتلاقى فيها السخرية بالريبة . وبدون ان ينتظر الجواب صاح وقد اتجه نحو الباب :

ـ يا (بيرنوف) هل تريد ان تحضر هذا (الساموفار) اللعين ام لا .

ـ حالاً . حالاً .

ـ انتظر قليلا كي اعطيكه انا . ـ صاح الضابط غاضباً وقد اتقدت عيناه .

ـ ها قد جئت به . ـ اجاب الجندي ثم دخل يحمل الساموفار .

فوضعه على الطاولة . وكان الضابط اثناء ذلك يتتبع حركاته بنظرات شر، كأنه يفتش عن أفضل مكان ليصفعه عليه . ثم جاء بوعاء مربع الشكل مليء بالكونياك والبسكوت ، والتفت الى (نيكليندوف) الذي كان لا يزال واقفاً امامه فكرر سؤاله :

ـ بماذا استطيع ان اخدمك ؟

ـ كنت ارغب في التحدث مع احدى السجينات .

ـ أهي سجينة سياسية ؟.. النظام يمنع ذلك .

ـ كلا. ليست سجينة سياسية : ـ أجاب الأمير .

ـ تفضل اجلس . ـ قال الضابط .

ـ انها ليست سجينة سياسية . وانما بفضل توسطي لها سمح بسفرها مع المجرمين السياسيين . ـ قال (نيكليندوف) متابعاً كلامه وهو يجلس .

ـ آه . لقد عرفتها ، لقد عرفتها . هي امرأة صغيرة الجسم سمراء اللون .. لم لا اجل تستطيع ان تراها .. اتدخن .

قال ذلك وهو يقدم الى الامير علبة اللفائف. ثم ملأ كأسين من الشاي قدم احدهما للامير قائلا له :

ـ تفضل .

ـ اشكرك . ارجو ان تسمح لي بأن أرى .

ـ الليل طويل ، وسيكون لديك متسع من الوقت لكل شيء . سأعمل على أن تأتي .

ـ لا حاجة لذلك . سأذهب انا الى عندها ..

ـ لعند المجرمين السياسيين .. النظام يحظر ذلك ..

ـ لست افهم . ما دام غيرك من الضباط السابقين قد سمحوا لي بذلك . أفتخشى ان احمل لهم شيئاً . في مثل هذه الحالة سيكون باستطاعتي ان ابعث لهم به مع هذه المرأة .

ـ هذا غير ممكن، فبتحرينا لها نتفادى ذلك، قال الضابط وقد لمز لمزة استخفاف.

ـ اذن تفضل بإصدار الأمر بأن يتحروني .

ـ كلا . كلا . ما لهذا اقصد . ـ اجاب الضابط ، ثم قدم الوعاء المربع قائلا : أتريد .. لا . كما ترغب .. كن على ثقة من ان المرء عندما يكون مرغما على قضاء الحياة في سيبيريا هذه فانه لمن دواعي سروره التقاؤه بشخص مثقف يتحدث اليه . هكذا تقضي التزامات العمل . ولكن تأكد انه عمل مؤلم ، ولا سيما عندما يكون الانسان معتاداً على اشياء أخرى ، فعندئذ يكون شديد الازعاج .. أنا اعلم بأي عين ينظر الينا الناس . ان اي ضابط يكلف بمرافقة المساجين هو دائماً بنظر الناس، جاهل

قاس ووضيع ، وليس من يؤمن بأنه خلق لغير هذا النمط من الحياة .

طوال المدة التي كان الضابط يتكلم فيها، كانت عين الامير لا تفارقه لحظةواحدة كان وجهه المحتقن الغامض ، وذلك الخاتم الذي في اصبعه ، وتلك الرائحة الكريهة ، وعلى الاخص تلك الابتسامة المستخفة الخبيثة تحدث غثياناً في نفسه . ولكنه كان آنئذ ، وطوال مدة الرحلة ، في وضع لا يسمح له بازدراء كائن من كان ، ويرغمه على وضع ثقته بسائر الناس على حد تعبيره . كان الامير قد ادرك حالة الضابط النفسيةمن خلال حديثه الذي كان يصغي اليه . فقال جاداً :

ـ اعتقد انكم وانتم تمارسون عملكم هذا تستطيعون الحصول على غراء شهي بتخفيف الآم اولائك التعساء الذين وضعوا تحت حراستكم .

ـ اي آلام ؟ يا لهم من معشر .. كلهم من فصيلة ..

ـ لا تحدثني عن فصيلة بعينها . ـ اجاب (نيكليندوف) ـ انهم لا يختلفون عن غيرهم من بقية الناس ، وقد يكون بينهم من هم ابرياء .

ـ لا شك في ان بينهم من جميع الانواع . ولا ريب في ان مصيرهم يثير الشفقة . من الضباط من يطبقون الاوامر بحذافيرها ، اما انا فاحاول ما استطعت تخفيف ويلاتهم ، افضل ان اتألم انا ، يوجد من يحتمي بالنظام ، اما انا فاتحمل اشياء كثيرة.. اترغب . ـ قال له وقد ادنى منه كأساً جديداً من الشاي . ـ وهذه المرأة التي ترغب في مواجهتها ..

ـ انها سيئة الحظ . لقد حكم عليها بجرم لم تفكر قط حتى في اقترافه .

فهز الضابط رأسه وقال :

ـ في الواقع ان مثل هذا قد يحدث احياناً .. اذكر انني في (كازان ، عرفت امرأة .. كانت تدعى (امّا) .. كانت مجرية المولد وكان لها عينان .. عينا فارسية. وهنا لم يطق الضابط اخفاء بسمة ارتياح . يا لها من انيقة ! ويا لتصرفاتها ! . ان من يراها يحسبها كونتيس .

ولكن الامير قاطعة ليعود الى سابق دفاعه .

ـ كنت اقول انني اعتقد ان بامكانهم التخفيف عن اولئك المساكين ، على الاقل خلال مدة بقائهم تحت رعايتكم . وانا واثق من انكم متى قمتم بذلك فانكم ستشعرون بسرور لا يوصف .

كان (نيكليندوف) يلفظ كلماته بتؤدة ، مشدداً على مقاطعها ، كما يتحدث الانسان الى الغرباء . وكان الضابط ينظر الى الامير بفارغ الصبر لانه كان دون شك ، يرغب في ان يفرغ محدثه من الكلام ليعود الى قصة الجرية الحسناء ذات العينين السوداوين الفارسيتين التي عاوده خيالها من جديد أثر تذكرها فاسترعى سائر حواسه .

ـ هكذا هو . قال عند اول توقف للامير عن الكلام ـ كذلك انا اشفق عليهم . ولكن لنعد الى (امّا) هذه التي كنت احدثك عنها ، انت لا تستطيع تصور ما كانت تقوم به ..

ـ لا يهمني . ـ اجاب (نيكليندوف) : انا اقول ما اشعر به . لقد كنت كذلك في زمن مضى ، اما الآن فان اقاصيص علاقات الرجال بالنساء تزعجني .

فحدج الضابط الامير بنظره كالمرعوب ، وقال له :

ـ اترغب في كأس من الشاي .

ـ كلا . اشكرك .

وعندئذ صاح الضابط قائلا :

ـ يا (بيرتوف) ، رافق السيد الى عند (فابولوف) وقل له ان لديه رخصة بالدخول الى دارة المساجين السياسيين حيث يستطيع البقاء حتى ساعة الاستعراض .

- ٣٩ -

كان نور المصابيح الاحمر يكاد لا يخترق الضباب عندما عاد الامير الى فناء دار السجن ، يرافقه الجندي .

ـ الى اين انت ذاهب يا (بيرتوف) ؟.. قال له الخفير .
ـ الى الدارة الخامسة .
ـ لا تستطيـع المرور من هنا ، فالباب مغلق . اذهب من الباب الآخر .
ـ ولماذا أغلقوه ؟
ـ اسأل العريف الذي أغلقه وذهب الى القرية .
ـ اذن من هنا ـ قال (بيرتوف) ثم مشى باتجاه المكان المعين .

فلحق به الأمير . وكان ما يزال في باحة الدار حينما بلغ سمعه ضجيج الأصوات، ولفظ الكلام وجلبة الحياة الإنسانية ، اشبه ما يكون بقفير النحل . ولكن عندما أصبح اكثر قرباً وفتح الباب ، تعالت الضجة بأكثر قوة ، واختلطت الأصوات ، ما بين صارخة وضاحك وشاتمـة . وبعضهم كان ينادي البعض الآخر . كذلك بلغ سمعه صليل القيود والأغلال ، ولهاث الناس الكريه الذي يعرفـه (نيكلينـدوف) جيداً . كان الانطباع الذي يحدثه ذلـــك اللفظ البشرى ، مضافاً اليه صليل القيود والأغلال ، ورائحة ذلك اللهاث الكريه توجد في نفس (نيكليـنـدوف) إحساساً أليماً ، وتقززاً معنوياً ، يضاعف التقزز الحسي ويقوي احدهما الآخر .

ودخل الامير الى القاعـة الاولى ، وكانت عبارة عن ردهة للبناية التي خصصت للمساجين التي كان في وسطها كرسي قـــذر أسود كانت تجلس عليه امراة مشمرة الثياب ، وهي تتحدث بهدوء الى سجين كان واقفاً امامهـا ، محلوق الرأس ، مقيد الرجلين . وعندما رأى الامير غمز بعينه وقال :
ـ حتى القيصر نفسه لا يستطيـع التخلص من هذه الحاجة .
فنهضت المرأة واقفة وأصلحت ثوبها بهدوء .

كان يتفرع عن تلك القاعة ممشى تفتح عليه أبواب المهاجع المختلفة . فالمهجع الأول كان مخصصاً للعائلات ، والثاني للرجال وحدهم . والثالث ، وكان اضيقهم ويقع في نهاية الممشى ، فقد كان مخصصاً للمجرمين السياسيين .

كان في تلك البناية ما يزيد على أربعمابة شخصاً ، بيـنما لم تكن تتسع لاكثر من

مئة وخمسين . وكانت من الضيق وعدم القدرة على الاستيعاب بحيث ان كثيراً من المساجين الذين لم يجدوا مكاناً في المهاجع تجمهروا في الممشى ، بعضهم كان جالساً ، وآخر متمدداً ، وغـــيره كان يمشي مسرعاً ذهاباً وإياباً ، وفي يده كأساً من التنك فارغا او ملآناً بالماء الساخن لاعداد الشاي ، وكان بينهم (تاراس) الذي تقدم من الامير فحياه تحية صادقة عندما وقع نظره عليه . فلفتت نظر الامير اطخة من دم على أنف القروي وعينه ، فقال يسأله : ـ ماذا فعلت ؟

ـ أعمال الكلاب . ـ اجاب (تاراس) ضاحكاً .

ـ يتضاربون على الدوام . ـ قال الجندي متدخلاً وبلهجة احتقار .

ـ قصةفساتين يا سيد . ـ قال سجين كان يتبعهم ـ . لقد اشتبك في عراك مع (فدكا) .

ـ وكيف (فيدوسيا) ؟

ـ هي بحاله حسنة. شكراً ها أنذا أحمل لها الماء لتعد الشاي.ـ أجاب (تاراس) ثم دخل إلى مهجع العائلات .

فألقى الامير نظرة من البـاب المفتوح ، فرأى من في المهجع من رجال ونساء قابعين في الزوايا بين الاسرة وتحتها . وكان الهواء محملًا ببخار رطب ميال الى البياض منبعث من الثياب الرطبة التي كانت تجفبفعل الحرارة. وكان صراخ النساء المتواصل يصم الآذان .

كان الزحام من أشده في المكان المعـــد للرجال . وكان المساجين يلتفون حول عجوز يوزع عليهم شيئاً . فأوضح (بيرنوف) للأمير ان ما يوزعه بينهم كان ما ربحوه او خسروه في المقامرة ، او ما استعير بموجب سند كتب على ورق اللعب ذاته .
وعندما أبصر من كانوا في الصفوف الخلفية الامير والجندي يقتربان منهم ، وحجوا وأحذوا يرمقونهم بنظرات العداء . ورأى الامير بالقرب ممن كان يحيط بالرجل المسن (فيد وروف) مطوقاً بذراعيه عنق زميل له أشقر اللون أجرء الوجه ، وكأنه وارم . كذلك رأى شخصاً آخر معروفاً للرزائل ، تشمئز منه النفوس، وكان كثيراً

ما يرافق (فيدوروف) . ومجرماً آخر كريه المنظر مرعباً وبلا أنف ، وشهيراً لاكله لحم رفيقه الذي ذبحه عندما فر . كان هذا واقفاً في منتصف الممشى واضعاً سترته على كتفيه بلا عنـــاية ، ناظراً إلى الامير نظرات ساخرة . ولم يتزحزح من مكانه حتى اضطر الامير إلى التنحي جانباً ليمر .

لم يكن المشهد الذي رآه « نيكليندوف) الآن بالجديد لديه . لقـد شاهد خلال الاشهر الثلاثة الاخيرة ، ألوف المجرمين بوضعيات وأوقات مختلفة بعضها خلال أيام الرحله القائظة عندما كانوا يجرون قيودهم بجهد كبير سائرين تحت الغبار الكثيف ، الذي كان يرتفع أثناء مسيرتهم ، وبعضها الآخر خلال الاستراحات في المحطات وفي فناء دار السجن تحت لهب الصيف المزعج ، حيث كانت تحدث أحداث مرعبة . ومع ذلك فقد كان يدركه الخجل عندمـا يكون بينهم لشعوره بمسؤوليته . وكان أكثر ما يغمه ، ويسبب له الالم المبرح بالاضافة الى الشعور بالمسؤولية والخجل ، كان الرعب والاشمئزاز . كان يعلم جيداً ان الوسط الذي شب هؤلاء الاقوام فيه لا يمكن بحال من الاحوال ان يأتي بثمرات أفضل. الا انه لا يقوى على كبح رعبه واشمئزازه .

وعندما دخل الامير الى مهجع المجرمين السياسيين آذت سمعـــه صرخة ساخرة أطلقها صوت أبـح تبعها شتائم ومسبات .

– يقضي هؤلاء الكسالى حياة حسنة .

وأعقبت هذه العبارة قهقهة عدائية ساخرة .

– ٤٠ –

ودع الجندي الامير بعد ان اوصله الى مهجع المساجين السياسيين ووعده بأن يعود لمرافقته مرة ثانية بعد الاستعراض . ولم يكد الجندي يفارق الامير حتى أبصر هذا سجيناً يدنو منه مسرعاً بمقدار ما يسمح له قيده ، وأسر اليه قوله .

– ينبغي ان تتدخل . لقد وقع المسكين في الفخ لانهم أسكروه . فأجاب بدل عن (كارمانوف) . وانت وحدك الذي تستطيـع انقاذه . أما نحن اذ تدخلنا فإنهم يقتلوننـا .

ثم اختفى بين الجمهور الذي كان يملأ الممشى بعد ان فاه على عجل بهذه الكلمات متلفتاً يميناً وشمالاً .

لقد كانت القصة جد معروفة من (نيكليندوف) . كان احد المساجين ويدعى (كارمانوف) قد اقنع سجيناً آخر محكوماً عليه بالابعاد ، وشبيهاً به ، ان يتبادلا الاسماء ليتبادلا مدة العقوبة . كان السجين الذي جاء الآن يخبر الامير بخبر الحادث قد سبق واطلعه في الاسبوع الماضي عليه ، وتوسل اليه ان يعمل على تفادي وقوع هذه الجريمة النكراء . وهو الآن يعود فيتوسل اليه مرة اخرى ، لان له به سابق معرفه اذ كان قد طلب منه التوسط ليسمحوا بمرافقة زوجته له . كان هذا ويدعى (مكاريوس ديفكين) ربع القامة عادي المنظر في حوالي الثلاثين من عمره ، محكوماً بالسجن بجرم محاولة سرقة مع القتل . كان قد ارتكب هذه الجريمة مجهول — على حد تعبيره هو — لم يكن يشير اليه الا بهذه الكلمة . وقد يكون الشيطان مجسداً . والقصه هي ما يلي :

جاء ذات يوم غريب الى منزل والد (مكاريوس) فاشترى عربته مقابل روبلين كي يذهب الى قريته التي تبعد اربعين (فرستا) فعهد الوالد الى الولد بقيادة العربة فاسرج (مكاريوس) الجواد وغير ثيابه لمرافقة الغريب . وكان هذا قد اخبرهم انه يعود الان الى قريته ليتزوج وانه يحمل في حقيبته خمسماية روبل حصل عليه من عمله في (موسكو) . وعندما عرف « مكاريوس » ذلك مضى الى صحن الدار حيث احضر فأسا واخفاها بين القش في العربة .

— مما لا شك فيه كوجود الله . — كان يقول — انني لا ادري لماذا اخذت الفأس كان « مجهول » قد امرني بأن اخذ الفأس فأخذتها . وبدأنا الرحلة وكنا قد قطعنا معظمها . وكنت قد نسيت الفأس . كان امامنا ستة اميال لا غير لبلوغ القرية . وكان في طريقنا منحدر يجتاز غابة كبيرة . فترجلت من العربة كيلا اتعب الجواد ، وعندئذ عاد « المجهول » فاسر في اذني : « ماذا تفعل ؟ وبماذا تفكر ؟ ستصادف مارة متى اجتزت الغابة وبلغت أعلى الطلعة ، اذ هناك تبدأ القرية . اذهب

فليس لديك وقت تضيعه . هذه فرصتك . » فانحنيت على العربة بحجة اصلاح القش فجاءت الفأس من تلقاء ذاتها الى يدي . فالتفت الغريب اليّ عندئذ وقال لي :

ـ ما هذا ؟

فرفعت الفأس بيدي . ولكن الرجل كان قوي اليدين فقفز الى الارض وقبض على رسغي .

ـ ما كنت تريد ان تفعل ايها الحقير ؟ قال لي
ثم طرح بي على الثلج فلم اقاوم . فشد اكتافي بمنديله واصعدني الى العربة واقتادني راسا الى دار الحكومة . فاعتقلت وحوكمت وحكم علي بالسجن . ونظم سائر جيراني عدة شهادات بحسن سلوكي وعدم ارتكابي اي جرم . وتدخل السيد الذي كنت اخدمه لصالحي. ولكن لما لم يكن لدي من الموارد ما يمكنني من اقامة محام عني فقد حكم علي بالاشغال الشاقة لأربع سنوات .

هذا هو الرجل الذى لم يتردد في افشاء سر هائل للأمير ، بغية انقاذ احد رفاقه ، وهو يعلم ما ينتظره من الخطر اذا ما وقف رفاقه في السجن على فعلته .

- ٤١ -

كان يفصل المهجعين المعدين للمجرمين السياسيين ، عن الممشى حائطان يكونان ردهة صغيرة .

كان (سيمونسون) يجلس القرفصاء امام المدفئة محاولا اضرام النار فيها بطريقة من مبتكراته الخاصة ، عندما دخل الامير الردهة ، وعندما ابصره ذلك لم يغير من وضعه ، وانما حدق فيه من تحت حواجبه الكثيفة ماداً له يده .

ـ لقد احسنت بقدومك ، فلدي ما اقصه عليك ـ قال له بلهجة جادة معبرة ، وهو لا يزال يحدق بنظره فيه .

– ما الذي ستقصه علي ؟

– سأقوله لك فيما بعد اما الآن فانا مشغول – قال ذلك ثم مضى ينفخ النـار في المدفئة .

وفيما كان الامير يهم بالدخول الى احد المهجعين اذا (بكاترين) تخرج من ثانيهما. كانت قد رفعت ثوبها حتى بدا ساقاها ، وكانت ترتدي صدرية بيضاء وغطـاء رأس ابيض ايضاً اسدلته على وجهها حتى كاد يغطي عينيها وقاية لشعرها من الغبار. كانت ، وهي مقوسة الظهر ، تكنس الغرفة بمكنسة قديمة ذات مقبض قصير. وعندما ابصرت الامير انتصبت بملء قامتها ، طارحة المكنسة جانباً ، ونظفت يدها بطرف ثوبهـا وتقدمت من الامير والبشر باد على محياها .

– اراك تنظفين البيت . – قال لها الامير ماداً لها يده .

– اجل لقد عدت لسابق مهنتي . – اجابت الفتاة باسمة ، لقد استحال المكان الى مزبلة ، وليس من يرضى أن ينظفه .

قالت ذلك والتفتت الى (سيمونسون) وسألته :

– هل جف الثوب ؟

– لقد أوشك على الجفاف ، اجابها وهو يرمقها بنظرات استغربها الامير .

– سأتي بعد قليل لأخذه ، وسأحضر معي قطعاً اخرى لتجفيفها، قالت (ماسلوفا) ثم انصرفت الى الامير .

– كلهم مجتمعون هنا . قالت له مشيرة الى المهجع الاول .

ففتح الامير الباب ودخل .

كانت تلك الحجرة التي ينيرها مصباح من التنك صغيرة جداً . وكانت على النقيض من غيرها ، باردة ومشحونة برائحة دخان التبغ والغبار والرطوبة . كان المصباح ينير وسط الغرفة ولكن الأسرة التي بجـانب الجدران كادت تكون في شبه ظلام دامس حتى تكاد لا ترى وجوه الجالسين عليها .

كان سائر المساجين السياسين مجتمعين هناك ما عدا « سيمونسون » ورجلين آخرين كانا يعدان طعاماً للعشاء .

وكانت « فيرا افراموفنا » وهي أكثر شحوباً ونحولا مما كانت عليه في السجن ، وترتدي ثوباً رمادي اللون ، جالسة تتلهى بصنع لفائف التبغ امام صحيفة منشورة امامها ، مرعوبة النظرات ، محتقنة الاصدرين .

كذلك كان ثمة سجينة سياسية أخرى هي « اميليا رانتزوف » وكان الامير يعرفها ويودها كثيراً . كانت هي المعنية بحاجات المجموعة المنزلية ، فجعلت من عملها هذا مهمة سارة مليئة بالعذوبة واللطف ، بالرغم من الظروف الشاقة المحيطة بها . كانت انئذ وهي جالسة تحت المصباح ، وقد حسرت عن ذراعيها ، تغسل كؤوس الشاي وصحافها . وعلى الرغم من انها لم تكن جميلة ، فقد كانت ما تزال فتية ، وكان لوجهها الطيب الذكي قابلية التبدل تبدلا كاملا عندما تبتسم ، فيتخذ عندئذ تعبيراً مرحاً ضاحكاً يجعله جميلا فعلا ، فاستقبلت الامير باحدى هذه البسمات الشهية .

ـ ظننا انك عدت الى روسيا ـ قالت له :

ورأى الامير في احدى الزوايا « ماري باولوفنا » التي كانت تحمل على ركبتيها طفلة صغيرة شقراء لا تنفك تثرثر بصوتها الطفولي العذب

ـ كم يسرني مجيئك ـ قالت للامير عندما أبصرته ـ لدينا الآن رفيقة جديدة ـ قالت ذلك ثم اشارت الى الطفلة

وكان « اناتول كريلتزوف » الشاحب اللون الضامر الوجه يجلس على السرور متربعاً وقد أخفى يديه داخل كميه مراقباً للامير بعينيه الكبيرتين ، وفيما كان هذا يهم بالسلام عليه اصطدم بشاب احمر الشعر يحلي اصابعه بالخواتم ، كان واقفاً يتحدث مع امرأة جميلة كانت تبتسم له . فاسرع الامير لمصافحته لا لانه يشعر بميل خاص اليه وانما لكونه الوحيد بين سائر المجرمين السياسيين الذي كان الامير يستثقل ظله . ولذا رأى من الاوفق السلام عليه للتخلص من وجوده . فنظر هذا

الفتى وهو (نوفودفوروف) بعينيه الواسعتين اللتين كانتا تتقدان عبر زجاج نظاراته ، الى الأمير ومد له يده الطويلة الناحلة مصافحاً .

– حسن . وهل راقتك الرحلة ؟ – قال بسخرية ظاهرة .

– أجل . لقد راقتني كثيراً . اجاب (نيكليندوف) متظاهراً بعدم إدراك سوء ما يقصد . ثم بادر للسلام على (كريلتزوف) .

كان يظهر اللامبالاة . ولكن كانت كلمات (نوفود فوروف) ورغبته الواضحة في الاساءة اليه ، قد حطمت ما كان يحمله منذ بعض الوقت من رغبات متفائلة ، وأحس بعدم الارتياح والغم ، وكان يندم على قيامه بتلك الزيارة .

– هل أنت بصحة جيدة ؟ – قال يسأل (كريلتزوف) مصافحاً يده المثلجة التي ترتعش من الحمى .

– أجل ، انا على احسن ما يكون ، فشكراً . ولكني اشعر بالبرد ولا أجد الدفء . – قال هذا وأسرع يدس يده داخل كمه . – وفضلا عن ذلك فالغرفة باردة برودة شيطانية ويوجد لوحان من الزجاج مكسورين فيدخل الهواء عبرهما . قال ذلك وأشار الى النافذة ذات القضبان الحديدية .

– لماذا تأخرت عنا كل هذه المدة ؟ – اضاف يقول .

– لقد منعوني من الدخول ،وهذه هي المرة الاولى التي يتساهل فيها الضابط معي .

فأخذت (ماري باولوفنا) تقص عليه الحادثة التي حدثت في الصباح بسبب الطفلة وهي ما تزال جالسة .

– أرى انه يجب علينا ان نحتج اجماعياً . – قالت (فيرا ايفرا موفنا) بلهجة جازمة ، وهي تنقل نظراتها المذعورة بين رفاقها . – لقد قال (فلاديير سيمونسون) لهذا الفظ ما يستحقه . ولكن يبدو لي انه غير كاف .

– ولم الاحتجاج؟ – اجاب (كريلتزوف) وقد لمز بفمه لمزة تدل على الضجر .

كان ظاهراً ان غلو (فيرا) يثير ثائرته ويحدث له رد فعل عصبي حاد .

– هل تبحث عن (كاترين) ؟ – أضاف يقول للأمير – انها لا تزال تشتغل . لقد

كنست هذا المكان . وهي الآن تزيل الغبار عن ثياب النساء بالفرشاة ، ولكنها لا تقوى على إراحتنا من هذا العمل اللعين الذي تلاقي منه الأمرين . وما الذي تصنعه (ماتشا) هناك في الزاوية ؟ ـ قال يسأل . ثم وقف لينظر الى حيث كانت تجلس (ماري باولوفنا) .

ـ انما تمشط شعر ابنتها . ـ قالت (اميليا رانتزوف) .

ـ المهم ان لا تنشر بيننا ما انتزعته منها من قمل . قال (كريلتزوف) .

كلا . كلا . لا تخشى ذلك فهنا يسيطر الضمير . ـ قالت (ماري باولوفنا) . ها قد أصبحت نظيفة ، فاليكها يا (اميليا) فأنا ذاهبة لأساعد (كاترين) .

فأخذت (رانتزيف) الطفلة وأجلستها على طرف ثوبها بعناية الأم وقدمت لها قرصاً من السكر .

والتقت (ماري باولوفنا) عند خروجها بالرجلين اللذين كانا قد ذهبا لابتياع مآكل .

- ٤٢ -

كان احد السجينين اللذين دخلا الغرفة لا يزال شاباً ، صغير الجسم نحيله ، يرتدي فروة قصيرة وحذاء طويلاً وكان يمشي مسرعاً حاملاً بكلتا يديه ابريقاً كبيراً مليئاً بالماء الساخن ويتأبط بكلا الجانبين رغيفة خبز ملفوفاً بمنشفة .

ـ آه . ها قد أطل أميرنا . ـ قال وهو يضع الابريقين بجانب الاكواب التي أعدتها (رانتزيف) . ـ لقد اشترينا كثيراً . ـ أضاف يقول بعد ان خلع فروته ، ورمى بها من فوق رؤوس رفاقه الى الركن حيث كان سريره . ـ آتنا بالبيض والحليب يا (ماركل) فنحن في عيد حقيقي : وستقدم (اميليا) لنا ذلك فتجمله بنظافتها المميزة لها . ـ أضاف يقول مبتسماً ابتسامة موجهة (لرانتزيف) .

كان كل شيء في كيان ذلك الرجل ينطق بمزيج من الاقدام والمرح ، سواء في ذلك حركاته ونبرات صوته ، ونظراته ، وسائر تصرفاته . على عكس رفيقه الذي

كان غامض المظهر حزينه ، قصير القامة غليظ العظام ، رمادي الوجه ، بارز عظام الوجه ، وكان يرتدي معطفاً قديماً من الحشايا ، وينتعل قبقاباً فوق حذائه . وعندما وضع على الأرض سلة وعلبة من التنــك كان يحملهما حيا الامير بفتور ، فصوبا اليه نظرات عينيه الخضراوين الواسعتين .

كان هذان السجينان السياسيان ينتميان الى طبقة الشعب : وكان احدهما يدعى (نوباتوف) وهو قروي . والآخر يدعى (ماركل) وهو عامــل مصنع . ولكن هذا لم يصبح ثورياً الا بعد ان بلغ الخامسة والثلاثين من عمره ، بينما كان (نوباتوف) ثورياً منذ طفولته . وقد أظهر في مدرسة القرية من التفوق والاجتهاد ما حمل أهله على ان يرسلوه الى المعهد حيث أصبح من المجلين وإحرز المدالية الذهبية . ولكنه بدلاً من ان يلتحق بالجامعة عاد إلى قريته كي يعلم مواطنيه مــا تعلمه هو . وعين معقب دعاوي . وقرأ على أبناء القرى كثيراً من الكتب واعارهم اياها . وأسس منهم جمعية للتعاون المتبادل ، فاعتقل على أثر ذلـــك بقليل . وعلى الرغم من اخلاء سبيله بعد انقضاء ثمانية اشهر ، فقد ظل محط أنظار الشرطة الدائم ، لانه ما كاد يصبـح حراً طليقاً حتى عاد إلى سيرته الاولى . فاعتقل من جديد واحيل الى المحاكمة فحكم عليه بالسجن عامين ، ولكنه لم يتنازل عن شيء من آرائه . وبعد ان أخلي سبيله للمرة الثانية أبعد الى ولاية (بيرم) حيث قضى ستة أشهر . ولما رفض ان يقسم يمين الولاء للأمبراطور الجديد ، اعتقل مرة أخرى وحكم عليه بالنفي الى ولاية (جاكونتيسك) في أقاصي سيبيريا . وهكذا فقـد قضى الرجل ما يقرب من نصف حياته في السجون والمنفى ، ولكن كل هذا لم يؤثر في شيء على طباعه وأخلاقه به عـلى العكس زاده نشاطاً وإقداماً .

كان يتدفق بالعافية مادياً ومعنوياً ، شديد الاحتمال . وكان في كل مكان وعند كل مناسبة نشيطاً مقداماً مرحاً . لم يكن يتذكر الماضي قط ، ولا يحاول التنبؤ بما سيكون ، وإنمــــا كان يكرس سائر ذكائه وبراعته وحاستـه العملية للحاضر وعندما يخلى سبيله كان يعود الى عمله الاول وهو تعليم القرويين . وفي السجن كان

يحاول ما استطاع تحسين ظروف حياته وحياة غيره من المساجين .

كانت الحياة لأجل الغير حاجة طبيعية في نفسه . ولما كان ليس بذي عادة سيئة ، و كان بمقدوره حرمان نفسه من المأكل والنوم بمقدار ما يرغب لصالح الغير ، فقد كان يبدد جهوده كقروي نشيط . و كان على الدوام مثال القروي الجاد الماهر النشيط ، الشريف بطبعه ، المستعد دوماً لمساندة مقترحات وأفكار الآخرين .

كانت أمه العجوز القروية الجاهلة ، المؤمنة بالخرافات لا تزال حية . وعندما يكون طليقاً يأتي لزيارتها فيعاونها بكل أعمالها المنزلية ، ويرافق تلامذته السابقين الى الحانة والحقول ، ويدخن وهو يتحدث اليهم ، ويتبارى وإياهم في الملاكمة ، وبين كل ملاكمة وأخرى كان يشرح لهم اسباب جهلهم وضعفهم .

كان ، وهو يحلم دائماً بالثورة لمصلحة الشعب ، لا يقر ان تغير هده او ان تعدل كثيراً في ظروف حياته . كان يأمل ان تعمل الثورة على جعل القرويين ملاكاً الأرض ، وان تنقذهم من الملاكين والموظفين . و كان من رأيه - خلافاً لرأي (توفود فوروف) - ان الثورة يجب ألا تقطع صلاتها بالماضي ، وألا تغير كل التغيير العادات والاعراف ، وانما ان توزع كنوز التقاليد القومية الجليلة بما هو أقرب لروح العدالة .

و كان طابعه القروي يبدو حتى في القضايا الدينية . ولم يكن يولي كبير عناية لمسائل ما وراء الطبيعة والمبادىء الاولية والحياة الاخرى . و كان يردد على الدوام ان « الله » في نظره فرضية لا لزوم لها كما قال (لابلاس) . وقليلاً ما اهتم لمعرفة كيفية بدء الكون . والداروينية التي كان الكثير من رفاقه يحملونها محمل الجد ، كانت في نظره نظرية جد كبيرة كخلق الكون في ستة ايام .

كذلك لم يكن يفكر في الحياة الاحرى . ولكنه كانت تتأصل في نفسه عقيدة ورثها عن أسلافه ، وهي عقيدة يشترك فيها سائر الذين يعيشون على اتصال مباشر بالطبيعة . كان يؤمن بأن الانسان شأنه شأن عالم الحيوان والنبات حيث لا يتلاشى شيء وانما يتحول ، كذلك الانسان لا يموت ، وانما يستبدل شكل حياته .

ومن هنا جاء انه كان ينظر دائماً الى الموت بلا خوف ولا مرارة . ولكنه لم يكن يروقه التفكير بهذا الاعتقاد ، وأقل من ذلك التحدث عنه . كان العمل كل ما يسره ، ولذا كان دائم العناية بالمسائل العملية ، ويجتهد في تقليد رفاقه .

وكان رفيقه (ماركل) يختلف عنه تماماً . لقد دخل المعمل وهو في الخامسة عشرة من عمره ، ومنذ ذلك الحين اولع بالتدخين ومعاقرة الخمرة ليكبت شعور الذل الذي كان قد استيقظ في نفسه . كانت ولادة ذلك الشعور في نفسه ذات ليلة من ليالي عيد الميلاد عندما أقامت زوجة صاحب المعمل حفلة لابناء عمال المصنع دعته اليها وقدمت له ولرفاقه هدايا من التفاح والصفارات والجوز المموه بلون الذهب ، بينما قدمت لبنيها لعباً جد رائعة لا يقل ثمن الواحدة منها عن خمسين روبلا .

لقد لبث (ماركل) في عمله عشرين عاماً . وعندما اتصل بالثوريين كان قد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره ، وذلك على أثر دخول فتـــاة ثورية كعاملة في المصنع بقصد الدعاية للحزب. فأقامت علاقات معه واعارته كتباً ومنشورات وكانت تناقشه وتظهر له بوضوح وضعه ووضع رفاقه في الدنيا ، وأسبابه ، والسبل الكفيلة بتحسين أحوالهم المتواضعة .

ولما تجلت له إمكانية تحرره وتحرير غيره من ذلك السجن المرهق الذي يرزحون تحت وطأته منذ الصغر ، تجلت له كذلك فداحة الظلم في هذا الارهاق ، وهكذا أضيفت الى رغبته في التخلص من ذلك النير رغبة اخرى أشد جموحاً في الانتقام من المضطهدين .

ولما أكدوا له ان العلم كفيل بتحقيق معجزة تحرره انكب على الدرس . او ليس العلم هو الذي أظهر له مدى الاجحاف في وضعه ؟ اذن فهو الذي سيضع حداً لهذا الاجحاف . كذلك فللعلم قوة رفع شأنه واحلاله مكاناً أسمى من غيره من الناس وكانت تلك دائماً أمنيته الدائمة الخفيـــة . وهكذا أقلع عن التدخين ومعاقرة الخمر لينصرف بكليته في اوقات فراغه الدرس .

وظلت الثورية على صلة وثيقة بـــه . وكانت شديدة الاعجاب بحماسه في درس المسائل العويصة . فدرس خلال عامين الهندسة والتاريخ والجبر . وقرأ عدد من كتب النقد والفلسفة ، ولكنه عني بصورة خاصة بالادب الاشتراكي المعاصر ، وأصبح من أشد انصار الاشتراكية تحمساً ، وعندما سمح له بالعودة الى مسقط رأسه ، وذلك بعد بضعة شهور ، ترأس اضراباً عمالياً انتهى بإضرام النار في أحد المصانع وقتل صاحبه . فاعتقل من جديد وهو الآن يبعد أبدياً الى سيبيريا .

كان راديكالياً فيما يتعلق بالدين والاقتصاد السياسي . ولما كان قد أصبح مقتنعاً من فساد المعتقدات التي شب عليها ، فقد كان شديد الرغبة في الانتقام من أولائك الذين أبقوه على ضلاله القديم . ولذا كان لا يكف عن اعلان كراهيته للكهنة ورجال الدين ، ويسخر بمرارة من التعاليم الدينيه .

كانت له مظاهر الزهاد ، وكان كغيره ممن مرنوا على العمل منذ نعومة اظفارهم يكاد لا يتعب من الاعمال الجسدية ، الا انه كان يحتقرها على مختلف أشكالها ، وكان ، سواء اثناء وجوده في السجن ، او في محطات الاستراحة يهيء لنفسه قليلا من الوقت ليواصل دراسته التي كان يزداد في كل يوم اقتناعاً بأنها العمل الوحيد النافع الشريف . وكان انئذ على وشك الفراغ من دراسة كتاب « رأس المـــال » (لكارل ماركس) ، الذي كان يخفيه في اسفل الكيس ، والذي كان يقضي ليله مكباً عليه ككنز ثمين .

كان متحفظاً ولا مبالياً بالنسبة لكافة رفاقه باستثناء (توفود فوروف) الذي كان يحبه كثيراً ، ويرى في آرائه اكبر حقيقة .

وكان يرى في المرأة العقبة الكبرى في سبيل التحرر الاجتماعي وتطور الذكاء الحر . ولذا كان يحتقرها احتقاراً تاماً ما عدا (كاتوين) التي كان يرى فيهـــا المثال النموذجي لاستغلال الطبقة العليا للطبقة الدنيا . ويعاملها معاملة خاصة ، ولذا كان لا يدع مناسبة تفوته دون ان يظهر (لنيكلنيدوف) استثقاله لظله .

كانت المدفأة قد اوقدت ، وارتفعت حرارة الجو قليلا وانزعت اقداح الشاي ، وصفت على احد الأسرة انواع المأكولات كالخبز الابيض والأسمر والبيض المسلوق ، والزبد ، وقوائم العجول . فتقدم الجميع من السرير ، وشرعوا يأكلون ويشربون ويتحدثون . وكانت (رانتزيف) وهي جالسة على صندوق ترحب بهم كما لو كانت سيدة المنزل وهم ضيوفها . ولم يختلط (كريلتزوف) بالجماعة وظل وحده ، يتحدث مع (نيكليندوف) بصوت خافت بعد ان استبدل الفروة المبتلة بالماء بسترته التي كانت قد جفت .

وانعش ذلك العشاء ، والدفء ، ونكهـة الشاي ، المرح والسرور في نفوس المساجين ، بعدما قاسوه من برد ورطوبة خلال الطريق ، وبعدما صادفوه من قذارة وفوضى في محطة الاستراحة ، وبعدما بذلوه من جهد اضطراري لترتيب وتنظيف المكان ، واعداد ذلك العشاء .

وكان الصراخ ، والشتائم ، والضوضاء المبعثة من الشقة المخصصة للمساجين العاديين ، التي كانت تصلهم عبر الحاجز ، تجعل ذلك الاحساس بالطمأنينة والراحة شهياً ، لما بين الحالين من تناقض . كانوا يحسون وكانهم معزولين في جزيرة صغيرة في محيط صاخب . وهذا الانطباع كان يبعث في نفوسهم نوعاً من نشوة ذهنية تجعلهم يذهلون عن ويلات وضعيتهم الحالية وينقادون لأسيادهم .

وكما يحدث دائما عندما يجتمع شباب من الجنسين - ولا سيما اذا كانوا مرغمين على العيش معا ، فقد قامت فيما بينهم علاقات خفية مقصودة كانت أم غير مقصودة . كان الجميع او يكادون ان يكونوا عشاقاً . فهذا (توفود فوروف) يصبح عاشقا للصبية الحسناء المرحة « غرابيتز » . كانت هذه وهي طالبة ، قليلة التفكير ، لا تهتم بالقضايا الثورية . ولكنها مع الايام تأثرت بهم واشتركت في بعض المؤامرات فحكم عليها بالنفي . وكما كان شغلها الشاغل في الجامعة مطاردة الطلاب ، فانها لا تعني بشيء آخر

منذ دخلت السجن الى الآن . كانت ترى نفسها سعيدة لأن (توفودفوروف) أحبها حقاً وبادلته الحب .

وكانت « فيرا ايفراموفنا »، التي قضت حياتها محبة دون ان تبادل بالحب، ودون ان ينضب معينه لديها تصعد زفرات مكبوتة كلما رأت (نوباتوف) او (توفودفوروف) . وكان (كريلتزوف) يشعر بميل (لماري باولوفنا) التي كان يحبها حقاً حب الرجال للنساء ولكنه ، وهو العليم برأيها في الحب ، كان يخفي حبه تحت مظاهر الصداقة والاعتراف بالجميل .

وكان (نوباتوف) عاشقاً ايضاً . كان هو (واميليا رانتزيف) يتبادلان علاقات بريئة ولكنها عاطفية اخر الأمر . وكما كانت « ماري باولوفنا » مثال الفتاة البريئة حقاً ، كذلك كانت (رانتزيف) مثال المرأة والزوجة الكاملة .

عندما كانت هذه لا تزال في المدرسة ، وفي حدود السادسة عشرة من عمرها ، احبت (رانتزوف) الذي كان آنئذ طالباً في جامعة بطرسبرج ، وتزوجت منه بعد ذلك بثلاثة اعوام . وبما ان زوجها قد اشترك بمظاهرات جامعية فقد حكم عليه بالنفي، وعندئذ قطعت دراستها في كلية الطب لترافقه ولما كان قد اعتنق المباديء الجديدة فقد تأثرت به وانضمت للجماعة الثورية . ولم يكن زوجها اجمل الرجال واذكاهم وأفضلهم في نظرها على الاقل لما احبته ولما رضيت بالزواج منه . وما دامت قد احبته وتزوجت به لاعتقادها هذا ، فانها ترى من الفظاعة بمكان أن تنظر الى الحياة بغير المنظار الذي ينظر اليها فيه . كان زوجها في بداية حياته الزوجية يرى أن انبل غاية في حياته هي انصرافه للدرس ، وعندئذ شرعت تدرس الطب . ثم اصبح زوجها فيما بعد ثورياً ، فالتحقت بالثوريين ، وكانت تشرح بوضوح كأي من رفاقها مواطن الجور في النظام الاجتماعي الراهن ، ولماذا يتوجب على كل شخص العمل على اسقاطه واستبداله بنظام جديد تستطيع الشخصية الانسانية في ظله ان تنمو بحرية كانت واثقة من ان هذه كانت افكارها ومشاعرها الخاصة ولكن الحقيقة كانت انها لم تكن تفكر قط إلا

بما يراه زوجها صواباً . وكان حلمها الوحيد وامنيتها الغالية هي توحيد ذاتيهما توحيداً تامـــاً .

وفصلت عن زوجها وولدها لاشتراكها باعمـــال شغب جديدة . فكان هذا الانفصال شديد الايلام لهـا . كانت تتحمله بعزيمة ثابتة ، لأنها كانت تعلم انهـــا تقاسيه لأجل زوجها ، وفي سبيل قضية جديرة بكل تضحية. بينما كان زوجها لا يريد لها تلك التضحيات . لم تكن تفكر إلا في زوجها · وكما أحبته قبل ان يتفتح قلبهـــا لغيره كذلك فهي لا تستطيـع أن تفتح قلبها لأحد من بعـده . غير أن الميل البريء المتحرر الذي كان (توفودفوروف) يظهرة نحوها ، كان يؤلم نفسها ، ويسرها في آن واحد . ولما كان اخلاقياً بالفطرة ، متحكماً في رغباته واهوائه ، فقـــد كان يجهد نفسه في معاملتها كأخت . غير ان علاقاته بها كانت في بعض الاحيان تعكس ما هو أعمق من شعور الاخ والأخت . وكان هذا يبعث في نفسيها قلقاً وسروراً خفياً.وهكذا فلم يكن بين تلك الجماعة من هو خلي البال والقلب من لواعج الهوى غير (ماري باولوفنا) والعامل « ماركل » .

- ٤٤ -

ظل (نيكليندوف) جالساً يتحدث الى (كريلتزوف) بانتظـار فرصة مناسبه يخلو فيها بعد العشاء الى (كاترين) شأنه كل مرة كـان يقضي فيها السهرة بين الجماعة في محطات الاستراحـة . فقص عليه في جملة ما قصه ، حديث (مكاريوس) له عن وضعية المعبد . وكان (كريلتزوف) يصغي اليه بانتباه محدقاً فيه بعينيه الكبيرتين البراقتين .

ـ ها انت ترى . ـ قال يجيب على الفور ـ كثيراً ما افكر في غرابة حالنا، نحن نساق الآن الى سيبيريا مع هؤلاء . ماذا أقول ؟ الاصوب ان أقول اننـا نساق الآن الى سيبيريا من أجل هؤلاء ، ولكننا لا نعرفهم ، بل اننا لا نحـاول ان نعرفهم . هم يكرهوننا ويعاملوننا كالأعداء . أليس ذلك رهيباً ؟

ـ كلا . ليس ذلك بالأمر الرهيب . ـ قال (توفود فوروف) وكان قداقترب من سرير المريض ـ ما كانت الجماهير قط إلا جاهلة فظة ، ولا تحترم غير القوة . ـ قال بصوته الرنان ـ القوة بيد الحكومة اليوم، ولذا يحترمها الناس ويحتقروننا. وغداً عندما نحصل على السلطة سيحترموننا .

وهنا سمع في المهجع المجاور ضربات على الحائط وصليل القيود، وصراخ وزعيق . كان أحد المساجين يستجير ولا من مجير ، ويستغيث ولا من مغيث ، لقد كان يجلـد .

ـ اتسعمون هذه الحيواناب المفترسة ؟ أي علاقة تريدون أن نقيمها معهم، ـ قال (نوفود فوروف) باطمئنان .

ـ أتصفهم بالحيوانات المفترسة ، اسمـع ما قصه علي (نيكليندوف) الآن عن احـدهم .

وأعاد عليه (كريلتزوف) خبر ما فعله (مكاريوس) انقاذاً لأحد رفاقه ، ثم أضاف .

ـ ما أظن هذا خليقاً بالحيوانات المفترسة .

ـ العاطفية . ـ قالها (نوفود فوروف) هازئاً وهو يبتسم . ـ كأننا ندرك ما في نفوس هؤلاء ، والدوافع التي تكمن وراء تصرفاتهم ، فقد يكون بغضا مـا نحسبه بطولة منهم .

ـ وأنت لا تؤمن بوجود ما هو صالح عند الغير ، قالت (ماري باولوفنا) .

ـ كيف أرى ما ليس موجوداً ؟

ـ ولماذا لا تقدر قدر من عرض نفسه تطوعاً لموت رهيب .

ـ اعتقد انه اذا كنا نريد انجاح قضيتنا ، فأول ما يجب علينا الأخذ به هو ألا تنساق بعيداً مع الاحلام ، وان نرى دائماً الأمور كما هي .

كان (ماركل) قد مشى نحوهم مصيخاً بسمعه ومصغياً الى كلمات الرجل الذي يعتبره كمعلم ، بعد ان اغلق كتابه الذي كان يقرأ فيه وهو واقف تحت المصباح .

وكان (نوفودو فورف) ما زال يواصل كلامه وقوراً حازما كأنه كان يلقي محاضرة .

ــ ان واجبنا ان نفعل كل ما نستطيع فعله لصالح الشعب دون ان ننتظر اي شيء منه . ينبغي تكريس جهودنا له ، ولكنه لن يستطيع التعاون معنا الى ان يتخلص من الخمول الذي ينحل ويتلاشى فيه . ان المخدوع وحده هو الذي يتوقع من الشعب اي عون مهما كان ضئيلا ما دام لم يستكمل تطوره المعنوي ، ذلك التطور الذي نعده له .

ــ أي تطور ؟ ــ سأله (كريلتزوف) وقد اعتدل في مقعده . ــ نحن نكافح ضد الاستبداد ، ولكن عملنا الذي نمجده هو في حد ذاته استبداد وضيع أيضاً .

ــ وأين هو الاستبداد ؟ ــ أجاب (نوفود فوروف) دون ان ينفعل . ــ أنا أقول انني أعرف السبيل الصالح الذي ينبغي على الشعب ان يسلكه ليستكمل تطوره وبوسعي إرشاده اليه .

ــ ولكن من خولك حق التأكيد بأن السبيل الذي ترشد اليه هو السبيل الأقوم؟ ألم توجد محكمة التفتيش باسم هذه المباديء ؟ والثورة الفرنسية ألم ترتكب جرائمها باسمها ايضاً ثم ادعت أنها وجدت في العلم ، السبيل الأوحد الذي يجب السير عليه .

ــ إذا كان غيري قد خدع ، فليس من الضروري ان أخدع . وفضلا عن ذلك ، فليس من وجه شبه بين سخافات دعاة المثل العليا ، وبين تأكيدات علم الاقتصاد الوضيعة .

كان صوت (نوفود فوروف) الجهوري يملأ القاعة . ولم يكن ثمة من يجرؤ على مقاطعته .

ــ على م تختصمون ؟ ــ قالت تسأل (ماري باولوفنا) عندما أنهى ذاك كلامه .

ــ وماذا ترين ؟ ــ قال لها (نيكليندوف) .

ــ أرى ان الحق مع (اناتول) فبوسعنا ان نفرض أفكارنا على الشعب .

– تلك طريقة غريبة لفهم مهمتنا . قال (نوفود فوروف) ، ثم أشعل لفافة تبغ ومضى عنهم والاستياء باد عليه .
– كلما تحدثت اليه اخرج عن طوري ، وعبثاً حاولت تفادى ذالك . – اسر (كريلتزوف) في اذن (نيكليندوف) .
وكان الأمير قد أحس بشيء من هذا . ولكنه أسره لنفسه .

– ٤٥ –

على رغم التقدير الذي يحمله رفاق السجن (لنوفود فوروف) وعلى رغم غزارة علمه ، وتقديره الكبير لنفسه ، فقد كان الأمير يرى فيه نموذجاً حياً لأولئك الثوريين الذين لكونهم دون المستوي العام ، يختفون اذا ما وجدوا في جو يسود فيه هـذا المستوى . ولكنه كان يعترف له بالتفوق على أكثرية الثوريين من حيث الثقافة ، ويقول بأن غروره وأنانيته المفرطين الناشئين عن ظروف حياته ، قد أحالا ذكاءه عقيما .

وكان (نيكليندوف) يرى ان سائر نشاطات (نوفود فوروف) الثورية صادرة عن الحسد وحب التسلط والظهور ، على الرغم مما يعزو لها من دوافع رائعة .

كانت موهبة ادراك أفكار الغير وإبرازها بشكل واضح جلي ، فحاز بسببها على اعجاب الناس في مختلف الأوساط التي تقدر مثل هـذه المؤهلات وعلى الأخص في المدرسة والجامعة حيث كان المدرسون ورفاق الدراسة يعترفون له بالذكاء مما كان له تأثير كبير على إنماء غروره . ولكنه عندما أنهى دراسته ، وانقطع عنه ذلك الاطراء لم يستكن لذلك فعمد على الفور الى استبدال آرائه بآراء أخرى جديدة ليعود فيسيطر في أجواء اخرى . وهكذا انقلب من تحرري تقدمي الى ثورى متحمس .

لقد أهله خلوه التام من المزايا الاخلاقية والفنية التي تولد الشك والتردد ، لادراك ما يصبو اليه من رئاسة الحزب الثوري في مدة قصيرة . كان لا يشك ولا يتردد اذا ما قرر أمراً ، ولذا كان يثق دائماً من أنه لن يخدع . كان يبدو له كل شيء بسيطاً ،

واضحاً ، لا يقبل الجدل . وكانت سائر الأفكار تبدو في نظرة واضحة بسيطة لضيق أفقه ، ولذا كان على الدوام يردد قوله . بالمنطق تتضح الحقائق .

كان من الاعتداد بالنفس بحيث كان يعسر القرب منه دون ان يحس المرء برغبته في فرض سلطته عليه ، او ان يضطر الى الوقوف في وجهه ، ولما كان على الدوام يعمل مع فتيان يلتبس لديهم الاعتداء بالنفس بالأفكار السامية، فقد استكان لسلطانه أكثرية هؤلاء مما يجعله يحتل خلال وقت قصير مكانة مرموقة في الاوساط الثورية . كان رفاقه يخشونه ، ويقدرونه لاقدامه وحزمه ، ولكنهم لم يكونوا يحبونه ، كما لم يكن يحب أحداً . كان يرى في كل رجل يتمتع بموهبة بارزة منافساً له ، وكم كان يتمنى لو يستطيع تجريد سائر ذوي المواهب من مواهبهم ليصرف عنها الانتباه العام ولم يكن يظهر تلطفاً إلا لمن ينحنون أمامه . وهكذا فانه طوال الرحلة لم يظهر ميلا لغير (ماركل) ذاك الذي تبنى سائر آرائه ، وللمرأتين اللتين كان يزعم أنهما مغرمتين به وهما (ماري ايفرامونا) والحسناء (غرابتز) .

كان (نوفود فوروف) من الوجهة النظرية من القائلين بتحرر المرأة ، ولكنه عملياً كان يرى فيها مخلوقة سخيفة وبليدة ، باستثناء أولئك اللواتي كان يهواهن ، ويصفهن بأنهن مخلوقات غير عادية ، واللواتي لم يكتشف غير مواهبهن . لقد أحب هكذا كثيراً من النساء وعاش حياة زوجية مع خليلتين ، ولكنه هجرهما عندما أدرك ان ما يشعر به نحوهما لم يكن حباً حقيقياً . وهو الآن يتهيأ لاتخاذ خليلة جديدة هي (غرايتز) .

كان يحتقر (نيكلیندوف) لأن هذا كان يتصرف مع (ماسلوفا) تصرف « الغبي المدعي » على حد تعبيره . ولكن حقيقة كرهه له كان عدم مشاطرة الأمير له آراءه حول وسائل اصلاح عيوب المجتمع ، اذ كانت له آراؤه الخاصة ، ويعالج القضايا الاجتماعية كما يعالج الأبله ، وكان (نيكلیندوف) مدركاً لحقيقة ما يشعر به ذلك الثوري نحوه ، ولم يكن يجهل ، على رغم ما كان عليه من حسن النية ان ما

من قوة في ارض لا تستطيع ان تحول دون ان يعامل ذلك الرجل بمزيج من الاحتقار وخبث النفس .

- ٤٦ -

عندما هم الأمير بالتحدث (لكاترين) بعد ان فرغ المساجين من تناول طعام العشاء وشرب الشاي ، سمع صوت الرئيس في القاعة المجاورة فوجم الجميع ، وفتح الباب ودخل الرئيس يتبعه حارسان لتفقد المساجين الليلي. فأحصى المساجين السياسيين واحداً واحداً وهو ينطق بأسمائهم بينما كان احد الحارسين يلمسهم باصبعه .

وعندما استكمل الرئيس تفقده للمساجين التفت الى الأمير ، وقال له بمزيج من الاحترام ووحدة الحال .

– تفضل أخرج يا حضرة الامير . لا يجوز ان تظل هنا بعد استعراض اللائحة .

ولكن (نكليندوف) كان يدرك مغـــزى هاته الكلمات ، فتقدم من العجوز ودس في يده ورقة من ذوات الثلاث روبلات .

– يبدو ان من العسير طرده . بوسعك البقاء هنا بعض الوقت .

وفيما كان الرئيس يهم بالخروج من القاعة دخلها سجين طويل القامة نحيل الجسم حول احدى عينيه هالة زرقاء يرافقه حارس .

– جئت أبحث عن الطفلة . ـ قال السجين .

فارتفع صوت طفلة ، وبرز رأس أشقر من بين النسوة اللواتي كن يخطن ثوباً للطفلة من احد فساتين (رانتزيف) قائلا . ـ هذا أبي .

– تعالى يا حبيبتي ، تعالي نامي . ـ قال لها السجين .

– ستكون هنـــا احسن حالاً . ـ أجابته (ماري باولوفنا) وهي تحـدق في وجه المهشم .

– دعها معنا .

ان السيدة تصنع لي ثوباً جديداً فستاناً أحمر . ـ أجابت الطفلة إياها وأرته ما تخطه لها (اميليا رانتزيف) .

ـ أترغبين في البقاء معنا ؟ ـ سألتها هذه وهي تداعبها .

ـ أجل ، ولكن اريد ان ينام ابي معنا ايضاً .

فانفرجت شفتا (رانتزيف) عن احدى ابتساماتها التي تضفي على وجهها مسحة من الجمال .

ـ ينام ابوك في الغرفة المجاورة ، ولكنه يسمح لك بأن تنامي معنا . أليس كذلك . ـ قالت ذلك والتفتت الى الأب .

ـ سووا أموركم كما تشاؤون . ـ قال الرئيس ثم خرج يتبعه الحراس الثلاثة .

ولما ذهب هؤلاء تقدم (نوباتوف) من أب الطفلة وقال له وقد وضع كفه العريضة على كتفه .

ـ قل لي يا أخي ، هل صحيح ان (كارمانوف) ينوي تبادل الاسم مع منفي آخر ؟

فتجهم وجه السجين الهادىء فجأة وأطرق بنظره .

ـ لم نسمع بشيء من هذا ، تقال أشياء كثيرة كاذبة . اجاب ثم قال دون ان يرفع نظره من الأرض ـ يا (انيوتكا) ابق هنا مع هؤلاء السيدات الرائعات .

ـ وفر مسرعاً .

ـ انه يعرف كل شيء . ويجب ان يكون صدقاً ما قاله (مكاريوس) . ـ قال (نوباتوف) هذا موجهاً الكلام للأمير .

فصمت الاثنان رغبة منهما في تفادي المشاكل .

كان (سيمسونسون) طيلة الوقت صامتاً لا ينبث ببنت شفة مستلقياً على السرير ، فنهض من فراشه بحزم ، ثم شق طريقاً له بين المساجين وتقدم من الامير .

ـ هل تسمح بالاصغاء لي بعض الوقت ؟

ـ بكل سرور . ـ أجابه الأمير ثم ذهب واقفاً يتبعه .

وإذ رأت (كاترين) ان الامير قد وقف احمر وجهها وحولته على الفور .

ـ اليك ما أردت ان اصرح لك به. قال (سيمونسون) بعد ان مشى مع الامير حتى الردهة .

كان الصخب شديد آنئذ هناك ، لما يحدثه المجرمون العاديون من ضوضاء سواء في المهجع المجاور او الممشى فزوى الامير ما بين عينيه لان الضجيج كاد يصم أذنيه ، وكذلك كان « سيمونسون » لا يسمع شيئاً .

ـ بما انني اعرف صلاتك (بكاترين ميكايلوفنا) . ـ قال وهو يحدق بعيني الامير ، ـ رأيت من واجبي .

وأمسك عن الكلام عند هذا الحد ، لان اثنين كانا انئذ يتشاجران عند الباب ويصرخان .

ـ اقول لك اني لست انا خنزير . ـ كان يصيح احدهما ، فيصيح به الآخر .

ـ ارجعه لي ايها الوحش الخبيث .

وهنا جاءت (ماري باولوفنا) فقالت :

ـ ان محاولة التحدث هنا شاقة . تعالا معي الى مهجعنا اذ لا يوجد احد فيه على ما أظن .

وذهبت بهما الى المهجع الثاني حيث ترقد النساء، لم تكن الحجرة خالية كما ظنت ، اذ كانت (فيرا ايفراموفنا) مستلقية على فراشها ووجهها الى الحائط . فقالت (ماري) :

ـ انها تشكو من الشقيقة وأظنها نائمة فلن تسمع حديثكما ، وها أنا ذاهبة عنكما .

ـ بوسعك ان تبقي اذ ليس لدي اسرار أخفيها ولا سيما عنك . ـ اجابها (سيمونسون).

- لكن ما تريد . - قالت هذه ثم جلست على الكرسي بحركات تنضج بعذوبة الاطفال .

- اليك ما أردت ان ابوح لك به - عاد (سيمونسون) يقول - بما أنني أعرف صلاتك (بكاترين ميكايلوفنا) رأيت من واجبي ان أطلعك على علاقتي بها .

- ما معنى هذا ؟ سأله (نيكليندوف) بذعر مفاجيء .

- القضية هي انني راغب في الزواج من (كاترين) ..

- احقاً ما تقول ؟ - قالت (ماري باولوفنا) وهي تحدق في (سيمونسون) بعينيها الزرقاوين الجميلتين .

- لقد قررت ان أسألها اذا كانت توافق ان تكون زوجة لي .

- وما الذي أستطيعه انا ؟ هذا من خصوصياتها . - قال (نيكليندوف) بجفاء .

- أجل . ولكني أعلم أنها لن توافق دون إذن منك .

- ولماذا ؟

- لان (كاترين) لن تتخذ قراراً ما قبل ان يبث في امر علاقة سموك بها .

- بالنسبة لي فالامر غاية في البساطة . - قال (نيكليندوف) - لقد أديت ما رأيته واجباً عليّ تجاهها . وحاولت جهدي تحسين وضعها ما استطعت . ولكني لن افرض نفسي عليها لقاء أي شيء في الدنيا ، ولن أتحكم في رغباتها .

- هذا واضح . ولكنها لا تقبل بتضحياتك .

- ليس في الامر أي تضحية .

- انا أعلم ان قرارها بالنسبة لهذه القضية لا ينقض .

- اذن لماذا تخاطبني فيه ؟ قال له (نيكليندوف) .

- من الضروري ان تعلم انه يجب ان تكف عن متابعة العناية بها .

- كيف أستطيع الموافقة على الكف عن عمل أراه واجباً علي ؟ والشيء الوحيد الذي استطيع قوله هو انه في حين لا أرى لنفسي حرية التصرف بالنسبة لها كل الحق في حرية التصرف بالنسبة لي .

فلبث (سيمونسون) برهة مفكراً ، ثم أجاب :
ـ حسن ، سأخبرك بذلك ، ولكن لا تظن اني أهواها ، انا احبها كأخت لي ، كصديقة احاول تخفيف آلامها ولست ابتغي شيئاً سوى مساعدتها وتحسين وضعها .

وعلى رغم الانفعال الذي اعترى الامير فقد لاحظ ان صوت (سيمونسون) كان يرتجف .
ـ تحسين وضعها ـ عاد (سيمونسون) يقول : ـ هي لا تقبل مساعدة سموك ، وقد تقبلها مني ، فاذا صح لي ذلك فسأطلب نقلي الى المدينة التي ستقضي محبوسيتها فيها ، سأعيش على مقربة منها ، ولعلي اقو على ان اجعل حياتها أقل ألماً .

وعاد فأمسك عن الكلام اذ اوشك ان يبكي .
ـ ماذا تريد ان اقول لــك ؟ ـ اجاب (نيكليندوف) يسرني انها وجدت محامياً نظيرك .
ـ ان ما كنت اتوق لمعرفته هو رأيك فيما اذا كان زواجي منها مفيداً ، بعد ان اطلعت على مدى شعوري نحوها ، ورغبتي في توفير الهناء لها .
ـ اجل ، ارى ذلك ؛ ـ قال (نيكليندوف) بجزم .
ـ انا لا أفكر إلا بها ، واتمنى قليلا من الهدوء لتلك الروح التي طالما تألمت .
ـ أضاف (سيمونسون) يقول وهو يرمق الأمير بنظرات جد متوسلة وصبيانية ، تتناقض ووضع ذلك الرجل الذى كان على العموم كثير التحفظ والغموض.

وفجأة تقدم من (نيكليندوف) وامسك بيده وهو يبتسم استحياء وقبل خده ، ثم قال :
ـ انا ذاهب لأنقل لها ذلك ، انا ذاهب لأنقل لها ذلك في الحال . ـ قال هذا ، وخرج مسرعاً .

ـ ٤٧ ـ

هكذا تأتي الأمور ـ قالت (ماري باولوفنا) أثر خروج (سيمونسون) ،

انه مغرم لحد الجنون . من كان يصدق ان (فلاديمير سيمونسون) سيصبح عاشقاً كالمراهقين ؟ انـه لما يبعث الدهشة ، وازيد على ذلك ان هـذا يغيظني . ـ اضافت تقول بمزيج من سخرية وجد .

ـ ما رايك فيما ستفكر به (كاترين) .

ـ هي ؟.

ثم أمسكت (ماري) عن الكلام قليلا كمن تحاول الاجابة بأوضح ما تستطيع.

ـ هي ! انها ترى ان ماضيها لن يحول دون ان تكون لها طبيعة من أكثر مـا رايت استقامة ، انها ادق احساساً منا جميعاً . هي تحبك كثيراً ، وكثيراً. ويسعدها او تقوم بعمل سلبي يحملك على الكف عن العناية بها . وترى في زواجك منها سقوطاً اسوأ من كل ماضيها . وانا واثقة من انها لن توافق على ذلك مطلقاً ، ان وجودك هنا يسبب لها قلقاً مستمراً .

ـ بماذا تشيرين علي اذن ، هل أتوارى ؟

ـ أجل ، او على الأقل بعض التواري .

ـ كيف يمكنني ان اتوارى بعض التواري .

ـ لقد ذكرت الآن ، ـ قالت (ماري) راغبة في تغيير مجرى الحديث ، ـ لقد ذكرت انني لم اجب على سؤالك الاول ، كنت اريد ان اقول لك ان (كاترين) لا بد وان تكون على علم بما يحمله (سيمونسون) من شعور حاد نحوها ، على الرغم من انه لم يصرح لها به حتى الآن ، وكما تعلم فأنا لست كثيرة الخبرة في هذه القضايا ولكني اعتقد ان هـــذا الحب لا يختلف عن غيره من حيث الجوهر عن اي حب عادي ، على الرغم من محاولة (فلاديمير) اظهاره بمظهر الحب العذري الأفلاطوني ، وانه يشحذ نشاطه بدلاً من اضعافه ، واني اعلم ان لا وجود لمثل هذا ، اذ هو مجرد رغبة جنسية كالتي يحسها (توفود فوروف) نحو الحسناء (غرابتز) .

وكانت (ماري باولوفنا) جد راغبة في مواصلة هذا الموضوع الذي يروقها ، لولا ان قاطعها (نيكليندوف) قائلا :
- واخيراً بماذا تنصحين لي !

- ارى ان تتحدث بذلك مع (كاترين) . ومن الأفضل ان يكون كل شيء واضحاً ، فعالج الأمر معها ، اتريد ان ادعوها !
- اجل ، ارجوك . - قال (نيكليندوف) .

فأسرعت (ماري) بالذهاب على الفور .

كانت تضطرب في نفس (نيكليندوف) مشاعر غريبة بينما كان ينتظر وهو جالس وحده في القاعة ينصت لأنفاس (فيرا ايفراموفنا) وللضجيج المستمر والضوضاء التي كان المساجين العاديون يحدثونها ، والتي كانت تبلغ سمعه عبر الحائط ، ان ما صرح له به (سيمونسون) يجعله في حل من الالتزام الذي ألزم نفسه به ، والذي كان يبدو له خصوصاً في الأيام الأخيرة ، مخيفاً وعبئاً ثقيلا ، ومع ذلك فان ما صرح له به (سيمونسون) لم يسوءه فحسب ، وانما أثار في نفسه ألماً لم يعرفه من قبل .

كان لألمه هذا أسباب عديدة متنوعة لم يكن هو نفسه يدركها الا بصورة غامضة، فمنها مثلا ، ان ما عرضه عليه (سيمونسون) قد جرد تصرفه بالنسبة (لكاترين) من الطابع الخاص الذي كان لا يزال حتى تلك الساعة ملء عينه وعين الدنيا، واذا كان رجل (كسيمونسون) لا يرتبط بأي التزام بتلك المرأة ، يريد ان يربط مصيره بمصيرها ، فالى اي شيء انحسرت تضحيته تلك كانت تبدو له بطولية ! كذلك كان للغيرة عملها ، اذ كان قد ألف فكرة كونها تحبه لحد أصبح معه التفكير بإمكانية حبها لغيره يقض مضجعه كخيبة الامل، وكان يتألم لانهيار مشاريعه وخططه كان قد خطط لحياته مع (كاترين) التي كان سيرعاها حتى نهاية مدة سجنها ، وما دامت ستتزوج من (سيمونسون) فما معنى وجوده بقربها ، لقد بات يتوجب عليه ان يبحث عن اسلوب جديد لحياته ، وهكذا ، فانه عندما فتح الباب ، ودخلت (كاترين) كانت تتنازعه أفكار محزنه من انواع شتى ، وكان ضجيج القاعة

المجاورة يزداد حدة بين حين وحين، وكان واضحاً ان امراً غير عادي قد حدث هناك.
وتقدمت منه (كاترين) بخطى سريعة دون أن ترفع نظرها من الأرض .

ــ لقد اخبرتني (ماري باولوفنا) انـك ترغب في التحدث الي . ــ قالت وهي مرتبكة .

ــ اجل يا (كاترين) . اجلسي . لقد خاطبني (فلاديمير سيمونسون) بأمرك .

كانت الفتاة قد جلست واضعة يديها على ركبتيها باطمئنان . ولكنها عندما لفظ الأمير اسم (سيمونسون) انتفضت واحمر وجهها .

ـ وماذا قال لك ؟

ـ لقد قال لي انه يريد الزواج منك .

فتقلص وجه الفتاة كما لو كانت تشعر بألم شديد، ولكنها لم تقل شيئاً وانما اطرقت بنظرها الى الارض .

ـ وهو يطلب موافقتي ، وعلى الأصح يطلب نصحي .. اضاف (نيكليندوف). فقلت له ان أمر هذا يعود اليك فانت التي ينبغي أن تقرري .

ـ وما هي موجبات كل هذا ؟ قالت ذلك وحدقت بالامير بنظرة نفاذة من عينيها الحولاوين التي طالما أثرت في نفس (نيكليندوف) . ولبث هكذا برهة يحدق احدهما في الآخر . فعبرت لهما تلك النظرة عما لم تقو الكلمات على الافصاح عنه .

ـ انت وحدك التي ينبغي ان تبتي في الأمر . ـ عاد يقول لها من جديد .

ـ ما ينبغي أن اقرر ؟ ما دام كل شيء مقرراً من قبل . ـ اجابت (كاترين) .

ـ كلا يا (كاترين) ينبغي أن تصرحي اذا كنت توافقين على عرض (فلاديمير ايفان) .

ـ اتراني أنا السجينة استطيع الزواج ، ولماذا يضيع(فلاديمير ايفان) ، ـ قالت الفتاة بصوت يرتعش .

ـ ولكن ، هل تحبينه . ـ سألها (نيكليندوف) .

ـ دعني . الافضل ألا نتحدث في هذا . ـ اجابت (كاترين) ثـــم هبت واقفة وأسرعت بالخروج من القاعة .

- ٤٨ -

ألقى الامير كل شيء مضطربا في القاعة الكبيرة عندما عاد اليها بعد نهاية حديثه مع (كاترين) . كان (نوباتوف) الذي كان يتدخـــل في كل شيء ، ويراقب كل مكان ، ويستعلم عن كل أمر ، كان هذا قد وقع على خبر جديد لرفاقه ، اذ اكتشف على أحد الجدران كتابة بخط الثوري (بتيلين) الذي كان منذ عامين قـــد حكم عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة . كانوا يحسبون انـه قد اصبح منذ مدة في سيبيريا ، ولكن الكتابة تدل على انه مر منذ وقت قصير .

كان هذا نص الكتابة .

« مررت هنا في ١٧ — ١٨ آب مـع قافلة المجرمين العاديين . كان من المقرر أن يأتي (نيفيوروف) معي ، ولكنه انتحر شنقاً في « كازان » خلال نوبة جنون . انا صحيح الجسم والعقل واثق بمستقبل قضيتنا . ـ (تيلين) . »

كانوا يعلقون على تأخير سفر (تيلين) ، وبصورة خاصة على دوافع انتحـــار (نيفيوروف) . وكان (كريلتزوف) وحده الذي لبث صامتاً محدقاً في الفضاء بعينيه المحمومتين .

ـ لقد اخبرني زوجي ان (نيفيوروف) كانت تترآى له خيالات مخيفة عندما كان في القلعة . ـ قالت (رانتزيف) .

ـ اجل . لقد كان شاعراً خيالياً ، وأمثال هؤلاء لا يحتملون الوحدة . ـ قال (توفود فوروف) ساخراً . عندما وضعت في الزنزانة قررت ألا أؤخذ بهذه الخيالات فوزعت وقتي ونفذت خطتي بدقه ، وهكذا استطعت ، دون شك ، احتمال الزنزانة .

ـ احتملت الزنزانة ؟ ليس في ذلـــك ما يوجب المباهاة . كنت اجد سروراً عندما أسجن لوحدي . ـ هتف (نوباتوف) يقول وهو يبتسم محاولة منه لتخفيف الكـآبة التي كانت تسود الجميع . ـ عندما يكون المرء طليقـاً يهتم لكل شيء ، ويحاذر ان يضر بنفسه وبالآخرين ، وان يحرج القضية ويعوق نجاحها . ولكن اذا كان سجيناً فان كل مسؤولية ترتفع عن عاتقه ، ويصبح بامكانه ان يتنفس بملء رئتيه كما يهوى . التدخين والجلوس كافيان لقضاء الوقت .

ـ هل عرفت (نيفوروف) معرفة صحيحة ؟ . قالت (ماري باولوفنا) تسأل (كريلتزوف) الذي عادت عضلات وجهه فتقلصت ، وبدأت يداه ترتجفان عندما سمع كلام (توفود فوروف) .

ـ كان (نيفوروف) خيالياً ؟ ـ قال (كريلتزوف) وقد رفع صوته الأبح جهده . ـ كان (نيفيوروف) احد اولئك العباقرة الذين يغشون هذا العالم بين حين وحين . كان حرياً بالاعجاب ، شفافاً لفرط صراحتـه . ولم يكن عاجزاً عن قول الكذب فحسب ، وانما على اخفاء أقل أفكاره أهميه . كان شديد الاحساس لدرجة ان اقل شيء كان كافياً لايلام نفسه .. اجل كان طبيعة حساسة ، غنية ، منتجة . اواه . لم يكن لا .. ولكن لم الكلام ؟

وصمت ، الا انه كان يبدو انه يزداد انفعالاً من حين لآخر . ولكنه اضاف بعد ذلك بمرارة وألم:

ـ ان امثال (نيفيوروف) يتساءلون بأسى بأي الأمرين يبـــدأون . أبتعليم الشعب اولاً ، ام باستبدال المؤسسات التي يحكم بها . وكذلك يتساءلون بأي وسيلة يأخذون اولاً في نضالهم ، أبالدعاية السياسية ام بالارهاب . وهذا هو سبب تسميتهم لهم بالخياليين . ان من ينعتهم بذلك لا يتساءل ، ولا يناقش ، ولا يزعج نفسه بالبحث عما اذا كانت اعمال أمثاله تعود على الشعب بآلاف الضحايا . بل على العكس يبدو انهم يرغبون في ان يموت الأفضل والأحسن . والواقع ان هذان يهلكان .

لقد كان (هرزن) يؤكد ان مستوى روسيا الاجتماعي قد تدنى بعد القضاء على جماعة كانون الأول . ثم قضى على (هرزن) ومعاصريه ، والآن يلقون الحرمان من الكنيسة على (نيفيوروف) .

ـ وعلى رغم كل هذا أرى ان ليس بوسعهم القضاء على جميع البشر . ـ اجاب (نوباتوف) بلهجة مرحة . ـ وليس من شك في انه سيظل في الدنيا من يصفي الحسابات لتحديد المسؤوليات .

ـ كلا . سوف لن يبقى احد اذا ما سمحنا لهؤلاء بأن يتصرفوا كما يشاؤون . قال (كريلتزوف) وهو يزداد حدة .

ـ اعطني لفافة تبغ يا (اميليا) .

ـ لا تدخن . لا تدخن هذه الليلة فلست مرتاحاً . ـ قالت له (ماري باولوفنا) .
ـ دعيني . أجابها بحدة ، وقد أشعل اللفافة .

ولكنه بعد ان اخذ نفساً من اللفافة بدأ يسعل ويختنق ومضت مدة قبل ان يعود الى حالته الطبيعية ، ثم نشط وقال :

ـ كلا.. ليسوا رجالاً اولئك الذين يتصرفون هكذا ، ويفكرون بهذه الصورة، كان يجب سحقهم كالبق .. كان يجب القضاء عليهم .. بـلى ، هذا ما كان ينبغي عمله لان ..

وكان قد بدأ بعبارة جديدة عندما احتقن وجهه فجأة وداهمته نوبة سعال حادة القت به على المخدة ، واندفع الدم منه .

فأسرع (نوباتوف) الى الممشى يبحث عن ثلج ، وتقدمت (ماري باولوفنا) من المريض وادنت منه زجاجة تحتوي على (فاليريانا) ولكنه كان يدفعها عنه بيده الناحلة مغمض العينين ، وظل جامداً بعض الوقت لا يستطيع التنفس .

وعندما خففت لزقات الثلج والماء البارد بعض ما به ، وأصبح بإمكان رفاقه

نزع ثيابه عنه ، أرقدوه في فراشه ، فودع (نيكليندوف) وخرج الى الممشى حيث كان الرئيس ينتظره منذ مدة طويلة .

وكان ضجيج المجرمين العاديين قد هدأ ، وكان بعضهم قد نام. لم يكونوا يرقدون على الأسرة وتحتها ، وعلى الأوض وأمام الأبواب فحسب ، وانما كان كثير منهم لم يجد مكاناً داخل القاعة ، فتمـدد في الممشى ، متخذاً من كيسه مخدة ، ومن ثيابه بديلا عن اللحاف .

كان غطيط النيام يملأ القاعات والماشي ، وتشاهـد في كل مكان أشباح بشرية غريبة شبه متسترة تحت معاطفها الكبيرة . كذلك رأى الأمير عجوزاً كان لا يزال مستيقظاً يبحث في ثيابه عن القمل ، وهو جالس تحت المصباح عاري الجسم . وكان بعض المساجين جالسين في أحد المنعطفات يلعبون الورق باهتمام بالغ . كان الجو في الممشى شديد العفونة لدرجة خال (نيكليندوف) انه كان في قاعة المساجين السياسيين يستنشق هواء نقياً .

واخيراً بلغ نهاية الممشى محاذراً ان يطأ النيام . وكان ثلاثة من المساجين لم يجدوا محلا لهم ، حتى في الممشى فاستلقوا على عتبة الباب بجانب المزراب . كان أحدهم أبلهاً ، وكان الأمير قد رآه غير مرة ، وكان الثاني صبياً في حوالي العاشرة من عمره، يرقد كالأطفال واضعاً كلتا يديه تحت خده في حين كان المزراب المليء بالنفايات ينضح بسائل قذر تتساقط قطراته الداكنة عليه .

وفي فناء الدار وقف (نيكليندوف) وقتـــاً طويلا يعب بمـلء رئتيه هواء الليل البارد .

- ٤٩ -

كانت الغيوم قد انقشعت ، بعد ان كانت منذ ساعتين تحجب زرقة السماء ، وعادت النجوم تتلألأ من جديد بكامل بهائها . وكانت الأوحال قد تجمدت في أماكن كثيرة ، ولذا فقد أصبح من السهل على الأمير ان يعود الى الفندق . وقرع

النافذة فأسرع الشاب العريض المنكبين وفتح له الباب .

وبلغ سمع (نيكلينِدوف)من الناحيـــة اليمنى للممشى غطيط سائقي العربات الذين كانوا يرقدون في حجرة مظللة . وملأت أنفه رائحة الخمر ممزوجة برائحة عرق الرجال صادرة عن باب القاعة الكبيرة المفتوح ، والذي كان ينبعث منه نور مصباح كبير مضاء امام أيقونته ، فصعد الى غرفته وخلع ثيابه واستلقى على الديوان الذي كانت فوقه مخدة من الفراء ، ملتحفاً بمعطف السفر . وطافت به صور مختلف المشاهد التي مرت به ، وكان خيال ذلك الصبي الذي يرقد على عتبة الباب تحت المزراب الذي كان ينضح بأقذاره . اول ما استعرضته مخيلته بوضوح وجلاً .

كان الحديث الذي دار بينه وبين (سيمونسون)، ثم بينه وبين كاترين قد أذهله، وكان قد أدرك ان حدثاً ما غير متوقع وجد خطير قد وقع . حدثاً ربما كان له أثر كبير على سيرة حياته في المستقبل . ولكنه تبين أيضاً ان ذلك الحدث الجديد كان من الخطورة بحيث يتعذر عليه التفكير فيـــه بدم بارد . ولذا كان يحاول بشتى الوسائل الممكنة تناسيه ، واقصاء سائر الذكريات الـــتي تتصل من بعيد او قريب بوضعيته ووضعية ، (كاترين) . وكان مشهد الصبي الذي رآه راقداً على الباب لا ينفك يفرض نفسه عليه كلما حاول تناسيه ..

كذلك تبين له ان مجرد معرفة الانسان بأن ثمة أقواماً في جهة ما من الدنيا قريبة او بعيدة ينزلون بأخوانهم أنواعاً شتى من العذاب والآلام والاذلال امر يختلف كل الاختلاف عن مشاهدة ذلك بأم العين ساعة بعد ساعة ويوماً اثر يوم خلال ثلاثة اشهر . وكم تساءل في داخله خلال هذه المدة قائلًا : « هل انا مجنون فأرى الأشياء خلافاً لما يراها عليه سواي ؟ ام المجانين اولئك الذين يرتكبون هذه المنكرات او يسمحون بارتكابها ؟ » وطبيعي ان لا يسلم هو بجنونه ما دام يرى تفكيره منسجماً موزوناً وواضحاً . كذلك من يقر تلك الأعمال التي طالما أثارت ذعره ، ويراها فوق ذلك ضرورية وهامـة ، لا يسلم أيضاً بجنونه ، بل على العكس يرى نفسه انسانياً يخدم

الانسانية خدمة جلى . وعبثاً حاول ترجيح احد القوانين . وانتهى أخيراً الى تفسير لما مر به خلال الأشهر الثلاثة الماضية . واليكه :

لقد اصبح شديد الاقتناع بأن القضاء والادارة ينتقيان اشد الأشخاص حماساً ، وأكثرهم يقظة ، وبكلمة واحدة أكثرهم اهليـــة واستعدادا ، ولكن أقلهم تعقلا ووعياً فيعتقلانهم . وهؤلاء دون ان يكونوا اكبر مسؤولية ، وأقل خطراً يتلاقون في السجون والمعتقلات ، وفي محطات الاستراحة حيث يرغمون عـلى قضاء أعوام ، في حياة ركود وخمول ، في عزلة عن الطبيعة والعائلة والعمل . وبكلمة واحدة خارج سائر ظروف الحياة الانسانية الطبيعية

كذلك تبين له ان هؤلاء يتعرضون في كل مكان لسلسلة من عمليات الاذلال (كتقييد الرجلين ، وغل اليدين ، وحلق الرأس والثياب الخاصة) التي ترمي للقضاء على المقومات الرئيسية لدوافع الحياة المعنوية عند أكثر الناس ، كالخجل ، والحرص على كسب احترام الناس ، والشعور بالكرامة الانسانية .
كذلك رأى ان في استمرار تعريض هؤلاء لخطر الأمراض ، وللموت ما يعدهم لحالة نفسية يرى فيها نفسه ، افضلهم وأسماهم حلقاً مدفوعاً بغريزة حب البقاء للقيام بأشد الاعمال قسوة وضعة ، وتبريرها امام ضميره .

كما لاحظ أيضاً ان ارغامهم على معاشرة رفاق السوء ، كالقتلة واللصوص وموقدي الحرائق يعرضهم للعدوى بالفساد .

واخيراً انتهى الى القول بأن المعاملة التي يعاملون بها ، وتطبيق مختلف الاجراءات الرهيبة عليهم كفصل الآباء عن البنين ، والأزواج عن الروجات ، ومنح مكافـآت للوشاة ، قد يراد من كل ذلك اقناع هؤلاء بأن سائر مظاهر العنف والقسوة ، والوحشية ليست من الأمور والأعمال التي لا ينبغي منعها فحسب ، وانما هي مما يجب ان ينص القانون عليها لفائدتها . ومن هنا نستنتج ان كل هذه الاشياء يجب ان يسمح بتطبيقها بشكل خاص على اولئك المحرومين من حريتهم الذين يقاسون اسوأ حالات البؤس .

وكان (نيكليندوف) يخاطب نفسه بقوله : الحق ان لقائل ان يقول هذه الاجراءات لا بد وان تكون قد ابتكرت خصيصاً لنشر الفساد والرذيلة بين اقوى رجال الأمة الأمر الذي يساعد كثيراً على نشرهما بين سائر الأوساط ، ففي كل عام يتحول المئات من المخلوقات البشرية الى أشرار مجردين من كل شعور طبيعي ، فيندفعون لارتكاب اشد الأعمال شناعة ، حتى اذا ما بلغوا ذروة الشر أطلقوا سراحهم لينشروا في طول البلاد وعرضها ما أثمرته نفوسهم من فساد .

لقد رأى (نيكليندوف) في السجن عند اجتماعه الأول (بكاترين) ، ثم بعد ذلك خلال مسيرة القافلة سواء في (بيرم) و (ايكاتيرنبرج) و (طومسك) ، وسواها من المحطات ، أثار ما لا يمكن اعتباره سوى مخطط واسع النطاق للقضاء على اخلاق الأمة ، لقد رأى طبائع ساذجة ليست بالصالحة، ولا بالطالحة ، طبائع مشبعة بالأفكار الأخلاقية التقليدية التي يؤمن بها القروي والمسيحي ، قد تحللت بصورة تدريجية من افكارها هذه لتعتنق اخرى تقول بشرعية كل عنف وعار . وانتهت اخيراً ، وبتأثير ما رأته من سوء ما يعامل به المساجين ، الى الاعتقاد بأن كل ما لقنها اياه دينها من مباديء العداله والرحمة كان خادعاً. وان من حقها نسيانه واطراحه.

كان (نيكليندوف) قد تبين عند كثير من مساجين القافلة نماذج لمثل هذه العدوى . تبينها عند (فيدروف) وعند (مكاربوس) وحتى عند (تاراس) ذاك الذي لم يرافق المجرمين سوى شهرين اثنين اكتسب في نهايتهما الكثير من عاداتهم ، واحساسهم، وطريقتهم في التعبير عن ذات نفوسهم. لقد سمعه الأمير يتحدث بإعجاب عن ذلك الشقي العجوز الذي كان يتباهى بقتل رفيقه وأكل لحمه . وكان يحدث نفسه بأن القروي الروسي قد يصل خلال اشهر قلائل بتأثير المعاملة التي يلقاها المساجين الى حالة من الانحلال شبيهة بتلك التي يعانيها المثقفون الذين يمجدون (نيتشه) ، ويبشرون بتعاليمه من الاهتراء المعنوي

لقد علمته الكتب ان ما يراه من الاجراءات ذات النتائج المؤسفة ليست سوى ضروريات تبررها الحاجة لعزل بعض الاعضاء الخطرة عن كيان المجتمع بغية اسداء

المعونة لها واصلاحها . غير ان القول ابعد ما يكون عن الواقع . فهم بدلاً من عزلها يساعدون على نشر الفساد ، وعوضاً عن ارهابها يشجعونها بتقديمهم لها نماذج من القسوة وفساد الأخلاق ، وضمانهم لها حياة بطالة وكسل وتبذل تسرها وجعل الكثير من المتشردين يتمنون لو تقبلهم السجون. وهم ينقلون اليها بنظام ، عدوى مختلف الرذائل.

– اذن لماذا يتصرفون هكذا ؟ – كان (نيكليندوف) يتساءل دون ان يجد جواباً على سؤاله.

وشد ما كان يدهشه هو ان ما كان يحدث لم يكن طارئاً حديثاً ، وانما كان يجري منذ أجيال بصورة متواصلة مدروسة دون فرق سوى انهم من قبل يخدعون أنوفهم وينقلونهم في الزحافات ، امـــا اليوم فيغلون ايديهم ، ويفقئون عيونهم بقبضاتهم ، وينقلونهم في البواخر .

كان (نيكليندوف) قد قرأ في مؤلفات بعض الكتاب ، ان اسباب ما ينكره من اجراءات تعودُ لقلة السجون ، ونقص في التنظيم لا يلبث ان يتلافى . غـير ان هذه الاجابة لم تقنعه ذلك لأنه يعلم حق العلم ان مصدر تلك المساوىء لم يكن قلة السجون ، ولا نقص في هذه المنظمة او تلك .

لقد علم بالاختبار ان السوء ما زال يزداد بـــين عام وعام ، على رغم ما يسمونه تقدم المجتمع . وانَ قوافل المساجين المبعدين ما كانت قبل خمسين عاماً تظهر بوضوح كالآن مدى الهمجية والانحطاط ، على الرغم من انعدام الخطوط الحديدية والبواخر في تلك الأيام لنقل المساجين الى أقاصي روسيا .

كذلك لم يكن يستطيـع ان يقرأ بغير استياء وقلق ، وصف السجون النموذجية التي تخيلها علماء الاجتماع والتي تقوم فيها الكهرباء بخدمة السجين فتنير له المكان ، وتطعمه ، وتعذبه ، وتعدمه .

وشد ما كان يغيظ (نيكليندوف) علمه بأن ثمة قضاة وموظفون آخرون ،

ليتعلموا منها كيفية ابعاد بعض الرجال الى اماكن قصية للتخلص منهم حيناً من الزمن ولينهاروا ان لم يكن مادياً فمعنوياً على الأقل .

كان الأمير بمقدار ما يزداد دراسة للسجون ولمحطات الاستراحة عن كثب ، يزداد ادراكاً ان سائر الموبقات التي يرتكبها المساجين كالمقامرة والسكر وأعمال العنف والفسق لم تكن بشكل من الأشكال مظهراً من مظاهر « المجرم النموذجي » المزعوم الذي ابتكره العلماء خدام السلطات ، وانما كانت نتيجة مباشرة للخطل الرهيب الذي بموجبه ينتحل بعض الناس الحق لأنفسهم بمحاكمة البعض الاخر ومعاقبته .

كان (نيكليندوف) يعلم ان (كانيبالية) آكل لحوم البشر السجين العجوز ، لم تبدأ في السجن ، ولم تتكون في المنفى ، وانما في الوزارات ، واللجان ، ودوائر الجزاء . كذلك كان يعلم ان كل ما يحدث في السجن لم يكن سوى نتيحة طبيعية لما يحدث في الأوساط العليا ، وان ثمة اناساً ، كصهره مثلاً ، لا يهتمون بقليل او كثير للعدل وخير البلاد الذي يدعون خدمته ، وانما همهم الوحيد تقاضي الروبلات المخصصة لهم كمكافأة من عملهم الحقير الذي ينتج الفساد والآلام ..

أليس كل هذا وليد الأخطاء ؟ أليس من الممكن ضمان الراتب لهؤلاء الموظفين، وحتى وعدهم بعلاوات اذا ما كفوا منذ الان عن اقتراف تلك الأعمال الوضيعة التي يرون وجوب ارتكابها للحصول على الرواتب ؟

بمثل هذا كان يفكر (نيكليندوف) . وظلت هذه الافكار تراود ذهنه حتى غلبه النوم فنام حتى الصباح على رغم جيوش البق التي هاجمته .

- ٥٠ -

عندما استفاق (نيكليندوف) عند الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي جاءته ربة الفندق برسالة قالت ان جندياً من حرس القافلة قد اتى بها . كانت تلك الرسالة من (ماري باولوفنا) .

لقد ارسلت هذه الفتاة تعلمه ان الحادث الذي وقع (لكريلتزوف) الليلة الماضية كان اخطر مما قدر له لاول وهلة .

« لقد عن لنا ان نبقيه هنا ، وان نبقى معه . ولكنهم لم يسمحوا بذلك ، وهو الان مسافر معنا . ان حالته تدعو للقلق . الا تستطيع الحصول على موافقة لابقائه في المحطة التالية اذا استدعت حالته ذلك . وان يبقى احدنا معه ؟ واذا رفضوا ذلك وكان من الممكن الحصول على موافقة بمرافقتي له اذا ما تزوجته فلست بحاجة لان أصرح لك بأنني موافقة على ذلك » .

فأصدر الأمير لحوذيه بإعداد العربة وتهيئة الحقائب . ولم يكن قد تناول كأس الشاي الثاني ، عندما سمع وقع حوافر جياد وجعجعة دواليب عربة جاءت تطلبه . فدفع ما عليه ، واستقل العربة ، وأمر الحوذي بالاسراع باللحاق بالقافلة .
وكان الضابط يسير في مقدمة العربات ، شأنه في كل يوم ليقوم بحراسة القافله وقيادتها . وكان الجنود يحيطون بالعربات ويسيرون بخطى ثابتة ؛ وكأن كلا منهم قد جرع جرعة قبل سفره تجديد لنشاطه .

كان عدد العربات يبلغ العشرين على الاقل ، وكان المساجين العاديون يستقلون الأخيرات منها اكداساً بعضها فوق بعض ، ستة فستة ، بينما كان المبعدون السياسيون يسيرون في اولاها ثلاثة فثلاثة .

كان (توفود فوروف) يرافق (ماركل) و (غرابتز) في العربة . وكانت المرأة الحبلى التي تنازلت لها (ماري باولوفنا) عن مكانها في العربة ، ترافق (اميليا انتزيف) و (نوباتوف) . ورأى الأمير في الثالثة (كريلتزوف) ممدداً في فراش من القش وتحت رأسه مخدة ، وعلى مقربة منه . تجلس (ماري باولوفنا) في مؤخرة العربة .

وأشار الامير الى حوذيه بإيقاف العربة ثم ترجل منها وتقدم من (كريلتزوف)

وكان الحراس يمشون بالقرب منه فطلبوا من الأمير الابتعاد عنه ، ولكنه كان قد تعود ذلك منهم فلم يعبأ بطلبهم وظل سائراً الى جانب عربـــة المريض ما طاب له ان يسير .

كان (كريلتزوف) ، وهو ملتف بفروته ، وعلى رأسه قبعة من جلد الخراف وعلى فمه عصابة بيضاء ، يبـــدو أشد شجوناً وأكثر نحولاً . وكانت عيناه ، وهما الحيتان في وجهه تتقدان حتى ليحسبها الرائي انها قد اتسعتا كثيراً . وكان يرسل نظراته الى الامام ، متأرجحاً كلما اهتزت العربة يميناً وشمالاً . وكان يبدو عليه الألم الشديد ، وعندما سأله (نيكليندوف) عن حاله اغمض عينيه وحول رأسه بحركة تدل على الغيظ . وكان واضحا انه يستجمع قواه ليواجه صدمات العربة .

وعندما أبصرت (ماري باولوفنا) الامير رمقته بنظرة تنم عن قلقها . ولكنها بعد قليل أخذت تتحدث اليه بما استطاعته من هدوء ومرح .

ـ لقد جئتك بخبر سار . ـ قالت بصوت عال ليطغي من ضجيج عجلات العربة.
ـ لقد خجل الضابط مما فعله يوم امس فأمر بأن ينزع الغل من يد والد الطفلة ، وسمح له بحملها . لقد تنازلت لي (فيرا) عن مكانها في العربة ، ولذا تراني هنا ، في حين تسير هي على قدميها بصحبة (سيمونسون) و (كاترين) .

ثم ران صمت قصير. وفجأة تلفظ (كريلتزوف) ببعض كلمات بعد ان ازاح العصابـــة عن فمه . ولم تفهم (ماري) ولا الامير منها شيئاً . فنظر المريض عندئذ بفارغ صبر ثم عـــاد الى اغماض عينيه باذلا جهده في حبس سعاله . فانحنت عليه (ماري) فغمغم يقول لها :

ـ لقد تحسنت حالتي كثيراً . واذا لم يلحقني برد فأظنني سأستعيد صحتي .
ثم التفت الى الامير وقال له وهو يبتسم .

ـ ما شأن مشكلة الاجرام الثلاثة ؟ هل توصلت لحل لها ؟

فنظر اليه الأمير بشوق لمعرفة ما يعنيه بقوله هذا فشرحته له (ماري) قائلة ان

العلماء اصطلحوا على اطلاق هذا الاسم على قضية فلكية تتصل بعلاقةالشمس والأرض والقمر بعضها ببعض ، وان (كريلتزوف) قارن الليلة البارحة بين علاقات الامير العاطفية (وسيمونسون) و (كاترين) .

فهز (كريلتزوف) رأسه موافقاً على ما قالته (ماري) .

ـ يرجع البث بهذه القضية لسواي . قال (نيكليندوف) :

ـ هل وصلتك رسالتي ؟ وهل ستفعل ما طلبته منك ؟ قالت (ماري) تسأله :

ـ اطمئني . اجابها الأمير .

وهنا لاحظ (نيكليندوف) تقلصاً في عضلات وجه المريض ، فأدرك انه يتألم لأنه لا يستطيع الاشتراك معها بالحديث ، فمضى مبتعداً عنه .

وكان ما لمح به (كريلتزوف) قد أعاد الى ذاكرة الامير ما كان يحاول تناسيه من وضعيته الراهنة . وحملت الرغبة الملحة على مواجهة (كاترين) كي يبت بالقضية ، ولذا عاد فأمر الحوذي بان يغذ السير ، وسرعان ما رأى امامه غطاء الرأس الازرق الذي تضعه (ماسلوفا) على رأسها .

كانت الفتاة تمشي في مؤخرة القافلة ترافقها (فيرا ايفراموفنا) و (سيمونسون) الذي كان يبدو من حركات ذراعيه الطويلتين اللذين كان يطوح بهما في الهواء انه كان يشرح لرفيقتيه شيئاً . وعندما ادركهم (نيكليندوف) حيته المرأتان باسمتين . وخلع (سيمونسون) قبعته له بحماس ظاهر . ولكن الامير بعد ان اصدر امره الى الحوذي بايقاف العربة بغية التحدث اليهم ، احجم عن ذلك في اللحظة الحاسمة تهيباً ، واسرع يتقدم القافلة التي كانت تجر نفسها جراً على الطريق ، يرافقها الصراخ المألوف والضحك وصليل الحديد .

وقادته الطريق التي كانت تسير عليها العربة الى غابة كثيفة اشجارها مختلفة فيما بينها كل الاختلاف سواء بورقها او قشورها . وما لبثت الغابة ان توارت وبرزت على أثرها الحقول الواسعة ممتدة عن الجانبين . فتبين الامير عن بعد قبة جرس وصلباناً مذهبة لدير كان هناك .

كان الطقس قد صحا ، وانقشعت الغيوم، وعاد نور الشمس يسطع فوق الحقول، واصبح الندى والوحل الذي كان قد تجلد ، وقبة الجرس والصلبان المذهبة تتلمع من جديد . وكان ذلك النور يجعل الحقول الممتدة على الجانبين ، والتي يحدها خط الجبال الازرق التي تسد الافق ، تبدو أكثر سعة وامتداداً .

واخيراً بلغت العربة قرية كبيرة هي احد ارياض المدينة التي كان(نيكليندوف) يقصدها .

كان شارع القرية يغص بالمـــارة من الروسيين والغرباء الذين يرتدون تشكيلة غريبة من الثياب والقبعات. وكانوا يتحلقون حلقات أمام الحانات والحانات والمخازن، وكان بينهم الضاحك والمتشاجر والمتحدث . وكان ثمة عدد من العجلات منها التي تسير بتثاقل ، والتي تقف في عرض الطريق . كان كل شيء يدل على قرب المدينة .

ووقف السائق في مقعده ، وراح بسوط جياده ليبرز شخصيته ، فراحت تنهب الارض ، واجتازت العربة الشارع ، معرضة جماهير المارة التي تملأها للدهس .

وظلت العربة على سرعتها الى أن بلغت ضفة نهر يفصل بين المدينة والقرية، الذي كان الناس يعبرونه على قارب عريض .

كان القارب انئذ يجتاز النهر قادماً الى الضفة التي كانت عربة الامير تقف عليها. وكان ثمة زهاء عشرين عجلة تنتظره. غير ان سائقي هذه العجلات سمحوا لسائق عربة الامير بأن يتقدمهم جميعاً . وعندما امتلأ القارب اغلق الحاجز الذي يفصله عن الشاطيء بين احتجاجات سائقي وركاب العجلات التي ظلت على البر .

ومضى القارب مبتعداً عن الرصيف ، منساباً بهدوء وبطء على صفحة الماء ، غير محدث ضجة أو ضوضاء الا ما كان من تكسر الامواج على جانبيه ، ووقع حوافر الجياد على سطحه الخشبي .

- ٥١ -

كان (نيكليندوف) يتأمل منظر الخط الذي يحدثه القارب على صفحة ماء النهر بينما كانت ذاكرته تستعرض مشهدين متتالين أولهما مشهد (كريلتزوف) وهـــو يحتضر على فراشه القشي في العربة ، ونظرته المغبطة . والثاني مشهد (كاترين)وهي تسير بخطى نشيطة برفقة (فلاديمير سيمونسون) .

كان المشهد الاول، مشهد (كريلتزوف) الذي يأبى الاستسلام للموت، يبدو له مرعباً ومؤسفاً. و كان الثاني مشهد (كاترين) التي وجدت رجلاً (كسيمونسون) يحبها فتسير واياه في طريق الخير بنفس الخطى النشيطة التي تسير فيها على طريـــق القافلة ، لا يبعث في نفسه الا احساساً ساراً ومنعشاً . ومع ذلـك فان كلا المشهدين كانا في نظره متساويين في القسوة ولا يستطيـع نسيانها .

ونقلت اليه اجنحة الأثير صدى فضياً رناناً لناقوس يعلن دنو موعـــد الصلاة في كنيسة المدينة . فنزع حوذي الامير وسائر المسافرين قبعاتهم عن رؤوسهم، ورسموا الصليب على صدورهم باستثناء عجوز رث الثياب ظل محتفظاً بقبعته على رأسه ، وأبى ان يرسم الصليب على صدره ، ولبث ساكناً ويداه وراء ظهره .

ـ وأنت يا شيخ لماذا لا ترسم الصليب على صدرك ؟ سأله حوذي (نيكليندوف) بعد ان وضع قبعته على رأسه . ألم تعمد ؟

ـ أأرسم الصليب على صدري ؟ وأصلي؟ قال الشيـخ الممزق الثياب بعد ان اقترب من الحوذي ، وحدق فيه ملياً . الى من اصلي ؟

ـ يا له من سؤال . ألست مؤمناً بالله ؟

ـ وهل تعرفه ؟ وهل تعلم أين هو ؟

و كان في تعبيرات وجه الشيـخ من الجد والقسوة ما حمل الحوذي على الصمت . ولكن لما كان ثمة كثير من الفضوليين يصغون اليه ، فقد اندفـــع في حديثه كيلا يتوهموا أنه يتراجع .

ـ اين هو الله ؟ أتجهل يا غبي انه في السماء ؟

ـ ألعلك رأيته هناك ؟ هل صعدت الى السماء .

ـ كلا لم اصعد الى السماء . ولكن ليس من يجهل انه يجب أن نصلي لله.

ـ ان احداً لم ير الله . ان ابنه الوحيد الذي يحيا في ذات الأب قد قال ذلك . ـ اجاب الشيخ بصوت قاس وقد زوى ما بين عينيه .

ـ ألست مسيحياً ؟ أأنت عابد اصنام . ـ قال الحوذي ثم التفت ناحية وبصق على الارض بتقزز .

ـ ما دينك ؟ ـ قال سائق عربة أخرى كان بالقرب من جياده يسأل الشيخ .

لا ادين بدين ، ولا أومن الا بنفسي . ـ اجابه الشيخ وهو ينظر اليه شزراً .

ـ وكيف يمكن الايمان بالنفس ؟ ـ سأله (نيكليندوف) مدهوشاً مما سمع .

ـ تلك هي افضل طريقة للامان من الخداع .

ـ اذن كيف انبثقت كل هذه الديانات .

ـ نشأت الديانات لأن الناس يؤمنون بغيرهم . لقد آمنت بغيري مدة فخدعت . وضللت سبيلي ، وأشكل أمري علي حتى حسبت انني سوف لن اعثر على الحقيقة قط . لقد صادفت في طريقي مؤمنين قدامى ، وحديثي الايمان ، من مختلف المذاهب والطوائف ، ورأيت رجالاً من شتى الاجناس ، ولكني لم أجد ديانة واحدة لا ترى نفسها الافضل والاصوب . هنالك ديانات شتى ، ولكن الجوهر واحد. هو هو عندي وعندك وعند الجميع . وهذا يعني ان كل فرد ينبغي أن يؤمن بنفسه . وبهذه الصورة تفق رأي الجميع .

كان الشيخ يتكلم بصوت يعلو مطرداً ، ملتفتاً حوله كأنه يريد أن يسمعه ما امكن من الناس .

ـ هل تبشر بهذه التعاليم منذ مدة طويلة ؟ ـ سأله الامير .

ـ أنا ؟ اجل . منذ مدة طويلة . منذ ثلاثة وعشرين عاماً وأنا عرضة للملاحقة والمطاردة .

ـ ولماذا ؟

انا ألاحق الان بسبب ما لوحق من اجـــله السيد المسيح . هم يعتقلونني ، ويقدمونني الى المحاكمة ، والى الكهنة ، والكتبة والفريسيين . ويسجنونني مـــع المجانين . ولكنهم عاجزون تجاهي لأنني حر . هم يسألونني ما اسمك ؟ ويحسبون ان لي اسما ، او وطننا ، او مسكنا ، او أي شيء آخر . فأنا لا املك الا نفسي. ماذا أدعى ؟ رجل . ما هو سني ؟ انا لا احصي الاعوام . والواقع الصحيح هو ان لا عمر لي ، لان النفس التي في داخلي قد كانت منذ الازل وستظل الى الابد. ويسألونني عن ابي وأمي . فأجيبهم ليس في بيتي سوى الله والارض . فالله ابي والارض امي . ألا تعترف على القيصر وتخضع له ؟ ولماذا اخضع له ؟ هو يملك لمصلحته الخاصة ، وأنـا املك لمصلحتي الخاصة ايضا . فيقولون لي : اذهب فـلا يمكن التحدث اليك. فأجيبهم انا لا اطلب اليكم التحدث الي . وهنا يشرعون في تعذيبي .

ـ الى اين انت ذاهب الان ؟ سأله الامير .

ـ انا ذاهب الآن الى حيث تقودني ارادة الله . انا اعمـل وعندما لا أجد عملا ، استعطي . ـ اجاب الشيخ وهو يتلفت يمينا وشمالاً بهيئة الظافر .

وكان القارب قد بلغ الضفة الثانية ، فاخرج الامير من جيبة قطعـة من الفضة وقدمها للشيخ ولكنه رفض قبولها قائلا :

ـ انا لا اقبل مالا قط . وكل ما اقبله هو الخبز .

ـ سامحني .

ـ ليس لدي ما اسامحك عليه . لم تهني . وليس من يستطيـع اهانتي . قال الشيخ وقد تناول كيسه الذي كان ملقى على الارض عند قدميه .

ودبت الحركة في اوساط المسافرين في القارب ، وبدأوا في اعـــداد العربات واسراج الجياد ، واخذت العجلات تغادر القارب .

ـ انك لرجل طيب يا سمو الامير اذ تصغي لامثال هؤلاء ـ قال له الحوذي وهو يغادر القارب ـ ان في الاصغاء لهؤلاء المتشردين ما يسري عن النفس .

عندما بلغت العربة الضفة الثانية للنهر التفت الحوذي الى الامير وقال له :

ـ الى أي فندق تريد أن تذهب ؟

ـ لا ادري . فأيها احسن ؟

ـ احسنها المسمى (سيبيريا) ولكنك ستكون مرتاحاً في نزل (دو كوف) .

ـ خذني الى ما تختاره منها .

فساط الحوذي جياده ، فدخلت العربة الى المدينة التي كانت كغيرها من المدن حيث كان كل شيء متشابهاً كالاسطحة المستوية ، والكنائس الكبيرة والمارةوالمتاجر والشرطة ولم يكن ثمة أي تباين سوى ان البيوت في هذه كانت من الخشب ، وان الشوارع غير مرصوفة .

وقفت العربة امام فندق يقع في أحد الشوارع الغاصة بالناس. ولكنه لم يجدمكان للامير . فانتقل الى نزل (دو كوف) حيث وجد غرفـــة اطلق عندما رآها زفرة ارتياح طويلة لانها كانت المرة الاولى التي يصادف فيها منـذ شهرين غرفة لائقة تحوي كل اسباب الراحة التي تعودها منذ نعومة اظفاره ، وليس يعني ذلك انها كانت مترفة ولكنها كانت مما يمكن العيش فيها اذا ما قورنت بغيرها من الغرف التي صادفهـا في رحلته . وأول ما فكر به التخلص من القمل الذي كان يسعى في ثيابه ، والذي رافقه طوال رحلته كلها . فدخل الحمام حيث لبث ما ينيف على الساعة .

ورأى ان يقوم بزيارة لحاكم المدينة فارتدى لهذه الغاية ثياباً انيقة وقميصاً مكوياً وسروالا من الجوخ الرمادي وسترة ومعطفاً .

واستقل عربة يجرها جواد أصيل حملته الى بناية كبيرة رائعة يقف امامها خفيران، وبعض شرطة البلدية ، وتحيط بها حديقة جميلة .

كان الحاكم يشكو علة ، ولا يقابل احداً . غير أن الامير اقنع الخـادم بايصال بطاقته اليه ، فعاد يعلن بعد قليل متلطفاً باسماً ان سعادته يدعوه اليه .

واعاد الخادم والسلم والقاعة ذات الارض اللامعة الى ذاكرة الامير ذكرى منازل بطرسبرج وانما بصورة مصغرة . ولم يطل أمد انتظاره في الردهة الكبيرة حتى دعي لمقابلة الحاكم .

كان هذا الموظف الكبير ضخم الجثة ، دموي المزاج ، اصلع الرأس ، احمر الانف ، في جبينه وريد محتقن، ويرتدي بتا اصفر اللون ، وكان جالساً يدخن ويشرب الشاي في كأس محلى بالفضة .

ـ عفواً يا سمو الامير اذا استقبلتك على هذه الصورة .. قال باسماً وهو يتململ في مقعده الوثير . ـ ان استقبالي لك هكذا خير من عدمه . انني اشكو من مرض ولذا لا استطيع مغادرة الفراش . ما سبب تشرفنا بزيارتكم في هذه المملكة النائية ؟

ـ جئت ارافق قافلة المساجين لأن فيها شخصاً يهمني أمره . اجاب (نيكليندوف) وبسببه ازعج الآن سعادتكم .

فتمطى الحاكم بساقيه ، ثم جرع جرعة شاي ونفض رماد لفافته في منفضة من الخزف ، واقبل يصغي الى (نيكليندوف) بامعان ، محدقاً فيه بعينيه الكبيرتين المتقدتين شبه الدامعتين . وقد قاطعه مرتين ليدعوه لتناول الشاي والتدخين .

كان القائد احد اولئك الموظفين الأذكياء الذين يحاولون ، بدافع من مصالحهم وأوضاعهم ، الجمع بين مبدأ السلطة والمبدأ الانساني في ممارسة وظائفهم . ولكنه لما كانت الطبيعة قد زودته بمواهب كبيرة وخلق طيب فانه ما عتم ان ادرك ان كل جهد بذله لتحسين اوضاع اولئك التعساء عديم الجدوى . ولكي يسكت صوت ضميره ويخفف من تبكيته راح يعاقر الخمر حتى استبدت به تلك العادة وأصبحت ادماناً ، وحتى تحول بعد خدمة خمسة وثلاثين عاماً في الجيش والادارة الى ما يسمى « كحوليا » وحتى اصبح كأس صغير من المستحيل عليه الانقطاع عن شرب الخمر ، وهكذا فانه منذ عدة اعوام ما انفك يسكر في كل ليلة :

ولما كان قد اعتاد هذه الحالة ، فانه كان لا يترنح في مشيته قط ، او يتلعثم

لسانه . ولو حدث له شيء من هذا ففي سمو منزلته ضمان بستره . وبما انه كان لا يعاقر الخمر في الصباح ، فقد وجده الامير صاحياً ، وفي وضع يستطيع معه تفهم رغباته بسهولة .

كان رؤساؤه يعرفون فيه نقطة الضعف هذه. ولكنهم كانوا يعترفون له أيضاً بانه أذكى من أكثرية الموظفين ، على رغم ادمانه الخمر . وانه كان أبعد ما يكون عن ارتكاب ما قد يدينه حتى ولو كان في حالة سكر شديد . ولما كانوا واثقين من مهارته واقدامه ، فقد افسحوا له مجال التقدم حتى بلغ مرتبة الحاكم .

- ٥٣ -

كان (نيكليندوف) قد جاء يعرض على الحاكم قضية (كاترين) والحكم الجائر الذي صدر بحقها . وأخبره انها قبل خروجها مع القافلة كانت قد رفعت استرحاماً تطلب العفو من جلالة الامبراطور .

ـ حسن . ـ قال له الحاكم بعد أن اصغي اليه بامعان . ـ وماذا تطلب مني الآن ؟

ـ لقد وُعدت بان ينظر في طلب العفو على الفور ، وان الادارة الامبراطورية ستصل الى هنا خلال هذا الشهر ..

وقرع الحاكم جرساً ولبث ينتظر دون ان تفارق نظراته (نيكليندوف) .

ـ كذلك كنت ارغب في السؤال عما اذا كان بالامكان السماح ببقاء هذه السجينة هنا ريثما تصدر الارادة الامبراطورية بشأن الاسترحام سلباً أو ايجاباً ..

وقطع حديث الأمير دخول أحد الحجاب .

ـ أنظر اذا كانت (فاسيليفنا) قد أفاقت وأحضر شاي . ـ قال له الحاكم .

ثم نظر الى الأمير وأضاف :

ـ اكمل حديثك .

ـ كذلك ارغب ان التمس منكم التماساً لصالح أحد المساجين السياسيين القادمين مع القافلة .

ـ حسبك . ـ قال الحاكم بلهجة مهذبة .

ـ هذا المنكود الحظ مريض وعلى وشك الاحتضار . وسيخلفونه هنا في المستوصف . وترغب إحدى رفيقاته من السجينات السياسيات البقاء بجانبه للعناية به .

ـ هل هي احدى قريباته ؟

ـ كلا . ولكنها لا ترى مانعاً من زواجها منه اذا سمح لها بالبقاء الى جانبه .

فصوب الحاكم نظراته الى الامير كأنما يريد ارهابه بنظراته هذه ، دون أن يفوه بكلمة واحدة .

ولما أمسك (نيكليندوف) عن الكلام بانتظار الجواب نهض الحاكم من مقعده ، وتناول كتاباً شرع يقلب صفحاته بسرعة، ووقف يتلو فقرة وهو يدل عليها باصبعه.

ـ ما مدة الحكم الذي حكم عليها به ؟ ـ قال الحاكم يسأل بعد أن رفع نظره عن الكتاب .

ـ بالأشغال الشاقة .

ـ الزواج لا يؤثر على وضع المريض في شيء .

ـ ولكن هذا ..

ـ عفواً . حتى لو تزوجت هذه المرأة من رجل حر طليق فلا مفر لها من انهاء مدة عقوبتها . والآن نريد ان نعلم من منْ السجينين اكبر محكومية .

ـ المدة واحدة وهي الاشغال الشاقة المؤبدة .

ـ القضية واضحة تماماً . ـ قال الحاكم باسماً . ـ ان الزواج لن يغير وضع أي منهما . اذا كان هو مريضاً فيعنى به هنا . وسنجتهد لتحسين حاله . أما هي فستذهب مع القافلة ولو تزوجت منه .

ـ لقد افاقت « القائدة » وهبطت الى الطابق الارضي لتناول طعام الافطار، جاء الحاجب معلناً .

فهز الحاكم رأسه ومضى يقول :

ـ على كل حال سأفكر بالموضوع . ما اسم هـذين السجينين ؟ أتريد أن تترك لي اسميها ؟

فكتب الامير الاسمين على ورقة .

وعندما طلب منه الامير اذناً بزيارة المريض قال :

ـ لا استطيـع السماح بذلك ، ولا تحمل رفضي محملاً سيئاً كأن يكون لدي شبهة في سموكم . ـ ثم اردف بعد قليل يقول : ـ كأني أرى الآن ما حدث معك . أنت مهتم بهؤلاء الاشخاص وترغب في زيارتهم وخدمتهم . وتملك مالاً ، وهنا يمكن شراء الجميع . وكم تلقيت ملاحظات من رؤسائي لوضع حد لهذا التسامح . وكيف يمكن ذلك ما دام الصغير والكبير يشرى ويباع ؟ وكيف استطيع مراقبـة كافة موظفي خمسة الاف (فرستا) ، حيث كل واحد منهم امبراطور صغير وأنا احدهم . اضاف الحاكم وهو يقهقه. بلى . هذا ما حدث وأنا اعلم ذلك . لقد كنت طوال الرحلة تحصل على اذن برؤيتهم عن طريق الرشوة . أليست هذه هي الحقيقة ؟

ـ اجل هذا هو الواقع بعينه .

انا أعلم انك فعلت ذلك . لقد قمت بما ينبغي عليك . انـــك ترغب في أن ترى مجرماً سياسياً فاستخدمت ابتغـــاء ذلك الوسائل الصالحة . كان ضباط القيادات والسجانون يسمحون لك برؤيتهم والاختلاط بهم عن طريـق الرشوة لضآلة الراتب . والحق بيدهم اذ لولا ما يتلقونه من هبات عن مثل هذه الخدمات اذن لعجزوا عن اعالة عيالهم . ولولا احترام المركز الذي احتله لتصرفت كتصرفهم . ولكني لا استطيـع أن أتسامح بأي مخالفه للقانون ، على الرغم من كوني متسامحـاً بطبعي . لقد عهد إلي القيام بمهمة وأخذت على عاتقي إداءها تحت ظروف معينة وينبغي علي أن اكون عند حسن الظن بي . هذا ما استطيع أن اقوله لك . والأن قل لي طرفاً ممـــا يحدث في اوروبا ، وبطرسبرج وموسكو .

ثم وجه اليه عدة اسئلة لم يكن الدافع عليها حب الاستطلاع مثلما كان ليدلل على مدى لطفه وايناسه ، وليبرهن عن طيب نفسه .

ـ في أي فندق تنزل ؟ لا بأس بمنزل (دو كوف) ولكن فنـدق سيبيريا خير منه . وبالمناسبة ـ اضاف يقول ـ انتظر حضورك لتتناول الطعام معنا الساعة الخامسة. أتتكلم الانكليزية ؟

ـ أجل .

ـ حسن جداً يسرني ذلك . تصور أنه يوجد هنا مسافر انكليزي يحمل ترخيصاً من بطرسبرج بزيارة السجون في محطات الاستراحة السيبيريانية ، وسيتناول اليوم الطعام معنا . لا تتخلـــف عن الحضور وسأكون لك من الشاكرين . وفي ذات الوقت سأجيبك عن قضية المرأة التي تنتظر العفو وقضية الرجل المريض ، وسأرى ماسيكون باستطاعتي عمله بالنسبة لها .

- ٥٤ -

وأنهى (نيكليندوف) زيارته للحاكم ، وفور خروجه من مكتبه ذهب تواً الى مكتب البريد اذ كان يشعر بأنه اكثر همة ونشاطاً من اي وقت مضى .

كانت دوائر البريد تحتل قبواً واسعاً رطباً ومظلماً . وكان عـــدد من الموظفين يقفون وراء الحواجز يتحدث بعضهم مع بعض ، في حين كان المكان المعد للمراجعين غاصاً بهم ، وكانوا يتدافقون وراء الحاجز بفارغ الصبر ، وكان على مقربة من الباب موظف عجوز يختم بالخاتم عدداً من المظروفات ثم يلقيها لأحد زملائه .

ولم يطل انتظار الامير ، لان ثيابه الفاخرة ومظهره الأنيق حملا احد الموظفين على ان يدعوه ليتقدم ، فقدم له الأمير بطاقتـه ، فأسرع الموظف بإعطائه رزمة من التحارير موجهة اليه .

كان بينها رسائـــل خاصة ، واخرى تحمل مالاً وبعض الكتب والمنشورات والصحف . فجلس الأمير على مقعد خشبي ليلقي عليهـا نظرة سريعة بجانب جندي يحمل بيده سجلا . وكان بين المظروفات مظروف كبير يحمل ختماً بالشمع الأحمر

نافراً ، ففض الغلاف وقرأ التوقيع فأحس بالدم يتصاعد الى وجهه وتتسارع دقات قلبه . كان التحرير يحمل توقيع (سيلينين) صديقه القديم الذي اصبح الآن مفتشاً في مجلس للشيوخ. وكان ضمن الرسالةوثيقة رسمية ، هي جواب الاسترحام الذي تقدمت به (ماسلوفا) .

ولكن ما عساها تحمل تلك الرسالة؟ أتراها سلبية ام ايجابية بالنسبة لطلب العفو؟ لقد كان (نيكليندوف) يتهلف شوقاً لمعرفة ذلك . ومع هذا فلم يكن يجرؤ على تلاوة الرسالة التي كانت ستضعحداً لشكوكه . وأخيراً تجرأ على تلاوة بعض ما فيها فصعد زفرة ارتياح . لقد قبل استرحام (ماسلوفا) وهذا نص ما كتبه له (سيلينين).

« يا صديقي الحبيب . لقد كان للقائنا الأخير اثر عميق في نفسي . كنت مصيباً فيما قلته عن (ماسلوفا) فقد درست قضيتها بإمعان فخلصت الى القول بأن الحكم عليها كانت نتيجة لخطأ واضح . لا يمكن الغاء الحكم على كل حال ولذا اتجهت الى لجنة الاسترحامات فعلمت ان الطلب قد وصلهم . وأحمد الله لنيلي مبتغاي ، ابعث اليك طية نسخة عن القرار على العنوان الذي اخذته من الكونتيس(كاترين ايفاموفنا) اما القرار الأصيل فقد أرسل الى (ماسلوفا) على عنوانها في المدينة التي صدر فيها الحكم. وأعتقد انهم اعادوه ليسلم الى محميتك. وعلى كل حال فها أنذا أسارع لاطلاعك على هذا النبأ السار . يصافحك بحرارة صديقك (سيلينين) .

وهذا نص القرار الذي تسلمه .

« بلاط صاحب العظمة الامبراطورية ـ لجنة الاسترحامات ـ بناء على أمر من صاحب العظمة الامبراطورية تبلغ (ماسلوفا) ان صاحب العظمة الامبراطورية قد اطلع على استرحامها ، فتفضل بإبدال حكم السجن بالأشغال الشاقة لمدة اربع سنوات التي حكمت بها، بالحكم بالابعاد مدة مماثلة في احدى حكومات الحدود في سيبيريا ».

يا له من نبأ سار مشتهى . انه يحمل اليه كل ما كان يتمناه (لكاترين) ولنفسه . ولكنه سرعان ما خطر له ان التغير الذي طرأ على وضعيتها الآن سيكون ذا تأثير

كبير على علاقاته بهـــا اذ لو ظلت محكومة بالأشغال الشاقة لكان زواجه المفترض منها شكلياً ، الغاية منه الترفيه عن نفسها. اما الآن ، وبعد استبدال الحكم فقد اصبح افتراض زواجهما اكثر جدية اذ ليس ما يمنعها من العيش معاً كما يعيش الأزواج . وهنا عاوده رعبه القديم ، اذ اخذ يتساءل عما اذا كان بوسعه تحمل العيش بجانبها . وكان من الجرأة بحيث اعترف امام نفسه بتخوفه من هذه الحياة .

وفجأة عاودته ذكرى علاقات (كاترين بسيمونسون) . وأخذ يتساءل عن معنى قول هذا له الليلة الماضية : هل سيكون زواجها منه مفيداً لها اذا هي وافقت عليه ونافعاً للأمير .

كان يستعرض كل هذا في مخيلته دون ان يجد جواباً على أي منها، ولذا كان يفرغ الى ملجأه المعتاد : التسويف .

ـ سأبت في هذه القضية فيما بعد . ـ كان يقول في نفسه . ـ أما الآن فأول ما ينبغي عمله هو ابلاغ (كاترين) بالخبر واجراء المقتضى لاخلاء سبيلها .

وكانت النسخة التي بعث بها اليه (سيلينين) كافية ريثما تصل النسخة الأصلية .

وعلى الفور غادر دائرة البريد ليذهب الى السجن .

- ٥٥ -

على الرغم من فرض الحاكم السماح (لنيكليندوف) بزيارة السجن فقد ظل هـذا يأمل بأن يتمكن من زيارته له لأن التجارب قد علمتـــه أن باستطاعته الحصول من صغار الموظفين على ما لا يستطيعه من كبارهم . وهكذا كان يترفع ان يسمح لـــه مدير السجن بمواجهة (كاترين) ليطلعها على النبأ السار ، كما كان يتوقع أن يتمكن من مواجهة (كريلتزوف) لينقل اليه نتيجة مقابلته للحاكم .

كان مدير السجن طويل القامة قوي البنية ، مهيب الطلعـة ، كبير الشاربين . فاستقبل (نيكليندوف) بخشونة . وأعلن له انه لن يسمح له بمواجهة السجينة. ولما قال له انه حتى في المدن الكبرى كان يحصل على اذن في الدخول الى السجن اجابه بجفاء .

– قد يمكن ان يكون ذلك . اما انا فلا استطيعه .

وكانت لهجته تعبر بوضوح عما يلي :

ان الاسياد في العاصمه يتصورون ان بوسعهم ترويعنا وادهاشنا . سنبين لهم اننا هنا في سيبريا نعرف واجبنا واننا نستطيع ان نعلمهم واجبهم .

واطلعه (نيكليندوف) على نسخة القرار باستبدال عقوبة (ماسلوفا) . فلم يفده ذلك شيئا . ولم يكتف المدير برفض طلب المواجهة . وانما انكر معرفته وعلمه بوصول المساجين . وعندما ساله الامير بسذاجة عما اذا كانت تلك النسخة تكفي لاخلاء سبيل (ماسلوفا) ابتسم ابتسامة ازدراء مما جعل الأمير يستحي من سذاجته . ولكنه كان في منتهى اللطف عندما اكد له انه على استعداد لاخلاء سبيلها دون تاخير دقيقة واحدة متى امره بذلك رؤساؤه.

وعندما ادرك (نكليندوف) ان لا فائدة ترجى من ذلك الرجل الضخم استقل عربته وعاد الى الفندق .

وفي الطريق أخبره الحوذي ان القافلة قد وصلت ، وان السبب في رفضهم السماح له بزيارتهم يعود لانتشار مرض التيفوس بين المساجين .

– هذا شيء طبيعي . – قال الحوذي – يوجد في كل غرفة ضعف ما تستطيع استيعابه . فليس غريباً والحالة هذه اذا ما مات عشرون شخصا في كل يوم .

– ٥٦ –

لم يثبط رفض المدير من عزيمة (نيكليندوف) ، وبدلا من ان يذهب الى غرفته ، غير رأيه وعاد الى قصر الحكومة ليستعلم عما اذا كان القرار باستبدال عقوبه (كاترين) قد وصلهم .

ذهب ماشيا على قدميه مرتاح النفس لوقوعه على ما يعينه على تناسي ما كان يقض مضجعه . وعندما علم انه لم يصلهم بعد ، امضى زهاء ساعه وهو يكتب رسائل لخالته و « لسيلينين » ولمحاميه مظهراً استغرابه لذلك التأخر الذي لم يكن غير طبيعي .

وعندما فرغ من كتابة الرسائل رأى انه لم يبق لديه من الوقت سوى ما يكفيه لاستبدال ثيابه لحضور الدعوة لتناول الطعام التي وجهها اليه الحاكم .

وعندما اصبح في الشارع داهمته افكار متعددة وهي كيف ستقابل (كاترين) نبأ استقبال عقوبتها ؟ واين ستسكن ؟ ومـــاذا سيفعل (سيمونسون) ؟ وماهي افكار (كاترين) بالنسبة له ؟ وما هو شعورها نحوه ؟

ثم تذكر (نيكليندوف) التبدل الذي طرأ على (كاترين) وزياراته لهـــا في السجن ، والابتسامة التي شيعته بها من نافذة القطار عبر القضبان الحديدية عنـــد مسيرة القافلة .

ـ انا بحاجة لتناسي كل هذا ، وانتزاعه من نفسي . سأراها قريبا وسينتهي كل شيء . ـ كان يقول في نفسه محاولا نسيان الفتاة .

ثم عاد يفكر في الطريقة التي يجب اتخاذها للحصول على موافقة الحاكم بدخول السجن .

كانت المأدبة التي اقامها الحـــاكم غاية في الترف اذ انفق عليها بسخاء كما هو المعهود في مثل هـذه المناسبات ، وقد كان سرور الامير بها فائق الحد سيما وقد انقضى عليه شهران كاملان ظل خلالهما محروما من كل ترف وحتى من اسباب الراحـــة الضرورية .

وكانت زوجة الحاكم احدى سيدات بطرسبرج ووصيفة شرف في بلاط القصر نقولا الاول . وكانت تجيد الفرنسية ولا تحسن الروسية ، وتجلس منتصبة القوام وتتوخى الا تفارق اكواعها خواصرها . وكانت تحمل لزوجها قليلا من الازدراء ، وتبدو دمثة مع ضيوفها ، وتحاول جهدها اعطاء كل منهم ما يستحقه .

وهكذا استقبلت (نيكليندوف) كاحد افراد طبقتها ، واحاطته من عنايتها بما جعله يشعر باهميته وقيمته ، وان يكون راضيا عن نفسه . واخبرته بطريقة لبقة انه قد بلغها نبأ الشعور السامي ألذي دعاه للذهاب الى سيبيريا ، وانهـــا تحله المحل الاسمى .

وكان لتلك المعاملة الطيبة التي اولته اياها ربة البيت ، وجو المنزل المترف المريح تاثيرهما على نفس (نيكليندوف) بحيث انصرف بكليته للاستمتاع بطعام شهي برفقة اناس دمثي الاخلاق ممتازين ، حتى شعر وكأنه في جو مألوف منه ، كجوه الخاص ، وحتى حسب ان كل ما رآه وسمعه في الايام الاخيرة لم يكن سوى اضغاث احلام .

كان بين من حضر المأدبة عدا عن الحاكم وزوجته وابنته وصهره ـ احد التجار الاثرياء الذي يملك منجما للذهب ، وموظف كبير سابق ، والانجليزي الذي اخبر عنه الحاكم . فوطد الأمير صلاته بهم جميعاً .

كان الضيف الانجليزي احمر الشعر صحيح الجسم لا يجيد التحدث بالفرنسية ولكنه كان محدثا لبقا اذا ما تكلم بلغة بلاده .

كان يعرف كل شيء وشاهد اشياء كثيرة . واستدعى انتباه الامير عندما تحدث عن ذكرياته عن اميركا واليابان والهند وسيبيريا .

كذلك رأى الامير في صاحب المنجم شابا محبوبا جذابا . كان هذا ابنا لأحد القرويين ، وكان يرتدي ثيابا انيقة على احدث طراز ازرارها من الماس . وكانت هوايته اقتناء الكتب ، وكان ينفق قدرا كبيرا من المال على اعمال السير ، ومطلعا على تقدم الاراء التحريرية في اوروبا . ولم يكن سرور الأمير به لعذوبة حديثه فحسب ، وانما لأنه كان يمثل ظاهرة اجتماعية جديدة ، الا وهي التلقيح الناجح بين الثقافة الاوروبية والطبيعة الروسية الصلبة .

وكان الموظف السابق الكبير رجلا طيبا بدينا قليل شعر الرأس اجعده ، ضخم البطن اعمش العينين الزرقاوين ، عذب الابتسامة . كان قليل الكلام على غير اجاده ، ولكن الحاكم كان يجلسه لما ابداه من نزاهة . وكانت « القائدة » اكثر اجلالاً له لانه كان موسيقارا متحمسا ، يجيد العزف على البيانو ويرافقها بعزف بعض القطع بالأيدي الأربع .

وكان الامير تلك الليلة من طيب النفس وحسن المزاج بحيث رأى نفسه سعيدا لتعرفه على ذلك الموظف .

غير ان ما من احد احدث انطباعات في نفس الامير اشهى مما احدثه الزوجان ابنة الحاكم وزوجها .

لم تكن الزوجة جميلة ، غير ان وجهها كان يطفح بسذاجة وعذوبة . ولم تكن تفكر بغير اولادها . وكان زوجها الذي تزوجته على غير رضى من والديها ، مجازا سابقا من جامعة موسكو ، متواضعا ، حييا وذكيا ، يهتم بالاحصاءات يستريح في العمل . ولم يكن ثمة من هو اكثر منه وقوفا على تحركات الاجانب في سيبيريا .

واستقبل الجميع الامير بتحفظ لقلة الوجوه الجديدة التي يصادفونها في بلدتهم . وتحدث اليه الحاكم الذي كان يرتدي بزة رسمية ويضع على صدره صليبا ابيض ، حديث الصديق القديم لصديقه . واخبره الأمير بما فعله ، وعندما ابلغه انه قد تلقي قرار استبدال العقوبة ، ثم طلب منه الأذن بزيارة السجن زوى ما بين عينيه وتظاهر بانه لم يسمع . لقد كره دون شك ان يتحدث عن مهام وظيفته على المائدة .

ـ هل لك بقليل من هذا الخمر ؟ ـ قال يسأل الانجليزي بالفرنسية .

وقص هذا عليهم انه زار الكنيسة ومصنعين ، واضاف انه يرغب في زيارة سجن المبعدين السياسيين الكبير .

ـ حسن . ـ قال الحاكم . ـ حسن جدا . ستذهبان معا . ساوقع اذناً بذلك الان .

ـ الا يسرك ان ترى السجن في الليل ؟ قال « نيكليندوف » يسأل الانجليزي .

ـ بلى . هذا ما كنت على وشك ان اطلب اذنا به . ـ قال الانجليزي للحاكم .

ـ في مثل هذه الساعة يكون سائر المساجين في القاعات وهكذا يكون بالامكان تكوين فكرة صحيحة عن ظروف حياتهم .

ـ آه . آه . يرغب الشاب في ان يرى الاحتفال في أوجه . ـ قال القائد الذي كان قد أحسن اخفاء سكره حتى تلك الساعة .

ـ حسن . ستراه . لقد كتبت مرارا لبطرسبرج اشكو الحالة هنا فلم يعيروني اذنا صاغية . فلعلهم اذا ما رأوا هذه الشكوى منشورة في الصحافة الاجنبية يعيرونها التفاتا .

وتحول مجرى الحديث ، فتحدثوا عن (تونكين) ، وعما تقول صحف سيبيريا . وذكر الحاكم بعض الامثلة عن نساء الموظفين في سيبيريا .

وفتر الحديث قليلا عند قرب الفراغ من تناول الطعام أو هكذا توهم (نيكليندوف) على الاقل . ولكن ربة البيت عنّ لها بعد المائدة ان تسأل الضيف عن (غلادستون) فلاحظ (نيكليندوف) ان اجوبته كانت صائبة وفي محلها . وشعر الامير بارتياح واطمئنان ورضى عن نفسه وعن الاخرين بعد تلك الجلسة المريحة والطعام والشراب الشهيين برفقة تلك الفئة المهذبة . وعندما جلست ربة البيت الى البيانو فوقعت بناء على رغبة الضيف الانجليزي (صونات دومينور) (لبيتهوفن) احس الامير براحة نفسية فائقة . وكان كمن يستعيد شجاعته .

كان البيانو رائعا . وكان لا مندوحة (لنيكليندوف) ، الذي يعرف المقطوعة عن ظهر قلب ، من الاعتراف بانه قلما سمع هذه المقطوعة توقع ببراعة استاذية كهذه المرة . وكاد عندما سمعها لا يقوى على حبس دموعه ، واعتراه الغم (لكاترين) ولنفسه ولاخته (نتاليا) التي طالما برهنت عن حبها الصادق له .

وبعد ان شكر الامير ربة البيت على النشوة الفنية التي وفرتها له ، استوى واقفا ليودع ويعود الى الفندق ، واذ بابنة الحاكم تتقدم منه على استيحاء التقول له .

ـ لقد تلطفت وسألت عن اولادي فهل تحب ان تراهم ؟

ـ هذه تتصور ان في معرفة ابنائها سعادة كبرى ـ قالت الام وهي تبتسم اعتذاراً لابنتها ـ ليس لدي الامير أي رغبة في رؤية ابنائك .

ـ على العكس يا سيدتي ، على العكس . ثقي انه لمن دواعي سروري الصادق ان أراهم . ـ قال (نيكليندوف) وقد أثر في نفسه ذالك الفيض من الحب الامومي .

ـ هي تحمل الامير على أن يرى ابناءها . ـ قال القائد الذي كان يلعب الورق مع صهره وصاحب المنجم ، في أحد اركان القاعة . ـ ها قد وجدت يا صديقي عملا تعمله .

كانت الأبنة تسير امام الامير بعد ان خرجت من القاعة وهي شديدة التأثر لأن غريباً سيبدي رأيه بصغارها . وفي غرفة واسعة مبطنة باللون الابيض ، ومضاءة بمصباح فرقه مظلة داكنة تحد من نوره ، كان يوجد سريران متجاوران تجلس امامهما خادمة حسنة المظهر وترتدي ياقة بيضاء كبيرة تمتد حتى منتصف ظهرها . فهبت من مقعدها لتحيي السيدة . فانحنت هذه على احد السريرين فور وصولها .

ـ هذه (كاترينتي) . ـ قالت ذلك وأزاحت الستار ليبدو وجه الصغيرة الرائع التي كانت في عامها الثاني والتي ترقد باطمئنان وفمها نصف مفتوح. ـ أليست جميلة ؟ ليس لها من العمر سوى عامين .

ـ انها رائعة .

ـ وهذا (فاسكا) كما يدعوه جده . انه لا يشبه اخته . انه سيبيرياني حقيقي ، أليس كذلك ؟

ـ انه لطفل جميل . ـ اجاب الامير ، وهو يحدق بالطفل الذي كان بديناً احمر اللون .

كانت الام تبتسم بعذوبة وهي واقفة بجانبه .

وهنا عادت الذاكرة بالأمير الى القيود في الارجل ، والرؤوس المحلوقة ، واللكمات تنصب على الأوجه والعيون ، و (كريلتزوف) الذي تركه يحتضر ، و (كاترين) فانغم لذلك غماً شديداً وأسف على ألا يكون في مقدوره بلوغ هناءة هادئة بريئة كالتي يشهدها الآن .

وعاد الامير الى القاعة حيث كان الضيف الانجليزي بانتظاره ليذهبا معاً الى السجن

بعد ان اطرى جمال الاطفال لأمهم، ثم ودعا معاً أهل البيت بعد أن تبادلوا العبارات المألوفة في مثل هذه المناسبات وخرجا يبغيان زيارة السجن .

كانت الاحوال الجوية قد تغيرت، اذ اصبح الثلج يتساقط كثيفاً حتى غطى أرض الدار ودرجات السلم ، واسطح العربات وظهور الخيـــل . فصعد (نيكلیندوف) ورفيقه الى العربة التي أقلتها الى السجن .

- ٥٧ -

كان السجن رهيباً بصابيحه الحمر وخفرائه ، على الرغم مما كانت نوافذه تزدان به من أكاليل الثلج ، والبساط الابيض الجميل الذي يفترش فناء الدار .

واستقبل المدير ، الذى كان مهيبا ، زائريه على عتبة الباب، وقرأ بامعان ، وعلى ضوء المصباح ، الأذن الذي جاء به (نيكليندوف) ، واكتفى بأن هز كتفيه اعلانا لنزوله عند رغبة رئيسه وآمره ، ودعى الزائرين لمرافقتــه الى مكتبه حيث سألها عما يريدان رؤيته . فقال له الامير انه يريد قبل كل شيء ان يتحدث الى (ماسلوفا) ، وان رفيقه يريد من جهته ان يسأله عن النظــام الداخلي للسجن كي يكون في مقدوره ان يزور ملحقاته المتعددة بنجاح .

فأمر المدير أحد السجان ان يحضر (ماسلوفا) الى المكتب .

ـ كم يستوعب هذا السجن من المساجين ؟

سأله الانكليزي بواسطة (نيكليندوف) ـ وكم يوجد فيه الان ؟ كم رجلا ، وكم امرأة ، وكم يوجد فيه من المحكومين بالاشغال الشاقة ، ومن المنفيين ؟ وكم مرافقا متطوعا ؟ وكم مريضا ؟

كان (نيكليندوف) ينقل الى المدير اسئلة السائح الانكليزي ، وينقل عنـــه الاجوبة . ولكنه لو سئل عنها لعجز عن الجواب لتوقعه محادثة قريبة مع (كاترين) وكان هذا يُعكر صفاء تفكيره .

وعندما سمع وقع اقدام في المشى اعقبه صوت باب يفتح ويدخل السجــان منه

تتبعه (كاترين) مرتدية ثيابا بيضاء ، وعلى رأسها قبعــة الفراء ، وقف في منتصف جملة كان يترجمها و كأن الدم قد جمد في عروقه .

ـ أريد ان احيا . اريد ان تكون لي عائلة ، وان انجب اولاداً ، واريد أن آخذ قسطي من السعادة . ـ هكذا كان يهتف به صوت داخلي لم يسمعــه منذ زمن طويل .

وبادر في الحال مندفعا نحو (كاترين) . كانت محتقنة الوجه متحمسة و كانت تحدق فيه بنظرات اغاظته ، دون ان تفوه بكلمة واحدة . لم يكن قد رأى منها مثل تلك النظرات التي كانت مزيجا من تصميم فاتر وشهوة عارمة . كان وجهها يحمر تارة ويصفر أخرى . و كانت اناملها تعبث بطرف ثوبها طياوليا ، وتنظر في وجهه حينا ، وتطرق بنظرها الى الارض على استحياء حينا آخر .

ـ هل تدرين أي خبر جئت احمله اليك ؟ سألها (نيكليندوف) .

ـ اجل لقد اخبروني . ولكنني الان مصممة على الزواج من (فلاديمير ايفان).

كانت تتكلم بسرعة وبدون توقف ، مما يدل على انهـــا كانت قد اعدت ما تقوله مسبقا .

ـ كيف ؟ مع (فلاديمير ايفان) ـ قال يسألها .

فقاطعته قائلة :

ـ اجل ، وهل في الامر غرابة ؟ هكذا هو يريد ويرغب في أن نعيش معا . .

وامسكت كالمذعورة ثم اضافت :

ـ يرغب في ان نعيش معا . وماذا اطلب اكثر من ذلك ؟ فقد يصبح سعيداً ، وقد استطيع التوصل لان اكون مفيدة . . وماذا استطيع ؟ .

لقد كانت على أحد حالتين : فاما انها كانت مغرمة (بسيمونسون) ، ولذا اصبحت لا تحتاج لتضحيات (نيكليندوف) . وأما كان الامر بالعكس فهي تحب هذا وترغب في تجنيبه اثقالها وتريد الزواج من الثوري .

وادرك (نيكليندوف) هذا فاستحي واحمر وجهه خجلا .

ـ اذا كنت تحبينه .. قال لها .

ـ ماذا تريد ؟ لم اعرف قط رجلا في مثل اوضاعه . ولماذا لا احبه؟ هذا عدا عن انه يختلف كل الاختلاف عن غيره .

ـ بلا ريب . ـ قال (نيكليندوف) بصوت مرتعش ـ هو رجل رائع واظن ان ...

ولكن (كاترين) قاطعته كأنها كانت تخشى ان يقول ما تنوي ان تقوله .وقد تكون راغبة في ان تقول هي كل شيء .

ـ كلا . كلا . نحن نطلب منك الصفح اذا لم نستطع النزول عند رغبتك ، فسموك احوج للحياة .

ها هي (كاترين) تعيد الان على مسامعه ما قاله لنفسه في غرفة الاطفال في منزل الحاكم ، وما ردده على نفسه منذ قليل .

ولكنه كان قد اصبح لا يفكر في هذا . ولم يبق في نفسه أي شيء حول هذا الموضوع . لقد اصبح يفكر باشياء اخرى ، ويشعر شعوراً مختلفا . لقد أخذه الخوف والخجل والغم الشديد .

ـ إذن لقد انتهى كل شيء بيننا ؟ قال يسألها .

ـ بلى ، يجب ان اقول نعم . ـ اجابته وهي تبتسم ابتسامة غريبة .

ـ سأكون سعيداً اذا كان بوسعي اسداء خدمة لك ..

ـ لا نحتاج لشيء . وحدقت في وجهه عندما لفظت كلمة لا نحتاج . فأنا مدينة لك باشياء كثيرة . فلولا سموك ..

وتعذر عليها انهاء الجملة اذ انحبس صوتها في صدرها فأطرقت بنظرها الى الارض وصمتت .

ـ لست ادري من منا اكثر دينا للاخر . الله وحده يرى ويحكم . اجاب الامير .

- بلى ، بلى . هو هذا . الله يرانا . قالت (كاترين) .

- هل انتهيت ؟ سأله الانجليزي .

- على وشك . اجاب (نيكليندوف)

ثم سأل (كاترين) عن حال (كريلتزوف) وقد اخفى ما ساوره من الغم .

كان قد اعتراها الوجوم ، فاجابته بلهجة هادئة بما تعلمه عن حالته وهو انـه تألم كثيراً اثناء الطريق ، وانه ما زال منذ وصوله في المستشفى ، وان(ماري باولوفنا) طلبت السماح لها برافقته للعناية به ولكن طلبها قد رفض .

- ينبغي ان اعود الى هنـاك ـ اضافت تقول اذ رأت ان الانجليزي قد أخذه الضجر .

- لن اودعك الان ، فسأراك فيما بعد . قال (نيكليندوف) ماداً لها يده .

- كلا ، وداعا ، وداعا . قالت (كاترين) باصرار .

وعندئذ تلاقت نظراتها . وفي نظرة عينيها الحولاوين وابتسامتهـــا الحزينة ، والطريقة التي لفظت بها كلمة وداعا ، تبين الامير ان ثاني التفسيرين المحتملين لسلوكها كان التفسير الحقيقي والوحيد . لقد ادرك انها كانت تحبه بكل مـا في نفسها من قوة كما احبته ليلة قبلته في فمه عند خروجها من الكنيسة . وادرك انها كانت ترى في موافقتها على الزواج منه ما يثقل كاهله باعباء قد تهدم حياته ، بينما ترى في زواجها من (سيمونسون) انقاذاً له من هذه الاعباء .

فصافحت اليد التي مدها (نيكليندوف) لها ، ورجعت على عقبها مسرعة .

كان الانجليزي يرغب في الاسراع بزيارة القاعة ، غير انه عندما لاحظ الانفعال البادي على الامير الذي ترتعش يداه ، بسببه مسك قليلا وتظاهر بالرغبـة في تسجيل بعض مذكراته . فجلس الامير على أحد المقاعد وقلبه مفعم باليأس والخجل . ولبث ساكنا برهة من الزمن لا يبدي حراكا ، ولا يقوى على التفكير .

- والان ايها السادة ، متى تزور قاعات السجن ؟ قال المدير يسأل .

فهب الامير من مقعده واقفا وهو ما زال يضطرب ، واغلق الانجليزي سجل ذكرياته استعداداً للذهاب .

٥٨

اجتاز السائح الانجليزي والامير يرافقهما المدير ، ممشى مظلما كريه الرائحة مليئا بالاقذار . ودخلوا القاعة الاولى المخصصة للمحكومين بالاشغال الشاقة . كان ثمة حوالي سبعين رجلا . وكان اكثرهم نياما . كانت الاسرة المتلاحقة الموجودة في وسط القاعة ترغم المساجين على ان يظل احدهم لاصقا بالآخر .

واستيقظ الجميع عند دخول الزوار عليهم ، وجلسوا في فراشهم مثيرين جلبة من صليل الحديد ، فاستغرب الامير لمعان رؤسهم التي حلقت حديثا . ولكن اثنين منهم ظلا مضطجعين في الفراش وكان احداهما في ريعان شابه محتقن الوجه لارتفاع حرارته ، والثاني كان اكبر سنا ولا يكف عن التوجع . فسال الانجليزي متى اصيبا بالمرض فقيل له ان احدهما هد اشتكى منذ الصباح فقط ، اما الثاني فقد كان يشكو من الم في معدته ، وانهم ينتظرون ان يخلو مكان لهما في المستشفى لينقلا اليه .

فطلب الانجليزي الى الامير ان ينقل الى المساجين ما سيوجهه اليهم من الكلام وقال : انه في الوقت الذي يطوف فيه ارجاء سيبيريا لدراسة نظام المنفى فقد اخذ على عاتقه مهمة نشر تعاليم الانجيل الصالحة بين المبعدين .

ـ اريد ان اقول لهم ان المسيح مات ليخلصهم . وانهم سينجون اذا ما امنوا به . هذا ما يؤكده هذا الكتاب .

وبعد ان نقل لهم الامير هذه الكلمات اخرج الانجليزي من حقيبته ملفا من كتاب « العهد الجديد » مجلدا بورق مقوى مختلف الالوان . فتزاحمت عليه ايد كبيرة ذات اظافر سوداء ، وتلقفته متدافعة . ثم انتقل الى القاعة المجاورة .

وفي هذه تكرر المشهد وتمثلت الرواية . فقلة الهواء هي ذاتها ، ووفرة الروائح الكريهة هي نفسها . وكما كانت تعلق ايقونة على حائط القاعة الاولى ،

كذلك تعلق ايقونة اخرى في هذه بين النافذتين ، وفي مقابل المزراب .

وفي هذه هب المساجين من نومهم عند دخول الزوار ، كانوا في حدود الستين سجينا ، تخلف ثلاثة منهم عن الجلوس . احدهم لم يأبه بكثير او قليل للزائرين ، والاخران حاولا الجلوس فلم يفلحا فطلب الانجليزي الى الامير ان يعيد عليهم خطابه الاول ثم عاد فوزع عليهم نسخا من الانجيل .

وفي القاعة التي تليها كان ثلاثة مرضى . فسأل الانجليزي المدير لماذا لا يجمع المرضى في مكان واحد . فاجابه المدير بانهم لا يرضون ، وان مرضهم غير معد ، وان الممرض يزورهم ويعتني بهم عناية تامة .

ـ اجل . هذا صحيح . اننا لم نر له وجها منذ خمسة عشر يوما . ـ قال احدهم .

وانتقل المدير الى القسم الثاني دون ان يعير هذا القول اي اهتماما . وتكررت فيه ، كما في غيره نفس المشاهد والمناظر ، سواء في ذلك القسم المخصص للمبعدين السياسيين ، والقسم المختص بالمساجين العاديين . لقد شاهد الامير ورفيقه في كل مكان مرا به الجياع ، والمرضى ، والاذلاء ، واللا عمل لهم الذين هم اشبه بالحيوانات المفترسة منهم بالمخلوقات البشرية .

وبعد حوالي نصف ساعة كان السائح الانجليزي قد استنفد كافة ما يحمله من الاناجيل وكف عن تكليف الامير بترجمة خطابه ، وذلك يعود دون شك لما راه من الفظائع وخصوصا الروائح الكريهة التي كان يصطدم بها في كل مكان والتي كان لها التاثير الكبير على نفسه . واصبح يكتفي بالاجابة على ملاحظات المدير في كل قسم يزوره بقوله : (اول رايت) .

كان (نكليندوف) يحسب نفسه في حلم . فقد كان لا يرى شيئا ، وليس له القوة الكافية على البقاء او الذهاب وكان يزداد من حين لآخر احساسا بيأسة وخجله .

•

• •

في اخر قسم زاره الامير ورفيقه السائح الانجليزي صادفته مصادفة اعادته الى واقعه . اذ ابصر بين المبعدين السياسيين العجوز الغريب الذي رافقه في القارب عند الصباح كان هذا العجوز ، وهو يرتدي قميصا ممزقا ، وسروالا مرقعا ، ويمشي حـافي القدمين ، جالسا على الارض في احدى الزوايا يراقب الزائرين بنظرات متجهمة . كان وجهه المتغضن يبدو اكثر تقلصا وحيوية منه عندما كان في القارب وعندما دخل المدير ورفاقه عليهم هب الجميع وقوفا الا هو فقد ظل قاعداً ولم يتحرك . كانت عيناه تتقدان وقد زوى ما بينهما .

ـ هيه . قف يا هذا ـ قال له المدير .

ولكن العجوز هز كتفيه وابتسم ابتسامة ازدراء .

ـ يقف امامك خدمك ، اما انا فلست بخادم لك . سيماؤك في وجهك يا هذا .. اجاب العجوز حانقا .

ـ من هذا ؟ قال المدير يسأل بلهجة الوعيد .

ـ انا اعرف هذا الرجل . قال الامير متدخلا . انه شخص غريب الاطوار . ولكن كيف وصل الى هذا السجن ؟

ـ لقد بعثت الشرطة به الينا على اعتباره متشرداً . وعبثا توسلنا اليهم ألا يبعثوا لنا بالمزيد من هذه الاشكال ولكنهم دائما يعيروننا أذانا صماء . اجاب المدير .

ـ ارى انك انت أيضا احد جنود المسيح الدجال . قال العجوز موجها الكلام (لنيكليندوف) .

ـ كلا . انا احد الزوار .

ـ آه . آه . هل جئت لترى كيف يعذب المسيح الدجال الناس ؟ حسن اذن . تامل . لقد قبض عليهم بكمية كبيرة ووضعهم في السجن ليكون منهم جيشا . ان

واجب بني الانسان ان يكسبوا خبزهم بعرق الجبين . والمسيح الدجال يحتفظ بهم في حالة بطالة دائمة كالخنازير ليحلو لهم كذلك .

ـ ماذا يقول ؟ قال الانجليزي .

فاجابه (نيكليندوف) بان الشيخ يتهم المدير وغيره من الموظفين بسجن الكثير من الناس ضد كل عدالة .

ـ سله ماذا يفعل هو بمن لا يراعي جانب القوانين ؟ قال الانجليزي باسما .

فنقل الامير له السؤال . فاغرب العجوز ضاحكا فبدت اسنانه المسوسة المكسرة .

ـ القانون . قال بازدراء ـ آه اجل . باستطاعتك ان تحدثني عن القانون . لقد بدأوا اولا بالاستيلاء على الارض وجردوا الناس من كل ثروة ، وازحوا من طريقهم كل مقاوم لهم ، وعندئذ جاؤا فوضعوا القانون ليحرموا السرقة وقتل النفس ، كن واثقا من انهم ما كانوا ليضعوا قانونهم هذا قبل ذلك .

فعاد الانجليزي الى الابتسام عندما نقل له الامير هذا الجواب .

ـ سله ما يجب فعله حاليا باللصوص والقتلة .

فاجاب العجوز :

ـ قل له انه ينبغي البدء بمحو عار المسيح الدجال فاذا فعلت ذلك قلما يكون لديك الكثير من الاعمال ، وعندئذ لا تستطيع الاهتمام لا باللصوص ولا بالقتلة . اذهب وأعد عليه بلغته هذا الجواب .

ـ انه لمبهج . قال الانجليزي عندما سمع الجواب .

وعاد يبتسم وهو خارج من القاعة .

وكان الامير قد تخلف قليلا فقال له العجوز .

اهتم لأمورك وقضاياك وخل عنك أمور الغير . فالله وحده الذي يعلم كيف يثبت وكيف يعاقب . اما نحن فلا علم لنا بشيء .

واضاف يقول بعدئذ وكأنه ندم على محاولته هداية (نيكليندوف) :

ـ ولكن ، لا . ليس لدي بعد ما اضيفه . اذهب ، ماضياً في سبيلك . لقد رأيت الأن كيف يقدم عبيد المسيح الدجال مخلوقات بشرية لتكون طعمة للقمل . وروح عن نفسك في مكان آخر .

- ٥٩ -

لم يكد (نيكليندوف) يبلغ غرفته في الفندق حتى طفق يروح ويغدو ذهاباً وإياباً . لقد ادرك ان صلاته (بكاترين) قد انتهت ، انتهت والى الابد . والى الابد أصبح غير مفيد (لكاترين) . وهذا ما كان يبعث في نفسه الغم والحجب ، ولكنه ادرك ايضاً ان هذه الفكرة يجب الا تحتل أي قسط من اهتمامه بعد الان . وان عليه ان يصرف عنايته لامر آخر ، لم يكن قد أتمه فحسب ، وانما كان يفرض نفسه عليه .

كان يشعر بأنه امام شر رهيب ، وان من واجبه القضاء عليه ، ولكنه لم يكن يدري كيف . ذلك الشر هو الذي اضاعه من قبل ، وأضاع (كاترين) ، وهو الذي منذ قليل ، اضاع ذلك الجدير بالتقدير والاعجاب ، (كريلتزوف) الذي اصبح الان يرقد مع الكثير من المجهولين تحت طي الثرى .

كان قد رأى تلك المئات من الاحياء البشرية التي زج بها في غياهب السجون وجوها الخانق حكام قساة القلوب ، ونواب عامون ، ومدراء سجون . ورأى النظرات المحمومة التي كان ذلك العجوز يتحدى بها « عبيد المسيح الدجال» . وكانت ذاكرته تعيد اليه منظر وجه (كريلتزوف) الشمعي في غرفة الاموات . كل ذلك وكل ما يحيط به من مظاهر الحياة كان يقع عليه كالكابوس . وكان يتساءل باستمرار من هو المجنون يا ترى ، أكان هو (نيكليندوف) ، أم اولئك الذين يدعون التعقل ثم يسمحون بارتكاب تلك الامور الوضيعة .

واستلقى على فراشه بعد أن ظل رائحاً غادياً مدة طويلة ، وبصورة آلية تناول الاناجيل التي كان قد اخذها من السائح الانجليزي ، والتي كان قد وضعها على الطاولة عند حضوره .

ـ هناك من يقول ان في هذا الكتاب جواباً لكل شيء • كان يفكر في نفسه وهو يفتح الكتاب دون أن ينظر في صفحاته •

وشرع يقرأ • كان ذلك في الاصحاح الثامن عشر من انجيل متى •

وحدث له ما يحدث للذين ألفوا الحياة الروحية .. اذ تكشفت له الفكرة التي طالما ظنها غريبة خادعة ، عن حقيقة واضحة جلية . وهكذا ادرك بجلاء ووضوح ان خير علاج لما تلاقيه الأنسانية من ويلات وشرور يكمن في اعتراف ابنائها المدنيين امام الله بأن لا حق لهم في محاسبة غيرهم ومعاقبته ، وتبين له أن المآسي التي شهدها في السجون وعلى طريق القافلة ، وان الاطمئنان الذي يبدو على مسببيها ، كان نتيجة لأمر بسيط جداً ، هو انهم حاولوا المستحيل بمحاولتهم اصلاح غيرهم ، وهم اشرار يحتاجون الاصلاح . اشرار يصلحون اشراراً ، ولأنهم كذلك فان اقصى ما يستطيعونه هو نشر الرذيلة لا قمعها . فالسيء ينشر سوءه فيما حوله . والجواب الذي طالما بحث عنه (نيكليندوف) فلم يجده ، كان نفس الجواب الذي اجاب به يسوع المسيح بطرس الرسول ، وهو انه ينبغي ان يغفر المرء دائماً ليس الى سبع مرات بل الى سبعين مرة سبع مرات .

ـ كلا . ليس بالامكان التسليم بأن الأمور على مثل هذه البساطة . ـ كان يقول في نفسه .

ومع ذلك فقد كان يعلم ان الجواب الوحيد ليس من الوجهة النظرية فحسب ، وانما من الوجهة العملية والقريبة النتائج . واذا كان قد بدا له التصديق به عبر آراءه غريباً فلأنه كان قد الف افكار أخرى مغايرة ، الا انه كان يحس ويشعر انه الحق الذى لا شك فيه .

والسؤال العادي الذي كان يحاول الاجابة عليه ، وهو : مـا الذي ينبغي عمله باللصوص والقتلة . لم يكن وجيهاً في نظره ، ما دام لا فائدة من العقوبة في إزالة الجريمة من الدنيا او على الأقل تقليلها . ولو كان الأمر بالعكس اذن لكان له بعض الوجاهة . وقد دلت التجارب على عكس ذلك · فهـا هي ذي اجيال وأجيال قد

انقضت ، والبشرية تلاحق الجريمة والمجرمين . فهل أزيلت من الوجود ؟ ام خففوا منها على الأقل ؟ انهم نشروها بدلاً من محوها او تقليلها، اذ افسدوا المساجين بما أنزلوه بهم من قصاص . فأضافوا الى جرائم اولئك المجرمين الذين يسمون قضاة ، ونواباً عامين ، وقضاة تحقيق ، وجلادين وشرطة ، ومدراء سجون .

واتضح له ان الأمر لا بد ان يكون هكذا . كما تبين له انه اذا كان المجتمع الانساني والنظام الاجتماعي ما زالا قائمين فليس الفضل في ذلك لما يبديه القضاة والحكام من قسوة ، وانما على الرغم منهم ، لوجود من يحب القريب بجانبهم .

لقد تحدث الانجيل آخر الأمر الى قلب الأمير ، ووضح له كما وضح لقارئيه . فاندفع يقرأ ويقرأ . فقرأ (اصحاح الجبل) الذي طالما غمر قلبه بالرأفة . غير انه في هذه المرة ادرك ان تلك الكلمات لم تكن فحسب افكاراً نبيلة وتصورات مثيرة ، تصلح مثلاً أخلاقياً أعلى يكاد يكون غير قابل التحقيق ، لقد أدرك ان (اصحاح الجبل) يحوي تعاليم واضحة ، صحيحة ، بسيطة ، وعملية ، وسهلة التطبيق ، وقد ينبثق عنها ما يصلح لتكوين مجتمع انساني تام الجدة يقضى فيه على العنف والظلم ، وتقام ملكوت السموات على الأرض .

كانت تلك التعاليم خمسة :

أولها كان لا يكتفي بتحريم قتل الانسان لأخيه الانسان ، وانما كان يقول بأنه لا ينبغي له ان يغضب منه او يحتقره او يتهمه . واذا ضرب أحداً بعصى ، فينبغي عليه ان يصالحه قبل ان يقدم قرباناً لله .. اي قبل التحاقه بالله عن طريق الصلوات العقلية .

وكان الثاني ينهي الانسان عن الانقياد لشهواتـــه ، وان لا يدنس جمال المرأة باتخاذها أداة لشهواته ، ويأمره بأن يعتبر نفسه بعد الزواج . مرتبطاً بزوجته برباط لا انقسام له الى الأبد .

والثالث ينهاه عن ان يقسم على الوفاء بوعد قطعه على نفسه ما دام غير مالك لأمر نفسه او أمر غيره .

والرابع يأمر الانسان بألا يكتفي بعدم تطاب العين بالعين ، وانما ان يحول خده الأيسر لمن يضربه على خده الأيمن ، وان يعفو عن الاهانة وان يتحملها برضوخ وألا يرفض شيئاً مما يطلب اليه .

والخامس يأمر الانسان بألا يكتفي بعدم بغض أعدائه ، والعمل ضدهم ، وانما يوصي بمحبتهم واسعافهم وخدمتهم .

واستلقى (نيكليندوف) على الديوان وأطلق العنان لتأملاته . كان يقول في نفسه ، وقد تذكر مظاهر البؤس في الحياة الانسانية والتشويه الذي أصيبت به ، ترى ما عساها تكون الحياة لو وافق الناس جميعاً على تطبيق الانجيل التي قرأها منذ قليل . فزايلته قسوته وغمرته موجة من الحماس وأحس وكأنه قد أبصر النور العذب السعيد المطمئن بعد حياة آلام قضاها في دياجير الظلمات .

لم تغمض له عين تلك الليلة ، ولبث يقرأ بنهم الأناجيل الأربعة تاركاً نفسه تنساق مع السرور الذي أوجده في نفسه ذلك الاكتشاف. وكما يحدث لأولئك الذين يدركون مغزى الكتاب المقدس متأخرين ؛ فقد أدهشه ، وهو يقرأ ، ادراكه الواضح للكثير من الكلمات التي طالما قرأها ، ولكن دون ان يعيرها اى أهمية . وكما تمتص الاسفنجة كل الماء الذي تقوى على استيعابه ، كذلك كان يتقبل كافة ما يراه طيباً ونبيلا ، ومفرحاً في ذلك الكتاب . وكان يبدو له ان كل ما يقرأه كان مألوفاً منه لأنه كان يؤكد ويوضح له أشياء كان يحس بها منذ زمن طويل ، ولكنه لم يكن يقطع بصحتها . أما الآن فهو يراها حقيقية ويؤمن بها .

لقد أصبح يؤمن بأن الانسانية اذا ما انبعث تعاليم الانجيل فستبلغ ما تنشده من سعادة . بل أكثر من ذلك لقد اصبح يؤمن واثقاً من انه خير للانسان ان يحيا حياة الجمود من ان يترك بتعاليم الانجيل . كما كان يؤمن واثقاً أيضاً من ان هذه التعاليم هي المبرر الوحيد للكينونة الانسانية،وان ترك العمل بها او تناسيها يسوق المرء للقصاص.

تلك هي النتيجة التي خرج بها (نيكليندوف) من ذلك الكتاب ، ولكنها كانت تبدو له أكثر وضوحاً وأشد قوة في مثل غارسي الكرمة الذين ظنوا ان الأرض التي

سلمت ليغرسوها انما هي ملك لهم وليست لمالكها، وان ما تنتجه الكرمة من محصول هولهم ، وان واجبهم الوحيد هو استغلال الأرض لمصلحتهم ، ونسوا المالك ، وقتلوا كل من يذكرهم بالتزاماتهم تجاهه .

ـ هذا ما نفعله كلنا . ـ قال (نيكليندوف) في نفسه ـ نحن نحيا على اعتقاد بأن حياتنا ملك انا ، وانها أعطيت لنا كهبة ، وهذا منتهى الغباء ، ان الانسان لم يأت الى هذه الدنيا بمجرد رغبته ، انه لا بد ان يكون قد جيء به لسبب ما، ولكننا اسرفنا في تناسي تلك الحقيقة ، وحسبنا اننا نحيا لمجرد أهوائنا ، ثم نعجب بعد ذلك لماذا نتألم ونشقى كأن ذلك لم يكن النتيجة الطبيعية لوضعنا كعمال تجاهلوا رغبة رب العمل ، وهنا في هذا الكتاب تبدو واضحة رغبة مالكنا .

« ابتغوا ملكوت الله ، وما تبقى ستحصلون عليه بلا جهد ، ونحن بدلا من ان نبتغي ملكوت الله نفتش عما تبقى ثم نعجب اذا ما أخطأناه .

« بلى ، هكذا كانت حياتي كلها ، ولكن الآن تبدأ حياة اخرى جديدة .

وفي الواقع فان حياة اخرى جديدة قد بدأت تلك الليلة بالنسبة للامير (ديمتري ايفان نيكليندوف) ، جديدة ليس لأنه اقلع عن ان يختص نفسه بتفكيره، مكرساً جهوده لخدمة الغير فحسب ، وانما هي جديدة بصورة خاصة لأن كل ما مر به منذ تلك الليلة ، ومـا قام به من أعمال كان له في نظره مغزي مغايراً لما كان له حتى تلك الساعة .

كيف انتهت تلك المرحلة الجديدة من حياته ؟

المستقبل كفيل بإطلاعنا عليه .


علي مولا
رواية البعث
C1 رواية
S.P375
عالم المعرفة
1 0 2 5 2 8


دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع